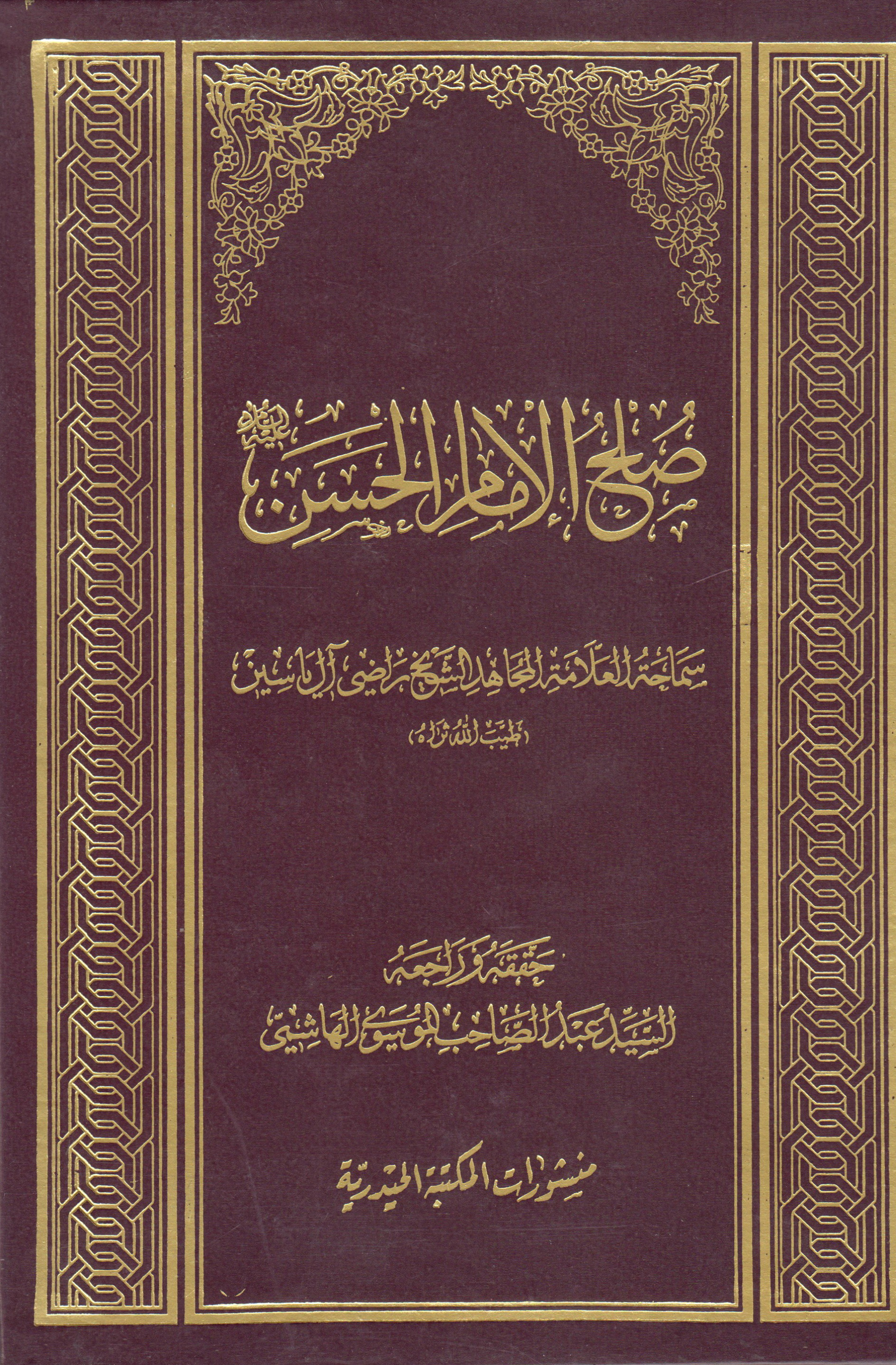


صلح الإمام الحسن عليه السلام
سماحة العلامة المجاهد الشيخ راضي آل ياسين
(طيب الله ثراه)
حققه وراجعه
السيد عبد الصاحب الموسوي الهاشمي
منشورات المكتبة الحيدرية



سَمَاحَةُ العَلاَّمَةِ المُجَاهِدِ الشَّيْخ رَاضِي آل يَاسِين

طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُ



حقَّقه وراجعه

السيِّد عبدُ الصَّاحب الموسويّ الهاشميّ

سرشناسه: آل یاسین، راضی، ۱۸۹۶ ـ ۱۹۵۳ .

عنوان و نام پدیدآور: صلح الامام الحسن علیه السلام / المولف راضی آل یاسین؛ حققه وراجعه السید عبدالصاحب الموسوی الهاشمی

مشخصات نشر: قم: المکتبة الحیدریة، ۱٤۳۵ ق. = ۱۳۹۳

مشخصات ظاهری: ۵۵۷ ص. : مصور

شابك ۲ - ۲٦۵ - ۵۰۳ - ۹٦٤ - ۹۷۸

وضعیت فهرست نویسی: فیپا

یادداشت: کتابنامه ص. (۵۲۹) ـ ۵۵۲؛ همچنین به صورت زیرنویس

موضوع: حسن بن علی (ع)، امام دوم، ۳ ـ ۵۰ . ـ صلح با معاویه

موضوع: معاویه بن ابی سفیان، خلیفه اموی، ۲۰ قبل از هجرت ـ ٦۰ ق.

شناسه افزوده: موسوی هاشمی، سید عبدالصاحب ، مصحح

رده بندی کنگره: ۱۳۹۳ ۸ ص ۷آ/ ٤۰ DS

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۲

شماره کتابشناسی ملی: ۳٦٤۲٦۲۸

هوية الكتاب:

الكتاب: صلح الامام الحسن عليه السلام

المؤلف: العلامة المجاهد الشيخ راضي آل ياسين

الناشر: انتشارات المكتبة الحيدرية

عدد الصفحات: ٥٥٧ صفحه وزيري

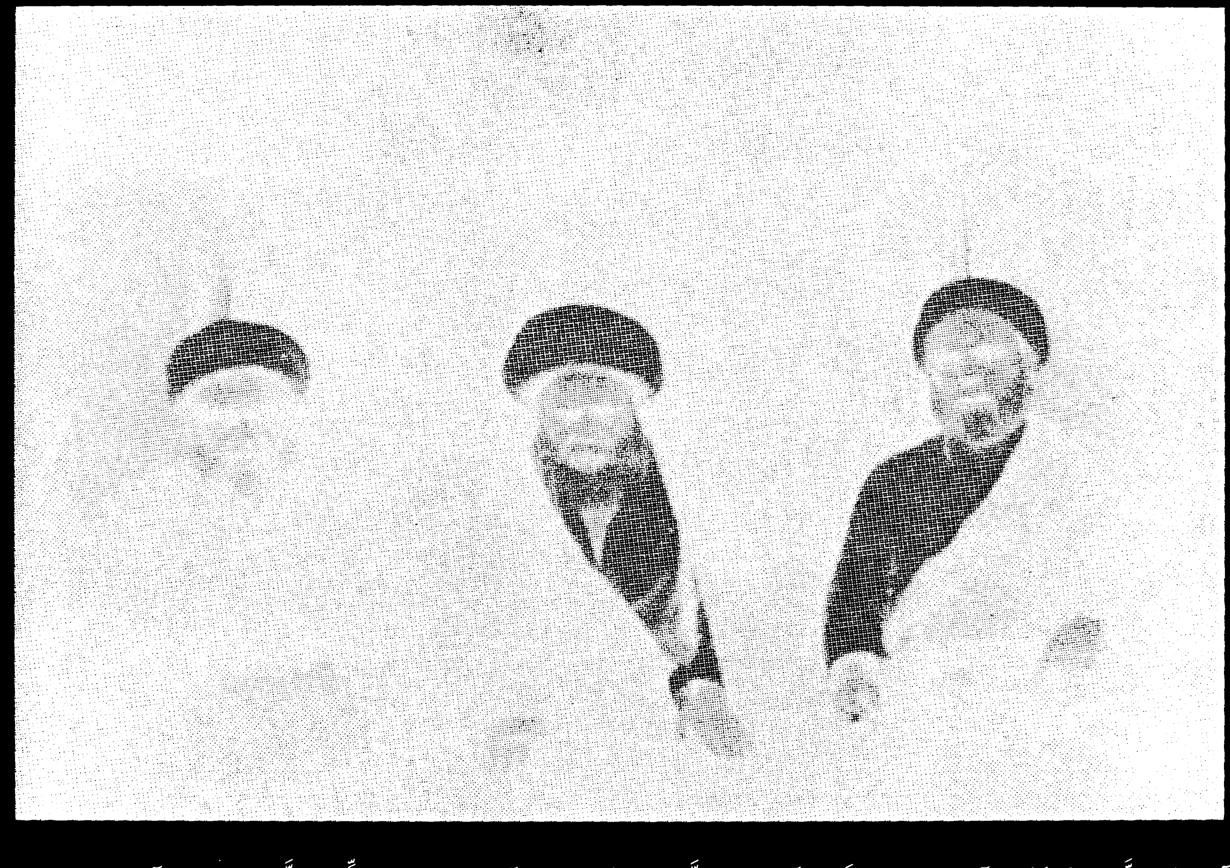
الطبعة وسنة الطبع: الاولى ١٣٩٣

المطبعة: شريعت

المحقق: السيد عبدالصاحب الموسوي الهاشمي

عدد المطبوع: ١٠٠٠ نسخة

ردمك الكتاب: ٢ ـ ٢٦٥ ـ ٥٠٣ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨



آية الله الشَّيخ مُرتَضَى آل ياسين   الفَقيه آية الله الشَّيخ محمَّد رِضَا آل ياسين   المحقِّق الشَّيخ رَاضِي آل ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ تَعَالَى حَقَّ حَمْدِهِ وَأفْضَلُ صَلَوَاتِهِ وَأزْكَى سَلامِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ وَعَلَى آلِهِ أئِمَّةِ الهُدَى مِنْ بَعْدِهِ وَاللَّعْنَةُ الأبَدِيَّةُ عَلَى أعْدَائِهِمْ أجْمَعِينَ إلَى يَوْمِ وَعْدِهِ.

أما بعد: فلا تخفى على كلّ محقّق وباحث أهمّية هذا الكتاب، فإنّه يعدّ من خيرة ما كُتب في هذا الشّأن، بل لا نكاد نرى من تقدَّمه بهذا العرض الموضوعي، والتَّحقيق الرَّصين، والأسلوب البارع والأدب الباهر، وهذا ما شهد به جمعٌ من العلماء والمحقِّقين. وكلٌّ من جاء بعده وكتب في هذا الموضوع أخذ عنه واعتمد عليه أو ناقشه الرَّأي .

يقول العلامة المجاهد الفقيه آية الله السيِّد عبد الحسين شرف الدِّين ﷺ ـ في تصدير الكتاب ـ :

«فإذا هو ـ أي هذا الكتاب ـ في موضوعه فصل الخطاب، ومفصل الصَّواب، والحدّ الفاصل بين الحقِّ والباطل. وقفت منه على فصول غُرٍّ، تمثِّل فضل مؤلِّفها الأغرّ الأبرّ، في كلِّ ما يشتركان فيه من التَّحقيق، والدِّقَّة والإعتدال، وسطوع البيان والبرهان، والتأنُّق والتتبُّع، والورع في النَّقل، والرّحابة في المناظرة، والإحاطة بما يناسب الموضوع، مع سهولة الأسلوب، وانسجام التراكيب، وبلاغة الإيجاز إذا أوجز، وقبول الإطناب إذا أطنب. فالكتاب يخضع لفكر منظّم مبدع حجّة، يصل وحدته بجداول دفاقة بالثّراء العقليّ والنقليّ، وبروادف غنيّة كلَّ الغِنى، في كلِّ ما يرجع إلى الموضوع، ويتمّ عليه عناصره القيِّمة. فالأناقة فيه تخامر الإستيعاب، والوضوح يلازم العمق، والنَّقد التَّحليلي مرتكز هذه الخصائص»

وقال عنه العلاّمة المحقِّق والعالم النّحرير فخر الطّائفة الشَّيخ عبدُ الحسين الأمينيّ النّجفيّ:

«الكتاب القيّم «**صلح الحسن**» الجامع لحقائق ودقايق دينيّة علميّة تاريخية، يعرب عن مبلغ مؤلِّفه من العلم، وتضلُّعه من الفضائل، وتقدّمه في مضمار البيان، وبراعته في التأليف، ونبوغه في الأدب»(١)

ويقول قائد الثّورة الإسلامية آية الله السيِّد عليّ الخامنئي حفظه الله ورعاه، في مقدِّمة ترجمته لهذا الكتاب:

«قبل أنْ أشرع بترجمة هذا الكتاب، كانت تراودني منذ بعيد كتابة تحليل لصلح الإمام الحسن عليه السلام وقد أعددت بعض المذكِّرات لذلك، إلاّ أنَّ المزايا الكثيرة الّتي تحلّى بها الكتاب حالت دون قصدي الأوَّل، وألزمتني نقل الكتاب إلى الفارسيّة، ليغتنم الفائدة مثلي، المجتمع الفارسيّ، ويُقدَّم لأوَّل مرَّة للطلاّب والمحقِّقين كتابٌ بهذه الشموليَّة والجامعيّة يتناول هذا الموضوع»(٢)

وهذا الكتاب مع أهمّيته إلاّ أنّه يفتقر ـ منذ أوّل نشره ـ إلى تحقيق دقيق وضبط وتصحيح وتقويم لمتونه وتخريج لآياته وأحاديثه وأقواله، فاستعنت بالله تعالى وتوسَّلت بمولاي الامام السِّبط أبي محمَّد الحسن المجتبى الطّاهر صلوات الله وسلامه عليه، أنْ أوفَّقَ لإنجاز هذا العمل المهمّ، فقمت بتحقيق هذا الكتاب الثَّمين، والتَّعليق عليه فيما دعت الحاجة إليه، ليخرج الكتاب بحُلَّةٍ لائقةٍ، ليملأ فراغاً كبيراً في المكتبة الإسلاميّة، ويسدَّ حاجةً مُلحّةً..

هذا وإنِّي قد تركتُ كتابة مقدِّمة للكتاب، مكتفياً بما كتبه آية الله الحجّة السيِّد شرف الدِّين في تصديره لهذا الكتاب ففيه غنىً وكفايةٌ إن شاء الله تعالى. سوى أنِّي ذكرت ترجمة لمؤلِّف الكتاب، وأسرته العريقة في العلم والأدب والأخلاق .

---

(١) الغدير ١٠/ ٤.

(٢) صلح إمام حسن عليه السلام پرشكوه ترين نرمش قهرمانانهى تاريخ.

ترجمة المؤلّف

أسرة «آل ياسين» من أشرف الأسر العلميّة الجليلة في الكاظميّة، نبغ منها الكثير من العلماء، واشتهرت بـ «آل ياسين» لانتسابهم إلى أحد أجدادهم: «ياسين». ويرجع نسبهم إلي قبيلة «الخَزْرَج»، وقبل الحديث عن صاحب هذا الكتاب لا بأس بذكر أجلاّء هذا البيت ومفاخر هذه الأسرة الشَّريفة:

الفقيه الأجلّ الشَّيخ محمّد حسن آل ياسين رحمه الله:

هو الفقيه الكبير، والمرجع الدِّيني في عصره،آية الله العظمى، الشَّيخ محمّد حسن بن ياسين بن محمد عليّ بن محمَّد رضا بن محسن التلّعُكبري الأصل، الكاظميّ. من مفاخر علماء الشِّيعة. ولد في الكاظميَّة سنة ١٢٢٠ هـ، ونشأ في أحضان أسرته الَّتي توارثت العلم والدّراسة الدِّينيَّة كابراً عن كابرٍ.

قال عنه السيِّد محسن الأمين: «عالمٌ، جليلٌ، فقيهٌ، متبحِّر، ثِقةٌ، وَرِعٌ، أنموذج السَّلف، حَسَنُ التَّحرير، جَيِّد التَّقرير، متضلِّعٌ في الفقه والأصول، خبيرٌ بالحديث والرِّجال. كان المرجع لأهل بغداد ونواحيها، وأكثر البلاد في التَّقليد، انتهت إليه الرِّياسة الدِّينيَّة في العراق بعد وفاة الشَّيخ مرتضى الأنصاريّ، قرأ المطوَّل على الشَّيخ عبد النَّبي الكاظمي، نزيل جبل عامل، صاحب: تكملة نقد الرِّجال وكان من تلاميذ صاحب الجواهر وصاحب الفصول.

وكان الشَّيخ جعفر الشُّوشتري شريكه في الدَّرس، ومن أخصّ إخوانه، سافر معه إلى شوشتر في سنة الطَّاعون سنة ١٢٦٤ هـ.

وكان مبتلىً بفقد الأولاد الكِبار. مات ولده الأرشد الكامل الشَّيخ عليّ سنة ١٢٨٨ هـ ، بعد وفاة ولده الشَّيخ جعفر الَّذي كان من تلاميذ الشَّيخ مرتضى، ومات بعد زمان قليل

من وفاة الشَّيخ عليّ، ولده الآخر الشَّيخ باقر، والد الشَّيخ عبد الحسين القائم مقام جدِّه، ثمَّ مات حفيده الشَّيخ محمَّد حسين، ثمَّ الشَّيخ تقيّ ابنا الشَّيخ عليّ ثمَّ الشَّيخ عبد الله ابن الشَّيخ باقر، ولم يُعرف منه إلاَّ الرِّضا والتَّسليم»(١)

ويقول المرحوم الأستاذ عليٌّ الخاقاني رحمه الله:

هو الشَّيخ محمَّد حسن بنُ الشَّيخ ياسين بن الشَّيخ محمَّد عليّ بنِ الشَّيخ محمَّد رضَا بنِ الشَّيخ محسن الكاظميّ، الشَّهير بآل ياسين. أشهرُ مشاهير علماء الشِّيعة في عهده. وُلِد في الكاظميَّة سنة ١٢٢٠ هـ، ونشأ في أحضان أسرته الَّتي توارثت العلم والدّراسة الدِّينيَّة كابراً عن كابر. هاجر إلى النَّجف في عهد العلاَّمة الشَّيخ محمَّد حسن صاحب الجواهر فاتَّصل به، وتلمَّذ عليه وانتهل من ينبوعه الصافيّ، ولقوَّة تمركزه في نفس أستاذه كان يُمضي حُكمه عنده، ولَّما يستتم عمرُه الخامسة والعشرين. وتلمَّذ على الفقيهين: الشَّيخ عليّ بن الشَّيخ موسى صاحب كشف الغطاء، و الشَّيخ جواد ملاّ كتاب، كما أخذ أصول الفقه على العلاَّمة الكبير شريف العلماء في كربلاء.

والحُجَّة آل ياسين مجتهدٌ كبيرٌ، ومؤلِّفٌ أخضع كثيراً من العلماء للإستفادة من قلمه ورأيه، فقد كان العلاَّمة الميرزا حبيب الله الرَّشتي المتوفَّى سنة ١٣١٢ هـ، يَذكر آراء المترجَم له من على منبره، لأعضاء حلقة درسه. ولِوَلع الحُجَّة آل ياسين بنشر العلم، ولخصوبة النَّجف العلميَّة استطاب له المقام وحرص أن لا يفارق بلد الإمام عليٍّ أمير المؤمنين، غيرَ أنَّ أستاذه صاحب الجواهر ألزَمه بالعودة إلى الكاظميَّة ليستعيد بها المركز الدِّينيّ الَّذي ساهم في تأسيسه أجدادُه الكرام. أجابه، فإذا به العَلَم المفرد، والسيِّد المطاع والإمام المقتدى، والمثل الأعلى في الكاظميّة.

---

(١) أعيان الشِّيعة ٩/ ١٧١.

رجع الرَّأي العام له بالفتيا بعد وفاة أستاذه صاحب الجواهر وبالتَّقليد بعد وفاة الإمام الأنصاريّ وانتشر رأيه في الأوساط الإسلامية والعواصم الشرقيَّة، وقد أحصي في حلقة درسه عشرون مجتهداً. نُكب في حياته بفقد الأولاد، فقد مات ستَّةٌ أعلام، فيهم المجتهدون المعترف لهم بالمرتبة العلميَّة السَّامية. وكان كريماً سخيّاً يَهبُ هِبات من لا يخاف الفقر...

تُوفِّي بمسقط رأسه في التَّاسع من رجب سنة ١٣٠٨ هـ. وتأريخ وفاته: (ثُلِمَ الإِسْلامُ ثُلْمة). وحُمِل جثمانه إلى كربلاء، فالنَّجف، ودُفن بها، حيث مرقده الَّذي تقوم عليه قبَّته الزَّرقاء في «العمارة». انتهى[1].

من مؤلَّفاته رحمه الله :

١ـ أسرار الفقاهة في أحد عَشَر مجلّداً وهو كتاب استدلاليّ.

٢ـ رسالةٌ عمليّةٌ في العبادات.

٣ـ رسالةٌ في اختلاف الأفق للصَّائم.

٤ـ تعليقاتٌ على كتاب: «الفصول في الأصول».

٥ـ رسالة في أحكام البئر.

٦ـ تعليقاتٌ على الرَّسائل للشّيخ الأعظم الأنصاريّ.

٧ـ رسالةٌ في حقوق الوالدين.

٨ـ المجالس في تسعين موضوعاً في الدِّين والأخلاق والتأريخ، منها مجالس في عزاء الحسين عليه السلام كان يقرأها في عشرة عاشوراء.

---

(١) أنظر تعليقته على ديوان السيّد حيدر الحلّي ١/ ٨٥، بتحقيقه رحمه الله.

الشَّيخ عبدُ الحسين آل ياسين رحمه الله

هو الفقيه المتضلّع آية الله الشَّيخ عبدُ الحسين بنُ الشَّيخ باقر بن الشّيخ محمَّد حسن ـ الآنف الذِّكر ـ أحد أجلّة الفقهاء، ومفاخر العلماء. ولد في مدينة الكاظميّة، ترعرع في كنف جدّه الفقيه آية الله الشّيخ محمَّد حسن آل ياسين، وتلقّى العلوم في بلدته، ثمَّ هاجر إلى النَّجف، في حياة جدِّه، ثمَّ عاد إلى الكاظميَّة، وتصدَّى لإمامة الجماعة فيها بعد وفاة جدِّه، وتولى سائر مسؤولياته الدِّينيّة. ثمّ ارتأى أن يواصل دراسته، فتوجَّه إلى مدينة سامرّاء، فحضر البحوث العالية على السيِّد المجدِّد محمَّد حسن الشّيرازي، وبعده قصد كربلاء، وحضر بحث السيِّد إسماعيل الصَّدر، وبقي فيها قرب سنتين حتى بلغ الإجتهاد فعاد إلى الكاظميَّة وهو يحمل إجازاتٍ مصرِّحة باجتهاده من السيِّد إسماعيل الصَّدر، والشّيخ الآخوند محمَّد كاظم الخراساني، والميرزا حسين الخليلي، وغيرهم. فتصدَّى للمرجعيّة والإفتاء والقضاء في الخصومات، ورجع إليه في التَّقليد بعض الأهالي. تُوفِّي في الكاظميّة سنة ١٣٥١ هـ، ودُفن في النَّجف الأشرف في مقبرة آل ياسين.

ترك من الآثار كتابات في بعض المسائل الفقهيّة والأصول.

أعقب رحمه الله ثلاثة أولاد، وهم: الفقيه الأديب محمَّد رضا، والفقيه الأديب الشَّيخ مرتضى، والعالم الأديب الشَّيخ راضي، صاحب هذا الكتاب.

الفقيه الأديب الشّيخ محمَّد رضا آل ياسين رحمه الله:

هو الفقيه الأديب آية الله الشَّيخ محمَّد رِضَا بن الشّيخ عبد الحسين بن الشيخ باقر بن الشّيخ محمَّد حسن، وُلد في الكاظميَّة سنة ١٢٩٧ هـ، وتربّى في كنف والده، واشتغل بالدّراسة مبكّراً، وتلمَّذ على والده الشَّيخ عبد الحسين، وعلى خاله السيِّد حسن الصَّدر الكاظميِّ، وعبد الحسين بن محمَّد جواد البغدادي.

وأخذ جانباً من أصول الفقه عن: حسن بن عليّ الكربلائي، والسيِّد عليّ بن محمَّد رضا السِّيستاني.[1]

وحضر الأبحاث العالية، فقهاً وأصولاً على السيِّد إسماعيل بن صدر الدِّين الصَّدر، ولازمه في كربلاء والكاظميَّة، وتخرّج به. ونبغ في وقت مبكّر، وحمل الفقه ورعاه وهو شاب يافع، ومنحه أستاذُه السيِّد إسماعيل إجازة اجتهاد، وهو ابن عشرين عاماً. وباشر التَّدريس، فأبدى براعةً في إيصال المطالب العلميَّة إلى الطلاّب بسرعة ودقَّة.

ثم هبط النَّجف عام ١٣٣٩ هـ، وتصدَّى بها للبحث والتَّدريس، فتهافت عليه بُغاة العلم، لما امتاز به من أسلوب خاصٍّ في التَّدريس، وضلاعةٍ في الفقه، ومعرفةٍ بأخبار أهل البيت عليهم السلام، وبأقوال الفقهاء السَّابقين.

وذاع صيت المترجم، ورجع إليه في التَّقليد جماعةٌ، ثم اتَّجهت إليه الأنظار بعد وفاة المرجع السيِّد أبو الحسن الأصفهانيّ سنة ١٣٦٥ هـ، وأصبح الزَّعيم الدِّينيّ البارز في عصره، ذا منزلة إجتماعيَّة رفيعة.

وكان كثير الإهتمام بشؤون النَّاس، جريئاً في آرائه، متحرِّراً في كثير من القيود الَّتي لا تتماشى والدِّين الصَّحيح، وكان كثيراً ما يقول: إنّا بحاجةٍ إلى مصلحين وقادةٍ مفكِّرين وأقلامٍ مَرِنة وعقولٍ ناضجةٍ، تحسن عرض مادَّتنا العلميّة على أبناء عصرنا، ليقفوا على حقائقنا ومبادئنا الّتي تماشي موكب الزَّمن.

وقد حضر على المترجم فريق من العلماء، منهم: أخوه مرتضى آل ياسين، والسيِّد محمَّد باقر الشَّخص، والسيِّد محمَّد حسن بن عليّ آل فضل الله العاملي، والسيِّد عبد الرَّسول آل كمال الدِّين الحلّي، ومحمَّد رضا بن قاسم الغرّاوي النَّجفي، والسيِّد محمَّد تقيّ بن حسن آل بحر العلوم النَّجفي، والسيِّد الشَّهيد محمّد باقر الصَّدر، والسيِّد عبد الزَّهراء الخطيب، ومحمَّد طاهر بن عبد الله آل راضي المالكي النَّجفي، وولده العالم

---

(١) جدُّ المرجع الدِّيني المعاصر آية الله العظمى السيِّد عليّ الحسينيّ السِّيستانيّ حفظه الله ورعاه.

الكاتب محمَّد حسن آل ياسين، وآخرون .

ووضع تآليف، منها :

١ـ شرح «تبصرة المتعلمين» في الفقه للعلاّمة الحلّي.

٢ـ حاشية على «العروة الوثقى» في الفقه للسيِّد محمَّد كاظم الطباطبائي اليزدي.

٣ـ شرح منظومة «الدّرّة» في الفقه للسيِّد محمَّد مهدي بحر العلوم نظماً.

٤ـ رسالةٌ فتوائيةٌ سمّاها: «بلغة الرَّاغبين في فقه آل ياسين».

٥ـ مناسك الحجّ.

٦ـ سبيل الرّشاد في شرح «نجاة العباد» في الفقه لمحمَّد حسن صاحب الجواهر.

٧ـ منظومةٌ في أحكام السَّلام.

٨ـ منظومةٌ في صلاة المسافر.

٩ـ تعليقاتٌ على «وسيلة النجاة» في الفقه العملي للسيِّد أبو الحسن الأصفهاني.

وغير ذلك .

توفّي سنة ١٣٧٠ هـ . وهو جدُّ المرجع الشَّهيد محمَّد الصَّدر (الصَّدر الثَّاني) لأمّه.[1]

الشَّيخ محمَّد حسن بن الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين رحمه الله:

الشَّيخ محمَّد حسن بن الشَّيخ محمَّد رِضَا بن الشّيخ عبد الحسين بن الشيخ باقر بن الشّيخ محمَّد حسن، ولد في مدينة النَّجف الأشرف سنة ١٣٥٠ هـ، أكمل دراسته بمراحلها المتعدِّدة في النّجف الأشرف، وحضر على والده، وقرّر جانباً من درسه وقد طبع تلك التّقريرات باسم: «حواشي على العروة الوثقى»، والشّيخ عبّاس الرُّميثي،

(١) أخِذت هذه التّرجمة مع تصرُّف يسير عن موسوعة طبقات الفقهاء ١٤، ق٢/ ٧٠٦.

والشَّيخ محمَّد طاهر آل الشَّيخ راضي، ثمّ الفقيه الأكبر المرجع الأعلى السيِّد أبو القاسم الخوئي ﵁، وقد منحه الفقيه الكبير الشَّيخ عبد الكريم الجزائريّ إجازة الإجتهاد، كما أنَّه أحد خرِّيجي كلِّية: «منتدى النَّشر».

غادر النَّجف عام ١٣٧٢ هـ، إلى الكاظمية ليتسلَّم مهام التَّبليغ والإرشاد والمرجعية بعد وفاة عمِّه العلامة الشَّيخ راضي آل ياسين الَّذي توفِّي في ذلك العام. وأسَّس في الكاظميّة: «دار المعارف للتأليف والتَّرجمة والنَّشر»، ومن ثمَّ رئيساً للجمعيّة الإسلاميّة للخدمات الثّقافيّة ومشرفاً على تحرير مجلَّتها: «البلاغ»، وأنشأ: «مكتبة الإمام الحسين ؏ العامّة» في الكاظميَّة، وكان له نشاط علميّ وتربويّ واجتماعيّ في: «جامع آل ياسين» في الكاظميّة ـ وقد جدّد بناءه ـ، وجامع: «إمام طه» في بغداد.

ونظراً للنَّشاطات المتميِّزة للشَّيخ المترجم في شتَّى المجالات العلميَّة، وخصوصاً علوم اللُّغة العربيَّة، فقد عُيِّن عضواً عاملاً في المجمع العلميّ العراقي سنة ١٩٨٠م، وعضواً مؤازراً في مجمع اللُّغة العربيّة الأردنيّ في السَّنة ذاتها، وزميلاً في هيئة مُلتقى الروَّاد سنة ١٩٩٤م، واختير عضوَ شرفٍ في المجمع العلميّ العراقي سنة ١٩٩٧م.

ترك الشَّيخ تراثاً علميّاً ضخماً، امتدَّ إلى أكثر من نصف قرن من عمره المبارك، موزَّعاً بين التأليف: (١٠٠ كتاب)، والتَّحقيق: (٤٧ كتاب)، والدِّراسات والمقالات، باحثاً عن الحقيقة في كلِّ ما كتب وألَّف ونقل. وقد توزَّعت مؤلَّفاته وجهوده لتشمل العلوم الدِّينية، وعلوم اللُّغة العربيَّة، والتَّاريخ، والسِّير والتراجم، والفلسفة، والأدب، وغيرها. وقد نالت مؤلَّفاته وتحقيقاته وبحوثه إهتمام طبقات مختلفة من المجتمع، وكتب عنها الكثير، سواء ما أرسل للمؤلّف نفسه، أو ما نشر عنها داخل العراق وخارجه.

اعتزل الحياة العامَّة، ولزم داره ـ فارضاً على نفسه الإقامة الإجباريَّة ـ وذلك بعد إعدام ابن عمَّته، آية الله العظمى، الشَّهيد السعيد، السيِّد محمَّد باقر الصَّدر. تُوفِّي في داره

في الكاظميَّه، قُبيل غروب يوم السَّبت ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٤٢٧ هـ، وشُيِّع صبيحة اليوم التَّالي تشييعاً حافلاً مهيباً، من مغتسل الكاظميَّه إلى الصَّحن الكـاظميِّ الشَّريف. وبعد أداء مراسم زيارة الإمامين عليهما السلام، صلَّى عليه سماحة الشَّيخ حسين آل ياسين، ودُفن في الصَّحن الكاظميّ المقدَّس.(١)

الفقيه الأديب الشَّيخ مرتضى آل ياسين رحمه الله:

هو الشَّيخ مرتضى بن الشَّيخ عبد الحسين بن الشيخ باقر بن الشَّيخ محمَّد حسن. كان فقيهاً، إماميّاً، جليلاً، أديباً، كبيراً، شاعراً، من الشخصيَّات العلميَّة والدِّينيَّة البارزة. وُلِد في الكاظميّة سنة ١٣١١ هـ، ونشأ على والده الفقيه الشَّيخ عبد الحسين، وقطع بعض المراحل الدّراسية هناك. وتوجَّه إلى النَّجف الأشرف، فحضر الأبحاث العالية على أخيه الفقيه الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين، وعلى الميرزا محمَّد حسين النائيني، والسيِّد أبو الحسن الأصفهاني. ونال حظّاً وافراً من العلوم، وبلغ رتبةً عاليةً من الفقه والإجتهاد وهو في عقده الثَّالث. ورجع إلى الكاظميَّة، فأخذ عنه فريق من أهل بغداد والكاظميَّة. وسكن كربلاء مدّةً، فقام بتدريس حلقة كبيرة. وعاد إلى النَّجف في أواخر أيَّام أخيه الشَّيخ محمَّد رضا، فقام بأعباء إدارته العلميَّة وزعامته الدِّينيّة، وتولَّى أجوبة المسائل، وبعد وفاته حلَّ بمكانه في إمامة الجماعة، ورجع إليه مقلِّدوه.

. وتزعّم حركة «جماعة العلماء» في النَّجف عام ١٣٧٩ هـ، الّتي نهضت بمسؤوليتها في نشر الثَّقافة والفكر الإسلاميين، والتصدِّي للتيَّارات الإلحاديّة الَّتي أخذت تزحف على العراق، وتبثّ سمومها في نفوس أبنائه.

---

(١) مصادر التَّرجمة: مطلع كتاب: «الأئمّة الإثنا عشر سيرةٌ وتاريخ» تأليف الشّيخ المترجم. وكذلك موقع: ويكيبيديا (wikipedia.).

وكان غزير العلم ، ذا قلمٍ سيّال ، زاهداً في الحياة ، قد تجرّد عن حبّ الشُّهرة الكاذبة، وابتعد عن الضَّوضاء المزعجة .

تتلمذ عليه فريق من العلماء ، منهم : ابنا أخته السيِّد إسماعيل والسيِّد الشَّهيد محمَّد باقر الصَّدر ، والأخوان السيِّد محمَّد عليّ والسيِّد محمَّد رضا شرف الدِّين ، وابن أخيه محمَّد حسن بن الشَّيخ محمَّد رضا آل ياسين ، وغيرهم .

ووضع تآليف، منها:

١ـ رسالة فتوائية لعمل المقلِّدين.

٢ـ نظرة دامعة حول مظاهرات عاشوراء.

٣ـ السُّؤال والجواب.

٤ـ تعليقةٌ على «بلغة الرَّاغبين» في الفقه العملي لأخيه الشَّيخ محمَّد رضا.

٥ـ تعليقاتٌ على «العروة الوثقى» في الفقه للسيِّد محمَّد كاظم الطَّباطبائي اليزديّ.

وصدّر كثيراً من الكتب والأسفار بمقدّمات ضافية أو بتقاريظ ، عكست أفكاره الناضجة وأدبه الجمّ .

توفّي في النَّجف سنة ١٣٩٧ هـ .[1]

العالم الأديب الشَّيخ راضي رحمه الله:

هو الشَّيخ راضي بن الشَّيخ عبد الحسين بن الشَّيخ باقر بن الفقيه المتضلِّع، آية الله العظمى الشّيخ محمَّد حسن آل ياسين. عالمٌ جليلٌ، ومحقِّق قديرٌ، وأديبٌ بارعٌ. ولد في الكاظميَّة في محرّم سنة ١٣١٤ هـ ، وجدَّ في طلب العلم منذ نعومة أظفاره، كما هو دأب إخوته وأعاظم رجال أسرته، فدرس في الكاظميّة المقدّمات والسُّطوح. ثمَّ هاجر إلى

---

(١) موسوعة طبقات الفقهاء ١٤، ق٢/ ٨٣٢.

النَّجف الأشرف لحضور أبحاث الخارج، فدرس على لفيفٍ من العلماء في مقدِّمتهم: والده آية الله الشَّيخ عبد الحسين، وشقيقيه آية الله الشَّيخ محمّد رضا، و آية الله الشَّيخ مرتضى، وآية الله الشَّيخ محمّد كاظم الشِّيرازي، وخاله السيِّد حسن الصَّدر رحمهم الله: حتَّى حاز من العلم والفضل قسطاً وافراً.

ولمَّا تُوفِّي والده، عزم على الرُّجوع إلى الكاظميَّة ليقوم مقامه، فكان محلَّ اعتماد أهالي الكاظميّة وما حولها.

يقول العلاّمة الحبر المحقِّق الشَّيخ الأميني:

«والشَّيخ راضي آل ياسين صاحب الكتاب القيِّم «صلح الحسن» الجامع لحقائق ودقايق دينيَّة علمية تاريخيَة، يُعرب عن مبلغ مؤلِّفه من العلم، وتضلُّعه من الفضائل، وتقدُّمه في مضمار البيان، وبراعته في التأليف، ونبوغه في الأدب»[1]

يقول السيِّد حسن الأمين: هو سليل الأسرة العلمية الشهيرة ووارث علمها وأخلاقها وورعها... وقد كنت خلال وجودي في العراق، ألقاه في بيته في الكاظميَّة فيما كان يسمَّى بـ«فضوة آل ياسين» فيروعني مجلسه بما كان يفيضه عليه من علمٍ جمٍّ وخُلُقٍ كريمٍ وحديثٍ ممتعٍ. وبموته انطوت في الكاظميّة صفحةٌ من أنقى صفحات العلم والدِّين والتُّقى.

أصيب في أواخر حياته بمرض عضال لم تفد فيه المعالجة في العراق، فذهب إلى لبنان فتوفِّي هناك، [في ١٥ ذي القعدة] سنة ١٣٧٢ هـ، ونقل جثمانه إلى النَّجف الأشرف فدُفن في مقبرة جدِّه.[2]

---

(١) الغدير ١٠/ ٤.

(٢) مستدركات أعيان الشيعة ١/ ٥١، مع بعض التصرُّف. وهو المشهور في سنة وفاته رحمه الله، وهناك قولٌ آخر يذهب إلى سنة وفاته أنه: ١٣٧١ هـ، ويقوِّيه أنّ الكتاب طُبع بعد وفاته سنة ١٣٧٢ هـ.

له من المؤلّفات :

١ـ «أوج البلاغة» ، جمع فيه خطب وكلمات الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، على غرار ما جمعه الشَّريف الرَّضي من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام .

٢ـ «تاريخ الكاظميّة» مجلَّد كبير ، نشر بعضه في مجلَّة «الإصلاح» البغدادية .

٣ـ «ديوان جابر أبي النَّوادر»، جمعه ورتَّبه على الحروف، دوَّنه إلى حرف الدَّال في المبيضَّة والباقي موجود في المسودَّة بخطِّه رحمه الله.

٤ـ «صلح الحسن» ، وهو الكتاب الحاضر، وطبع سنة ١٣٧٢ .

وله شعر غير مجموع. وكان شاعراً أديباً، ومن شعره قوله مشطِّراً الأبيات المشهورة في مدح أمير المؤمنين عليه السلام :

«تَـزَاحَمُ تِيجَـانُ المُلُـوكِ بِبَابِـهِ» … لأنَّ عليّـاً مَلْكُهَـا وإمَامُهَـا

وَتَهْـوِي عَـلَى أعْتَابِـهِ لاسْـتِلامِهَا … «وَيَكْثُـرُ عِنْـدَ الإسْتِلام ازْدِحَامُهَـا»

«إذَا مَـا رَأتْـهُ مِـنْ بَعيـدٍ تَرَجَّلَـتْ» … لَـهُ وَغَـدَا مِثْـلَ الرُّكُـوع قِيَامُهَـا

فَإنْ هِـيَ يَعنُـو هَامُهَـا فَهْـوَ حَسْـبُهَا … «وَإنْ هِيَ لَمْ تَفْعَـلْ تَرَجَّـلَ هَامُهَـا»[1]

---

(١) موسوعة النَّجف الأشرف ١٩/ ١٧٥ .

عملي في الكتاب

١. خرَّجت ما في الكتاب من آيات قرآنيـة، وأحاديـث شريفـة، ـ واردة عـن النبـيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطّاهرين عليهم السلام ـ مع ضبطها وتشكيلها تشكيلاً كاملاً.

٢. عزوتُ الأقوال والآراء الواردة في الكتاب تصريحاً أو إشـارةً إلى مصـادرها، وبذلت في ذلك ما في وُسعي. وعـزّت عـليَّ بعـض المصـادر لعـدم توفُّرهـا لـديّ، أو صعوبة حصولها كبعض المقالات المنتشرة في بعض المجلاّت والجرائد.

٣. قدَّمت للكتاب بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه، وأسرته الكريمة.

٤. شرحت ما رأيت لزوم شرحه من بعـض القضـايا التّاريخيَّـة والعقائديّـة، وأسـماء البلدان والأمكنة إذا كانت تحتاج إلى شرح وتوضيح، وبيان الغريب من مفرداته.

٥. علّقت على بعض مواضيع الكتاب على قدر الحاجة.

٦. قمت بضبط الأسماء والأنساب تسهيلاً للقرّاء.

٧. ذكرت ترجمةً للأعلام الّذين ورد ذكرهم في الكتاب، مع ذكر مصادر التَّرجمة، لمن أراد الرُّجوع إليها والإستفادة، وسعيت أن تكون التّرجمة موجزة.

٨. أدمجت هوامشي مع هوامش المؤلِّف، مع التَّنبيه على هوامش المؤلِّف بكلمـة: (المؤلِّف رحمه الله) وتركت هوامشي دون علامة.

٩. اتَّبعت في تنظيم الهوامش الأسلوب التالي: إيراد اسم المصدر أوّلاً، ثـمَّ ذكـر رقم المجلَّد إن وجد، وبعده علامة (/)، يليها رقم الصَّفحة.

١٠. لمّا كان اعتماد المؤلِّف رحمه الله في بحثه على الطَّبعـات القديمـة للمصـادر، قمـت بتخريج المصادر ثانيةً من طبعاتها الجديدة، وميّزتها عن تلك بحصرها بين معقوفتين [ ] مع الحفاظ على هوامش المؤلِّف.

١١. تجنَّبت أيَّ تصرّف في الكتاب، سوى ما كان لإصلاح بعض الأخطاء الَّتي قلّما يخلو منها كتاب ـ دون الإشارة إليها لندرتها ـ.

١٢. لا يخفى أنَّ الكتاب مشهورٌ بـ «صُلح الحسن عليه السلام»، إلاَّ أنّني أضفت إليه كلمة: «الإمام» ليكون هكذا: «صُلح الإمام الحسن عليه السلام»، تعظيماً له صلوات الله عليه، وتأدُّباً.

وأخيراً:

فأحمد الله تعالى على توفيقه، وأسأله بفضله وإحسانه أن يتقبَّل منِّي هذا العمل خالصاً لوجهه، إنَّه ذو فضل كريم. وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمَّدٍ وآله الطيّبين الطّاهرين واللَّعن على أعدائهم أجمعين.

كتبه عبد الصَّاحب الموسويّ الهاشميّ العبَّاداني

غرّة شهر شعبان المعظَّم ١٤٣٣ هـ

قم المقدّسة



تصدير بقلم

سماحة آية الله الإمام المصلح الكبير السيّد عبد الحسين شرف الدِّين العاملي قدس سره[1].

---

(١) هو الفقيه الحجّة آية الله السيِّد عبدُ الحُسَينِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ جَوَادِ بْنِ إسْمَاعِيلِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إبْرَاهِيمَ، شَرَفُ الدِّينِ، المُوسَوِيُّ، العَامِلِيُّ، أحد أعلام الإمامية ومشاهير علماء الإسلام. كان فقيهاً مجتهداً، محدِّثاً، خطيباً مفوّهاً، أديباً بارعاً، من كِبَار الدُّعاة إلى الوفاق بين المسلمين. ولد في الكاظمية سنة تسعين ومائتين وألف . ورجع به أبوه إلى شحور (من قُرى صُور في جنوب لبنان) سنة ١٢٩٨ هـ، وأقبل على تعليمه، فأخذ عنه العلوم العربية وعلم المنطق وشيئاً من الفقه . وعاد إلى العراق سنة ١٣١٠ هـ، فاجتاز بعض المراحل الدِّراسيّة في مدينتي سامرّاء والنجف، متتلمذاً على: حَسَنِ بنِ عَلِيٍّ الكربلائي المتوفّى ١٣٢٢ هـ، وباقر بن عليٍّ آل حيدر المتوفّى ١٣٣٣ هـ، وعليٍّ بن باقر بن محمَّد حسن الجواهريّ، والسيِّد محمَّد صادق الأصفهاني. وحضر الأبحاث العالية على أعلام النجف: محمَّد كاظم الخُراسانيّ، ومحمَّد طَه نجف، وآقا رضا الهَمَدَانيّ، وفتح الله الشِّيرازيّ المعروف بشيخ الشَّريعة الأصفهاني، وعبد الله المازندَرانيّ . ووقف في الحديث والدِّرايةَ على الميرزا حسين النُّوريّ .

وعاد إلى شحور سنة ١٣٢٢ هـ، وانتقل إلى بلدة صُور سنة ١٣٢٥ هـ، فتصدَّر بها للتَّوجيه والإرشاد والإصلاح، وبَاشَر التَّأليف، ودعا إلى التَّقريب بين المذاهب الإسلاميَّة وإلى وحدة الكلمة .

وأكبَّ على المطالعة والبحث، وأحاط بالتَّاريخ الإسلاميّ وبروايات الفريقين، وتخصَّص في الدِّراسات المذهبيَّة .

زار مصر سنة ١٣٢٩ هـ، زيارة علميَّة، اجتمع خلالها بأعلامها المبرَّزين، كان في طليعتهم «سَلِيم البِشْريّ» شيخ الجامع الأزهر، ودارت بينهما مناقشاتٌ في كلٍّ ما يهمّ المسلمين من مباحث علميَّة، فكان من أثر ذلك كتاب «المراجعات» الشَّهير الّذي تعرّض لمباحث الإمامة بصورة تفصيليَّة . وواصل في بلدته صُور نشاطاته في الميادين الإجتماعية والسياسيّة والإصلاحيّة، ونَاوأ الإحتلال الفرنسي وواجهه بالإحتجاج والرَّفض، فَكُبِست داره وأتلفت مكتبته الَّتي تَضُمُّ نفائس الكتب، ومنها تسعة عَشَر مُؤلَّفا من مؤلَّفاته الخطيّة.

ارتحل السيِّد المترجم بعد هذه الحوادث إلى دِمشق، وذاع اسمه فيها، وساهم بشكلٍ فاعل في المداولات السِّياسيّة والحفلات الوطنيَّة، وله في ذلك مواقف خطابية متميِّزة، ثم غادرها بعد

⇦

كان صلح الحسن عليه السلام مع معاوية، من أشدِّ ما لقيه أئمة أهل البيت من هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقي به الحسن عليه السلام محناً يضيق بها الوسع ، لا قوّة لأحد عليها إلاّ بالله عزَّ وجلّ . لكنَّه رضخ لها صابراً محتسباً، وخرج منها ظافراً بما يبتغيه من النّصح لله تعالى، ولكتابه عزَّ وجلّ، ولرسوله، ولخاصَّة المسلمين وعامتهم، وهذا الّذي يبتغيه ويحرص عليه في كلِّ ما يأخذ أو يدع من قول أو فعل.

⇦

معركة ميسلون إلى فلسطين، ومنها إلى مصر، فأمضى فيها قرابة الشَّهرين، تقاطر عليه خلالها رجال الفكر والسِّياسة . ثم عاد إلى بلاده في ١٨ شوّال سنة ١٣٣٩ هـ ، فخاض مختلف الميادين كالذَّبِّ عن العقيدة والمذهب بقلمه ولسانه، ومناهضة المستعمرين، وحلِّ المشاكل الإجتماعية، وإحياء مشاريع العلم كإنشاء مدرسة حديثة باسم المدرسة الجعفرية (التي نمت وصارت: الكُلّية الجعفرية) ومدرسة حديثه للإناث باسم مدرسة الزَّهراء عليها السلام، ونادي الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام لإحياء المراسم الدِّينيّة والإجتماعيَّة، وغير ذلك ممّا يمثّل مبدأه التَّربويّ في كلمته السَّائرة: لا ينتشر الهُدى إلاَّ من حيث انتشر الضَّلال.

وقد وضع مؤلَّفات عديدة امتازت بالعمق والإستيعاب والمتانة والأدب الرَّفيع، منها:

شرح «تبصرة المتعلمين» في الفقه للعلامة الحلي في ثلاث مجلَّدات، المسائل الفقهية (مطبوع)، تحفة الأصحاب في طهارة أهل الكتاب، رسالة في منجزات المريض، رسالة في المواريث، وتعليقة على مبحث الإستصحاب من «فرائد الأصول» لمرتضى الأنصاري، المراجعات (مطبوع)، تعليقة على صحيح البُخاريّ في مجلّد واحد، تعليقة على صحيح مسلم في مجلّد واحد، أبو هريرة (مطبوع)، النصُّ والإجتهاد (مطبوع)، الفصول المهمَّة في تأليف الأمَّة (مطبوعة)، المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطَّاهرة في أربعة أجزاء (طبعت مقدّمته)، رسالة حول الرُّؤية (مطبوعة)، رسالة فلسفة الميثاق والولاية (مطبوعة)، رسالة الكلمة الغرَّاء في تفضيل الزَّهراء (مطبوعة)، بُغية الرَّاغبين في سلسلة آل شرف الدِّين (مطبوع في جزءين)، أجوبة مسائل موسى جار الله (مطبوع)، تحفة المحدِّثين في من أخرج عنه السنّة من المضعّفين، وسبيل المؤمنين في الإمامة في ثلاث مجلدات، وغير ذلك .

تُوفِّي في ٨ هـ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ . المصدر: موسوعة طبقات الفقهاء ١٤ ق١ / ٣١٨.

ولا وزن لمن اتَّهمه بأنَّه أخلد بصلحه إلى الدّعة، وآثر العافية والرّاحة، ولا لمن طوّحت بهم الحماسة من شيعته فتمنّوا عليه لو وقف في جهاد معاوية فوصل إلى الحياة من طريق الموت، وفاز بالنّصر والفتح من الجهة الّتي انطلق منها صنوه يوم الطَّف إلى نصره العزيز، وفتحه المبين .

ومن الغريب بقاء النّاس في عشواء غمّاء من هذا الصُّلح إلى يومهم هذا، لا يقوم أحدٌ منهم في بيان وجهة الحسن في صلحه، بمعالجة موضوعيّة مستوفاة ببيانها وبيناتها، عقليّة ونقليّة، وكم كنت أحاول ذلك، لكنّ الله عزَّ وجلّ شاء بحكمته أن يختصّ بهذه المأثرة من هو أولى بها، وأحقّ بكلِّ فضيلة، ذلك هو مؤلِّف هذا السِّفر البِكر «**صلح الحسن**» فإذا هو في موضوعه فصل الخطاب، ومفصل الصَّواب، والحدّ الفاصل بين الحقِّ والباطل .

وقفت منه على فصولٍ غُرٍّ، تمثّل فضل مؤلِّفها الأغرّ الأبرّ، في كلِّ ما يشتركان فيه من التّحقيق، والدِّقة والإعتدال، وسطوع البيان والبرهان، والتأنّق والتتبّع، والورَع في النّقل، والرّحابة في المناظرة، والإحاطة بما يناسب الموضوع، مع سهولة الأسلوب، وانسجام التراكيب، وبلاغة الإيجاز إذا أوجز، وقبول الإطناب إذا أطنب.

فالكتاب يخضع لفكر منظم مبدع حجة، يصل وحدته بجداول دفّاقة بالثّراء العقليّ والنقليّ، وبروادف غنيّة كلَّ الغنى، في كل ما يرجع إلى الموضوع، ويتم عليه عناصره القيّمة.

فالأناقة فيه تخامر الإستيعاب، والوضوح يلازم العمق، والنَّقد التحليلي مرتكز هذه الخصائص .

أمّا المؤلِّف ـ أعلى الله مقامه ـ فإنّك تستطيع أن تستشفّ ملامحه، من حيث تنظر إلى مواهبه في كتابه هذا، ولو لم أره لقدَرتُ أن أرسم له صورة أستوحي قسماتها من هذا السِّفر، إذ يُريكه واضحَ الغرّة، مشرقَ الوجه، حلو الحديث، هادئ الطّبع، واسع

الصَّدر، ليّن العريكة[1]، وافر الذِّهن، غزير الفهم والعلم، واسع الرّواية، حَسَن الترسّل، حلو النكتة، لطيف الكناية، بديع الإستعارة، تنطق الحكمة من محاسن خلاله، ويتمثّل الفضل بكلِّ معانيه في منطقه وأفعاله، لا ترى أكرم منه خُلُقَاً، ولا أنبل فطرةً، عليماً زاخراً بعلوم آل محمَّد، علاّمة بحّاثة، أمعن في التنقيب عن أسرارهم، يستجلي غوامضها، ويستبطن دخائلها، لا تفوته منها واردةٌ ولا شاردةٌ، إلى خصائص في ذاته وسماته يمثّلها كتابه هذا بجلاءٍ.

ومن أمعن فيما اشتمل عليه هذا الكتاب، من أحوال الحسن ومعاوية، علم أنهما لم ترتجلهما المعركة ارتجالاً، وإنما كانا في جبهتيهما خليفتين، استخلفهما الميراث على خُلُقينِ متناقضين: فخُلُقُ الحسن إنما هو خلق الكتاب والسُنَّة، وإن شئت فقل: خلق محمَّدٍ وعليٍّ. وأمّا خلق معاوية فإنما هو خلق **«الأمويَّة»**، وإن شئت فقل: خلق أبي سفيان وهند، على نقيض ذلك الخلُق .

والمتوسِّع في تاريخ البيتين وسيرة أبطالهما من رجال ونساء يدرك ذلك بجميع حواسه.

لكن لما ظهر الإسلام، وفتح الله لعبده ورسوله فتحه المبين، ونصره ذلك النَّصر العزيز، انقطعت نوازي[2] الشرِّ **«الأمَوِيّ»**، وبطلت نزعات أبي سفيان ومن إليه مقهورة مبهورة، متوارية بباطلها من وجه الحقِّ الّذي جاء به محمَّدٌ عن ربِّه عزَّ وجلّ، بفرقانه الحكيم، وصراطه المستقيم، وسيوفه الصَّارمة لكلِّ من قاومه .

وحينئذٍ لم يجد أبو سفيان وبنوه ومن إليهم بُدّاً من الإستسلام، حَقْناً لدمائهم المهدورة يومئذٍ لو لم يستسلموا، فدخلوا فيما دخل فيه النّاس، وقلوبهم تنغل بالعدواة

---

(١) **«العَرِيكة»**: الطَّبيعة ، وَرَجُلٌ لَيِّنُ العَرِيكَةِ، أي: لَيِّنُ الخُلُقِ، سَلِسُه. لسان العرب ١٠/ ٤٦٦.

(٢) **«النَّوازِي»** جمع «النَّزْوَ» من نَزَا يَنْزُو، بمعنى: «الوُثُوب» .

له، وصدورهم تجيش بالغلّ عليه، يتربّصون الدوائر بمحمّدٍ ومن إليه[1]، ويبغون الغوائل لهم. لكنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ـ مع علمه بحالهم ـ يتألّفهم بجزيل الأموال، وجميل الأقوال والأفعال، ويتلقّاهم بصدر رحب، ومحيّا منبسط، شأنه مع سائر المنافقين من أهل الحقد عليه، يبتغي استصلاحهم بذلك.

وهذا ما اضطرّهم إلى إخفاء العداوة له، يطوون عليها كَشْحَهم[2] خوفاً وطمعاً، فكاد النّاس بعد ذلك ينسون «الأمويّة» حتى في موطنها الضيِّق ـ مكّة ـ.

أمّا في ميادين الفتح بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تُعرف «الأمويّة» بشيءٍ، سوى أنها من أسرة النبيِّ ومن صحابته.

ثم أتيح بعد النبيِّ لقوم ليسوا من عترته، أن يتبوأوا مقعده، وأتيح لمعاوية في ظلِّهم أن يكون من أكبر ولاة المسلمين، أميراً من أوسع أمرائهم صلاحيةً في القول والعمل.

ومعاوية إذ ذاك يتّخذ بدهائه من الإسلام سبيلاً يزحف منه إلى المُلك العضوض[3]، ليتّخذ به دين الله دَغَلاً، وعباد الله خَوَلاً، ومال الله دُوَلاً، كما أنذر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان ذلك من أعلام نبوَّته[4].

---

(١) أي: ينتظرون به النائبة من صروف الدّهر، حتى ينالوا مرادهم، وهو صريح قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ سورة الطّور/ ٣٠.

(٢) «**الكَشْحُ**»: ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع الخَلف، وهو من لَدُن السرة إلى المَتْن. لسان العرب ٢/ ٥٧١، بمعنى أنّهم: يضمرون له العداوة ويسترونها.

(٣) المُلْكُ العضُوض: الشديد الذي فيه عسف وعنف.

(٤) قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِذَا كَمَلَتْ بَنُو أُمَيَّةَ ثَلاثِينَ رَجُلاً اتَّخَذُوا بِلادَ الله دُوَلاً، وَعِبَادَ الله خَوَلاً، وَدِينَ الله دَغَلاً**» أنظر: مستدرك الحاكم ٤/ ٤٧٩، البداية والنهاية ٦/ ٢٧١، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٧٨، مجمع الزوائد ٥/ ٢٤١. «**دُوَلاً**»: جمع دُولة بالضَّم، وهو ما يتداول من المال، فيكون لقوم دون قوم. «**خَوَلاً**»: أي: يجعلونهم عبيداً لهم، وهو مأخوذ من التخويل والتمليك. «**دَغَلاً**»: من الدَّغل، أي: ⇐

نشط معاوية في عهد الخليفتين الثّاني والثّالث، بإمارته على الشّام عشرين سنة، تمكّن بها في أجهزة الدّولة، وصَانَعَ النّاس فيها وأطمعهم به فكانت الخاصّة في الشّام كلّها من أعوانه، وعظُم خطره في الإسلام، وعُرِف في سائر الأقطار بكونه من قريش ـ أسرة النبيّ صلى الله عليه وآله ـ وأنّه من أصحابه، حتى كان في هذا أشهر من كثير من السّابقين الأوّلين الّذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، كأبي ذرٍّ وعمّار والمقداد وأضرابهم.

هكذا نشأت «الأموية» مرّة أخرى، تغالب الهاشميّة باسم الهاشميّة في علنها، وتكيد لها كيدها في سرِّها، فتندفع مع انطلاق الزّمن تخدع العامّة بدهائها، وتشتري الخاصّة بما تُغدِقه[1] عليهم من أموال الأمّة، وبما تؤثرهم به من الوظائف الّتي ما جعلها الله للخونة من أمثالهم، تستغلّ مظاهر الفتح وإحراز الرِّضا من الخلفاء.

حتّى إذا استتبَّ أمر «الأموية» بدهاء معاوية، انسلّت إلى أحكام الدِّين انسلال الشّياطين، تدسُّ فيها دسَّها، وتفسد إفسادها، راجعة بالحياة إلى جاهليّة تبعث الإستهتار والزّندقة، وِفق نهج جاهليّ، وخطّة نفعية، ترجوها «الأمويّة» لاستيفاء منافعها، وتُسخِّرها لحفظ امتيازاتها.

والنّاس ـ عامّة ـ لا يفطنون لشيء من هذا، فإنّ القاعدة المعمول بها في الإسلام ـ أعني قولهم: الإسلام يجبُّ ما قبله ـ ألقت على فظائع «الأمويّة» ستراً حجبها، ولا سيّما بعد أن عفا عنها رسول الله وتألّفها، وبعد أن قرّبها الخلفاء منهم، واصطفوها بالولايات على المسلمين، وأعطوها من الصلاحيّات ما لم يعطوا غيرها من ولاتهم. فسارت في الشّام سيرتها عشرين

⇨

يخدعون به الناس.

(١) «الغَدَق»: الماءُ الكثير وإن لم يكُ مطَراً. تاج العروس ١٣/ ٣٧٠.

عاماً ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[1] ولا ينهون.

وقد كان الخليفة الثّاني عظيم المراقبة لعمّاله، دقيق المحاسبة لهم، لا يأخذه في ذلك مانع من الموانع أصلاً: تعتع بخالد بن الوليد، عامله على «قِنَّسرين»[2] إذ بلغه أنّه أعطى الأشعث عشرة آلاف، فأمر به فعقله «بلال الحبشي» بعمامته، وأوقفه بين يديه على رِجلٍ واحدة، مكشوف الرّأس، على رؤوس الأشهاد من رجال الدّولة ووجوه الشّعب في المسجد الجامع بحِمص، يسأله عن العشرة آلاف: أهي من ماله أم من مال الأمّة ؟ فإن كانت من ماله فهو الإسراف، والله لا يحبّ المسرفين. وإن كانت من مال الأمّة فهي الخيانة، والله لا يحبّ الخائنين، ثم عزله فلم يولّه بعد حتى مات[3].

ودعا أبا هريرة[4]، فقال له: «علمت أني استعملتك على البحرين، وأنت بلا

---

(١) سورة المائدة / ٧٩.

(٢) «قِنَّسْرين»: مدينة بينها وبين حلب مرحلة، كانت عامرة بأهلها، فلما غلب الروم على حلب في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قِنَّسرين وجلوا عنها وتفرّقوا في البلاد، ولم يبق بها إلا خانٌ تنزله القوافل. مراصد الإطّلاع ٣/ ١١٢٦.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢/ ٥٣٦، تاريخ ابن عساكر ١٦/ ٢٦٦، تاريخ الطبري ٣/ ١٦٧.

(٤) أبو هُرَيْرَة الدُّوسِيّ: اختلفوا في اسم أبي هريرة واسم أبيه اختلافاً كثيراً لا يحاط به ولا يضبط في الجاهلية والإسلام. (الإستيعاب ٤/ ١٧٦٨)، ذكروا له عدّة أسماء: «عبد الله بن عامر»، «برير بن عشرقة»، «سكين بن دومة»، «عبد الله ابن عبد شمس»، «عبد نهم بن عامر»، «عبد غنم بن عامر»، «عبد عمرو بن عبد غنم»، «كردوس بن عامر». ورجّح بعضهم: «عبد الرحمن بن صخر». و«أبو هريرة» وفي عمدة القاري للعيني ١٨/ ٣٥: وروي عنه أنه قال: إنما كُنِّيت بأبي هريرة لأني وجدت أولاد هِرّة وحشية فحملتها في كُمّي، فقيل: ما هذه قلت: هرة، قيل: فأنت أبو هريرة، وقيل: رآه رسول الله ﷺ، وفي كمّه هرة، فقال: «**يَا أَبَا هُرَيْرَة**».

أسلم أبو هريرة في السّنة السّابعة للهجرة الشريفة عام خيبر، وصحب النبيّ ﷺ وروى عنه وأكثر في الرّواية ووضع عليه أحاديث كثيرة، قال في عمدة القاري ١٨/ ٣٤: روي له عن رسول الله ﷺ خمسة آلاف حديث وثلاثمائة حديث وأربعة وسبعون حديثاً، اتّفق البخاري ومسلم على ثلاثمائة حديث وخمسة وعشرين حديثاً، وانفرد البخاري بثلاثة وتسعين، ومسلم بمائة ⇦

نعلين ! ثم بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف دينـار وسـتمائة دينـار!» قـال: «كانـت لنـا أفراس تناتجت، وعطايا تلاحقت» . قال: «حسبت لـك رزقـك ومؤونتـك وهـذا فضـل

⇨

وتسعين. انتهى

وهذا دليل على كذبه، إذ كيف يعقل أن يصحب النبيّ صلى الله عليه وآله أقلّ من ثلاث سنين ثمّ يروي عنه ٥٣٧٤ حديثاً؟ هذا سوى ما يعدلها أو يزيد عليها من الأحاديث الّتي لم يبح بها تقيّة من الناس، فعنه قال: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعاءين فأمّا أحدهما فبثثته وأمّا الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. البخاري ١/ ٣٨. وهذا الكلام معناه أيضاً أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد كتم شيئاً من الوحي عن جميع الصّحابة سوى أبي هريرة، أو أنه صلى الله عليه وآله كان مبعوثاً برسالتين عامّة للنّاس وخاصّة لأبي هريرة!

وروي أنّه حدَّث بحديث نسبه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا: يا أبا هريرة هذا شئ قاله رسول الله أم هذا من كيسك؟ قال: بل هذا من كيسي. مسند أحمد ٢/ ٢٥٢، السنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٧١، السنن الكبرى للنسائي ٥/ ٣٨٤.

ونهاه عمر عن التحديث وقال له: لتتركن الحديث عن رسـول الله صلى الله عليه وآله أو لألحقنـك بـأرض دوس. تاريخ مدينة دمشق ٥٠/ ١٧٢، سير أعلام النّبلاء ٢/ ٦٠١، البدايـة والنّهايـة ٨/ ١١٥، وهـذا من عمر يدلّ إمّا على كذب أبي هريرة، وإمّا على منـع الخليفـة مـن الحـديث، والحـقّ أنّـه لكـلا الأمرين.

بعثه عمر والياً على البحرين سنة ٢١، ثم عزله لسرقته بيـت مـال المسـلمين فصـادر كـلّ مـا يملكـه وأغلظ عليه واستعمل مكانه عثمان بن أبي العاص الثقفي، التحق بمعاويـة أخـيراً وولاّه المدينـة، وفي شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٧ عن الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعـة، جـاء إلى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيـه، ثـمّ ضرب صـلعته مـراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أنّي أكذب على الله وعلى رسـوله، وأحـرق نفسي بالنّـار! والله لقـد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَرَمَاً، وَإِنَّ حَرَمِي بِالْمَدِينَـةِ، مَا بَـيْنَ عَـيْرٍ إِلَى ثَـوْرٍ، فَمَـنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثَاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»، وأشهد بالله أنَّ علياً أحـدث فيهـا. فلـمّا بلـغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة. توفي سنة ٥٧ هـ وقيل سنة ٥٨ هـ وقيـل غـير ذلـك. أنظـر ترجمته في الإستيعاب ٤/ ١٧٦٨، تاريخ مدينة دمشـق ٦٧/ ٢٩٥، الإصـابة ٧/ ٣٤٨، تـذكرة الحفـاظ للذهبي ١/ ٣٢.

فأدِّه» . قال: «ليس لك ذلك» . قال: «بلى وأوجِعُ ظهرك» . ثم قام اليه بالدِّرَّة فضربه حتى أدماه . ثم قال: «إئت بها» . قال: «احتسبها عند الله» . قال: «ذلك لو أخذتها من حلال، وأدَّيتها طائعاً! أجئت من أقصى حجر البحرين يجبي النّاس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ ما رجعت بك أميمة ـ يعني أمّه ـ إلاّ لرعية الحمر».[1].

وفي حديث أبي هريرة: «لما عزلني عمر عن البحرين، قال لي: يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه، سرقت مال الله ! فقلت: ما أنا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه، ولكني عدوٌّ من عاداك، وما سرقت مال الله. قال: فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف ؟ فقلت: خيل تناتجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تتابعت . قال: فقبضها مني» الحديث[2] .

وكم لعمر مع عمّاله من أمثال ما فعله بخالد وأبي هريرة يعرفها المتتبِّعون.

عزل كُلاًّ من أبي موسى الأشعري، وقدامة بن مظعون، والحارث بن وهب، أحد بني ليث بن بكر، بعد أن شاطرهم أموالهم[3].

---

(١) العِقد الفريد ١/ ٤٤.

(٢) مستدرك الحاكم ٢/ ٣٤٧، فتوح البلدان للبلاذري ١/ ١٠٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٧/ ٣٧٠، فتوح مصر وأخبارها للقرشي المصري / ٢٦٢ .

(٣) فيما رواه الزبير بن بكار في كتابه ـ الموفقيات ـ ونقله عنه ابن حجر في ترجمة الحارث بن وهب في القسم الأول من إصابته [١/ ٧٠٠] . (المؤلِّف ﷺ)

أقول: ومن العجيب أنّ العامّة يعزون مشاطرة عمر لعمّاله إلى عدله في الحكم، وهم غافلون أنها تغاير العدل تماماً، فإنَّ العامل لا يعدو أحد أمرين: إما أن يكون قد سرق من أموال النَّاس، فينبغي إرجاع ما سرق منهم كَمَلاً، وإما أنَّه لم يكن قد سرق شيئاً، فلا يجوز التعرّض إلى أمواله قليلةً كانت أم كثيرةً.

وتناقض ابن تيمية في تفسيره لمشاطرة عمر في مواضع من كلماته، قال في مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٨١:

⇦

هذه مراقبة عمر لعمّاله، لا هوادة عنده لأحد منهم، لكن معاوية كان أثيرَه وخِلْصَه(١)، على ما كان من التناقض في سيرتيهما . ما كفّ يده عن شئ ولا ناقشه

⇦

«شَاطر عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه من عُمّاله مَن كان له فَضلٌ ودِينٌ لا يُتَّهَمُ بخِيانَة؛ وإنَّما شَاطرَهُم لَمَّا كانوا خُصُّوا به لأجل الوِلاية مِن مُحَاباةٍ وغَيرِها وَكان الأمرُ يقتضي ذلِك؛ لأنَّه كان إمامَ عَدلٍ يَقسِم بالسَّويَّة.»

وقال في موضع آخر من الكتاب ٥/ ٥٤٦:

«وقد ثبت أنَّ عُمر شاطر عُمّاله سعداً وخالداً وأبا هريرة وعَمرو بن العاص ولم يتَّهمهم بخيانةٍ بيِّنَةٍ بل بمُحَابَاةٍ اقتضت أن جعل أموالهم بينهم وبين المسلمين.»

إلا أنه ناقض نفسه واعترف بأنّ عُمر علم باختلاط الحرام والحلال في أموالهم، غير أنه كان يجهل مقداره الحرام وعينه، فقال في نفس الكتاب ٣٠/ ٣٢٧:

«مَن اختلط في مَاله حَلالٌ وحرامٌ ولم يَعرف أيُّهما أكثر فإنَّه يُخرِج نِصف مالِه، والنِّصفُ الباقي له حلالٌ كما فَعل عُمرُ بن الخَطَّاب بالعُمَّال على الأموال؛ فإنَّه شاطرهم. فأخذ نِصف أموال عُمّاله على الشَّام ومِصر والعراق. فإنَّه رَأى أنَّه اختلط بأموالهم شيءٌ من أموال المسلمين ولم يَعرف لا أعيان المملوك ولا مقدار ما أخذه هؤلاء من هؤلاء ولا هؤلاء من هؤلاء.»

ويرد عليه:

أوّلاً: إن صحَّ أنّ أموالهم اختلط فيها الحرام، فمن أين أخذ عُمر هذه الطَّريقة لتطهير أموالهم بمشاطرتها، ولم يرد في القرآن الكريم في هذا حكم ولا عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سنّة؟

ثانياً: لا يتّفق عادة أن تكون أموال جميع العمّال مختلطةً بالحرام على وجه يُجهل فيه معرفة الأكثر منه والأقلّ. ومثل هذا كطبيب يكتب وصفة واحدة لجميع مرضاه على مختلف أعمارهم وأمراضهم!!!

ثالثاً: ورد عن لسان عمر نفسه أنّه شاطر بعض عُمّاله متّهماً إيّاه بالسّرقة وأنّه لم يكن يملك شيئاً قبل ولايته، كما مرَّ في قصّة أبي هريرة، أنّ عُمر قال له: «عَلِمتُ أنّي استعملتُك على البحرين، وأنت بلا نعلين ! ثم بلغني أنّك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار!».
فكيف يأخذ منه شطر أمواله ويذر له الباقي وهو يعلم أنّه سرقها من المسلمين؟

(١) «أثيرَه» من الأثرة وهو المخصوص والممتاز على سواه، و«خِلْصَهُ» أي: مختاره .

الحساب في شيء، وربما قال له: «لا آمرك ولا أنهاك» يفوّض له العمل برأيه[١].

وهذا ما أطغى معاوية، وأرهف عزمه على تنفيذ خططه «الأمويّة» . وقد وقف الحسن والحسين من دهائه ومكره إزاء خطر فظيع، يهدِّد الإسلام باسم الإسلام، ويطغى على نور الحقِّ باسم الحقّ، فكانا في دفع هذا الخطر، أمام أمرين لا ثالث لهما:

إمّا المقاومة، وإما المسالمة.

وقد رأيا أنّ المقاومة في دور الحسن تؤدِّي لا محالة إلى فناء هذا الصّفّ المدافع عن الدِّين وأهله، والهادي إلى الله عزَّ وجلّ، وإلى صراطه المستقيم . إذ لو غامر الحسن يومئذٍ بنفسه وبالهاشميين وأوليائهم، فواجه بهم القوَّة الّتي لا قِبَل لهم بها[٢] مصمِّماً على التَّضحية، تصميم أخيه يوم «الطَّفِّ» لانكشفت المعركة عن قتلهم جميعاً، ولانتصرت «الأمويّة» بذلك نصراً تعجز عنه إمكانيّاتها، ولا تنحسر عن مثله أحلامها وأمنياتها . إذ يخلو بعدهم لها الميدان، تمعّن في تيهها كلَّ إمعان، وبهذا يكون الحسن ـ وحاشاه ـ قد وقع فيما فرّ منه على أقبح الوجوه، ولا يكون لتضحيته أثرٌ لدى الرَّأي العام إلاّ التنديد والتفنيد[٣].

---

(١) يقول محمود أبو رية: «مما يدعو إلى الملاحظة هنا أننا لم نجد عمر رضي الله عنه قد اتبع هذه السنة مع معاوية بن أبي سفيان، فقد أبقاه عاملا على دمشق سنين طويلة ولم يزعجه بالعزل كغيره ـ وكان ذلك مما أعان معاوية على طغيانه، وأن يحكم حكما قيصريا طوال أيامه، وبخاصة بعد أن استولى على الشام كله في عهد عثمان، ثم امتد هذا الطغيان الأموي إلى ما بعد معاوية حتى تسلم العباسيون الحكم» شيخ المضيرة أبو هريرة / ٨٦ .

(٢) كما أوضحه الشّيخ في كتابه هذا . (السيِّد شرف الدّين‌رحمه‌الله)

(٣) لأنّ معاوية كان يطلب الصُّلح مُلحّاً على الحسن بذلك، وكان يبذل له من الشُّروط لله تعالى وللأمَّة كلّ ما يشاء، يناشده الله في حقن دماء أمّة جدِّه، وقد أعلن طلبه هذا فعلمه المعسكران، مع أنَّ الغلبة كانت في جانبه لو استمرّ القتال، يعلم ذلك الحسن ومعاوية وجنودهما، فلو أصرّ الحسن ـ والحال هذه ـ على القتال، ثم كانت العاقبة عليه لعذله العاذلون وقالوا فيه ما يشاؤون . ولو اعتذر الحسن يومئذٍ بأنَّ معاوية لا يفي بشرط، ولا هو بمأمون على الدِّين ولا على الأمَّة، لما قبل العامَّة يومئذٍ عذره، إذ كانت مغرورةً بمعاوية كما أوضحناه . ولم تكن الأمويَّة يومئذٍ سافرةً ⇦

ومن هنا ﴿ى الحسن عليه السلام أن يترك معاوية لطغيانه، ويمتحنه بما يصبو إليه من المُلك، لكن أخذ عليه في عقد الصُّلح، أن لا يعدو الكتاب والسُّنّة في شئ من سيرته وسيرة أعوانه ومقوِّية سلطانه، وأن لا يطلب أحداً من الشِّيعة بذنبٍ أذنبه مع الأمويّة، وأن يكون لهم من الكرامة وسائر الحقوق ما لغيرهم من المسلمين، وأن، وأن، وأن . إلى غير ذلك من الشُّروط الّتي كان الحسن عالماً بأنَّ معاوية لا يفي له بشيء منها وأنه سيقوم بنقائضها[1].

هذا ما أعدّه عليه السلام لرفع الغطاء عن الوجه «الأمويّ» المموّه، ولِصَهر الطَّلاء[2] عن مظاهر معاوية الزَّائفة، ليبرز حينئذٍ هو وسائر أبطال «الأمويّة» كما هم جاهليين، لم تخفق صدورهم بروح الإسلام لحظة، ثأريين لم تُنسِهم مواهب الإسلام ومراحمه شيئاً من أحقاد بدر وأحد والأحزاب . وبالجملة فإنّ هذه الخطّة ثورة عاصفة في سِلم لم يكن منه بُدٌّ، أملاه ظرف الحسن، إذ التبس فيه الحقّ بالباطل، وتسنّى للطُّغيان فيه سيطرة مسلّحة ضارية .

ما كان الحسن ببادئ هذه الخطّة ولا بخاتمها، بل أخذها فيما أخذه من إرثه، وتركها مع ما تركه من ميراثه . فهو كغيره من أئمة هذا البيت، يسترشد الرِّسالة في

⇦

بعيوبها سفوراً بيّناً بما يؤيّد الحسن أو يخذل معاوية كما أسلفنا بيانه من اغترار النّاس بمعاوية وبمكانته من أولي الأمر الأولين، لكن انكشف الغطاء، في دور سيِّد الشُّهداء فكان لتضحيته عليه السَّلام من نصرة الحقّ وأوليائه آثاره الخالدة والحمد لله رب العالمين .

إقرأ فصل: «سرّ الموقف» من هذا الكتاب [/ ٣٣٧] .(المؤلّف رحمه الله)

(١) اقرأ ما يتعلق بنصوص المعاهدة وشروطها ومدى وفاء معاوية بكلٍّ منها في فصول هذا الكتاب. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) أمرٌ مَطْليٌّ أي: مُشكل مظلمٌ كأنه قد طُلِيَ بما لبّسه. لسان العرب ١٥/ ١٤، و«الصَّهْر»: الإذابة .

إقدامه وفي إحجامه . امتُحن بهذه الخطّة فرضخ لها صابراً محتسباً وخرج منها ظافراً طاهراً، لم تنجّسه الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسه من مُدْلهِمّات ثيابها.

أخذ هذه الخُطّة من صلح «الحديبية» فيما أثر من سياسة جدّه ﷺ، وله فيه أسوةٌ حسنةٌ، إذ أنكر عليه بعض الخاصّة من أصحابه، كما أنكر على الحسن صلح «ساباط»[1] بعضُ الخاصة من أوليائه، فلم يهن بذلك عزمه، ولا ضاق به ذرعه .

وقد ترك هذه الخُطّة نموذجاً صاغ به الأئمة التّسعة ـ بعد سيّدي شباب أهل الجنَّة ـ سياستهم الحكيمة، في توجيهها الهادئ الرَّصين، كلّما اعصوصب الشّرُّ ـ . فهي إذاً جزءٌ من سياستهم الهاشميَّة الدَّائرة أبداً على نصرة الحقّ، لا على الإنتصار للذّات فيما تأخذ أو تدع .

تهيَّأ للحسن بهذا الصُّلح أن يَغرِس في طريق معاوية كميناً من نفسه يثور عليه من حيث لا يشعر فيُرديه، وتسنّى له به أن يُلغِم نصر ـ الأمويّة ببارود الأمويّة نفسها . فيجعل نصرها جُفاءاً، وريحاً هَباءاً .

لم يَطُل الوقت حتَّى انفجرت أولى القنابل المغروسة في شروط الصُّلح، انفجرت من نفس معاوية يوم نشوته بنصره، إذ انضمَّ جيش العراق إلى لوائه في النُّخَيلَة[2] . فقال ـ وقد قام خطيباً فيهم ـ : «يا أهل العراق، إني والله لم أقاتلكم لتصلُّوا ولا لتصوموا، ولا لتزكّوا، ولا لتحجُّوا، وإنَّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون ! ألا وإنَّ كُلَّ شئ أعطيته للحسن بن عليّ جعلته تحت قدميَّ هاتين!»[3].

---

(١) سَابَاط: (ساباط كسرى) قرية كانت قريباً من المدائن . والتي تمّ الصُّلح فيها .

(٢) «النُّخَيْلَة»: تصغير نخلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشّام . معجم البلدان ٥/ ٢٧٨ .

(٣) مقاتل الطّالبيين / ٤٥ ، مصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٥١ ، تاريخ ابن عساكر ٥٩/ ١٥٠ ، البداية والنهاية ٨/ ١٤٠ ، شرح ابن أبي الحديد ١٦ / ٤٦ .

فلمّا تمت له البيعة خطب فذكر علياً فنال منه، ونال من الحسن، فقام الحسين ليردّ عليه، فقال له الحسن: «عَلَى رِسْلِكَ يَا أخِي». ثم قام عليه السلام فقال: «**أيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيّاً! أنَا الحَسَنُ وَأبِي عَلِيٌّ، وَأنْتَ مُعَاوِيَةُ وَأبُوكَ صَخْرٌ، وَأمِّي فَاطِمَةُ وَأمُّكَ هِنْدٌ، وَجَدِّي رَسُولُ اللهِ وَجَدُّكَ عُتْبَةُ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ وَجَدَّتُكَ فُتَيْلَةُ، فَلَعَنَ اللهُ أخْمَلَنَا ذِكْراً، وَألأمَنَا حَسَباً وَشَرَّنَا قَدِيماً، وَأقْدَمَنَا كُفْراً وَنِفَاقاً!**» فقالت طوائف من أهل المسجد: «آمين».(١)

ثم تتابعت سياسة معاوية، تتفجّر بكلِّ ما يخالف الكتاب والسُّنَّة من كلِّ منكر في الإسلام، قتلاً للأبرار، وهتكاً للأعراض، وسلباً للأموال، وسجناً للأحرار، وتشريداً للمصلحين، وتأييداً للمفسدين الّذين جعلهم وزراء دولته، كابن العاص، وابن شعبة، وابن سعيد، وابن أرطأة، وابن جندب، وابن السّمط، وابن الحكم، وابن مرجانة، وابن عقبة، وابن سمية الّذي نفاه عن أبيه الشّرعي عبيد، وألحقه بالمسافح أبيه أبي سفيان ليجعله بذلك أخاه(٢)، يسلِّطه على الشّيعة في العراق، يسومهم سوء العذاب، يذبِّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويفرِّقهم عباديد، تحت كلِّ كوكب، ويحرق بيوتهم، ويصطفي أموالهم، لا يألو جُهداً في ظلمهم بكلِّ طريق.

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٤٦، شرح ابن أبي الحديد ١٦ / ٤٧، وقال معقّباً: «قال الفضل: قال يحيى بن معين: وأنا أقول: آمين. قال أبو الفرج: قال أبو عبيد قال الفضل: وأنا أقول: آمين، ويقول علي بن الحسين الاصفهاني: آمين. قلت: ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب: آمين» انتهى.

أقول: ونحن جميعاً نقول: آمين.

(٢) وهو زياد بن عبيد، أو ابن سمية، أو ابن أبيه لخمول أبيه، أو ابن أمّه، هذا قبل الإستلحاق ولما استُلحق قال له أكثر الناس: زياد بن أبي سفيان، لأنَّ النّاس مع الملوك إلاّ من ندر. وقد ذكر قصّته كثير من المؤرِّخين. راجع شرح ابن أبي الحديد ١٦/ ١٨٠.

ختم معاوية منكراته هذه بحمل خليعه[1] المهتوك على رقاب المسلمين، يعيث[2] في دينهم ودنياهم، فكان من خليعه ما كان يوم الطَّف[3]، ويوم الحرَّة[4]، ويوم مكّة[5] إذ نصب عليها العرّادات[6] والمجانيق !

---

(١) وهو يزيد القرود والفهود، يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عليه لعائن الله كلّما طلعت شمس أو غربت .

(٢) من عاث يعيث عيثاً، أي: إذا أسرع في الفساد .

(٣) وهي واقعة كربلاء الدّامية التي قتل فيها ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه وسيد شباب أهل الجنّة عليه السلام وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً ما لهم في الأرض شبيه، في سنة ٦١هـ .

(٤) «يوم الحرَّة» المجزرة التي كانت بأمر من يزيد بن معاوية، في ذي الحجّة لثلاث بقين منها سنة ٦٣ . إذ حوصرت المدينة وقُتل أهلها قتلاً عامّاً وفيها سبعمأة رجل من حملة القرآن، و ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ونتفت لحية أبي سعيد الخدري وهو شيخٌ كبيرٌ صحابيّ، وقُتل من سائر النَّاس من الموالي والعرب والتَّابعين عشرة آلاف، وأبيحت ثلاثاً حتَّى حبلت ألف امرأة في تلك الأيّام من غير زوج!! وولد مئات الأولاد لا يعرف لهم أبٌ، وكان الرَّجل من أهلها بعد ذلك إذا أراد أن يزوِّج ابنته لم يضمن بكارتها يقول لعلَّه أصابها شيءٌ يوم الحرَّة!! وكان قائد الجيش «مسلم بن عُقبة» حيث وجَّهه يزيد إلى قتال أهل المدينة ثم أخذ البيعة من أهلها على أنهم عبيدٌ ليزيد، يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء. أنظر: الإمامة والسّياسة ١/ ١٨٥، البداية والنهاية ٦/ ٢٦٢، عمدة القاري للعينيّ ١٧/ ٢٢١، المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي ٦/ ١٦، دلائل النبوّة ٦/ ٤٧٤.

(٥) والوقعة فيه تلت يوم الحرَّة، بعد أن فرغ «مسلم بن عُقْبة» من قتال أهل المدينة، مضى إلى مكَّة المشرَّفة، يريد قتال ابن الزّبير فهلك في الطّريق، وتأمَّر بعده «الحصين بن نمير» بعهده من يزيد، فأقبل حتى نزل على مكة المعظّمة ونصب عليها العرّادات والمجانيق وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة في كلِّ يوم يرمونها بها، وحاصروهم لعشر ليال بقين من المحرَّم، سنة ٦٤، فحاصروهم بقيَّة المحرَّم وصفر وشهري ربيع يغدون على القتال ويروحون، حتى جاءهم موت يزيد وكانت المجانيق أصابت جانب البيت فهدمته مع الحريق الذي أصابه . أنظر: الإمامة والسّياسة ٢/ ١١٠، تاريخ الطَّبري ٤/ ٣٨٣، مروج الذّهب ٣/ ٧١، تجارب الأمم لابن مسكويه الرازي ٢/ ٩٠.

(٦) «**العرَّادة**»: من آلات الحرب أصغر من المنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد .

هذه خاتمة أعمال معاوية، وإنها لتلائم كُلَّ الملاءمة فاتحة أعماله القاتمة.

وبين الفاتحة والخاتمة تتضاغط شدائد، وتدور خطوب، وتزدحم محن، ما أدري كيف اتّسعت لها مسافة ذلك الزَّمن، وكيف اتّسع لها صدر ذلك المجتمع ؟ وهي ـ في الحقِّ ـ لو وُزِّعت على دهر لضاق بها، وناء بحملها، ولو وُزِّعت على عالم لكان جديراً أن يحوّل جحيماً لا يُطاق.

ومهما يكن من أمر، فالمهمُّ أنَّ الحوادث جاءت تفسِّر ـ خُطَّة الحسن وتجلوها. وكان أهمّ ما يرمي إليه سلام الله عليه، أن يرفع اللِّثام عن هؤلاء الطُّغاة، ليحول بينهم وبين ما يبيِّتون لرسالة جدِّه من الكيد.

وقد تمَّ له كُلُّ ما أراد، حتى برح الخفاء، وآذن أمر الأمويّة بالجلاء، والحمد لله ربِّ العالمين.

وبهذا استتبَّ لصنوه سيِّد الشُّهداء أن يثور ثورته الّتي أوضح الله بها الكتاب، وجعله فيها عبرةً لأولي الألباب.

وقد كانا عليهما السلام وجهين لرسالة واحدةٍ، كُلّ وجه منهما في موضعه منها، وفي زمانه من مراحلها، يكافئ الآخر في النُّهوض بأعبائها ويوازنه بالتَّضحية في سبيلها.

فالحسن لم يبخل بنفسه، ولم يكن الحسين أسخى منه بها في سبيل الله، وإنما صان نفسه يجنِّدها في جهاد صامت، فلمّا حان الوقت كانت شهادة كربلاء شهادةً حَسَنيَّةً، قبل أن تكون حُسينيَّة.

وكان يوم ساباط أعرق بمعاني التَّضحية من يوم الطَّف لدى أولي الألباب ممن تعمّق. لأنَّ الحسن عليه السلام، أعْطِي من البطولة دور الصَّابر على احتمال المكاره في صورة مستكين قاعد.

وكانت شهادة «الطَّف» حَسَنيةً أوّلاً، وحُسينيَّة ثانياً، لأنّ الحسن أنضج نتائجها،

ومهّد أسبابها.

كان نصرُ الحسن الدّامي موقوفاً على جلو الحقيقة الّتي جلاها ـ لأخيه الحسين ـ بصبره وحكمته، وبجلوها انتصر الحسين نصره العزيز وفتح الله له فتحه المبين.

وكانا عليهما السلام كأنّهما متّفقان على تصميم الخُطّة: أن يكون للحسن منها دور الصّابر الحكيم، وللحسين دور الثائر الكريم، لتتألّف من الدّورين خُطّة كاملة ذات غرض واحد.

وقد وقف النّاس ـ بعد حادثتي ساباط والطّف ـ يمعنون في الأحداث فيرون في هؤلاء الأمويّين عُصبةً جاهلية منكرة، بحيث لو مُثّلت العصبيات الجلفة النّذلة الظّلوم لم تكن غيرهم، بل تكون دونهم في الخطر على الإسلام وأهله.

رأى النّاس من هؤلاء الأمويّين، قردةً تنزو[1] على منبر رسول الله، تكشر للأمّة عن أنياب غُول[2]، وتصافحها بأيدٍ تمتدّ بمخالب ذئب، في نفوس تدبُّ بروح عقرب.

رأوا فيهم هذه الصُّورة منسجمة شائعة متوارثة، لم تخفّف من شرّها التربية

---

(١) إشارة إلى الرّؤيا التي رءآها رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام أن بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، وقد حزن صلى الله عليه وآله كثيراً لهذا الأمر بحيث لم يرَ ضاحكاً من بعدها إلا قليلاً، فعن أبي هريرة أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه [وآله] وسلَّم رأى في منامه كأنَّ بني الحكم ينزون على منبره وينزلون، فأصبح كالمتغيِّظ، فقال: «مَا لِي رَأَيْتُ بَنِي الحَكَمِ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِي نَزْوَ الْقِرَدَةِ» قال: فما رؤي رسول الله صلَّى الله عليه [وآله] وسلَّم مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات. رواه مسند أبي يعلى ١١/ ٣٤٨، مجمع الزوائد ٥/ ٢٤٤، وقال عنه: «رجاله رجال الصَّحيح، غير مصعب بن عبد الله بن الزُّبير وهو ثقةٌ»، عمدة القاري ١٩/ ٣٠.

وفي الأخبار والتَّفسير أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ (سورة الإسراء/ ٦٠) نزل في هذا الشَّأن، وأنّ الشَّجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية. أنظر: الغدير ٨/ ٢٤٨.

(٢) «الغُول»: الحيَّة. لسان العرب ١١/ ٥٠٨.

الإسلامية، ولم تطامن من لؤمها المكارم المحمَّديّة. فمضغ الأكباد يوم هند وحمزة، يرتقي به الحقد الأمويّ الأثيم، حتى يكون تنكيلاً بربريّاً يوم الطَّف، لا يكتفي بقتل الحسين، حتى يوطئ الخيل صدره وظهره. ثم لا يكتفي بذلك، حتى يترك عارياً بالعراء، لوحوش الأرض وطير السَّماء، ويحمل رأسه ورؤوس الشُّهداء من آله وصحبه على أطراف الأسنَّة إلى الشَّام. ثم لا يكتفي بهذا كلِّه، حتى يوقف حرائر الوحي من بنات رسول الله على درج السَّبي[1]!!

رأى النّاس الحسن يسالم، فلا تنجيه المسالمة من خطر هذه الوحشيّة اللَّئيمة، حتى دسَّ معاوية إليه السُّمّ فقتله بغياً وعدواناً.

ورأوا الحسين يثور في حين أتيح للثّورة الطّريق إلى أفهامهم تتفجر فيها باليقظة والحرّية، فلا تقف الوحشية الأمويّة بشيء عن المظالم، بل تبلغ في وحشيتها أبعد المدى.

وكان من الطّبيعي أن يتحرّر الرّأي العام على وهج هذه النَّار المحرَّقة منطلقاً إلى زوايا التَّاريخ وأسراره، يستنزلُ الأسباب من هنا وهناك بلمعانٍ ويقظة، وسير دائب يدنيه إلى الحقيقة، حقيقة الإنحراف عن آل محمَّد، حتى يكون أمامها وجهاً لوجه، يسمع همسها هناك في الصَّدر الأوَّل، وهي تسارّ وراء الحجب والأستار، وتدبّر الأمر في اصطناع هذا «الدّاهية الظّلوم الأموي» اصطناعاً يطفئ نور آل محمَّد، أو يحول بينه وبين الأمَّة.

نعم أدرك الرَّأي العام بفضل الحسن والحسين وحكمة تدبيرهما كلّ خافية من أمر «الأمويّة» وأمور مسدِّدي سهمها على نحو واضح.

أدرك ـ فيما يتّصل بالأمويين ـ أنَّ العلاقة بينهم وبين الإسلام إنما هي علاقة عداء

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٥٢، تاريخ ابن عساكر ٦٢/ ٨٥، أسد الغابة ٥/ ٣٨١، الكامل في التاريخ ٤/ ٨٥، البداية والنهاية ٨/ ٢٠٨.

مستحكم، ضرورة أنّه إذا كان الملك هو ما تهدف إليه الأمويّة، فقد بلغه معاوية، وأتاح له الحسن، فما بالها تلاحقه بالسُّم وأنواع الظُّلم والهضم، وتتقصّى الأحرار الأبرار من أوليائه لتستأصل شأفتهم وتقتلع بذرتهم ؟!

وإذا كان المُلك وحده هو ما تهدف إليه الأمويّة، فقد أزيح الحسين من الطّريق، وتمّ ليزيد ما يريد، فما بالها لا تكفّ ولا ترعوي، وإنما تسرف أقسى ما يكون الإسراف والإجحاف في حركة من حركات الإفناء على نمط من الإستهتار، لا يعهد في تاريخ الجزّارين والبرابرة[1]؟؟

أمّا ما أنتجته هذه المحاكمة لأولي الألباب، فذلك ما نترك تقديره وبيانه للعارفين بمنابع الخير، ومطالع النُّور في التّاريخ الإسلامي، على إنّا فصّلناه بآياته وبيّناته في مقدمة «**المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطّاهرة**» فليراجع، ولنكتف الآن بالإشارة إلى ما قلناه في التّوحيد بين صلح الحسن وثورة الحسين، والتعاون بين هذين المظهرين، على كشف القناع عن الوجه الأمويّ المظلم، والإعلان عن الحقيقة الأمويّة، فأقول عوداً على بدء:

كانت شهادة الطّفّ حسنيّةً أوّلاً، وحسينيّة ثانياً. وكان يوم ساباط، أعرق بمعاني الشّهادة والتّضحية من يوم الطّفّ عند من تعمّق واعتدل وأنصف.

الفضل في كشف هذه الحقيقة إنما هو لمولانا ومقتدانا علم الأمّة، والخبير بأسرار الأئمّة، حجة الإسلام والمسلمين، شيخنا المقدّس الشّيخ راضي آل ياسين أعلى الله مقامه.

ذلك لأنّ أحداً من الأعلام لم يتفرّغ لهذه المهمّة تفرُّغه لها في هذا الكتاب الفذّ

---

(١) «البربر»: قوم من أهل المغرب كالأعراب في القسوة والغلظة.

الّذي لا ثاني له، وها هو ذا مشرف من القِمّة على الأمّة، ليَسدَّ في مكتبتها فراغاً كانت في فاقة إلى سدِّه، فجزاه الله عن الأمّة وعن الأئمة، وعن غوامض العلم الّتي استجلاها، ومخبآته الّتي استخرجها، ومحّص حقائقها، خيرَ جزاء المحسنين، وحشره في أعلى علّيين ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

حرّر في صور (جبل عامل).

في الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة والف من الهجرة.

عبد الحسين شرف الدّين

الموسوي العاملي

(١) سورة النِّساء / ٦٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

المقدّمة

وهأنذا مقدِّمٌ ـ الآن ـ بين يدي قارئي الكريم، عُصارة بحوث تستملي حقايقها من صميم الواقع غير مدخول بالشُّكوك، ولا خاضع للمؤثِّرات عن الحقبة المظلومة التّاريخ، الّتي لم يحفل في عرضها ـ بما تستحقّ ـ مؤرِّخونا القُدامى، ولم يعنِ في تحليلها ـ كما يجب ـ كُتَّابنا المحدِّثون.

تلك هي قطعة الزَّمن الّتي كانت عهد خلافة الحسن بن عليٍّ عليهما السلام في الإسلام والَّتي جاءت بين دوافع الأوّلين، وتساهل الآخرين، صورةً مشوَّهة من صور التّاريخ. وتعرّضت في مختلف أدوارها لما كان يجب أن يتعرّض له أمثالها من الفترات المطموسة المعالم، المنسيّة الحقائق، المقصودة ـ على الأكثر ـ بالإهمال أو بالتَّشويه، فإذا بالحسن بن عليٍّ (عليه وعلى أبيه أفضل الصَّلاة والسَّلام) في عُرف الأكثرين من المتسرِّعين بأحكامهم ـ من شرقيِّين وغربيِّين ـ الخليفة الضَّعيف السِّياسة ! المتوفّر على حُبِّ النِّساء! الّذي باع «الخلافة» لمعاوية بالمال!! إلى كثير من هذا الهذر الظَّالم، الّذي لا يستند في مقاييسه على منطق، ولا يرجع في تحكُّماته إلى دليل، ولا يعنى في ارتجاليّاته بتحقيق أو تدقيق.

وعَمَدَت هذه الفصول إلى تفلية هذه الحُقبة القصيرة من الزَّمن بما هي ظرف أحداث لا تقلُّ بأهميَّتها ـ في ذاتها ـ ولا بموقعها «الإستراتيجيّ» في التّاريخ ـ إذا صحَّ هذا التَّعبير ـ عن أعظم الفترات الّتي مرَّ بها تاريخ الإسلام منذ وفاة الرَّسول صلى الله عليه وآله

وإلى يوم النّاس، لأنّها كانت ظرف الخلافة الفريدة من نوعها في تاريخ الخلائف الآخرين، ولأنها بداية إقرار القاعدة الجديدة في التمييز بين السُّلطات الرُّوحية والسُّلطات الزّمنية في الإسلام، واللّحظة الّتي صدقت بأحداثها الحديث النّبويّ الشّريف الّذي أنبأ برجوع الأمر بعد ثلاثين عاماً إلى المُلك العضوض[1]، ولأنها الفترة الّتي تبلورت فيها الحزازات الطائفيّة لأوّل مرّةٍ في تاريخ العقائد الإسلامية.

ولم يكن قليلاً من مجهود هذه الفصول، أن ترجع ـ بعد الجهد المرتخص في سبيلها ـ بالخبر اليقين عن الكثير من تلك الحقائق ـ أبعد ما تكون تأتّياً في البحث، وأكثر ما تكون تفسّخاً في المصادر، وأقلّ ما تكون حظّاً من تسلسل الحوادث وتناسق الأحداث ـ فتعرضها في هذه السُّطور مجلوّة على واقعها الأوّل، أو على أقرب صورة من واقعها الّذي تنشأت عليه بين أحضان حيلها المختلف الألوان.

فإذا الحسن بن عليّ عليه السلام ـ بعد هذا ـ وعلى قصر عهده في خلافته، من أطول الخلفاء باعاً في الإدارة والسّياسة، والرّجل الّذي بلغ من دقّته في تصريف الأمور، وسموّه في علاج المشكلات، أنه استغفل معاوية بن أبي سفيان أعنف ما يكون في موقفه منه حذراً وانتباهاً واستعداداً للحبائل والغوائل.

---

(١) حديث: «**الخِلَافَةُ ثَلاثُونَ عَامَاً ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ المُلْكُ**» روته مصادر العامّة بألفاظ متقاربة عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، أنظر: مسند أحمد ٥/ ٢٢٠، صحيح ابن حبان ١٥/ ٣٥، الحاكم في المستدرك ٣/ ٧١ وصحّحه، ابن حبّان ١٥/ ٣٩٢، المعجم الكبير للطبراني ١/ ٥٥، الترمذي ٣/ ٣٤١ وحسّنه، جامع بيان العلم لابن عبد البرّ ٢/ ١٨٤، وفي هامش مسند أحمد المحقّق ٣٦/ ٢٤٨، قال: «إسناده حسنٌ، رجاله ثقات، رجال الصّحيح غير سعيد بن جُمان فهو صدوق من رجال أصحاب السُّنن.» ومن المعاصرين صحّحه الألباني في سلسلته الصّحيحة ١/ ٨٢٠، وذكر تصحيح مَن قبله من العلماء.

وإذا بزواجه الكثير دليل عظمته الرُّوحية في النّاس⁽¹⁾.

---

(١) إنَّ موضوع كثرة زواج الإمام الحسن عليه السلام، ووصفه أنّه كان مزواجاً مطلاقاً، من المسائل التي أخذت جانباً من الأخذ والرَّد بين القبول والرَّفض.

وممّا يؤسف له أنَّ قضيّة كهذه وفي غاية من الأهميَّة، لم يتناولها الباحثون المنصفون بالبحث والتَّحليل ولم يحققوا فيها كما ينبغي، ما جعل أعداء أهل البيت عليهم السلام وحاقديهم الَّذين يتربّصون بهم الدَّوائر أن يتمادوا في التهريج والتَّشنيع على الشِّيعة في قولهم بعصمة الأئمة عليهم السلام قاصدين من وراء ذلك الحطَّ من كرامتهم والإنتقاص من منزلتهم والإخفاء لشأنهم صلوات الله عليهم أجمعين.

فهناك اتجاهات ثلاثةٌ سلكها الباحثون:

الأوّل: ما اختاره صاحب هذا الكتاب من أنّ زواجه الكثير، إنّما اقتضته المناسبات الشَّرعية. فقال: «ونَسَب النّاس إليه زوجاتٍ كثيراتٍ، صعدوا في أعدادهن ما شاؤوا.. وخفي عليهم أنَّ زواجه الكثير الّذي أشاروا إليه بهذه الأعداد، وأشار إليه آخرون بالغمز والإنتقاد، لا يعني الزّواج الّذي يختصُّ به الرَّجل لمشاركة حياته، وإنما كانت حوادث استدعتها ظروف شرعيَّة محضة. من شأنها أن يكثر فيها الزَّواج والطّلاق معاً، وذلك هو دليل سمتِها الخاصّة.» الصَّفحة / ٦٣ من هذا الكتاب.

وتوضيحه: أنّ بعض النّاس ربما كان يطلِّق زوجته ثلاثاً، بنحو لا تحلّ له، إلا بعد أن تتزوج زوجاً غيره، فيزوِّجُها من الإمام ليطلِّقها بعد هذا ثمّ ليتزوَّجها هو بعد ذلك، ويفترض المؤلِّف أنَّ الإمام، كان دورُه دورَ المحلِّل لمن بانت عنه زوجته.

الثّاني: أنّ السبب في كثرة زواجه وبالتالي كثرة طلاقه كانت دوافعه في الواقع محبَّة النَّاس الخالصة للبيت النَّبويّ الطّاهر، فكانوا يعرضون عليه المصاهرة ليشرف نسبهم بنسب رسول الله صلى الله عليه وآله، فينالهم بذلك فخر وإكبار، مع علمهم المسبق بالطّلاق الغير بعيد من هذا الزّواج. يقول الدّكتور محمّد عبده اليماني في كتابه: علّموا أولادكم محبّة آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله / ١٢٥: «وكان كثير الزّواج والطّلاق من كثرة ما يعرض عليه النّاس المصاهرة رغبةً منهم في أن يتّصل نسبهم بنسب رسول الله صلى الله عليه وآله»

الثّالث: هو إنكار هذه النِّسبة بالكلّية، واعتبارها فريةً محضةً حاكها أعداؤه من بني أميّة وبني العبَّاس بعدهم، لأغراضٍ سياسيّة دنيئة.

تقييم هذه الإتِّجاهات:

الإتِّجاه الأوّل: لا يمكن أن يُصار إليه أبداً، وإنّي لأعجب من مثل صاحب هذا الكتاب مع سلامة ⇦

⇨

ذوقه وجودة تفكيره وطول باعه في التَّاريخ كيف اتّجه هذا الرَّأي وتبنّاه.

وهل أنَّ ما رُوي في الإمام الحسن عليه السلام من كثرة زواجه وطلاقه بدرجة من الإعتبار والصِّحة حتى يضطرّ الباحث للتسليم لها دون أيّما حيلة؟ ثمّ تصوير كون الإمام عليه السلام يتزوّج الواحدة تلو الأخرى فلا تمكث عنده إلا سويعات أو أيّام حتى يسرِّحها، وهو يقوم بدور المحلِّل، فلا تراه إلاّ متزوّجاً أو مطلِّقاً أو جامعاً بينهما، لعمري هذا فعلٌ تأباه نفوس أواسط النَّاس، فكيف بالإمام الحسن عليه السلام ؟

أين أخوه الإمام الحسين عليه السلام؟ ألم يحظَ بعظمةٍ روحيّةٍ في النّاس كأخيه عليهما السلام؟ فهو أيضاً ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته من الدُّنيا. فلماذا لم يتوجّه إليه المسلمون المتأزِّمون بالطَّلقات الثَّلاث حتى يخفِّفوا الوطئة على أبي محمّد الإمام الحسن عليه السلام ؟!

وسيأتي ذكر الرِّواية الّتي اعتمد المصنِّف عليها في تصحيح النّسبة إلى الإمام عليه السلام، وأنّ الرِّواية على فرض تسليمها فهي من الآحاد، شاذّةٌ لا يُقاس عليها.

الإتجاه الثّاني: وهو قول لا ينهض به شاهدٌ معتبرٌ ولا يقوم به دليلٌ صحيح، والحديث عن محبّة منقطعة النَّظير للنَّاس تجاه الإمام الحسن عليه السلام بحيث يُقدِمون على مثل هذا الفعل، يُنبئ عن مدى جهل قائله بالتَّاريخ والسِّير، فإنَّ أهل البيت عليهم السلام لا زالوا مظلومين مضطهدين، لا يتقرّب إلى الله بحبّهم إلاّ القليل من النّاس، وهؤلاء القليل أيضاً لا أظنُّ محبتهم تدفعهم إلى مثل هذا الصَّنيع.

ولا أدري لماذا هذه المحبّة الفائقة المزعومة بتوابعها المزعمة، لم تحتف بالإمام الحسين عليه السلام - كما تقدَّم -؟

الإتِّجاه الثّالث: إنكار هذه النِّسبة جملةً وتفصيلاً. وهو الصَّحيح كما عليه جملةٌ من المحقِّقين الباحثين. فإنّ جميع ما رُوي في هذا الشّأن مصنوعٌ موضوعٌ لا يلتفت إليه. كيف لا ولسان جميع الرِّوايات الواردة في هذه الشَّأن لسان الإنتقاص والقدح والتَّقليل من شأن الإمام الحسن عليه السلام ولا يمكن تأويلها بما يوافق عصمته وكرامته إلا بتكلُّف مستقبح. بل هي صريحةٌ صراحة قاطعة في أنّ كثرة زواج الإمام عليه السلام وطلاقه تجاوز الأمر إلى حدِّ الضّعة والمهانة، ممَّا جعل أباه أمير المؤمنين عليه السلام يخطب في النَّاس عامّة فيحذّرهم الخطر المداهم بمصاهرة ابنه لهم: «**لا تُزَوِّجُوا الْحَسَنَ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مِطْلَاقٌ**» الكافي الشّريف ٦/ ٥٦.

ويقول عليه السلام متخوّفاً مما يصنعه ابنه من كثرة زواجه وطلاقه في موضع آخر: «**مَا زَالَ الْحَسَنُ يَتَزَوَّجُ وَيُطَلِّقُ حَتَّى حَسِبْتُ أَنْ يَكُونَ عَدَاوَةٌ فِي الْقَبَائِلِ**». أنظر: المصنّف لابن أبي شيبة ٤/ ١٧٢، سير أعلام النّبلاء للذّهبي ٣/ ٢٦٧، تاريخ الخلفاء / ٢٠٩.

⇦

⇨

والعجيب من بعض المحققين حيث توقّف في هذا الأمر متحيراً بحال الرّوايات الواردة من طرقنا في كثرتها ـ على حدّ تعبيره ـ، فيقول: «وبالجملة فالمقام محلُّ إشكال، ولا يحضرني الآن الجواب عنه، وحَبسُ القلم عن ذلك أولى بالأدب». (الحدائق النّاضرة ٢٥/ ١٤٨).

فيقال:

أوّلاً: ليست هذه الرِّوايات بالكثيرة عندنا حتّى تورث ظنّاً بصحّتها.

ثانياً: إنّ صحة السَّند لا يلزم منه صحة المتن بالضّرورة، فإنّ السَّند إنْ صحّ يصحّ المتن ما لم يتعارض مع دليل أقوى، والحال هنا كذلك .

فإنّ الأخبار ولو كثرت طرقها وتعدّد نقلها واشتهر أمرها، فإنّها مردودةٌ يقيناً، والسِّر في ذلك أنّ عصمة مولانا الإمام الحسن عليه السلام وكرامته وشرفه وسؤدده وكماله ثبت بنصّ القرآن الكريم: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** سورة الأحزاب/ ٣٣، وغيره من الآيات وحديث النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ**» وأنهما «**إمَامَانِ قَامَا أوْ قَعَدَا**» فلا يلتفت إلى كلِّ ما قيل أو يقال في الإمام عليه السلام إذا وجد فيه أدنى رائحة من التَّقليل في شأنه وعظمته، لأنّه مخالف لأصول معتقدنا .

وهل يُعقل برجلٍ يراه أمير المؤمنين عليه السلام بعضاً منه، بل كُلَّه، فيقول: «**وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي وَكَأَنَّ المَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي**» نهج البلاغة ٣/ ٣٨، كتاب / ٣١، ثمّ يوبِّخه بمرأى ومسمع من النّاس بمختلف أفرادهم، بما فيهم المنافقون والّذين في قلوبهم مرض، ويحبوه بما لا يحبو مثلَه والدٌ ولده ويحذّر المسلمين من تصرُّفاته؟

وهل يُعقل بأمير المؤمنين عليه السلام أن يصف ابنه بهذا الوصف القارص، ثمّ يُعرِّفه للنّاس إماماً من بعده؟ أليس ذلك ـ والعياذ بالله ـ يعدُّ تنقيصاً في إمامته عليه السلام ؟!

ما حدا بأمير المؤمنين عليه السلام أن ينبري للناس فيحذّرهم من مصاهرة الحسن عليه السلام وغبّها؟ أو ليس هو أباه، ووليّ أمره، وإمامه المفترضة عليه طاعته، فتوجيه النّهي له أولى منه إلى النّاس، أو هل كان يفقد أذُناً واعية من ابنه فلا يرى فيه للنُّصْحِ محلاً، وللإرشاد فائدةً؟

أليس في هذا الخلاف القائم بين أمير المؤمنين وابنه الحسن عليه السلام ما يبعث بالطّمع عند معاوية أن يستقلّ الوضع لشنّ حملةٍ إعلاميّةٍ واسعة النّطاق على أمير المؤمنين عليه السلام ؟ ويحتجّ عليه بعجزه من إدارة أسرته وتربية عائلته فكيف يمكنه إدارة أمّة والقيام بهدايتها وتوجيهها؟

⇦

⇨

والظّاهر أنّ أمير المؤمنين ع قد انزوى وحيداً، في هذه الحادثة، إذ لا ولد فيتّبعه، ولا أمّة فتمتثل أمره. اللّهمّ نعوذ بك من سُبات العقل وقبح الزّلل.

وهذه الرّوايات الكثيرة الّتي تحدّث عنها البعض فهي لا تتجاوز ثلاث روايات فقط! إليكها:

الرّواية الأولى: روى أبو جعفر محمّد بن يعقوب الكُليني رحمه الله عن حميد بن زياد، عن الحسن بن محمد بن سماعة، عن محمد بن زياد بن عيسى، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله ع قال: «**إنَّ عَلِيّاً ع قَالَ وهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: لا تُزَوِّجُوا الْحَسَنَ، فَإِنَّه رَجُلٌ مِطْلَاقٌ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: بَلَى واللهِ لَنُزَوِّجَنَّه وهُوَ ابْنُ رَسُولِ اللهِ ص وابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع فَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَ وإِنْ شَاءَ طَلَّقَ**» الكافي الشّريف ٦/ ٥٦.

الرّواية موثّقة، فحميد بن زياد والحسن بن محمد بن سماعة، واقفيان وُثِّقا.

الرّواية الثّانية: أيضاً عنه، قال: عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن جعفر بن بشير، عن يحيى بن أبي العلاء، عن أبي عبد الله ع قال: «**إنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ ع طَلَّقَ خَمْسِينَ امْرَأَةً، فَقَامَ عَلِيٌّ ع بِالْكُوفَةِ فَقَالَ: يَا مَعَاشِرَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لا تُنْكِحُوا الْحَسَنَ فَإِنَّه رَجُلٌ مِطْلَاقٌ، فَقَامَ إِلَيْه رَجُلٌ فَقَالَ: بَلَى واللهِ لَنُنْكِحَنَّه، فَإِنَّه ابْنُ رَسُولِ اللهِ ص وابْنُ فَاطِمَةَ ع، فَإِنْ أَعْجَبَتْه أَمْسَكَ وإِنْ كَرِه طَلَّقَ.**» الكافي الشّريف ٦/ ٥٦.

والرّواية ضعيفةٌ بيحيى بن أبي العلاء فليس له توثيق، وقال عنه الفقيه المحقّق السيّد الخوئي: «وهو غير يحيى بن العلاء الثّقة، وقد توهّم بعضهم اتّحادهما، ولكن الظّاهر أنهما شخصان، أحدهما موثّق والآخر غير موثّق وهو ابن أبي العلاء.» كتاب الحج ٤/ شرح٢٢٦.

وهي تتّحد مع الأوّل في المتن مع اختلاف طفيف.

وأمّا بحسب الدّلالة، فإضافة إلى التّساؤلات العديدة الّتي تحوم عليها وقد ذكرنا بعضاً منها في ما تقدّم، فإنّنا نتساءل:

ما هو السّبب الّذي دعى الإمام الصّادق ع أن يحدّث عن حال جدّه الإمام الحسن ع بما ليس فيه أيُّ فضل يفتخر به أو منقبة يعزى لها، إنْ أغضينا النّظر عن القدح الصّريح فيه.

هذا الإستغراب قد ألفت نظر المحدّث الكُليني رحمه الله من قبل، ما اضطرّه أن يُدرج الرّوايتين في ضمن مُسوّغات الطّلاق، فبعد أن عقد بابا أسماه: «**باب: تطليق المرأة غير الموافقة**» [الكافي الشّريف ٦/ ٥٥]، جعلهما في الباب. إلاّ أنّ هذا الصُّنع لم يجد نفعاً، لأنَّ مفاد الرّوايتين لا ينسجم مع عنوان الباب، حيث أنّ قضية الإمام الحسن ع تفاقمت حتى تجاوزت المسوّغ وبلغت المحذور.

⇦

⇨

وقد أشار إلى هذا الأمر المحدِّث البحرانيُّ فقال: «وربما حمل بعضهم هذه الأخبار على ما تقدّم في سابقتها من سوء خلق في أولئك النّساء أو نحوه ممّا يوجب أولويّة الطّلاق، ولا يخفى بعده، لأنه لو كان كذلك لكان عذراً شرعيّاً، فكيف ينهى أمير المؤمنين عن تزويجه والحال كذلك.» الحدائق النّاضرة ٢٥/ ١٤٨.

فلا أدري أيّ باب يمكنه أن يستضيف هذين الرِّوايتين، وأيّ عنوان يمكنه أن يحتضنهما، اللّهمّ إلاّ أن نُبدع لهما ولمثيلاتهما عنواناً باسم: «**التُّراث المنبوذ من المعدود في الشُّذوذ**» فهذا أليق بتلكم الرِّوايات وهي أليق به!

الرِّواية الثّالثة: عن أحمد بن محمد بن خالد البرقيّ، عن ابن محبوب، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله قال: «**أَتَى رَجُلٌ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ لَهُ: جِئْتُكَ مُسْتَشِيراً، إِنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ خَطَبُوا إِلَيَّ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، أَمَّا الْحَسَنُ فَإِنَّهُ مِطْلَاقٌ لِلنِّسَاءِ، وَلَكِنْ زَوِّجْهَا الْحُسَيْنَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لابْنَتِكَ**» المحاسن ٢/ ٦٠١.

والرِّواية يحوم حول سندها عدّة من الإشكالات:

أوّلاً: شخص أحمد بن محمد بن خالد وإن كان ثقةً في نفسه، إلاّ أنَّ مروياته لا تنفكّ عن شبهة، كما قاله النّجاشي: «وكان ثقةً في نفسه، يروى عن الضُّعفاء واعتمد المراسيل» رجال النّجاشي / ٧٦.

ثانياً: في روايته عن الحسن بن محبوب تأمّلٌ، لأنَّ الحسن بن محبوب مات في آخر سنة أربع وعشرين ومأتين (رجال الكشي ٢/ ٨٥١)، وأحمد بن أبي عبد الله البرقي تُوفِّي سنة أربع وسبعين ومائتين، أو سنة ثمانين ومائتين، على خلاف في ذلك. (رجال النّجاشي / ٧٧) فروايته عنه بالمباشرة بعيدةٌ، فشبهة الإرسال قائمةٌ. اللّهُمَّ إلاّ أن يقال: أنّه يروي عن أبيه، عن ابن محبوب، ولكنّه يفتقر إلى القرينة.

٣ـ كتابه «**المحاسن**» اعترضه النّجاشيّ بالرَّيب، فلم يعد يمكن للباحث البتُّ بصحّة نسبة جميع ما فيه إلى مصنّفه، قال: «وصنّف كتباً منها المحاسن وغيرها، وقد زيد في المحاسن ونُقص» رجال النَّجاشي / ٧٦

وأمّا الدّلالة فهي تضمّ أموراً يعسُر، بل لا يمكن قبولها، منها:

الأمر الأوّل: اجتماع الإمامين الحسنين وابن جعفر على خِطبة امرأةٍ واحدةٍ، لا يكاد يقع من نوعه بالمصادفة عادةً، ومن نظر في سيرة ذين الإمامين وما يكنّ أحدهما للآخر من محبّة خالصةٍ وودٍّ صادق وحنان متبادل، لا يختلج في ذهنه أنّهما يُقدمان على خِطبة امرأةٍ واحدةٍ ويقع

⇦

⇨

نظرهما عليها، ويبعثهما ذلك بطبيعة الحال، إلى الحرص والمنافسة.

والمعلوم من سيرة الإمام الحسين عليه السلام أنّه كان يؤثِر أخاه الإمام الحسن عليه السلام في كلِّ خير يُغتبط، وفضيلةٍ يُتسابق عليها.

أضف إلى ذلك: أنَّ من المبغوض في الدِّين والخُلُق أن يخطب الرَّجل على خِطبة أخيه المؤمن، حتّى يترك الأوَّلُ قبله الخِطبة أو يأذن له. فما بالك بالإمام الحسين عليه السلام، فأنّى يُعقل بمثله أن يُقدم على تلك الجرأة على أخيه في الدِّين والنَّسب، بل إمامه وسيِّده ومولاه.

الأمر الثّاني: يَذكُر هذا النَّصُّ أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أشار إلى ذلك الرَّجل بتجنُّبه مصاهرة الإمام الحسن عليه السلام وأرشده إلى أبي عبد الله الحسين عليه السلام، معلِّلاً ذلك بقوله: «**زَوِّجْهَا الْحُسَيْنَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لِابْنَتِكَ**» وتُعرف خطورة هذا الموقف من أمير المؤمنين عليه السلام إذا ضممنا إليه النَّبويّ المتواتر: «**إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَه ودِينَه فَزَوِّجُوه**» فعليه تكون النّتيجة بالبداهة والضّرورة قصور الإمام الحسن عليه السلام بالخُلُق، أو الدِّين أو كلاهما جميعاً، فالمطلاق للنِّساء مذمومٌ في الدِّين والأخلاق. وبطلان هذا لا يخفى على السَّفيه فضلاً عن النّبيه. وحاشا أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن ذلك.

أقول: فقد تبيّن إلى هنا أنَّ جميع ما يمكن أن يذكر في هذه النِّسبة ثلاث روايات، أولاهما موثّقة، والثّانية ضعيفةٌ، والثّالثة يعتريها الرّيب والشكّ. فأين الرّوايات الكثيرة إذاً؟

وأمّا ما يتعلّق بروايات الجمهور فلا غرو أن تكون كتبهم تضم هكذا تراث بغيض وحاقد على الإمام الحسن عليه السلام ولا يعجب الباحث من ذلك، فإنّه تولّت صياغته أيدٍ غير أمينة وألسن غير نزيهة من الكذب والإفتراء والدّجل والدّهاء. تراث ورثوه من سادتهم وكبرائهم بني أمية، وأزلامهم، ومن رام الوقوف على تفصيل الرّوايات الواردة في الموضوع من كتب العامة وبيان كذبها والرّد عليها فأرشده إلى ما كتبه المرحوم الشَّيخ باقر شريف القرشيّ رحمه الله في «حياة الإمام الحسن عليه السلام» ٢/ ٤٥١، وكتاب: «القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن عليه السلام» للشّيخ وسام برهان البلداوي المعاصر، طبع ونشر العتبة الحسينيّة المقدّسة. ففيهما ـ خصوصاً الثّاني ـ البحث مستوفىً.

وأختم بحثي هنا بملاحظات للمحقِّق السّيد محمد جواد فضل الله رحمه الله والّتي سجّلها تعليقاً على ما رُوي في الموضوع، خاصّةً على ما أثبته ابن أبي الحديد في شرحه من رواية ابن المدائني:

قال في كتابه القيّم: «صلح الإمام الحسن عليه السلام أهدافه ونتائجه» / ٢١٣ـ٢٠٨ :

١ ـ «الّذي ذكره المؤرِّخون من أسماء زوجات الإمام الحسن لا يتجاوز التِّسعة، وهُنَّ اللاّتي ذكرهن المدائنيُّ في روايته الأولى [أنظر شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ٢١، في ترجمة الإمام

⇦

⇨

الحسن عليه السلام]، ويبقى لنا في ذمّة التّأريخ إحدى وستّون زوجة مجهولة الإسم والنّسب، إذا أخذنا بالإعتبار روايته الثّالثة، من أنّه أحصِيت زوجات الحسن بن عليّ فكنّ سبعين امرأة [شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ٢١]، ومن البديهيّ أنّ الإمام الحسن ليس بذلك الإنسان المغمور شرفاً، ونسباً، وعنواناً، ومركزاً، حتى لا يعرف النّاس عن حياته إلاّ النّزر القليل، وهل يتصوّر أنّ الإمام يتزّوج في حياته سبعين امرأة دون أن يكون لهنّ أو لأكثرهن ذكر أو خبر في كتب التّاريخ؟ خصوصاً وأنّ زواج الإمام من بيت أو قبيلة، يُعدّ من المفاخر التي تتناقلها الألسن، وتشمخ بها النّفوس، وأيّ صهر أشرف وأعظم من ابن بنت رسول الله، وسلالة عليّ؟ ولا نفهم أيّ مغزى من كتمان أسماء من لم يُعرف من زوجاته المزعومة مع توفّر الدّواعي لذكرها، خصوصاً وأنّ بني أمية كانوا يعدّون عليه أنفاسه، ويترصّدون خطاه، فلو كان شيءٌ من ذلك، لكان وسيلتهم الفريدة للعيب عليه، والتنقيص من مقامه.

٢ـ والّذي يُؤيّد كذب هذ الرّوايات المفترات أنّ معاوية في مراسلاته للإمام قبل الصُّلح لم يعِب عليه بشيءٍ من ذلك، بل ولم يُشر إليه من قريب أو بعيد، ولو كان شيءٌ من ذلك لعابه به وشنّع عليه من خلاله.

٣ـ كما لم يُسمع من أحدٍ ممَّن خاصم الإمام، ونصب له العداوة، وتهجّم عليه، كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والوليد بن عقبة، وأضرابهم، شئ من ذلك مع أنّهم كانوا من أشدِّ النّاس عليه، وأسبقهم للنَّيل منه، لما لا قُوّة من تنقُّصه لهم ومصارحته لهم بمثالبهم، ومخازيهم، وأيُّ عيب يعاب به المرء أشنع من أن يكون عشير النِّساء، وصريع الشَّهوة. وربما يكون دليلاً قويّاً على كذب تلك الرِّوايات واختلاقها.

٤ـ لو قارنّا بين نسبة أولاد الإمام إلى نسبة أزواجه عدداً لكانت ضئيلةً جدّاً، وهي واحد من خمسة، هذا لو جعلنا لكُلِّ أمٍّ ولداً واحداً، مع أنّ بعض الأمّهات كان لها منه ولدان أو أكثر، وعليه فتتضائل النِّسبة إلى واحد من ستَّة، أو سبعة، ومن الغريب ! أنّ أكثر نساء الإمام كانت مبتلاة بداء العُقم، ولا تلد منهن إلاّ واحدةٌ من خمس، على أكثر التَّقادير، وهو فرضٌ، لا يمكن أن تلعب الصُّدفة فيه دورها إلاّ بنسبة الواحد في ألوف الملايين، وهو فرض شاذٌّ يمتنع وقوعه عادةً، ولبيان ذلك نقول:

لو تَزوّج إنسان امرأةً، يكون احتمال عُقمها بنسبة عشرة في المائة، أمّا لو تزوّج اثنتين، فيكون احتمال عُقمها بنسبة خمسة في المائة، أمّا لو تزوّج ثلاثةً، فإنَّ النّسبة تنخفض إلى عشرة بالألف، أمّا لو تزوّج أربعة، فإنّها تنخفض إلى نسبة واحد في عشرة آلاف، وهكذا كلّما تصاعد عدد الأزواج،

⇦

⇨

ينخفض معدّل النّسبة إلى الأقل، حتى تصل إلى حدٍّ يبعد معه الإحتمال بل يصبح ممتنعاً عادةً.

وأيُّ صدفة هذه، أن تكون إحدى وستُّون امرأة يتزوَّج الإمام الحسن، ولا يكون لها قابلية الولادة؟

وعلى هذا، فلم يثبت تاريخياً بعد البحث، من زوجات الإمام إلاّ تسعة، وهن اللاَّتي ذكرهن المدائنيُّ بأسمائهن ونسبهن، وهو عددٌ لا يستدعي هذا التَّشنيع والتقوُّل، فالنّبيُّ صلى الله عليه وآله كان له تسعة نساء، وما أكثر من تزوَّج بمثل هذا العدد أو أكثر من الصّحابة وغيرهم.

وأمّا الطّلاق .. فلم يحدِّثنا التَّاريخ إلاّ عن اثنتين، طلَّقهما الإمام لداع اقتضى ذلك.

إحداهما: حفصةُ بنت عبد الرَّحمن بن أبي بكر، التي كان يهواها المنذر، فوشى بها للإمام بشيءٍ لم يذكره التَّاريخ، والظَّاهر أنّه أمرٌ لا يناسب الإمام معه أن يبقيها في عصمته، بل ويكفي في ذلك نفس الوشاية، التي قد تصبح بعد ذلك وسيلة للتّشهير.

الثَّانية: امرأة من بني شيبان من آل همّام بن مُرَّة، وكان طلاقه لها بعد أن قيل له: بأنّها ترى رأي الخوارج، وقد اعتذر الإمام عن طلاقها، بأنّه يكره أن يضمّ إلى نحره جمرةً من جمر جهنَّم.

ولم يحدِّثنا التَّاريخ عن ثالثةٍ طلّقها الإمام فيمن طلّق، ولو كانت، فطلاقها وطلاق الخامسة، لا يستحقُّ هذا التَّشنيع، وهذا التقوُّل، وربما يكون للإمام عذره في ذلك، كما هو الحال بالنِّسبة لزوجتيه اللّتين طلّقهما.

إذاً .. أين يكون موقع تلك الإتّهامات، بأنّ الإمام كان مزواجاً مطلاقاً ..؟ وأين هنّ زوجاته السَّبعين؟ .. وأين هنّ مطلَّقاته الكثيرات؟ .. وهل كان معاوية وعملاؤه ومن اشترى منهم دينهم، ليتورّعون عن اختلاق الأكاذيب، وتنسيق الافتراءات، على الإمام الحسن؟

إنّهم لم يجحدوا فيه ما يعيبونه، فزيَّنت لهم أحقادهم أن يصنِّفوا من المعايب ما ينالون به من مقام الإمام ومركزه، فلفقوا مهزلة المزواج المطلاق، ونسبوا لأبيه الإمام عليٍّ عليه السلام، قوله: «**لَقَدْ تَزَوَّجَ وَلَدِي الحَسَنُ وَطَلَّقَ حَتَّى خِفْتُ أَنْ يُثِيرَ عَدَاوَةً**» [شرح النهج ١٦/ ١٢]، وغير ذلك من النِّسب المفترات.

ومن هنّ من النّساء اللاَّتي تزوّجهن الإمام الحسن عليه السلام، وطلّقهن على عهد أبيه حتى يُقرّضه بهذا التَّقريض على لسانه؟ ..

ومن هم هؤلاء الّذين تزوّج منهم الإمام وطلّق؟ ولماذا سكتوا عن ذلك؟ ولا أقلّ من إظهار مشاعرهم في خسارتهم لمثل هذا الصِّهر العظيم.

إنهم ما كانوا، ولا كُنَّ بناتهم ولم يكن هناك زواج أو طلاق، بل هي تلفيقات حبكتها أميّةٌ بلؤمها

⇦

وإذا «بالصُّلح» الَّذي حاكه على معاوية أداته الجبّارة للقضاء على خصومه في التَّاريخ، دون أن يكون ثمَّة أيّة مساومة على بيعة أو على خلافة أو على مال. وإذا كلُّ خطوات هذا الإمام، وكلّ ايجاب أو سلب في سياسته ـ مخفِقاً أو منتصِراً ـ آيةٌ من آيات عظمته الّتي جهلها النّاس وظلمها المؤرِّخون.

وكان من أفظع الكفران لمواهب العظماء، أن يتحكَّم في تاريخهم وتنسيق مراتبهم، ناسٌ من هؤلاء النّاس المأخوذين بسوء الذَّوق، أو المغلوبين بسوء الطويّة، يتظاهرون بالمعرفة ويرتجزون بحسن التفكير، ثم يتحذلقون بالتَّطاول على الكرامات المجيدة، دون رويّة ولا تدقيق ولا اكتراث، فلا يدلون بتفريطهم في أحكامهم إلاّ على فرط الضَّعف في نفوسهم.

وليس يضرُّ الحسن بن عليٍّ عليهما السلام أن تظلمه الضَّمائر البليدة ثم يُنصفه التَّمييز. وإنَّ لهذا الإمام من مواقفه ومن مواهبه ومن عمقه ومن أهدافه ما يضعه بالمكان الأسنى من صفوة «العظماء» الخالدين.

وحسبنا من هذه السُّطور، أن تجلو عن طريق المنطق الصَّحيح الّذي لا ينبغي أن يختلف عليه النّاس، عظمة هذا الإمام، خالصة من كلِّ شَوْبٍ، سالمة من كلِّ عيب، نقيَّة من كلِّ نقد.

⇨

ولكنَّها لم تحسن إحكامها.

والّذي يتلخَّص لدينا من هذه الملاحظات: أنَّ اتهام الإمام بكثرة الزّواج والطّلاق لم تظهر إلاّ بعد وفاته، فما عابه أحدٌ بذلك في حياته وحتى ألدّ أعدائه، فما ذكر من كلام مزعوم للإمام عليّ عليه السلام فيما يخصّ هذا الموضوع ليس إلا افتراءً وتلفيقاً أريد به إظهار الإمام الحسن بصورة من لا أهليّة له لتسنُّم منصب الخلافة وإدارة دفَّة الحكم، فمن كانت همّه شهوته أيُّ صلاحية تبقى له في تصريف شؤن الدولة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف / ٥]» انتهى.

وكانت النّقود الّتي جَرَح بها وِقاحُ الرَّأي سياسة الحسن عليه السلام، أبعد ما يكونون ـ في تجريحهم ـ عن النَّصَف والعمق والإحاطة بالظَّرف الخاصّ، هي الّتي نسجت كيان المشكلة التّاريخيَّة في قضية هذا الإمام عليه السلام، وكان للشَّهوة الحزبيّة من بعضٍ، ولمسايرة السِّياسة الحاكمة من آخر، وللجهل بالواقع من ثالثٍ، أثره فيما أسَفَّ به المتسرِّعون إلى أحكامهم.

ونظروا إليه نظرتهم إلى زعيم أخفق في زعامته، وفاتهم أنْ ينظروا إلى دوافع هذا الإخفاق المزعوم، الّذي كان ـ في حقيقته ـ انعكاساً للحالة القائمة في الجيل الّذي قُدِّر للحسن أن يتزعَّمه في خلافته، بما كان قد طغى على هذا الجيل من المغريات الّتي طلعت بها الفتوح الجديدة على النّاس، وأيُّ غضاضة على «الزَّعيم» إذا فسد جيلُه، أو خانت جنوده، أو فقد مجتمعه وجدانه الإجتماعي.

وفاتهم ـ بعد ذلك ـ أن ينظروا اليه كألمع سياسيٍّ يدرس نفسيَّات خصومه ونوازع مجتمعه وعوامل زمنه، فيضع الخُطط ويقرِّر النَّتائج، ويحفظ بخططه مستقبلَ أمّةٍ بكاملها، ويحفر ـ بنتائجه ـ قبور خصومه قبراً قبراً، ويمرّ بزوابع الزَّمن من حوله رسول السَّلام المضمون النَّجاح، المرفوع الرَّأس بالدَّعوة إلى الإصلاح. ثم يموت ولا يرضى أن يُهرَق في أمره مِحْجَمَة دمٍ ترى، فأيُّ عظمة أجلُّ من هذه العظمة لو أنصف النَّاقدون المتحذلقون ؟.

وإنَّ كتابنا هذا لَيضع نقاط هذه الحروف كلِّها، مملاة عن دراسة دقيقة سيجدها المطالع ـ كما قلنا ـ أقرب شيءٍ من الواقع، أو هي الواقع نفسه، مدلولاً عليه بالمقاييس المنطقيَّة، وبالدّراسات النفسيّة، وبالشّواهد الشّوارد من هنا وهناك. كلُّ ذلك هو عماد البحث في الكتاب، والقاعدة الّتي خرج منها إلى أحكامه بسهولة ويسر، في سائر ما تناوله من موضوعات أو حاوله من آراء..

وسيجد القارئ أنّ الكتاب ليس كتاباً في أحوال الإمام الحسنعليه السلام، بوجهٍ عامٍّ، وإنّما هو كتاب مواقفه السّياسيّة فحسب. وكان من التوفُّر على استيعاب هذا الموضوع أن نتقدّم بفصل خاصٍّ عن التّرجمة له، وأن نستطرد في أطوائه ما يضطرُّنا البحث إليه.

وإنّ موضوعاً من العمق والعسر كموضوعنا، وبحثاً فقير المادّة قصير المدد كبحثنا ـ ونحن نتطلّع إليه بعد ١٣٢٨ من السّنين ـ لحريٌّ بأن لا يُدِرّ على كاتبه بأكثر مما درَّت به هذه الفصول، أحرص ما تكون توفّراً على استقصاء المواد، وتنسيق عناصر الموضوع، وتهذيبها من الزّائف والدَّخيل. ونحن إذ نُومئ إلى «فقر المادَّة» وأثره على البحث، لا نعني بالمادَّة إلاّ هذه «الموسوعات» الّتي كان بإمكاننا التعاون معها على تجلية موضوعنا بما هي عليه من تشويش للتناسق أو تشويه للحقايق. أمّا المؤلَّفات الكثيرة العدد الّتي وردت أسماؤها في معاجم المؤلِّفين الأوّلين، ممّا كتب عن قضية الحسنعليه السلام فقد حيل بيننا وبين الوقوف عليها. وكانت مع الكثير من تراثنا القديم قيد المؤثِّرات الزّمنيّة، وطعمة الضَّياع والإنقراض أخيراً. وكان ذلك عَصَب النّكبة في الصّحيح الصّحيح من تاريخ الإسلام، وفي المهمّ المهمّ من قضاياه الحسّاسة أمثال قضيَّتنا ـ موضوع البحث ـ.

فلم نجد ـ على هذا ـ من مصادر الموضوع:

كتاب «صُلح الحسن ومعاوية»، لأحمد بن محمَّد بن سعيد بن عبد الرَّحمن السَّبيعيّ الهمداني المتوفى سنة ٣٣٣ هجري.[1]

---

(١) في رجال النّجاشي / ٩٤: «أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الله بن زياد بن عجلان مولى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس السَّبيعيّ الهمداني. هذا رجلٌ جليلٌ في أصحاب الحديث، مشهورٌ بالحفظ، والحكايات تختلف عنه في الحفظ وعظمه، وكان كوفيّاً، زيديّاً، جاروديّاً، على ذلك حتى مات، وذكره أصحابنا لاختلاطه بهم ومداخلته إيَّاهم وعظم محلّه وثقته وأمانته.» ثمَّ ذكر له كتباً منها: «كتاب صلح الحسنعليه السلام ومعاوية».

⇦

ولا كتاب «صلح الحسن عليه السلام»، لعبد الرَّحمن بن كثير الهاشمي (مولاهم).[1]

ولا كتاب «قيام الحسن عليه السلام»، لهشام بن محمد بن السَّائب[2].

ولا كتاب «قيام الحسن عليه السلام»، لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثَّقفيّ[3] المتوفى سنة ٢٨٣ هجري.

⇨

و في رجال الشّيخ الطُّوسي / ٤٠٩ : «أحمد بن محمد بن سعيد... المعروف بابن عقدة، يُكنَّى أبا العبَّاس، جليل القدر، عظيم المنزلة، له تصانيف كثيره، ذكرناها في كتاب الفهرست، وكان زيديّاً، جاروديّاً، إلاّ أنّه روى جميع كتب أصحابنا وصنَّف لهم وذكر أصولهم، وكان حَفِظَةً، سمعت جماعة يحكون أنه قال: احفظ مائة وعشرين ألف حديث بأسانيدها وأذاكر بثلاثمائة ألف حديث، روى عنه التلّعكبري من شيوخنا وغيره.».

(١) عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ كَثيرٍ الهَاشميّ، مولى عبَّاس بن محمَّد بن عليّ بن عبد الله بن العبَّاس، قال عنه النّجاشي: «كان ضعيفاً غمز أصحابنا عليه وقالوا: كان يضع الحديث. وله كتاب صلح الحسن عليه السلام.» رجال النجاشي / ٢٣٤.

(٢) هِشَامُ بنُ محمَّدٍ بنِ السَّائبِ بنِ بِشرِ بن زَيدِ بنِ عَمروٍ، قال عنه النَّجاشيُّ: «أبو المنذر، النَّاسب، العالم بالأيَّام، المشهور بالفضل والعلم، وكان يختصُّ بمذهبنا . وله الحديث المشهور قال: اعتللت علّةً عظيمةً نسيت علمي، فجلست إلى جعفر بن محمَّد عليه السلام فسقاني العلم في كأس، فعاد إليّ علمي. وكان أبو عبد الله عليه السلام يقرّبه ويدنيه ويبسطه.» ثمّ عَدّ في كتبه: «قيام الحسن عليه السلام» رجال النجاشي / ٤٣٤. تُوفِّي سنة ٢٠٤، وقيل: ٢٠٦.

(٣) إبْرَاهيمُ بنُ محمَّدِ بنِ سعيدِ بنِ هِلالِ بنِ عَاصمِ بنِ سعدِ بنِ مَسْعُودٍ الثَّقفيّ، أصله كوفيٌّ، وكان زيديّاً أوّلاً ثمّ انتقل إلى مذهب الحقّ. ويقال: إنَّ جماعة من القمِّيين كأحمد بن محمَّد بن خالد وفدوا إليه وسألوه الإنتقال إلى قم، فأبى، وكان سبب خروجه من الكوفة أنّه عمل كتاب «المعرفة»، وفيه المناقب المشهورة والمثالب، فاستعظمه الكوفيّون وأشاروا عليه بأن يتركه ولا يخرجه، فقال: أيُّ البلاد أبعد من الشّيعة فقالوا: أصفهان، فحلف لا أروي هذا الكتاب إلا بها فانتقل إليها ورواه بها، ثقةً منه بصحَّة ما رواه فيه. وله مصنَّفات كثيرة لم يصل إلينا منها غير كتاب: «الغارات». رجال النَّجاشيّ / ١٦.

ولا كتاب عبد العزيز بن يحيى الجلودي البصري[١] في أمر الحسن عليه السلام.

ولا كتاب «أخبار الحسن عليه السلام ووفاته»، للهيثم بن عديّ الثّعلبي[٢] المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

ولا كتاب «أخبار الحسن بن عليّ عليه السلام»، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمّد الأصفهاني الثّقفي[٣]، ولا نظائرها.[٤]

أمّا هذه المصادر الّتي قُدِّر لنا أن لا نجد غيرها سنداً، فيما احتاجت به هذه البحوث إلى سند ما، فقد كان أعجب ما فيها أنها تتّفق جميعها في قضيّة الحسن عليه السلام على أن لا تتّفق في عرض حادثة، أو رواية خُطبةٍ، أو نقل تصريح، أو الحكم على إحصاء، بل لا يتّفق سندان منها ـ على الأكثر ـ في تأريخ وقت الحادث أو الخطبة من تقديم أو تأخير، ولا في تعيين اسم القائد مثلاً، أو ترتيب القيادة بين الإثنين أو الثّلاثة، ولا في رواية طرق النّكاية الّتي أريدت بالحسن عليه السلام في ميادينه، أو في التّعبير عن صلحه، أو في قتله أخيراً، ولا في كلّ صغيرة أو كبيرة من أخبار الملحمة، من ألفها إلى يائها.

وللمؤثّرات الّتي تحكّمت في رقبة هذه المصادر، عند نقاطها الحسّاسة أثرها

---

(١) عَبْدُ العَزيزِ بنِ يحيى بنِ أحمدَ بنِ عِيسَى الجَلُوديِّ الأزْدِيُّ البَصْرِيُّ، أبو أحمد شيخ البصرة وأخباريُّها، له تأليفات ومصنّفات كثيرة، ذكر النجاشيّ مأة وأربع وتسعين كتاباً منها، تُوفِّي سنة ٣٣٢ هـ. رجال النجاشي / ٢٤٠.

(٢) الهَيثَمُ بْنُ عَدِيٍّ الثَّعْلِيُّ، أبو عبد الرّحمن، عالم بالشّعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب، تُوفِّي سنة ٢٠٧ هـ. فهرست ابن النّديم / ١١٢، الأعلام للزّركليّ ٨/ ١٠٤، وفي كلام المؤلّف التّعبير عنه بـ«الثّعلبيّ»، غير صحيح، بل هو منسوب إلى بني ثعل.

(٣) إبْرَاهيمُ بنُ محمَّد الأصفهانيّ الثَّقفيّ قد تقدّم ذكره آنفاً، وليس هو شخصاً آخر. وكتاب له باسم: «أخبار الحسن بن علي عليه السلام» فلم أجده في مصدر. وإنّما كتابه: «قيام الحسن عليه السلام» ذكره النّجاشيّ في رجاله / ١٧، والشّيخ في فهرسته / ٣٧.

(٤) تجد ذكر هذه المؤلّفات ضمن تراجم مؤلّفيها في كتب الرّجال، كفهرست ابن النّديم، والنّجاشي وغيرهما. وستجد معها أسماء كتب أخرى تخصّ موضوع الحسن عليه السلام في صلحه وفي مقتله، لا نريد الإطالة باستقصائها بعد أن أصبحت أسماء بلا مسمّيات. (المؤلّف رحمه الله)

المحسوس في الكثير الكثير من عروضها.

وإذا كان من أصعب مراحل هذا التأليف، إرجاع هذه الحقائق إلى تسلسلها الصَّحيح الّذي يجب أن يكون هو واقعها الأوَّل، فقد كان من أيسر الوسائل إلى تحقيق هذا الغرض، الإستعانة عليه بقرائن الأحوال، وتناسق الأحداث، اللَّذين لا يتمُّ بدونهما حكم على وضع.

وكان من حُسن الصُّدف، أن لا نخرج في اختيار النّسق المطلوب عن الشَّاهد الصّريح، الّذي بعثرته هذه المصادر نفسها، في إطواء رواياتها الكثيرة المضطربة، فكانت - بمجموعها - وعلى نقص كُلٍّ منها، أدلّتنا الكاملة على ما اخترناه من تنسيق أو تحقيق، وذلك أروع ما نعتزّ به من التّوفيق.

ووَقَفْنَا في فلسفة الموقف - عند مختلف مراحله - وَقَفَاتِنَا المتأنِّية المستقرئة الصّبور، الّتي لا تستسلم للنَّقل أكثر ممّا تحتكم للعقل. ورجعنا في كثيرٍ ممَّا التمسنا تدقيقه، إلى التّصريحات الشخصيّة الّتي جاءت أدلَّ على الغرض من روايات كثير من المؤرِّخين.

وهي - بعد - بضاعتي المزجاة الّتي لا أريد منها إلاّ أن تكون مفتاح بحوث جديدة، من شأنها أن تكشف كثيراً من الغموض الّذي دار مع قضيّة الحسن في التّاريخ.

فإن هي وُفِّقَت إلى ذلك، فقد أوتيت خيراً كثيراً.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب.

المؤلِّف

القِسْمُ الأوَّلُ

الإمَامُ الحسَنُ عليه السلام

أبوه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب. وأمُّه سيِّدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله. صلَّى الله عليه وعليهم.

ولا أقصر من هذا النَّسب في التَّاريخ، ولا أشرف منه في دنيا الأنساب.

مولده:

ولد في المدينة ليلة النِّصف من شهر رمضان[1] سنة ثلاث للهجرة[2]. وهو بِكر أبويه.

---

(١) الكافي الشَّريف ١/ ٤٦١، الإرشاد ٢/ ٥، مناقب آل أبي طالب ٣/ ١٩١، تاريخ ابن عساكر ١٣/ ١٦٧، أسد الغابة ٢/ ١٠، تاريخ الطَّبريّ ٢/ ٢١٣، إمتاع الأسماع ١/ ١٣٠.

(٢) اختلفت الأقوال في سنة ولاته عليه السلام، فبين قائل في السَّنة الثانية من الهجرة وآخر في الثَّالثة من الهجرة. ولرفع التعارض جمع العلاّمة المجلسي رحمه الله بين القولين بما نصّه:

«والتحقيق أنّه لا منافاة بين تأريخي الولادة، لأنَّ كُلاً منهما مبنيٌّ على اصطلاح في مبدأ التّاريخ الهجري غير الإصطلاح الّذي عليه بناء الآخر، وتفصيله أنّ فيه ثلاث اصطلاحات:

الأول: أن يكون مبدؤه ربيع الأول، فإنَّ الهجرة إنما كانت فيه، وكان معروفاً بين الصّحابة إلى سنتين، وبناء كلام المصنّف على هذا [اشارة إلى قول الشّيخ الكليني رحمه الله في الكافي ١/ ٤٦١: أنَّ الحسن بن علي عليه السلام ولد سنة اثنتين بعد الهجرة].

الثاني: أن يكون مبدؤه شهر رمضان السّابق على ربيع الأوّل الذي وقعت الهجرة فيه، لأنَّه أوّل السَّنة الشرعيّة [كما في الأخبار] والرّواية [أنّ الحسن عليه السلام ولد سنة ثلاث] مبنيّة على هذا.

الثالث: ما اخترعه عمر، وهو أنَّ مبدأه المحرّم السَّابق موافقاً لما زعمه أهل الجاهليّة، وهذا ساقط وإن

⇦

وأخذه النَّبيُّ صلى الله عليه وآله فور ولادته. فأذَّن في أذنه اليُمنى، وأقام في اليُسرى، ثم عقَّ عنه. وحلق رأسه. وتصدّق بزنة شعره فضة فكان وزنه درهماً وشيئاً. وأمر فطُلي رأسه طيباً، وسُنّت بذلك العقيقة والتصدُّق بوزن الشّعر[١].

وسمَّاه «حسناً». ولم يعرف هذا الإسم في الجاهليّة.

وكنَّاه «أبا محمَّد». ولا كنية له غيرها.

ألقابه:

السّبط[٢].

اشتهر بين العوام» انتهى. مرآة العقول ٥/ ٣٥٠، باب: مولد الحسن بن عليّ عليه السلام.

(١) الكافي الشَّريف ٦/ ٣٣، كشف الغمَّة ٢/ ١٤١، الفصول المهمة في معرفة الأئمة ٢/ ٦٩١، بحار الأنوار ٤٣/ ٢٥٥، مسند أحمد ٦/ ٣٩٠، مطالب السؤول في مناقب آل الرّسول عليهم السلام / ٣٢٩.

(٢) «السِّبْط» لقِّب به الحسن والحسين عليهما السلام، كما في صريح الأخبار من كلا الفريقين، فمن طريقنا: عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: «**قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ** عليه السلام: **مِنَّا سَبْعَةٌ خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ فِي الأرْضِ مِثْلَهُمْ: مِنَّا رَسُولُ اللهِ** صلى الله عليه وآله **سَيِّدُ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيينَ، وَوَصِيُّهُ خَيرُ الوَصِيِّنَ، وَسِبْطَاهُ خَيرُ الأسْبَاطِ، حَسَناً وَحُسَيْناً، وَسَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ عَمُّهُ، وَمَنْ قَدْ طَارَ مَعَ المَلائِكَةِ جَعْفَرٌ، وَالقَائِمُ**». قرب الإسناد / ٢٥.

ومن طريق العامّة: عن النبي صلى الله عليه وآله ـ في حديث ـ قال: «**حُسَينٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّهُ، الحَسَنُ وَالحُسَينُ سِبْطَانِ مِنَ الأَسْبَاطِ**» مستدرك الحاكم ٣/ ١٧٧، وقال عنه: «هذا حديث صحيح الإسناد»، مسند احمد ٤/ ١٧٢، سنن ابن ماجة ١/ ٥١، سنن الترمذي ٥/ ٣٢٤، وقال عنه: «هذا حديث حسن».

والسِّبط معناه ـ كما هو المتبادر والمعروف ـ ولد البنت، وبه فرّقوا بينه وبين الحفيد، على المشهور. إلاّ أنّ تسمية الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام به يتجاوز هذا المعنى العام، فقد ورد «السِّبط» بمعنى القبيلة والطّائفة والقطعة، كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً**﴾ (سورة الأعراف / ١٦٠)، فهذا المعنى أيضاً متّجه في حقّهما، لانتشار ذرّية النبيّ صلى الله عليه وآله منهما وانحصارها

السيِّد[١]. الزّكي. المجتبى. التقيّ[٢].

زوجاته[٣]:

⇦

فيهما، فالحكمة الإلهية اقتضت أن تستمرّ ذريّة سيِّد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله إلى يوم الدِّين بالحسنين عليهما السلام فرعي الدّوحة العلويّة وثمرتي الشّجرة النبوية الّتي تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها. وهذا المعنى الثّاني هو المراد به في الرّوايات الشريفة التي ورد بها عليه السلام ملقباً بالسِّبط، وهو واضح لمن تأمّل لسان النّصوص، كالّتي تقدّمت: «**سِبْطَاهُ خَيرُ الأسْبَاطِ**» و«**سِبْطَانِ مِنَ الأسْبَاطِ**».

قال المناوي: «ويحتمل إرادته هنا على معنى أنه يتشعّب منهما قبيلة ويكون من نسلهما خلق كثير وقد كان» فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/ ٥١٣ .

(١) هو الرّئيس المطاع المقدَّم. وهو سيِّد بن سيِّد بن سيّدة أخو سيِّد أبو سادة وعمّهم. وفي حقّه وأخيه قال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله «**إنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أهْلِ الجَنَّةِ**» وقد تواتر نقله، رواه جمع غفير من الصحابة منهم: أمير المؤمنين عليه السلام، الإمام الحسين عليه السلام، أبو سعيد الخدري، حذيفة، أبو هريرة، البراء، أسامة بن زيد، علي الهلالي، جابر بن عبدالله، عمر بن الخطاب، وغيرهم. أنظر: مسند أحمد ٣/ ٣، فضائل الصحابة للنسائي / ٧٦، مستدرك الحاكم ٣/ ١٦٦ و ١٦٧، وقال معلّقاً على هذه الأحاديث: «هذا حديث، قد صحّ من أوجه كثيرة وأنا أتعجّب أنّهما لم يخرجاه»، مجمع الزّوائد للهيثمي ٩/ ١٨٢ ، المصنف لابن أبي شيبة ٧/ ٥١٢ ، مسند أبي يعلى ٢/ ٣٩٥ ، سنن الترمذي ٥/ ٣٢١ وقال فيه «هذا حديث صحيح حسن»، وغيرها الكثير من المصادر .

(٢) وردت له هذه الألقاب الطيِّبة في كثير من الزّيارات والصّلوات والأحاديث الشّريفة، لا يسع المقام إحصاؤها.

(٣) يقول المحقِّق الشَّيخ محمَّد حسن آل ياسين رحمه الله (ابن أخ المؤلِّف) في كتابه «الأئمة الإثنا عشر سيرة وتأريخ» ١/ ١٣٥، طبع دار الغدير، حول عدد زوجات الإمام الحسن عليه السلام وما يروّج عنه من كثرة أزواجه، ما ملخّصه:

«ولغرض الوصول إلى النّتيجة المتيقّنة والوقوف على الحقيقة الثّابتة، نستقرئ ـ في أدناه ـ كلّ المصادر المعنيَّة بتاريخ الإمام، نسألها جليَّة الأمر، ونروي عنها أسماء هاتيك الزّوجات وأنسابهن، لنجد

⇦

⇨

مدى الصِّدق أو الكذب في تلك الأرقام السَّالفة الذِّكر:

١ـ أمُّ بشر (أو بشير) بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري: كانت قد تزوَّجت قبل ذلك سعيد بن عبد الرَّحمن، ثم تزوَّجت عبد الرَّحمن بن عبد الله، ثم كان الحسن عليه السلام ثالث الأزواج. وهي أمّ زيد بن الحسن وأختيه أم الحسن وأم الحسين.

٢ـ امرأة من ثقيف: وهي أمّ ولده عمرو.

٣ـ أمّ كلثوم بنت الفضل بن العبّاس بن عبد المطلب.

٤ـ امرأة من بنات عمرو بن اهتم المنقري.

٥ـ حفصة بنت عبد الرَّحمن بن أبي بكر.

٦ـ خولة بنت منظور بن زبان الفزارية: كانت زوجة محمّد بن طلحة وولدت له، ولمّا قُتل عنها محمّد يوم الجمل تزوَّجها الحسن عليه السلام وبقيت عنده حتّى أسنّت، وقد مات عنها.

٧ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس: وهي الّتي سقته السَّم.

٨ـ بنت السّليل بن عبد الله أخي جرير بن عبد الله البجلي: وربما كانت هي أمّ عبد الله بن الحسن.

٩ـ أسماء بنت عطارد بن حاجب بن زرارة التميميّ: وكانت تحت عبيد الله بن عمر، ثمّ خلف عليها الحسن بن عليّ عليهما السلام.

١٠ـ امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرّة.

١١ـ امرأة من كلب.

١٢ـ عائشة الخثعميّة.

١٣ـ هند بنت سهيل بن عمرو: كانت قد تزوّجت عبد الرَّحمن بن عتاب بن أسيد، ثمّ تزوَّجت عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، وعندما طلَّقها عبد الله كتب معاوية يخطبها لولده يزيد، فخطبها الحسن في الوقت نفسه، ففضّلته على يزيد وتزوَّجته.

١٤ـ أمّا «أم اسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي» فلسنا واثقين من أمر زوجيّتها للحسن عليه السلام أبداً. فقد روى بعض المؤرِّخين أنها كانت زوجة له، وأنها ولدت طلحة بن الحسن والحسين الأثرم بن الحسن وفاطمة بنت الحسن. وروى بعض آخر أنها زوجة الحسين بن عليٍّ عليهما السلام، وأنها ولدت له فاطمة التي تزوَّجها الحسن بن الحسن فانجبت منه عبد الله المحض.

وبهذا العدد (١٤) نأتي إلى ختام مجموع ما عثرنا عليه في المراجع التاريخية ففي موضوع زوجات الإمام الحسن عليه السلام، ومع ذلك فليس هذا العدد ممّا نقطع به أو نتيقّنه، بل إنَّ فيه من المبالغة

⇦

⇦

والتزيّد ما لا يخفى على المحقّق المدقّق.

فقد رأينا الشكّ في كون «أمّ اسحاق التيميّة» زوجة للحسن أو الحسين.

وقد رأينا ذكر (امرأة من كلب)، ولم يسمّها أحد، وبنو كلب ـ كما ذكر النسّابون ـ بطن من بجيلة، وبهذا الاسم أيضاً بطن من خثعم، وفي القائمة ـ كما مرّ ـ بنت السليل البجيلة وعائشة الخثعمية، ولابدّ أن احداهما هي المعنيّة بـ (امرأة من كلب).

ولمّا كان أولاد بجيلة وخثعم أخوة ـ كما روى علماء النّسب ـ فربما تكون بنت السّليل البجلية هي عائشة الخثعمية بالذّات.

وهكذا ينزل الرّقم من (١٤) إلى (١٢) أو (١١).

كما أنّنا لا نثق الثقة التامّة بما ذكره الرّواة على الاجمال كـ (امرأة من بني شيبان) و(امرأة من بنات عمرو بن اهتم) وما شاكل هذه العبارت المجملة المبهمة.

وإذاً فالمتيقّن من كلّ ذلك لا يتجاوز العشرة أبداً! وهل في هذا الرّقم (١٠) ما يستدعي تلك العبارات النابية والتعليقات القاسية من المؤرّخين؟ وهل في الزّواج من (١٠) من النّساء في ذلك التاريخ ما يبعث على الإستغراب والعجب؟ فلقد كان لعمر بن الخطّاب من الزّوجات في مجموع سنيّ حياته عشرة. وكان لعليّ بن أبي طالب عليه السلام تسعة. وكان لعثمان بن عفّان ثمانية.

ولو عدنا إلى القائمة السّالفة الذّكر لندقّقها بمنظار آخر يقوم على التّمييز بين البِكر والثّيب والصّغيرة والكبيرة من هؤلاء النّساء وعلى دراسة ظرف كلّ سيّدة منهن عندما تزوّج بها الإمام لوجدنا أنّ دوافع الزّواج هذا لم يكن شهوة بحتة وجنساً محضاً وإنْ أباحه الله وحلّله لعباده.

فخولة بنت منظور الفزارية كان قد قُتل عنها زوجها يوم الجمل بين يدي عليّ عليه السلام، وبإمكاننا القول أنّ هذا الزّواج تعويض لها عن ترمّلها وفجيعتها بفقد زوجها في سبيل أبي الحسن، وللحسن في ذلك أسوة بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في زواجه من حفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة اللّتين قتل زوجاهما في بدر، فضمّهما إلى أمّهات المؤمنين تعويضاً عمّا أصيبا به من ترمّل بسببه.

وهند بنت سهيل بن عمر وكانت قد طلّقت من زوجها بخديعة من معاوية ـ كما مرّ ـ لأنّ يزيد رآها وأحبّها، كان زواج الإمام انقاذاً لها من هذه الشّبكة الخبيثة.» انتهى كلامه بتصرّف بسيط.

أقول: لا وجه للشّك في زوجية «أم اسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التيمي» للإمام الحسن عليه السلام إذ لا تعارض في الخبرين، الأوّل الذي يحكي زواجها من الامام الحسن عليه السلام والثّاني الّذي يحكيه من الإمام الحسين عليه السلام حيث أنها كانت عند الإمام الحسن عليه السلام، ثم تزوّجها الإمام الحسين عليه السلام بوصية

⇨

تزوّج «أم إسحق» بنت طلحة بن عبيد الله[1]. و«حفصة» بنت عبد الرَّحمن بن أبي بكر[2]. و«هند» بنت سهيل بن عمرو.[3] و«جعدة» بنت الأشعث بن قيس[4]، وهي الّتي

⇦

من أخيه الإمام الحسن عليه السلام فولدت له فاطمة التي تزوّجت الحسن المثنى ابن الحسن عليه السلام، وقد كانت مع زوجها في كربلاء. أنظر: المعارف لابن قتيبة / ٢٣٣.

(١) كانت تحت الحسن بن علي عليه السلام ثم تزوجها الحسين بن علي بوصية من أخيه. أنظر: مقاتل الطالبيين ١٢٢، الإرشاد ٢/ ٢٠، البحار ٤٤/ ١٦٣.

(٢) تزوَّجها عليه السلام، وكان المنذر بن الزبير يهواها، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلّقها. نقل هذه القصّة أبو الحسن المدائني، كما في شرح ابن أبي الحديد ١٦/ ١٣، ورواها ابن حجر العسقلاني في تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة / ٤١١.

(٣) على فرض قبول خبر عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، وتقدّم ذكره، أنظر شرح ابن أبي الحديد ١٦/ ١٣ وهناك من المصادر ما تنسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام دون أخيه.

(٤) مقاتل الطالبيين / ٣١، الإرشاد ٢/ ١٥، الكافي الشريف ١/ ٤٦٢، البحار ٤٤/ ١٤٥، وغيرها من المصادر. وفي تهذيب الكمال للمزي ٣/ ٢٩٣، بإسناده عن عبد الله بن عيَّاش قال: خطب أمير المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام، على الحسن ابنه، أمَّ عمران بنت سعيد بن قيس الهمداني، فقال سعيد: فوقي أميرٌ أؤامِرُهُ، يعني أمّها، فقال: «قُمْ فَآمِرْهُ»، يعني أمّها، فخرج من عنده، فلقيه الأشعث بن قيس بالباب فأخبره الخبر، فقال: ما نريد إلى الحسن يفخر عليها، ولا ينصفها، ويُسيء إليها، فتقول: ابن رسول الله، وابن أمير المؤمنين، ولكن هل لك في ابن عمِّها، فهي له وهو لها، قال: ومن ذاك؟ قال: محمَّد بن الأشعث، قال: قد زوَّجْتُه.

ودخل الأشعث على أمير المؤمنين عليٍّ، فقال: يا أمير المؤمنين، خطبت على الحسن ابنة سعيد؟ قال: «نَعَمْ»، قال: فهل لك في أشرف منها بنتاً، وأكرم منا حسباً، وأتمّ جمالاً، وأكثر مالاً؟ قال: «وَمَنْ هِيَ ؟» قال: جعدة بنت الأشعث بن قيس، قال: «قَدْ قَاوَلْنَا رَجُلاً»، قال: ليس إلى ذلك الّذي قاولته سبيلٌ، قال: «فَارَقَنِي لِيؤَآمِرَ أمَّهَا»: قال: قد زوَّجها من محمَّد ابن الأشعث، قال: «مَتَى؟» قال: السَّاعة بالباب، قال: فزوّج الحسن جعدة، فلـمَّا لقي سعيدٌ الأشعث قال: يا أعور، خدعتني، قال: أنت يا أعور، حيث تستشيرني في ابن رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم، ألستَ أحمق ! ثم جاء الأشعث إلى الحسن، فقال: يا أبا محمَّد، ألا تزور أهلك؟ فلمَّا أراد ذلك قال: لا تمشي والله إلا على أردية قومي، فقامت له كِندة سماطين، وجعلت له أرديتها بسطا من بابه إلى

⇦

أغراها معاوية بقتله فقتلته بالسَّم[1].

ولا نعهد أنّه اختصَّ من الزَّوجات ـ على التّعاقب ـ بأكثر من ثمان أو عشر.. على اختلاف الرِّوايتين.. بما فيهن أمهات أولاده.

ونسب النّاس إليه زوجاتٍ كثيراتٍ، صعدوا في أعدادهن ما شاؤوا.. وخفي عليهم أنَّ زواجه الكثير الّذي أشاروا إليه بهذه الأعداد، وأشار إليه آخرون بالغمز والإنتقاد، لا يعني الزَّواج الّذي يختصُّ به الرَّجل لمشاركة حياته، وإنما كانت حوادث استدعتها ظروف شرعيَّةٌ محضة. من شأنها أن يكثر فيها الزَّواج والطّلاق معاً، وذلك هو دليل سمتِها الخاصّة[2].

ولا غضاضة في كثرة زواج تقتضيه المناسبات الشرعيَّة، بل هو ـ بالنَّظر إلى ظروف هذه المناسبات ـ دليل قوّة الإمام في عقيدة النّاس ـ كما أشير اليه ـ. ولكن المتسرِّعين إلى النَّقد، جهلوا الحقيقة وجهلوا أنهم جاهلون. ولو فطنوا إلى جواب الإمام الحسن عليه السلام لعبد الله بن عامر بن كُرَيْز[3]، وقد بنى بزوجته، لكانوا غيرهم إذ ينتقدون.

⇨

باب الأشعث.

(١) سيأتي تفصيله اغتياله صلوات الله عليه عند البحث على الوفاء بشروط الصُّلح.

(٢) قد بسطنا فيه الكلام، أنظر من هذا الكتاب. وهب أنّ ظروفاً شرعية استدعت ذلك، غير أنّها لا تكون إلا في مناسبات قليلة، لا أن تلغ هذه المناسبات تسعين مرّة أو أكثر، كما يزعمه أصحاب هذه الرّوايات.

(٣) هو عبدُ الله بنُ عامرِ بن كُرَيْزِ بن رَبِيعَةَ بن حَبِيب بنِ عبدِ شَمْسٍ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيِّ القُرَشِيّ، ابن خال عثمان بن عفان. عزل عثمان أبا موسى الأشعري عن البصرة وعثمان بن أبي العاص عن فارس، وجمع ذلك كله لعبد الله بن عامر. وقصته ما رواه أبو الحسن المدائني، والتي مرّ ذكرها في الصّفحة / ٦٠.

⇦

أولاده:

كان له خمسة عشر ولدا بين ذكر وأنثى، هم: زيد والحسن وعمرو والقاسم وعبد الله وعبد الرَّحمن والحسن الأثرم وطلحة، وأمُّ الحسن وأمُّ الحسين وفاطمة وأمّ سلمة ورقيّة وأمُّ عبد الله وفاطمة[1].

وجاء عقبه من ولديه الحسن وزيد، ولا يصحّ الإنتساب إليه من غيرهما.

أوصافه:

«لم يكن أحدٌ أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله من الحسن بن عليٍّ عليهما السلام خَلْقاً وخُلُقاً وهَيأةً وهَدْياً وسُؤدَداً».

بهذا وصفه واصفوه. وقالوا:

«كان أبيضَ اللَّون مُشرَباً بحمرة، أدْعَجَ العينين[2]، سهلَ الخدَّين، كثَّ اللِّحية، جَعْد الشَّعر ذا وفرة[3]، كأنَّ عنقه إبريق فضّة، حَسَن البدن، بعيد ما بين المنكبين، عظيم

⇦

والخبر تفرّد به ابن المدائني وتبعد صحّته، وعلى فرض أنّ الخبر حقٌّ، فهو مورد واحد، كيف جاز أن يوصف بسببه الإمام عليه السلام بالمطلاق ـ وهو مبالغة في كثرة الطّلاق ـ ؟

ثمّ إنّ هذا الخبر قريب ما روي في قصّة أرينب أو زينب بنت إسحاق الّتي فرّق معاوية بالحيلة بينها وبين زوجها عبد الله بن سلام القرشي حين تعشّقها خميره يزيد ليزوّجه بها معاونة له على الإثم والعدوان، ذكرها ابن قتيبة في الامامة والسياسة ١/ ١٦٧ وهما أشبه ما يكونان أساطير موضوعة.

(١) وهو المشهور، كما في الإرشاد ٢/ ٢٠، والدرّ النظيم لابن حاتم العاملي / ٥١٥، و العُدد القويّة لعليّ بن يوسف الحلّي / ٣٥٢. وفي إعلام الورى ١/ ٤١٦: ستّة عشر. و في مناقب ابن شهر آشوب ٣/ ١٩٢: ثلاثة عشر ذكرا وابنة واحدة.

(٢) «الدَّعَج»: شدّة السّواد مع سعتها.

(٣) الشَّعر إلى شحمة الأذن.

الكراديس[١]، دقيق المَسْرُبَة[٢]، رَبْعَة ليس بالطَّويل ولا بالقصير، مليحاً من أحسن النّاس وجهاً.[٣]

أو كما قال الشّاعر:

مـا دبَّ في فِطَنِ الأوْهَامِ مِنْ حَسَنٍ ... إلاَّ وَكَانَ لَهُ الحَظُّ الخُصُوصِيُّ

كَأنَّ جَبْهَتَهُ مِنْ تَحْتِ طُرَّتِهِ ... بَدْرٌ يُتَوِّجُهُ اللَّيْلُ البَهِيمِيُّ

قَدْ جَلَّ عَنْ طِيبِ أهْلِ الأرْضِ عَنْبرُهُ ... وَمِسْكُهُ فَهُوَ الطِّيبُ السَّمَاوِيُّ[٤]

وقال ابن سعد: «كان الحسن والحسين يخضبان بالسَّواد»[٥]. وقال واصل بن عطاء: «كان الحسن بن عليٍّ عليه السلام، عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك»[٦].

---

(١) «**الكُرْدُوس**»: كُلُّ عَظمَيْن إلْتَقَيَا في مَفْصِل فهو كُرْدُوسٌ، نَحْو المَنْكِبَيْن والرُّكْبَتَيْن والوَرِكَيْن. تاج العروس ٨/ ٤٤١.

(٢) «**المَسْرُبَة**»: الشَّعَر المُسْتَدِقّ الّذِي يَأْخُذُ من الصَّدْرِ إلى السُّرَّةِ. تاج العروس ٢/ ٧٢.

(٣) يُروَى ذلك عن أحمد بن محمد بن أيوب المغيري، أنظر: بحار الأنوار ٤٤/ ١٣٧، الدرّ النظيم لابن حاتم العاملي / ٥١٥، كشف الغمّة ٢/ ١٤٨، .

(٤) لم أعرف قائلها.

(٥) التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ١٥١، المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٩٨، المصنّف لابن شيبة ٦/ ٥٢، وابن سعد قسمه شطرين فجعله في ترجمتي الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام: ففي ترجمة الحسن عليه السلام: رأيت الحسن يخضب بالسَّواد، (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام من القسم غير المطبوع من كتاب الطّبقات الكبرى لابن سعد / ٧٣، رقم ١٢٤)، وفي ترجمة الإمام الحسين عليه السلام: رأيت الحسين يخضب بالسواد. (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من القسم غير المطبوع من كتاب الطّبقات الكبرى لابن سعد / ٤٣، رقم ٢٦٥).

(٦) مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٧٦، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٨.

عبادته:

حجَّ خمساً وعشرين حَجَةً ماشياً، والنجائب لتُقاد معه[1]، وإذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث بكى، وإذا ذكر الممرَّ على الصِّراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكرُه شهق شهقةً يغشى عليه منها، وإذا ذكر الجنّة والنّار اضطرب اضطراب السَّليم، وسأل الله الجنَّة وتعوَّذ بالله من النَّار[2].

وكان إذا توضَّأ، أو إذا صلَّى ارتعدت فرائصه واصفرَّ لونُه[3].

وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرَّات.[4] وخرج من ماله لله تعالى مرّتين[5]. ثم هو لا يمرّ في شيء من أحواله إلاّ ذكر الله عزَّ وجلّ.

قالوا: «وكان أعبد النّاس في زمانه وأزهدَهم بالدُّنيا»[6].

---

(١) مستدرك الحاكم ٣/ ١٦٩، السُّنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٣١، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٤٣، تهذيب الكمال ٦/ ٢٣٣، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٧، وفي مصادرنا عشرين حجَّة، فعن الشَّيخ الطّوسي، بإسناده عن الحلبي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن فضل المشي ؟ فقال: «**الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليهما السلام قَاسَمَ رَبَّهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى نَعْلاً وَنَعْلاً وَثَوْباً وَثَوْباً وَدِينَاراً وَدِينَاراً وَحَجَّ عِشْرِينَ حَجَّةً مَاشِياً عَلَى قَدَمَيْهِ.**» الاستبصار ٢/ ١٤١، التَّهذيب ٥/ ١١، وسائل الشّيعة ٩/ ٤٨٠.

(٢) الأمالي / ٢٤٤، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣١.

(٣) المناقب ٣/ ١٨٠، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٩.

(٤) الاستبصار ٢/ ١٤١، التهذيب ٥/ ١١، وسائل الشّيعة ٩/ ٤٨٠، السُّنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣٣١، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٤٣، تهذيب الكمال ٦/ ٢٣٣، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٧، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٩.

(٥) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٩، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٧، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٦.

(٦) الأمالي / ٢٤٤، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣١.

أخلاقه:

كان في شمائله آيةَ الإنسانية الفُضلى، ما رآه أحدٌ إلاّ هابه، ولا خالطه إنسان إلاّ أحبّه، ولا سمعه صديق أو عدوٌّ وهو يتحدَّث أو يخطب فهان عليه أن يُنهي حديثه أو يسكت.[١]

قال ابن الزُّبير فيما رواه ابن كثير (ج ٨ ص ٣٧): «والله ما قامت النِّساء عن مثل الحسن بن عليٍّ».[٢]

وقال محمد بن اسحق: «ما بلغ أحدٌ من الشَّرف بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ما بلغ الحسن بن عليٍّ، كان يبسط له على باب داره فإذا خرج وجلس انقطع الطَّريق، فما يمرُّ أحدٌ من خلق الله إجلالاً له، فإذا علم قام ودخل بيته فيمرّ النّاس»[٣].

ونزل عن راحلته في طريق مكّة فمشى، فما من خلق الله أحدٌ إلاّ نزل ومشى

---

(١) العدوّ كمعاوية فكان يقول: «ما تكلَّم عندي أحدٌ أحبّ إليّ إذا تكلّم أن لا يسكت من الحسن بن عليّ» تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٥٢، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٧، أيضاً نفس الكلام نسب في بعض المصادر إلى عمير بن إسحاق، أنظر: تهذيب الكمال للمزّي ٦/ ٢٣٥، وأخرى إلى محمّد بن إسحاق كما في البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٤٣، ويحتمل أن يكون محمَّد تصحيف عمير لقرب كتابتهما، وفي تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٥٢، عمير بن إسحاق يرويه عن معاوية.

(٢) تهذيب الكمال ٦/ ٢٣٣، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٤٣، الوافي بالوفيّات ١٢/ ٦٧، البداية والنّهاية ٨/ ٤١، والحديث بتمامه هكذا: «عن عبد الله بن عروة قال: رأيت عبد الله بن الزبير قعد إلى الحسن بن علي في غداة من الشِّتاء باردة، قال: فوالله ما قام حتى تفسَّخ جبينه عرقاً، فغاظني ذلك فقمت إليه فقلت: يا عمّ، قال: ما تشاء؟ قال: قلت: رأيتك قعدت إلى الحسن بن عليٍّ فأقمت حتى تفسّخ جبينك عرقاً؟! قال: يا ابن أخي انه ابن فاطمة لا والله ما قامت النّساء عن مثله.» انتهى، أورد ابن كثير الفقرة الأخيرة منه.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ١/ ٤١٢، مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٧٤، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٣٨.

حتّى سعد بن أبي وقّاص، فقد نزل ومشى إلى جنبه[١].

وقال مدرك بن زياد لابن عبّاس، وقد أمسك للحسن والحسين بالرّكاب وسوّى عليهما ثيابهما: «أنت أسنّ منهما تُمسِك لهما بالرّكاب؟».

فقال: «يا لكع! وما تدري من هذان، هذان ابنا رسول الله، أوليس ممّا أنعم الله عليّ به أن أُمسك لهما وأسوّي عليهما!»[٢]

وكان من تواضعه على عظيم مكانته أنّه مرّ بفقراء وضعوا كسيراتٍ على الأرض، وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: «هلمّ يا ابن رسول الله إلى الغداء!» فنزل وقال: «**إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المُتَكَبِّرِينَ**». وجعل يأكل معهم. ثم دعاهم إلى ضيافته فأطعمهم وكساهم[٣].

وكان من كرمه أنّه أتاه رجلٌ في حاجة، فقال له: «**أكْتُبْ حَاجَتَكَ فِي رُقْعَةٍ وَارْفَعْهَا إلَيْنَا**». قال: فرفعها إليه فأضعفها له، فقال له بعض جلسائه: «ما كان أعظم بركة الرُّقعة عليه يا ابن رسول الله!». فقال: «**بَرَكَتُهَا عَلَيْنَا أعْظَمُ، حِينَ جَعَلَنَا لِلْمَعْرُوفِ أهْلاً. أمَا عَلِمْتَ أنَّ المَعْرُوفَ مَا كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيرِ مَسْألَةٍ، فَأمَّا مَنْ أعْطَيْتَهُ بَعْدَ مَسْألةٍ، فَإنَّمَا أعْطَيْتَهُ بِمَا بَذَلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ. وَعَسَى أنْ يَكُونَ بَاتَ لَيْلَتَهُ مُتَمَلْمِلاً أرِقًا، يَمِيلُ بَيْنَ الْيَأسِ وَالرَّجَاءِ، لا يَعْلَمُ بِمَا يَرْجِعُ مِنْ حَاجَتِهِ أبِكَآبَةِ الرَّدِّ، أمْ بِسُرُورِ النُّجْحِ، فَيَأتِيكَ وَفَرَائِصُهُ تَرْعَدُ وَقَلْبُهُ خَائِفٌ يَخْفِقُ، فَإنْ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَتَهُ فِيمَا بَذَلَ مِنْ**

---

(١) نفس المصدر، أقول: الصّحيح أنه كان ماشياً في طريق مكّة كما هي سيرته في الحجّ، وأمّا نزوله عن راحلته، فهو خطأ في نقل الرّواة.

(٢) مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٦٨، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣١٩.

(٣) مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٨٧، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٥٢، وروي في الإمام الحسين عليه السلام قريب منه.

وَجْهِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِمَّا نَالَ مِنْ مَعْرُوفِكَ»[1].

وأعطى شاعراً فقال له رجلٌ من جلسائه: «سبحان الله أتُعطي شاعراً يعصي الرَّحمن ويقول البهتان!» فقال: «**يَا عَبْدَ الله، إِنَّ خَيْرَ ما بَذَلْتَ مِنْ مَالِكَ مَا وَقَيْتَ بِهِ عِرْضَكَ، وَإِنَّ مِن ابْتِغَاءِ الخَيرِ اتِّقَاءَ الشَّرِّ**»[2].

وسأله رجلٌ فأعطاه خمسين ألف درهم وخمسمائة دينار[3] وقال له: «**إِئْتِ بِحَمَّالٍ يَحْمِلُ لَكَ**». فأتى بحمَّال، فأعطاه طيلسانه، وقال: «**هَذَا كَرَى الحَمَّالِ**».

وجاءه بعضُ الأعراب، فقال: «**أَعْطُوهُ مَا فِي الخِزَانَةِ!**». فوجد فيها عشرون ألف درهم، فدفعت إليه، فقال الأعرابيّ: «يا مولاي، ألا تركتني أبوح بحاجتي، وأنشر مدحتي؟». فأنشأ الحسن يقول:

نَحْنُ أُنَاسٌ نَوالُنَا خَضِلٌ ... يَرْتَعُ فِيهِ الرَّجَاءُ وَالأَمَلُ
تَجُودُ قَبْلَ السُّؤالِ أَنْفُسُنَا ... خَوْفاً عَلَى مَاءِ وَجْهِ مَنْ يَسَلُ[4]

وروى المدائني قال: «خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حُجّاجاً ففاتتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا، فرأوا عجوزاً في خباء فاستسقوها فقالت: هذه الشُّويهة احلبوها، وامتذقوا لبنها، ففعلوا، واستطعموها، فقالت: ليس إلاّ هذه الشَّاة فليذبحها أحدكم، فذبحها أحدهم، وكشطها ثمَّ شوت لهم من لحمها فأكلوا، وقالوا عندها، فلمّا

---

(١) قريب منه في شرح إحقاق الحق ١١/ ١٤٧، نقلاً عن المحاسن والمساوئ/ ٥٥ .

(٢) بحار الأنوار ٤٣/ ٣٥٨ .

(٣) في المصدر: «فأعطاه خمسين ألف دينار وقال...» أنظر: مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٨٢ .

(٤) تتمة من المصدر:

لَوْ عَلِمَ البَحْرُ فَضْلَ نَائِلَنَا ... لَغَاضَ مِنْ بَعْدِ فَيْضِهِ خَجِلِ

مرّ تخريجه.

نهضوا، قالوا: «**نَحْنُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْش نُرِيدُ هذَا الْوَجْهَ، فَإِذا رَجَعْنا سالِمِينَ فَأَلِمِّي بِنا فَإِنّا صانِعُونَ إِلَيْكِ خَيْراً**». ثم رحلوا فلمّا جاء زوجها، أخبرته فقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين: نفرٌ من قريش. ثم مضت الأيّام، فأضرّت بها الحال، فرحلت حتى اجتازت بالمدينة، فرآها الحسن عليه السلام فعرفها، فقال لها: «**أَتَعْرِفِينَنِي؟**» قالت: لا، قال: «**أَنَا ضَيْفُكِ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**»، فأمر لها بألف شاة وألف دينار، وبعث بها إلى الحسين عليه السلام فأعطاها مثل ذلك، ثم بعثها إلى عبد الله بن جعفر فأعطاها مثل ذلك»[1].

وتنازع رجلان، هاشميٌّ وأمويٌّ، قال هذا: «قومي أسمح». وقال هذا: «قومي أسمح»، قال: «فسَلْ أنت عشرة من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومي». فانطلق صاحب بني أميّة فسأل عشرة، فأعطاه كلُّ واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بني هاشم إلى الحسن بن عليٍّ، فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين فقال: «**هَلْ بَدأتَ بِأَحَدٍ قَبْلِي؟**». قال: «بدأت بالحسن» قال: «**مَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَزِيدَ عَلَى سَيِّدِي شَيْئَاً**» فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدّراهم، فجاء صاحب بني أميّة يحمل مائة ألف درهم من عشر أنفس، وجاء صاحب بني هاشم يحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحب بني أمية، فردّها عليهم، فقبلوها، وجاء صاحب بني هاشم فردَّها عليهما، فأبيا أن يقبلاها، وقالا: «**مَا كُنَّا نُبَالي، أَخَذْتَهَا أَمْ أَلْقَيْتَهَا في الطَّرِيقِ**»[2].

ورأى غُلاماً أسود يأكل من رغيف لقمة، ويُطعم كلباً هناك لقمة فقال له: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟**» قال: «إني أستحي منه أن آكل ولا أطعمه». فقال له الحسن: «**لا تَبْرَحْ**

---

(١) مناقب بن شهر آشوب ٣/ ١٨٢، عنه بحار الأنوار ٤٣/ ٣٤١ـ٣٤٢.

(٢) شرح إحقاق الحق ١١/ ١٤٧، نقلاً عن المحاسن والمساوئ/ ٥٦.

مَكَانَكَ حَتَّى آتِيكَ». فذهب إلى سيِّده، فاشتراه واشترى الحائط (البستان) الّذي هو فيه، فأعتقه، وملّكه الحائط[١].

وأخبار كرمه كثيرةٌ لسنا بسبيل استقصائها.

وكان من حلمه ما يوازن به الجبال ـ على حدِّ تعبير مروان عنه[٢]. وكان من زهده ما خصَّص له محمَّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه المتوفى سنة ٣٨١ هجري كتاباً أسماه: «كتاب زهد الحسن عليه السلام»[٣].

وناهيك بمن زهد بالدُّنيا كلِّها في سبيل الدِّين.

مناقبه:

إنه سيِّد شباب أهل الجنَّة[٤]، وأحد الإثنين اللَّذين انحصرت ذرِّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله فيهما، وأحد الأربعة الّذين باهل بهم النبيُّ نصارى نجران[٥]، وأحد الخمسة (أصحاب الكساء)[٦]، وأحد الإثني عشر الّذين فرض الله طاعتهم على العباد[٧]، وهو أحد

---

(١) البداية والنّهاية ٨/ ٤٢.

(٢) مقاتل الطّالبيين / ٤٩، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٧٦، شرح النهج ١٦/ ١٣.

(٣) أصله (كتاب الزّهد) وهو مشتمل على ثلاثة عشر كتاباً، كتاب زهد النّبيّ صلى الله عليه وآله، كتاب زهد فاطمة عليها السلام، كتاب زهد علي عليه السلام، وهكذا إلى الإمام الحادي عشر ـ أبي محمد الحسن بن علي العسكري صلوات الله عليهم أجمعين. أنظر: رجال النجاشي / ٣٩١، الذريعة لآقا بزرگ الطّهراني ١٢/ ٦٥.

(٤) مرّ تخريجه في الصّفحة / ٥٩.

(٥) نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾ سورة آل عمران / ٦١، والمراد من ﴿أَبْناءَنا﴾: الحسن والحسين عليهما السلام بالإجماع.

(٦) حديث الكساء ممّا تواتر نقله في الصّحاح والسّنن والمسانيد، وكتب التّفسير والتّاريخ والمناقب والفضائل، تواتراً قطعياً من طرق الخاصّة والعامّة، ففي صحيح مسلم ٧/ ١٣٠، عن عائشة: خرج

⇦

المطهّرين من الرِّجس في الكتاب، وأحد الَّذين جعل الله مودَّتهم أجراً للرِّسالة[2]، وجعلهم رسول الله أحدَ الثّقلين اللّذين لا يضلُّ من تمسَّك بهما[3]. وهو ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله[4] وحبيبه الَّذي يحبُّه ويدعو الله أن يحبَّ من أحبَّه[5].

وله من المناقب ما يطول بيانه، ثم لا يحيط به البيان وإن طال.

وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه عليهما السلام[1]، فقام بالأمر - على قِصَر عهده -

---

⇨

النبيُّ صلى الله عليه وآله غداة وعليه مرطٌ مُرحَّل من شعر أسود فجاء الحسن بن عليّ فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء عليّ فادخله ثم قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ [الأحزاب / ٣٣]. أيضاً: مستدرك الحاكم ٣/ ١٤٧، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٠٢، مسند أحمد ٤/ ١٠٧، سنن الترمذي ٥/ ٣١، المصنّف لابن شيبة ٧/ ٥٠١، السُّنن الكبرى للنسائي / ٥١١٣، وغيرها من المصادر.

(١) تواتر عنه صلى الله عليه وآله الإخبار عن الأئمة الإثني عشر، ففي البخاري ٨/ ١٢٧، عن جابر بن سَمرَة قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «**يَكُونُ إِثْنَا عَشَرَ أَمِيرَاً**» فقال كلمةً لم اسمعها، فقال أبي: إنّهُ قال: «**كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْش**».

وجاء تسميتهم واحداً بعد الآخر على التَّعيين في كثير من النُّصوص الصّحيحة في مصادرنا المعتبرة، أنظر: رسالة في إمامة الأئمة الإثني عشر، للفقيه الميرزا جواد التبريزي رحمه الله.

(٢) نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ سورة الشُّورى / ٢٣.

(٣) قال صلى الله عليه وآله: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا**» حديث تواتر نقله في مصادر المسلمين، أنظرَ: صحيح مسلم ٧/ ١٢٣، مسند أحمد ٣/ ١٤، سنن الدارمي ٢/ ٤٣٢، مستدرك الحاكم ٣/ ١٤٨، وغيرها.

(٤) في الكافي الشريف ٦/ ٢، عن أبي عبد الله الإمام الصّادق عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: الْوَلَدُ الصَّالِحُ رَيْحَانَةٌ مِنَ الله قَسَمَهَا بَيْنَ عِبَادِهِ، وإِنَّ رَيْحَانَتَيَّ مِنَ الدُّنْيَا الْحَسَنُ والْحُسَيْنُ، سَمَّيْتُهُمَا بِاسْمِ سِبْطَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَبَّراً وشَبِيراً.**» وجاء تلقيبه عليه السلام «بالرَّيحانة» في كثير من المصادر الأخرى، أنظر: صحيح البخاري ٤/ ٢١٧، سنن الترمذي ٥/ ٣٢٢، تهذيب الكمال ٦/ ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٨١.

(٥) مرّ تخريجه.

أحسن قيام، وصالح معاوية في الخامس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٤١ ـ على أصحِّ الرِّوايات[٢] ـ فحفظ الدِّين، وحقن دماء المؤمنين، وجرى في ذلك وفق التعاليم الخاصَّة الَّتي رواها عن أبيه عن جدِّه صلّى الله عليهما. فكانت خلافته «الظَّاهرة»[٣] سبعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً.[١]

⇦

(١) أي في سنة أربعين للهجرة، تاريخ الطبري ٤/ ١٢١، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٠٢.

(٢) أقول: قوله: «على أصحِّ الرِّوايات»، في مقابل القول المشهور من أنه في ربيع الأوّل من سنة ٤١، وكلمات المؤرِّخين في ضبط تاريخ الصُّلح متضاربة، والحال كذلك في مدّة خلافته عليه السلام، فإنه قد بويع له عقيب شهادة أبيه صلوات الله عليه، في شهر رمضان فإن اعتبرنا رواية السِّتّة أشهر ستكون نهايتها في ربيع الأوّل كما هو واضح، وإن قلنا بسبعة أشهر وأربعة وعشرين يوماً يكون ختامها في جمادى الأولى.

ومعرفة كُلٍّ منهما ـ أي وقوع الصُّلح ومدّة الخلافة ـ يتوقّف على معرفة الآخر، فللخروج من هذا الدّور لابد من إحراز أحدهما بطريق أقوى من صاحبه.

ويمكن الجمع بين الرّوايتين بأن نقول: إنّ في ربيع الأول وقع الصُّلح وأمّا في جمادى الأولى فقد تمّت البيعة من النَّاس لمعاوية وذاك في الشّام وحينها سمَّى معاوية ذلك العام عام السُّنة والجماعة.

قال الزرندي الحنفي في نظم درر السمطين / ١٩٦: «فبايع الناسُ حينئذٍ معاوية في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، وكان ذلك العام يسمَّى عام الجماعة.»

ويعضده ما في الاستيعاب ١/ ٢٨٧: «مكث الحسن بن علي نحواً من ثمانية أشهر لا يسلِّم الأمر إلى معاوية... وسلّم الأمر الحسن إلى معاوية في النِّصف من جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين فبايع الناس معاوية حينئذ.»

فتحصّل أن الصُّلح تمّ في ربيع الأوّل فتكون خلافته ستَّة أشهر، وأمّا بيعة الناس لمعاوية وتسليم الأمور إليه تأخّرت لجمادى الأولى، والله أعلم.

(٣) حيث أنّ خلافته الشّرعية وإمامته الإلهية أفاضها عليه الله تبارك وتعالى منذ ولادته صلوات الله عليه، فالشِّيعة تبعاً لما ورد عن أئمتهم عليهم السلام يعتقدون أنَّ الإمام يولد وهو إمام، نعم، هو صامت حيثما يسبقه إمام حيٌّ قبله، ففي الصَّحيح الّذي رواه الشَّيخ الكليني رحمه الله عن عدَّة من الأصحاب، عن أحمد بن محمد بن عيسى، بن أبي عمير، عن الحسين بن أبي العلاء قال: قلت لأبي عبد

⇦

ورجع بعد توقيع الصُّلح إلى المدينة، فأقام فيها، وبيته حرمها الثَّاني لأهلها ولزائريها.

والحسن من هذين الحرمين، مشرق الهداية، ومعقل العلم وموئل المسلمين. ومن حوله الطَّوائف الّتي نفرت من كلِّ فرقة لتتفقَّه في الدِّين ولتنذر قومها إذا رجعت إليهم. فكانوا تلامذته وحملة العلم والرِّواية عنه. وكان بما أتاح الله له من العلم، وبما مكَّن له في قلوب المسلمين من المقام الرَّفيع، أقدر إنسان على توجيه الأمَّة وقيادتها الرُّوحيَّة، وتصحيح العقيدة، وتوحيد أهل التوحيد.

وكان إذا صلّى الغداة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله جلس في مجلسه، يذكر الله حتى ترتفع الشَّمس، ويجلس اليه من يجلس من سادات النّاس يحدِّثهم. قال ابن الصبَّاغ (الفصول المهمة ص ١٥٩): «ويجتمع النّاس حوله، فيتكلَّم بما يشفي غليل السائلين ويقطع حُجَج المجادلين».[٢]

⇨

الله عليه السلام: تكون الأرض ليس فيها إمام؟ قال: «**لا**»، قلت: يكون إمامان؟ قال: «**لا، إلاَّ وَأَحَدُهُمَا صَامِتٌ**» الكافي الشريف ١/ ١٧٨. والنّبوي الشَّريف في حقِّ الحسنين عليهما السلام خير دليل على ذلك حيث قال صلى الله عليه وآله: «**الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ إمَامَانِ، قَامَا أوْ قَعَدَا**» أنظر: علل الشرائع ١/ ٢١١، الإرشاد ٢/ ٣٠.

(١) في قبال القول المشهور من أنها كانت ستة أشهر، وقد بيّنا موضع الخلاف فيه والجواب عنه.

(٢) الفصول المهمّة في معرفة الأئمة ٢/ ٧٠٢، مطالب السّؤول في مناقب آل الرّسول صلى الله عليه وآله / ٣٣٨.

⇦

وكان إذا حج وطاف بالبيت، يكاد النّاس يحطمونه مما يزدحمون للسلام عليه.

وفاته:

وسُقي السُّمَّ مِراراً[1] ـ كما سنأتي على تفصيله عند البحث على الوفاء بشروط الصُّلح ـ.

⇦

أقول: في تفسير الكشف والبيان للثّعلبي ١٠/ ١٦٦ بإسناده عن خبّاب عن رجل قال: دخلت مسجد المدينة فإذا أنا برجل يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والنّاس حوله فقلت: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (سورة البروج / ٣) قال: نعم أمّا الشّاهد فيوم الجمعة وأما المشهود فيوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود، قال: الشّاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأنّ وجهه الدّنيار وهو يحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود قال: «**نَعَم؛ أَمّا الشَّاهِدُ فَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وَأَمّا الْمَشْهُودُ فَيَوْمُ القِيَامَةِ، أَمَا سَمِعْتَه يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾** (سورة الأحزاب / ٤٥) **وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾** (سورة هود / ١٠٣).» فسألت عن الأوّل فقالوا: ابن عبّاس، وسألت عن الثّاني فقالوا: ابن عمر، وسألت [عن] الثالث فقالوا: الحسن بن عليّ.

(١) وأخزى ما يلقى الله معاوية به اغتياله الإمام الحسن السبط عليه السلام على رأس قائمة مخازيه وموبقاته التي تعجز عن عدّها المحابر والأوراق، فقد جهد معاوية أكثر من مرّة للقضاء على الإمام الحسن عليه السلام بالسّم، حتى جاء في بعض النصوص أنه سمّ الحسن عليه السلام سبعين مرّة فلم يفلح غير الأخيرة منها، أنظر: دلائل الإمامة للطبري الشيعي / ١٦٠، وفي مقاتل الطالبيين / ٤٨، والإرشاد للشّيخ المفيد ٢/ ١٦، والمستدرك على الصّحيحين ٣/ ١٧٦، والمصنّف لابن شيبة ١١/ ٤٥٣، والإستيعاب لابن عبد البرّ ١/ ٣٩٠، وتهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٥١، وسير أعلام النبلاء للذّهبي ٣/ ٢٧٣، والإصابة لابن حجر ٢/ ٦٦، والبداية والنّهاية ٨/ ٤٦، عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: «**لَقَدْ سُقِيتُ السُّمَّ مِرَارًا، مَا سُقِيتُهُ مِثْلَ هَذِهِ المَرَّةِ**». وقد سعى بنو أمية وبذلوا كلّ ما بوسعهم كي يغطّوا على جريمة معاوية النّكراء ويبرّؤا ساحته من دنس طامّاته وجناياته والتي منها سمّ الحسن عليه السلام ولكن أنى لهم إخفاء أمر قد فشى، فقد نصّ المؤرخون على أنّ جعدة سمّت الحسن عليه السلام بإغراء معاوية، قال ابن كثير: وروى بعضهم أنّ يزيد بن معاوية

⇦

وأحسَّ بالخطر في المرَّة الأخيرة، فقال لأخيه الحسين عليه السلام: «**إِنِّي مُفَارِقُكَ وَلاحِقٌ بِرَبِّي، وَقَدْ سُقِيتُ السَّمَّ، وَرَمَيْتُ بِكَبِدِي فِي الطَّسْتِ، وَإِنِّي لَعَارِفٌ بِمَنْ سَقَانِي السُّمَّ وَمِنْ أَيْنَ دُهِيتُ، وَأَنَا أُخَاصِمُهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**».

ثم قال: «**فَادْفُنِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَإِنِّي أَحَقُّ بِهِ وَبِبَيْتِهِ**»(١). **فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكَ،**

⇦

بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمِّي الحسن وأنا أتزوَّجك بعده، ففعلت، فلمَّا مات الحسن بعثت إليه فقال: إنَّا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أنَّ هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى! (البداية والنهاية ٨/ ٤٧)، ولا عجب من ابن كثير أن يكذِّب الخبر لأنَّه يتضمَّن قدحاً في بني أمية فهم أسياده وأشياخه فمن واجب البرّ عليه تزكيتهم! أيضاً أنظر: تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٨٤، تهذيب الكمال ٦/ ٢٥٣.

وقال ابن عبد البرّ: سمّته امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي، وقالت طائفة: كان ذلك منها بتدسيس معاوية إليها وما بذل لها من ذلك. الإستيعاب ١/ ٣٨٩، تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٤٠.

وقال أيضاً: فلما مات ـ الحسن عليه السلام ـ ورد البريد بموته على معاوية فقال: يا عجباً من الحسن شرب شربة من عسل بماء رومة فقضى نحبه! الإستيعاب ١/ ٣٩٠.

(١) أمّا كونه أحقَّ به، فلأنَّه ابنه وبضعته، بل هو بعضه، ولا أحقّ من الإبن بالأب، ولا من البعض بالكلِّ.

وأمَّا كونه أحقّ ببيته، فلأنَّه وارثه الشَّرعيّ من أمِّه الصدِّيقة الطَّاهرة عليها السلام الوارثة الوحيدة من أبيها صلى الله عليه وآله. وإنها لترثه كما ورث سليمان داود. وما من مخصِّصٍ لعمومات الميراث . .

وكانت صيغة التفضيل هنا تعني المفضولين أبا بكر وعمر فيما استأثرا به من الدَّفن في حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله بها لابنة كلٍّ منهما من الحقّ في هذه الحجرة. ودلَّ ذلك على رأيهما في صحة إرث الزَّوجة من العقار. والمسألة لا تزال محلَّ الخلاف بين فقهاء الإسلام إلى يوم النّاس.

⇦

فَأَنْشُدُكَ اللهَ بِالقَرَابَةِ الَّتي قَرَّبَ اللهُ عزَّ وَجَلّ مِنْكَ، وَالرَّحِمِ المَاسَّةِ مِنْ رَسُولِ الله أَنْ لا تُهْرِيقَ فِي أَمْرِي مِحْجَمَةَ دَمٍ، حَتَّى نَلْقَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله فَنَخْتَصِمُ إِلَيْهِ، وَنُخْبِرُهُ بِمَا كَانَ مِنَ النَّاسِ إِلَيْنَا».[1]

وأوصى إليه بأهله وبولده وتركاته وبما كان أوصى به إليه أبوه أمير المؤمنين عليه السلام. ودلَّ شيعته على استخلافه للإمامة من بعده.

وتُوفِّي في اليوم السّابع من شهر صفر سنة ٤٩ هـ.[2]

قال أبو الفرج الأصفهاني: «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص فدسَّ إليهما سمّاً فماتا منه»[3].

وللدَّواهي النُكر من هذا النَّوع، صدماتها الّتي تهزُّ الشُّعور وتوقظ الألم،

⇦

وكان لكلٍّ من عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر في حجرة رسول الله الّتي دُفن فيها ـ بناء على صحة إرثهما كزوجتين ـ سهمٌ واحد من اثنين وسبعين سهماً لأنهما ثنتان من تسع. وللتّسع كلّهن الثّمن يتقاسمنه على هذه النِّسبة. أمّا سعة الحجرة المقدَّسة، فممّا لا نعلمه الآن على التحقيق، فلتكن واسعة بحيث تكفي لاثنين وسبعين قبراً، وإلاّ فليكن ورثة الصدّيقة الطّاهرة قد أذنوا لأبي بكر وعمر بالدَّفن فيها. وإلاّ فماذا غير ذلك. وعلينا أن نعترف للحسن عليه السلام بأنّه كان الأحقّ برسول الله وببيته. (المؤلّف رحمه الله)

(١) الارشاد ٢/ ١٧، الأمالي للشّيخ الطوسي / ١٦٠، بحار الأنوار ٤٤/ ١٥١.

(٢) ثلاثة أقوال في يوم شهادته عليه السلام، الأول: السّابع من شهر صفر، المصباح للكفعمي / ٥١٠، الأنوار البهيّة للشيخ عبّاس القمّي / ٨٩، وهو المشهور والمعمول عليه عند الشّيعة.

الثّاني: في آخر شهر صفر: الكافي الشريف ١/ ٤٦١، مناقب ابن شهر آشوب ٣/ ١٩٢.

الثالث: في ربيع الأوّل ـ وهو غير مشهور ـ. أنظر: المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٧١، الذرية الطاهرة النبوية لمحمد بن أحمد الدولابي / ١٠٥، نظم درر السمطين للحنفي / ٢٠٥، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٣٠١.

(٣) مقاتل الطالبيين / ٣١.

وتجاوبت الأقطار الإسلامية أسى المصيبة الفاجعة، فكان لها في كلّ كورة مناحة تنذر بثورة، وفي كلّ عقد من السّنين ثورة تنذر بانقلاب.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[1].

مدفنه:

روى سبط ابن الجوزي بسنده إلى ابن سعد عن الواقدي: «إنَّه لما احتضر الحسن قال: «أَدْفُنُونِي عِنْدَ أَبِي» - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله - فقامت بنو أمية ومَرْوَان بن الحَكَم[2] وسعيد بن العاص وكان والياً على المدينة فمنعوه!!»[3] قال ابن سعد:

---

(١) سورة الشُّعراء / ٢٢٧.

(٢) مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ بنِ أبي العَاصِ بنِ أمَيَّةَ الأمويّ، أبو الحَكم، ابن عمِّ عثمان، الوزغ ابن الوزغ على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله. عن عبد الرحمن بن عوف، قال: كان لا يولد لأحد في المدينة ولد إلا جيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أتي بمروان بن الحكم فقال صلى الله عليه وآله: «**هُوَ الوَزَغُ بْنُ الوَزَغِ الْمَلْعُونُ بْنُ الْمَلْعُونِ**». أنظر: مستدرك الحاكم ٤/ ٤٧٩، السيرة الحلبية ١/ ٥٠٩، كتاب الفتن لابن حماد/ ٧٥. ولد بعد الهجرة بسنتين، ولم ير النبيَّ صلى الله عليه وآله، لأنَّ النبيّ صلى الله عليه وآله طرد أباه من المدينة إلى الطَّائف. جعله عثمان من خاصَّته واتَّخذه كاتباً له، وأدناه من نفسه، وزوّجه ابنته، واتخذه وزيراً ومستشاراً معه، وأعطاه «فدك» وقدّم له خُمس شمال إفريقيا، هذا غير ما أطلق يده في الدَّاخل والخارج، وبعد قتل عثمان خرج مروان مع عائشة إلى البصرة، وشهد صفّين مع معاوية، وولي المدينة وكان يقدِّم الخطبة على الصَّلاة خلاف سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله ويسبُّ بها علياً والحسنين عليهما السلام، وهو أوَّل من مَلَك من بني الحَكَم بن أبي العاص، بُويع له بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، مات سنة ٦٥ بالطَّاعون، وقيل: قتلته زوجته أمُّ خالد. أنظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٣٥، الإستيعاب ٣/ ١٣٨٧، الإصابة ٦/ ٢٠٣، تهذيب الكمال للمزي ٢٧/ ٣٨٧، الأعلام لخير الدِّين الزّركلي ٧/ ٢٠٧.

(٣) لم نجده بهذا الإسناد إلا عند السيِّد الأمين في الأعيان ١/ ٥٧٦، نعم، قريبٌ منه مرويّ بإسناد آخر، عن أبي حازم: لما حضر الحسن قال للحسين: «**أدْفُنُونِي عِنْدَ أَبِي** - يعني: النبيّ صلى الله عليه وآله - **إلاَّ أنْ تَخَافُوا الدِّمَاءَ، فَإنْ خِفْتُمُ الدِّمَاءَ فَلا تُهْرِيقُوا فِيَّ دَمَاً، أدْفُنُونِي عِنْدَ مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ**». أنظر: تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٨٨، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٥٤، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٦٠.

وفي تاريخ مدينة دمشق: ١٣/ ٢٩٠: لما بلغ مروان بن الحكم انهم قد اجمعوا أن يدفنوا الحسن بن علي

⇦

ومنهم عائشة وقالت: لا يُدْفنُ مع رسول الله أحدٌ»[١].

وروى أبو الفرج الأموي الأصفهاني عن يحيى بن الحسن أنَّه قال: «سمعت عليَّ بن طاهر بن زيد يقول: لما أرادوا دفنه ـ يعني الحسن بن عليّ ـ ركبت بغلاً واستعونت بني أميّة ومروان ومن كان هناك منهم ومن حشمهم، وهو قول القائل: فيوماً على بغل ويوماً على جمل»[٢]

⇨

مع رسول الله صلى الله عليه وآله جاء إلى سعيد بن العاص وهو عامل المدينة فذكر ذلك له فقال: ما أنت صانع في أمرهم؟ فقال: لست منهم في شئ ولست حائلاً بينهم وبين ذلك. قال: فخلني وإياهم! فقال: أنت وذاك! فجمع لهم مروان من كان هناك من بني أمية وحشمهم ومواليهم، وبلغ ذلك حسيناً فجاء هو ومن معه في السلاح ليدفن حسناً في بيت النبيّ صلى الله عليه وآله واقبل مروان في أصحابه وهو يقول: يا رب هيجاء هي خير من دعة!

أيدفن عثمان بالبقيع ويدفن حسن في بيت النبيّ صلى الله عليه وآله والله لا يكون ذلك أبدا وأنا احمل السيف.

(١) لم أجد في الطّبقات ولا في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام منه، ما ذكره المؤلّف، ولعلّه اعتمد على ما ذكره السيِّد الأمين رحمه الله في أعيان الشيعة ١/ ٥٧٦. وعن ابن عساكر في تاريخه ١٣/ ٢٩٣. عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال سمعت عائشة تقول يومئذ: هذا الأمر لا يكون أبداً يدفن ببقيع الغرقد ولا يكون لهم رابعاً، والله إنّه لبيتي أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته وما دفن فيه عمر وهو خليفة إلاّ بأمري وما آثر عليّ عندنا بحسن. ونقله الذّهبي باختصار في سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٧٦.

(٢) مقاتل الطالبيين / ٤٩ ، أقول: قصّة ركوب عائشة على البغلة اشتهرت في مصادر المسلمين، قال ابن عباس لعائشة: وا سوأتاه يوماً على بغل ويوماً على جمل! وفي رواية: يوماً تجمّلت ويوماً تبغّلت، وإن عشت تفيّلت، فأخذه ابن الحجّاج الشّاعر البغدادي رحمه الله فقال:

يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ... لَا كَانَ وَلَا كُنْتِ
لَكِ التِّسْعُ مِنَ الثُّمْنِ ... وَبِالْكُلِّ تَمَلَّكْتِ
تَجَمَّلْتِ تَبَغَّلْتِ ... وَإِنْ عِشْتِ تَفَيَّلْتِ

⇦

وذكر المسعودي ركوب عائشة البغلة الشَّهباء وقيادتها الأمويين ليومها الثَّاني من أهل البيت عليهم السلام. قال: «فأتاها القاسم بن محمد بن أبي بكر فقال: يا عمّة ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر(١). أتريدين أن يُقال يوم البغلة الشَّهباء؟ فرجعت»(٢).

واجتمع مع الحسين بن عليٍّ خلقٌ من النّاس فقالوا له: «دعنا وآل مروان، فوالله ما هم عندنا إلاّ كأكلة رأس» فقال: «**إنَّ أخِي أوْصَى أنْ لا أرِيقَ فِيهِ مِحْجَمَةَ دَم**(٣).. **وَلَوْلا عَهْدُ الحَسَنِ هَذَا، لَعَلِمْتُمْ كَيْفَ تَأخُذُ سُيُوفُ الله مِنْهُمْ مَأخَذَهَا، وَقَدْ نَقَضُوا**

⇦

بحار الأنوار ٤٤/ ١٥٥. وزاد عليها الصقر البصري:

وَيَـــوْمَ الحَسَـــنِ الهَـــادِي	عَـــلَى بَغْلِـــكِ أسْرَعْـــتِ
وَمَايَسْـــتِ وَمَانَعْـــتِ	وَخاصَـــمْتِ وَقَاتَلْـــتِ
وَفِي بَيْـــتِ رَسُـــولِ اللّـــ	ـــهِ بِـــالظُّلْمِ تَحَكَّمْـــتِ
هَـــلِ الزَّوْجَـــةُ أوْلَى بِالْــ	ـــمَوَارِيثِ مِـــنَ البِنْـــتِ
لَـــكِ التِّسْـــعُ مِـــنَ الـــثُّمْنِ	فَبِالْكُـــلِّ تَحَكَّمْـــتِ
تَجَمَّلْـــتِ تَبَغَّلْـــتِ	وَلَـــوْ عِشْـــتِ تَفَيَّلْـــتِ

مناقب آل أبي طالب ٣/ ٢٠٤.

(١) وعلى مثل هذا الوتر من التبكيت المؤدب ما رواه البيهقي في المحاسن والمساوئ (ج ١ ص ٣٥ [/ ٤٩-٥٠] قال: «وعن الحسن البصري أنَّ الأحنف بن قيس قال لعائشة يوم الجمل: يا أمَّ المؤمنين هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المسير؟ قالت: اللّهمّ لا، قال: فهل وجدتيه في شئ من كتاب الله جلَّ ذكرُه؟ قالت: ما نقرأ إلاّ ما تقرأون، قال: فهل رأيت رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام استعان بشيء من نسائه إذا كان في قلَّةٍ والمشركون في كثرة؟ قالت: اللَّهمَّ لا، قال الأحنف: فإذاً ما هو ذنبنا؟» (المؤلّف رحمه الله).

(٢) لم أجده في مروج الذهب، وهو في تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٥.

العَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَأَبْطَلُوا مَا اشْتَرَطْنَا عَلَيْهِم لأنْفُسِنَا»[1] ـ يشير بهذا إلى شروط الصُّلح ـ.

ومضوا بالحسن فدفنوه بالبقيع عند جدَّته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

قال في الإصابة: «قال الواقدي: حدَّثنا داود بن سنان، حدَّثنا ثعلبة بن أبي مالك: شهدت الحسن يوم مات ودُفن بالبقيع، فلقد رأيت البقيع ولو طرحت فيه إبرةٌ ما وقعت إلاّ على رأس إنسان»[2].

---

(١) الإرشاد ٢/ ١٩، عنه البحار ٤٤/ ١٥٧.

(٢) تهذيب الكمال ٦/ ٢٥٦، الإصابة ٢/ ٦٦، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٩٧، ومستدرك الحاكم ٣/ ٣٧٣. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٤٨: وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحداً من الزِّحَام وقد بكاه الرِّجال والنِّساء سبعاً واستمرَّ نساء بني هاشم ينحن عليه شهراً، وحدَّت نساء بني هاشم عليه سَنة. انتهى.



القِسْمُ الثَّانِي

في الموقفِ السِّياسي

قبل البيعة

يكفينا الآن، ونحن بصدد موضوع لا ندري على التَّحقيق، مدى تـأثُّره بسـوابقه ومقارناته، أن نرجع ـ ولو قليلاً ـ إلى استعراض بعـض الأوضـاع الإجتماعيـة الّتـي ثاب[1] إليها المسلمون لأوّل مرَّة بعد عهد النُّبوَّة، بـما كـان للنُّبـوَّة مـن أثـر عميـق في النُّفوس، وسلطان قويٍّ على تكوين المجتمع، ويـد صـنَّاع في بنـاء عنـاصر الحيويـة في الأتباع.

يكفينا ونحن نستوحي الذِّكريات لوضع الصُّورة العابرة هنا، أن نأخذ مـن كـلِّ مناسبة صلتها بموضوعنا، أو نأخذ بالمناسبات ذات الصِّلة من دون غيرها، لنتعرَّف ـ على ضوء هذا الأسلوب ـ مدى تأثُّر موضوعنا بماضيه.

وكان الحدث الأكبر في تاريخ الإسلام هو وفاة رسول الله ﷺ، وانقطـاع ذلـك الإشعاع السَّماويّ الّذي كان يفيض على الدُّنيا كلِّها بالخير، فـإذا الـدُّنيا كلُّهـا مظلمـة تستعدّ للشرِّ. وانقطعت الأرض بموت رسول الله ﷺ عن السَّماء، إذ كان الوحي هو بريدها إلى الأرض وأداة صلتها بها. وهل للأرض غنىً عن السَّماء، وفي السَّماء رزقهـا

---

(١) ثاب يثوب مثابة ومثاباً: إذا رجع.

ومنها خيرها وحياتها وحيويتها ونورها ودينها. وما كان أشدّ من هذه الوحشة على الدُّنيا، ولا أفدح من هذه الخسارة على المسلمين، لو أنّه كان ـ ونعوذ بالله ـ انقطاعاً باتّاً وانفصالاً نهائياً. ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله أدرك ما سيمتحن به المؤمنون بعده من عظيم الرّزية بانقطاع الوحي من بينهم، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فأخبرهم بأنّ حبلاً واحداً سيبقى متّصلاً بينهم وبين السّماء. وهل حبل أولى بالتمسُّك من حبل السّماء وقد انقطع الوحي، قال:

«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي كِتَابَ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فِيهِمَا».[1]

ومن حقّ البحث الّذي بين أيدينا أن يستقرئ في هذه المناسبة موقف المجتمع من عترة النبيّ صلى الله عليه وآله، أو موقف الجماعات الّتي كانت تدّعي لنفسها حقّ التّمثيل للمجتمع، لينظر فيما خلفوا رسول الله في عترته ـ أستغفر الله ـ بل لينظر فيما يتّصل من ذلك بموضوعنا من هذه المناسبة العابرة. وإذا كانت العترة[2] عشيرة الرّجل، فعليٌّ أبرز

---

(١) خرجه الترمذي وهو الحديث ٨٧٤ من أحاديث كنز العمال (ص ٤٤ ج ١) وعلى نسق هذا الحديث أحاديث كثيرة أخرى روتها الصّحاح والمسانيد، وجاء في بعضها: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ خَلِيفَتَينِ، كِتَابَ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، ـ أوْ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ـ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيتِي، وأَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ.**» ـ (الإمام أحمد [٥/ ١٨٢] والطّبراني في الكبير[٥/ ١٥٣]) . (المؤلّف ره).

أقول: حديث الثقلين تواتر نقله، ولا يسع المقام استقصاء ذكر جميع طرقه، فمن أراد البسط في ذلك فليراجع «نفحات الأزهار» لسيدنا الأستاذ المحقّق آية الله السيّد عليّ الميلاني فإنّ فيه كفاية للمكتفي.

(٢) عرّفوا «العترة» بتعاريف كثيرة، قيل: نسل الإنسان، وقيل: ولد الرّجل وذريته وعقبه من صلبه، وقيل: رهطه الأدنون، وقيل: أقرباؤه، وقيل: عشيرته، وغيرها، إلا أن المسلّم منها جميعاً ⇦

رجالها بعد رسول الله، وإذا كانت ذرِّيته، فالحسن كبير عترة النبيِّ من بعده. وتجيز اللُّغة إطلاق العترة على الصِّنفين ـ العشيرة والذرّية ـ معاً.

نعم، إنَّه قدِّر لهذا المجتمع، أن ينقسم إنقسامته التاريخية الّتي وقعت فور الفاجعة العظمى بوفاة رسول الله ﷺ، حين تأوّل قوم فانساحوا إلى تأوّلاتهم، وتعبّد آخرون فثبتوا على الصَّريح من قول نبيِّهم، وللنبيِّ تصريحات كثيرة في موضوع التَّرشيح للخلافة ليس هنا مكان استعراضها. ولسنا الآن بصدد مناقشة المتأوِّلين أو مساجلة المتعبِّدين، لأنَّ كلَّ شئ مما نتَّفق عليه معهم جميعاً، أو مع فريق واحد منهم، أو مما نختلف فيه قد تمَّ في حينه على صورته. وليس فيما تتناوله بحوثنا الآن ما يستطيع أن يغيِّر الواقع عن واقعه.

ولكنَّا ـ ولنلتمس المعاذير للمتأوِّلين ـ على مخالفتهم لنصوص نبيِّهم نقول: إنهم نظروا إلى هذه النيابة عن الوحي الّتي جعلها رسول الله ﷺ للكتاب وللعترة من بعده، في حديثه هذا وفي نظائره الكثيرة من الأحاديث الأخرى، نظرتهم السياسيَّة الّتي

⇦

والمشهور بين اللّغويين، والأقرب إلى الإستعمال عند أهله، هو أسرة الرّجل وأخصّ أقاربه وأدناهم إليه، فعترة النبي ﷺ هم أصحاب الكساء والأئمة الطّاهرون عليهم السلام، ويرشد إلى ذلك النبوي الشريف: «وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي» فالعترة لا تفارق أهل البيت وكذا العكس، وكلاهما يضيّقان الدّائرة بحيث لا يدخل فيها مثل الأعمام وسائر الأقارب والأزواج. وقد أشكل بعضهم على هذا القول بخروج أمير المؤمنين عليه السلام من متناول حديث الثقلين، لأن على هذا التعريف لا يكون ابن العم من العترة.

وأجيب: بأن هذه الدعوى مجازفة ظاهرة، غير معتمدة على لغة ولا على نقل أو عرف، فإنّ دخول أمير المؤمنين عليه السلام في عترة النبي ﷺ في غاية من الوضوح كيف لا وهو سيّدها، وبداهة أنه صلوات الله عليه ابن عمه وزوج ابنته وأبو ولده وأخصّ الناس جميعاً بالنبي ﷺ ونفسه بنصّ الكتاب.

لا تعني الإنكار على رسول الله، ولكنَّها تهدف ـ قبل كلِّ شيء ـ إلى «المصلحة»[1] فيما يرون، ورأوا أن وجوب إطاعة الأوامر النبويَّة في الموضوعات السياسيّة، منوط بذوي التجارب من الشُّيوخ المتقدِّمين بالسِّنّ. فإن صادقوا على ما أراده النبيُّ فذاك، وإلاَّ فليكن ما أرادوا هم.

وهكذا زُويت الخلافة عن العترة. وهكذا صار من الممكن وربما من المستحسن لدى فريق عظيم من مسلمة محمَّد صلى الله عليه وآله، أن يصبح معاوية أيضاً ممن ينازع على خلافة الإسلام ويطلبها لنفسه، ويحتج عليها بالسِّن[2] أيضاً، ويصادق عليها الشّيوخ المسنّون

---

(١) شتّان بين «المتعبّدين» و«المتأوّلين» في ما يعتقدانه بالنصِّ النّبوي صلى الله عليه وآله، فالمتأوّلون يرون أن الخلافة من أمور الدنيا ولا صلة لها بالوحي والنصّ، ونصب الإمام عندهم واجب على الخلق لا على الله، ولو أن الله تعالى اختار شخصاً خليفةً لا يكون هذا الإختيار ملزماً لهم ومخالفة هذا الأمر ليس محرَّماً، لأن الصحابة مجتهدون، ومن حقهم الإجتهاد في قضية كهذه، فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة ١٢/ ٨٢ ، كلاماً لأستاذه النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد وقد سأله عن وجه مخالفة الصحابة لبعض النصوص النبوية، قال:

«إنَّ القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنَّها من معالم الدِّين وأنها جارية مجرى العبادات الشرعية، كالصلاة والصَّوم، ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدُّنيوية ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرَّعية، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه صلى الله عليه وآله إذا رأوا المصلحة في غيرها، ألا تراه كيف نصَّ على إخراج أبي بكر وعمر في جيش أسامة ولم يخرجا لما رأيا أنَّ في مقامهما مصلحة للدولة وللملة وحفظاً للبيضة ودفعا للفتنة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخالَف وهو حيٌّ في أمثال ذلك فلا ينكره لا يرى به بأساً... وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النُّصوص لما رأوا المصلحة في ذلك كإسقاطهم سهم ذوي القربى وإسقاط سهم المؤلَّفة قلوبهم وهذان الأمران أدخَلُ في باب الدِّين منهما في باب الدُّنيا وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في الكتاب والسُّنة، ... وما كانوا يقفون مع نصوص الرَّسول صلى الله عليه وآله وتدبيراته إذا رأوا المصلحة في خلافها ... الخ».

(٢) يلحظ هنا كتاب معاوية إلى الحسن عليه السلام شرح النهج (ج ٤ ص ١٣) [١٦/ ٣٦]. (المؤلّف رحمه الله)

أقول: وهو كتاب معاوية إلى الإمام الحسن عليه السلام في جواب ما كتبه له، وفيه: «... والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم (بني هاشم) وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فلو ⇦

أيضاً كعَمْرو بن العَاص(١) والمُغِيرَة بن شُعْبة(٢) وأبي هريرة الدُّوسي. ولم تكن حملة

⇦

علمت أنَّك أضبط مني للرَّعية، وأحوط على هذه الأمَّة، وأحسن سياسةً، وأقوى على جمع الأموال، وأكيدَ للعدوِّ، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلاً، ولكن قد علمت أنّي أطول منك ولايةً، وأقدم منك بهذه الأمَّة تجربةً، وأكبر منك سِنّاً، فأنت أحقُّ أن تجيبني إلى هذه المنزلة الَّتي سألتني، فادخُل في طاعتي ولك الأمر من بعدي... الخ» شرح نهج البلاغة ١٦/ ٣٦، مقاتل الطالبيين / ٣٧، بحار الأنوار ٤٤/ ٤٠.

(١) عَمْرو بْنَ العَاصِ بنِ وَائِلِ بنِ هَاشِمِ بنِ سُعَيدِ بنِ سَهْم، أبو عبد الله، ويقال: أبو محمَّد السَّهْمِيّ. أبوه: هو الأبتر بنصِّ الذِّكر الحكيم. أمُّه: ليلى وتسمَّى النَّابغة، وكانت أشهرَ بغيٍّ بمكّة وأرخصهن أجرةً ولما وضعته ادَّعى خمسةٌ كلُّهم أتوها غير أنَّ ليلى ألحقته بالعاص لكونه أقرب شبهاً به وأكثرهم نفقةً عليها. والَّذين وقعوا عليها في طُهرٍ واحد: العاص وأبو سُفيان وأبو لهب وأميّة بن خلف وهشام بن المغيرة فولدت عمرواً فاختلفوا فيه فلحقته بالعاص. وهو الَّذي أرسلته قريش إلى النَّجاشي لاسترداد جعفر بن أبي طالب عليه السلام ومن معه، افتتح مصر لعمر، ووليها إلى السَّنة الرَّابعة من خلافة عثمان، فعزله عنها، فأخذ يؤلِّب عليه حتى قُتل، ثم اشترك مع معاوية بصفِّين مُطالباً بثأر عثمان وأشار برفع المصاحف للصُّلح فانخدع جيش الكوفة وقبلوا الصُّلح، وعيّنوا أبا موسى من قبلهم وعيَّن معاوية عمرواً فغدر بأبي موسى وخلعا عليّاً عليه السلام ونصب عمرو معاوية، وأخذ مصر طعمةً من معاوية ووليها بعد قتل محمَّد بن أبي بكر، حتى تُوفِّي سنة ثلاث وأربعين أو بعدها، ودفن هناك. جمع رذائل الصّفات ومساوئ الأخلاق من الغدر والنِّفاق والمكر والحيلة والخيانة والفجور ونقض العهد وكذب القول وخلف الوعد وقطع الإل والحقد والوقاحة والحسد والرِّياء والشح والبذاء والسفه والوغد والجور والظلم والمراء والدَّناءة واللئم والملق والجلافة والبخل والطمع واللّدد وعدم الغيرة على حليلته فلعنه الله تعالى وأخزاه. مات سنة ٤٣ أو ٤٧، أو ٤٨، وقيل: ٥١ هـ. الإستيعاب ٣/ ١١٨٤، أسد الغابة ٤/ ١١٤، الإصابة ٤/ ٥٣٧، وفي الغدير ٢/ ١٢٠ـ١٧٦، قد بسط القول في ترجمته، فراجع.

(٢) المُغِيرةُ بنُ شُعْبَةَ بنِ أبي عَامِرِ بنِ قَيْسٍ الثَّقَفِي، أسلم عام الخندق، وهاجر إلى المدينة، وشهد الحديبية، ولاَّه عمر بن الخطاب البصرة، ولم يزل عليها حتى شُهِد عليه بالزِّنا، فعزله، ثم ولاَّه الكوفة، وأقرَّه عثمان عليها، وهو أوَّل من وضع ديوان البصرة، وأوَّل من رشى في الإسلام، أحصن ٣٠٠ امرأة في الاسلام وقيل: بل ألف امرأة! وكان يعرف بـ «أزنى ثقيف»! وعُرف المغيرة بدهائه ومكره، فعن قبيصة بن جابر قال: صحبت المغيرة، فلو أنَّ مدينةً

⇦

معاوية هذه بما فيها من استخفاف بقدسيّة الإسلام، الأُولى من نوعها، ولكنّها كانت تمتدّ بجذورها إلى عهد أقدم، والى تصالح وتعاون أسبق، ومن طراز أسمى.(١)

⇦

لها ثمانية أبواب، لا يُخرجُ من بابٍ منها إلاَّ بالمكر، لخرج المغيرة من أبوابها كلِّها. تُوفِّي في الكوفة سنة ٤٩ هـ، وهو أميرها من قِبَل معاوية بن أبي سفيان، أسد الغابة ٤/ ٤٠٦، الإصابة ٦/ ١٥٦، الإستيعاب ٤/ ١٤٤٥.

ومن أحبَّ المزيد من أخباره فأرشده إلى ما كتبه أخونا عبد الباقي قرنة الجزائري في كتابه: «المغيرة بن شعبة» فقد أفاض فيه بما لا مزيد عليه.

(١) ويراجع للتأكُّد، تصريح معاوية نفسه فيما رواه المسعودي (ج ٦ ص ٧٨ ـ ٧٩ هامش ابن الأثير) [مروج الذّهب ٣/ ١٢]. وبنى على ذلك كثير من شعرائنا القدامى قصائدهم العامرة. وهو ما عناه مهيار الدَّيلمي رحمه الله في لاميته [أنظر: الغدير ٤/ ٢٥١] بقوله:

وَمَا الخَبيثَانِ ابْنُ هِندٍ وَابنُه ... وإنْ طَغَى خطبُهمَا بعدَ وَجَل

بمبدِعَينِ في الَّذي جَاءا بِه ... وإنَّما تَقفَّيَا تلكَ السُّبُل

وهو ما عناه قبله أستاذه الشَّريف الرضي رحمه الله بقوله:

ألا ليس فعلُ الآخرين وإنْ عَلا ... عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الأوَّلِينَ بِزائد

وهو ما عناه قبلهما الكميت [الإفصاح للشيخ المفيد رحمه الله / ٢٤٢، الأغاني ١٧/ ٢٠، الغدير ٢/ ١٩٢] بقوله:

فَيَا آخِراً أَسْدَى لَهُ الشَّرَّ أَوَّلُ ... يُصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوسِ غَيرِهِم

إلى أمثال كثيرة أخرى. (المؤلّف رحمه الله)

أقول: البيت الذي نسبه المؤلِّف رحمه الله إلى الشَّريف الرَّضي فهو ليس له، بل للسيِّد الأمين العاملي رحمه الله، وأمّا قول الشّريف الرّضي فهكذا:

بَنَى لَهُمُ المَاضُونَ أَسَاسَ هَذِهِ ... فَعُلّوا عَلَى أَسَاسِ تِلكَ القَوَاعِدِ

ألا لَيسَ فِعلُ الأوَّلِينَ وَإنْ عَلا ... عَلَى قُبْحِ فِعْلِ الآخِرِينَ بِزَائِد

ذكر هذين البيتين السيِّد محسن الأمين العاملي في أعيان الشّيعة ٧/ ٢٣٩، وقال بعد أن نقلهما: وكان الأولى بالشَّريف الرَّضي أن يقول:

⇦

ولم يبق مخفياً أنَّ الحَجر الأساسيّ لهذا التدهور غير المنتظر، كان هو الّذي بُني هناك في المدينة المنوَّرة، وقامت عليه سقيفة بني ساعدة بما أبرِم فيها من حبل جديد هو غير الحبل الممدود ـ عموديّاً ـ من السَّماء إلى الأرض الّذي عناه رسول الله ﷺ في حديثه الآنف الذِّكر. ولكنَّه حبل آخر أريد ليمتدَّ مع التَّاريخ ـ أُفُقيّاً ـ

وَتَوَالَـتْ تَحْـتَ السَّـقِيفَةِ أحْـ ـدَاثٌ أثَـارَتْ كَوَامِنَـاً وَمُيُـولا

نَزَعَـاتٌ تَفَرَّقَـتْ كَغُصُـونِ الْـ ـعَوْسَجِ الغَـضِّ شَـائِكَاً مَـدْخُولا[1]

ووقف صاحب الحقّ بالخلافة من إخوانه المتأوِّلين، موقفه المشرِّف الّذي دلّ بذاته، وبما حفظ الإسلام من الإنهيار، على أنّه وحده كان الوسيط بين النّاس وحبل السَّماء. وتلكَّأ عن بيعتهم بمقدار ما نبّه الذِّهنية الإسلاميّة إلى الحقِّ المغلوب على أمره، وأُخذ إلى البيعة ـ بعد ذلك ـ أخذاً[2].

⇨

بَنَـى لَهُـمُ المَاضُـونَ أسَّـاً وَقَـدْ بَنَـوا بِنَـاهُم عَـلَى أسَـاسِ تِلْـكَ القَوَاعِـدِ

ألا لَـيْسَ فِعْـلُ الآخِـرِينَ وَإنْ عَـلا عَـلَى قُـبْحِ فِعْـلِ الأوَّلـينَ بِزَائِـدِ

(١) لبولس سلامة. (المؤلّف ﵀)

أقول: هو الأديب اللُّبناني الكبير الأستاذ «بولس سلامة»، مسيحي كاتب شاعر فاضل، ولد سنة ١٩١٠ م في قضاء جزين ـ لبنان، درس الحقوق في الجامعة اليسوعية، وعمل قاضيا سنة ١٩٢٨ م، ويغلب على أدبه عامة والشعري خاصة قوة السبك وروعة التخييل ونحت المفردات. له عدة دراسات أدبية وفكرية معروفة، من مؤلفاته: ١ ـ أيام العرب (ملحمة)، ٢ ـ عيد الغدير (ملحمة إسلامية)، تناول فيها سيرة أهل البيت ﵈ في أهمّ ما يتّصل بهم واختتمها بمأساة كربلاء، وقد أنتج هذه الملحمة على فراش الألم كما يذكر، وذلك باقتراح من المرحوم الحجّة السيِّد عبد الحسين شرف الدين ﵀.

توفي بعد مرض عضال في ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

(٢) قال معاوية فيما كتبه اليه مع أبي امامة الباهلي: «وتلكّأت في بيعته ـ يعني بيعة أبي بكر ـ حتى

⇦

وسأله بعض أصحابه: «كيف دفعكم قومُكم عن هذا المقام وأنتم أحقُّ به؟» فقال: «**كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، والحَكَمُ اللهُ وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ، ودَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ،...**»[1]..

لغةٌ تُنبئُك عما تكظمه في دخيلتها من غيظ، وعمَّا تحمله في ظاهرتها من تسليم.

وعشا عن أنواره مناوئوه، وعلى أبصارهم غشاوة الذُّحول. فغفلوا عنه غير منكرين سَبقه وجهاده وقرابته وصهره وأخوّته وعلمه وعبادته، وتصريحات رسول الله صلى الله عليه وآله في شأنه، الّتي كانوا يستوعبونها يومئذٍ أكثر مما نستوعبها نحن. ولكنَّهم نقِموا عليه كثرة فضائله هذه، ونقِموا عليه شدّته في إحقاق الحقِّ، ونقِموا عليه سيفه الّذي خلق منهم أعداء موتورين، منذ كان يصنع الإسلام بهذا السَّيف في سُوح الجهاد

⇨

حملت إليه قهراً تساق بخزائم الإقتسار كما يساق الفحل المخشوش!!» اه .[بحار الأنوار ٣٣/ ٦٢، شرح النهج ١٥/ ١٨٦] (المؤلّف رحمه الله)

أقول: فأجابه أمير المؤمنين عليه السلام بكتاب جاء فيه: «**وقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ، كَمَا يُقَادُ الجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، ولَعَمْرُ الله لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ، ومَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً، مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ ولَا مُرْتَاباً بِيَقِينِه.**» نهج البلاغة ٣/ ٣٣، الكتاب: ٢٨.

(١) نهج البلاغة ٢/ ٦٣، الخطبة: ١٦٢، قال محمد عبده: «والمراد بمن سَخَت نفوسُهم عنِ الأمْرِ، أهلُ البيت عليهم السلام . البيت لامرئ القيس، وتتمَّته: «وهَاتِ حَديثاً ما حَديثُ الرَّواحل» قاله عندما كان جاراً لخالد بن سدوس، فأغار عليه بنو جديلة فذهبوا بأهله، فشكا لمجيره خالد فقال له: أعطني رواحلك ألحق بها القوم فأردّ إبلك وأهلك، فأعطاه، وأدرك خالد القوم فقال لهم: ردُّوا ما أخذتم من جاري، فقالوا: ما هو لك بجارٍ، فقال: والله إنَّه جاري وهذه رواحله، فقالوا: رواحله ؟ فقال: نعم. فرجعوا إليه وأنزلوه عنهن وذهبوا بهن. و«**النَّهْبُ**» بالفتح الغنيمة. و«**صِيحَ**» أي: صاحوا للغارة. «**في حَجَرَاتِه**» جمع «**حَجْرَة**» بفتح الحاء، النّاحية.»

المقدَّس.[1]

ونقِموا عليه سِنَّه لأنّه كان في العقد الرّابع.[2] ولا عجب إذا رأى ذوو الحنكة المسنُّون، أن لا يكون الخليفة بعد رسول الله مباشرة، إلاّ وهو في العقد السَّابع مثلاً. وخفي عليهم أنَّ الإمامة في الإسلام دينٌ كالنّبوَّة نفسها، ويجوز فيها ما يجوز في النبوَّة، ولا يجوز عليها ما لا يجوز على النبوَّة في عظمتها[3]. فما شأن الإجتهاد بالسِّنِّ في مقابل النّصِّ على التَّعيين. وما شأن الملاحظات السياسيَّة في مقابل كلمات الله وتصريحات نبيِّهﷺ. وكانت سنُّ عليٍّ يوم وفاة رسول اللهﷺ، سنَّ عيسى بن مريم يوم رفعه الله عزَّ وجلَّ، أفيجوز لعيسى أن ينتهي بقصارى نبوَّته في الأرض إلى هذه السِّن، ولا يجوز لعليٍّ أن يبتدئ خلافته في ثلاث وثلاثين، وهي السِّنُّ الّتي اختارها الله لسكَّان جنانه يوم القيامة! ولو لم تكن خير سنيِّ الإنسان لما اختارها الله للمصطفين من عباده في

---

(١) وفي كلام سيدة النّساء فاطمة الزّهراءعليها السلام مع نساء المهاجرين والأنصار أيضاً إشارة إلى هذه الحقيقة: «**وَمَا الَّذِي نَقِمُوا مِنْ أَبِي الحَسَنِ؟! نَقِمُوا وَالله مِنْهُ نَكِيرَ سَيْفِهِ، وَشِدَّةَ وَطْئَتِهِ، وَنَكَالَ وَقْعَتِهِ، وَتَنَمُّرَهُ فِي ذَاتِ الله...**» دلائل الإمامة للطّبريَ الشيعي / ١٢٦، الإحتجاج ١/ ١٤٧، شرح النهج ١٦/ ٢٣٣، بَلاغات النساء لابن طيفور / ٢٠، بحار الأنوار ٤٣/ ١٦٠.

(٢) عن ابن عبَّاس قال: مشيت وعمر بن الخطاب في بعض أزقة المدينة فقال لي: يا ابن عبَّاس أظنُّ القوم استصغروا صاحبكم إذ لم يُولّوه أموركم، فقلت: والله ما استصغره الله إذ اختاره لسورة براءة يقرؤها على أهل المدينة، فقال لي: الصَّواب تقول، والله لسمعت رسول اللهﷺ يقول لعليِّ بن أبي طالب: «**مَنْ أَحَبَّكَ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَحَبَّنِي أَحَبَّ اللهَ وَمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ مُدِلاً**». تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ٢٩٢.

(٣) عن عليِّ بن أسباط، قال: رأيت أبا جعفرعليه السلام قد خرج عليّ فأحددت النَّظر إليه والى رأسه وإلى رجله لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فخرَّ ساجداً فقال: «**يَا عَلِيُّ، إنَّ اللهَ احْتَجَّ فِي الإمَامَةِ بِمِثْلِ مَا احْتَجَّ بِهِ فِي النُّبُوَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾** [سورة مريمعليها السلام/ ١٢] و: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾** [سورة يوسفعليه السلام/ ٢٢] **﴿وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾** [سورة الأحقاف/ ١٥] **فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ وهُوَ صَبِيٌّ ويَجُوزُ أَنْ يُؤْتَاهَا وهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً.**» الكافي الشّريف ١/ ٣٨٤، بصائر الدّرجات / ٢٥٨.

الجنان.

ونقِموا عنيه قرباه «فكرهوا اجتماع النبوّة والخلافة في بيتٍ واحد»[١] ولا نعرف كيف انقلبت الفضيلة ـ على هذا المنطق ـ سبباً لنقمة. ولا نفهم كيف كانت «القرابة» بموجتها القصيرة، وبما هي أقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله حائلاً دون الخلافة، ثم هي بموجتها الطويلة، وبما هي أبعد عن النبيِّ، دليل الخلافة والحجّة الوحيدة في ما دلفوا به من حِجاج خصومهم.[٢]

---

(١) راجع الحوار الّذي دار بين ابن عبّاس وعمر بن الخطاب، جاء فيه: «فقال: يا ابن عباس أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمّد؟ فكرهت أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني! فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النّبوّة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت! فقلت: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في كلام وتمط عني الغضب تكلّمت، فقال: تكلّم يا ابن عباس.

فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزَّ وجلَّ لها لكان الصَّواب بيدها غير مردود ولا محسود.

وأمّا قولك: إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ وصف قوماً بالكراهية فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمّد صلى الله عليه وآله / ٩).

فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس، قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أقرّك عليها، فتزيل منزلتك مني، فقلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك وإن كانت باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنّك تقول: إنما صرفوها عنا حسداً وظلماً فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأما قولك: حسداً، فإنَّ إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون، فقال عمر: هيهات أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول وضغناً وغشاً ما يزول، فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغش فإنَّ قلب رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم من قلوب بني هاشم، فقال عمر: إليك عني يا ابن عبّاس، فقلت: أفعل، فلمّا ذهبت لأقوم استحيا مني فقال: يا ابن عبّاس مكانك فوالله إني لراع لحقِّك، محبٌّ لما سرّك، فقلت: يا أمير المؤمنين إنّ لي عليك حقاً وعلى كلِّ مسلم فمن حفظه فحظّه أصاب، ومن أضاعه فحظّه أخطأ، ثم قام فمضى.» أنظر: تاريخ الطّبري ٣/ ٢٨٨، تاريخ ابن الأثير ٣/ ٦٣.

(٢) «**احْتَجُّوا بِالشَّجَرَةِ وَأَضَاعُوا الثَّمَرَةَ**» نهج البلاغة ١/ ١١٦ خ٦٧، من روائع حكم الإمام أمير ⇦

وحسبوا أنهم أحسنوا صنعاً للإسلام وللمصلحة العامَّة بفصلهم الخلافة عن بيت النبوَّة، وبها فسحوا المجال لبيوتات أخرى، تتعاون ـ بدورها ـ على غزو المنصب الدِّيني الأعلى، أبعد ما يكون بطبيعته عن مجالات الغزو والغلبة والإستيلاء بالقوّة والعنف.

وخفي عليهم ما كان يحتاط به رسول الله ﷺ لأمَّته ولعترته، حين سجَّل الخلافة في بيته.

وجاءت الأحداث ـ بعد ذلك ـ فنبّهت العقول الواعية إلى أخطاء القوم وصواب رسول الله ﷺ.

فكانت «عملية الفصل» هذه، هي مثار الخلافات التّاريخية الحمر، بين عشّاق الخلافة في مختلف الأجيال، ومبعث مآسٍ فظيعة في المسلمين، ومصدر انعكاسات مزريةٍ في مثالية الإسلام، كان المسلمون في غنى عنها لو قُدِّر للخلافة ـ من يومها الأوّل ـ أن تأخذ طريقها اللاّحب الّذي لا يجوز فيه اجتهاد، ولا تمسُّه سياسة، ولا يتصرّف فيه أحدٌ غير الله ورسوله.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا﴾(1)

وهل كان التناحُر والتطاحُن المديدُ العمر المتوارث مع الأجيال فيما بين الأُسَر

⇨

المؤمنين ﷺ قالها حينما بلغه أن أبا بكر احتج على الأنصار بأن النبي ﷺ من قريش وهم أولى بمقام رسول الله ﷺ منهم، ومنه أخذ العبَّاس في احتجاجه على أبي بكر، إذ قال له في كلام دار بينهما: «فإن كنت برسول الله طلبت، فحقّنا أخذت، وإنْ كنت بالمؤمنين طلبت، فنحن منهم متقدِّمون فيهم، وإن كان هذا الأمر إنّما يجب لك، فما وجب إذ كنّا كارهين...» أنظر: السقيفة وفدك للجوهري / ٥٠، شرح النّهج ١/ ٢٢١، الإمامة والسّياسة لابن قتيبة ١/ ٢١.

(١) سورة الأحزاب / ٣٦.

البارزة في المسلمين، إلاّ نتيجة فسح المجال لهذا أو ذاك في الطّماح إلى غزو المقام الرَّفيع.

وهل كانت المجازر الفظيعة الّتي جابهها المسلمون في الفترات المختلفة من تاريخ الإسلام: بين بني هاشم وبني أميّة: وبين بني الزُّبير وبني أميّة: وبين بني العبّاس وبني أميّة: وبين بني عليٍّ وبني العبَّاس ... إلاّ النَّتيجة المباشرة لفصم ذلك التّقليد الدِّينيّ الّذي احتاط به رسول الله صلى الله عليه وآله، ليكون حائلاً دون أمثال هذه المآسي والأحداث المؤسفة في الإسلام.

وهل كانت «فجائع العترة» الفريدة من نوعها - بالقتل والصَّلب والسَّبي والتّشريد - إلاّ أثر الخطأة الأولى، الّتي خولفت بها سياسة النبيِّ صلى الله عليه وآله فيما اراده لأمّته ولعترته، وفيما حفظ به أمّته وعترته جميعاً، لو أنّهم أطاعوه فيما أراد.[1]

ولكنّهم جهلوا مغزى هذه السِّياسة البعيدة النَّظر، فكرهوا اجتماع النّبوّة والخلافة في بيت واحد. انصهاراً بسياسة أخرى.

وكانت هي المعذرة الظّاهرة الّتي لم يجدوا غيرها معذرة يبوحون بها للنّاس. أمّا معذرتهم الباطنة، فلا يعلم بها إلاّ العالم ببواطن الأمور وهي على الأكثر لا تعدو

---

(١) ذكر البلاذري في تاريخه قال: لما قتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كتب عبد الله بن عمر إلى يزيد بن معاوية: أما بعد: فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة وحدث في الإسلام حدث عظيم ولا يوم كيوم الحسين. فكتب إليه يزيد: يا أحمق ! فإنا جئنا إلى بيوت متخذة وفرش ممهدة ووسائد منضدة فقاتلنا عليها، فإن يكن الحق لنا فعن حقنا قاتلنا، وإن يكن الحق لغيرنا فأبوك أول من سن هذا وآثر واستأثر بالحق على أهله.» نقلاً عن «الطَّرائف في معرفة مذاهب الطَّوائف للسيِّد ابن طاووس رحمه الله / ٢٤٧.

وقريب منه روي عن سعيد بن المسيب، قال: «لما قُتل الحسين بن عليّ صلوات الله عليهما، ورد نعيه إلى المدينة، خرج عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى يزيد بن معاوية بالشَّام، واعترض عليه في قتله للحسين عليه السلام فأقنعه يزيد بأنْ أخرج إليه صحيفة تحتوي على عهد كتبه عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان... الخ» وهو خبر طويل ذكره في بحار الأنوار ٣٠/ ٢٨٧.

الذِّكريات الدَّامية في حروب الدَّعوة الإسلامية، أو الحسد الّذي «**يَأْكُلُ الدِّينَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحُطَبَ**»(١) ـ كما في الحديث الشريف ـ.

وكان حبُّ الرِّياسة وشهوة الحكم، شرَّ أدواء النّاس ووبالاً على النّاس، وأشدّها استفحالاً في طباع الأقوياء من زعماء ومتزعِّمين.(٢)

وما النبوَّة ولا الإمامة بما هما ـ منصب إلهي ـ من مجالات السِّياسة بمعناها المعروف، وكلُّ سياسة في النبوّة أو في شئ من ذيولها الإدارية، فهو دين وإلى الدِّين. والمرجع الوحيد في كلِّ ذلك، هو صاحب الدِّين نفسه، وكلمته هي الفصل في الموضوع.

ولكي تتَّفق معي على مسيس اتّصال هذه المناسبة بموضوعنا اتّصالاً وشيجاً، عليك أن تتطلّع إلى اللُّغة المتظلمَّة الناقمة الّتي ينكشف عنها الحسن بن عليّ عليهما السلام في هذا الشّأن، بما كتبه إلى معاوية، إبّان البيعة له في الكوفة. قال:

«**فَلَمَّا تُوُفِّيَ** ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ **تَنَازَعَتْ سُلْطَانَهُ العَرَبُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ قَبِيلَتُهُ وَأُسْرَتُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ، وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُنَازِعُونَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَحَقَّهُ. فَرَأَتِ العَرَبُ أَنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ قُرَيْشٌ وَأَنَّ الحُجَّةَ فِي ذَلِكَ لَهُمْ عَلَى مَنْ نَازَعَهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ. فَأَنْعَمَتْ لَهُمْ وَسَلَّمَتْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ حَاجَجْنَا**(٣) **نَحْنُ قُرَيْشَاً بِمِثْلِ مَا حَاجَجَتْ بِهِ العَرَبُ، فَلَمْ تُنْصِفْنَا**

---

(١) في نهج البلاغة ١/ ١٥١ الخطبة :٨٦، مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وفي الكافي الشريف ٢/ ٣٠٦، ومن لا يحضره الفقيه ٢/ ١٠٨، روي عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، وعن النبيِّ صلى الله عليه وآله في سنن أبي داوُد ٢/ ٤٥٧، سنن أبي ماجة ٢/ ١٤٠٨، مصنّف ابن أبي شيبة ٦/ ٢٥١، مسند أبي يعلى ٦/ ٣٣٠. وفي الأصل هكذا: «**وَلا تَحَاسَدُوا فَإِنَّ الحُسَدَ يَأْكُلُ الإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحُطَبَ**»

(٢) وأشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهم أسباب تخاذلهم عن أهل البيت عليهم السلام ونكثهم لعهودهم بقوله في الخطبة الشّقشقيّة: «**كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَه يَقُولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، بَلَى وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلِيَتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا**» نهج البلاغة ١/ ٣٦، الخطبة:٣.

(٣) وكان من أفظع النّكايات بقضية أهل البيت عليهم السلام، أن تختفي كلُّ هاتيك المحاججات في التّاريخ.

⇦

قُرَيْشٌ إنْصَافَ العَرَبِ لَهَا. إنَّهُمْ أخَذُوا هَذَا الأمْرَ دُونَ العَرَبِ بِالإنْصَافِ وَالإحْتِجَاجِ، فَلَمَّا صِرْنَا أهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَأوْلِيَاءَهُ إلَى مُحَاجَّتِهِمْ، وَطَلَبِ النَّصَفِ مِنْهُمْ، بَاعُونَا وَاسْتَوْلَوْا بِالإجْتِمَاعِ عَلَى ظُلْمِنَا وَمُرَاغَمَتِنَا وَالعَنَتِ مِنْهُمْ لَنَا. فَالْمَوْعِدُ اللهُ وَهُوَ الوَلِيُّ النَّصِيرُ.

وَلَقَدْ كُنَّا تَعَجَّبْنَا لِتَوَثُّبِ المُتَوَثِّبِينَ عَلَيْنَا فِي حَقِّنَا، وَسُلْطَانِ بَيْتِنَا. وَإذْ كَانُوا ذَوِي فَضِيلَةٍ وَسَابِقَةٍ فِي الإسْلامِ، أمْسَكْنَا عَنْ مُنَازَعَتِهِمْ، مَخَافَةً عَلَى الدِّينِ أنْ يَجِدَ المُنَافِقُونَ وَالأحْزَابُ فِي ذَلِكَ مَغْمَزاً يَثْلِمُونَ بِهِ، أوْ يَكُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ سَبَبٌ إلَى مَا أرَادُوا مِنْ إفْسَادِهِ.

فَالْيَوْمَ فَلْيَتَعَجَّبِ المُتَعَجِّبُ مِنْ تَوَثُّبِكَ يَا مُعَاوِيَةُ عَلَى أمْرٍ لَسْتَ مِنْ أهْلِهِ، لا بِفَضْلٍ فِي الدِّينِ مَعْرُوفٍ، وَلا أثَرٍ فِي الإسْلامِ مَحْمُودٍ، وَأنْتَ ابْنُ حِزْبٍ مِنَ الأحْزَابِ، وَابْنُ أعْدَى قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَلِكِتَابِهِ. وَاللهُ حَسِيبُكَ فَسَتَرِدُ عَلَيْهِ وَتَعْلَمُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ!!»(١).

وهكذا نجدُ الحسن عليه السلام، يعطِف ـ بالفاء ـ عجبه من توثُّب معاوية على تعجّبه لتوثّب الأوّلين عليهم في حقّهم وسلطان بيتهم. ومن هنا تنبثق مناسبة اتّصال قضيّته بقضايا الخلائف السّابقين، وتنبثق معها مناسبات أخرى. بعضها للأخوين. وبعضها للأبوين. وبعضها للحق العام.

⇦

ثم لا نقف منها إلاّ على النُّتف الشّاردة التي أغفلتها الرّقابة العدوّة عن غير قصد. وهنا اتذكّر قول الشّاعر المجدِّد الحاج عبد الحسين الأزري:

إقرأ بِعَصْرِكَ مَا الأهْوَاءُ تَكْتُبُهُ يُنْبِئكَ عَمَّا جَرَى فِي سَالِفِ الحُقُبِ

(المؤلِّف رحمه الله)

(١) ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٢)، [١٦/ ٣٣، عن مقاتل الطالبيين / ٣٥]. (المؤلِّف رحمه الله).

وما نحن بالذّاكرين شيئاً منها هنـا، لأنّـا لا نريـد أن نتّصـل بهـذه البُحـوث، في سطورنا هذه، إلاّ بمقدار ما تتّصل هي بالصّميم من موضوعنا.

وعلمنا أنّ الرّشاقة السياسيّة البارعـة الّتـي ربحـت الموقـف بعـد وفـاة رسـول اللهﷺ في لحظات، والّتي سمّاها كبير من أقطابها «بالفلتة»(١) وسمّاها معاوية «بالإبتزاز للحقّ والمخالفة على الأمر»(٢)، كانت بنجاحها الخـاطف دلـيلاً عـلى سـبق تصـميم في الجماعات الّتي وليت الحلّ والعقد هناك. فكان من السّهل أن نفهم من هذا التصـميم «إتّجاهاً خاصّاً» نحو العترة من آل محمّدﷺ له أثره في حينه، وله آثاره بعد ذلك.

فكانوا المغلوبين على أمرهم، والمُقْصَين ـ عن عمدٍ ـ في سائر التطـوُّرات البـارزة الّتي شهدها التّاريخ يومئذٍ.(٣)

---

(١) شاعت وذاعت قولة عمر بن الخطاب التي وصم به خلافة صاحبه أبي بكـر: «إنّ بيعـة أبي بكـر كانت فلتة» وفيها إشعار بأنّ خلافـة الأوّل تمّـت بحيلـة دون رويـة ومشـورة، أنظـر: صـحيح البخـاري ٨/ ٢٥، مسـند أحمـد ١/ ٥٥، مجمـع الزوائـد٦/ ٥، المصـنّف للصّـنعاني ٥/ ٤٤١، المصنَّف لابن أبي شيبة ٧/ ٦١٥، المواقـف ٣/ ٦٠٠، تـاريخ مدينـة دمشـق ٣٠/ ٢٨١، تـاريخ الطّبري ٢/ ٤٤٦، وغيرها الكثير من المصادر.

(٢) تجد ذلك صريحاً فيما كتبه معاوية لمحمّد بن أبي بكر. قال: «كان أبوك وفاروقـه أوّل مـن ابتـزّه ـ يعني علياًعليه السلام ـ حقّه وخالفه على أمره. على ذلك اتّفقا واتّسقا، ثم إنّهما دعواه إلى بيعـتهما فأبطـأ عنهما وتلكّأ عليهما، فهمّا به الهموم وأرادوا به العظيم. ثـم إنّـه بـايع لهـما وسـلّم لهـما. وأقامـا لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرّهما حتى قبضهما الله ... ـ ثم أردف قائلاً ـ: فإنْ يكُ مـا نحن فيه صواباً، فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه، ولولا ما فعل أبوك من قبلُ، ما خالفنا ابـنَ أبي طالب ولسلّمنا إليه، ولكنّا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا وأخذنا بمثله»...اه المسعودي عـلى هامش ابن الأثير (ج ٦ ص ٧٨ ـ ٧٩) [مروج الذّهب ٣/ ١٢]. (المؤلّف)

(٣) ونجد في كلمات أمير المؤمنينعليه السلام شواهد كثيرة على ذلك. قال: «**فَـوَالله مَـا زِلْـتُ مَـدْفُوعاً عَـنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ الله نَبِيَّهﷺ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا**» [نهج البلاغة ١/ ٤٢، الخطبـة: ٦]. وقال: «**اللّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُـوا رَحِمِـي وَصَـغَّرُوا عَظِـيمَ مَنْزِلَتِيَ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي.**» [نهـج البلاغـة ٢/ ٢٠٢، الخطبـة: ١٧٢، الغـارات ⇦

فلا الَّذي عهد بالخلافة قدَّمهم. ولا الّذي حصر ـ الخليفة في الثَّلاثة من السِّتة أنصفهم. ولولا رجوع الإختيار إلى الشَّعب نفسه مباشرةً، بعد حادثة الدَّار، لما كان للعترة نصيبٌ من هذا الأمر على مختلف الأدوار.

ثم كان لهذا «الإتِّجاه الخاصّ» أثره في خلق معارضة قويّةٍ للعهدين اللَّذين رجعا بأمرهما إلى العترة من آل محمَّد صلى الله عليه وآله.

وفي حروب البصرة وصفِّين فمسكِن شواهد كثيرة على ما نقول.

وفي موقف ابن عمر[١] وسعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد ومحمَّد بن مسلَمة وقدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام وحسّان بن ثابت وأبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت والنّعمان بن بشير.. وهم «القُعّاد» الّذين آثروا الحياد، واستنكفوا من البيعة لعليٍّ ولابنه الحسن عليهما السلام شواهد أخرى.

ولهذه المعارضة ميادينها المختلفة وألوانها المتعدِّدة. ومنها المواقف السَّلبية النابية الّتي جُوبِه بها زعماء العترة عليهم السلام، في المدينة أوَّلاً، وفي الكوفة أخيراً.

وإلاَّ فما الّذى كان يحدو عليّاً عليه السلام، ليقول من على منبره في الكوفة:

«يَا أَشْبَاه الرِّجَالِ ولا رِجَالَ، حُلُومُ الأَطْفَالِ وعُقُولُ رَبَّاتِ الحِْجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ ولَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً، والله جَرَّتْ نَدَماً وأَعْقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ الله لَقَدْ مَلأْتُم

⇦

١/ ٣٠٨] (المؤلّف رحمه الله)

(١) قال المسعودي (هامش ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٨ ـ ١٧٩) [مروج الذهب ٢/ ٣٥٣]: «ولكن عبد الله بن عمر بايع يزيد بعد ذلك وبايع الحجاج لعبد الملك بن مروان!» ورأى المسعودي أن يسمِّي هؤلاء «القُعَّاد» بالعثمانية. ورأى أبو الفدا [في المختصر في أخبار البشر] (ج ١ ص ١٧١) أن يسمّيهم «المعتزلة» لإعتزالهم بيعة عليٍّ عليه السلام ـ أقول: وما هم بالعثمانية ولا المعتزلة ولكنهم الذين ماتوا ولم يعرفوا إمام زمانهم. (المؤلّف رحمه الله)

قَلْبِي قَيْحاً، وشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ والْخِذْلانِ.. »[1]

إلى كثير مما يشبه هذا القول، مما أثر عنه في خطبه وكلماته.[2]

أليست هي المعارضة الّتي زرعت نوابتها الخبيثة في كل مكان من حواضر عليٍّ عليه السلام، فأخذت على النّاس التقاعس عن نصرته بشتى المعاذير.

أقول هذا. ولا أريد أن أتناسى ـ معه ـ العوامل الأخرى الّتي شاركت «الإتجاه» ـ الآنف الذِّكر ـ في تكوين هذه المعارضة بموقفيها ـ الإيجابيّ المسلَّح والسَّلبي الخاذل ـ تجاه العترة النبويّة في العهد الهاشمي الكريم.

ولا أشكّ بأنَّ العدل الصارم، والمساواة الدقيقة في التوزيع الّتي كانت طابع هذا العهد، بل هي ـ دون ريب ـ طابع العهود الهاشمية مع القرن الأوَّل، في نبوَّتها وفي خلافتها. ـ هي الأخرى الّتي تحسَّس منها النّاس أو قسم من النّاس، بشيء من الضِّيق لا يتَّسع للطّاعة المطلقة ولا للإخلاص الحرّ اللَّذين لن ينتفع بغيرهما في ميدان سِلم أو ميدان حرب.

والظُّروف الطَّارئة بمقتضياتها الزّمنية الّتي طلعت بها على النّاس خزائن الممالك المهزومة في الفتوح، والطُّعوم الجديدة من الحياة الّتي لا عهد لهؤلاء النّاس بمثلها من

---

(١) نهج البلاغة ١/ ٧٠، الخطبة: ٢٧، الكافي الشريف ٥/ ٦.

(٢) كقوله عليه السلام: «وَإِنِّي وَاللهِ لَأَظُنُّ أَنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ، وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ، وَبِصَلاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاقَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ» نهج البلاغة ١/ ٦٥، الخطبة: ٢٥.

قبل ـ كلِّ ذلك، كان له أثره في خلق الحسّ المظلم الّذي من شأنه أن يظلّ دائماً في الجهة المعاكسة للنُّور.

وفي بحران هذا «الإتجاه الخاصّ» الّذي تعاون على تكوينه ربع قرن من السّنين، يتمثّل عهد عليٍّ عليه السلام في خلافته قبل بيعة الحسن في الكوفة.

والحسن من عليّ عليه السلام كبير ولده، ووليُّ عهده، وشريك سرَّائه وضرَّائه، يحسُّ بحسِّه ويألم بألمه. وهو ـ إذ ذاك ـ على صلة وثيقة بالدُّنيا الّتي أحاطت بأبيه من قومه ومن رعيَّته ومن أعدائه، فهو لا يجهلها ولا يغفل عنها، وكان ينطوي مما يدور حوله على شجىً مكتوم، يشاركه فيه أخوه كما يشاركه في إخوّته. وكان هذا الشَّجى المكتوم، هو الشَّيء الظَّاهر مما خلف به هؤلاء المسلمون ـ يومئذٍ ـ نبيّهم في عترته، جواباً على قوله صلى الله عليه وآله لهم: «**فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِّي فِيهِمَا!!**».

وكان الحسن عليه السلام، إذ ينطوي على هذا الشَّجى، لا يلبث أن يستروح الأمل ـ أحياناً ـ بما يجده في صحابة أبيه البهاليل[1] من النَّجدة والحيويّة والمفاداة وشمائل الإخلاص الّذي لا تشوبه شائبة طمع في دنيا، ولا شائبة هوىً في سياسة.

ومن هؤلاء، القوّاد العسكريُّون، والخطباء المفوّهون. والفقهاء والقرّاء والصَّفوة الباقية من بناة الإسلام. كانوا ـ بجدارة ـ العدَّة الّتي يستند عليها أمير المؤمنين، في حربه وسلمه. وكانوا ـ بحقٍّ ـ دعامة العهد الهاشمي فيما تعرّض له هذا العهد، من زلازل وزعازع وأخطار.

وكانوا المسلمين الّذين وفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله، فيما واثقوه عليه في ذرِّيته، بأن يمنعوهم بما يمنعون به أنفسهم وذراريهم.[2] فلم لا يستروح الحسن بهم روائح الأمل

---

(١) «**البَهَالِيل**»: جمع بُهْلُول، وهو السيِّد الشريف، الجامع لكلِّ خير.

(٢) إشارة إلى بيعة العقبة الثّانية لأهل يثرب قبل هجرة النبي صلى الله عليه وآله إليهم حين أرسلوا إلى مكة وفداً يتألف من سبعين رجلاً مؤمناً ينوب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويمثّلهم في تجديد بيعة العقبة الأولى، فبايعوا الرسول صلى الله عليه وآله على أن يمنعوه كما يمنعون به أنفسهم وأهاليهم إذا هاجر إليهم. ⇦

لقضية أبيه، بل لقضية نفسه.

وكانوا المؤمنين الّذين آمنوا بكلمات الله في أهل بيت نبيِّهم وذوي قرباه وآمنوا بوصيِّ نبيِّهم، وبمراتبه الّتي رتَّبها الله له أو رتّبه لها. وفهموا عليّاً كما يجب أن يُفهم. وعليٌّ هو ذلك البطل الّذي لم يحلم المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثله، إخلاصاً في الحقِّ، وتفادياً في الإسلام، ونُصحاً للمسلمين، واستقامة على العدل، واتِّساعاً في العلم. ولن يَنقصَ عليّاً في كبرياء معانيه، جحودُ الآخرين فضائله ومميزاته، ولهؤلاء الآخرين من مطامعهم وأهوائهم شغل شاغل يملأ فراغ نفوسهم. وما في ملاكات عليٍّ عليه السلام متَّسع للأهواء والمطامع. فليكن هؤلاء ـ دائماً ـ في الملاكات البعيدة عن عليٍّ، وليكونوا في المعسكر الّذي يقوم على المساومة بالمال والولايات..

وليكن مع عليٍّ زمرته المنخولة تلك، المسلمة إسلامها الصَّحيح أمثال: عَمَّارِ بنِ يَاسِر[1]، وخُزَيْمَةَ بنِ ثَابِتٍ ذي الشَّهادَتين[2]، وحُذَيْفَةَ بنِ اليَمَان[3]،

⇦

أنظر: مسند أحمد ٣/ ٤٦١، مجمع الزوائد ٦/ ٤٤، تاريخ الطبري ٢/ ٩٢، الكامل في التاريخ ٢/ ٩٩، البداية والنهاية ٣/ ١٩٦، سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٢.

(١) عَمَّارُ بنُ يَاسِرِ بنِ مَالِكِ بنِ حُصَينِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ مَالِكٍ، حليف بني مخزوم، وقيل: هو مولاهم، يكنّى أبا اليقظان، أسلم بمكّة قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وهو معدود في السّابقين الأوّلين من المهاجرين عُذِّب في الله بمكّة وأسلم هو وأبوه وأمّه سميّة، وهما في طليعة المستشهدين في سبيل الله، شهد عمّار مشاهد النبيّ ﷺ كلّها، بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة أميراً، وهو من خيار أصحاب النبيّ ﷺ وخلّص شيعة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وقُتل معه بصفّين وهو ابن نيف وتسعين سنة. أنظر: تاريخ مدينة دمشق ٤٣/ ٣٦٠، الؤإستيعاب ٣/ ١١٣٥، أسد الغابة ٤/ ٤٣، الإصابة لابن حجر ٤/ ٤٧٣.

(٢) خُزَيْمَةُ بنُ ثَابِتِ بنِ الفَاكِهِ، الأنصَارِيّ، الأوْسِيّ، يُكنّى أبا عمارة، ويلقَّب بذي الشَّهادتين، من خيرة صحابة النبي ﷺ شهد مشاهده، وإنّما اشتهر بذي الشهادتين؛ لأنّ رسول الله ﷺ جعل شهادته شهادة رجلين، كما في الخبر المشهور، وكان خزيمة من

⇦

وعَبدِ الله وعَبدِ الرَّحمنِ ابْنَي بُدَيْل[٢]، ومَالِكِ بنِ الحَارِثِ الأَشْتَر[٣]،

⇨

شيعة أمير المؤمنين عليه السلام والثّابتين على ولايته، ورُزق الشَّهادة بعد استشهاد عمّار بن ياسر. أنظر: أسد الغابة ٢/ ١١٤، الإستيعاب ٢/ ٤٤٨، الإصابة لابن حجر ٢/ ٢٣٩.

(١) حُذَيْفَةُ بنُ اليَمان العَبْسِيّ، من كبار الصَّحابة، أسلم حذيفة وأبوه وشهدا أحداً فاستشهد اليمان بها، وحذيفة كان صاحب النبيّ صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك وشهد محاولة المنافقين لإغتياله صلى الله عليه وآله، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أسرّ إليه أسماء المنافقين فكان يعرفهم جميعاً، ففي البخاريّ ٧/ ١٣٩ روى أنّه ذهب علقمة إلى الشّام فأتى المسجد فصلّى ركعتين فقال: اللّهمَّ ارزقني جليساً، فقعد إلى أبي الدَّرداء فقال: ممَّن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم صاحب السرِّ الَّذي كان لا يعلمه غيره؟ يعني: حذيفة. وكان عمر ينظر إليه عند موت من مات، فإن لم يشهد جنازته حذيفة لم يشهدها عمر، وكان عمر يقول: يا حذيفة بالله أنا من المنافقين؟

وحفظ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله الفتن الَّتي تكون بين يدي السَّاعة، فقد روى مسلم في صحيحه ٨/ ١٧٢، عن حذيفة أنه قال: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة فما منه شئ إلاّ قد سألته، إلاّ أنى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة.

استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد قتل عثمان وبعد بيعة أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام بأربعين يوماً وذلك في سنة ست وثلاثين. أنظر: الإستيعاب ١/ ٣٣٤، الإصابة ٢/ ٣٩، تاريخ الإسلام للذّهبي ٣/ ٤٩١.

(٢) عَبْدُ الله بْنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ بنِ عَبْدِ العُزَّى، الخُزاعِيّ، أسلم مع أبيه قبل الفتح وكان سيِّد خزاعة وشهد الفتح وحُنيناً والطّائف وتبوك وكان له نخل كثير، وقتل هو وأخوه عبد الرّحمن بصفّين مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام وكان على الرّجالة وهو من أفاضل أصحاب علي وأعيانهم. وقال الشَّعبي: كان على عبد الله بن بديل درعان وسيفان وهو يضرب أهل الشَّام ويقول:

لم يَبْقَ إلاّ الصَّبرُ وَالتَّوكُّلْ ... ثمَّ التَّمشِّي في الرَّعيلِ الأوّلْ
مَشْيَ الجِمَالِ في حِيَاضِ المَنْهَلْ ... وَاللهُ يَقضِي مَا يَشَا وَيَفْعَلْ

فلم يزل يقاتل حتى انتهى إلى معاوية فأحاط به أهل الشَّام فقتلوه، فلمَّا رآه معاوية قال: والله ولو استطاعت نساء خزاعة لقاتلتنا فضلاً عن رجالها، وتمثّل بقول همّام:

⇦

⇨

كَلَيْثٍ هِزَبْرٍ كَانَ يَحْمِي ذِمَارَهُ رَمَتْهُ المَنَايَا قَصْدَهَا فَتَفَطَّرَا

أَخُو الحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ يَوْمَاً بِهِ الحَرْبُ شَمَّرَا

أنظر: أسد الغابة ٣/ ١٢٤، الإصابة ٤/ ١٨، الإستيعاب ٣/ ٨٧٢.

وأمّا أخوه: عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ بُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيّ، قال ابن الكلبي: كان هو وأخوه عبد الله رسولي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أهل اليمن، وشهدا جميعاً صفّين. الإستيعاب ٢/ ٨٢٣، أسد الغابة ٣/ ٢٨٢.

(١) مَالِكُ بنُ الحَارِثِ بْنِ عَبدِ يَغُوثَ، النَّخعيّ الكوفيّ، المعروف بالأشْتَر؛ سيِّد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وخيرة شيعته الأوفياء وأصلب صحابته وأثبتهم، حضر فتح دمشق وحرب اليرموك، وفيها أُصيبت عينه، فاشتهر بالأشْتَر، سكن الكوفة، ونُفي مع عدد من أصحابه إلى حِمْص في أيّام عثمان بسبب اصطدامه بسعيد بن العاص والي عثمان، ولمّا اشتدّت نبرة المعارضة لعثمان عاد إلى الكوفة، ومنع واليه ـ الذي كان قد ذهب إلى المدينة آنذاك ـ من دخولها. واشترك في ثورة المسلمين على عثمان، وتولّى قيادة الكوفيّين الذين كانوا قد توجّهوا إلى المدينة، وكان له دور حاسم في القضاء على حكومة عثمان، وكان يصرّ على خلافة الإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام. وكان له رأي في بقاء أبي موسى الأشعري والياً على الكوفة، ارتضاه الإمام عليه السلام وأيّده، مع أنّه عليه السلام كان يعلم بمكنون فكر أبي موسى، ولم يكن له رأي في بقائه.

وعندما كان أبو موسى يثبّط الناس عن المسير مع الإمام عليه السلام في حرب الجمل، ذهب مالك إلى الكوفة، وأخرج أبا موسى ـ الذي كان قد عزله الإمام عليه السلام ـ منها، وعبّأ الناس من أجل دعم الإمام عليه السلام والمسير معه في الحرب ضدّ أصحاب الجمل، وكان له دور حاسم وعجيب في الحرب. وكان على الميمنة فيها، ولي مالك الجزيرة ـ وهي تشمل مناطق بين دجلة والفرات ـ بعد حرب الجمل. وكانت هذه المنطقة قريبة من الشام التي كان يحكمها معاوية.

وفي صفّين كان على مقدّمة الجيش في البداية، وقد هَزم مقدّمة جيش معاوية. وفي ليلة الجمعة «ليلة الهرير» أبلى فيها بلاءاً حسناً تجلّت فيه شجاعته، وشهامته، واستبساله، وقتاله بلا هوادة، إذ خلخل نظم الجيش الشامي، وتقدّم صباح الجمعة حتى أشرف على خيمة القيادة وكان هلاك العدوّ أمراً محتوماً لولا مكيدة عمرو بن العاص، فأسرعت جموع من جيش الإمام ـ والّذين شكّلوا تيّاراً عرف بعد بالخوارج ـ ممّا اضطرّ بسببه مالك إلى الرُّجوع عن موقعه المتقدّم في ميدان الحرب. وحين اقترح الإمام عليه السلام عبدَ الله بن عبّاس للتحكيم ورفَضه الخوارج والأشعث، اقترح مالكاً، فرفضوه أيضاً.

⇦

وخَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ(١)،

⇨

ولّما اضطربت مصر على محمّد بن أبي بكر وصعب عليه أمرها وتمرّد أهلها، انتدب الإمام عليه السلام مالكاً وولاّه عليها. وكتب إلى أهل مصر كتاباً يعرّفهم به، قال فيه: «**أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ الله، لا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ، ولا يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ، وهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ، فَاسْمَعُوا لَه وأَطِيعُوا أَمْرَه فِيمَا طَابَقَ الْحَقَّ، فَإِنَّه سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله، لا كَلِيلُ الظُّبَةِ ولا نَابِي الضَّرِيبَةِ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا، وإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا، فَإِنَّه لا يُقْدِمُ ولا يُحْجِمُ، ولا يُؤَخِّرُ ولا يُقَدِّمُ إِلا عَنْ أَمْرِي، وقَدْ آثَرْتُكُمْ بِه عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِه لَكُمْ، وشِدَّةِ شَكِيمَتِه عَلَى عَدُوِّكُمْ.**» نهج البلاغة ٣/ ٦٣، الكتاب: ٣٨.

إلاّ أنّ مالكاً لم يُفلح في مهمّته حيث غادره معاوية بسمٍّ فتّاك دسّه إليه بالعسل، واستشهد حينها، وحزن الإمام عليه السلام لمقتله، حتى عدّ موته من مصائب الدّهر، وأبّنه صلوات الله عليه قائلاً:

«**للهَّ دَرُّ مَالِكٍ، لَوْ كَانَ مِنْ جَبَلٍ لَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ حَجَرٍ كَانَ صَلْداً، أَمَا وَالله لَيَهُدَّنَّ مَوْتُكَ عَالَماً، فَعَلَى مِثْلِكَ فَلْيَبْكِ الْبَوَاكِي.**»

ثمَّ قال: «**إِنَّا للهَّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَالْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنِّي أَحْتَسِبُهُ عِنْدَكَ فَإِنَّ مَوْتَهُ مِنْ مَصَائِبِ الدَّهْرِ، فَرَحِمَ اللهُ مَالِكاً، قَدْ وَفَى بِعَهْدِهِ وَ قَضَى نَحْبَهُ، وَلَقِيَ رَبَّهُ، مَعَ أَنَّا قَدْ وَطَّنَّا أَنْفُسَنَا أَنْ نَصْبِرَ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ بَعْدَ مُصَابِنَا بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمُصِيبَةِ.**» الغارات للثّقفي ١/ ٢٦٤، الأمالي للشّيخ المفيد/ ٨٣، مستدرك الوسائل ٢/ ٤٠٣. نقلت هذه التّرجمة ملخّصة عن موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٢٧٥. وأنظر ترجمته أيضاً في الإصابة لابن حجر ٦/ ٢١٢، أعيان الشّيعة ٩/ ٣٨، موسوعة طبقات فقهاء الشّيعة ١/ ٥٠٥.

(١) خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ ابنِ جَنْدَلَةَ بن سَعْدِ بن خُزَيْمَةَ، الخُزَاعِيُّ، أبو عبد الله، وقيل: أبو يحيى. سبي في الجاهلية، فبيع بمكة، وهو قديم الإسلام، وكان من المستضعفين الذين يُعذّبون بمكة ليرجع عن دينه، ألبسوه الدِّرع الحديد وصهروه في الشّمس، فبلغ من الجهد ما شاء أن يبلغ من حرِّ الحديد والشّمس، فصبر ولم يعط الكفّار ما سألوه، فجعلوا يلصقون ظهره بالرَّضْفِ حتى ذهب لحم متنه. وفيه وفي جماعة من فقراء المؤمنين أنزل الله تعالى: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ (سورة الانعام/ ٥٢). شهد خبّاب مع النبيِّ صلى الله عليه وآله مشاهده كلّها، وقد نزل خبّاب الكوفة، وتوفّي بها في خلافة الإمام أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام سنة سبع وثلاثين، ولم يشهد صفّين، كان مريضاً، وطال به المرض فمنعه من شهودها، ولما رجع أمير المؤمنين من صفّين، مرّ بقبره، فقال: «**رَحِمَ اللهُ خَبَّاباً فَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً وَهَاجَرَ طَائِعاً وَعَاشَ مُجَاهِداً وَابْتُلِيَ فِي جِسْمِهِ**

⇦

ومحمَّدِ بنِ أبي بَكر[١]، وأبي الهَيثَمِ بن التيِّهان[٢]، وهَاشِمِ بنِ عُتْبَة ابنِ أبي

⇦

أَحْوَالًا وَلَنْ يُضِيعَ اللهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً.» نهج البلاغة ٤/ ١٣، الحكمة ٤٣، وقعة صفِّين / ٥٣٠، مستدرك الوسائل ٢/ ٣٦٨.

وقيل: توفّي سنة تسع وثلاثين، بعد أن شهد صفّين والنهروان، وصلّى عليه أمير المؤمنين عليه السلام ودفن بظهر الكوفة وكان يوم مات ابن ثلاث وسبعين. أنظر ترجمته: الإستيعاب ٢/ ٤٣٧، الإصابة ٢/ ٢٢١، أسد الغابة ٢/ ٩٨.

(١) مُحَمَّدُ بنُ بن أبي بَكر بنِ عُثْمان، وُلد في حجّة الوداع، وأُمّه أسماء بنت عُمَيس، كانت زوجة جعفر بن أبي طالب عليهما السلام وبعد استشهاده تزوّجها أبو بكر، وبعد موته تزوّجها أمير المؤمنين عليه السلام. فانتقلت إلى بيته مع أولادها وفيهم محمّد الذي كان يومئذ ابن ثلاث سنين، فنشأ في حِجر أمير المؤمنين عليه السلام وينسب له صلوات الله عليه ـ إن صحَّ ـ أنه كان يقول: «مُحَمَّدٌ إبْنِي مِنْ صُلْبِ أَبِي بَكْرٍ» شرح نهج البلاغة ٦/ ٥٣.

وكان محمّد في مصر أيّام حكومة عثمان، وبدأ فيها تعنيفه وانتقاده له، واشترك في الثَّورة عليه، وكان إلى جانب الإمام عليه السلام بعد تصدِّيه للخلافة، وكان على الرجّالة فيها، وبعد غلبة أمير المؤمنين عليه السلام تولّى متابعة الشؤون المتعلّقة بعائشة بأمره صلوات الله عليه، وأعادها إلى المدينة، وكان محمّد مجدّاً في الجهاد والعبادة، ولجدِّه في عبادته سُمِّي عابد قريش، ولاّه أمير المؤمنين عليه السلام على مصر سنة ٣٨ هـ بعد التَّحكيم إلى العراق، وبعث معاوية عمرو بن العاص بجيش من أهل الشَّام إلى مصر، فالتقى هو وعسكر محمَّد بن أبي بكر ودارت معارك شديدة انتهت بدخول ابن العاص مصر، فاختفى ابن أبي بكر، فعرف «معاوية بن خَدِيج السكوني» مكانه، فقبض عليه، وقتله، ودسّه في بطن حمار ميِّت وأحرقه، وكان الإمام عليه السلام يُثني عليه ويذكره بخير في مناسبات مختلفة ويقول: «فَلَقَدْ كَانَ إِلَيَّ حَبِيباً وكَانَ لِي رَبِيباً» نهج البلاغة ١/ ١١٧، الخطبة: ٦٨. وفي مناسبة أخرى يقول: «فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً وَعَامِلاً كَادِحاً وَسَيْفاً قَاطِعاً وَرُكْناً دَافِعاً.» نهج البلاغة ٣/ ٦٠، الكتاب: ٣٥.

أنظر ترجمته: أسد الغابة ٤/ ٣٢٤، الإصابة ٦/ ١٩٣، الإستيعاب ٣/ ١٣٦٦، موسوعة طبقات الفقهاء ١/ ٥١٣، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٢٩٢.

(٢) مَالكُ بنُ التَّيِّهانِ بنِ مَالكِ بنِ عَتِيكِ بنِ عَمرِو بنِ عَبدِ الأَعْلَم بنِ عَامِرِ بنِ زَعُوراءَ، الأَنْصَارِيُّ، الأَوْسِيُّ، أَبُو الهَيْثَم، وهو مشهور بكنيته. كان أبو الهيثم يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفِّف بها، ويقول بالتَّوحيد وكان من أوّل من أسلم من الأنصار بمكّة، شهد بيعة العقبة الأولى والثّانية،

⇦

وقّاص (المِرقَال)[1] ،

⇦

وكان أحد السّتة الذين لقوا قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة، وهو أوّل من بايع رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة، وشهد أبو الهيثم مالك بن التيهان بدراً، وأحداً والمشاهد كلّها، له قصيدة في رثاء النبيّ صلى الله عليه وآله يقول فيها :

لَقَدْ جُدِعَتْ آذَانُنَا وَأُنُوفُنَا غَدَاةَ فُجِعْنَا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

واختلف المؤرّخون في وقت وفاته، لكن يستبين من خطبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الّتي ذكر فيها اسمه وتأوّه على فقده وفقد عمّار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين أنّه استشهد في صفّين، حيث قال عليه السلام : «**مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ، أَلا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ قَدْ واللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ، وأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ، وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟**» نهج البلاغة ٢/ ١٠٩، الخطبة: ١٨٢.

أنظر: الطّبقات الكبرى ٣/ ٤٤٧، الإستيعاب ٣/ ١٣٤٨، الإصابة ٧/ ٣٦٥، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٤٧.

(١) هاشِمُ بنُ عُتْبَةَ بنِ أبي وَقَّاصٍ بنِ أُهَيْبِ بن زُهْرَةَ بنِ عبدِ مَنَافٍ، الزُّهرِيّ، الشّجاع المشهور المعروف بالمِرْقَال، بن أخي سعدِ بن أبي وقّاص، لُقّب بالمرقال لأنّ عليّاً عليه السلام أعطاهُ الرَّايةَ بصِفّين ، فكان يُرْقِلُ بها في الحرب، أي: يُسْرِعُ، وهو من «الإرقال» وهو ضرب من العَدْو، أسلم يوم الفتح وحضر مع عمّه حرب الفرس بالقادسيّة، وله بها آثار مذكورة، وكان سبب الفتح على المسلمين، وكان فاضلاً خيّراً، وقال المرزباني: لما جاء قتل عثمان إلى أهل الكوفة، قال هاشم لأبي موسى الأشعري: تعال يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمّة عليّ؟ فقال: لا تعجل، فوضع هاشم يده على الأخرى فقال: هذه لعليّ وهذه لي وقد بايعت عليّاً، وأنشد:

أُبَايِعُ غَيرَ مُكْتَرِثٍ عَلِيّاً وَلا أَخْشَى أَمِيراً أَشْعَرِيَا

أُبَايِعُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ سَأُرْضِي بِذَاكَ اللهَ حَقّاً وَالنَّبِيَّا

وكانت راية أمير المؤمنين عليه السلام على الرّجالة يوم صفّين مع هاشم بن عتبة، واستشهد في تلك الوقعة.

أنظر: الإصابة لابن حجر ٦/ ٤٠٦، الإستيعاب لابن عبد البرّ ٤/ ١٥٤٦، معجم رجال الحديث للسيِّد الخوئي ٢٠/ ٢٦٨.

وسَهْل بن حُنَيْفٍ[1]، وثَابِت بنُ قَيْسٍ الأَنْصَارِيّ[2]، وعُقْبَة بن عَمْرو[3]، وسَعْد بن الحَارِث بن الصِّمَّة[4]، وأبي فَضَالَة الأنصَارِي[5]، وكَعْب بن عَمْرو

(١) سَهلُ بنُ حُنَيْفِ بنِ وَاهِبِ الأنْصَاريّ، الأَوْسِيّ، من صحابة رسول الله ﷺ وأحد البدريّين، شهد حروب النبيّ ﷺ كلّها، وعندما اشتدّ القتال في أحد وفرّ جمعٌ كبيرٌ من المسلمين كان سَهْل ممّن ثبت مع النبيّ ﷺ، وكان بايعه يومئذٍ على الموت. كان سهل من المنقطعين إلى أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، ولاّه الإمام عليه السلام على المدينة، وفي صفّين دعاه إلى الإلتحاق به وجعل مكانه تمّام بن عبّاس، وكان فيها أميراً على خيّالة من جند البصرة، ثمّ ولي فارس، ولكنّه عُزل بسبب الفوضى وتوتّر الأوضاع فيها، فاستعمل الإمام عليه السلام مكانه زياد بن أبيه باقتراح عبد الله بن عبّاس. توفّي بالكوفة سنة ٣٨ هـ، وعن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: «**كَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَمْزَةَ سَبْعِينَ تَكْبِيرَةً وكَبَّرَ عَلِيٌّ عليه السلام عِنْدَكُمْ عَلَى سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ خَمْساً وعِشْرِينَ تَكْبِيرَةً... كَبَّرَ خَمْساً خَمْساً كُلَّمَا أَدْرَكَه النَّاسُ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ نُدْرِكِ الصَّلاةَ عَلَى سَهْلٍ، فَيَضَعُه فَيُكَبِّرُ عَلَيْه خَمْساً حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَبْرِه خَمْسَ مَرَّاتٍ.**» الكافي الشّريف ٣/ ١٨٦.
أنظر: الطّبقات الكبرى ٣/ ٤٧١، أسد الغابة ٢/ ٣٦٤، الإستيعاب ٢/ ٦٦٢، الإصابة ٣/ ١٦٥، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ١٥٣.

(٢) ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بنِ الخَطِيم، الأَنْصَارِيّ، الظَّفَرِيّ، صحابيٌّ شهد أُحُداً، ويقال: إنّه جُرح فيها اثني عشر جرحاً، واشترك في الغزوات التي تلتها أيضاً، ولاّه أمير المؤمنين عليه السلام على المدائن، وكان معاوية يهابه، وظلّ على المدائن إلى أن استعمل معاوية المغيرة على الكوفة فعزله. حضر مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه الثلاث. أنظر: الإستيعاب ١/ ٢٠٦، تاريخ مدينة دمشق ١١/ ١٣٦، أسد الغابة ١/ ٢٢٨، الإصابة ١/ ٥٠٩، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٦٨.

(٣) عُقْبَةُ بنُ عمْرِو بنِ ثَعْلَبَةَ بن أَسِيرَةَ البَدْرِيّ، أبو مَسعُود، وهو مشهور بكنيته، شهد العقبة الثّانية، وشهد بدراً ـ على التّحقيق ـ وما بعدها من المشاهد، سكن الكوفة حين تقلّد أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة كان يدعو النّاس إلى بيعته، استخلفه أمير المؤمنين عليه السلام على الكوفة لما سار إلى صفّين، واختلف المؤرّخون في عامِ وفاته فقال بعضهم: مات قبل سنة أربعين، وقال آخر: مات سنة أربعين، ورجّح آخرون أنّه مات بعدها، وانّه أدرك إمارة المغيرة على الكوفة وذلك بعد سنة أربعين. وقيل مات بالكوفة وقيل مات بالمدينة. أنظر: أسد الغابة ٣/ ٤١٩، الإصابة ٤/ ٤٣٢، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٣٩.

(٤) سَعْدُ بْنُ الحَارِثِ بنِ الصِّمَّة، صحب النبيّ ﷺ، وشهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام صفّين، وقتل يومئذٍ. أنظر: الطبقات الكبرى ٥/ ٨٢، أسد الغابة ٢/ ٢٧٢، الإصابة ٣/ ٤٢،

الأنصَارِي(١)، وقَرَضَة بن كَعْبٍ الأنصَارِي(٢)، وعَوْف بن الحَارِث بـن عَـوْف(٣)،

⇦

الإستيعاب ٢/ ٥٨٣.

(١) فَضَالَةُ بْنُ أبي فَضَالَةَ الأنْصَارِيَ، شهد بدراً مع النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، وقتل مع أمير المؤمنين عليه السلام بصفِّين. وروى أحمد في مسنده ١/ ١٠٢، عن فضالة بن أبي فضالة، قال: خرجت مع أبي عائداً لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام من مرض أصابه ثقل منه، فقال له أبي: ما يقيمك في منزلك هذا؟ لو أصابك أجلك من يَلِكَ إلاّ أعراب جُهينة، تحمل إلى المدينة، فإن أصابك أجلك وَلِيَكَ أصحابك وصلّوا عليك، فقال عليٌّ عليه السلام: «**إنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله عَهِدَ إلَيَّ أنْ لا أمُوتَ حَتَّى أُؤَمَّر، ثُمَّ تُخْضَبُ هَذِهِ** - يعني لحيته - **مِنْ دَم هَذِهِ** - يعني هامته - .» فقُتل، وقُتل أبو فضالة مع عليٍّ عليه السلام يوم صفّين. أنظر: الإستيعاب ٤/ ١٧٢٩.

(٢) كَعْبُ بنُ عَمْرِو بنِ عَبَّادِ بنِ عَمْرِو بْنِ سَوادِ بْنِ غَنْمِ بنِ كَعْبِ بنِ سَلَمَةَ، الأنصَارِيَ، السَّلَمِيّ، شهد العقبة وبدراً وكان عظيم الغناء يوم بدر وغيره، وهو الَّذي أسر العبَّاس بن عبد المطلب، وهو الَّذي انتزع راية المشركين يوم بدر، وكانت بيد أبى عزيز بن عمير، ثم شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثم شهد صفِّين مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام. توفى أبو اليسر بالمدينة سنة خمس وخمسين. أنظر: أسد الغابة ٤/ ٢٤٥ و ٥/ ٣٢٤، الكامل في التاريخ ٣/ ٥٠٢، الإصابة ٧/ ٣٨٠، الوافي بالوفيات للصَّفدي ٢٤/ ٢٥٩، الإستيعاب ٣/ ١٣٢٢ و ٤/ ١٧٧٦، الإكمال في أسماء الرّجال للخطيب التّبريزي / ١٤٧.

(٣) قَرَظَةُ بن كَعْبِ بنِ ثَعْلَبَةَ الأنصَارِيّ، الخَزْرَجِيّ، أبو عَمْرو. شهد مع النبيِّ صلى الله عليه وآله معركة أُحد وما بعدها، ثم فتح الرَّي في زمن عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين وكان ممَّن وجّهه عمر إلى الكوفة يفقّه الناس، وفي جامع العلم وفضله لابن عبد البرّ ٢/ ١٢٠، والطّبقات الكبرى ٦/ ٧ ومصادر أخرى، عن قَرَظَة قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر إلى صرار فتوضّأ فغسل اثنتين، ثمَّ قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مشيت معنا، فقال: إنَّكم تأتون أهل قرية لهم دويٌّ بالقرآن كدويِّ النَّحل فلا تصدُّوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرِّدوا القرآن وأقلّوا الرِّواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله إمضوا وأنا شريككم، فلمّا قدم قرظة قالوا: حدِّثنا، قال: نهانا عمر بن الخطّاب.

وقد شهد قرظة وقعة صفِّين مع أمير المؤمنين عليه السلام. وكان على راية الأنصار يومئذٍ، ولاّه أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة لمّا سار إلى الجمل، توفّي قرظة بالكوفة في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وهو صلّى عليه، وقيل: مات في إمارة المغيرة بن شعبة في أوّل أيام معاوية، وقال ابن حجر: مات

⇦

وكِلاب بن الأسْكَر الكِنَاني[2]، وأبي لَيلَى بن بَلِيل[3]... وأضراب هؤلاء من قادة الحروب وأحلاس المحاريب، الّذين أنكروا الظُّلم، واستعظموا البدع، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتسابقوا إلى الموت في سبيل الله، استباق غيرهم إلى المطامع

⇨

في حدود الخمسين على الصَّحيح. أنظر: أسد الغابة ٤/ ٢٠٢، تهذيب التّهذيب لابن حجر ٨/ ٣٢٩، الإصابة ٥/ ٣٢٨، الإستيعاب ٣/ ١٣٠٦.

(١) لم أعثر على شخص بهذا الإسم، ولعلّه يكون أبَا حَازم الأحمَسِيّ، الكوفيّ، وقد اختلف في إسمه، فقيل: «عوف بن الحارث» وقيل: «عبد عوف بن الحارث» وقيل: «حصين ابن عوف» وقيل: «عوف بن عبد عوف ابن خنيس». وهو مشهور بكنيته، عُدَّ في أصحاب النّبيّ ﷺ، له ولد إسمه: «حازم» قتل بصفّين مع أمير المؤمنين عليٍّ ؑ تحت راية أحمس وبَجِيلَة يومئذٍ. الإستيعاب ١/ ٣١١. وروى ابن حجر في الإصابة ٧/ ٦٩، عن محمد بن سعد، أنَّ أبا حازم قتل بصفّين. ولم أجده في الطّبقات.

أنظر ترجمته في الإستيعاب ٤/ ١٦٢٦، التّاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٥٦، الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرّازي ٦/ ٥٣، الثّقات لابن حبّان ٣/ ٣٠٥، الإصابة ٧/ ٦٩.

(٢) كِلابُ بنُ أمَيَّةَ بنِ الأسْكَرِ الكِنَاني، اللَّيْثِي، له صحبة، قال البيهقي في المحاسن والمساوي ١/ ٥٥١: كان كلاب من خيار المسلمين وقتل مع علي بن أبي طالب ؑ بصفّين، أنظر: الإصابة ٥/ ٤٥٩، أسد الغابة ٤/ ٢٥٠.

(٣) يَسَارُ بنُ بِلالِ بنِ أُحَيْحَةَ بنِ الجُلاحِ الأنْصَارِيّ، من ولد الأوس. له صحبة ورواية، وهو مشهور بكنيته، وهو أبو ليلى، والد عبد الرحمن بن أبي ليلى. قال ابن عبد البرّ: واختلف في اسم أبي ليلى وفي نسبه أيضاً، فرهطه ينسبونه إلى أحيحة بن الجلاح. وغيرهم يقول: إنه من مولى بني عمرو بن عوف. قال عباس: سمعت يحيى بن معين يقول: اسم أبي ليلى يسار. وقيل: بل اسم أبي ليلى داود بن بلال. وقال ابن نمير والبخاري: اسمه يسار بن نمير. ومولى بني عمرو بن عوف. الإستيعاب ٤/ ١٥٨١. صحب النبيَّ ﷺ، وشهد معه أحداً وما بعدها من المشاهد، ثم انتقل إلى الكوفة، وكان أبو ليلى خصّيصاً بعليٍّ ؑ يسمر معه، ومنقطعاً إليه، وورد المدائن في صحبته، وشهد هو وابنه عبد الرّحمن مع أمير المؤمنين عليٍّ ؑ مشاهده كلّها. وقيل: أنّه قتل بصفّين. الإصابة ٧/ ٢٩٣، الإستيعاب ٤/ ١٧٤٤، أسد الغابة ٢/ ١٢٩، تاريخ بغداد ١/ ١٩٩، تهذيب الكمال للمزّي ٣٤/ ٢٣٨.

في سبيل الدُّنيا.

ومن الخير، أن ننبِّه هنا، إلى أنّ جميع هذه الصَّفوة المختارة كانت قد استشهدت في ميادين عليٍّ عليه السلام، وإنّ ثلاثاً وستّين بدريّاً استشهد معهم في صفِّين[1] وحدها، وإنَّ أضعاف هذه الأعداد كانت خسائر الحروب المتعاقبة مدى ثلاث سنوات.

فما ظنُّك الآن، بذلك الأمل الّذي كان يداعب الحسن عليه السلام بوجود الأنصار، وهل بقي للحسن ـ بعد هذا ـ إلاّ الشَّجى المكتوم، مضاعفاً على تضاعيف الأيّام.

أمّا معسكر عليٍّ عليه السلام، فقد نُكب نِكبته الكُبرى، حين أصْحر من خيرة رجالاته، ومراكز الثِّقل فيه.

وأمّا دنيا عليٍّ عليه السلام، فقد عادت لسُقيا الغُصص وشُرب الرَّنَق[2] ـ على حدِّ تعبيره هو فيما ندب به أصحابه عند مصارعهم ـ.[3]

---

(١) اسم موضع على شاطئ الفرات بين «عانة» و «دير الشّعار». كان ميدان الحروب الطاحنة بين الكوفة والشام. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) أي: الكدر.

(٣) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام بعد وقعة صفين قال فيها: «**أَلا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لا يَفْنَى، مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً، يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ، قَدْ وَاللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ. أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟**».

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: «**أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ**.»

ثم نادى بأعلى صوته: «**الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللهِ، أَلا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى**

وتلفت عليٌّ عليه السلام إلى آفاقه المترامية الّتي تخضع لأمره، فلم يجد بين جماهيرها المتدافعة، من ينبض بروح أولئك الشُّهداء، أو يتحلَّى بمثل مزاياهم، اللّهُمَّ إلاَّ النَّفر الأقلّ الّذي لا يناط به أمل حرب ولا أمل سِلم.

ولولا قوَّة تأثيره في خطبه، وعظيم مكانته في سامعيه، لما تألَّف له ـ بعد هؤلاء ـ جيش، ولا قامت له بعدهم قائمة.

وهكذا أسلمته ظروفه لأن يكون هدف المقاطعة من بعض، وهدف العداء المسلَّح من آخرين، وهدف الخذلان المقوت من الأتباع «**فَلا إخْوانٌ عِنْدَ النَّجَاءِ، ولا أَحْرَارٌ عِنْدَ النِّدَاءِ**»[1].

وأيُّ حياة هذه الّتي لا تحفل بأملٍ، ولا تُرجى لنجاح عمل. وقد أزمع فيها التّرحال عباد الله الأخيار، الّذين باعوا قليلاً من الدُّنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى.

⇨

الله فَلْيَخْرُجْ.»

قال نوف: وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس ابن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر فكنَّا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كلِّ مكان. نهج البلاغة ٢/ ١١٠، الخطبة: ١٨٢.

(١) من خطبه له عليه السلام قال فيها: «**أَمَّا بَعْدُ يَا أَهْلَ الكُوفَةِ أَكُلَّمَا أَقْبَلَ مَنْسِرٌ مِنْ مَنَاسِرِ أَهْلِ الشَّامِ أَغْلَقَ كُلُّ امْرِءٍ بَابَهُ وَانْحَجَرَ فِي بَيْتِهِ انْحِجَارَ الضَّبِّ وَالضَّبُعِ الذَّلِيلِ فِي وِجَارِهِ، أَفٍّ لَكُمْ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ يَوْمَاً أُنَاجِيكُمْ وَيَوْمَاً أُنَادِيكُمْ، فَلا إخْوَانٌ عِنْدَ النَّجَاءِ، ولا أَحْرَارٌ عِنْدَ النِّدَاءِ، أَنَا وَالله مُنِيتُ بِكُمْ، صُمٌّ لا تَسْمَعُونَ، بُكْمٌ لا تَنْطِقُونَ، عُمْيٌ لا تُبْصِرُونَ، فَالْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ!**» رُويت باختلاف في بعض الألفاظ، أنظر: تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٩٥، الغارات ٢/ ٤٥٣، الطبري ٤/ ١٠٢.

فسمِع وهو يقول: «**اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِلْمُرَادِيِّ شَقَاءَهُ**»(١) وسُمعَ وهو يقول: «**فَما يَحْبِسُ أشْقَاهَا أنْ يَخْضِبَهَا بِدَمِ أعْلاهَا**»(٢)، وسُمِعَ وهو يقول: «**أمَا وَاللهِ لَوَدَدْتُ أنَّ اللهَ أخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أظْهُرِكُمْ وَقَبَضَنِي إلَى رَحْمَتِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ**»(٣).

وسلام عليه يوم ولد. ويوم سبق النّاس إلى الإسلام. ويوم صنع الإسلام بسيفه. ويوم امتُحن. ويوم مات. ويوم يبعث حيّاً.

وترك من بعده لوليّ عهده، ظرفه الزَّمنيّ النّابي، القائم على أثافيه الثّلاث ـ فقر الأنصار. والعِداء المسلَّح. والمقاطعة الخاذلة.

---

(١) لم أعثر عليه فيما لديّ من المصادر.

(٢) باختلاف يسير في علل الشرائع ١/ ١٧٣، الغارات ١/ ٧، مقاتل الطالبيين / ١٨، المسترشد للطبري الشيعي ٣٦٦، الارشاد ١/ ١١، الأمالي للطوسي / ٢٦٧، الاحتجاج ١/ ٢٥٦، مجمع الزوائد ٩/ ١٣٨، الإستيعاب ٣/ ١١٢٧، شرح النهج ٦/ ١١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤٢/ ٥٤١.

(٣) الأخبار الطِّوال للدّينوري / ٢١٢، الإرشاد ١/ ٢٨٠، الإحتجاج ١/ ٢٥٦، أنساب الأشراف ٣/ ٢٠٢.

البَيعة

إذا كان الدِّين في الإسلام، هو ما يبلِّغه النّبيُّ ﷺ لأنَّه الّذي لا ينطق عن الهوى ﴿إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، وإذا كان الخليفة في الإسلام هو من يعيِّنه النبيُّ للخلافة، لأنَّه المرجع الأعلى في الإثبات والنَّفي، فالحسن بن عليّ، هو الخليفة الشّرعيّ، بايعه النّاس أو لم يبايعوه.

ذكره رسول الله ﷺ باسمه في سلسلة أسماء خلفائه الإثني عشر، كما تضافر به الحديث عنه، فيما رواه علماء السُّنة[2]، وفيما أجمع على روايته علماء الشيعة[3]، و فيما اتّفق عليه الفريقان، من قوله له ولأخيه الحسين: «**أَنْتُمَا الإمَامَانِ وَلأمِّكُمَا الشَّفَاعَةُ**»[4]. وقوله وهو يشير إلى الحسين: «**هَذَا إمَامُ ابْنُ إمَامٍ، أخُو إمَامٍ، أَبُو أئِمَّةٍ تِسْعَةٍ**»[5] ـ الحديث ـ

---

(١) سورة النّجم / ٤.

(٢) تجد ذلك مفصَّلا في ينابيع المودة: (ج٢ ص٤٤٠)، [٣/ ٢٨٢] فيما يرويه عن الحمويني في فرائد السِّمطين، وعن الموفّق بن أحمد الخوارزمي في مسنده. وروى ذلك ابن الخشّاب في تاريخه وابن الصبّاغ في «الفصول المهمة»، والحافظ الكنجي في «البيان». وأسعد بن إبراهيم بن الحسن بن عليّ الحنبلي في «أربعينه». والحافظ البخاري (خاجه بارسا) في «فصل الخطاب». (المؤلّف)

أقول: لا تحضرني المصادر التي اعتمد عليها المؤلّف سوى: «ينابيع المودّة» و«الفصول المهمة»، وفي المجلّد الثاني من الفصول عند ذكر كلّ واحد من الأئمة عليهم السلام قد يذكر النّصوص في إمامته.

(٣) أنظر: رسالة في إمامة الأئمة الإثني عشر، للفقيه آية الله الميرزا جواد التبريزي.

(٤) الإتحاف بحبِّ الأشراف للشّبراوي الشافعي: (ص١٢٩ ط مصر) ونزهة المجالس للصفوري الشافعي (ج٢ ص١٨٤) [٢/ ٤٣٧]. (المؤلّف)

(٥) ابن تيمية في منهاجه: (ج٤ ص٢١٠) [٨/ ٢٤٧]. (المؤلّف)

أقول: وهو من كلام العلامة الحلّي لا ابن تيمية. وهو مرويٌّ في ينابيع المودّة ٢/ ٤٤.

وأمره أبوه أمير المؤمنين ـ منذ اعتلَّ ـ أنْ يُصلِّي[١] بالنّاس، وأوصى اليه عند وفاته قائلاً: «**يَا بُنَيَّ أَنْتَ وَلِيُّ الأَمْرِ وَوَلِيُّ الدَّمِ**»، وأشهد على وصيّته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ودفع إليه الكتاب والسّلاح، ثم قال له: «**يَا بُنَيَّ أَمَرَنِي رَسُولُ الله أَنْ أُوصِيَ إِلَيْكَ وأَنْ أَدْفَعَ إِلَيْكَ كُتُبِي وسِلاحِي كَمَا أَوْصَى إِلَيَّ رَسُولُ الله ودَفَعَ إِلَيَّ كُتُبَه وسِلَاحَه وأَمَرَنِي أَنْ آمُرَكَ إِذَا حَضَرَكَ المَوْتُ أَنْ تَدْفَعَه إِلَى أَخِيكَ الحُسَيْنِ**». ثم أقبل على الحسين فقال: «**أَمَرَكَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وآله **أَنْ تَدْفَعَه إِلَى ابْنِكَ هَذَا**». ثم أخذ بيد عليِّ بن الحسين وقال: «**وأَمَرَكَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وآله **أَنْ تَدْفَعَه إِلَى ابْنِكَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وأَقْرِأْه مِنْ رَسُولِ الله** صلى الله عليه وآله **ومِنِّي السَّلامَ**».[٢]

صورةٌ تحكيها كلُّ كتب الحديث الّتي تعرض لهذه المواضيع، وترفعها مسندة بالطُّرق الصَّحيحة الموثَّقة، إلى مراجعها من أهل البيت عليهم السلام وغيرهم. وهي الصُّورة الّتي تناسق الوضع المنتظر لمثل ظرفها. وإلاّ فما الّذي كان ينبغي غير ذلك ؟

وهذه هي طريقة الإمامية من الشِّيعة في إثبات الإمامة.

ـ نصوص نبويّةٌ متواترةٌ من طرقهم، ومرويّةٌ بوضوح من طرق غيرهم، تحصر الإمامة في اثني عشر إماماً كلّهم من قريش[٣]، وتذكر ـ ضمناً ـ أو في مناسبة أخرى،

---

(١) المسعودي (هامش ابن الأثير ج٦ ص٦١) [مروج الذّهب ٢/ ٤٣١]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) أصول الكافي (ص١٥١)، [١/ ٢٩٩] وكشف الغمة (ص١٥٩)، [٢/ ١٥٥] وغيرهما. (المؤلّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: من لا يحضره الفقيه ٤/ ١٨٩، تهذيب الأحكام ٩/ ١٧٦، الغيبة للشّيخ الطّوسي / ١٩٤.

(٣) ففي صحيح مسلم (ج٢ ص١١٩)، [٦/ ٤] في باب (النّاس تبع لقريش) عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «**لا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمُ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**». وروى نحواً منه البخاري (ج٤ ص١٦٤)، [٨/ ١٢٧] وأبو داود[٢/ ٣٠٩] والترمذي في جامعه[٣/ ٣٤٠] والحميدي في جمعه بين ⇦

أسماءهم إماماً إلى آخرهم، وهو المهديُّ المنتظر الّذي يملأ الله به الأرض قِسطاً وعدلاً، بعد أن تكون قد امتلأت ظُلماً وجَوراً.

ـ ونصوص خاصّة، من كلِّ إمام على خلفه الَّذي يجب أن يرجع إليه النّاس.[1]

ثم يكون من تفوّق الإمام، في عِلمه وعمله ومكارمه وكراماتـه، أدلّـة وجدانيّـة أخرى، هي بمثابة تأييد لتلك النُّصوص بنوعيها.[2]

⇨

الصحيحين. ورواه غيرهم. [أنظر: المستدرك ٣/ ٦١٧، مسند أبي يعلى ١٣/ ٤٥٧، صحيح ابن حبان ١٥/ ٤٣، المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٩٥، الاستيعاب ٢/ ٦٥٦، كنـز العـمال ١٢/ ٣٢، تاريخ بغداد ٢/ ١٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٥/ ١٩١.]

والحديث بحصره العدد في الإثني عشر من قريش، وبما يفصله صحيح مسلم من كون هذا العدد هو عدد الخلفاء إلى أن تقوم الساعة، صريحٌ بما يقوله الإمامية في أئمتهم، دون ما وقع في التّاريخ من أعداد الخلفاء ومختلف عناصرهم. (المؤلّف ﵀)

أقول: حديث «**الأئمة الإثني عشر**» ثبت بالتواتر القطعي الّذي لا يعتريه أدنى ريب. واستقصاء جميع طرقه واستيفاء مختلف ألفاظه يقتضي تأليف كتاب مفرد وهو موكول إلى مظانِّه.

(١) أحيل القارئ الكريم إلى كتاب الكافي الشَّريف ١/ ٢٩٢، حيـث عقـد فيـه اثنـي عشرـ بابـاً في الاشارة والنصّ على الأئمة الطّاهرين عليهم أفضل الصلاة والسّلام.

(٢) في الكافي الشريف ١/ ٢٨٥، والإرشاد ٢/ ٢٢٤، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر ﵇: جعلت فداك، بم يُعرف الإمام ؟ قال: «**بِخِصَالٍ، أَمَّا أَوَّلُهَا: فَإِنَّه بِشَيْءٍ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ أَبِيه فِيه بِإِشَارَةٍ إِلَيْه لِتَكُونَ عَلَيْهِمْ حُجَّةً، ويُسْأَلُ فَيُجِيبُ وإِنْ سُكِتَ عَنْه ابْتَدَأَ، ويُخْبِرُ بِمَا فِي غَدٍ، ويُكَلِّمُ النَّاسَ بِكُلِّ لِسَانٍ**».

ثمَّ قال: «**يَا أَبَا مُحَمَّدٍ أُعْطِيكَ عَلَامَةً قَبْلَ أَنْ تَقُومَ**» فلم نلبث أن دخل عليه رجـلٌ مـن أهـل خراسـان فكلّمه الخراساني بالعربيّة، فأجابه أبو الحسن بالفارسية، فقال له الخراساني: والله مـا منعنـي أن أكلِّمك بالفارسيّة إلاّ أنّه ظننت أنّك لا تحسنها، فقال: «**سُبْحَانَ الله، إِذَا كُنْتُ لا أُحْسِنُ أُجِيبُكَ فَمَا فَضْلِي عَلَيْكَ؟**» ثمّ قال: «**يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ الإِمَامَ لا يَخْفَى عَلَيْه كَلَامُ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ولا طَيْرٍ ولا بَهِيمَةٍ ولا شَيْءٍ فِيه الرُّوحُ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ هَذِه الْخِصَالُ فِيه فَلَيْسَ هُوَ بِإِمَامٍ.**»

أمَّا بيعة النّاس فليست شرطاً في إمامة الإمام. وإنَّما على النّاس أن يبايعوا من أرادته النُّصوصُ النَّبويّة. ولا تصحِّح الإمامية بيعة غيره. ولا تقع من أحدهم إلاّ اضطراراً.

وقضت الظُّروف بدوافعها الزَّمنيّة، أن لا يبايع النّاس من الأئمة المنصوص عليهم، إلاّ الإمامين عليّاً والحسن عليهما السلام.

وابتدأ بعد الحسن عهد «الخلافات» الإسميّة، الّتي ترتكز في نفوذها على السِّلاح، وتقوم في بيعتها على شراء الضَّمائر بالمال. أو كما قال الغزالي «وأفضت الخلافة إلى قوم تولَّوها بغير استحقاق».[١]

وكان الأولى بالمسلمين، أو بمؤرِّخة الإسلام على الأخصّ، أن يغلقوا عهد «الخلافة» بنهاية عهد الحسن عليه السلام[٢]، ليشرعوا بعده عهد «الملك» بظواهره وسياسته وارتجالاته ولو فعلوا لحفظوا مثالية الإسلام مجلوّة بما ترسمه خلفاؤه المثاليّون من سيرة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ولصانوا الإسلام عن كثير مما وصمه به هؤلاء الملوك الّذين فرضوا على المسلمين خلافاتهم فرضاً، ثم جاء التّاريخ فرضي أن يسمّيهم «الخلفاء» من دون استحقاق لهذا الإسم، وأساء إلى الإسلام من حيث أراد الإحسان.[٣]

---

(١) تراجع «دائرة المعارف» لفريد وجدي مادَّة «حسن» (ج٣ ص٢٣١). (المؤلّف رحمه الله)
أيضاً أنظر: الإنصاف في بيان أسباب الإختلاف، للدّهلوي / ٨٧ .

(٢) هذا التعبير من المصنِّف تمشياً مع القوم في روايتهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**الخِلافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكاً بَعْدَ ذَلِكَ**» (وهو حديث صحيح عندهم) إذ يلزمهم أن لا يطلقوا اسم «الخليفة» على من ولي الأمر بعد الإمام الحسن عليه السلام، لا التزاماً منه بصحّة خلافة من تقدّم على معاوية سوى أمير المؤمنين وابنه الحسن عليهما السلام، فقد بيّن رحمه الله فيما سبق أنَّ الخلافة والإمامة لا تثبت لأحد إلاّ بالنَّص عليه، وهو واضح.

(٣) هكذا قديماً وحديثاً تجد الحزب الأموي ومن أشربت قلوبهم حبّهم لا يخذلونهم في موقف أبداً وإن

⇦

ترى، أيصحّ للخليفة الّذي يجب أن يكون أقرب النّاس شبهاً بصاحب الرِّسالة في ورعه وعلمه والتزامه بحرفية الإسلام، أن يصلِّي «الجمعة» يوم الأربعاء[١]، أو يصلِّيها مرّةً أخرى في ضحى النَّهار[٢]، أو يتطلّب محرَّماً، أو يبيع الذَّهب بأكثر منه وزناً[٣]، أو يلحق العِهار بالنَّسب[٤]، أو يقتل المؤمن

⇦

ألجأهم ذلك إلى الإستخفاف بحكم الكتاب والسُّنة، فمنهم الألباني الذي أخذ على نفسه النُّصرة لبني أمية أينما وكيفما كان قال مدافعاً: «فلا ينافي مجيء خلفاء آخرين من بعدهم لأنهم ليسوا خلفاء النبوة! فهؤلاء هم المعنيون في الحديث لا غيرهم! كما هو واضح! ويزيده وضوحاً قول شيخ الإسلام في رسالته المذكورة: ويجوز تسمية من بعد الخلفاء الرّاشدين: خلفاء، وإن كانوا ملوكاً ولم يكونوا خلفاء الأنبياء.» سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ٧٤٢.

(١) قال المسعودي في مروج الذهب ٣/ ٣٢: «وقد بلغ من أمرهم ـ أهل الشَّام ـ في طاعتهم له أنه صلَّى بهم عند مسيرهم إلى صفّين الجمعة في يوم الأربعاء».

(٢) ففي التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٧٧، وتاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ١٥٠، والبداية والنهاية ٨/ ١٤٠، وسير أعلام النبلاء ٣/ ١٤٦، ونيل الأوطار ٣/ ٣٢٠، ومقاتل الطالبين / ٤٥ ومصنّف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٥١، واللَّفظ للأخير: «عن سعيد بن سويد قال: صلَّى بنا معاوية الجمعة بالنّخيلة في الضّحى ثم خطبنا فقال: ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، وقد أعرف أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون».

(٣) عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ينهى عن مثل هذا، فقال معاوية: ما أرى بهذا بأساً!، فقال أبو الدَّرداء: من يعذرني من معاوية أخبره عن رسول الله ويخبرني عن رأيه، لا أساكنك بأرض أنت بها. أنظر: الرِّسالة للشافعي / ٤٤٦، الموطّأ لمالك ٢/ ٦٣٤، المجموع للنووي ١٠/ ٣٠، المغني لابن قدامة ٤/ ١٣٠، السّنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٢٨٠، الإستذكار لابن عبد البرّ ٦/ ٣٤٧، المستصفى للغزالي / ١١٩.

(٤) من الأعمال التي قام بها معاوية وخالف بها الكتاب والسُّنة هو استلحاقه زياد بن أبيه أخاً، بمرأى ومسمع من المسلمين، قال ابن أبي الحديد: «روى علي بن محمد المدائني قال: لما أراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه الشام جمع الناس وصعد المنبر، وأصعد زياداً معه فأجلسه

⇦

صبراً[1]، أو يردُّ الكافر بالمال ليتجهّز على إخوانه المسلمين بـالحرب؟[2] إلى غـير ذلـك وإلى أنكى من ذلك من ظواهر الملك الّتي لا يجـوز نسـبتها إلى الـدِّين. فلـم لا يكـون صاحبها رئيس دنيا، و «مَلِكاً» بدل أن نسمِّيه رئيس دين و «خليفـة» ؟ وناهيـك بمـن جاء بعد معاوية من خلائف هذه الشَّجرة المنعوتة في القرآن ـ نعتها اللاَّئق بهـا ـ فـماذا كان من يزيد وماذا كان من عبد الملك ومن الوليد، ومن آخرين وآخرين.

⇦

بين يديه على المرقاة الَّتي تحت مرقاته، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيُّها النّـاس، إني قـد عرفـت نسبنا أهل البيت في زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها .

فقام ناس فشهدوا أنَّه أبن أبي سفيان، وأنهم سمعوا ما أقرَّ به قبل موتـه، فقـام أبـو مـريم السّـلولي ـ وكان خمّاراً في الجاهلية ـ فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أنَّ أبا سفيان قدم علينـا بالطّـائف، فأتـاني فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً، فلما أكل قال: يا أبـا مـريم، أصـب لي بغيّـاً، فخرجـت فأتيـت بسُمية، فقلت لها: إنَّ أبا سفيان ممن قد عرفت شرفه وجوده، وقد أمرني أن أصيب له بغيّاً، فهـل لك؟ فقالت: نعم، يجئ الآن عبيد بغنمـه ـ وكـان راعيـاً ـ فـإذا تعشّـى، ووضـع رأسـه أتيتـه. فرجعت إلى أبي سفيان فأعلمته، فلم نلبث أن جاءت تجرّ ذيلها، فدخلت معه، فلـم تـزل عنـده حتى أصبحت، فقلت له لما انصرفت: كيف رأيت صاحبتك؟ قال: خير صـاحبة، لـولا ذفـر في إبطيها.

فقال زياد من فوق المنبر: يا أبا مريم، لا تشتم أمَّهات الرِّجال، فتُشتم أمُّك!

فلمّا انقضى كلام معاوية ومناشدته قام زياد، وأنصت النَّاس، فحمد الله وأثنـى عليـه ثـم قـال: أيهـا النّاس إنَّ معاوية والشُّهود قد قـالوا مـا سـمعتم، ولسـت أدرى حـقُّ هـذا مـن باطلـه ! وهـو والشُّهود أعلم بما قالوا، وأنما عُبيد أبٌ مبرور، ووال مشكور ثـم نـزل.» تفصـيل ذلـك أنظـر: شرح ابن أبي الحديد ١٦/ ١٨٧ .

(١) كما فعل بحُجْر وأصحابه رضوان الله عليهم.

(٢) فقد ذكر المؤرِّخون أنَّ قيصر ملك الرّوم زحف بجماعته إلى معاوية ليغلب على الشَّام، وتزامن ذلـك مـع تهيّؤ أمير المؤمنين عليه السلام للمسير إلى معاوية فأهدى له من الغلمان والوصائف وآنية الذَّهب والفضة وسـأله الموادعة. أنظر: مروج الذّهب ٢/ ٣٧٧، بحـار الأنـوار ٣٢/ ٣٧٢، شرح نهـج البلاغـة ٢/ ٦٤، وقعـة صفّين لابن مزاحم / ٣٧، الإمامة والسِّياسة ١/ ٨٨.

كلُّ ذلك كان يجب أن يستحثّ المسلمين إلى الإنتصاف للإسلام، فلا يضيفون إلى مراكزه الدِّينيّة العليا، إلاّ الأكفّاء المتوفِّرين بتربيتهم على مثاليته والّذين هم أقرب النّاس شبهاً بمصدر عظمته الأوّل ﷺ.

وعلمنا ـ مما تقدَّم ـ أنَّ الحسن بن عليٍّ عليه السلام، كان أشبه النّاس برسول الله ﷺ خَلْقَاً وخُلُقَاً وهَيأةً وسُؤدداً[1]. وإنَّه كان عليه سيماء الأنبياء وبهاء الملوك. وعلمنا أنّه كان سيِّد شباب أهل الجنّة في الآخرة. والسيِّد في الآخرة هو السيِّد في الدّنيا غير منازع. و «السيِّد» المطلق لقبه الشَّخصي الّذي لقَّبه به جدُّه رسول الله ﷺ.[2]

وعلمنا أنّه كان أشرف النّاس نسباً، وخيرهم أباً وأمّاً وعمّاً وعمّةً وخالاً وخالةً وجدّاً وجدّةً. كما وصفه مالك بن العجلان في مجلس معاوية[3].

فلم لا يكون ـ على هذا ـ هو المرشَّح بالتَّزكية القطعيَّة للبيعة العامَّة. كما كان ـ إلى

---

(١) الارشاد (ص ١٦٧)، [٢/ ٥] واليعقوبي (ج ٢ص ٢٠١) [تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٦] وغيرهما. (المؤلّف ﵀)

(٢) في النبويّ المشهور: «إِنَّ ابْنِي هَذا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».
وليعلم أنّ الفِقْرَة الأولى منه حقّ لا ريب فيها إلاّ أنّ الثانية موضوعةٌ مكذوبةٌ حاكتها أيدٍ أموية لتصحيح بغي معاوية، وسياتي إن شاء الله الكلام عنها: الصفحة / ٢٨١.

(٣) قال معاوية ذات يوم ـ وعنده اشراف النّاس من قريش وغيره ـ: «أخبروني بخير النّاس أباً وأمّاً وعمّاً وعمّةً وخالاً وخالةً وجدّاً وجدّةً»، فقام مالك بن العَجْلان، فأومأ إلى الحسن فقال: «ها هو ذا أبوه عليّ بن أبي طالب، وأمّه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعمّه جعفر الطيَّار في الجنان، وعمّته أم هانئ بنت أبي طالب، وخاله القاسم ابن رسول الله وخالته بنت رسول الله زينب، وجدّه رسول الله، وجدّته خديجة بنت خويلد». فسكت القوم، ونهض الحسن، فاقبل عمرو بن العاص على مالك فقال: «أحُبُّ بني هاشم حَمَلَك على أن تكلّمت بالباطل؟». فقال ابن العَجْلان: «ما قلتُ إلاّ حقّاً، وما أحدٌ من النَّاس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق، إلاّ لم يعط أمنيته في دنياه، وختم له بالشّقاء في آخرته. بنو هاشم أنضرهم عوداً، وأوراهم زنداً، كذلك يا معاوية؟ قال: اللّهُمَّ نعم». (البيهقي ج١ ص٦٢) [المحاسن والمساوئ / ٨٢]... (المؤلّف ﵀)

ذلك ـ هو الإمام المقطوع على أمره بالنصّ. ولم لا يُضاف إليه المركز الدِّيني الأعلى، وهو من عرفت مقامه وسموّه وممِّيزاته. وإذا تعذَّر علينا أن نفهم الإمامة والكفاءة للخلافة، من هذه القابليّات الممتازة والمناقب الفُضلى، فأيُّ علامة أخرى تنوب عنها أو تكفينا فهمها.

خرج عليه السلام إلى النّاس، غير ناظر إلى ما يكون من أمرهم معه، ولكنَّه وقف على منبر أبيه، ليؤبِّن أباه بعد الفاجعة الكُبرى في مقتله صلوات الله وسلامه عليه.

فقال: «**لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِه اللَّيْلَةِ رَجُلٌ لَمْ يَسْبِقْهُ الأَوَّلُونَ، ولا يُدْرِكُه الآخِرُونَ. لَقَدْ كَانَ يُجَاهِدُ مَعَ رَسُولِ الله فَيَقِيهِ بِنَفْسِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُوَجِّهُهُ بِرَايَتِهِ، فَيَكْتَنِفُهُ جَبْرَئِيلُ عَنْ يَمِينِهِ، وَمِيكَائِيلُ عَنْ يَسَارِه، فَلا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْهِ. وَلَقَدْ تُوُفِّيَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قُبِضَ فِيهَا مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ. وَرُفِعَ بِهَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَأُنْزِلَ القُرْآنُ. وَمَا خَلَّفَ صَفْرَاءَ وَلا بَيْضَاءَ إِلا سَبْعَمِائَةِ دِرْهَمٍ مِنْ عَطَائِه، أَرَادَ أَنْ يَبْتَاعَ بِهَا خَادِماً لأَهْلِه**».[1]

وتأبين الحسن عليه السلام هذا ـ بأسلوبه الخطابي ـ فريدٌ لا عهد لنا بمثله، لأنّه ـ كما ترى ـ لم يعرض إلى ذكر المزايا المعروفة في الرّاحل العظيم، كما هي العادة المتَّبعة في أمثال هذه المواقف، ولا سيَّما في تأبين الرِّجال الّذين احتوشوا الفضائل، فكان لهم أفضل درجاتها، ومرنوا على المكارم فإذا هم في القمَّة من ذرواتها، علماً وحِلماً وفصاحةً وشجاعةً وسماحةً ونسباً وحسباً ونُبلاً ووفاءً وإباءً، كعليٍّ الّذي حيَّر المادحين مدح علاه. فلماذا يعزف الحسن عليه السلام، فيما يؤبِّنه به عن الطّريقة المألوفة في تأبين العظماء ؟ ترى

---

(١) اليعقوبي (ج٢ ص١٩٠) [تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٣]، وابن الأثير (ج٣ ص ١٦)، [٣/ ٤٠١] ومقاتل الطالبيين [/ ٣٢]. (المؤلّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: الإرشاد ٢/ ٨، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٦٢، المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢/ ٥، المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٨١. وفي المستطرف للأبشيهي ١/ ٣٦٢ زيادة هكذا: «**لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِه اللَّيْلَةِ رَجُلٌ مَا سَبَقَهُ الأَوَّلُونَ بَعْدَ رَسُولِ الله...**»

أكانت الصَّدمة القويَّة في مصيبته به، هي الّتي سدّت عليه ـ وهو الخطيب المصقِع وابن أخطب العرب ـ أبواب القول فيما ينبغي أن يقول، أم أنَّه كان قد عمد إلى هذا الأسلوب قاصداً، فكان في اختيار الأسلوب الخاصّ، أبلغ الخطباء وأبرعهم إصابةً للمناسبات، وأطولهم خطابةً على اختصار الكلمات.

نعم إنَّه يؤبّنه بما لا يسع أحداً في التّاريخ أن يؤبّن به غيره. وكلُّ تأبين على غير هذا الأسلوب، كان بالإمكان أن يؤبَّن على غِراره غيره وغيره من عظماء النّاس. أمَّا الأوصاف الفريدة الّتي ذكرها الحسن لأبيه في هذا التَّأبين، فكانت الخصائص العلويَّة الّتي لا تصحُّ لغير عليٍّ في التَّاريخ، ولا يشاركه فيها أحدٌ من العظماء ولا من الأولياء.

إنّه ينظر إليه من زاويته الرَّبانيّة ـ نظر إمامٍ إلى إمام ـ فإذا هو الرَّاحل الّذي لا يشبهه راحلٌ ولا مقيمٌ، ولا يضاهيه ـ في شتَّى مراحله ـ وليٌّ ولا زعيم.

رجلٌ ولكنَّه الّذي لم يسبقه الأوَّلون ولا يُدركه الآخرون. وإنسانٌ ولكنّه بين جبرئيل وميكائيل، وهل هذا إلاّ الإنسان الملائكي. تُرفع روحُه يوم يُرفع عيسى، ويموت يوم يموت موسى، وينزل إلى قبره يوم ينزل القرآن إلى الأرض! مراحل كلُّها بين مَلَكٍ مقرَّب ونبيٍّ مرسل وكتابٍ منزل، ومع رسول الله يقيه بنفسه. فما شأن مكارم الدُّنيا، إلى جنب هذه المكرُمات الكرائم، حتى يعرض إليها في تأبينه.

ولعلَّك تتَّفق معي الآن إلى أنَّ هذا الأسلوب الرَّائع «الفريد» فيما أبّن به الحسن أباه عليهما السلام، كان أبلغ تأبين في ظرفه، وأليقه بهذا الفقيد.

وهذه إحدى مواقفه الخطابية، الّتي دلَّت بموهبتها الممتازة على نسبها القريب، من جدِّه ومن أبيه (صلَّى الله عليهما وعلى آلهما). وسيكثر منذ اليوم أمثالها، من الحسن «الخليفة» عليه السلام، بحكم نزوله إلى قبول البيعة من النَّاس، وبما سيستقبله من طوارئ كثيرة، تستدعيه للكلام وللقول وللخطابة في مختلف المناسبات.

ووقف بحذاء المنبر في المسجد الجامع ـ وقد غُصَّ بالنّاس ـ ابنُ عمِّه «عبيد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب». ينتظر هدوء العاصفة الباكية المُرِنَّة، الّتي اجتاحت الحفل، في أعقاب تأبين الإمام الحسن لأبيه عليهما السلام.

ثم قال ـ بصوته الجهْوَرِيّ الموروث ـ الّذي يُدوِّي في الأرض دوِيَّ أصوات السَّماء، وما كان عبيد الله منذ اليوم، إلاّ داعي السَّماء إلى الأرض: «معاشر النّاس هذا ابن نبيّكم، ووصيُّ إمامكم فبايعوه» ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]

وفي النّاس إلى ذلك اليوم، كثير ممَّن سمع نصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، على إمامته بعد أبيه. فقالوا: «ما أحبَّه إلينا وأوجب حقَّه علينا وأحقَّه بالخلافة». وبادروا إلى بيعته راغبين.

وكان ذلك يوم الواحد والعشرين من شهر رمضان، يوم وفاة أبيه عليه السلام، سنة أربعين للهجرة.[2]

وهكذا وفقت الكوفة لأنْ تضع الثِّقة الإسلامية في نصابها المفروض لها، من الله عزَّ وجلَّ ومن العدل الإجتماعيّ، وبايعته ـ معها ـ البصرة والمدائن وبايعه العراق كافّة، وبايعه الحجاز واليمن على يد القائد العظيم «جَارِيَة بن قُدَامَةَ»[3]، وفارس على

---

(١) سورة المائدة / ١٦.

(٢) يرجع فيما ذكرناه هنا إلى شرح النهج لابن أبي الحديد (ج٤ ص١١)، [١٦/ ٣١] وذكر غيره مكان عبيد الله أخاه عبد الله. وسنشير في فصل «القيادة والنفير» إلى أنّ عبد الله لم يكن في الكوفة أيام بيعة الحسن عليه السلام. (المؤلّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: مقاتل الطالبيين / ٣٣، الإرشاد ٢/ ٨، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٦٢.

(٣) جَارِيَةُ بنُ قُدَامَةَ بنِ زُهيرٍ، أبو أيُّوبَ السَّعدِي، صحب النَّبي صلى الله عليه وآله وروى عنه، ثم صحب أمير المؤمنين عليه السلام وأحسن الصُّحبة، وكان من المخلصين له في الولاء الّذين عُرفوا باسم «شُرطة الخميس»، ثابت القدم، ثبت الجنان. وله مواقفه المحمودة التي تنبئ عن جلالة قدره وعظيم ⇦

يد عاملها «زِيَاد بن عُبَيْد»[1]، وبايعه ـ إلى ذلك ـ من بقي في هذه الآفاق من فضلاء

⇦

مكانته عند أمير المؤمنين عليه السلام وكان يعتمده في الكثير من مهامه، وشهد مشاهده كلّها، الجمل، وصفّين والنهروان. وكان شجاعاً مقداماً وخطيباً لسناً ويشهد له بذلك محاوراته مع عائشة ومعاوية وغيرهما.

وجّهه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لإخماد فتنة عبد الله بن عامر الحضرمي الّذي بعثه معاوية إلى البصرة ليأخذ له البيعة من أهلها، فاستعادها بتدبير دقيق وشجاعة محمودة. وبعثه عليه السلام في الأيام الأخيرة من حياته لإطفاء فتنة بسر بن أرطاة الذي كان مثالاً لا نظير له في الخبث واللّؤم، وبينا كان جارية في مهمته هذه استشهد الإمام عليه السلام.

فلما بلغه مقتله صلوات الله عليه أقبل حتى دخل مكة، وخرج بسر منها يمضي قبل اليمامة، فقام جارية على منبر مكة، وقال: بايعتم معاوية ؟ قالوا: أكرهنا. قال: أخاف أن يكونوا من الّذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة البقرة / ١٤)، قوموا فبايعوا. قالوا: لمن نبايع رحمك الله، وقد هلك أمير المؤمنين عليه السلام، ولا ندري ما صنع النّاس بعد ؟ قال: وما عسى أن يصنعوا، إلاَّ أن يبايعوا للحسن بن عليٍّ، قوموا فبايعوا. ثم اجتمعت عليه شيعة عليٍّ فبايعوا .

وخرج منها ودخل المدينة، وقد اصطلحوا على أبي هريرة يصلّي بالنّاس، فلما بلغهم مجيء جارية، توارى أبو هريرة . فجاء جارية وصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، وذكر رسول الله صلى الله عليه وآله فصلّى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنّ عليّاً عليه السَّلام يوم ولد ويوم توفّاه الله، ويوم يبعث حيّاً، كان عبداً من عباد الله الصَّالحين، عاش بقدر، ومات بأجل. فلا يهنأ الشامتون، هلك سيِّد المسلمين، وأفضل المهاجرين، وابن عمِّ النبيِّ صلى الله عليه وآله. أما والّذي لا إله إلا هو، لو أعلم الشّامت منكم، لتقرَّبت إلى الله عزَّ وجلَّ بسفكِ دمه، وتعجيله إلى النَّار، قوموا فبايعوا الحسن بن عليٍّ. فقام النَّاس فبايعوا . وأقام يومه ذلك، ثم غدا منها منصرفاً إلى الكوفة ثم دخل على الحسن بن علي عليهما السلام فضرب على يده فبايعه وعزّاه وقال: ما يجلسك؟ سر يرحمك الله، سر بنا إلى عدوِّك قبل أن يُسار إليك، فقال: «لَوْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِثْلَكَ سِرْتُ بِهِمْ». وتوفي جَارِيَة بعد حكومة يزيد.

أنظر: الإستيعابب ١/ ٢٢٦، أسد الغابة ١/ ٢٦٣، الإصابة ١/ ٥٥٥، أعيان الشّيعة ٤/ ٥٨، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٧٢.

(١) «زِيَادُ بنُ أمِّه» أو « زِيَادُ بنُ أبيه» أو « زِيَادُ بنُ عُبَيد» أو « زِيَادُ بنُ سُمَيَّة» وهي أمُّه، وكانت تحت عُبيد، وأخيراً لما استلحقه معاوية قال له أكثر الناس «زِيَادُ بنُ أبي سُفيان»، وجرت بذلك

⇦

المهاجرين والأنصار، فلم يكن لشاهدٍ أن يختار ولا لغائبٍ أن يرُدّ، ولم يتخلّف عن بيعته ـ فيما نعلم ـ إلاّ معاوية ومن إليه، واتّبع بقومه غير سبيل المؤمنين، وجرى مع الحسن مجراه مع أبيه بالأمس. وتخلّف أفراد آخرون عُرفوا بعد ذلك بالقعّاد.

أمّا الخلافة الشّرعيّة. فقد تمّت «على ظاهرتها العامّة» من طريق البيعة الإختيارية، للمرّة الثّانية في تاريخ آل محمّد صلّى الله عليه وعلى آله الطّاهرين وطلعت على المسلمين من الزّاوية المباركة الّتي طلعت عليهم بالنبوّة قبل نصف قرن. فكانت من ناحية صلتها برسول الله صلى الله عليه وآله، امتداداً لمادّة النُّور النبويّ، في المصباح الّذي يستضيء به النّاس. ومع الخليفة الجديد كلّ العناصر الماديّة والمعنوية الّتي تحملها الوراثة في كينونته ومثاليته.

فكان على ذلك الأولى بقول الشّاعر:

نَالَ الخِلافَةَ إذْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ[1]

ويعود الإمام الحسن عليه السلام ـ بعد أن أُخذت البيعة له ـ فيفتتح عهده الجديد، بخطابه التاريخي البليغ، الّذي يستعرض فيه مزايا أهل البيت وحقّهم الصّريح في الأمر، ثمّ يصارح النّاس فيه بما ينذر به الجوّ المتلبّد بالغيوم من مفاجئات وأخطار..

⇦

الأقلام والكتابات الأموية الرّسمية، فالبخاري في صحيحه يذكره بهذه النّسبة! أنظر: البخاري ٢/ ١٨٣.

ولاّه أمير المؤمنين عليه السلام بإشارة من ابن عبّاس بعض أعمال فارس، فضبطها ضبطاً صالحاً، وجَبى خراجها وحماها، وعرف ذلك معاوية وسعى غير مرّة ليستميله إليه فلم يفلح، فلما قتل أمير المؤمنين عليه السلام بقي زياد في عمله، وأخذ البيعة والولاء للإمام الحسن عليه السلام فخاف معاوية جانبه، وعلم صعوبة ناحيته، وأشفق من ممالاته الحسن بن علي عليهما السلام فتلطّف إليه بالحيل ومنّاه الباطل فاعتزل الحسن عليه السلام والتحق بمعاوية.

(١) الشّاعر هو جَرير بن عطيّة والبيت من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز.

فيقول (وهو بعض خطابه):

«نَحْنُ حِزْبُ اللهِ الْغالِبُونَ، وَعِتْرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَقْرَبُونَ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ الطَّيِّبُونَ الطَّاهِرُونَ، وَأَحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْنِ خَلَّفَهُمَا رَسُولُ اللهِ فِي أُمَّتِهِ، ثانِي[1] كِتابِ اللهِ، الَّذِي فِيهِ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، فَالْمُعَوَّلُ عَلَيْنا فِي تَفْسِيرِهِ، لا نَتَظَنَّنُ تَأْوِيلَهُ، بَلْ نَتَيَقَّنُ حَقائِقَهُ، فَأَطِيعُونا فَإِنَّ طاعَتَنا مَفْرُوضَةٌ، إِذْ كانَتْ بِطاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مَقْرُونَةً، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[2] وَقالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[3]».

ثم يمضي في خطابه، ويردف أخيرا بقوله:

«وَأُحَذِّرُكُمُ الإِصْغاءَ لِهُتافِ الشَّيْطانِ، فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَتَكُونُونَ كَأَوْلِيائِهِ الَّذِينَ قالَ لَهُمْ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾[4]. فَتُلْقَوْنَ لِلرِّماحِ وِرْداً، وَلِلسُّيُوفِ جَزَراً، وَلِلْعُمُدِ حِطَماً، وَلِلسِّهامِ غَرَضاً. ثُمَّ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[5]»[6]...

---

(١) الصَّحيح «وَالتَّالِي» كما هو في بعض المصادر. أنظر: الأمالي للشَّيخ المفيد / ٣٤٩ .

(٢) سورة النِّساء / ٥٩ .

(٣) سورة النِّساء / ٨٣ .

(٤) سورة الأنفال / ٤٨ .

(٥) سورة الأنعام / ١٥٨ .

(٦) روى هذه الخطبة هشام بن حسان . وقال: إنها بعض خطبته بعد البيعة له بالأمر . البحار (ج١٠ ص٩٩)، [٤٣/ ٣٥٩] والمسعودي [مروج الذّهب ٢/ ٤٣١]. (المؤلف ﵀)

أنظر: الأمالي للشَّيخ المفيد / ٣٤٩، الأمالي للشَّيخ الطّوسي / ١٢١، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٥٩، ورويت هذه الخطبة عن الإمام الحسين ﵇ وهو غير صحيح لشهادة القرائن الحافّة بها ولضعف

⇦

ثم نزل من على منبره، فرتّب العمّال، وأمر الأمراء ونظر في الأُمور[1].

قبول الخلافة

وتحذلق بعض المترفِّهين بالنَّقد، فرأى من «التسرُّع» قبول الحسن عليه السلام للخلافة، في مثل الظَّرف الّذي بايعه فيه النّاس، بما كان يُؤْذِن به هذا الظَّرف من زعازع ونتائج، بعضها ألم، وبعضها خسران.

ولكي نتبيّن مبلغ الإصابة في التسرُّع إلى هذا النَّقد. نقول:

أمّا أوّلاً:

فلمّا كان الواجب على النّاس ديناً، الإنقياد إلى بيعة الإمام المنصوص عليه، كان الواجب على الإمام[2] ـ مع قيام الحجَّة بوجود النَّاصر ـ قبول البيعة من النّاس.

أمّا قيام الحجَّة ـ فيما نحن فيه ـ فقد كان من انثيال النّاس طواعية إلى البيعة في مختلف بلاد الإسلام، ما يكفي ـ بظاهر الحال ـ دليلاً عليه. ولا مجال للتخلُّف عن الواجب مع وجود شرطه.

وأمّا ثانياً:

فإنَّ مبعث هذا الإنعكاس البدائي، عن قضيّة الحسن عليه السلام هو النَّظر إليها من

⇦

سندها.

(١) وروى هذا النصّ أكثر المؤرّخين. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) وهو المأثور من فعل أمير المؤمنين عليه السلام في قبوله الخلافة راجع قوله في الشّقشقيّة حيث يقول: «**أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظْلُومٍ لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ.**»

ناحيتها الدُّنيوية فحسب. بينما الأنسب بقضيّة «إمام» أن يستنطقها الباحث من ناحيتها الدِّينية على الأكثر. وكثير هو الفرق بين الدُّنيا والدّين في نظر إمام. والقضية من هذه النَّاحية ظفرٌ لا خسارة ـ كما سنأتي على توضيحه في محلِّه المناسب ـ وهي وإن تكن معرض آلام، ولكنَّها آلام في سبيل الإسلام، ومن أولى من الحسن عليه السلام بالإسلام وتحمُّل آلامه. وإنّما هو نبت بيته.

وأمّا ثالثاً:

فلم يكن الحسن عليه السلام في رفعة مكانه من زعماء المسلمين، وفي نَسَبه الممتاز ومركزه من العلم، بالَّذي يستطيع الفراغ وإن أراده عن عمد، ولا بالّذي يتركه النّاس وإن أراد هو أن يتركهم، وكان لابدَّ للرَّجّات العنيفة في المجتمع الإسلامي، أن تتدافع إليه، تستدعيه للوثوب إحقاقاً للحقِّ وإنكاراً للمنكر ـ كما وقع لأخيه الحسين عليه السلام في ظرفه.

وأيضاً. فلو ترك النَّاس وتجافى عن بيعتهم، أو تركه النّاس وأعفوه خلافتهم، فلن يتركه المتغلِّبون على النّاس. وإنَّهم لينظرون إليه ـ دائماً ـ كشبح مخيف، بما يدور حوله من الدَّعوة إلى الإصلاح، أو النِّقمة الصَّارخة على الوضع، الّتي كان يتطوَّع لها مختلف الطَّبقات، من السَّاخطين والمعارضين والدُّعاة لله، ولن يجد هؤلاء يومئذٍ ملجأ يفيئون إليه، خيراً من ابن رسول الله الإمام المحبوب. وهل كانت الوفود الّتي عرضت عليه استعدادها لمناوأة الحكّام الأمويين وإعادة الكرّة[1] لاسترجاع الحقِّ المغصوب، إلاّ ظاهرة هذه النِّقمة الصّارخة الّتي كان يعجُّ بها المجتمع الإسلامي يوم ذاك. وأنّى لسلطان المتغلِّبين أن يستقرَّ ما دام هذا المنار قائماً يفيء إليه النَّاس.

---

(١) الإمامة والسياسة (ص ١٥١). (المؤلّف رحمه الله)

أقول: لم أجده فيه. ولعلّه في الأخبار الطّوال / ٢٢٠ ففيه خبر لقاء حجر بن عديّ معه عليه السلام، وعتابه له على الصُّلح، وهو خبر ظاهر الوضع.

ولنتذكر أنه قُتل مسموماً. ولماذا يقتلونه وقد صالحهم وترك لهم الدُّنيا برُمَّتها، لولا أنهم خافوه على سلطانهم، ورأوا من وجوده حاجزاً يمنعهم من النُّفوذ إلى قلوب النَّاس؟ وهل ذلك إلاّ دليل انقياد النّاس ـ في عقيدتهم ـ إليه دونهم؟

وهذا كلُّه بعد الصُّلح، وبعد ظهور جماعات من شيعته وغير شيعته ينكرون عليه موقفه من الصُّلح.

ترى فكيف كانت قوّته في النّاس لو أنه أبى الخلافة من أوّل الأمر، وبقي شغف المسلمين إلى بيعته على حِدَّته، فهل كان من المحتمل، أن يظلَّ محور الأمل ومفزع الناقمين والمعارضين، ثم تنام عنه العيون الحذِرة على دنياها، فلا تعاجله بما ختمت به حياته المقدَّسة أخيراً؟ وهل كان إلاّ طعمة الإغتيالات الكافرة في سنَتِه الأولى بعد أبيه ـ على أغلب الظَّن ـ؟

فأيُّ منطق هذا الّذي يرى من قبول الحسن للخلافة تسرُّعاً!

والخلافة ـ في أصلها ـ مقام أبيه وميراثه وميراث أخيه ـ على حدِّ تعبير الإمام عليِّ بن موسى بن جعفر عليه السلام.

وأمّا الزّعازع الّتي لوَّح بها هذا النَّقد، فما كانت إلاّ خطط المناوئين في الكوفة،

---

(١) وهي رواية طويلة بيّن صلوات الله عليه فيها مقام الإمامة وشأنها، وفيها: «فَلَمْ تَزَلْ ـ الإمامة ـ فِي ذُرِّيَّتِه يَرِثُهَا بَعْضٌ عَنْ بَعْضٍ قَرْناً فَقَرْناً حَتَّى وَرَّثَهَا الله تَعَالَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ جَلَّ وتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران / ٦٨) فَكَانَتْ لَه خَاصَّةً فَقَلَّدَهَا صلى الله عليه وآله عَلِيّاً عليه السلام بِأَمْرِ الله تَعَالَى عَلَى رَسْمِ مَا فَرَضَ الله فَصَارَتْ فِي ذُرِّيَّتِه الأَصْفِيَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ الله الْعِلْمَ والإِيمَانَ بِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الرُّوم / ٥٦) فَهِيَ فِي وُلْدِ عَلِيٍّ عليه السلام خَاصَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِذْ لا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فَمِنْ أَيْنَ يَخْتَارُ هَؤُلاءِ الْجُهَّالُ؟ إِنَّ الإِمَامَةَ هِيَ مَنْزِلَةُ الأَنْبِيَاءِ وإِرْثُ الأَوْصِيَاءِ...» أنظر: الكافي الشريف ١/ ٢٠٠.

وليس شيءٌ منها بالّذي يضير الحسن عليه السلام إبّان نشاط النّاس معه ـ كما هو في إبّان بيعته ـ وأيُّ خليفة أو زعيم ليس له مناوئون؟

فَلِم لا يكون قبول البيعة هو الأرجح على مختلف الوجوه ؟

بل هو الواجب لضرورة الوقت وللمصلحة العامّة ولإحقاق الحقِّ.



الكوفة أيَّام البَيعة

الكوفة كما يصفها صَعْصَعَةُ بن صُوحانَ العَبديّ[1]: «قُبَّة الإسلام وذِروَة الكلام، ومَصَان[2] ذوي الأعلام، إلاّ أنَّ بها أجلافاً[3] تمنع ذوي الأمر الطَّاعة وتخرجهم عن الجماعة، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة».

مصَّرها المسلمون في السَّنة السَّابعة عَشْرَة[4] للهجرة بعد فتح العراق مباشرة.

وكان بناؤها الأوّل بالقصب، فأصابها حريق، فبنيت باللَّبِن وكانت شوارعها العامّة بعرض عشرين ذِرَاعاً ـ بذِراعِ اليد ـ وأزقّتها الفرعيّة بعرض سبعة أذرُع. وما بين الشَّوارع أماكن البِناء وهي بسعة أربعين ذراعاً، والقطايع وهي بِسَعَة ستِّين ذِرَاعاً. وكان المسجد أوَّلَ شئ خطوة فيها. فوقف في وسط الرّقعة الّتي أريدت للمدينة. رجلٌ شديد النّزع، رمى إلى كلِّ جهة بسهمٍ، ثم أقيمت المباني فيما وراء السِّهام، وترك ما دونها للمسجد وساحته. وبنوا في مقدّمة المسجد رِواقاً، أقاموه على أساطين من رُخامٍ كان الأكاسرة قد جلبوها من خرائب الحِيرَة، وجعلوا على الصَّحن خندقاً لئلاّ يقتحمه أحدٌ ببنيان.[5]

---

(١) تجد ترجمته في «زعماء الشيعة المروَّعين» في الكتاب [الصَّفحة / ٥٠٨]، وروى كلمته هذه المسعودي هامش ابن الأثير ج٦ ص١١٨)، [مروج الذهب ٣/ ٤٢]. (المؤلّف)

(٢) بفتح أوَّله: غلاف القوس. (المؤلّف)

أقول: وفي الأصل: «ومظانُّ ذوي الأعلام».

(٣) «الجِلف»: هو الغليظ الجافي. (المؤلّف)

(٤) البلاذري في فتوح البلدان [للبلاذري ٢/ ٣٣٨] والبراقي في تاريخ الكوفة [/ ١٤٣]، وذكره الحموي في المعجمي [٤/ ٤٩١] ثم ناقض نفسه إذ قال في مادَّة «البصرة»: «وكان تمصير البصرة في السَّنة الرَّابعة عَشرَة قبل الكوفة بستَّة أشهر!» [١/ ٤٣٢]. (المؤلّف)

(٥) للزيادة راجع: تاريخ الكوفة للسيِّد البراقي، خطط الكوفة للمستشرق ماسنيون، تاريخ الطَّبري ⇐

وزاد عمران الكوفة زيادةً مفاجئة، حين هاجر إليها أمير المؤمنين عليه السلام، فاتّخذها مقرّاً له بعد وقعة الجمل سنة ٣٦ للهجرة وكان دخوله إليها في الثّاني عشر من شهر رجب.[١]

وكان من بواعث هذه البادرة ـ هجرة عليٍّ عليه السلام إلى الكوفة ـ ضعف موارد الحجاز، واعتماده في موارده على غيرها، وما من علّةٍ تتعرّض لها دولة أضرّ من اعتمادها في الموارد على غيرها، وكانت الكوفة وبلاد السّواد تكفي نفسها وتفيض.[٢] وهذا عدا الأسباب العسكرية الّتي اضطرّته لها الثّورات المسلّحة الّتي كانت تتّخذ من بلاد الرّافدين ميادين لأعمالها العُدوانية.

وتقاطر على الكوفة ـ إذ هي عاصمة الخلافة ـ كبار المسلمين من مختلف الآفاق.[٣] وسكنتها القبائل العربية من اليمن والحجاز[١]، والجاليات الفارسيَّة من

٣/ ١٤٨، الكامل في التاريخ ٢/ ٥٢٧.

(١) أنظر: وقعة صفّين لابن مزاحم / ٣، الأمالي للشّيخ المفيد / ١٢٧، البداية والنّهاية ٧/ ٢٨٢، وقيل: في شهر رمضان سنة ستّ وثلاثين. أنظر: أنساب الأشراف ٣/ ٦٤.

(٢) العراق أو أرض السّواد غنمها المسلمون من الفرس وفُتحت عنوة، وحَدُّها ما بين عبّادان والموصل طُولاً وبين القادسية وحُلوان عرضاً، بعث عمر بن الخطّاب إليها ثلاث أنفس: عمّار بن ياسر أميراً على صلاتهم، وابنَ مسعود قاضياً ووالياً على بيت المال، وعثمان بن حُنيف على مساحة الأرض، فمسح أرض الخراج، فبلغ (٣٦،٠٠٠،٠٠٠) جريب، ثم ضرب على كلّ جريب نخل عشرة دراهم، وعلى الكرم ثمانية دراهم، وعلى جريب الشّجر والرّطبة ستّة دراهم، وعلى الحنطة أربعة دراهم، وعلى الشّعير درهمين، ثم كتب بذلك إلى عمر فأمضاه. والجريب ـ على خلاف في مقداره ـ أقلُّه ثلاثة آلاف وستمائة (٣٦٠٠) ذراع. وكان مبلغ ارتفاع خراج السّواد في عهد عمر (١٣٦،٠٠٠،٠٠٠) درهم، منه يجبى إلى الحجاز ليُصرف في مصالح المسلمين.

(٣) أنظر: الطّبقات الكبرى ٦/ ٥.

المدائن وإيران.(٢) وعمرت فيها الأسواق التِّجارية. وزهت فيهـا الدِّراسـات العلميّـة.

⇦

(١) يقول المحقِّق الفقيد الشَّيخ باقر شريف القرشي في كتابه: حياة الإمام الحسين ٢/ ٤٣٣:

«قبائل العربية التي سكنتها فهي:

القبائل اليمنية:

وتسابقت القبائل اليمنية إلى سكنى الكوفة فكان عددهم ـ فيما يقول المؤرِّخون ـ اثني عشر ـ ألفاً [معجم قبائل العرب ١/ ١٥، فتوح البلدان: / ٢٧٦، معجم البلدان ٧/ ٢٦٧] وهي:

١ـ قُضاعَة. ٢ـ غَسَّان. ٣ـ بَجِيلَة. ٤ـ خَثْعَم. ٥ـ كِنْدَة. ٦ـ حَضْرَـمَوْت. ٧ـ الأزْد. ٨ـ مَذْحِج. ٩ـ حِمْيَر. ١٠ـ هَمْدَان. ١١ـ النَّخَع.

فهذه هي الأسر التي تنتمي إلى اليمن، وقد استوطنت الكوفة، ونزلت في الجانب الشَّرقيّ من المسجد، ويرى «فلهوزن» أنَّ القبائل المشهورة من اليمن وهي مَذْحِج وهَمْدَان وكِنْدَة قد كانت كلّها السّيطرة والسِّيادة على الكوفة.

القبائل العدنانية:

أما القبائل العدنانية الَّتي سكنت الكوفة فكان عددها ثمانية آلاف شخص، وهي تتشكَّل من أسرتين: ١ـ تميم. ٢ـ بنو العَصْر.

قبائل بني بكر:

وسكنت الكوفة قبائل بني بكر، وهي عدّة أسر منها: ١ـ بنو أسَد. ٢ـ غَطَفَان. ٣ـ مُحَارِب. ٤ـ نُمَيْر.

وهناك مجموعة أخرى من القبائل العربيَّة استوطنت الكوفة، وهي: كِنَانَة، وجَدِيلَة، وضُبَيْعَة وعبد القَيس، وتَغْلِب وأيَاد وطَيّ وثَقِيف وعَامِر ومُزَينَة.

ويرى «ماسنيون» أنَّه إلى جانب القرشيين الذين سكنوا الكوفة عناصر شديدة البداوة من سكان الخيام وبيوت الشَّعر، وأصحاب الإبل من بني دارم التميمي وجيرانهم اليمنيين القدماء من طيء، وعناصر نصف رحالة من ربيعة، وأسد من الغرب والشمال الغربي، وبكر من الشرق والجنوب الشرقي وعبد القيس الذين جاءوا من هجر من الجنوب الشرقي ثم عناصر متحضرة من القبائل الجنوبية الأصيلة من العربية الذين نزحوا من اليمن وحَضْرَ مَوْت، وهؤلاء كانوا قسمين: عناصر نصف متحضِّرة من كِنْدَة وبَجِيلَة وعناصر متحضِّرة تماماً من سكَّان المدن والقُرى اليمنية من مَذْحَج وحِمْيَر وهمدان. [أنظر: خطط الكوفة / ١٨]

(٢) يقول المحقِّق الفقيد الشَّيخ القرشيّ في كتابه المشار إليه ٢/ ٤٣٧: «أكبر موجة فارسيَّة

⇦

وأنشئت حولها الحدائق والبساتين والأرباض والقريات. وأغفت على ذراعها أمجاد التاريخ والآداب والعلوم زمناً طويلاً.

وغلب على الكوفة تحت ظلّ الحكم الهاشميّ التشيُّع لعليٍّ وأولاده عليهم السلام، ثمَّ لم يزل طابعها الثَّابت اللَّون. ووجد معه بحكم اختلاف العناصر الّتي يمّمت المصر ـ الجديد أهواءٌ مناوئةٌ أخرى، كانت بعد قليل من الزَّمن أداة الفتن في أكثر ما عصف بالكوفة من الزَّعازع التَّاريخيّة والرَّجّات العنيفة لها وعليها.

وجاءت بيعة الحسن عليه السلام يوم بايعته الكوفة، عند ملتقى الآراء من سائر العناصر الموجودة فيها يوم ذاك، على أنَّها كانت قلَّ ما تلتقي على رأيٍ.

وكان للحسن عليه السلام من أسلوب حياته في هذه الحاضرة، مدى إقامته فيها، ما جعله قِبلة الأنظار ومهوى القلوب ومناط الآمال، وملأ أجواء المدينة الجديدة «عاصمة أبيه» بكرائم المكرمات الّتي تنتقل في آل محمَّد عليهم السلام بالإرث: جُود يدٍ، وسَجَاحة خُلُق، ونُبل شعور، وظُرَف شمائل، وسَعَة حِلم، ورَجَاحة عقل وعلم وزَهادة وعبادة. وضحك منبر الخلافة ـ في بحران حزنه على الإمام الرَّاحل ـ بما شاع في أكنافه من شِيم الأنبياء الموروثة في خليفته الجديد، ولم يكن ثمَّة أعمل بالتقوى، ولا أزهد بالدُّنيا، ولا

⇨

استوطنت الكوفة عقيب تأسيسها هي المجموعة الضَّخمة من بقايا فلول الجيوش الساسانية الَّتي انضمَّت إلى الجيش العربي، وأخذت تقاتل معه، وقد عُرفت في التَّاريخ باسم حمراء ديلم فكان عددهم ـ فيما يقول المؤرِّخون ـ أربعة آلاف جنديّ يرأسهم رجلٌ يسمَّى «ديلم» قاتلوا معه تحت قيادة «رُسْتَم» في القادسية فلمَّا انهزمت الفرس، وقتل «رُسْتَم» عقدوا أماناً مع سعد بن أبي وقَّاص، وشرطوا عليه أن ينزلوا حيث شاؤوا، ويحالفوا من أحبُّوا وأن يفرض لهم العطاء، وقد حالفوا زهرة بن حوية التَّميمي أحد قادة الفتح، وفرض لهم سعد في ألف ألف، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه كما شهدوا فتح جلولاء، ثم تحوّلوا فنزلوا الكوفة.»

أجمع لخصال الخير كلّها منه، لذلك كان الشخصيّة الفذّة الّتي تتّفق عليها الآراء المختلفة عن رغبة وعمد، وتجتمع فيها عناصر الزّعامة كما يجب في قائد أمة أو إمام قوم.

وانتهت مهرجانات البيعة في الكوفة على خير ما كان يُرجى لها من القُوّة والنّشاط والتعبئة، لولا أنّ للقدر أحكاماً لا تجري على أقيسة العقول، ولا تسير على رغائب الأنفس، فكان الجوّ السّياسي في الحاضرة الّتي تحتفل لأوّل مرّة في تاريخها بتنصيب خليفة، لا يزال راكداً متلبّداً مشوباً بشيء كثير من التبليل المريب، وذلك هو ما ورثته الكوفة من مخلّفات الحروب الطّاحنة الّتي كانت على مقربة منها في البصرة والنّهروان وصفّين. وفي الكوفة يومئذٍ أنصار كثيرون لشُهداء هذه الحروب وضحاياها من الفريقين يشاركونهم الرّأي، ويتمنّون لو يُسّر لهم أخذ الثّار، ويعملون ما وسعهم العمل لتنفيذ أغراضهم.

ومن هذه الأغراض، الأغراض الصّالحة المؤاتية، ومنها الفاسدة المبرقعة الأهداف الّتي لا تفتأ تخلق ذرائع الخلاف في المجموع.

أمّا الحسن ـ وهو في مستهلّ خلافته ـ فقد كانت القلوب كلُّها معه لأنّه ابن بنت رسول الله ﷺ، ولأنّ من شرط الإيمان مودّته، ومن شرط البيعة طاعته.

قال ابن كثير: «وأحبُّوه أشدَّ من حبِّهم لأبيه»[1].

وكان لا يزال بمنجاة من هؤلاء وهؤلاء، ما دام لم يباشر عملاً إيجابيّاً يصطدم بأهداف البعض، أو يمسّ الوَتَر الحسّاس من عصبيّات البعض الآخر. ذلك لأنّ

---

(١) البداية والنهاية: (ج٨ ص٤١)، [٨/ ٤٥]. (المؤلّف ﷺ).

أيضاً أنظر: تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٦١، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٤٣، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٥٩.

الوسائل الّتي أصبح يعيش بها الإسلام يومئذٍ، كانت تخضع في أمثال هؤلاء المسلمين للأهداف الشَّخصيَّة تارة، وللعصبيَّات أخرى.

وخُيِّل للكثيرين من أولئك الّذين تتحكَّم فيهم الأنانية والنفعيَّة حتى تتجاوز بهم حدود العقيدة، أنهم إذ يبايعون الحسن بالخلافة، إنما يتسوَّرون بهذه البيعة إلى إسناد قضاياهم، وإرضاء مطامعهم، عن طريق الخُلُق الثَّري الواسع، الّذي ألفوه في الحسن بن عليٍّ عليه السلام منذ عرفوه بين ظهرانيهم، والَّذي كان يذكِّرهم ـ دائماً ـ بخلُق جدِّه الأعظم صلى الله عليه وآله، وكانوا يحفظون من صحابة الرَّسول أنَّ الحسن أشبه آله به خَلقاً وخُلقاً.

والواقع أنَّهم فهموا هذا الخُلُق العظيم على غير حقيقته.

وتسابق على مثل هذا الظَّن كثير من ذوي المبادئ الّتي لا تتَّفق والحسن عليه السلام في رأي ولا عقيدة، فبايعوه راغبين، كما يبايعه المخلصون من المؤمنين. ثم كان هؤلاء ـ بعد قليلٍ من الزَّمن ـ أسرع النّاس إلى الهزيمة من ميادينه لا يلوون على شيء، ذلك لأنهم حين عركوا مواطن طمعهم من ليونة الحسن عليه السلام، وجدوها بعد تسلُّمه الحكم واضطلاعه بالمسؤولية، أعنف من زبر الحديد، حتى أنَّ كُلاًّ من أخيه وابن عمِّه وهما أقرب النّاس اليه وأحظاهم منزلةً عنده عجز أن يعدل به عن رأي أراده، ثم مضى مُعتصِماً برأيه في غير تكلُّف ولا اكتراث.

ولهذا، فلم يكن عجيباً أنْ تَدُبَّ روح المعارضة وئيدة في الجماعات القلقة من هؤلاء الرُّؤساء والمترّئسين في الكوفة، ولم يكن عجيباً أن يعودوا متدرِّجين إلى سابق سيرتهم مع الإمام الرَّاحل الّذي «ملأوا قلبه غيظاً وجرَّعوه نُغَبَ التَّهْمام أنفَاساً»[1]، وهكذا تنشَّأت ـ في هذا الوسط الموبوء ـ الحزبيَّة الناقمة الّتي لا تعدم لها نصيراً قوياً في

(١) على حدِّ تعبيره عليه السلام «**قَاتَلَكُمُ اللهُ، لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً**» نهج البلاغة ١/ ٧٠، الخطبة: ٢٧.

الخارج. وهكذا انبثقت مع هذه الحزبية المشاكل الدّاخليّة بمختلف ألوانها.

واستغلّ هذه المرحلة الدّقيقة فئات من النفعيّين، تمكّنوا أن يخلقوا من أنفسهم همزة وصلٍ بين الكوفة والشّام، بما في ذلك من تمرُّد على الواجب. وخروج على الخلق، وخيانة للعهد الّذي فرضته البيعة في أعناقهم.

وقديماً مَرَنَ هذا النّمط من «أشباه الرِّجال» على الشّغب والقطيعة والنُّفور، منذ انتقلت الخلافة الإسلامية إلى الحاضرة الجديدة في العراق بما تحمله معها من الصَّراحة في الحكم والصَّرامة في العدل. وكان قلق هؤلاء وتبرُّمهم ونفورُهم، نتيجة اليأس من دنيا هذه الخلافة، لأنَّها لم تكن خلافة دُنيا ولكن خلافة دين. وعلموا أنَّها لن تُقرَّهم على ما هم عليه من سماحة التصرُّفات في الشُّؤون العامَّة والإستئثار بالدُّنيا، وأنها ستأخذ عليهم الطَّريق دون آمالهم وأعمالهم ومختلف تصرُّفاتهم.

ووجد هؤلاء من نشوء الخلافة الجديدة في الكوفة، ومن استمرار معاوية على الخلاف لها في الشَّام، ظَرفاً مناسباً لبعث النّشاط واستئناف أعمال الشّغب واستغلال الممكن من المنافع العاجلة، ولو من طريق اللّعب على الجانبين، فإمَّا أن يحتلُّوا من الإمارة الجديدة أمكنتهم الّتي تُرضي طموحهم، وإمَّا أن يعملوا على الهدم ويتعاونوا على الفساد. وكانت خزائن الشَّام لا تفتأ تُلوِّح بالمغرِيات من الأموال والمواعيد، وكانت الأموال والمواعيد أمضى-أسلحة الشَّام في مواقفها من الكوفة على طول الخطِّ.

وهكذا فَتَّ في أعضاد كوفة الحسن عليه السلام تقلُّب الهوى وتوزُّع الرَّأي وتداعي الخُلُق وتوقُّح الخصومة في الكثير الكثير من أهلها.

وكان على هذه الشّاكلة من عناصر الكوفة إبَّان بيعة الحسن عليه السلام أقسام من النّاس.

لنا أن نصنِّفهم كما يلي:

١) الحزب الأموي:

وأكبر المنتسبين إليه عَمْرو بن حُرَيث(١)، وعُمارَة بن الوَليد بن عُقْبة(٢)، وحُجْر بن عَمرو(٣)، وعُمَر بن سَعدِ بن أبي وقّاص(٤)، وأبو بُرْدَة بن أبي مُوسى

(١) عَمْرُو بْنُ حُرَيْثٍ بنِ عَمرِو بنِ عُثمانِ بن عَبد الله بن عَمْرو بن مَخْزُوم القُرَشِيّ المخزُوميّ، يكنّى أبا سعيد، كان من الصّحابة، وهو أوّل قرشي اتّخذ الكوفة داراً، وكان من أغنى أهل الكوفة، وولي لبني أُميّة بالكوفة، وكانوا يميلون إليه ويتقوّون به، وكان هواه معهم، وكان عمّال العراق زيادٌ وابنه وغيرهما يستخلفونه على الكوفة إذا خرجوا منها، كانت له يدٌ في قتل مِيثم التمّار، وحُجر بن عَديّ. الإستيعاب ٣/ ١١٧٢، الطّبقات الكبرى ٦/ ٢٣، أنساب الأشراف ١٠/ ٢١٦، أسد الغابة ٤/ ٩٧، الإصابة ٤/ ٥١٠.

(٢) ولعلَّ الصَّحيح هو: عُمارَةُ بن عُقْبة بنِ أَبي مُعَيْطٍ، القُرَشِيّ، الأمَوِيّ، هو والوَليدُ وخَالد بنو عُقبَة بن أبي مُعَيْط من مُسلِمة الفتح. (الإستيعاب لابن عبد البرّ ٣/ ١١٤٤، أسد الغابة ٤/ ٥٠، الإصابة ٤/ ٤٨١) أقام بالكوفة بعد قتل عثمان وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرّاً. (الغارات ٢/ ٤١٨)، وحين قدوم زياد إلى الكوفة كان يعينه على النَّيل من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام. (تاريخ الطّبري ٤/ ١٧٥) وكان من الّذين كتبوا إلى يزيد لعنه الله يخبرونه بقدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة النّاس له. (تاريخ الطّبري ٤/ ٢٦٥).

(٣) لم أجد له ذكراً بهذا الإسم ولعلّه: «حُجْر بن الحَارِث» فقد ذكر الشَّيخ الصَّدوق رحمه الله في العلل ١/ ٢٢٠ «دسَّ معاوية إلى عَمرو بن حُريث والأشعث بن قيس وإلى حُجرِ بن الحَارث وشَبَثِ بن رِبْعِيّ دسيساً، أفرد كلّ واحد منهم بعين من عيونه، أنّك إنْ قتلت الحسن بن عليٍّ فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشّام، وبنتٍ من بناتي...» وجاء في هامش البحار ٤٤/ ٣٣، «هذا هو الظّاهر المطابق لبعض نسخ الكتاب وفي بعضها: «حُجْر بن الحُجْر» وفي بعضها: «حُجْر بن الحُرّ» وفي بعضها: «حُجْر بن الجَرّ.»

(٤) عُمَرُ بنُ سَعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ، وُلد يوم مات عمر بن الخطّاب ـ على قول ـ نزل الكوفة وكان من عيون الحزب الأُموي في الكوفة، وهو الّذي قتل الإمام الحسين عليه السلام. لعنه الله تعالى وأخزاه وأورده النّار وأصلاه. أنظر ترجمته: الطّبقات الكبرى ٥/ ١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ٣٧، تهذيب الكمال للمزي ٢١/ ٣٥٦.

وفي معرفة الثّقات للعجليّ ٢/ ١٦٦، قال: عمر بن سعد بن أبي وقاص مدني ثقة!! ... وهو الّذي قتل الحسين. قلت: كان أمير الجيش ولم يباشر قتله. انتهى، وعن أبي بكر بن أبي خيثمة قال: سألت يحيى بن ⇦

الأشعريّ[1]، وإسماعيل وإسحاق ابنَا طَلحة بن عبيد الله[2]، وأضرابهم[3].

⇦

معين عن عمر بن سعد أثقةٌ هو؟ فقال: كيف يكون من قتل الحسين بن عليٍّ رضي الله عنه ثقة؟ أنظر: الجرح والتّعديل لابن أبي حاتم الرّازي ٦/ ١١١.

الطّبقات الكبرى ٥/ ١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ٣٧، تهذيب الكمال للمزي ٢١/ ٣٥٦،

(١) عَامِرُ بنُ عَبد الله بنِ قَيس، أَبُو بُرْدَةَ بنُ أبِي مُوسَى الأشعريّ، سُمِّي على اسم عمِّه: «عَامِرِ بن قَيس» وكُنِّي بكنيته: «أَبِي بُرْدَةَ». ويقال اسمه: «الحَارِث» ويقال: اسمه كنيته. استعمله الحجّاج على قضاء الكوفة. أنظر: تاريخ ابن عساكر ٢٦/ ٤٣.

وهو ناصبيّ بغيض، ففي الغارات للثّقفي ٢/ ٥٦٦: عن عبد الرحمن بن جندب قال: رأيت أبا بردة بن أبي موسى يقول لأبي العادية الجهني قاتل عمار بن ياسر: أنت قتلت عمّاراً؟ قال: نعم، قال: فناولني يدك، فقبّلها، ثمَّ قال: لا تمسّك النار أبداً! وهو من الشُّهود الّذين بعث زياد بشهادتهم إلى معاوية ليشهدوا عنده بما فعل حجر وأصحابه، فكتب أبو بردة: أشهد أن حجر بن عدي كفر كفرة الأصلع، يعني بالأصلع عليّاً عليه السلام. الغارات للثقفي ٢/ ٥٦٥. وفي تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٠، أورد كتاب أبي بُردة إلى معاوية وهو يشهد فيه عليه بالكُفر: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد عليه أبُو بُردَة بن أبي موسى: لله ربِّ العالمين، شَهد أنَّ حُجرَ بن عديٍّ خلع الطّاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحَرب والفتنة، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة، وخلع أمير المؤمنين معاوية، وكفر بالله عزَّ وجلَّ كفرةً صلعاء.»

تُوفّي أبُو بُردة بالكوفة سنة ثلاث ومائة، وقيل: مات أبُو بُردة سنة أربع ومائة.

(٢) إسْمَاعِيلُ وَإسْحَاقُ ابنا طَلْحَةَ بنِ عُبَيدِ الله، القُرَشِيَّان، التَّيميَّان، المدَنيَّان، وهما ابنا خالة معاوية، وأبوهما حضر وقعة الجمل مع أهل البصرة وقُتل ابنه محمّد يومئذٍ، وأسِر ابنه الآخر موسى، فعنه قال: كنت في سجن عليٍّ بن أبي طالب، فلمّا كان ذات يومٍ نودي بالباب: أين موسى بن طلحة؟ فقلت: هو ذا أنا. قال: أجب أمير المؤمنين. قال: فاسترجع اهل السِّجن، فخرجت فكنت بين يديه ، فقال: **«يَا مُوسَى بْنَ طَلْحَةَ»**. قال: قلت: لبَّيك يا أمير المؤمنين. قال: **«إسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إلَيْهِ ـ ثلاث مرّات ـ إنْطَلِقْ إلَى العَسْكَرِ فَمَا وَجَدْتَ مِنْ سِلاحٍ أوْ ثَوْبٍ أوْ دَابَّةٍ أوْ شَيءٍ فَاقْبِضْهُ، وَاتَّقِ اللهَ وَاجْلِسْ فِي بَيْتِكَ.»** تهذيب الكمال للمزّي ٢٩/ ٨٦، تاريخ ابن عساكر ٦٠/ ٤٣٢.

وإسحاق وموسى ابنا طلحة كانا ممن شهدوا على حُجر رضي الله عنه لقتله. تاريخ ابن لأثير ٣/ ٤٨٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٢، وفي تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٠، ضمّ إليهما أخاهم إسماعيل. وإسحاق بن طلحة ولاه

⇦

وفي هذا الحزب عناصر قويّة من ذوي الأتباع والنُّفوذ، كان لها أثرها فيما نُكبت به قضيَّة الحسن من دعاوات ومؤامرات وشقاق.

«فكتبوا إلى معاوية بالسَّمع والطَّاعة في السِّرّ، واستحثُّوه على المسير نحوهم، وضمِنوا له تسليم الحسن إليه عند دُنوِّهم من عسكره، أو الفتك به»[٢].

وفيما يحدِّثنا المسعوديّ في تاريخه[٣]: «أنَّ أكثرهم أخذوا يكاتبونه ـ يعني معاوية ـ سِرّاً، ويتبرَّعون له بالمواعيد، ويتَّخذون عنده الأيادي».

«ودسّ معاوية إلى عمرو بن حُريث والأشعث بن قيس وحجَّار بن أبجر وشَبَث بن رِبعي دسيسةً، وآثر كلَّ واحد منهم بعين من عيونه، أنَّك إذا قتلت الحسن، فلك مائة ألف درهم، وجند من أجناد الشَّام، وبنت من بناتي. فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلام (لبس اللأْمة)[٤] ولبس درعاً وكفَرها، وكان يحترز ولا يتقدَّم للصَّلاة بهم إلاَّ كذلك، فرماه أحدهم

⇦

معاوية خراج خراسان، فلمّا صار بالرّي، مات هناك في سنة ستّ وخمسين.

(١) أمثال: الحُصَين بن نُمير، وسَمُرَة بن جُندَب، ويَزيد بنِ الحَارِث بن رُوَيم، وأسماء بن خَارِجَة، والقَعْقاع بن شَوْر الذُّهْلِي، وآخرين.

(٢) المفيد في الإرشاد (ص ١٧٠)، [٢/ ١٢]ـ والطَّبرسي في أعلام الوَرى [١/ ٤٠٣]. (المؤلّف رحمه الله)

(٣) هامش ابن الأثير (ج ٦ ص ٤٢) [مروج الذَّهب ٢/ ٤١٨]. أقول: وما يدرينا أن يكون كثير من أهل الشَّام كاتبوا الحسن يومئذٍ، بمثل ما كاتب به الكوفيّون معاوية: وقد علمنا أن الفريقين ـ أهل الشَّام وأهل الكوفة ـ كانوا سواء في إفلاسهم الخُلُقي الَّذي ينزع إلى الخيانة كلّما أغرتهم المظاهر. وعليك أن ترجع إلى البيهقي في المحاسن والمساوي (ج ٢ ص ٢٠٠) [/ ٥٦١] لتشهد مكاتبة أصحاب معاوية عليّاً عليه السلام، وترجع إلى اليعقوبي (ج٣ ص١٢) [٢/ ٢٦٦] لتشهد مكاتبة عامَّة أصحاب عبد الملك بن مروان لمصعب بن الزبير وطلبهم الأمان والجوائز منه. فلعلّ مكاتبة الشَّاميين للحسن إنما خفيت علينا لأنَّ الحسن كان آمَنَ مِن صاحبه على السرِّ فلم يبُح بما وصله منهم، أو لأنَّ المؤرِّخين شاءوا اغفالها ككثيرٍ من أمثالها. (المؤلّف رحمه الله)

(٤) «اللَّأْمةُ»: الدِّرع. لسان العرب ١٢/ ٥٣٢.

في الصَّلاة بسهم، فلم يثبت فيه لما عليه من الَّلأْمة»[١].

ومثل واحد من هذه النُّصوص يغني عن أمثال كثيرة.

وهكذا كان يعمل هؤلاء عامدين، شرَّ ما يعمله خائنٌ يتحيَّن الفُرَص، وكانت محاولاتهم اللَّئيمة، لا تكاد تختفي تحت غمائم الدَّجل والنِّفاق، حتى تبدو عاريةً سافرةً في ساعة نداء الواجب.

وهكذا كانوا ـ على طول الخطّ ـ قادة السَّخط، وأعوان الثَّورة، وأصابع العدوِّ في البلد.

ومالأهم «الخوارج» على حياكة المؤامرات الخطرة، بحكم ازدواج خطّة الفئتين، على مناهضة الخلافة الهاشميّة في عهديها الكريمين. ودلّ على ذلك اشتراك كلٍّ من الأشعث بن قيس وشَبَث بن رِبعي فيما يرويه النَّصُّ الأخير من هذه الأمثلة الثّلاث، وكان هذان من رؤوس الخوارج في الكوفة.

٢) الخوارج:

وهم أعداء عليٍّ عليه السلام منذ حادثة التَّحكيم، كما هم أعداءُ معاوية.

وأقطاب هؤلاء في الكوفة: عبدُ الله بنُ وَهَبٍ الرَّاسِبِيّ[٢]، وشَبَثُ بن رِبْعِيّ[٣]، وعبدُ

---

(١) علل الشَّرائع (ص ٨٤) [١/ ٢٢٠]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) عبدُ الله بنُ وَهَبٍ الرَّاسِبِيُّ، أدرك النَّبيَّ صلى الله عليه وآله، وشهد فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص، كان مع أميرِ المؤمنين عليٍّ عليه السلام في حروبه ولما وقع التَّحكيم فأنكره الخوارج واجتمعوا بالنهروان أمَّر عليهم الرَّاسبي، وكان عجباً في كثرة العبادة، حتى لقِّب ذا الثَّفنات، وكان لكثرة سجوده صار في يديه وركبتيه كثفنات البعير. وقتل مع من قُتل بالنَّهروان. الإصابة ٥/ ٧٨.

(٣) شَبَثُ بْنُ رِبْعِيٍّ التَّمِيمِيّ، اليَربُوعيّ، أبو عبدِ القُدُّوس الكُوفي. كان أوّل أمره مع سَجاح وكان يؤذِّن لها، ثم أسلم وكان من أصحاب مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ثم صار مع الخوارج، وكان يقول: أنا أوّل من ⇦

الله بنُ الكَوَّاء[1]، والأشْعَثُ بنُ قَيس[2]، وشِمْرُ بنُ ذِي الجَوْشَن[1].

⇦

حرّر الخَروريّة. ثمّ أظهر التّوبة بعد النّهروان، ثم حضر قتل ريحانة رسـول الله صلى الله عليه وآله، الإمـام الحسـين عليه السلام وأعان على قتله، وبعد ما رجع إلى الكوفة بنى مسجداً شكراً لقتل الحسـين عليه السلام ! لعنـه الله تعـالى. أنظـر: الإصابة ٣/ ٣٠٢، تهذيب التّهذيب لابن حجر ٤/ ٢٦٦.

(١) عبدُ الله بنُ عَمرْو اليَشْكُريَ، ابنُ الكَوّاء، من رؤوس الخوارج وأخباره مع أمير المـؤمنين عليه السلام معروفـة وكان يَعارض أمير المؤمنين عليه السلام في كثير من المواطن. لسان الميزان ٣/ ٣٢٩،

(٢) الأشْعَثُ بنُ قَيسٍ الكِنديّ، رأى النبيَّ صلى الله عليه وآله ورجع إلى اليمن، فلمّا قُبض صلى الله عليه وآله ارتدّ وأتي به إلى أبى بكر أسيراً فعاد إلى الإسلام فقُبل منه ذلك، وزوَّجـه أبـو بكـر أختـه أمّ فـروة، وكانـت عـوراء فأولدها ابنه محمّداً، أحد قاتليّ الحسين عليه السلام. فلـمّا خـرج النّـاس إلى العـراق خـرج معهـم ونـزل الكوفة وابتنى بها داراً في كِندة، ومسجده من المساجد الملعونة الّتي نهى أمـير المـؤمنين عليه السلام عـن الصّلاة فيها، وفيه قال عليه السلام: «**عَلَيْكَ لَعْنَةُ الله ولَعْنَةُ اللّاعِنِينَ، حَائِكٌ ابْنُ حَائِكٍ مُنَافِقٌ ابْنُ كَـافِرٍ**» نهج البلاغة ١/ ٥٦ الخطبة: ١٩. وكان بيته عشّ النّفاق وأسرته مجنّدة لعداء العـترة الطيبـين عليهم السلام فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ الأشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ شَرِكَ فِي دَمِ أَمِيرِ المُـؤْمِنِينَ عليه السلام، وابْنَتُـه جَعْـدَةُ سَـمَّتِ الحُسَنَ عليه السلام وَمُحَمَّدٌ ابْنُهُ شَرِكَ فِي دَمِ الحُسَيْنِ عليه السلام.**» الكـافي الشريـف ٨/ ١٦٧. أصـيب بـالعمى بـدعاء أمير المؤمنين عليه السلام في أواخر عمره.

وأخته قتيلة بنت قيس تزوّجها النبيُّ صلى الله عليه وآله فمات قبل أن يدخل بها فتزوَّجها عكرمة بن أبي جهل بعده، بحضرموت فبلغ أبا بكر فقال: لقد هممتُ أن أحرق عليهما، فقال عمر بن الخطّاب: ما هي مـن أمّهات المؤمنين ولا دخل بها النبيُّ صلى الله عليه وآله ولا ضرب عليها الحجاب!.

أقول: وفيها والعامريّة قال الإمام الباقر عليه السلام: «**مَا نَهَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ شَيْءٍ إلا وَقَدْ عُصِيَ فِيهِ، حَتَّـى لَقَدْ نَكَحُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله مِنْ بَعْدِهِ**» ثمّ قال عليه السلام: «**لَوْ سَأَلْتَهُمْ عَنْ رَجُلٍ تَـزَوَّجَ امْـرَأَةً فَطَلَّقَهَـا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا أَتَحِلُّ لابْنِهِ؟ لَقَـالُوا: لا، فَرَسُـولُ الله صلى الله عليه وآله أَعْظَـمُ حُرْمَـةً مِـنْ آبَـائِهِمْ.**» الكـافي الشريف ٥/ ٤٢١.

أنظر: الإصابة ١/ ٢٣٩، أسد الغابة ١/ ٩٧، الإستيعاب ١/ ١٣٣، تهذيب التّهذيب لابن حجر ١/ ٣١٣.

وكان الخوارج أكثرَ أهل الكوفة لجاجةً على الحرب، منذ يوم البيعة، وهم الَّذين شرطوا على الحسن عليه السلام عند بيعتهم له حرب الحالتين الضَّالِّين ـ أهل الشَّام ـ، فقَبَضَ الحسن يده عن بيعتهم على الشَّرط، وأرادها (على السَّمع والطَّاعة وعلى أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم)، فأتوا الحسين عليه السلام أخاه، وقالوا له: ابسُط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك يوم بايعناه، وعلى حرب الحالين الضالِّين أهل الشَّام. فقال الحسين عليه السلام: «**مَعَاذَ الله أَنْ أُبَايِعَكُمْ مَا دَامَ الحَسَنُ حَيّاً**». فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بُدّاً من بيعته على شرطه[٢].

أقول: وما من ظاهرة عِداء للحسن عليه السلام، فيما اقترحه هؤلاء الخوارج لبيعتهم إيَّاه، ولا في إصرارهم على الحرب، وقد كان في شيعة الحسن عليه السلام من يشاطرهم الإلحاح على الحرب، ولكنَّك سترى فيما تستعرضه من مراحل قضيَّة الحسن عليه السلام، أنَّ الخوارج كانوا أداة الكارثة في أحرج ظروفها. ورأيت فيما مرَّ عليك ـ قريباً ـ أنَّ زعيمين من زعمائهم ساهما في أفظع مؤامرة أمويّة في الكوفة.

وللخوارج في دعواتهم إلى «الخروج» أساليبهم المؤثِّرة المخيفة، الّتي كانت تزعزع إيمان كثير من النّاس بالشُّكوك. وكان هذا هو سرُّ انتشارهم بعد نكبتهم الحاسمة على شواطئ النّهروان.

⇦

(١) شِمْرُ بنُ ذِي الجَوْشَنِ بن قُرْطٍ الضَّبَابِيّ الكِلابِي ـ وضبط اسمه آخرون بفتح الشِّين وكسر الميم ـ (عليه لعائن الله تترى) قاتل الحسين عليه السلام. شَهد يوم صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام ثم اعتزل فيمن اعتزل عنه من الخوارج، ولما قام المختار الثقفي بتتبّع قتلة الحسين عليه السلام، طلب الشِّمر في جملتهم فظفر به أبو عَمْرَة فقتله.

(٢) يراجع كتاب الإمامة والسياسة (ص١٥٠)، [١/ ١٤٠ ت ز]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: في المصدر: «**المحلِّين الضَّالِّين**».

وكان زياد بن أبيه يصف دعوة الخوارج بقوله: «لَكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النَّار إلى اليَرَاع»[1]. وكان المُغِيرَة بن شُعْبة يقول فيهم: «إنهم لم يقيموا ببلد يومين إلاّ أفسدوا كُلَّ من خالطهم»[2].

والخارجيّ يقول الزُّور ويعتقده الحقّ، ويفعل المنكر ويظنّه المعروف، ويعتمد على الله ولا يتّصل إليه بسبب مشروع.

وسنعود إلى ذكرهم في مناسبة أخرى عند الكلام على «عناصر الجيش».

٣) الشكّاكون:

ورأينا ذكر هؤلاء فيما عرضه المفيد رحمه الله من عناصر جيش الحسن عليه السلام[3]. والّذي يغلب على الظَّن، أنَّ تسميتهم بالشكّاكين ترجع إلى تأثُّرهم بدعوة الخوارج من دون أن يكونوا منهم، فهم المذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ورأيت المرتضى في أماليه (ج٣ ص٩٣) يذكر «الشكّاك» استطراداً ويلوِّح بكفرهم، وكأنّه فهم عنهم التَّشكيك بأصل الدِّين[4].

---

(١) اليَرَاعُ: القَصَب. (المؤلّف رحمه الله)

أقول: عبيد الله بن زياد هو صاحب هذا القول وليس أباه. أنظر شرح النهج ٥/ ٨٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٤٥.

(٣) قال رحمه الله في الإرشاد ٢/ ١٠: «واستنفر ـ الإمام الحسن عليه السلام ـ النَّاس للجهاد فتثاقلوا عنه، ثم خفَّ معه أخلاطٌ من النَّاس، بعضهم شيعة له ولأبيه عليهما السلام، وبعضهم محكِّمة يؤثرون قتال معاوية بكلِّ حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شُكَّاك، وبعضهم أصحاب عصبيّة اتَّبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين».

(٤) قال رحمه الله ما هذا نصُّه: «(تأويل خبر) إن سأل سائل عن الخبر الَّذي روي عنه عليه الصَّلاة والسَّلام أنّه قال: «**لَعَنَ الله السارِق، يَسْرِقُ البَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ، ويَسْرِقُ الحَبْلَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ**» [صحيح البخاري ٨/ ١٥، صحيح مسلم ٥/ ١١٣، مسند أحمد ٢/ ٢٥٣] .

⇦

وكانوا طائفةً من سُكّان الكوفة ومن رَعَاعِها المهزومين، الّذين لا نيَّة لهم في خير ولا قدرة لهم على شرٍّ، ولكن وجودهم لنفسه كان شَرّاً مُستطيراً وعوناً على الفساد وآلة «مُسخَّرة» في أيدي المفسدين.(١)

٤) الحمراء:

وهم عشرون ألفاً من مَسْلَحة الكوفة (كما يحصيهم الطَّبريّ في تاريخه). كانوا عند تقسيم الكوفة في السَّبع الّذي وضع فيه أحلافهم من بني عبد القَيس، وليسوا منهم، بل ليسوا عرباً، وإنما هم المهجّنون من موال وعبيد، ولعلَّ أكثرهم من أبناء السَّبايا الفارسيَّات

⇨

الجواب: قلنا قد تعلَّق بهذا الخبر صنفان من النَّاس، فالخوارج تتعلَّق به وتدَّعى أنَّ القطع يجب في القليل والكثير، ويستشهد على ذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة / ٣٨] ويتعلَّق بهذا الخبر أيضاً الملحِدة والشكَّاك ويدَّعون أنَّه مناقض للرِّواية المتضمِّنة انتفاء القطع إلاَّ في ربع دينار ونحن نذكر ما فيه....» الأمالي ٣/ ٩٣.

(١) والطّائفة هذه بتصرُّفاتها المسيئة مع الإمام الحسن عليه السلام تحكي لنا جانباً من المأساة والمحن الّتي كابدها صلوات الله عليه وتجرَّعها قلبه الطّاهر، فعن الشيخ المفيد: أنه [صلوات الله عليه] خطب في أصحابه خطبة أراد من خلالها أن يمتحن أصحابه ويستبرئ أحوالهم في الطاعة له، ليتميز بذلك أولياؤه من أعدائه، ويكون على بصيرة في لقاء معاوية وأهل الشّام، فما أن تمّ كلامه قال بعضهم للآخر: ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا: نظنُّه ـ والله ـ يريد أن يصالح معاوية ويسلّم الأمر إليه، فقالوا: كفر ـ والله ـ الرّجل، ثم شدّوا على فسطاطه فانتهبوه، حتى أخذوا مصلاّه من تحته، ثم شدَّ عليه عبد الرّحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه، فبقي جالساً متقلّداً السَّيف بغير رداء.

ثم دعا بفرسه فركبه، وأحدق به طوائف من خاصَّته وشيعته ومنعوا منه من أراده، فقال: «أدْعُوا إلَيَّ رَبِيعَةَ وَهَمْدَان» فدعوا له فأطافوا به ودفعوا النَّاس عنه.

وسار ومعه شوب من النَّاس، فلمّا مرَّ في مُظْلِم سَابَاط بدر إليه رجلٌ من بني أسد يقال له: الجرّاح بن سنان، فأخذ بلجام بغلته وبيده مغول وقال: الله أكبر، أشركت ـ يا حسن ـ كما أشرك أبوك من قبل، ثم طعنه في فخذه فشقّه حتى بلغ العظم، ... أنظر: الإرشاد ٢/ ١٠ بتصرُّف يسير.

اللائّي أُخذن في «عين التّمر»[1] و «جلولاء»[2] من سنة ١٢ ـ ١٧ فهم حملة السِّلاح سنة ٤١ وسنة ٦١ في أزمات الحسن والحسين عليهما السلام في الكوفة (فتأمّل).

والحمراء شُرْطة زياد الّذين فعلوا الأفاعيل بالشِّيعة سنة ٥١ وحواليها، وكانوا من أولئك الّذين يحسنون الخدمة حين يُغريهم السّوم، فهم على الأكثر أجناد المتغلّبين وسيوف الجبابرة المنتصرين. وقويت شوكتهم بما استجابوا له من وقايع وفتن في مختلف الميادين الّتي مرَّ عليها تاريخ الكوفة مع القرن الأوّل.

وبلغ من استفحال أمرهم في الكوفة أن نسبوها إليهم فقالوا: «كوفة الحمراء»[3]. وكان في البصرة مثل ما في الكوفة من هؤلاء المهجّنين[4] الحُمر. وخشي ـ زياد (وكان والي البصرة إذ ذاك) قوَّتهم فحاول استئصالهم، ولكن الأحنف بن قيس منعه عمّا أراد. ووهم بعض كتّاب العصر، إذ نسب هؤلاء إلى التشيُّع، أبعد ما يكونون عنه آثاراً ونكالاً بالشيعيين وأئمتهم. ولا ننكر أن يكون فيهم أفراد رأوا التشيُّع، ولكنّ القليل

---

(١) في معجم البلدان ٤/ ١٧٦: «عين التّمر»: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضعٌ يقال له: «شفاثا»، منهما يجلب القسب والتّمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جداً، وهي على طرف البريّة، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة، وكان فَتحُها عنوةً فسبى نساءها وقتل رجالها.

(٢) «جَلُولاء»: من نواحي السَّواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، يشقُّها نهر جَلُولاء، وهو نهر عظيم يمتدُّ إلى بعقوبا ويشقّها، وبها كانت الوقعة المشهورة على الفرس سنة ١٦هـ، فسمِّيت: «جَلُولاء الوقيعة» لما أوقع بهم المسلمون. مراصد الإطّلاع ١/ ٣٤٣.

(٣) ولهذه التّسمية وجهٌ آخر يعود إلى أصل تسميتها، فـ«الكوفة» في الأصل: إسم الرَّمْلَة الحَمْراء، وبها سمِّيت الكوفة، تاج العروس ١٢/ ٤٦٩. وأيضاً: «الحمراء»: هو الإسم القديم الّذي يُطلقه العربُ على العجم، لغلَبَةِ البَياضِ على أَلْوانِهم. لسان العرب ١٣/ ٤٣١، تاج العروس ١٨/ ٥٨٣.

(٤) قال في تاج العروس ١٨/ ٥٨٣: «[الهَجِين] عَرَبيٌّ وُلِدَ من أَمَةٍ، وهو مَعِيبٌ. وقيلَ: هو ابنُ الأَمَةِ الرَّاعِيَة ما لم تُحَصَّنْ، فإذا حُصِّنَتْ فليسَ الوَلَد بهَجِينٍ.»

لا يقاس عليه.

وكان إلى جنب هذه العناصر العدوة في الكوفة «شيعة الحسن» وهم الأكثر عدداً في عاصمة عليٍّ عليه السلام، وفي هؤلاء جمهرة من بقايا المهاجرين والأنصار، لحقوا عليّاً إلى الكوفة، وكان لهم من صحبتهم الرّسول صلى الله عليه وآله ما يَفرض لهم المكانة الرّفيعة في النّاس.

وبرهن رجالات الشّيعة في الكوفة على إخلاصهم لأهل البيت عليهم السلام، منذ نُودي بالحسن للخلافة، ومنذ نادى ـ بعد خلافته ـ بالجهاد، وفي سائر ما استقبله من مراحل. ولو قُدِّر لهؤلاء الشّيعة أن يكونوا ـ يومئذٍ ـ بمنجاة من دسائس المواطنين الآخرين، لكانوا العُدّة الكافية لدرء الأخطار الّتي تعرّضت لها الكوفة من الشّام، وكان في هذه المجموعة المباركة من الحيويَّة والقابليّة ما لا يستطيع أحدٌ نكرانه، ونعني بالحيويَّة القابليّات الّتي تهضم المشاكل وتفهمها، وتعطيها الأهميَّة المطلوبة في حلولها.

وما ظنّك بقَيس بن سَعد بن عُبَادَةَ الأنصاريّ[1]، وحُجْرِ بن عَدِيٍّ الكِندِيّ[2]،

(١) قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ دُلَيْم الخَزْرجِيّ، هو ذلك الصَّحابيّ العظيم، كان يعدُّ من أشراف العرب، وأمرائها، ودهاتها، وفرسانها، وأجوادها، وخطبائها، وزهّادها، وفضلائها، ومن عُمُد الدِّين وأركان المذهب . أمَّا شرفه: فكان هو سيِّد الخزرج وابن سادتها، وقد حاز بيته الشَّرف والمجد جاهليّةً وإسلاماً، كان من النبيِّ صلى الله عليه وآله بمنزلة صاحب الشُّرطة من الأمير يلي ما يلي من أموره، وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بعض الغزوات، واستعمله على الصَّدقة، وكان من ذوي الرَّأي من النَّاس وكان قيس من شيعة عليٍّ عليه السلام ومناصحيه، بعثه أميراً على مصر في صفر سنة ٣٦ وكان أميرها الطَّاهر.

خرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الجمل وقيس على مصر، ورجع من البصرة إلى الكوفة وهو بمكانه ووليها أربعة أشهر وخمسة أيّام، وولاّه بعدها آذربيجان، ولمّا أجمع عليٌّ عليه السلام على القتال لمعاوية كتب أيضاً إلى قيس أن يستعمل عبد الله بن شبيل الأحمسي خليفة له ويُقبل إليه، وجعله على شُرْطَة الخَمِيس الذين بايعوا عليّاً عليه السلام على الموت. وكانت له المواقف المحمودة مع أبي محمّد الحسن عليه السلام. نقلاً عن الغدير ٢/ ٦٩.

وجّهه الإمام الحسن عليه السلام على مقدّمته يريد الشّام، وبعد أن وقعت المعاهدة بين الإمام عليه السلام ومعاوية بن أبي ⇦

وعَمْـرِو بـنِ الحَمِـقِ الخُزاعِـيّ[2]، وسَعيدِ بنِ قيسٍ الهَمْدانيّ[3]،

⇦

سفيان، رجع قيس إلى المدينة، وأقبل على العبادة حتى تُوفّي في آخر خلافة معاوية.

الإصابة ٥/ ٣٥٩، الإستيعاب ٣/ ١٢٨٩، أسد الغابة ٤/ ٢١٥، الغدير ٢/ ٦٨، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٢٥٣، موسوعة طبقات الفقهاء ١/ ٢٢٩.

(١) حُجْرُ بنُ عَدِيٍّ بن مُعَاويَة الكِنديّ المعروف بحُجرِ الخَير، من عدول أصحاب النَّبيّ صلى الله عليه وآله وفد عليه وشهد القادسية وشهد مع علي عليه السلام الجمل وصفّين، وكان على كندة وعلى الميسرة بنهروان. ولما أنكر على زياد بن أبيه لعن أمير المؤمنين عليه السلام بعثه وستة نفر من جماعته بأمر من معاوية إلى الشَّام فأمر معاوية بقتل من لم يتبرّأ من أمير المؤمنين عليه السلام وقتل على ذلك حُجْر «بمرج عذراء» سنة إحدى وخمسين.

هذا وقد نسب إليه بعضهم الكلمة المسيئة إلى الإمام الحسن عليه السلام: «يا مذلّ المؤمنين»، بعد أن تمّ الصُّلح مع معاوية، وهذا غير صحيح، فإنَّ قائل هذه الكلمة هو: «سُفيَانُ بنُ لَيلَى»، كما هو المصرّح به في كثير من المصادر، وفي رواية صحيحة يرويها الشيخُ المفيد، في الإختصاص / ٨٢، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الحَسَنِ عليه السلام يُقَالُ لَهُ: سُفْيَانُ بْنُ لَيْلَى، وَهُوَ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ فَدَخَلَ عَلَى الحَسَنِ عليه السلام وَهُوَ مُحْتَبٍ فِي فِنَاءِ دَارِهِ، فَقَالَ لَهُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مُذِلَّ المُؤمِنِينَ، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ عليه السلام: إنْزِلْ وَلا تَعْجَلْ، فَنَزَلَ فَعَقَلَ رَاحِلَتَهُ فِي الدَّارِ، ثُمَّ أَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى انْتَهَى إلَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ عليه السلام: مَا قُلْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا مُذِلَّ المُؤمِنِينَ، قَالَ: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: عَمَدْتَ إلَى أَمْرِ الأمَّةِ فَحَلَلْتَهُ مِنْ عُنُقِكَ وَقَلَّدْتَهُ هَذِهِ الطَّاغِيَةَ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، قَالَ: فَقَالَ الحَسَنُ عليه السلام: سَأُخْبِرُكَ لِمَ فَعَلْتُ ذَلِكَ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لَنْ تَذْهَبَ الأيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَلِيَ عَلَى أُمَّتِي رَجُلٌ وَاسِعُ البُلْعُومِ، رَحْبُ الصَّدْرِ، يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ، فَلِذَلِكَ فَعَلْتُ...**». وبهذا الإسناد رواها الشيخ الكشّي رحمه الله في رجاله ١/ ٣٢٧. وفي لفظ ميزان الإعتدال ٢/ ١٧٢، ولسان الميزان ٣/ ٥٤: «**وَاسِعُ الصُّرْمِ، يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ.**» وفي المصادر الأخرى: «**وَاسِعُ السُّرْمِ**» والسُّرْمُ: الدُّبر.

راجع ترجمته في: أسد الغابة ١/ ٣٨٥، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٤٦٢، الإصابة لابن حجر ٢/ ٣٢، الإستيعاب لابن عبد البرّ ١/ ٣٢٩، تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢٠٧، الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٢١٧.

(٢) عَمْرو بنُ الحَمِقِ بْنِ الكَاهِنِ بْن حَبِيبِ بنِ عَمْرِو بنِ رَبِيعَةَ بنِ كَعْبٍ، الخُزَاعِيّ، الكَعْبِيّ، ـ والحَمِقُ: الخَفيفُ اللِّحية. لسان العرب ١٠/ ٦٩ـ صحب النبيَّ صلى الله عليه وآله وشهد بدراً، وحفظ عنه أحاديث، وحظي بدعائه صلى الله عليه وآله له لما سقاه لبناً، بقوله: «**اللَّهُمَّ أَمْتِعْهُ بِشَبَابِهِ**» فاستكمل الثَّمانين من

⇦

⇦

عمره ولم يرَ شعرة بيضاء، أخرج حديثه البخاريّ في التّعاليق، وابن ماجة والنسائي وغيرهم، سكن الكوفة، ثم كان ممَّن قام على عثمان مع أهلها، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه، وله يوم صفِّين مواقف مشكورة.

وله كلمة قيّمة خالدة مع الأبد تعرب عن إيمانه الخالص، لأمير المؤمنين عليه السلام: والله ما جئتك لمال من الدُّنيا تعطينيها، ولا لالتماس السُّلطان ترفع به ذِكري، إلاَّ لأنَّك ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأولى النَّاس بالنَّاس، وزوج فاطمة سيِّدة نساء العالمين، وأبو الذرِّية الَّتي بقيت لرسول الله صلى الله عليه وآله، وأعظم سهماً للإسلام من المهاجرين والأنصار. والله لو كلَّفتني نقلَ الجبال الرَّواسي ونزحَ البُحور الطَّوامي أبداً حتَّى يأتي عليَّ يومي، وفي يدي سيفي أهزُّ به عدوَّك وأقوِّي به وليَّك، ويُعلي به اللهُ كعبَك ويُفلج به حُجَّتك، ما ظننتُ أنِّي أدَّيتُ من حقِّك كلَّ الحقِّ الَّذي يجب لك عليَّ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**اللَّهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ، وَاهْدِهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم، لَيْتَ أَنَّ فِي شِيعَتِي مِائَةً مِثْلَكَ.**» بحار الأنوار ٣٤/ ٢٧٦.

وهو معدود في أصحاب أبي محمَّد الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، ومن أعوان حُجر بن عَديّ سلام الله عليه وعليهم، قتله معاوية، وحُمل رأسه، وهو أوَّل رأسٍ حمل في الإسلام. قبره مشهور بظاهر الموصل يزار. أنظر: الإستيعاب ٣/ ١١٧٣، الإصابة ٤/ ٥١٤، أسد الغابة ٤/ ١٠٠، تهذيب الكمال ٢١/ ٥٩٦، تاريخ ابن عساكر ٤٥/ ٤٩٠، الغدير ٩/ ٤٥، معجم رجال الحديث للسيّد الخوئي ١٤/ ٩٦.

(١) سَعيدُ بنُ قَيْسٍ الهَمْدَاني، من المخلصين لأمير المؤمنين عليه السلام من طائفة هَمْدَان، وقد جعله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أميراً عليهم في الجمل، وصفّين. أشخصه الإمام عليه السلام إلى الأنبار بعد معركة صِفِّين لصدّ الغارات التي كان يشنّها سفيان بن عوف. وله الكلمة الخالدة التي أظهر فيها انقياده التّام لأمير المؤمنين عليه السلام بمعيّة حُجر بن عديّ، فقالا: لا يسوءك الله يا أمير المؤمنين، مُرنا بأمرك نتَّبعه، فوالله العظيم ما يعظم جزعنا على أموالنا أنْ تُفرَّق، ولا على عشائرنا أن تُقتَّل في طاعتك. الغارات ٢/ ٤٨١. وله أيضاً المواقف المحمودة في المواطن الكثيرة، وكان الإمام عليه السلام يثني عليه، منه قوله صلوات الله عليه:

يَقُودُهمُ حَامِي الحَقِيقَةِ مَاجِدٌ سَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، وَالْكَرِيمُ مُحَامِ

وكان من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام، وبعثه الإمام عليه السلام ليخلف قيس بن سعد في قيادة الحرب ضدّ معاوية. مدحه الكشّي بقوله: من الـ مين الكبار ورؤسائهم وزهّادهم. اختيار معرفة الرّجال ١/ ٢٨٦. تُوفِّي سعيد بن قيس حوالي سنة ٤١ هـ.

وحَبيبِ بنِ مُظَـــاهِرٍ الأَسَديّ(١)، وعَـــدِيّ بـــنِ حَـاتِـم الطَّـــائي(٢)، والمُسَيَّب

(١) حَبيبُ بنُ مُظَاهِرِ بْنِ رِئَابٍ، الأَسَديّ، الفَقْعَسِيّ، أَبُو القَاسِم، ـ وفي الإصابة ٢/ ١٤٢، أنّه أدرك النّبيّ صلى الله عليه وآله. نزل الكوفة، وصحب عليّاً عليه السلام في حروبه كلّها، وكان من خاصّته وحملة علومه. ومن شُرْطَة الخميس.

وروى الكشّي عن فضيل بن الزُّبير قال: مرَّ ميثم التمّار على فرس له، فاستقبله حبيب بن مظاهر الأسديّ عند مجلس بني أسد، فتحادثا حتى اختلفت عنقا فرسيهما، ثم قال حبيب: لكأنّي بشيخ أصلع، ضَخم البَطن، يبيع البِطّيخ عند دار الرِّزق، قد صُلب في حبِّ أهل بيت نبيِّه، فتُبقر بطنه عن الخشبة، فقال مِيثم: وإنّي لأعرف رجلاً أحمر له ضفيرتان، يخرج لنصرة ابن بنت نبيِّه فيُقتل، ويجال برأسه في الكوفة، ثمَّ افترقا. فقال أهل المجلس: ما رأينا أكذب من هذين، قال: فلم يفترق المجلس حتى أقبل رُشَيد الهَجَري فطلبهما، فقالوا: افترقا وسمعناهما يقولان: كذا وكذا، فقال رُشَيد: رحم الله مِيثماً نَسي: ويزاد في عطاء الّذي يجيء بالرّأس مائة درهم، ثم أدبر. فقال القوم: هذا والله أكذَبُهم. قال: فما ذهبت الأيّام واللّيالي حتى رأينا مِيثماً مصلوباً على باب عَمْرو بن حُرَيث، وجيء برأس حبيب بن مظاهر قد قُتل مع الحسين عليه السلام ورأينا ما قالوا. رجال الكشّي ١/ ٢٩٢.

وكان ممَّن كاتب الحسين عليه السلام وأبدى ولائه لأبي عبد الله عليه السلام حين ورود مسلم بن عقيل إلى الكوفة وكان حبيب يأخذ البيعة للحسين عليه السلام في الكوفة، ولما نزل الحسين عليه السلام كربلاء سار إليه مختفياً والتحق به. وكان معظّماً عند الحسين وأهل بيته، وذلك لجلالة قدره وعلوِّ منزلته، وقد جعله الحسين عليه السلام على ميسرة أصحابه عند التَّعبئة للقتال، وجاهد مستميتاً إلى أن قتل، واحتَزَّ رأسَه التَّميميّ، فَهَدَّ مقتلُه الحسين عليه السلام ووقف عليه وقال: «**عِنْدَ اللهِ أَحْتَسِبُ نَفْسِي وَحُمَاةَ أَصْحَابِي**». بحار الأنوار ٤٥/ ٢٦.

(٢) عَدِيُّ بنُ حَاتِمِ بنِ عَبدِ الله بنِ سَعْدٍ الطَّائيّ، أَبُو طَرِيف، صحابيٌّ عظيم، قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله سنة (٧ هـ) لم يختلف اثنانَ في ثقته، أخرج حديثه أئمة الصِّحاح السِّت، ولازم بعده أمير المؤمنين عليه السلام وشَهد معه الجمل وصفّين، وذهبت إحدى عينيه يوم الجمل، وقُتِل له ثلاثة من أبنائه يوم صِفِّين، أَسماؤهم: «طَرِيف» و«طَرَفة» و«مُطَرِّف». يقال لهم «الطَّرَفات». وكان يذكر الإمام عليه السلام في مناسبات مختلفة ويثني عليه ولم يتنازل عن موقفه الحقِّ أمام معاوية. تُوفِّي حوالي سنة ٦٨ هـ زمن المختار، وله من العمر مائة وعشرون سنة.

هذا وليعلم أنه في الكامل لابن الأثير ٤/ ٢٤٢، نسب إليه كذباً، شفاعته في حكيم بن طُفيل الطَّائي الملعون المشترك في مقتل الحسين الشَّهيد عليه السلام والّذي أصاب سلب العبَّاس بن عليٍّ عليه السلام، وهو مكذوب عليه، إذ كيف يُعقل برجل له مثل هذه السَّابقة الواضحة وثبات القدم أن يشفع في قاتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله.

أنظر ترجمته: الإستيعاب ٣/ ١٠٥٧، الإصابة ٤/ ٣٨٨، الطبقات الكبرى ٦/ ٢٢، تهذيب الكمال ⇐

بن نَجِيَّة(١)، وزِيَاد بن صَعْصَعَة(٢)، وآخرين من هذا الطِّراز.

أمّا الطَّوارئ المستعجلة المعاكسة، والأصابع المأجورة الهدّامة، فقد كانت تعمل دائماً، لتغلب هذه القابليّات، ولتغير من هذا التقدير.

ولم يخف على الحسن عليه السلام ما كانت تتمخَّض عن لياليه الحُبالى في الجوّ المسحور بشتَّى النزعات، والمتكهرب بشواجر الفتن وألوان الدَّعوات. وكان لا بدَّ له ـ وهو في مطلع خلافته ـ أنْ يعالن النّاس بخطّته وأنْ يصارحهم عن موقفه، وأن يستملي خطّته

⇦

للمزّي ١٩/ ٥٢٤، معجم رجال الحديث للسيِّد الخوئي رحمه الله ١٢/ ١٤٧.

(١) المُسَيَّبُ بنُ نَجَبَةَ بنِ رَبِيعةَ بنِ رِيَاحٍ، الفَزَارِيُّ، الكُوفيّ، وضبطه البعض: ـ المُسَيَّبُ بنُ نَجِيَّة ـ شهد القادسيّة، وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه مشاهده، وصحب الحسن عليه السلام وهو أحد أمراء التوَّابين يوم عين الوردة، وقتل بها سنة ٦٥ هـ.

أنظر: طبقات بن سعد ٦/ ٢١٦، تاريخ ابن عساكر ٥٨/ ١٩٣، تهذيب الكمال ٢٧/ ٥٨٩، الإصابة ٦/ ٢٣٤، قاموس الرِّجال ١٠/ ٧٨.

(٢) زِيَادُ بنُ صَعْصَعَةَ، التَّميميّ، اختُلف في ضبط اسم أبيه ونسبته، ففي البحار ٩/ ١١١: «زياد بن حفصة التميمي»، وفي تاريخ الطبري ٣/ ٤٦٥، والإصابة ٢/ ٤٨١ وغيرهما: «زياد بن حنظلة التميمي»، وفي «زياد بن حصفة التيمي» وفي شرح النهج ١٦/ ٣٩: «زياد بن صعصعة التيمي»، فأيٍّ كان فهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وفي الإستيعاب ٢/ ٥٣١، وأسد الغابة ٢/ ٢١٣: بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قيس بن عاصم والزّبرقان بن بدر ليتعاونوا على مسيلمة الكذّاب، وطُلَيْحَة، والأسود، وقد عمل لرسول الله صلى الله عليه وآله. انتهى، وفي الإصابة ٢/ ٤٨٢: وكان أميراً في وقعة اليرموك. انتهى

إنقطع إلى أمير المؤمنين عليه السلام وكان مرضيّاً عنده، شهد معه مشاهده كلَّها، (أنظر المصادر المتقدِّمة) ثمَّ ثبت بعده مع الإمام الحسن عليه السلام وهو من الّذين قاموا بعد عَديّ بن حَاتِم ولاموا النَّاس وأنّبوهم في عدم إجابتهم الحسن المجتبى عليه السلام في جهاد معاوية، فقال لهم الحسن عليه السلام: «**صَدَقْتُمْ رَحِمَكُمُ اللهُ، مَا زِلتُ أعْرِفُكُمْ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالوَفَاءِ وَالقَبُولِ وَالمَوَدَّةِ الصَّحِيحَةِ فَجَزَاكُمُ اللهُ خَيْرَاً**». مقاتل الطّالبين / ٣٩.

من صميم ظروفه وملابساتها في الدَّاخل والخارج معاً.

وكان معاوية هو العدوَّ «الخارج» الّذي يشغل بال الكوفة بما يكيده لها من أنواع الكيد، وبما يتمتّع به من وسائل القوَّة والإستقرار في رقعته من بلاد الشَّام. وما كان معاوية بالعدوِّ الرَّخيص الّذي يجوز للحسن عليه السلام، أن يَتغاضى عن أمره، ولا بالَّذي يأمن غوائله لو تغاضى عنه، وكان الحسن ـ في حقيقة الواقع ـ أحرص بشرٍ على سحق معاوية والكيل له بما يستحقّ، لو أنَّه وجد إلى ذلك سبيلاً من ظروفه.

وأمّا في «الدَّاخل» فقد كان أشدَّ ما يسترعي اهتمام الإمام عليه السلام موقف المعارضة المركزة، القريبة منه مكاناً، والبعيدة عنه روحاً ومعنىً وأهدافاً.

ولقد عزَّ عليه أن يكون بين ظهرانيِّ عاصمته، ناس من هؤلاء النَّاس، الّذين استأسدت فيهم الغرائز، وأسرفت عليهم المطامع، وتفرَّقت بهم المذاهب، وأصبحوا لا يعرفون للوفاء معنىً، ولا للدِّين ذمَّةً، ولا للجوار حقّاً. نشزوا بأخلاقهم، فإذا بهم آلة مسخّرة للإنتقاض والغدر والفساد، ينعقون مع كلِّ ناعق ويهيمون في كلِّ واد. ولا يكاد يلتئم معهم ميدان سياسة ولا ميدان حرب. وحسبك من هذا مثار قلق ومظنّة شغب وباعث مخاوف مختلفات.

وهكذا كان للعراق ـ منذ القديم ـ قابليّة غير عاديّة لهضم المبادئ المختلفة والإنتفاضات الثَّوريّة العاتية باختلاف المناسبات.

وللحسن في موقفه الممتحن من هذه الظّروف، عبقريّاته الّتي كانت على الدَّوام بشائر ظفر لامع، لولا ما فُوجِئ به من نكسات مروِّعات كانت تنزل على موقفه كما ينزل القضاء من السَّماء.

وتنبّأ لكثير من الحوادث قبل وقوعها، وكان يمنعه الإحتياط للوضع، من الإصحار بنبوءته، فيلمح إليها إلماحاً. وعلى هذا النَّسق جاءت كلمته اللّبقة الغامضة،

الّتي اقتبسها من الآي الكريم، والّتي قصد لها الغموض عن إرادةٍ وعمدٍ، وهي قوله في خُطبته الأولى ـ يوم البيعة ـ : «**إنّي أرَى مَا لا تَرَوْنَ**».(١)

تُرى، هل كان بين يديه يومئذٍ، إلاّ المهرجانات النَّشيطة الّتي دلّت قبل كلِّ شيء، على عظيم إخلاص المجتمع لخليفته الجديد ؟ فما بالُ الخليفة الجديد لا يرى منهم إلاّ دون ما يرون ؟

---

(١) أقول: إنَّ قوله: «**إنّي أرَى مَا لا تَرَوْنَ**» ليس اقتباساً من الآية الكريمة / ٤٨ من سورة الأنفال، بل ولم يقصد الإمام الحسن عليه السلام معناها في المقام الّذي ذكره المصنّف، وإنّما أراد عليه السلام من ذكر الآية تحذير ناسه من الوقوع في ما وقع فيه الأوائل، من حبال إبليس وشراكه، وإليك نصّ الخطبة الشريفة:

عن هشام بن حسان، قال سمعت أبا محمد الحسن بن علي عليهما السلام يخطب الناس بعد البيعة له بالأمر، فقال: «**نَحْنُ حِزْبُ اللهِ الْغَالِبُونَ، وَعِتْرَةُ رَسُولِهِ الْأَقْرَبُونَ، وَأَهْلُ بَيْتِهِ الطَّيِّبُونَ الطَّاهِرُونَ، وَأَحَدُ الثَّقَلَيْنِ اللَّذَيْنِ خَلَّفَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فِي أُمَّتِهِ، والثَّانِيَ [التَّالي] كِتَابَ الله، فِيهِ تَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، فَالْمُعَوَّلُ عَلَيْنَا فِي تَفْسِيرِهِ، لا نَتَظَنَّى تَأْوِيلَهُ بَلْ نَتَيَقَّنُ حَقَائِقَهُ، فَأَطِيعُونَا فَإِنَّ طَاعَتَنَا مَفْرُوضَةٌ إِذْ كَانَتْ بِطَاعَةِ الله وَرَسُولِهِ مَقْرُونَةً، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾** [سورة النساء / ٥٩] **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾** [النساء / ٨٣] **وَأُحَذِّرُكُمُ الإِصْغَاءَ لِهُتَافِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَتَكُونُوا كَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ﴾ فَتَلْقَوْنَ إِلَى الرِّمَاحِ وَزَراً وَإِلَى السُّيُوفِ جَزَراً، وَلِلْعُمُدِ حِطَماً، وَلِلسِّهَامِ غَرَضاً، ثُمَّ ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾.**» أنظر: أمالي المفيد / ٣٤٩، أمالي الطوسي / ١٢١، الإحتجاج ٢/ ٢٢.

نعم مثل هذا القول ظاهر في كثير من كلماته عليه السلام منها حين طلب منه جماعة من شيعته عليه السلام العودة إلى حرب معاوية لأنّه نبذ العهود ولم يف بها شرط فقال لهم: ـ «**أَنْتُمْ شِيعَتُنَا وَأَهْلُ مَوَدَّتِنَا، وَلَوْ كُنْتُ بِالْحَزْمِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلِلدُّنْيَا أَعْمَلُ وَلِسُلْطَانِهَا أَرْبِضُ وَأَنْصَبُ، مَا كَانَ مُعَاوِيَةُ بِأَشَدَّ مِنِّي بَأْساً وَلا أَشَدَّ شَكِيمَةً وَلا أَمْضَى عَزِيمَةً، وَلَكِنِّي أَرَى غَيْرَ مَا رَأَيْتُمْ، وَمَا أَرَدْتُ بِمَا فَعَلْتُ إِلاّ حَقْنَ الدِّمَاءِ، فَارْضَوْا بِقَضَاءِ اللهِ، وَسَلِّمُوا لأَمْرِهِ، وَالْزَمُوا بُيُوتَكُمْ وَامْسِكُوا.**» تنزيه الأنبياء للسيِّد المرتضى ـ / ٢٢٣.

إنها النَّظرة البعيدة الّتي كانت من خصائص الحسن في سِلمه وفي حربه وفي صُلحه وفي سائر خطواته مع أعدائه ومع أصدقائه.

وعلى أنَّ الموسوعات التاريخيّة لم تعنِ بذكر الأمثلة الكثيرة الّتي يصحُّ اقتباسها كعرض تاريخيٍّ عن سياسة الحسن، ولا سيَّما في الدَّور الأوّل من عهده القصير، وهو الدَّور الّذي سبق إعلانه الجهاد في الكوفة، فقد كان لنا من النُّتَف الشَّوارد الّتي تسقّطناها من سيرته، ما زادنا وُثوقاً ببراعته السِّياسية الّتي لا مجال للرَّيب فيها. فقد اقتاد الوضع المترنِّح الّذي صحب عهده من أوَّله إلى آخره، قيادته الحكيمة الّتي لا يمكن أن تفضُلَها قيادةٌ أخرى لمثل هذا الوضع.

وليكن من أمثلة سياسته في قيادة ظُروفه قبل الحرب ما يلي:

١ـ أنّه وضع لبيعته صيغةً خاصَّةً، وقبض يدَه عمّا أريد معها من قيود، وأرادها هو على السَّمع والطَّاعة والحرب لمن حارب والسِّلم لمن سالم[1]. فكان عند ظنِّ المعجبين ببلاغته الإدارية، بما ذكر الحرب ولوّح بالسِّلم فأرضى الفريقين من أحزاب الكوفة ـ دعاة الحرب، والمعارضين ـ. وكان لديه من الوضع العام (في كوفته) ما يكفيه نذيراً لاتِّخاذ مثل هذه الحيطة الحكيمة لوقتٍ ما.

٢ـ أنَّه زاد المقاتلة مائةً مائةً، وكان ذلك أوَّل شيءٍ أحدثه حين الإستخلاف، فتبعه الخلفاء من بعده عليه[2].

---

(١) قال الطّبري في تاريخه ٤/ ١٢١: «إنَّ أوَّل من بايعه قيس بن سعد قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلّين، فقال له الحسن رضي الله عنه: «**عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ كُلِّ شَرْطٍ.**» فبايعه وسكت وبايعه النّاس.» وقال الشّيخ المفيد في الإرشاد ٢/ ٧: «ولما قبض أمير المؤمنين عليه السلام خطب النّاس الحسن عليه السلام وذكر حقّه، فبايعه أصحاب أبيه على حرب من حارب وسلم من سالم.»

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد (ج٤: ص١٢) [١٦/ ٣٣ عن مقاتل الطالبيين / ٣٤].

⇦

وللإنعاش في ترفيع مخصّصات الجيش سلطانه المحبَّب على النُّفوس، وله أثره في تأليف العدد الأكبر من النّاس للخدمة في الجهاد.

وكانت ظاهرةً تحتمل الإستعداد للحرب، ولكنّها ـ مع ذلك ـ غير صريحة بالتَّصميم عليه، ما دامت ظاهرة إنعاش في عهد جديد. وهي على هذا الأسلوب، من التصرُّفات الّتي تجمع الكلمة ولا تثير خلافاً، في حين أنها استعدادٌ حكيم للمستقبل الّذي قد يَضطرُّه إلى حرب قريبة.

٣ـ أنَّه أمر بقتل رجلين كانا يتجسَّسان لعدوِّه عليه. وهدَّد بتنفيذ هذا الحكم روح الشَّعب الّتي كان يستجيب لها عناصر كثيرة في المصرين (الكوفة والبصرة). قال المفيد رحمه الله: «فلمّا بلغ معاوية وفاةُ أمير المؤمنين وبيعة النّاس ابنه الحسن، دسَّ رَجلاً من حِمْير إلى الكوفة، ورجلاً من بني القين إلى البصرة، ليكتبا إليه بالأخبار، ويُفسِدا على الحسن الأمور. فعرف بذلك الحسن، فأمر باستخراج الحِميري من عند لحَّام بالكوفة، فأُخرِج، وأمر بضرب عنقه. وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم، فأُخرِج وضُربت عنقه»[1]

وروى أبو الفرج الأصفهاني نحواً مما ذكره المفيد، ثم قال: «وكتب الحسن إلى معاوية: «**أمّا بَعْدُ، فَأنْتَ دَسَسْتَ إليَّ الرِّجَالَ، كَأنَّكَ تُحِبُّ اللِّقَاءَ، لا أشُكُّ فِي ذَلِكَ، فَتَوَقَّعْهُ إنْ شَاءَ اللهُ، وَبَلَغَنِي أنَّكَ شَمِتَّ بِمَا لَمْ يَشْمَتْ بِهِ ذَوُو الحِجَى** (يشير إلى ما تظاهر به معاوية من الفرح بوفاة أمير المؤمنين عليه السلام)، **وَإنَّمَا مَثَلُكَ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ الأوَّلُ:**

⇨

(المؤلّف رحمه الله).

(١) الارشاد (ص ١٦٨) [٢/ ٩] والبحار [٤٤/ ٤٥] وكشف الغمة [٢/ ١٦١]. (المؤلّف رحمه الله).
أيضاً أنظر: مقاتل الطالبيين / ٣٣.

فَإنّا وَمَنْ قَدْ مَاتَ مِنَّا لَكَالَّذِي يَرُوحُ وَيُمْسِي فِي المَبِيتِ لِيَغْتَدِي
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي الخِلافَ الَّذِي مَضَى تَجَهَّزْ لأخْرَى مِثْلِهَا فَكَأنْ قَدِ»[1]

٤ ـ تمهُّلُه عن الحرب رَغْم إلحاح الأكثرين ممّن حوله على البدار إليها، منذ تسنُّمه الحكم في الكوفة. وسنأتي في «الفصل ٥»[2] الّذي ستقرؤه قريباً، على تحليل الموقف السياسي يوم ذاك، وسنرى هناك، أنَّ هذا التمهُّل المقصود كان هو التَّدبير الوحيد في ظرفه.

٥ـ استدراجه معاوية من طريق التبادل بالرّسائل، إلى نسيان موقفه المتأرجِح الّذي لم تقوَ على دعمه الدّعاوي الفارغة الكثيرة، فإذا بإضمامة من الغلطات هي أجوبة معاوية للحسن وهي الّتي كشفت للنّاس معاوية المجهول، ومهّدت للحسن معذرته تجاه الرّأي العام في حربه لمعاوية، وإذا بمعاوية الفريق المغلوب في منطق العقلاء، وإن يكن الغالب بعد ذلك في منطق القوّة.

ومَثَلٌ واحد من هذه التَّدابير اللَّبقة الّتي أملى فيها الحسن خطَّته السياسيَّة في العهد القصير، بين وفاة أبيه عليه السلام وبين تصميمه على الحرب، كافٍ عن كثير.

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٣.

(٢) في الفصل الآتي .

التَّصْمِيمُ عَلَى الْحَرْبِ

ودلّ التَتبُّع في مختلف الفترات التاريخيّة، على أنَّ لانتصار الدِّين في المجتمع شأناً كبيراً في تدرُّج الأخلاق. ذلك لأنَّ الشُّعوب تنطبع على غِرار قادتها، وتُكيَّف بأهداف قوانينها. ولو لم يكن للدِّين إلاّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وتنزيه النَّفس عن الطّمع بالمادّة، لكفى.

أمّا هذا النّفر من بقايا الجاهليّة، فقد كانوا ـ كغيرهم من دعاة الطّبقيّة ـ مطبوعين على المحافظة والتمسُّك بعادات الآباء والجدود والنُّظم البالية والأوضاع الظالمة. وكانوا من الدِّين الجديد خصومه الألدّاء في إبّان دعوته، ثم نظروا إليه كوسيلة إلى الدُّنيا، إبَّان اعتناقهم له.

وضاعت تحت ظلِّ هذه النَّوازع أهداف الدِّين، وخسر المجتمع تدرُّجه إلى الصّلاح المنشود، فإذا بالنَّاس عند مطامع الدُّنيا «**وَالدّينُ لَعْقٌ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ ما دَرَّتْ مَعائِشُهُمْ، فَإِذا مُحِّصُوا بِالْبَلاءِ قَلَّ الدَّيّانُونَ**»[1]

ولآل محمَّد عليهم السلام رسالتهم الّتي لا يتراجعون عنها، لإنقاذ النّاس لا لنفع أنفسهم، ولإقامة حامية الدِّين لا إقامة عروشهم، وصيانة المعنويّات لا صيانة ذاتيّاتهم.

فإذا كان معاوية لا يزال يعاند هذه الأهداف ويحارب المنادين بها، ثم يظلُّ منفرداً عن المسلمين ببغيه وعدوانه، مأخوذاً بشهوة الحكم مأسوراً بحبِّ الإستئثار في مشاعره

---

(١) من غرر كلمات سيّد الشّهداء أبي عبد الله الإمام الحسين عليه السلام وكلّ كلماته غرر، قالها في مسيره إلى كربلاء وحين نزوله فيها. أنظر: بحار الأنوار ٤٤/ ٣٨٣، تحف العقول / ٢٤٥، كشف الغمّة ٢/ ٢٤١.

ومذاهبه، فَلْيَسِرِ الحسن إليه بالمسلمين، وليحاكمه إلى الله، وكفى بالله حَكَماً.

قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان أوّل شئ أحدثه الحسن عليه السلام أنه زاد المقاتلة مائةً مائةً. وقد كان عليٌّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل. وفعله الحسن حال الإستخلاف، فتبعه الخلفاء من بعده في ذلك.

قال: وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدي: «مِنَ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، سَلامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ بَعَثَ مُحَمَّداً رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وِمِنَّةً لِلْمُؤمِنِينَ، وَكَافَّةً لِلْنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيَّاً وَيُحِقَّ القَوْلَ عَلَى الكَافِرِينَ، فَبَلَّغَ رِسَالاتِ اللهِ، وَقَامَ بِأَمْرِ اللهِ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ غَيرَ مُقَصِّرٍ وَلا وَانٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ اللهُ بِهِ الحَقَّ، وَمَحَقَ بِهِ الشِّرْكَ.

وَخَصَّ بِهِ قُرَيْشَاً خَاصَّةً، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]. فَلَمَّا تُوُفِّيَ، تَنَازَعَتْ سُلْطَانَهُ العَرَبُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نَحْنُ قَبِيلَتُهُ وَأُسْرَتُهُ وَأَوْلِيَاؤُهُ، وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُنَازِعُونَا سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ وَحَقَّهُ. فَرَأَتِ العَرَبُ أَنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ قُرَيْشٌ وَأَنَّ الحُجَّةَ فِي ذَلِكَ لَهُمْ عَلَى مَنْ نَازَعَهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ. فَأَنْعَمَتْ لَهُمْ وَسَلَّمَتْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ حَاجَجْنَا نَحْنُ قُرَيْشَاً بِمِثْلِ مَا حَاجَجَتْ بِهِ العَرَبُ، فَلَمْ تُنْصِفْنَا قُرَيْشٌ إِنْصَافَ العَرَبِ لَهَا. إِنَّهُمْ أَخَذُوا هَذَا الأَمْرَ دُونَ العَرَبِ بِالإِنْصَافِ وَالإِحْتِجَاجِ، فَلَمَّا صِرْنَا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وَأَوْلِيَاءَهُ إِلَى مُحَاجَّتِهِمْ، وَطَلَبِ النَّصَفِ مِنْهُمْ، بَاعَدُونَا وَاسْتَوْلَوْا بِالإِجْتِمَاعِ عَلَى ظُلْمِنَا وَمُرَاغَمَتِنَا وَالعَنَتِ مِنْهُمْ لَنَا، فَالمَوْعِدُ اللهُ، وَهُوَ الوَلِيُّ النَّصِيرُ.

وَلَقَدْ كُنَّا تَعَجَّبْنَا لِتَوَثُّبِ المُتَوَثِّبِينَ عَلَينَا فِي حَقِّنَا وَسُلْطَانِ بَيْتِنَا، وَإِذْ كَانُوا ذَوِي فَضِيلَةٍ وَسَابِقَةٍ فِي الإِسْلامِ، أَمْسَكْنَا عَنْ مُنَازَعَتِهِمْ مَخَافَةً عَلَى الدِّينِ أَنْ يَجِدَ المُنَافِقُونَ

---

(١) سورة الزُّخرف / ٤٤.

وَالأحْزَابُ فِي ذَلِكَ مَغْمَزاً يَثْلِمُونَهُ بِهِ، أَوْ يَكُونُ لَهُمْ بِذَلِكَ سَبَبٌ إِلَى مَا أَرَادُوا مِنْ إفْسَادِهِ.

فَالْيَوْمَ فَلْيَتَعَجَّبِ الْمُتَعَجِّبُ مِنْ تَوَثُّبِكَ يَا مُعَاوِيَةُ عَلَى أَمْرٍ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ، لا بِفَضْلٍ فِي الدِّينِ مَعْرُوفٍ، وَلا أَثَرٍ فِي الإِسْلامِ مَحْمُودٍ، وَأَنْتَ ابْنُ حِزْبٍ مِنَ الأَحْزَابِ، وَابْنُ أَعْدَى قُرَيْشٍ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلِكِتَابِهِ. وَاللهُ حَسِيبُكَ فَسَتَرِدُ عَلَيْهِ وَتَعْلَمُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ.

وَبِاللهِ لَتَلْقِيَنَّ عَنْ قَلِيلٍ رَبَّكَ، ثُمَّ لَيَجْزِيَنَّكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ. وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

إِنَّ عَلِيّاً لَمَّا مَضَى لِسَبِيلِهِ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ يَوْمَ قُبِضَ وَيَوْمَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالإِسْلامِ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً، وَلاَّنِي الْمُسْلِمُونَ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ. فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ لا يُؤْتِيَنَا فِي الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ شَيْئاً يُنْقِصُنَا بِهِ فِي الآخِرَةِ مِمَّا عِنْدَهُ مِنْ كَرَامَةٍ. وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى الكِتَابَةِ إِلَيْكَ، الإِعْذَارُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَمْرِكَ، وَلَكَ فِي ذَلِكَ إِنْ فَعَلْتَهُ الحَظُّ الجَسِيمُ والصَّلاحُ لِلْمُسْلِمِينَ.

فَدَعِ التَّمَادِيَ فِي البَاطِلِ، وَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ مِنْ بَيْعَتِي، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحَقُّ بِهَذَا الأَمْرِ مِنْكَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ مُنِيبٌ، وَاتَّقِ اللهَ، وَدَعِ البَغْيَ، وَاحْقِنْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَاللهِ مَا لَكَ خَيْرٌ فِي أَنْ تَلْقَى اللهَ مِنْ دِمَائِهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ لاَقِيهِ بِهِ. وَادْخُلْ فِي السِّلْمِ وَالطَّاعَةِ، وَلا تُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ، لِيُطْفِئَ اللهُ النَّائِرَةَ بِذَلِكَ وَيَجْمَعَ الكَلِمَةَ وَيُصْلِحَ ذَاتَ البَيْنِ.

وَإِنْ أَنْتَ أَبَيْتَ إِلاَّ التَّمَادِيَ فِي غَيِّكَ سِرْتُ إِلَيْكَ بِالْمُسْلِمِينَ فَحَاكَمْتُكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ»[1]

ولقد تَرى ما ينكشف عنه كتاب الحسن عليه السلام في خواتيمه، من التَّهديد الصَّريح بالحرب. وكان لا مناص للحسن من اتّباع هذه الطَّريقة فيما يُفضي به إلى معاوية، حين

(١) ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٢) [١٦/ ٣٣، عن مقاتل الطالبيين / ٣٥]. (المؤلّف رحمه الله)

يطلب إليه: أنْ يدع التّمادي في الباطل، وأن يدخل فيما دخل فيه النّاس من بيعته. وهي الطَّريقة السِّياسيَّة الحكيمة الّتي يقصد بها إضعاف الخصم عن المقاومة بإضعاف عزمه.

ثم هو لا يقول له ذلك إلاّ بعد أن يقيم عليه الحُجَّة بما سبق من حِجَاجهم لقريش.

فدعاه مُرشداً، وتوعَده مُهدِّداً، ثم أنذره الحرب صَريحاً.

واتّبع خطة أبيه معه. وما كان الحسن في ما أحيط به من ظروف، وفي ما مُني به من أعداء، إلاّ ممثّل أبيه حقّاً، حتى لكأن قطعة من الزّمن كانت من عهد أمير المؤمنين، تأخّرت عن حياته فإذا هي عهد ابنه الحسن في الكوفة.(١) وكما كانت الحرب ضرورةً لا مفرَّ منها، في عهد الأب الرّاحل عليه السلام، كانت كذلك ضرورةً لا يُغني عنها شيءٌ في عهد الإبن القائم على الأمر.

وكان مما يَزين الخلافة الجديدة، أن تَزهو في فُتوَّتها بما تملكه من قوَّةٍ وسلطان، ولن يتمّ ذلك إلاّ بأن تضرب على أيدي العابثين، لتبعث الهيبة في النُّفوس، وتشقَّ طريقها إلى الإستقرار لتقبض على نواصي الأمُور. فلا عجب إذا جاء كتاب الحسن هذا صريحاً في تهديده، شديداً في وعظه، قويّاً في لغته الآمرة النّاهية «**وَاتَّقِ اللهَ، وَدَعِ البَغْيَ، وَاحْقِنْ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ. فَوَاللهِ مَا لَكَ خَيرٌ فِي أنْ تَلْقَى اللهَ مِنْ دِمَائِهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا أنْتَ لاقِيهِ بِهِ. وَادْخُلْ فِي السِّلْمِ وَالطَّاعَةِ، وَلا تُنَازِعَ الأمْرَ أهْلَهُ وَمَنْ هُوَ أحَقُّ بِهِ مِنْكَ...**»

---

(١) أقول: لا غرو أن يحظى الحسن عليه السلام بهذه المثلية وهو الّذي قال في حقّه أبوه عليه السلام: «**وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي وَكَأَنَّ المَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي**» نهج البلاغة ٣/ ٣٨، الكتاب: ٣١.

أمّا الشّعار الأُمويّ في الشّام، فقد ظلّ مغاضباً للخلافة الهاشميّة في الكوفة، متنمّراً على بيعة الحسن تنمُّره على بيعة أبيه من قبل. ولم تجد معه الرّسائل المناصحة المصارحة، ولا كبحت من جموحه أساليبها الحكيمة وحُجَجها الواضحة. ونحن إذا تصفّحنا ما وصل إلينا من رسائل الحسن عليه السلام إلى معاوية، لم نجد فيها كلمةً تستغرب من مثله، أو تتجاوز حدَّ الحُجّة الّتي تنهض بحقّه فيما فرضه الله من مودّة أهل البيت عليهم السلام[1]، وفيما سجّله «الكتاب» من الحُكم بطهارتهم من الرِّجس[2]، أو لوّح إليه من ولايتهم على النّاس[3]، وبما صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نصوص الإمامة وتعيين الإمام، وبالدّعوة ـ أخيراً ـ إلى الطّاعة وحَقن الدِّماء وإطفاء النّائرة وإصلاح ذات البين.

أمّا رسائل معاوية إلى الحسن، فقد رأيناها تأخذ ـ على الغالب ـ بأعراض الموضوع دون جوهريّاته، وتفزع في الكثير من مضامينها إلى نبش الدّفائن وتأريث النّعرات الخطرة بين الإخوان المسلمين.

ومن الحقّ أن نعترف لمعاوية بسبقه استفزاز «الشُّعور الطّائفيّ» لأوّل مرّةٍ في

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ سورة الشُّورى / ٢٣.

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ سورة الأحزاب / ٣٣.

(٣) كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ سورة النّساء / ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ سورة النِّساء / ٨٣.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ سورة المائدة / ٥٥.

تاريخ الإسلام. بما كان يقصد إليه من طريق نبش هذه الدَّفائن، وتأريث هذه النَّعرات. فكان بذلك أوَّل داعٍ إلى فصم الوحدة الّتي بني عليها دين التَّوحيد، والّتي هي ـ بحقٍّ ـ جوهر إصلاحه وسِرّ نجاحه بين الأديان.

وكأن معاوية حين عجز عن اصطياد المغفَّلين من النّاس، عن طريق نفسه أو عن طريق أبيه «أبي سُفْيَان بن حَرْب»[1] ـ ولهذين الطَّريقين سوابقهما المعروفة لدى المسلمين بأرقامها وتواريخها ـ رفع عقيرته في رسائله إلى الحسن، باسم أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ولوّح فيها بخلاف أهل البيت عليهم السلام على بيعة أبى بكر...[2]

وكانت ـ رسائل معاوية ـ بجملتها لا يَنقُصُها في الموضوع الّذي أُبرِدت لأجله إلاّ الحجّة لإثبات الحقِّ الشَّرعيّ ـ عبر العرش المقدَّس ـ.

وحتى الشُّبهة المتخاذلة الّتي كان يصطنعها لمقارعة عليٍّ عليه السلام، في حروبه الطَّويلة الأمد، باسم الثَّأر لعثمان، قد طُويت صفحتها بموت الإمام الأوَّل، وها هو ذا تجاه الإمام الثَّاني، الّذي كان قد جَثَمَ[3] بنفسه على باب دار عثمان يوم مقتله، يدافع النّاس عنه، حتى لقد «خُضِّب بالدِّماء» كما يحدِّثنا به عامّة المؤرِّخين[4]، ويقول الطَّقطقي في

---

(١) صَخْرُ بنُ حَربِ بن أميَّةَ بنِ عبد شمسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، القُرَشيّ، الأموي، أبو سُفيَان، والد معاوية. حارب الرّسول صلى الله عليه وآله حتى غُلب على أمره في فتح مكة، تُوفِّيَ في صدر خلافة عثمان.

(٢) لم تكن طريقة معاوية في استقلاله الرّأي العام ـ خاصّة اهل الشَّام ـ المواكب هوى قريش، للخلاف على بني هاشم، جديدة على الإمام الحسن عليه السلام بل مورست هذه السياسة النّكراء على أمير المؤمنين عليه السلام سلفاً، إلا أنّ إصرار معاوية على إثارة هذه الخلافات الّتي حدثت بين أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر وعمر والحزب القرشي وتوريط الإمام الحسن عليه السلام فيها ما يرشد إلى خبث باطنه وقبح سريرته.

(٣) «جَثَمَ» أي: لَزِم مكانه فلم يبرح.

(٤) كثر على لسان الكثيرين وفي كتاباتهم أنّ الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام حضرا دار عثمان ودافعا ⇦

⇨

عنه النّاقمين عليه من المسلمين وقاتلا يومَها قتالاً مريراً . . ولكن حينما نخضع الموضوع للبحث والتّنقيب تظهر الصّورة الصّحيحة مغايرة لما يُدَّعى .

فنقول: منذ اندلاع الشّرارة الأولى على عثمان وكثرت المؤاخذات عليه، سعى أمير المؤمنينعليه السلام، للقيام بدور فاعل لحلّ الأزمة، حتّى لا تنتهي بما لا تحمد عقباه، وتوسّط صلوات الله عليه مرّات عديدة وقدّم النُّصح لعثمان، إلاّ أن الآخر لم يعبأ بكلّ الحلول الّتي قُدِّمت إليه لتفادي الأزمة، واستأثر بمروان على حياته وأمر الأمَّة، وفي نهج البلاغة ٢/ ٦٨، الخطبة: ١٦٤، من كلام لهعليه السلام لمَّا اجتمع النَّاس شكوا ما نقموه على عثمان وسألوه مخاطبته لهم واستعتابه لهم، فدخل عليه فقال: «**إنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وقَدِ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ، مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، ولا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لا تَعْرِفُه، إنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، ولا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا وسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا.**»

وكان أمير المؤمنينعليه السلام يجهد لحلِّ القضيَّة ولكن لا على حساب السُّكوت عن فساد الخليفة والسُّلطة والتَّغطية على جرائمه، بل كان يعتمد صلوات الله عليه على أساس صلاح الخلافة، وهذا ما يضمن تهدئة الأمور وسكون فورة الإحتجاجات على الخليفة، فكان يقولعليه السلام لعثمان في أيّام الثّورة ناصحاً إيّاه: «**النَّاسُ إِلَى عَدْلِكَ أَحْوَجُ مِنْهُمْ إِلَى قَتْلِكَ**» تاريخ الطَّبري ٣/ ٤٠٣.

هذا ولم يكن أمير المؤمنينعليه السلام بمعزل عن النّاقمين على عثمان سلوكه وتصرُّفاته، بل كان ينتقد عليه أفعاله وينقم عليه بذخه وسرفه، فمن كتابٍ لهعليه السلام إلى معاوية: «**وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً، فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْه إِرْشَادِي وهِدَايَتِي لَه، فَرُبَّ مَلُوم لا ذَنْبَ لَهُ، وقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ، ومَا أَرَدْتُ ﴿إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [سورة هودعليه السلام / ٨٨] » [نهج البلاغة ٣/ ٣٤، الكتاب: ٢٨]. وحين تعذَّرت الحلول وأفلست كلُّ جهود الإصلاح، وأبى الخليفة أن يفيئ إلى العدل والصَّلاح، خلّى أمير المؤمنينعليه السلام بينه وبين القوم، ورأى أنّ الدِّفاع عنه لا يخلو من إشكال، فكان يقولعليه السلام: «**وَاللهِ مَا زِلْتُ أَذُبُّ عَنْهُ حَتَّى إِنِّي لأَسْتَحْيِي**» تاريخ الطَّبري ٣/ ٤١٠، ويقولعليه السلام أيضاً: «**وَاللهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْه حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِماً**» نهج البلاغة ٢/ ٢٣٣، الخطبة: ٢٤٠.

فبعد أن أعذر صلوات الله عليه بالنُّذر، ورغب عثمان عن نصائحهعليه السلام المشفقة، لم يعد هناك مبرِّر لأن يستمرّ الإمامعليه السلام في دفع النَّاس عنه، وأن يرسل ولديه الإمامين الحسن والحسينعليهما السلام للذبِّ عنه. وحينها لم يبذل صلوات الله عليه أيَّ سعي للحيلولة دون قتله، ويشهد بذلك بعض كلماته، منها: «**لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ**

⇦

⇨

لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي» نهج البلاغة ١/ ٧٥، الخطبة: ٣٠.

فإنّ الإمام عليه السلام يصرِّح أنه لم يأمر ولم يُشر إلى أحدٍ بقتل عثمان، وكذلك لم ينه عن قتله، ويرى النّهي عنه نصرةً له غير جائزة. يقول ابن أبي الحديد: فأمّا قوله: «أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لا يَسْتَطِيعُ...»، فكلام معناه: أنَّ خاذليه كانوا خيراً من ناصريه، لأنَّ الّذين نصروه كان أكثرهم فُسّاقاً، كمروان بن الحكم وأضرابه، وخذله المهاجرون والأنصار. شرح نهج البلاغة ٢/ ١٢٨.

وكذلك قوله عليه السلام: «مَنْ كَانَ سَائِلاً عَنْ دَمِ عُثْمَانَ فَإِنَّ اللهَ قَتَلَهُ وَأَنَا مَعَهُ» المصنّف لابن أبي شيبة الكوفي ٨/ ٦٨٥.

يقول المحقّق السيِّد عليّ الشهرستاني: ما يُقال بأنّ عليّاً أرسل الحسن والحسين عليهما السلام للدّفاع عنه، فقد اختلف المؤرِّخون فيه . . فمنهم من شكّك في صحّة الخبر، ومنهم من نفاه عنه، وعلى فرض الصحّة، فعليُّ بن أبي طالب عليه السلام إنما أرسل ابنيه لإيصال الماء والغذاء إليه، وهذا خُلُق إسلاميٌّ لا يُستبعد صدوره من الإمام. عِلماً بأنَّ المستحقَّ للقتل أو الخلع، لا يحِلُّ منع الطّعام والشّراب عنه، وأنّ أمير المؤمنين لم يمنع أهل الشّام من الماء في صفّين مع تمكُّنه من منعهم. وعليه . . فقد تأكّد أنَّ الإمام كان من المجيزين لقتل عثمان وإن لم يكن من الدّاعين إلى ذلك. انتهى أنظر: وضوء النبي صلى الله عليه وآله ١/ ١١٠.

وليس الإمام الحسن عليه السلام ممّن يحتاج للبرهنة على شجاعته وبسالته إلى مثل هذه الأمور، بعد كونه فرع الدّوحة المحمّدية صلى الله عليه وآله. هذا ولو كانت نُصرة عثمان واجبةً لما اكتفى أمير المؤمنين عليه السلام بإرسال ولديه عليهما السلام خاصّةً دون أن يَنضمَّ هو أيضاً للذّب عنه، والقتال لأجله، وإنْ لم تكن فلا معنى لتعريض ريحانتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسيّدي شباب أهل الجنّة عليهما السلام للخطر، وهب أنّه أرسل الحسن والحسين عليهما السلام للقتال كما تزعمه تلكم الكتب، فأين من قُتل ذلك اليوم بسيفيهما؟ أو رجع وعليه جراحة من القتال معهما؟

وليست تخفى على المتتبّع البصير الجهات الّتي تستفيد من وضع وترويج مثل هكذا حكايات غرضها التغطية على حقيقة الخلافات الّتي كانت بين أهل البيت عليهم السلام والحكومات وقتئذٍ.

وهناك رواية أخرى تذكر حضور الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام عند باب دار عثمان لنصرته رواها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٩/ ٤١٥-٤١٩، عن محمد بن شهاب الزّهري قال: قلت لسعيد بن المسيّب: هل أنت مخبري كيف كان قتل عثمان؟ ما كان شأن الناس

⇦

⇦

وشأنه؟ ولم خذله أصحاب محمّد ﷺ؟ فقال: قُتل عثمان مظلوماً، ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً... وحاصر النّاس عثمان ومنعوه الماء فأشرف على النّاس فقال: أفيكم عليٌّ عليه السلام؟ فقالوا: لا، قال: أفيكم سعدٌ؟ قالوا: لا، قال: فسكت، ثمَّ قال: ألا أحدٌ يبلغ فيسقينا ماء، فبلغ ذلك عليّاً فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة فما كادت تصل إليه وجُرح في سببها عدَّة من موالي بني هاشم وبني أميّة حتى وصل الماء إليه، فبلغ عليّاً أنّ عثمان يُراد قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان، فأمّا قتل عثمان فلا، وقال: للحسن وللحسين إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه، وبعث الزُّبير ابنه، وبعث طلحة ابنه، وبعث عدَّة من أصحاب محمَّد ﷺ أبناءهم، يمنعون النَّاس أن يدخلوا على عثمان ويسألونه إخراج مروان، فلمّا رأى ذلك محمَّد بن أبي بكر ورمى النَّاس ـ عثمان ـ بالسِّهام حتى خضِّب الحسن بالدِّماء على بابه، وأصاب مروان سهمٌ وهو في الدّار، وخضّب محمد بن طلحة، وشجّ قنبر مولى عليٍّ ـ ثمّ يذكر كيفية مقتل عثمان ـ فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحاً فانكبُّوا عليه يبكون وخرجوا ودخل النّاس فرجدوه مذبوحاً وبلغ عليَّ بن أبي طالب الخبر وطلحة والزّبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الّذي أتاهم، حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا، وقال عليٌّ لابنيه: كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟! ورفع يده فلطم الحسنَ وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزُّبير وخرج عليٌّ وهو غضبان، فلقيه طلحة فقال: ما لك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟ فقال: عليك وعليهما لعنة الله إلا أن يسوؤني ذلك بقتل أمير المؤمنين رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بدري لم تقم عليه بينة ولا حجة...

وهذه رواية مختلقة، من وضع النَّواصب الأرجاس، إذ لو أغضينا النَّظر عن كلِّ ما فيها من العجائب والتناقضات، فلا يمكننا أن نغض النَّظر عن الإساءة الصّريحة لأمير المؤمنين عليه السلام وسيّدي شباب أهل الجنّة عليهما السلام، وأيُّ مسلم يقبل صدور مثل هذا الفعل منه صلوات الله عليه، أن يلطم الإمام الحسن عليه السلام ويضرب صدر الحسين عليه السلام ومن ثمَّ يقول لمن اعترض عليه بذلك: عليك وعليهما لعنة الله!! ولماذا لم يقاتل أمير المؤمنين عليه السلام ساعتها قتلة عثمان؟ نستجير بالله ونعوذ به من هذا الكلام المقيت.

وقال العلامة الشّيخ محمّد حسن بن الشيخ محمّد رضا آل ياسين في كتابه: الأئمّة الإثنا عشر ـ عليهم السلام سيرة وتاريخ ١/ ١٤٢، (سيرة الإمام الحسن عليه السلام): «أنَّ عليّاً كان ينقد سلوك عثمان وينعى

⇦

تاريخه: «إنَّ الحسن قاتل عن عثمان قتالاً شديداً، حتى كان يستكتفه وهو يقاتل عنه، ويبذل نفسه دونه...»[1]

كلُّ ذلك وعثمان بالموقف الدَّقيق الّذي كان لا يفتأ يؤلِّب عليه فيه الآخرون، ويخذله الأقربون[2].

⇨

عليه تصرُّفاته المسيئة، وبعنف في بعض الأحيان، ولكنّه كان يحار بشدَّة ـ في الوقت نفسه ـ فتح باب قتل الخليفة إذا ما أساء التّرف أو خرج على تعاليم الشّريعة، لأنّ فتح هذا الباب قد يؤدِّي إلى الضَّرر والفوضى بأكثر ممّا يؤدِّي إلى الإصلاح والتّقويم، ومن هنا كان يرى عليه السلام ضرورة بذل الجهود ـ مهما كانت صعبة ومضنية ـ صلاح ذلك الخليفة وإجباره على التّراجع عن أفعاله السّيِّئة، بعيداً عن البطش والقتل وسفك الدِّماء.» انتهى

أقول: أوافقك الرّأي، في أنّ إصلاح الخليفة والسّلطة أولى من اللّجوء إلى العنف، وذكرنا فيما تقدّم كلام أمير المؤمنين عليه السلام والّذي يستشهد فيه بآية الإصلاح، إلا أنّ هذا المحاولات كلّها باءت بالفشل ولم يعد بإستطاعته عليه السلام فعل شيءٍ للحيلولة دون قتل الخليفة. وإذا كان ينبغي لأمير المؤمنين عليه السلام بذل جهود لإطفاء هذه النّائرة في أوّل التهابها، فقد أدّى صلوات الله عليه ما عليه حتّى سقط عنه الواجب بكلّ معانيه، وصار العكس من القضيّة، من قبح استمرار أمير المؤمنين عليه السلام في الدّفاع عنه، كما تقدّم.

وأمّا القول بأنّ الإمام عليه السلام كان يخشى من فتح باب قتل الخليفة وأنّه قد يؤدِّي إلى الضَّرر والفوضى بأكثر ممّا يؤدِّي إلى الإصلاح والتّقويم، فهو حقٌّ، إلاَّ أنه لا بدّ أن يُعلم:

أوّلاً: أنَّ هذا الباب قد فُتح من زمان سابق، بقتل الخليفة الثّاني.

وثانياً: فتح باب قتل الخليفة مفسدةٌ تجرّ الكثير من العواقب السيِّئة، إلاَّ أنّ السُّكوت عن مثل عثمان وقد أسرف وتمادى في فساده وظلمه وبذخه، ورفضه كلَّ محاولات الإصلاح، ليس بأقلّ مفسدة من القضاء عليه.

(١) الفخري (ص٧٤) [/ ٨٥]. (المؤلف رحمه الله)

(٢) لعلَّ من الخير لمن أراد شرح هذا الاجمال، أن يرجع إلى ما صوّره الأستاذ عبد الله العلايلي حفظه الله، من أحوال المجتمع على عهد عثمان في كتابه «أيام الحسين» (من صفحة ١١٢ إلى ١٢٨) ولعلّ من الأفضل أن نختزل هنا الخطوط الرئيسة من تلك الصورة المفصّلة، اتماماً للفائدة قال:

⇦

نعم، كانت حُجّة معاوية الوحيدة في رسائله إلى الحسن، ادّعاؤه: «إني أطول

⇨

«وهؤلاء الأمويّون لم يكتفوا بأن يفرضوا أنفسهم ووجودهم الخالي من الحياة والجهد، بل تجاوزوا هذا، إلى تعبئة المجتمع في طبقات . . وإذا بالثروات الفاحشة تصير وتجتمع في أيدي الأمويين وأنصارهم، وإذا بمروان يستبدّ بالمقدّرات العليا على هواه، وإذا بأكثر الأقاليم تذهب إقطاعات بين فلان وفلان . . فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار، عدا عقاراته الكثيرة . وعبد الرّحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار . وزيد بن ثابت يملك من الذّهب والفضّة ما كان يكسر بالفؤوس . . فلا بدع إن استنكرت الكثرة خطّة هذا الجديد، ولا بدع إن تحدّوا أنصاره واتهموهم بالمروق، ولا بدع إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفيّاً ثم امتدّ حمّياً .

ولقد باتت الحالة العامّة تجيء في كلمتين: حكومة تتآمر بالشّعب وشعب يتآمر بالحكومة . ولكن للشّعب الكلمة الأخيرة والعليا دائماً . . ومن الإنصاف والخير أن نذكر أنّ الجمهور مع ذلك لم يكن أرعن في ثورته، فقد اتّصل بأولياء الأمور والسُّلطة، وطالب بواسطة ممثليه مراراً وتكراراً ولكن مطاليبه في كلّ مرّة كانت تبوء بالفشل وكان فشلاً ذريعاً متواصلاً، ومن النّوع المثير .

وكان عمرو بن العاص في هذه الأثناء يحرّض النّاس على عثمان ويجبَه سياسته علانية ويتجسّس عليه ويفضح الأحاديث التي تجري داخل داره، ولا يلقى أحداً إلا أدخل في روعه كراهيته . . ويقابله حينما خطب عثمان على ملأ من الصّاخبين المتمرّدين بقوله: يا أمير المؤمنين إنّك قد ركبت نهابير وركبناها معك فَتُبْ نَتُبْ. [تاريخ الطّبري ٣/ ٣٩٥] وهذه عائشة تجترئ وهو يخطب فتقول وقد نشرت قميص النّبيّ: «هذا قميص النّبيّ لم يبل وقد أبليت سنّته» [المعيار والموازنة / ٢١]. وهذا طلحة والزّبير يعينان الثّائرين بالمال . . ولكن عليّاً مع كلّ ما هو عاتب وواجد . . بادر إلى تقديم ولديه لاعتباراتها التّقديريّة ومواليه لكي ينهوا عوادي الأحداث . . وحين بلغه أنّ النّاس حصروا داره ومنعوه الماء بعث اليه بثلاث قرب وقال للحسن والحسين: «اذهبا بسيفكما حتى تقوما على بابه ولا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه.» وكان أن خضّب الحسن بالدِّماء وشجّ قنبر مولاه .

هذا ما عرف التاريخ عن عليّ وبنيه إزاء المصرع، بينما عرف من ناحية ثانية، أن عثمان وهو محاصر كتب إلى معاوية وهو بالشام: أن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطّاعة ونكثوا البيعة، فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشّام على كلّ صعب وذلول. فإذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربّص به، فقد كره ـ على حدّ دعواه ـ مخالفة أصحاب الرّسول، وقد علم اجتماعهم على ذلك . ومن تهكّمات القدر أن يحرِّض عمرو بن العاص على قتل عثمان وتجبهه عائشة علانيةً ويتخلّى معاوية عن نجدته ويعين عليه طلحة والزّبير كلاهما، ثم ينفر هؤلاء أنفسهم هنا وهناك يطالبون بدمه عليّ بن أبي طالب الذي أخلص له النصيحة وحذّره من هذا المصير وكان مجنّه دون رواكض الخطوب . . اه». (المؤلف ﷺ)

منك ولايةً، وأقدم منك بهذا الأمر تجربةً، وأكبر منك سنّاً!»[1] ولا شئ غير ذلك. ولو كان لدى معاوية من وراء هذه الجُمل المتعاطفة، حُجّةٌ حَريّةٌ بالقول أو عَسيّةٌ بالقبول، لأفضى بها، ولترك النُّزوع إلى نبش الدَّفائن وتأريث النَّعرات.

وليت شعري، أيَّ تجاربك تعني أبا يزيد..؟!

أيوم ضجّت الشَّام منك إلى عمر حتى قام لشكاويها وقعد، واستقدمك ـ مع البريد ـ[2] وكنت أخوف منه من غلامه «يرفأ»؟[3] أم يوم ضربك بالدِّرَّةِ على رأسك حين دخلت عليه معجباً بملابسك الخضر؟[4]

أم يوم كنت تقتطع الأمور من دون عثمان، ثم تقول: «هذا أمر عثمان» كَذِباً حتّى لقد كنت أحد أسباب نكبته؟[5]

أم يوم سعيت برجلك وجيشك تحارب إمام زمانك بالسِّلاح باغياً ـ غير متحرِّج

---

(١) ابن أبي الحديد (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٦، عن مقاتل الطالبيين / ٣٧]. (المؤلّف رحمه الله).

(٢) لم أجده في مصدر.

(٣) من حديث لأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام مع عثمان ينقم عليه تولية أقربائه ويعيب عليه ضعفه إزاءهم، يقول له فيه: «**سَأُخبِرُكَ إنَّ عُمَرَ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلَّى فَإنَّمَا يَطأُ عَلَى صِمَاخِهِ، إنْ بَلَغَهُ حَرْفٌ خَلَعَهُ، ثُمَّ بَلَغَ أقْصَى الغَايَةَ، وَأَنْتَ لا تَفعَلُ. ضَعُفْتَ وَرَقَقْتَ عَلَى أقْرِبَائِكَ.**»

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. قال عليٌّ عليه السلام: «**أجَلْ. لَعَمْرِي إنَّ رَحِمَهُمْ مِنِّي لَقَرِيبَةٌ، وَلَكِنَّ الفَضْلَ فِي غَيْرِهِمْ.**» قال: هل تعلم أنّ عمر ولّى معاوية خلافته كلّها، فقد ولّيته. قال عليٌّ عليه السلام: «**أنْشُدُكَ اللهَ، هَلْ تَعْلَمُ أنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أخْوَفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَرْفَأ غُلام عُمَرَ، مِنْهُ؟**» قال: نعم. قال عليٌّ عليه السلام: «**فَإنَّ مُعَاوِيَةَ يَقْطَعُ الأمْرَ دُونَكَ، وَأنْتَ تَعْلَمُ، فَيَقُولُ لِلْنَّاسِ: هَذَا أمْرُ عُثْمَانَ، فَيَبْلُغُكَ، فَلا تُغَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةَ.**» ثمّ خرج عليٌّ عليه السلام من عنده. تاريخ الطَّبري ٣/ ٣٧٧، تاريخ ابن الأثير ٣/ ١٥٢، البداية والنِّهاية ٧/ ١٨٩،

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ١١٥، سير أعلام النُّبلاء ٣/ ١٣٥، الإصابة ٦/ ١٢٢، البداية والنِّهاية ٨/ ١٣٤.

(٥) مرّت الإشارة إليه.

ولا متأثِّم ـ ؟

وهل في هذا القديم «من تجاربك» ما يشعر بالحُجّة على استحقاقك الولاية أو الإستمرار على مثلها ؟ فأين إذاً إستحقاق الخلافة يا ترى..؟

وهل في ولاية تتقادم على مثل هذا النَّسق المجلوب عليه، والقائم على الكذب والبهتان وإراقة الدِّماء، ما يدلُّ على أهليَّة المقام الدِّيني الرَّفيع؟

جُمَلٌ تتعاطف كما تتعاطف الحُجَج النَّواصع، ثمَّ هي لا ترجع في خلاصتها إلاّ إلى معنى واحد، هو التماس الحُجّة (بطول المدَّة!).

ولا نعرف في منطق الحقِّ مقياساً يثبِّت الخلافة بطول المدَّة أو بكبر السِّن!!

وقد يكون الرّجل أبصر الرّجال في شراء ضمائر النّاس، أو في تأريث الفتن في النّاس، ولكن ذلك لا يعني استحقاق هذا الرَّجل لنيابة النبوّة في الإسلام.

وقد يكون الرَّجل أقوم الرِّجال في ضبط أعصابه وفي كَبت عواطفه، حتى لَيعُدُّه النّاس من كبار الحلماء، ولكن ذلك ليس دليل الإمامة الدِّينية في النّاس، لأنَّ الحلم العظيم كما يكون في الإمام، يكون في المتزعِّمين المنافقين.

وقد يكون الرَّجل في حنكته أقدر النَّاس على ترتيب العقائد وتوجيه الرّأي العام إلى الأخذ برأيه الخاصّ ـ سواء كان رأيه من رأي الله أو من رأي العاطفة ـ ولكن ذلك لا يعدو بهذا الرَّجل أن يكون المبتدع في الدِّين، لا الخليفة على المسلمين. لأنَّ الخليفة لا رأي له إلاَّ رأي القرآن، ولا سند له إلاّ من الحديث، ولا مرجع له إلاَّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

إذاً، فليس الرَّجل الصَّالح لملكوت الخلافة الإسلامية، والنِّيابة عن النبوَّة في الدِّين، إلاّ مخلوق من نوادر الخلق، يختاره الله من عباده ويصطفيه من جميع خلقه، لمزايا ينفرد بها عن العباد، وفضائل يتميَّز بها عن الخلق. والله سبحانه الّذي برأ العباد أعرف بذلك العبد

الصَّالح الّذي انفرد بهذه المزايا، وانماز بهاتيك الفضائل. وهو الّذي يوحي باسمه إلى نبيِّه فيختاره من دون غيره. وليس لأحد ـ بعد ذلك ـ أن يختار.

أمّا معاوية فلم يكن له من سوابقه وسوابق أبيه، ولا من كيفية إسلامه وإسلام أبيه، ولا من مواقفه مع عمر وعثمان ومع عليٍّ عليه السلام ما يَزَعُه(١) عن التطاول إلى ادِّعاء أعظم المراتب في الإسلام، حتى جاء يقول للحسن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد بايعه المسلمون في آفاق الأرض بما فيهم صحابة الرَّسول وأهل بيته وخاصَّته وجميع المعنيين بإسلاميَّتهم: (إنِّي أكبر منك سِنّاً، وأقدم منك وأطول منك.. !!).

وهل تجد في دنيا الحِجَاج، أبلغ من هذا المنطق في إعلان العجز عن الحجّة ؟.

وكاتبة ثانيةً، ولكنّه حاول في هذه المرّة، التهديد بالإغتيال والإغراء بالأقوال، وكأنّه عرف الحسن على غير حقيقته، فأسَفَّ إلى مثل هذا الأسلوب المبتذل الّذي لا يخاطب به مثله، قال:

«أمّا بعد، فإنَّ الله يفعل في عباده ما يشاء. لا معقِّب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر أن تكون منيَّتُك على أيدي رَعاعٍ من النّاس، وايأس من أن تجد فينا غميزةً !! ثم الخلافة لك من بعدي، فأنت أولى النّاس بها والسَّلام»(٢)

وكان جوابه الأخير الّذي جَبَهَ رسولي الحسن إليه، وهما: جُندَبُ بن عبدِ الله الأزدي(٣)

---

(١) «يَزَعُهُ»: يكفّه ويمنعه.

(٢) شرح النهج (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٧]. (المؤلّف رحمه الله)

(٣) جُنْدَبُ بنُ عبدِ الله الأزدِيّ، الغَامِدِي، وهو جُندَبُ الخير، وهو قاتل السَّاحر بالكوفة أيّام عثمان، عند إمارة الوَليد بَن عُقبة عليها، بعدما أخذ يمارس الشَّعوذة والسِّحر في مسجد الكوفة، بحضور الوليد، فسجنه الوليد ثمّ نفاه إلى المدينة. أنظر: الإستيعاب ١/ ٢٥٩، وقد نُفي إلى الشَّام أيضاً ومعه مالك الأشتر ورجال آخرون؛ لأنّهم كانوا يذكرون مساوئ عثمان ومثالبه، تاريخ الطَّبري ٣/ ٣٦٧. وحضر جُندَب حروب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلّها، وروى المفيد رحمه الله

⇦

والحَرِثُ بن سُوَيد التَّيمي[1] أنه قال لهما: «ارجعا فليس بيني وبينكم إلاّ السَّيف!».[2]

وهكذا ابتدأ معاوية العدوان، وخرج عامداً على طاعة الخليفة المفروضة طاعته عليه، الخليفة الّذي لم يخالف على بيعته أحد من المسلمين غيره وغير جماعته من جند الشَّام الّذين صقل قرائحهم على الخلاف، وربّاهم على رأيه، وحبسهم عن الإختلاط بغيرهم، فكانوا حقّاً، كما وصفهم صَعْصَعَةُ بن صُوحانَ العبديّ حين سأله معاوية عنهم فقال: «أطوعُ النّاس لمخلوق وأعصاهم للخالق، عُصاةُ الجبّار وخَلْفَةُ

⇨

في الإختصاص / ٨١، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: «شَهِدَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ عليه السلام مِنَ التَّابِعينَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ بِصِفِّينَ، شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله بالجنَّةِ، وَلَمْ يَرَهُمْ: أُوَيْسٌ القَرَنِيُّ، وَزَيْدُ بْنُ صُوحَانَ العَبْدِيُّ، وَجُنْدَبُ الخَيْرُ الأزْدِيُّ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمْ.»

هذا وقد ذكر بعضهم أنّ الرَّجل قد عرض له الشكُّ في جواز قتال الخوارج بنهروان مع أمير المؤمنين عليه السلام، ثم استيقن واستقرّ، لما رأى من أمير المؤمنين عليه السلام، من إخباره عن الغيب ومطابقته للواقع، أنظر: الإرشاد ١/ ٣١٧. وكيف يلتئم هذا مع بشارته بالجنّة؟ لا أدري. فهذا أو ذاك قد لا يصحُّ. أو قد يكون هذا الرَّجل غير ذاك، والله أعلم.

وقد التزم صحبة أبي محمَّد الإمام الحسن عليه السلام وبعثه بكتابه إلى معاوية. ولمّا ولي ابن زيادٍ الكوفة دعا جندَب بن عبد الله الأزدي وكان شيخاً فقال: يا عدوّ الله ألست صاحب أبي تراب؟ قال: بلى لا اعتذر منه. فقال: ما أراني إلاّ متقرِّباً إلى الله بدمك، قال: اذاً لا يقرِّبك الله منه بل يباعدك، قال: شيخٌ قد ذهب عقله. وخلّى سبيله. مثير الأحزان لابن نما الحلّي / ٧٤.

(١) الحَرَثُ ـ أو الحارثُ ـ بنُ سُويدِ بنِ قِلاصٍ التَّيمِي الكُوفي، كُنيته أبو عائشة، من التَّابعين الثِّقات صحب أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الله بن مسعود وأكثر عنهما الرِّواية، وصحب بعده الإمام الحسن عليه السلام وبعثه مع جندب بن عبد الله الأزدي بكتابه إلى معاوية يدعوه إلى بيعته. تُوفِّي الحارث بن سويد بالكوفة في آخر أيام عبد الله بن الزبير. تهذيب الكمال للمزّي ٥/ ٢٣٥، سير أعلام النُّبلاء ٤/ ١٥٦، الإصابة ٢/ ١٣٤.

(٢) شرح النهج (ج٤ ص١٠) [١٦/ ٢٥]. (المؤلّف رحمه الله)

الأشرار»[1].

ودارت الكوفة دورتها، وهي تستمع إلى تهديد معاوية وتتلقّف الأخبار عن زحفه إلى العراق. وارتجزت للحرب على لسان شيعتها البهاليل.

وهكذا جدَّ الجدّ ولا مندوحة لوليِّ الأمر على الإستجابة للظَّرف المفاجئ والنزول على حكم الأمر الواقع. وكان حرب البُغاة واجبه الّذي يستمدُّه من عقيدته ويستمليه من أعماق مبدأه، ولا استقرار للخلافة دون القضاء على هذا الإنقسام الّذي يفرضه معاوية على صفوف المسلمين، بثوراته المسلّحة في وجه الخلافة الإسلامية قرابة ثلاث سنوات متتاليات، أحوج ما يكون المسلمون فيها إلى الإستقرار والإستعداد.

وكانت حروب الشَّام منذ تجنَّد لها معاوية، أشأم الحروب على الإسلام، وأكثرَها دماً مُهراقاً، وحقّاً مُضاعاً، واجتراءً على الحقايق، وانتصاراً للنزق الطائش، والأهواء الدُّنيوية الرَّخيصة.

وإنَّ الإسلام بمبادئه الإنسانيّة السّامية لم يشرِّع الحرب إلاّ في سبيل الله وإبتغاءاً لخير النّاس وذياداً عن حِياضه، أمَّا نهب الثُّغور وإخافة الآمنين، ومحاربة الشُّعوب المؤمنة بالله وبرسوله ـ لأنَّه يريد أن يتأمَّر عليهم ـ فذلك ما لا تعرفه المبادئ الإسلامية، ولا تعترف بمثله إلاّ الجاهلية الهوجاء. وذلك هو مصدر الصَّدمات الّتي مزّقت الكلمة وفرّقت الدِّين، وفرضت العَداوات بين فئات المسلمين.

واستجاب لمعاوية في هذه الحروب «سُفهاءٌ طَغَامٌ» على حدِّ تعبير شَبَث بن رِبعي التَّميمي[2] حين واجهه في أحداث سنة ٣٦، فاستغلَّ تفسُّخ أخلاقهم، وأتَّجر بفساد

---

(١) المسعودي هامش ابن الأثير (ج٦ ص١١٩) [مروج الذهب ٣/ ٤٢]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) شرح النَّهج ٤/ ١٥، تاريخ الطبري ٣/ ٥٧٠، الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٨٦، وقعة صفّين / ١٨٧.

أذواقهم، وقذف بهم في لهوات الموت، وكلّهم راضٍ مطيع.

وكانت الشِّنْشِنَة[1] الموروثة في هاشم، أنَّهم لا يبدأون أحداً قطّ بقتال. وتجد فيما عهد به الحسن إلى قائده «عُبَيد الله بنِ عَبَّاس»[2] تأييداً صريحاً لهذا الخُلُق الهاشمي الأفضل[3]. وكان للحسن على الخصوص، مواريث شخصيَّة كثيرة من وصايا ودساتير، آثره بها سيِّدُ العرب أبوه أمير المؤمنين عليه السلام. وكان أبوه كما يحدِّثنا التَّاريخ شديد العناية بابنه الحسن «وكان يُكرمُه إكراماً زائداً ويعظِّمه ويبجِّله»[4]. وكانت هذه الوصايا، المُثُل الّتي لا يقربها الباطل ولا تزيغ عن الصَّواب على اختلاف موضوعاتها في الدِّين والدُّنيا وفي التَّربية والأخلاق. وكان فيما أوصى به عليٌّ الحسن قوله: «لا

---

(١) «الشِّنْشِنَة»: الطَّبيعة والسَّجيَة.

(٢) عُبَيدُ الله بنُ عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، الهاشميّ، القُرَشيّ، أخو عَبْدِ الله بنِ عبَّاس، وكان أصغر منه بسنة، فإذا كان عبد الله ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، [كما في تذكرة الحفَّاظ للذَّهبي ١/ ٤٠، وتقريب التَّهذيب لابن حجر ١/ ٥٠٤] فيكون عُمْر عبيد الله يوم قُبض النَّبيُّ صلى الله عليه وآله ابن اثني عشرة سنة. ولاّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على اليمن، وفرّ بعد غارة بُسْرِ بن أرْطأة عليها، وعثر بُسْر على طفليه الصَّغيرين فذبحهما، وعاد عبيد الله إليها بعد أن غادرها بُسْر، جعله الإمام الحسن عليه السلام على مقدّمة الجيش الذي أنفذه إلى معاوية، ولكنَّه خذله، وانخدع بمال معاوية، ومن ثمَّ التحق به، وتوفّي بالمدينة في أيام معاوية سنة ثمان وخمسين، ويقال: إنه كفَّ بصره.

(٣) ذكروا أنَّه دعا عُبَيد الله بن العبَّاس فقال له: « **يَا ابْنَ عَمِّ، إِنِّي بَاعِثٌ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِنْ فُرْسَانِ العَرَبِ وَقُرَّاءِ المَصْرِ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَزِنُ [يَزِيدُ] الْكَتِيبَةَ، فَسِرْ بِهِمْ وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ وَجْهَكَ، وَأَفْرِشْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَدْنِهِمْ مِنْ مَجْلِسِكَ، فَإِنَّهُمْ بَقِيَّةُ ثِقَةِ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ، وَسِرْ بِهِمْ عَلَى شَطِّ الْفُرَاتِ حَتَّى تَقْطَعَ بِهِمُ الْفُرَاتَ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى مَسْكِنَ ثُمَّ امْضِ حَتَّى تَسْتَقْبِلَ مُعَاوِيَةَ فَإِنْ أَنْتَ لَقِيتَهُ فَاحْبِسْهُ حَتَّى آتِيكَ فَإِنِّي فِي أَثَرِكَ وَشِيكاً وَلْيَكُنْ خَبَرُكَ عِنْدِي كُلَّ يَوْمٍ وَشَاوِرْ هَذَيْنِ، يَعْنِي: قَيْسَ بْنَ سَعْد وَسَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ فَإِذَا لَقِيتَ مُعَاوِيَةَ فَلا تُقَاتِلْهُ حَتَّى يُقَاتِلَكَ، فَإِنْ فَعَلَ فَقَاتِلْ فَإِنْ أُصِبْتَ فَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى النَّاسِ وَإِنْ أُصِيبَ قَيْسٌ فَسَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى النَّاسِ**». أنظر: مقاتل الطالبيين / ٤٠، وعنه شرح النهج ١٦/ ٤٠، بحار الأنوار ٤٤/ ٥١.

(٤) ابن كثير (ج٨ ص٣٦-٣٧) [البداية والنهاية ٨/ ٤١]. (المؤلّف رحمه الله)

تَدْعُوَنَّ إلى مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ وَالْبَاغِيَ مَصْرُوعٌ»(١).

لذلك كنّا نرى الحسن في إبّان بيعته، وفي قوّة اندفاع أصحابه للهتاف بالحرب، لا يجيب إليها صريحاً، ولا يعمل لها جادّاً، لأنّه كان ينظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورةٍ بغيضة، يلجأ إليها حين لا حيلة له في اجتنابها، وكان ينتظر تنظيم حرب يضمن لها القوّة، أو قوّةً تضمن له الحرب، وقد حالت الظّروف المتأزّمة ـ يومئذٍ ـ والذّاهبة صُعُداً في أزماتها بينه وبين ما يريد.

وقد أتينا في الفصل السّابق على استكشاف الأوكار الّتي كان ينتمي إليها المتحزّبون المتحمّسون في الكوفة، من أمويّةٍ، ومحكّمةٍ، وشكّاكين، وحمراء. وأشرنا هناك إلى ما كانت تعجُّ به هذه المجتمعات من روح الهدم والتّخريب، والوقوف في وجه السّياسة القائمة بشتّى الأساليب.

وكان كلُّ ذلك ـ وبعضه كافٍ ـ سببَ التمهُّل في الحرب، الأمر الّذي عُورض به الحسن عليه السلام من قبل فئات من أصحابه المناصحين له. وكان للنّشاط المؤقّت المحدود، الّذي غمر الكوفة في أيام البيعة، أثره في إغراء هذه الفئات من الأصحاب، ليظنّوا كلّ شئ ميسّراً لخليفتهم الجديد. ولكنّها كانت النّظرة القصيرة الّتي لا تمتدُّ إلى ما وراء السّتارُ. ولا تزن في حسابها ما تهدفه هاتيك «الأوكار».

أمّا الحسن فقد كان ينظر بالبصيرة الواعية إلى أبعد ممّا ينظرون، ويعرف بالعقل اليقظان من مشاكلهم أكثر ممّا يعرفون، ويغار ـ بدينه ـ على الصّالح العام أعنف ممّا يحسبون.

إنّه يُدرك جيّداً دقّة الموقف، بما يسيطر عليه من ميوعة الأخلاق، في قسم عظيم ممن معه في جيشه، وممن حوله في كوفته وكان ينتظر لهذا التفسُّخ الأخلاقي الّذي باع

---

(١) نهج البلاغة ٤/ ٥٢، الحكمة: ٢٣٣.

الدُّنيا بالدِّين، أثره السيِّئ في ظروف الحرب، لو أنَّه استبق إلى الحرب قبل أن يضطرّه الموقف إليها.

ورأى أنّ في تحمُّل قليل من مفاسد هؤلاء كثيراً من الصّلاح لسياسته الحاضرة مع ظرفه الخاص. ورأى أن يعالج الموقف من وجهه الثّاني، فترفّق بالنّاس، ولم يتنكَّر لأحد من رعيته ولم يبد له أمراً، وأخذ بسياسة التهدئة وإسدال السِّتار، لئلاّ يتّسع الفتق وتعُمَّ الفتنة، وأرجأ التصفية إلى وقتها المناسب لها، ليضع النّدى في موضعه والسَّيف على أهله.

وهنا يسبق إلى الذِّهن استفهامٌ لا يجوز للباحث أن يتجاوزه من دون أن يقف على سرِّه. أنّه كان الأولى برئيس الدَّولة إذ جُوبِه من ظروفه بمثل هذا الجوّ المتلبِّد بالغيوم، أنْ يعمد إلى الحزم في استئصال الشَّغَب، فيستعمل الشِدَّة ويكشف المؤامرات وينكّل بالخونة ويكيل لهم الجزاء الّذي يستحقّون. فما الّذي حدا بالحسن عليه السلام، إلى العزوف عن طريقة الشدّة إلى الرِّفق أحوج ما يكون موقفه إلى الأوَّل منهما تعجيلاً للإستقرار واستعداداً لمستقبله المهدَّد بالحروب ؟

وللجواب على هذا الإستفهام، وجوهه الثّلاث الّتي ستقرؤها في خاتمة الفصل الثَّامن.

ونقول هنا: إنّ الحسن لو أراد الأخذ بسياسة الشدَّة ـ وكانت من أوضح الأساليب الّتي تُتَّخذ لمثل هذه الظُّروف ـ لتعجَّل الفتنة عن عمد، ولفتح ميدانه للثَّورات الدَّاخلية الّتي لن تكون أقلَّ خطراً على مقدَّراته من حروب الشَّام. وكان معاوية العدوَّ الّذي لا يفتأ يمدّ فكرة الثَّورة في الكوفة بكلِّ ما أوتي من ثَراء أو دَهاء.

لذلك كان ما اختاره الحسن هو الأحسن لموقفه الدَّقيق.

ونقول في الجواب على مقترح بعض نُصحائه من أصحابه في تعجيل الحرب حين

طلب إليه «بأن يبدأ معاوية بالمسير حتى يقاتله في أرضه وبلاده وعمله»[1]: إنَّه لو فعل ذلك لفتح للمعارضين من زُعماء الأحزاب في الكوفة وللمتفيهقين من القُرّاء و «أهل الهيأة والقناعة» فيها، منفذاً للخلاف عليه لا يعدم الحجَّة، إذا أريد الإحتجاج به من ناحية (الإبتداء بالعدوان) وهي الحُجَّة الّتي لا يجد كثير من النّاس أو من بسطاء النّاس الجواب عليها، والتي قد يؤول بها النِّقاش إلى مجاهرة هذه الجماعات بنكث البيعة علنا، والتخلّي عن الحسن جهاراً، ومعنى ذلك التعرُّض إلى أفظع انشقاقٍ داخليٍّ، له عواقبه ومخاوفه.

وهذا وذاك آثر الحسن التهدئة متمهِّلاً بالحرب بادئ ذي بدء.

ثم ارتجل الأمر بالجهاد.

وما كان إذ أمر بالجهاد إلاّ مستجيباً للظَّرف الطّارئ الّذي لم يكن يحتمل ـ في نظر الجميع ـ إلاّ الأمر بالجهاد، وذلك حين بادر معاوية إلى العدوان مبتدئاً، وتحلَّبت أشداقه بالمطامع الإقليميّة ولكن في صميم بلاد الإسلام! فزحف إلى «جِسر ـ مَنْبِج»[2] باتجاه العراق، وذلك بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، بقليل من الزَّمن اختصره اليعقوبيّ[3] كثيراً فحدَّده بثمانية عشر يوماً.

ومن هناك حيث بلغ أعالي الفرات، رفع صوته «بالعُواء» الّذي حاول أن يجعل منه زئيراً وجلجلةً، ليخيف الثُّغور الآمنة المطمئنة، ولينبِّه مرابض الأسود في كوفة

---

(١) ابن أبي الحديد (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٧ عن مقاتل الطالبيين / ٣٧]. (المؤلّف رحمه الله)

أقول: والقائل هو «جُندَب بن عبد الله الأزدي».

(٢) «مَنْبِج» بلدٌ قديمٌ كبير، بينه وبين جِسره على الفرات ثلاثة فراسخ، وبينه وبين «حَلَب» عشرة فراسخ [مراصد الإطِّلاع ٣/ ١٣١٦]، وفي المعجم [٥/ ٢٠٧]: بينهما يومان، قال: ومنها إلى «مَلَطْيَة [أو: مَلَطِيَة]» أربعة أيام وإلى الفرات يوم واحد. وخرج منها جماعةٌ منهم البُحْتُرِيّ وأبو فِراس الحَمداني. (المؤلّف رحمه الله)

(٣) (ج٢ ص١٩١) [٢/ ٢١٤]. (المؤلّف رحمه الله)

الجُند فيستدرجها إلى النزال.

ونظر معاوية إلى مصرع عليٍّ عليه السلام، كأحسن فرصة للإجراءات الحاسمة بين الكوفة والشَّام. وكان ذلك هو القرار الأخير الّذي تمَّ عليه الإتِّفاق بينه وبين مشاوريه، الّذين كانوا يتحلّقون حوله ليل نهار، وينظمون معه حركة المعارضة للخلافة الهاشميَّة، بحنكة تُشبه الدَّهاء، أمثال المُغيرَة بن شُعْبة، وعَمْرو بن العَاص، ومَرْوَان بن الحَكَم، والوَليد بن عُتْبَة[١]، ويَزيد بن الحُرِّ العَبْسِيّ[٢]، ومُسلِم بن عُقْبَة[٣]، والضَّحَّاك بن قَيس الفِهْرِيّ[٤].

---

(١) الوَليدُ بنُ عُتْبَةِ بنِ أبي سُفْيَانِ بنِ حَرْبٍ الأمَويّ، من رجالات بني أميّة، ولي المدينة سنة ٥٧ هـ في أيّام معاوية، ومات معاوية، فكتب إليه يزيد أن يأخذ له بيعة الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزُّبير، وعزله يزيد سنة ٦٠ هـ، واستقدمه إليه، فكان من رجال مشورته بدمشق، ثم أعاده سنة ٦١ هـ وثورة عبد الله ابن الزُّبير، في إبَّانها، بمكّة. وفي تاريخ الطّبري ٤/ ٣٦٨: ثمّ إنَّ ابن الزُّبير عمل بالمكر في أمر الوليد، فكتب ليزيد: إنَّك بعثت إلينا رجلاً أخرق، ولو بعثت رجلاً سهل الخُلُق رجوت أن يسهِّل من الأمور ما استوعر وأن يجتمع ما تفرَّق. فعزل يزيد الوليد، وولَّى عثمان بن محمَّد بن أبي سفيان، وهو فتىً غرّ حدث. وظلَّ الوليد في المدينة. وحجَّ بالنَّاس سنة ٦٢ هـ وتُوفِّي بالطَّاعون. أنظر: الأعلام للزّركلي ٨/ ١٢١.

(٢) يَزيدُ بنُ الحُرِّ، ويقال: بنُ زَحْرٍ، وفي بعض المصادر: بنُ بشر، ويقال: بنُ الحَرَام العَبْسِيّ، أو: العَنْسِي، شهد صفِّين مع معاوية وكان أحد شهوده على كتاب الحكمين بصفِّين بينه وأمير المؤمنين عليه السلام على تحكيم الحكمين، ولاّه معاوية على شرطته وأغزاه أميراً على الرّوم، وبعثه بكتابه في إحدى المرّات إلى أمير المؤمنين عليه السلام. تاريخ ابن عساكر ٦٥/ ١٥١.

(٣) مُسلِمُ بنُ عُقْبَةَ بنِ رِيَاحِ بنِ أسْعَدَ بنِ رَبِيعَةَ بنِ عَامر، أبُو عُقْبَة المعروف بمُسرِف. أدرك النبيَّ صلى الله عليه وآله ولم يره وشهد صفِّين مع معاوية وكان على الرَّجَّالَة، وقلعت بها عينُه، وهو الأمير من قِبَل يزيد بن معاوية على الجيش الّذين غزوا المدينة يوم الحرَّة، قال ابن حجر في الإصابة ٦/ ٢٣٢: وقد أفحش مسلمٌ القولَ والفعلَ بأهل المدينة، وأسرف في قتل الكبير والصَّغير حتى سمَّوه مُسرفاً، وأباح المدينة ثلاثةَ أيَّام لذلك، والعسكر ينهبون ويقتلون ويفجرون، ثمَّ رفع القتل وبايع من بقي على أنهم عبيدٌ ليزيد بن معاوية، وتوجَّه بالعسكر إلى مكّة ليحارب ابن الزُّبير لتخلّفه عن البيعة ليزيد، فعوجل بالموت فمات بالطَّريق، وذاك سنة ثلاث وستِّين. أيضاً ⇦

ونجح معاوية في اختيار الظَّرف المناسب.

ونجح في خَلْق الشَّغَب المزعج في كوفة الحسن، بما أولاه من عناية بالغة بشراء الضَّمائر الرَّخيصة فيها، وبما بثَّه من جواسيس يتأبَّطون في رَوَاحِهم ألوان الأكاذيب، ويتزوَّدون في غُدوِّهم الأخبار والمعلومات، عمَّا يجدُّ في الكوفة من تصاميم، وعمّا يوجد لديها من إمكانيات. وكان سلاح معاوية من هذا النَّوع، أقوى من سلاحه بالرِّجال والحديد وأشدَّ منهما مَضاءً وأبعدَ أثراً.

«واستنفر عشائره وجيوشه، فكتب إلى عمّاله على النَّواحي التَّابعة له، بنُسخةٍ واحدة، يقول فيها: فأقبلوا إليَّ حين يأتيكم كتابي هذا بجدِّكم وجهدكم وحسن عدَّتكم»[٢]

ومضى الحسن عليه السلام - بدوره - على تصميمه في الإستعداد للجواب على هذا العدوان. فدعا إلى الجهاد، وتألَّب معه المخلِصون من حملة القرآن وقادة الحروب وزهّاد الإسلام، أمثال: حُجْر بن عَدِيٍّ الكِنْديّ، وأبي أَيُّوبَ الأنصاريّ[٣]،

⇨

أنظر: تاريخ مدينة دمشق ٥٨/ ١٠٢.

(١) الضَّحَّاكُ بنُ قَيْسِ بنِ خَالِدِ بنِ وَهَبٍ الفِهْرِيّ، أبو أنيس، كان على شرطة معاوية، ثم صار عاملاً على الكوفة بعد زياد، ولاّه عليها معاوية سنة ثلاث وخمسين وعزله سنة سبع، وولّى مكانه عبد الرَّحمن بن أمّ الحَكَم وضمّه إلى الشَّام، ولما تُوفّي معاوية صلّى الضَّحَّاك عليه، وضبط البلد حتّى قدِم يزيد بنُ معاوية فكان مع يزيد وابنه معاوية إلى أن ماتا، فبايع الضَّحَّاك بدمشق لعبد الله بن الزُّبير وغلب مروان بن الحَكَم على بعض الشَّام فقاتله الضَّحَّاك بمرج راهط عند دمشق، فقُتِل الضَّحَّاك بالمرج، وكان قتلُه منتصف ذي الحجَّة سنة ٦٤.

أنظر: الإستيعاب ٢/ ٧٤٤، تهذيب الكمال للمزّي ١٣/ ٢٧٩، الإصابة ٣/ ٣٨٧.

(٢) ابن أبي الحديد (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٨]. (المؤلّف رحمه الله)، مقاتل الطالبيين / ٣٨

(٣) هو: خَالِدُ بنُ زَيْدِ بنِ كُلَيبِ بنِ ثَعْلَبَةَ، الخَزْرَجِيّ، الأنْصَاريّ، أبُو أيُّوبَ. وهو مشهورٌ بكنيته، من

⇦

وعَمْرو بــن قَرْضَة الأنصَارِيّ(١)، ويَزيد بــن قَيس الأرْحَبيّ(٢)، وعَدِيِّ بن حاتِمٍ

⇦

صحابة رسول الله ﷺ، وخصَّه بالنُّزول عليه عند هجرته إلى المدينـة، شـهد العقبـة وجميـع حـروب النبيّ ﷺ، وعُدَّ من الإثني عشر الَّذين قاموا في المسجد النَّبوي بعد وفاته ﷺ وأنكروا على أبي بكـر. صَحِب أمير المؤمنين عليه السلام ولازمه، واشترك معه في كافّة حروبه، وكان على خَيّالته في النَّهروان، وبيـده لواء الأمان، ولاّه الإمام عليه السلام على المدينة، لكنَّه فرَّ منها حين غـارة بُسر بـن أرطـاة عليهـا، وعقـد لـه صلوات الله عليه في الأيّام الأخيرة من حياته الشَّريفة، لواءاً على عشرة آلاف، ليتوجَّـه إلى الشَّـام مـع آخـرين، لحـرب معاويـة، ولكـنّ استشـهاده عليه السلام حـال دون تنفيـذ هـذه المهمّـة، تُـوفِّي أبـو أيُّـوب بالقسطنطينية سنة ٥٢ هـ، عندما خرج لحرب الرُّوم، ودُفن هناك. أنظر: طبقات بـن سـعد ٣/ ٤٨٤، تاريخ بـن عسـاكر ١٦/ ٣٣، الإستيعاب ٢/ ٤٢٤، أسـد الغابـة ٢/ ٨٠، تهـذيب الكـمال للمـزّي ٨/ ٦٦، الإصابة ٢/ ١٩٩، موسوعة الإمـام علـيّ بـن أبي طالـب عليه السلام ١٢/ ١٨، موسـوعة طبقـات الفقهاء ١/ ٧٥.

(١) عَمْرُو بنُ قَرْظَةَ بنِ كَعْبِ بنِ عَمْرِو بنِ عَائِذِ بْنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ كَعْبِ الخَزْرَجِ، الأنصَـارِيّ الخَزْرَجِيّ، الكُوفيّ. أبوه «قَرْظَة» من الصَّحابة الرُّواة، وكـان مـن أصـحاب أمـير المـؤمنين عليه السلام، و«عَمْرو» من أصحاب الحسين عليه السلام، ووقع التَّسليم عليه في زيـارتي النَّاحيـة والرَّجبيّـة، أرسـله سيِّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام مفاوضاً إلى عمر بن سعد، فلمّا كان اليـوم العـاشر مـن المحـرَّم استأذن الحسين عليه السلام في القتال ثمَّ برز وهو يقول:

قـد عَلِمَـت كتائـبُ الأنصـار ... إني سَـــأحمي حَـــوزةَ الـــذِّمَار

فعـلَ غـلامٍ غـير نَكْـسٍ شـارِ ... دون حســـينٍ مُهجتـــي وداري

قال الشَّيخ ابن نما: فقاتل (عَمْرُو) قتالَ الباسل، وصبر عـلى الخطـب الهائـل، وكـان يلتقـى السِّـهام بمهجته، فلم يصل إلى الحسين عليه السلام سوءٌ، حتى أُثخِنَ بالجِراح، فقال له عليه السلام: أوفيت؟ قال: «**نَعَمْ، أنْتَ أمَامِي فِي الجَنَّةِ، فَاقْرَأ رَسُولَ الله ﷺ السَّلامَ، وأعْلِمْهُ أنّي فِي الأثَرِ**»، فخرَّ قتيلاً، رضوان الله عليه. مثير الأحزان / ٤٥.

وكان أخوه عليّ بن قَرَظَة مع عمر بن سعد، فنادى: يا حسين! يا كـذّاب ابـن الكـذّاب! أضـللت أخـي وغرّرته حتّى قتلته؟! قال الحسين عليه السلام: «**إنَّ اللهَ لَمْ يُضِلَّ أخاكَ، وَلكِنَّهُ هَدى أَخـاكَ وَأَضَـلَّكَ**»، قـال: قتلني الله إن لم أقتلك، أو أموت دونك! وحمل عليه، فاعترضه نافع بن هلال المرادي فطعنه فصرعه، فحمله أصحابه فاستنقذوه. تاريخ الطَّبري ٤/ ٣٣٠.

(٢) يَزِيدُ بنُ قَيسِ بنِ تَمّامِ بنِ مَسْعُودِ بنِ كَعْبِ بنِ عَلَوِيِّ بنِ عَلْيَانَ بنِ أرْحَـب، الأرْحَبِـيّ الهَمْـدَانِي.

⇨

الطَّائيّ، وحَبيب بن مُظَاهــرٍ الأسَديّ، وضِرَار بن الخَطَّاب[1]، ومَعْقِل بـن سِـنانٍ الأَشْجَعِيّ[2]، ووَائِل بن حُجْر الحَـضْرَمِيّ ـ سيِّد الأقيـال ـ[3]، وهَـانِئ بن

⇦

اشترك في الثَّورة على عثمان، وشهد الجمل وصفِّين مع أمير المؤمنين عليه السلام. وكان أحدَ الرُّسل الَّذين بعثهم الإمام عليه السلام إلى معاوية في حرب صفِّين، وولاّه الإمام عليه السلام على إصفهان والرَّي بعد أن كاد أن يقع في فتنتهم، وكان معه في النَّهروان، وبعد النَّهروان كان عامله على الرَّي وأصفهان، وهمدان. أنظر: الإصابة ٦/ ٥٥١، الغدير ٩/ ٤٤، الأعلام للزّركلي ٨/ ١٨٦، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٣٢٩.

(١) أقول: بعد مراجعة عدَّة مصادر لم أعثر على هذا الاسم، اللّهم إلا في رواية المسعودي، قال: «دخل على معاوية ضِرَار بنُ الخَطَّاب فقال له: كيف حُزنُك على أبي الحسن: قال: حُزن من ذُبح وَلدُها على صدرها، فما ترقأ عبرتها، ولا يسكُن حزنها...» مروج الذهب ٣/ ١٦، وهذه القصَّة معروفةٌ مشهورةٌ، رواها العلماء من الفريقين في كتبهم، وهي تُروى لضِرَار، إلاَّ أنهم اختلفوا في نسبه ونسبته، حيث قلَّما ترى اثنين اتَّفقا على ضبطٍ واحد له، فاسم أبيه «حمزة»، أو «ضمرة»، أو «صرد»، ونسبته «الصَّدائي»، أو «الضَّبابي»، أو «الضَّبائي»، أو «النَّهشلي»، أو «اللَّيثي»، أو «الكناني»، أو «الشَّيباني»، أو «الكتاني»، أو «اللّساني»!، وإن كان بعضها مصحَّف عن الأخرى. فأيّما كان، فلا يضرُّ اختلاف اسمه في شخصيته ونسبه، طالما نرى هذا الرَّجل يتمتَّع بخصالٍ محمودة، وسجايا طيِّبة، وكان من خواصّ أمير المؤمنين عليه السلام، فحضر معه مشاهده، وكان من أصحاب الألوية بصفِّين، وهو من أهل الزُّهد والعبادة.

(٢) مَعْقِلُ بنُ سِنَانِ بنِ مُظْهِرِ بْنِ عَرَكِيِّ بنِ فِتْيَانَ بْنِ سُبَيْعِ بْنِ بَكْرِ بْـنِ أَشْـجَعَ، لـه صُحبة ورواية، شهد فتح مكَّة، وكان فاضلاً تقيّاً، وكان حامل لواء قومه، نزل الكوفة، وحضر مع أمير المؤمنين عليه السلام مشاهده، وهو من الَّذين قاموا بعد عديِّ بن حاتِم ولاموا النَّاس وأنَّبوهم في عدم اجابتهم الحسن المجتبى عليه السلام في جهاد معاوية، فقال لهم الحسن عليه السلام: «**صَدَقْتُمْ رَحِمَكُمُ اللهُ، مَا زِلْتُ أَعْرِفُكُمْ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالوَفَاءِ وَالقَبُولِ وَالمَوَدَّةِ الصَّحِيحَةِ فَجَزَاكُمُ اللهُ خَيْرَاً**». ثم أتى المدينة بعد أن تمَّ الصُّلح، وقُتل يوم الحرَّة، وقتله مسلم بن عقبة صبراً. الإستيعاب ٣/ ١٤٣١، أسد الغابة ٤/ ٣٩٧، الإصابة ٦/ ١٤٣.

(٣) وائِلُ بْنُ حُجْرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مَسْرُوقٍ الحَضْرَمِيّ، من أقيال حَضْرَمَوْتَ، وكان أبوه من ملوكهم بشّر النبي صلى الله عليه وآله بمجيئه قبل وصوله وأكرمه عند وصوله، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام صفِّين،

⇦

عُـرْوَة المُـرَادِيّ(١)، ورُشَـيْد الهَجَـرِيّ(٢)، ومِيْثَـم التَّمَّـار(٣)، وبُرَيْـر

⇦

وكان على راية حَضْرَمَوْتَ. إلاّ أنّه فارق عليّاً عليه السلام ولحق بمعاوية، كما صرّح به ابن أبي الحديد في النّهج ١٩/ ٣٥٢. وقال الثّقفي في الغارات ٢/ ٦٣٠: كان وائل بن حجر بالكوفة وكان يرى رأي عثمان، فاستأذن عليّاً عليه السلام ليذهب إلى بلاده ثم يرجع، فخرج فلمّا دخل بُسْر صنعاء كتب إليه: إنّ شيعة عثمان ببلادنا شطرُ أهلها، فأقدم علينا، فإنّه ليس بحَضْرَمَوْت رجلٌ يردُّك عنها، فأقبل بُسْر إليها بمن معه حتى دخلها. إنتهى، وحينئذٍ فشهوده صفّين ليس من إخلاص ومعرفة، وهو نظير شهود الأشعث.

يقول الفقيه المحقّق آية الله السيّد محمد علي الموحّد الأبطحي رحمه الله في تهذيب المقال في تنقيح كتاب رجال النّجاشي ٤/ ٣٧٦ـ٣٧٨:

«قلت: إنّ لوائل الحضرمي في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أخباراً، ولكنه له من بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وانقلاب النّاس، أخبار غير محمودة غير ما كان من أخباره مع أمير المؤمنين عليه السلام في مروره على المدائن إلى صفّين، وأيّام حرب صفّين:

فمنها: ما قد ذُكر له في أخبار حرب القادسيَّة وعمر بن الخطاب مع الأعاجم، وقد عُدّ من أشراف الكوفة الذين كانوا مع النّعمان قائد جيشه. ذكره الطّبري في تاريخه في وقائع سنة ٢١ [٣/ ٢١٥].

ومنها: أخباره في قصّة بُسرِ بن أرطاة، الذي بعثه معاوية في جيش كثيف لقتل أهل الحرمين واليمن وكلّ من كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ذكره ابن أبي الحديد في الشّرح [٢/ ٣].

ومنها: أخباره مع زياد بن أبيه في أيّام ولايته، ذكره الطّبري في تاريخه [٤/ ١٦٤].

ومنها: إستشهاد زياد لعنه الله على حُجر بن عديّ من خواصّ أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه، ينفّذ أمر قتلهم، من جماعة هو أحدهم. وعُدّ وائل بن حجر في هؤلاء الشُّهود، كما ذكره الطبري في تاريخه في وقايع سنة ٥١ [٤/ ٢٠١]. فكلّها تدلّ على انحرافه عن الإمام وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله.»

أقول: عدُّه ضمن أولئك الأخيار من صحابة الإمام الحسن عليه السلام، سهوٌ.

(١) هَانِي بْنُ عُرْوَةَ بن نُمْرانَ بنِ عَمْرِو بنِ قِعَاسِ بنِ عَبْد يَغُوثَ بنِ مَخْدَشٍ، المُرَادِيّ، المَذْحِجِيّ، أبُو يحيى، كان صحابياً كأبيه عروة، وكان معمّراً، وكان هو وأبوه من وجوه الشّيعة. وروى المسعودي في مروج الذّهب ٣/ ٥٩: «وهو شيخها ـ أي مراد ـ وزعيمها، وهو يومئذٍ يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، وإذا أجابتها احلافُها من كندة وغيرها كان في ثلاثين ألف دارع». وحضر مع أمير المؤمنين عليه السلام حروبه الثلاث، نزل عنده مسلم بن عقيل عليه السلام حين قدم الكوفة لأخذ البيعة لسيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، أخذه ابن زياد وطلب منه أن يعرّفه بمقرّ مسلم، فأبى عليه ذلك،

⇦

⇦

فضرب وجهه بقضيب كان في يده كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجنته، وكسر القضيب على وجهه ورأسه، بعد كلام جرى بينهما، وأمر به إلى السجن، وبقي عنده إلى أن قبض على مسلم فقتلهما وجرَّهما بالأسواق، وبعث برأسيهما إلى يزيد بن معاوية. ولما ورد نعيه ونعي مسلم إلى الحسين عليه السلام جعل يقول: «رَحْمَةُ الله عَلَيْهِمَا» يكرّر ذلك ثم دمعت عينه. كان عمره يوم قتل بضعاً وتسعين، وذكر بعضهم أن عمره كان ثلاثاً وثمانين. إبصار العين للسّماوي / ١٢٥، قاموس الرِّجال ١٠/ ٤٩٠.

أقول: لما قتل هاني مع مسلم بن عقيل فرّ ابنه يحيى واختفى عند قومه خوفاً من ابن زياد ـ لعنه الله ـ فلمّا سمع بنزول الحسين عليه السلام بكربلاء جاء وانضمَّ إليه، ولزمه إلى أن شبّ القتال يوم الطَّف، فتقدّم وقَتل من القوم رجالاً كثيرة، ثم نال شرف الشهادة رضي الله عنه. قاموس الرِّجال ١١/ ٨٤.

(١) رُشَيْدٌ الْهَجَرِيُّ ـ قال المحقّق النّراقي رحمه الله في عوائد الأيام / ٨٥٩: رأيت بعض أصحابنا قد ضبط «الْهَجَرِيّ»، بضمِّ الجيم، وهو اشتباه ـ. وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الواعين الرّاسخين. وعُدّ من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام أيضاً، كان أمير المؤمنين عليه السلام يعظّمه ويسمّيه: رُشَيْدَ البَلايَا. والمعروف أنّه عليه السلام قد ألقى إليه علم المنايا والبلايا، قال له الإمام عليه السلام يوماً: «**كَيْفَ صَبْرُكَ إذَا أَرْسَلَ إِلَيْكَ دَعِيُّ بَنِي أُمَيَّةَ، فَقَطَعَ يَدَيْكَ وَرِجْلَيْكَ وَلِسَانَكَ؟**» قال: أيكون آخر ذلك إلى الجنَّة؟ قال: «**بَلَى يَا رُشَيْدُ، أَنْتَ مَعِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**» الإختصاص للشّيخ المفيد / ٧٧، أمالي الشّيخ الطّوسي / ١٦٥. وهذا غاية في الرّضا والصّبر، وبرهن على ثبات قدمه وصدق عقيدته حين أرسل إليه عبيد الله بن زياد الدّعي، فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يبرأ منه، فقال له الدّعي: فبأيِّ ميتة قال لك تموت؟ فقال له: أخبرني خليلي أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا البراء فتقدمني فتقطع يدي ورجلي ولساني، فقال: والله لأكذبن قوله فيك، قال: فقدّموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه، فحملت أطراف يديه ورجليه، وعن قنواء ابنته قال: فقلت: يا أبت هل تجد ألماً لما أصابك؟ فقال: لا يا بنيّة إلاّ كالزّحام بين الناس، فلمّا احتملناه وأخرجناه من القصر اجتمع الناس حوله فقال: ايتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة، فأرسل إليه الحجّام حتى يقطع لسانه، فمات رحمه الله في ليله، ودفن بباب النّخيلة من الكوفة، وقبره اليوم بقرب جسر العباسيات بقرب قرية ذي الكفل وعليه قبة. أنظر: رجال الكشي ـ ١/ ٢٩٠، أعيان الشيعة ٧/ ٦، معجم رجال الحديث للسيّد الخوئي ٨/ ١٩٧،

(٢) مِيثَمُ بنُ يَحْيَى التَّمَّارُ، الأَسَدِيّ، أَبُو سَالِمٍ، جليلٌ من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وخواصّه. كان عبداً لامرأة فاشتراه أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقه، وقال له: «**مَا اسْمُكَ؟**» فقال: سالم، فقال: «**إنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أَخْبَرَنِي أَنَّ اسْمَكَ الَّذِي سَمَّاكَ بِهِ أَبُوكَ فِي العَجَمِ مِيثَمُ**»، فقال: صدق الله ورسوله وصدقتَ يا أمير المؤمنين فهو والله اسمي، قال: «**فَارْجَعْ إلى اسْمِكَ، وَدَعْ سَالِمًا، فَنَحْنُ نُكَنِّيكَ بِهِ**» فكنّاه أبا سالم. وهو ممن علّمهم أمير المؤمنين عليه السلام علم المنايا والبلايا. وقد كان الإمام عليه السلام قد

⇦

بن خُضَيْر الهَمْدَانِيّ(١)، وحَبَّة العُرَنِيّ(٢)، وحُذَيْفَة بن أَسِيد(٣)، وسَهْل بن سَعْد(٤)، والأَصْبَغ بن نُباتَة(٥)، وصَعْصَعَة بن صُوحَان(٦)، وأبي أُحَيْحَة بن

⇦

أخبره بكيفية استشهاده وما يلاقيه في سبيل الله. صحب الإمامين والحسن، والحسين عليهما السلام، قتله عبيد الله بن زياد قبل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بأيام. قاموس الرِّجال ١٠/ ٣١٠، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٣١٧.

(١) بُرَيْرُ بنُ خُضَيْر، الهَمْدَانِي، من خيار التَّابعين وكان زاهداً ناسكاً ومن عباد الله الصَّالحين، قارئاً للقرآن، وكان اقرأ أهل زمانه، (الأمالي للشَّيخ الصّدوق / ٢٢٤) وكان يقال له: سيِّد القرّاء، (مثير الأحزان لابن نما / ٤٥) وله في الهمدانيين شرف وقدر. بل في مجتمع الكوفة كلّه، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ولما بلغه خبر الحسين عليه السلام سار من الكوفة إلى مكة ليجتمع به عليه السلام فجاء معه حتى استشهد رضي الله عنه، وله في الطف قضايا ومواعظ تدل على قوة إيمانه. منها: قوله للحسين عليه السلام: والله يا بن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا، أن نقاتل بين يديك، فيقطّع فيك أعضائنا، ثم يكون جدُّك شفيعنا يوم القيامة. (بحار الأنوار ٤٤/ ٣٨١) ذكروا أنه خرج إليه يزيد بن المغفل يوم عاشوراء فاتّفقا على المباهلة إلى الله تعالى في أن يقتل المحقُّ منهما المبطل، فقتله برير. تاريخ الطَّبري ٤/ ٣٢٨.

(٢) حَبَّةُ بنُ جُوَيْنِ بنِ عَلِيٍّ، البَجَلِيُّ، العُرَنِيُّ، الكُوفِيّ، أَبُو قُدَامَةَ، عُدَّ في أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله، ويروي حديث الغدير، وهو من مشاهير أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن خواصّهم، وحضر حروبه الثّلاث. وصحب بعده الإمام الحسن عليه السلام، مات في سنة ٧٥ أو ٧٦ هـ في أول خلافة عبد الملك بن مروان. أسد الغابة ١/ ٣٦٧، معجم رجال الحديث ٥/ ١٩٢.

(٣) حُذَيْفَةُ بنُ أَسِيدِ بنِ أَبِي سَرِيحَةَ الغِفَارِيّ، من صحابة النَّبيّ صلى الله عليه وآله، وممَّن بايع تحت الشَّجرة بيعة الرّضوان، نزل الكوفة ومات فيها، وعُدَّ في أصحاب أبي محمد الحسن عليه السلام، توفِّي سنة ٤٢ هـ. الإستيعاب ٤/ ١٦٦٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٢٥٣، الإصابة ٢/ ٣٨.

(٤) سَهْلُ بنُ سَعْدِ بنِ مَالِكِ بنِ خَالِدٍ الأَنْصَارِيّ، المَذْحِجِيّ، السَّاعِدِيّ، أَبُو العبَّاس، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين عليه السلام، هذا وكان اسمه «حَزَناً» فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله «سهلاً»، توفِّي النَّبي صلى الله عليه وآله وله خمس عشرة سنة، عاش نحو مائة سنة، مات سنة ٨٨ أو ٩١، وهو آخر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله موتاً بالمدينة. الإستيعاب ٢/ ٦٦٤، أسد الغابة ٢/ ٣٦٦، الإصابة ٣/ ١٦٧.

(٥) أَصْبَغُ بنُ نُبَاتَةَ، التَّمِيمِيّ، الحَنْظَلِيّ، الكُوفِيّ، المُجَاشِعِيّ، أبو القَاسِم، كان من خاصَّة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن الوجوه البارزة بين أصحابه، وأحد ثقاته عليه السلام، مشهورٌ بثباته واستقامته على

⇦

مِحْصَن[٢]، وهَانِئ بن أوْس[٣]، وقَيْس بْن سَعْد بْن عُبَادَة[٤]، وسَعِيد بن قَيْس[٥]، وعَابِس بْن شَبِيب[٦]، وعَبْد الله بن يَحْيَى الحَضْرَمِيّ[١]، وإبْرَاهِيم بن مَالِك

⇦

ولائه المطلق وحبّه الخالص لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان من شُرطة الخميس، ومن أمرائهم، وشهد معه الجمل، وصفّين، وكان من فرسان العراق، وكان إذا لقي القوم لا يغمد سيفه، وهو من ذخائر أمير المؤمنين عليه السلام ممَّن قد بايعه على الموت، وهو معدودٌ في أنصاره الأوفياء المخلصين، روى عهده إلى مالك الأشتر، ووصيّته إلى محمَّد بن الحنفيَّة، وكان من القلائل الذين أُذن لهم بالحضور عند الإمام عليه السلام بعد ضربته، وكان شيخاً، ناسكاً، عابداً، وعُدَّ في أصحاب الإمام الحسن عليه السلام. موسوعة الإمام عليّ عليه السلام ١٢/ ٦١.

(١) تجد ترجمته في «زعماء الشيعة المروَّعُون» الصفحة / ٥٠٨ من هذا الكتاب.

(٢) أقول: لم أظفر بترجمة له غير ما ذكره الشيخ المفيد والشيخ الطّوسي رحمهما الله، بهذه العبارة: «عَمْرو بن مِحْصَن، يكنّى أبَا أُحَيْحَةَ، أصيب بصِفّين، وهو الّذي جهَّز أمير المؤمنين عليه السلام بمائة ألف درهم في مسيره إلى الجمل» الإختصاص / ٥، رجال الطُّوسي / ٧٣.

(٣) هَانِئ بنُ أوْسٍ الأسْلَمِيُّ، أبُو عُقْبَةَ، من أصحاب النَّبيّ صلى الله عليه وآله وممَّن شهد بيعة الشَّجرة، وهو المعروف في تراجم العامّة بأنّه كلَّم الذِّئب! ذُكر في كثير من المصادر باسم: «أُهْبَان بن أَوْسٍ الأَسْلَمِيِّ»، نزل الكوفة وابتنى بها داراً في أسْلَم، وتُوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان في ولاية المغيرة بن شعبة. الطَّبقات الكبرى ٦/ ٢٦، أسد الغابة ١/ ١٣٧، الإصابة ١/ ٢٨٩. هذا، ولم أعثر على ذكرٍ له في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ولا ابنه الحسن عليه السلام.

(٤) مرَّت ترجمته.

(٥) مرّت ترجمته.

(٦) عَابِسُ بْنُ أبِي شَبِيبِ بنِ شَاكِرِ بنِ رَبِيعَةَ بنِ مَالِكِ بن صَعْبِ بنِ مُعَاوِيَةَ بنِ كَثِيرِ بنِ مَالِكِ بنِ جُشَمَ بنِ حَاشِدٍ، الهَمْدَانِيّ، الشَّاكِرِيّ، وبنو شاكر بطنٌ من هَمْدَان. كان عَابِس من رجال الشِّيعة، رئيساً شجاعاً، خطيباً، ناسكاً، متهجِّداً، وكانت بنو شاكر من المخلصين بولاء أمير المؤمنين عليه السلام وفيهم يقول عليه السلام يوم صفّين: «**لَوْ تَمَّتْ عِدَّتُهُمْ أَلْفَاً لَعُبِدَ اللهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ**» (الجوهرة في نسب الإمام عليّ وآله للبرّي / ٢٥، العقد الفريد ٣/ ٣٣٩)، وكانوا من شجعان العرب وحماتهم، وكانوا يلقّبون: «فتيان الصَّباح».

ولما قدم مسلم بن عقيل عليه السلام الكوفة واجتمع عليه الشِّيعة في دار المختار، وقرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام،

⇦

الأشْـتَر النَّخَـعِيّ[٢]، ومُسْـلِم بـن عَوْسَـجَة[٣]، وعَمْـرو بـن الحَمِـق

⇦

أعرب عَابِس عن ولائه الخالص واستعداده للتَّضحية في كلامه لمسلم عليه السلام بقوله: «أمَّا بعد، فإنِّي لا أخبرك عن النَّاس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغُرّك منهم، ولكن والله أخبرك بما أنا مُوطِّنٌ نفسي عليه، والله لأجيبنَّكم إذا دعوتم، ولأقاتلنَّ معكم عدوَّكم، ولأضربنَّ بسيفي دونكم، حتَّى ألقى الله، لا أريد بذلك إلاَّ ما عند الله». تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٦٤، أرسله مسلم بن عقيل إلى الحسين عليه السلام بالرِّسالة الَّتي أخبره فيها ببيعة أهل الكوفة، ودعاه إلى القدوم، وله مواقفه يوم عاشوراء، لَمَّا أراد البراز سلَّم على الحسين عليه السلام وقال: «يا أبا عبد الله، أمَا والله ما أمسى على ظهر الأرض قريبٌ ولا بعيدٌ، أعزَّ عليَّ ولا أحبَّ إليَّ منك، ولو قَدِرت على أنْ أدفع عَنك الضَّيمَ والقتلَ بشيء أعزّ عليَّ من نفسي ودمي لفعلته؛ السَّلام عليك يا أبا عبد الله، أُشْهِدُ الله أنِّي على هَديك وهَدي أبيك». ثم أبلى بلاءاً حسناً حتى استشهد مع سيّد الشهداء عليه السلام، تاريخ الطَّبري ٤/ ٣٣٨، وقد وقع التَّسليم عليه في زيارتي النَّاحية والرَّجبية.

(١) ستأتي ترجمته للمؤلّف رحمه الله الصفحة / ٤٩٥ من هذا الكتاب.

(٢) إبْرَاهِيمُ بنُ مَالِكِ (الأشْتَر) بنِ الحَارِثِ، النَّخَعِي، شَبه أباه بالشَّجاعة والبسالة، ومن يُشبه أبه فما ظلم، شهماً، مقداماً، رئيساً، عالي النَّفس، بعيد الهمة، وفياً، شاعراً، فصيحاً، موالياً لأهل البيت عليهم السلام، حضر مع أبيه وقعة صفِّين مع أمير المؤمنين عليه السلام وهو غلام، وأبلى فيها بلاء حسناً، استعان به المختار في أخذ ثأر سيِّد الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأنصاره رضوان الله عليهم، وهو الّذي قتل عبيد الله بن زياد يوم الخازر، قُتل مع مصعب بن الزبير سنة ٧٢، وهو يحارب عبد الملك بن مروان، ومرقده قرب سامراء مزور معظّم وعليه قبّة. أعيان الشّيعة ٢/ ٢٠٠، الأعلام للزّركلي ١/ ٥٨.

(٣) مُسلِمُ بنُ عَوْسَجَةَ بن سَعْدِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ دُودَانَ بْن أَسَدِ بْنِ خُزيْمَة، أبو حَجَل، الأسَدِيُّ، السَّعْدِيُّ، كان رجلاً شريفاً عابداً متنسِّكاً. وهو ممَّن كاتب الإمام الحسين عليه السلام من الكوفة ووفى له، وممَّن أخذ البيعة له عند مجيئ مسلم بن عقيل إلى الكوفة. وبعد أن قبض على مسلم وهاني وقُتلا، اختفى مدَّة ثمَّ فرَّ بأهله إلى الحسين عليه السلام، فوافاه بكربلا وفداه بنفسه. وله مواقفه النَّبيلة مع الإمام الحسين عليه السلام ما تنبئ عن غاية إخلاصه وولائه المطلق لأهل البيت الطاهرين عليهم السلام.

وروى أصحاب المقاتل والسِّير، أنَّ الإمام الحسين عليه السلام حين خطب أصحابه وأذن لهم بالإنصراف في جوف ليلة العاشر من المحرّم، قام إليه رجالات من أهل البيت عليهم السلام وأعربوا عن ثباتهم واستقامتهم معه، ومن الأنصار قام مسلم بن عوسجة فقال: «أنحن نخلِّي عنك، ولم نعذر إلى الله في أداء حقِّك ؟ ! أمَ والله لا أبرح حتى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي، ما ثبت قائمه بيدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن

⇦

الخُزاعِـــيّ(١)، وبَشِـير الهَـــمْدَانِــيّ(٢)، والمُـسَيَّب بـــن نَجِـيَّة(٣)، وعـــامــر بـــن واثِلَـــة الكِنَـــانِيّ(٤)، وجُـوَيْـرِيَـة بْن مُســــــهِر(٥)، وعَبْـد الله بن مِسْـــمَع

⇨

معي سلاحٌ أقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.» أنظر: تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٣١٨، أنساب الأشراف ٣/ ٣٩٣.

ومشى إليه الحسين عليه السلام عند مصرعه فإذا به رمق، فقال له الحسين عليه السلام: «**رَحِمَكَ اللهُ يَا مُسْلِمَ بْنَ عَوْسَجَةَ**» **وقرأ**: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ سورة الأحزاب/ ٢٣، ثم دنا منه حبيب بن مظاهر، فقال: «عزَّ عليّ مصرعك يا مسلم! أبشر بالجنة!» فقال له مسلم قولاً ضعيفاً: «بشّرك الله بالخير»، فقال له حبيب: «لولا أني أعلم أني في أثرك، لاحقٌ بك من ساعتي هذه، لأحببت أن توصيني بكلّ ما أهمّك، حتى أحفظ لك في كلّ ذلك بما أنت أهلٌ له في القرابة والدِّين»، قال: «بل أنا أوصيك، يرحمك الله، بهذا، ـ وأهوى بيده إلى الحسين عليه السلام ـ أن تموت دونه»، قال: «أفعل وربِّ الكعبة». أنظر: الإرشاد ٢/ ١٠٣، مثير الأحزان/ ٤٧، تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٣٣١، تاريخ ابن الأثير ٤/ ٦٨. اللّهوف / ٦٤.

وكان شجاعاً مقداماً كما شهد له بذلك عدوُّه شَبَث بن رِبعيّ، حين سمع تباشر أصحابه بقتله، قال: «ثكلتكم أمّهاتكم، إنما تقتلون أنفسكم بأيديكم، وتذلّون أنفسكم لغيركم، أتفرحون أن يُقتل مثلُ مسلم ابن عوسجة؟ أمَا والّذي أسلمت له، لَرُبَّ موقفٍ له قد رأيته في المسلمين كريم، لقد رأيته يوم سَلَقِ آذربايجان، قتل ستّة من المشركين قبل أن تتامّ خيول المسلمين، أفيُقتل منكم مثله وتفرحون؟! تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٣٣٢.

(١) تقدَّمت ترجمته.

(٢) بَشِيرُ بنُ عَمْرٍو الهَمْدَانِيّ، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ومن شُرطَة الخميس، فقد روى الكشّي بإسناده عنه ـ أي: الهمداني ـ قال: مرَّ بنا أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «**إكتَتِبُوا فِي هَذِهِ الشُّرْطَةِ، فَوَالله لا غَنَاءَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ إلاَّ شُرْطَةُ النَّارِ، إلاَّ مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِ أعْمَالِهِمْ**.» اختيار معرفة الرِّجال ١/ ٢١.

(٣) تقدَّمت ترجمته.

(٤) عامِرُ بنُ وَاثِلَةَ بن عبدِ الله الكِنَانِيُّ، اللّيْثِيّ، أبو الطُّفَيل، ولد في السَّنة التي كانت فيها غزوة أحد، أدرك ثماني سنين من حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله، ورآه، وهو آخر من مات من الصَّحابة، تُوفِّي سنة ١٠٠ هـ، كان من أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وثقاته ومحبِّيه وشيعته وشهد معه جميع حروبه. كان له حظٌّ وافر من الخطابة، وكان ينشد الشِّعر الجميل، كما كان مُقاتلاً باسلاً في الحروب، خطب في صفِّين كثيراً،

⇦

الهَمْـدَانِيّ(٢)، وقَيْـس بن مُسْـهِر الصَّـيْدَاوِيّ(٣)، وعَبْد الـرَّحمن بن عَبْـد الله

⇨

وذهب إلى العسكر ومدح علياًعليه السلام بشعره النّابع من شعوره الفيّاض، وافتخر بصمود أصحاب الإمام، وقدح في أصحاب الفضائح من الأمويين وأخزاهم. وكان عامر بن واثلة حامل لواء المختار، عندما نهض للثأر بدم الإمام الحسينعليه السلام.

طبقات بن سعد ٦/ ٦٤، تاريخ بن عساكر ٢٦/ ١١٣، الإستيعاب ٢/ ٧٩٩، أسد الغابة ٣/ ٩٦، الإصابة ٧/ ١٩٣، موسوعة طبقات الفقهاء ١/ ١٤٢، موسوعة الإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام ١٢/ ١٧٩.

(١) جُوَيْرِيَّةُ بنُ مُسْهِر العَبْدِيُّ، من أصحاب الإمام أمير المؤمنينعليه السلام السّابقين المقرَّبين، ومن ثقاته، وكان الإمام يحبُّه. استشهد جُوَيرِيَّة في أيّام خلافة معاوية، حيث قطع زيادٌ يده ورجله، ثم صَلَبه. أنظر: لسان الميزان ٢/ ١٤٤، تاريخ الكوفة للسيّد البراقي / ٣٢، أعيان الشّيعة ٤/ ٢٩٩، معجم رجال الحديث للسيِّد الخوئي ٥/ ١٥١.

(٢) عَبْدُ الله بنُ مِسْمَع (أو: سُبَيْع) الهَمْدَانِيّ، السَّبِيعِيُّ، من أصحاب أمير المؤمنينعليه السلام وهو يروي عنه قوله: «**مَا يَنْتَظِرُ أَشْقَاهَا؟ عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ**صلى الله عليه وآله **لَيُخَضِّبَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذَا.**» مجمع الزّوائد ٩/ ١٣٧، المصنَّف لابن أبي شيبة ٨/ ٦٤١، وهو ثاني المبعوثين من أهل الكوفة إلى الإمام الحسينعليه السلام بكتبهم، الإرشاد ٢/ ٣٧، أنساب الأشراف ٣/ ٣٦٩، وله ذكر في ثورة المختار تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٥٢٠.

(٣) قَيْسُ بنُ مُسْهِرٍ، الصَّيْدَاوِيّ، الكُوفِيّ، الأَسَدِيّ، ومن أشرافهم، وكان شجاعاً مخلصاً في محبة أهل البيتعليهم السلام. أحد حملة الرَّسائل من قِبَل الكوفيين إلى سيِّد الشُّهداءعليه السلام بعد إعلانه رفضه لبيعة يزيد، وخروجه إلى مكّة (الإرشاد ٢/ ٣٧، تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٦٢)، صَحِب مُسْلِم بن عقيلعليه السلام حين قَدِم من مكّة مبعوثاً من قِبَل الإمام الحسينعليه السلام إلى الكوفة، (الإرشاد ٢/ ٣٩، تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٦٣) وبعدها حمل رسالةً من مُسلم إلى الحسينعليه السلام يخبره فيها بيعة من بايع ويدعوه إلى القدوم، وصَحِب الإمام الحسينعليه السلام حين خرج من مكّة متوجِّهاً إلى العراق، حتى إذا انتهى الإمام الحسينعليه السلام إلى الحاجر من بطن الرمة حمل رسالة من الحسينعليه السلام إلى الكوفيين يخبرهم فيها بقدومه عليهم فقبض عليه الحصين بن نمير، فأتلف قيس الرِّسالة، وجاء به الحصين إلى عبيد الله بن زياد الذي حاول أن يعرف منه أسماء الرجال الذين أرسل إليهم كتاب الحسين ففشل، فأمر عبيد الله به فرمي من أعلى القصر فتقطع فمات، (الإرشاد ٢/ ٧١، تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٢٩٧) وقيل لما رمي من فوق القصر وبقي به رمق، أتاه عبد الملك بن عمير، فذبحه

⇦

بن شَـدَّاد الأرْحَـبِيّ(١)، وعُـمارَة بـن عَبـد الله السَّـلُولِيّ(٢)، وهَـانِئ بـن هَـانِئ السَّـبيعِيّ(٣)، وسَعِـيد بـن عَبـد الله الحَنَـفِيّ(٤)، وكَثِير بْـن

⇨

فلما عيب ذلك عليه، قال: إنما أردت أن أريحه!. (الإرشاد ٢/ ٧١)

وحين تناهى خبر استشهاده إلى الإمام الحسين عليه السلام ترقرقت عيناه، وقال: «﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾، **اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا وَلَهُمُ الجُنَّةَ مَنْزِلاً، وَاجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْـنَهُمْ فِي مُسْـتَقَرِّ رَحْمَتِـكَ، وَرَغَائِـبِ مَذْخُورِ ثَوَابِكَ.**» (تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٣٠٦) وهو من الشُّهداء الَّذين ورد في حقِّهم السَّلام في زيارة النَّاحية المقدَّسة.

(١) تقدَّمت ترجمته.

(٢) عُمارَةُ بنُ عَبدِ الله السَّلُولِيُّ، الكُوفيُّ، من التّابعين، وصَحِب أمير المؤمنين عليه السلام، وروى عنه، (معرفة الثِّقات ٢/ ١٦٢)، وكان حامل كتاب أهل الكوفة إلى مولانا الإمام الحسين عليه السلام ورجع مع مسلم بن عقيل عليه السلام إلى الكوفة. (الإرشاد ٢/ ٣٧ و٣٩) وأشار على هانئ بن عروة بقتل ابن زياد، حين زيارته له. (تاريخ الطّبريّ ٤/ ٢٧٠)

(٣) هَانِئ بنُ هَانِئ، الهَمْدَانِيّ، الكُوفِيّ، (وقيل: السَّبِيعِيّ) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وروى عنه، وهو وسعيد بن عبد الله الحنفي هما آخر من أرسله أهل الكوفة إلى الإمام الحسين عليه السلام يحملان إليه كتبهم يطلبون منه القدوم عليهم. تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٢٦٢.

(٤) سَعِيدُ بنُ عَبدِ الله الحَنَفِيُّ، من وجوه الشِّيعة بالكوفة وذوي الشّجاعة والعبادة فيهم، قال أهل السِّير: لَمّا ورد نعي معاوية إلى الكوفة، اجتمعت الشِّيعة فكتبوا إلى الحسين عليه السلام أوّلاً مع عبد الله بن وال، وعبد الله بن سبع، وثانياً، مع قيس بن مُسهِر، وعبد الرَّحمن بن عبد الله، وثالثاً، مع سعيد بن عبد الله الحنفي، وهانئ بن هانئ.

وهو من شهداء يوم الطَّف وتشرَّف بسلام النَّاحية المقدَّسة، له بكربلا مواقف مشهودة تدلُّ على رسوخ إيمانه، وشجاعته وشدَّة ولائه لأهل البيت عليهم السلام منها: ليلة عاشوراء لَمّا جمع الإمام الحسين عليه السلام أصحابه وأذن لهم بالإنصراف، وقام رجالٌ من بني هاشم والأنصار فتكلّموا بكلام ملؤه الإيمان الصَّدق والولاء الكامل والشَّجاعَة الفائقة، فكان مِمَّن قام سَعيدُ بن عبد الله الحَنَفِيّ، وتكلَّم ـ بكلام مذكور في زيارة النَّاحية المقدَّسة ـ فقال: لا والله لا نخلِّيك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو أعلم أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بي ذلك سبعين مرَّة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، وكيف أفعل ذلك وإنما هي موتةٌ وقتلة واحدة، ثمَّ بعدها الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.

⇦

شِهَـاب(١)، وعَبْــد الرَّحْــمَن بن جُنْــــدَب الأزْدِيّ(٢)، وعَبْد الله بن عَزِيز

⇨

الإرشاد ٢/ ٩٢، المزار لابن المشهديّ / ٤٩٢، إقبال الأعمال للسيِّد بن طاووس ٣/ ٧٧، تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٣١٨، البداية والنّهاية ٨/ ١٩١.

ومنها: يوم عاشوراء حين أقام الإمام الحسين عليه السلام الصّلاة فتقدَّم أمامه ، فاستهدف للقوم، يرمونه بالنَّبل كلَّما أخذ الحسين عليه السلام يميناً وشمالاً، قام بين يديه، فما زال يُرمى به حتى سقط إلى الأرض وهو يقول: اللَّهمَّ العنهم لعن عاد وثمود، اللَّهُمَّ أبلغ نبيَّك السَّلام عنِّي، وأبلغه ما لقيت من ألم الجِراحِ، فاني أردت بذلك نُصرة ذُرِّية نبيِّك. ثم مات رضوان الله عليه، فوُجد به ثلاثة عشر سهماً، سوى ما به من ضرب السُّيوف وطعن الرِّماح. بحار الأنوار ٤٥/ ٢١.

(١) كَثِيرُ بْنُ شِهَابِ المَذْحِجِيّ، ناصبيٌّ خبيثٌ، ولي لمعاوية على خراسان والرَّي وكان يُكثر سبَّ أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام على منبر الرَّي، ومن حواشي ابن زياد، وكان يخذِّل النَّاس عن نصرة مسلم بن عقيل عليه السلام بأمر ابن زياد، فكان يخرج في عدد للقبض على من رآه يريد مُسْلِماً، فقبض على جماعة فحبسهم عبيد الله، منهم: عبد الأعلى بن يزيد الكلبي العليمي، خرج مع مسلم بن عقيل فيمن خرج، فقبض عليه كَثير بن شِهاب، فسلَّمه إلى عبيد الله بن زياد فحبسه، ولما قُتل مسلم أحضره عبيد الله بن زياد فسأله عن حاله، فقال: إنما خرجت أنظر، فطلب منه اليمين فلم يحلف، فأخرجه إلى جَبَّانَة السَّبيع فقتله هناك رحمه الله. أنظر: تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٢٧٦.

وبعد استشهاد مسلم بن عقيل عليه السلام كان يدور بالكوفة يأمر النَّاس بالجماعة، ويحذِّرهم الفتنة والفُرقة، ويخذِّل عن الحسين عليه السلام ! بعد أن كان هو ممّن كتب إلى الحسين عليه السلام يطلب منه القدوم إلى الكوفة ، ثم خرج عليه يقاتله وفي بعض الأخبار خصَّه ومعه شَبَث بن رِبعي الإمام الحسين عليه السلام بالخطاب فقال: «**يَا شَبَثَ بْنَ رِبْعي، وَيَا كَثِيرَ بْنَ شِهَابٍ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ: أَنْ أَقْدِمْ، لَكَ مَا لَنَا وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْنَا؟**» فقالا: ما نعرف ما تقول، فانزل على حكم الأمير وبيعة يزيد، فقال عليه السلام: «**وَالله لا أُعْطِي بِيَدِي إِعْطَاءَ الذَّلِيلِ، وَلا أُقِرُّ إِقْرارَ الْعَبِيدِ! وإِنِّي أَعُوذُ بِالله أَنْ أَنْزِلَ تَحْتَ حُكْمِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ.**» ينابيع المودَّة للقندوزيّ الحنفيّ ٣/ ٦٦. فعليه لا يصحّ عدُّ هذا الرَّجل النَّاصبيّ في الأخيار من أنصار أبي محمَّد الإمام الحسن عليه السلام.

(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ جُنْدَبِ الأزْدِيّ، أبوه «جُنْدَبُ بنُ عبدِ الله» المعروف بجُندَب الخير، وقد مرّ ذِكره، وهو يروي عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، بعض كلماته وأخباره.

الكِنْدِيّ[1]، وأبي ثمامَة الصَّائِدِيّ[2]، وعَبَّاس بن جَعْدَة الجَدَلِيّ[3]، وعَبد الرَّحمَن بن

---

(١) عَبْدُ الله بنُ عَزِيزٍ الكِنْدِيّ، أو عبيد الله بن عمرو بن عزيز الكندي، ويظهر أنهما اثنان فالأوّل ليس له ذكر في سيرة أو نقل سوى أنهم ذكروه في ثورة التوّابين وعداد من قُتل منهم، وأمّا الثّاني فيقول عنه السيِّد البراقيّ:

«عُبَيْدُ الله بنِ عَمْرِو بنِ عَزِيزٍ الكِنْدِيّ، وكان فارساً شجاعاً كوفيّاً من الشِّيعة، وشَهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام مشاهدَه كلّها، وكان من الّذين بايعوا مُسلماً، وممّن يأخذ البيعة من أهل الكوفة للحسين عليه السلام هو ومسلم بن عوسجة، فلمّا رأى مُسلِم بن عقيلٍ اجتماع النَّاس، عقد لمسلم بن عوسجة الأسديّ على ربع مذحج وأسد، وعلى ربع كِندة وربيعة عبيد الله بن عمرو بن عزيز الكِنديّ، فلمّا تخاذل النَّاس عن مسلم، قبض عليه الحُصَين بنُ نُمَيْرٍ التَّميميّ، فسلَّمه إلى عبيد الله بن زياد فحبسه، ولمّا قُتِل مُسلِم بن عَقيلٍ، أحضره ابن زياد فسأله: ممّن أنت ؟ قال: من كندة، قال : أنت صاحب راية كندة وربيعة ؟ قال : نعم، قال : انطلقوا به فاضربوا عنقه. قال : فانطلقوا به فضربت عنقه رحمه الله. تاريخ الكوفة / ٣٣٣. ورغم بحثي في المصادر المتعدِّدة إلاّ أنّني لم أعثر على شيء من أحواله وسيرته.

(٢) عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ، الأَنْصَارِيّ، الهَمْدَانِيّ، الصَّائِدِيّ، أَبُو ثُمامَةَ، قال السّماويّ في إبصار العين / ١١٩:

كان أبو ثمامة تابعيّاً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشِّيعة، ومن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الّذين شهدوا معه مشاهده، ثم صحب الحسين عليه السلام بعده ، وبقي في الكوفة، فلمّا تُوفِّي معاوية كاتب الحسين، ولما جاء مُسلم بن عقيل إلى الكوفة قام معه، وصار يقبض الأموال من الشِّيعة بأمر مسلم فيشتري بها السِّلاح، وكان بصيراً بذلك، ولما دخل عبيد الله الكوفة وثار الشِّيعة بوجهه، وَجَّهه مسلم فيمن وجَّهه، وعقد له على ربع تميم وهَمْدان. فحصروا عبيد الله في قصره، ولما تفرّق عن مسلم النَّاس بالتخذيل، اختفى أبو ثُمامة فاشتدَّ طلب ابن زيادٍ له، فخرج إلى الحسين عليه السلام ومعه نافعُ بن هلالٍ الجملي، فلقياه في الطَّريق وأتيا معه. انتهى

وذكر أصحاب السِّير (تاريخ الطّبريّ ٤/ ٣٣٤) أنَّ أبا ثمامة لَمّا رأى الشَّمس يوم عاشوراء زالت وأنَّ الحرب قائمةٌ قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، نفسي لنفسك الفداء! إني أرى هَؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تُقتَل حتى أقتل دونك إنْ شاءَ الله، وأحِبُّ أنْ ألقى اللهَ رَبِّي وقد صَلَّيتُ هذه الصَّلاةَ الّتي دنا وقتُها، فرفع الحسين عليه السلام رأسه ثم قال: «**ذَكَرْتَ الصَّلاةَ، جَعَلَكَ اللهُ مِنَ المُصَلّينَ الذّاكِرِينَ، نَعَمْ، هذا أَوَّلُ وَقْتِها**».

وفي اللّهوف للسيِّد بن طاووس / ٦٥: ثم برز عمرو بن خالد الصَّيداوي فقال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله،

⇦

شُريح الشَّيْباني[٢]، والقَعْقَاع بن عُمَر[٣]، وقَيْس بن وَرْقَاء[١]، وجُنْدَب بن عَبد الله

⇦

جُعِلتُ فِدَاكَ قد هَممتُ أنْ ألحق بأصحابك، وكرهت أنْ أتخلَّف فأراك وحيداً بين أهلك قتيلاً. فقال له الحسين عليه السلام: «**تَقَدَّمْ، فَإِنّا لاحِقُونَ بِكَ عَنْ سَاعَةٍ**». فتقدَّم، فقاتل حتَّى قُتِل رضوان الله عليه.

وقد وقع التَّسليم عليه في زيارتي الناحية المقدَّسة والرَّجبية.

(١) عَبَّاسُ بنُ جَعْدَةَ الجَدَلِيّ، كان من الشِّيعة المخلصين في الولاء، وبايع مسلماً، وكان يأخذ البيعة للحسين عليه السلام، وعقد لعباس بن جعدة الجدلي على ربع المدينة، (مقاتل الطالبيين / ٧٠، تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٧٥) ولما تخاذل الناس عن مسلم، أمر ابن زياد بالقبض عليه وحبسه. ثم بعد شهادة مسلم، قُتل شهيداً رضوان الله عليه. أنظر: مستدركات علم رجال الحديث للنّمازي الشّاهروديّ ٤/ ٣٤٣، تاريخ الكوفة للسيِّد البراقي / ٣٣٥.

(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شُرَيْحِ الشَّيْبَانِيُّ، أو الشِّبَامِيُّ، شريف المنزلة، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، بايع مسلماً عليه السلام وكان من أعوانه وثقاته في أحداث الكوفة، (الإرشاد ٢/ ٥٣، تاريخ الطَّبريّ ٤/ ٢٧٦) ثم صار بعد من أصحاب المختار لطلب الثأر. أنساب الأشراف ٦/ ٣٨٤.

(٣) القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو التَّمِيميُّ، كَثُر الكلام عنه وفيه، فذهب جماعةٌ إلى أنّه من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وآله وشَهِد الأحداث الّتي تلت رحيل النّبيّ صلى الله عليه وآله، منها وقائع السَّقيفة، وقال بعضهم: إنّما هو من التَّابعين، وكان له بالقادسيَّة مشاهد كريمةٌ ومقاماتٌ محمودةٌ وبلاءٌ حسنٌ، ومال الآخرون من المحقِّقين مثل السيِّد مرتضى العسكريّ رحمه الله والشَّيخ حسن فرحان المالكي وغيرهما، إلى أنَّ شخصيّة القَعْقَاع لا تعدو أن تكون أسطورةً، مكذوبةً، قد اختلقها سيف بن عمر في تاريخه المليء بالأكاذيب والأساطير.

فقد نسب سيف إلى هذه الشَّخصيّة المختلقة العجائب والخوارق، وأكثر الطَّبريُّ الرِّوايةَ عنه في تاريخه مما سبّب في إشاعة أسطورته. وأمَّا سيف فقد أجمع علماء الجرح والتَّعديل على ضعفه وسقوط مرويّاته، وقد انحصرت حكايات القَعْقَاع فيه. ومن رام التَّفصيل فنرشده إلى كتاب: «أحاديث أمِّ المؤمنين عائشة» و«عبد الله بن سبأ» للسيِّد العسكري وكتاب: «نحو إنقاذ التَّاريخ الإسلامي» للمالكي الآنف الذِّكر. ونحن لا نقطع بالنَّفي، إلا أنَّه إنْ صحَّ وجوده خارجاً، فلا نشكَ أنَّه رجلٌ بسيطٌ، بالغ فيه سيفُ بنُ عمر، حتَّى أوصله إلى هذا الحدّ، واختلق له هذه الأساطير من البطولات الخارقة والفُتوحات العظيمة. ولا يخفى أنَّ أخبار «عبد الله بن سبأ» في الفتنة أيضاً تعود إلى خصوص «سَيْف»، ويمكن القول أنَّ لعبد الله بن سبأ شخصيَّتين: الأولى: ما عرفت في أحداث الفتنة، من قتل عثمان، حتَّى حرب البصرة، وأمَّا الثّانية: وهي الّتي ظهرت

⇦

الأَزْدِيّ(٢)، والحرِث بن سُوَيْد التَّيْمِيّ(٣)، وزِيَاد بن صَعْصَعَة التَّيْمِيّ(٤)، وعَبْد الله بن وَال(٥)، ومَعْقِل بن قَيْس الرِّيَاحِيّ(٦).

⇦

في الكوفة ودعت إلى تأليه أمير المؤمنين عليه السلام. فالوهميّ منها الأولى وأمّا الثّانية فقد تساعد عليها بعض الأخبار.

(١) قَيْسُ بنُ وَرْقَاء، المعروف بـ «سَفِينَة»، عدّه ابن شهرآشوب في المناقب [٣/ ١٩١]، في أصحاب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وأصحاب أبيه صلوات الله عليه، وأنه من نوّابه. وقد أحصى الفقيه المحقّق السيّد الخوئي رحمه الله أخباره في معجم رجاله ٩/ ١٧٠، وحكم على ضعف أسانيد جملة منها وأنّ المتّهم فيها «الحسين بن حمدان» صاحب: «الهداية الكبرى». والّذي أراه بعد التّحقيق بحاله، أنّ أصل وجوده غير محقّق، وقد يكون أسطورة ليس إلاّ، وليس له وجودٌ خارجاً. والله أعلم.

(٢) تقدّمت ترجمته.

(٣) تقدّمت ترجمته.

(٤) تقدّمت ترجمته.

(٥) عَبْدُ الله بنُ وَالٍ التَّيْمِيّ، من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وحدّث عنه، وذكروه مع عبد الله بن مسمع الهمداني حاملين كتاب أهل الكوفة إلى مولانا الإمام الحسين عليه السلام (الإرشاد ٢/ ٣٧،) وكتب الإمام الحسين عليه السلام إليه وإلى غيره من أهل الكوفة، وكان من وجوه التوّابين الّذين قاموا بطلب ثأر الحسين عليه السلام بعد وقعة الطفّ، وقُتل في تلك الوقعة (تاريخ الطّبريّ ٤/ ٤٢٦ـ٤٦٨، ذوب النضار لابن نما الحلّي/ ٨٦ـ٩٠).

(٦) مَعْقِلُ بنُ قَيْسٍ الرِّيَاحِيّ، شجاعٌ، من مقاتلي الكوفة، وخطيبٌ بليغٌ من خطبائها. وكان من أمراء الجيش في زمن الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسن المجتبى عليهما السلام. وكان رسول عمّار إلى المدينة في فتح «تُسْتَر» وقدم إليها مع الهرمزان، تولّى قيادة رجّالة الكوفة في معركة الجمل، وغدا أميراً على بعض قبائلها في معركة صفّين، وولي قيادة الجيش حيناً في معارك ذي الحجّة يوم صفّين، كان قائد الميسرة يوم النّهروان، ثم أمره الإمام عليه السلام بقمع تمرُّد «بني نَاجِيَة» فهزم الخِرّيت بن راشد، عندما أغار يزيد بن شجرة على مكة والمدينة، هبَّ معقل إلى مواجهته، فأسر عدداً من أصحابه ولاذ الباقون بالفرار، لمّا عزم الإمام عليه السلام على معاودة قتال معاوية بعد إخماد فتنة النّهروان، واستبان الإستعداد النّسبي الّذي أبداه أهل الكوفة للقتال، ذهب معقل إلى أطراف

⇦

وهؤلاء هم الجَناح القويُّ في جبهة الحسن عليه السلام. وهم السَّادة الَّذين وصفهم الحسن فيما عَهِد به إلى عبيد الله بن عبَّاس بأنَّ الرَّجل منهم يزيد الكتيبة، ووصفهم معاوية في حروب صفِّين بأنَّ قلوبهم جميعاً، كقلب رجلٍ واحدٍ[1]، وقال عنهم: «إنَّهم لا يُقْتَلون حتى يَقْتُلوا أعدَادَهم»[2]. وهم الَّذين عناهم يومئذٍ بقوله: «ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفِّين إلاَّ لُبِّسَ على عقلي»[3]. وشهادة العدُوِّ أصدقُ الشَّهادات مجداً.

⇦

الكوفة لجمع المقاتلين، لكنَّه تلقَّى ـ وهو في مهمَّته ـ الخبر المفجِع لاستشهاد الإمام عليّ عليه السلام. وفي سنة ٤٣ هـ خرج المُسْتَوْرِدُ بن عُلَّفَةَ ـ أحد أقطاب الخوارج ـ في أيَّام حكومة معاوية الغاصبة وهو يريد الشِّيعة، فنهض معقِل إلى قتاله، واستشهد بعد أن دَحَر جيشه وقتله في مبارزة بينهما، وصفه سعيد بن قيس بأنه ناصح، أريبٌ، صليبٌ، شُجاعٌ.

مصدر هذه التَّرجمة: موسوعة الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام ١٢/ ٣٠٨، ولمزيد الإطّلاع أنظر: تاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ٣٦٧، الإصابة ٦/ ٢٤١، الأعلام للزركليّ ٧/ ٢٧١، مستدركات أعيان الشِّيعة ٢/ ٣٢٨.

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣.

(٢) جاء ذلك في قصّة الصُّلح بين قيس بن سعد ومعاوية حين أرسل معاوية إليه يقول له: على طاعة من تقاتل؟ وقد بايعني الَّذي أعطيته طاعتك. فأبى قيسٌ أن يَلِينَ له، حتى أرسل إليه معاويةُ بسجلٍّ قد ختم عليه في أسفله، وقال: أُكتب في هذا ما شئت فهو لك. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: لا تُعْطِه هذا وقاتِلْهُ. فقال معاوية: على رِسْلك فإنَّا لا نَخْلَصُ إلى قتلهم، حَتَّى يقتلوا أعدَادَهُم من أهل الشَّام، فما خَيرُ العيشِ بعد ذلك؟ فإنِّي والله لا أُقَاتِلُه أبداً حتَّى لا أجد من قتاله بُدّاً. فلمَّا بعث إليه معاوية ذلك السِّجلَّ، اشترط قيسٌ لَه ولشيعة عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام الأمانَ على ما أصابوا من الدِّمَاء والأموال، ولم يسأل في سجلِّه ذلك مالاً، وأعطاه معاويةُ ما سأل، ودخل قيسٌ ومن معه في طاعته. أنظر: تاريخ الطبري ٤/ ١٢٥، الكامل لابن أثير ٣/ ٤٠٨.

(٣) مروج الذَّهب ٣/ ٥، الأمالي للشَّيخ الطُّوسي / ٢١٤. و«المَغَافِر»: جمع «مِغْفَر» زَرَدٌ من الدِّرْع يُنْسَجُ على قَدْرِ الرَّأس يُلْبَسُ تحت القَلَنْسُوَة، ويُقال: هو رَفْرَفُ البَيْضَةِ أو حَلَقٌ يَتَقَنَّعُ بها...، ورُبَّما كان المِغْفَرُ مِثلَ القَلَنْسُوَة غير أنَّها أوسعُ، يُلقيها الرَّجلُ على رَأسه فتبلُغ الدِّرعَ ثمَّ تُلبَسُ

⇨

وهزَّ أعصاب الكوفة في فورة الدَّعوة إلى الجهاد، تفاؤلٌ عنيفٌ غلب النّاس على منازعها، فإذا بالنّاس يتسابقون إلى صفوفهم بما فيهم العناصر المختلفة الّتي لا يعهد منها النَّشاط للدَّعاوات الخيِّرة والأعمال الصَّالحة والمساعي الخالصة لله عزَّ وجَلّ.

فجمع المعسكر إلى جنب أولئك المخلصين من أنصار الحسن سواداً من النّاس غير معروفين، وجماعةً من أبناء البيوت المُرائين، وجمهوراً من مدخولي النّيّة الّذين لا يتَّفقون معه في رأي، ورُبَّما لا يكونون إلاّ عَيْنَ عدُوِّه عليه وعلى أصحابه، وآخرين من الضُّعفاء الرَّعاديد الّذين إذا أكرهوا على القتال اتَّقوه بالفِرار، ورُبَّما لم يكن لهم من الأمل إلاّ أملُ الغنائم «**وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يُوَافِقُ أَحَداً فِي رَأْيٍ وَلا هَوَىً، مُخْتَلِفُونَ لا نِيَّةَ لَهُمْ فِي خَيْرٍ وَلا شَرٍّ**»[1]. ـ وفيهم إلى ذلك، المشاجراتُ الحزبيَّةُ الّتي ستكون في غدها القريب، شجرةَ الشَّوك في طريق التجهيزات الّتي تستدعيها ظروف الحرب.

وتخوَّف الحسن ـ منذُ اليومِ الأوَّل ـ نتائج هذا التلوُّن المؤسف الّذي انتشر ـ في صفوفه، والَّذي لا يُؤمن في عواقبه من الخذلان، وهو ما تشير إليه بعض المصادر[2] صريحاً.

فكان ينظر إلى الجماهير المرتجَزَة بين يديه للحرب، غيرَ واثق بثباتهم معه، ولا مؤمنٍ بإخلاصهم لأهدافه.

وتراءت له من وراء هؤلاء (في الكوفة)، الرُّؤوس ذوات الوجهين،

⇨

البَيْضَةُ فَوقَها، فذلك المِغْفَر يُرَفَّلُ على العاتِقَيْن، ورُبَّما جُعِل المِغْفَرُ من ديباجٍ وخَزٍّ أَسفلَ البَيْضَةِ. تاج العروس ٧/ ٣١٤.

(١) كلمة الحسن نفسه فيما وصف به أهل الكوفة، كما يرويها ابن الأثير (ج٣: ص٦٢) [٣/ ٤٠٧] (المؤلف ﵀).

(٢) يراجع شرح النهج (ج٤: ص١٤) [١٦/ ٣٨ـ٣٩، عنه البحار ٤٤/ ٥٠]. (المؤلف ﵀).
أقول: سيأتي ذكر بعض النُّصوص في فصل: «النَّفير والقيادة».

الّتي يئس من إصلاحها الهُدى، أمثـال: الأشْـعَث بـنِ قَيسٍ، وعَمْرو بـن حُرَيـث، ومُعاوية بن خَدِيج[١]، وأبي بردة الأشعري، والمُنْذِر بن الزُّبير[٢]، وإسْحَاق بـن

(١) مُعَاوِيَةُ بنُ خَدِيجٍ ـ أو حُدَيج ـ بنِ جَفْنَةَ بن قَتيرَةَ، الكِنْدِيّ، الخَوْلاَنِيُّ، المِصْرِيُّ، ملعونٌ خبيثٌ، قيل له صحبة، كان عثمانيّ الهوى، ثم صار من أصحاب معاوية وخاصّة عمرو بن العاص وكان ممن شهد حرب صفين في جيش معاوية، ولاه معاوية إمرة جيش جهّزه إلى مصر، وكان الوالي عليها محمد بن أبي بكر رضوان الله عليه، من قبل أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقتل محمَّداً، وذاك في صفر سنة ثمان وثلاثين، وأمر أن يجرَّ في الطَّريق، ثم وضعه في جيفة حمار وأحرقه بالنار. وقيل وضعه حيّاً. (الإستيعاب ٣/ ١٣٦٦، الثِّقات ٢/ ٢٩٧، تاريخ بن عساكر ٤٩/ ٤٢٧) وأخذ بيعة أهل مصر لمعاوية، ثم ولي إمرة مصر ليزيد.

وكان هذا الناصبي البغيض سبّاباً لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام فعن أبي كثيرة قال: كنت جالساً عند الحسن بن عليّ فجاءه رجلٌ فقال: «لقد سَبَّ عند معاوية عَليّاً، سبّاً قبيحاً، رجلٌ يقال له: معاوية بن خَدِيج، فلم يعرفه، قال: «**إذَا رَأَيْتَهُ فَأْتِنِي بِهِ**» قال: فرآه عند دار عمرو بن حُرَيث فأراه إيَّاه قال: «**أَنْتَ مُعَاوِيَةُ بنُ خَدِيجٍ؟**» فسكت فلم يجبه ثلاثاً، ثمَّ قال: «**أَنْتَ السَّابُّ عَلِيّاً عِنْدَ بْنِ آكِلَةِ الأكْبَادِ؟ أَمَا لَئِنْ وَرَدْتَ عَلَيْهِ الحَوْضَ، وَمَا أَرَاكَ تَرِدُهُ، لَتَجِدَنَّهُ مُشَمِّراً حَاسِراً عَنْ ذِرَاعَيْهِ يَذُودُ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ عَنْ حَوْضِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَوْلُ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**». المعجم الكبير ٣/ ٨١، مجمع الزّوائد ٩/ ١٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ٢٨،،

وقال الهيثمي في مجمع الزَّوائد ٩/ ١٣٠: «وفي رواية عن عليِّ بن أبي طلحة مولى بنى أمية قال: ... وكان (أي معاوية بن خديج) من أسبِّ الناس لعليّ بن أبي طالب.»

أنظر ترجمته في أسد الغابة ٤/ ٣٨٣، البداية والنّهاية ٨/ ٦٦، تهذيب الكمال للمزّي ٢٨/ ١٦٣، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٣٧، الإصابة ٦/ ١١٦، الأعلام للزّركليّ ٧/ ٢٦٠.

(٢) المُنْذِرُ بنُ الزُّبيرِ بنِ العَوَّام، الأسَدِيّ، القُرَشِيّ، وهو أخو عبد الله بن الزُّبير، وعبد الله أكبرُ منه سِنّاً. انقطع إلى معاوية بن أبي سفيان، وأوصى معاوية أن يحضر المنذر غُسْلَه عند موته. ولمّا اسْتَشْهَدَهُ معاويةُ في إلحاق زياد بن أبيه بنسبه، وشهد المنذر أنه سمع ممّن سمع أبا سفيان يقول: أنا والله أبوه! وانتقل المنذر إلى البصرة، وأمر له معاوية بمال، فدفعه إليه عبيد الله بن زياد والي البصرة وأقطعه داراً بها، وكان يزيد بن معاوية هو الّذي كتب إلى ابن زياد بذلك. ولما قَوِيت حركة عبد الله بن الزُّبير بمكّة، خاف يزيد أن يلحق المنذرُ بأخيه فيكون المال عوناً له، فكتب إلى ابن زياد أن يحبس المال عنه ولا يدعه يخرج من البصرة. وكان ابن زياد يذكر شهادة المنذر بنسب ⇦

طَلحة وحُجْر بن عَمـرو، ويـزيد بن الحَـارِث بـن رُوَيـم(١)، وشَـبَث بـن رِبْعِيّ، وعُمَارَة بن الوَليد، وحَبيب بـن مَسْلَمَة(٢)، وعُمَـر بن سَعْد، ويَـزيد بن عُمَـير(٣)،

⇦

أبيه ويشكرها، فأشعره بما جاءه من يزيد، ففرّ المنذر إلى مكّة، وبقي مع أخيه عبد الله إلى أنْ حاصره حصينُ بنُ نمير ـ وهو حصار ابن الزُّبير الأوَّل ـ وصُرِعَ المنذرُ عن بغلة كان يقاتل عليها، فقاتل حتى قُتِل . الأعلام للزّركلي ٧/ ٢٩٣، بتصرّف يسير، وانظر أيضاً: تاريخ مدينة دمشق ٦٠/ ٢٨٧.

(١) يَزِيدُ بْنُ الحَارِثِ بْنِ رُوَيمٍ، الشَّيْبَانِيّ، قيل أنه أدرك عصر النبوَّة، وأسلم على يد أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، أموي الهوى، شهد اليمامة ونزل البصرة، ثم كان أميراً على الرَّيّ، قصبة بلاد الجبال، قُتِل هناك في معركة مع الخوارج سنة ٦٨ هـ . أنظر: الأعلام للزّركلي ٨/ ١٨٠.

(٢) حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ مَالِكٍ، القُرَشِيّ، الفِهْرِيّ. له صحبة ورواية يسيرة. صحب أبا بكر وجاهد في خلافته، وشهد اليرموك أميراً، وعمل بعدها لعمر، وولاّه على الجزيرة، وضم إليه أرمينية وأذربيجان. ثم عزله، فأقام في دمشق، متقرّبا إلى معاوية، وكان معاوية يستشيره في كثير من شؤونه، ويقال: إنّ معاوية قد وجّهه بجيشٍ إلى نصر عثمان بن عفان ، فلمّا بلغ وادي القرى، بلغه مقتل عثمان، فرجع ولم يزل مع معاوية في حروبه بصفّين وغيرها، وبعثه إلى أمير المؤمنين عليه السلام يطالبه بقتلة عثمان، وكان مقدم ميسرته يوم صفّين.

وفي الإستيعاب ١/ ٣٢١: وروينا أنّ الحسن بن عليّ قال لحبيب بن مَسْلَمَةَ في بعض خَرَجَاتِه بعد صفّين: «**يَا حَبِيبُ، رُبَّ مَسِيرٍ لَّكَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ!**» فقال له حبيب : «أمّا إلى أبيك فلا». فقال له الحسن : «**بَلَى وَالله، وَلَقَدْ طَاوَعْتَ مُعَاوِيَةَ عَلَى دُنْيَاهُ ، وَسَارَعْتَ فِي هَوَاهُ، فَلَئِنْ كَانَ قَامَ بِكَ فِي دُنْيَاكَ لَقَدْ قَعَدَ بِكَ فِي دِينِكَ، فَلَيْتَكَ إِذْ أَسَأْتَ الفِعْلَ أَحْسَنْتَ القَوْلَ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالحاً وآخَرَ سَيِّئاً﴾ [التوبة / ١٠٢]. وَلَكِنَّكَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين / ١٤].**»

ومن المضحك، أنّهم يروون في ترجمته أنّه كان مجاب الدَّعوة!! ولي أرمينية لمعاوية، فمات بها سنة ٤٢ هـ . أنظر: الإستيعاب ١/ ٣٢٠، أسد الغابة ١/ ٣٧٤، الإصابة ٢/ ٢٢، الأعلام للزّركلي ٢/ ١٦٦.

(٣) يَزِيدُ بْنُ عُمَيرِ بْنِ حَبِيبٍ، الأَنْصَارِيُّ، الخَطْمِيُّ، المَدَنِيُّ، ثمَّ البَصْرِيُّ، أَبُو جَعْفَرٍ، لم أجد له ترجمة.

وحَجّار بن أبجر[1]، وعُزْوَة بن قَيس[2]، ومحمَّد بن عُمير[3]، وعبد الله بن مُسلِم بن سَعيد[4]، وأسماء بن خارِجة[5]، والقَعْقاع بن الشَّوْر الذُّهْلِيّ[6]، وشِمْر بن ذي

(١) حَجّارُ بنُ أَبجرَ بْنِ جَابِرٍ، كان أبوه نصرانياً، ومات على ذلك، (الإصابة ٢/ ١٤٣) وحَجَّار كان من الأشخاص الذين راسلوا سيِّد الشُّهداء الحسين عليه السلام بالقدوم إلى العراق، ولما قدم عليه السلام العراق كان هذا الأثيم في طليعة الواثبين عليه، ولذا نجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام يخاطبهم بقوله: «يَا شَبَثَ بْنَ رِبْعيّ، وَيا حَجّارَ بْنَ أَبْجَرَ، وَيا قَيْسَ بْنَ الأَشْعَثِ، وَيَا يَزِيدَ بْنَ الْحَارِثِ! أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ: أَنْ قَدْ أَيْنَعَتِ الثِّمَارُ وَاخْضَرَّ الْجَنَابُ، وَطَمَّتِ الْجِمَامُ، وَإِنَّما تَقْدُمُ عَلى جُنْدٍ لَكَ مُجَنَّدٍ، فَأَقْبِلْ ؟!»

قالوا له: لم نفعل.

فقال: «**سُبْحانَ الله ! بَلى وَالله ! لَقَدْ فَعَلْتُمْ.**» (الإرشاد ٢/ ٩٨، تاريخ الطَّبري ٤/ ٣٢٣)

(٢) عَزْرَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ غزيَّةَ، الأَحْمَسِيُّ، البَجَلِيُّ، ويُروى أيضاً: عُزْوَة بن قَيس، والصَّحيح ما أثبتناه، وهو ضالٌ هالك، ممَّن كتب إلى الإمام الحسين عليه السلام يسأله القدوم إلى الكوفة، ثم نكث بيعته وانضمَّ إلى عمر بن سعد، وكان رئيساً على الخيل.

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ عُطَارِدِ بْنِ حَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ، التَّمِيمِيُّ الدَّارِمِيُّ، من أهل الكوفة، له مع الحَجَّاج وغيره من أمرائها أخبارٌ، كان على تميم أميراً في صفِّين مع أمير المؤمنين عليه السلام، ولم أعثر على غمز فيه، تُوفي نحو ٨٥ هـ.

(٤) عبدُ الله بنُ مُسْلِم بنِ رَبِيعَةَ، الحَضْرَمِيُّ، وفي بعض المصادر ورد اسمه بالتَّصغير هكذا: «عُبَيْدُ الله»، ويقال: «مُسْلِمُ بْنُ شُعْبَةَ» حليف بني أمية، وهو ممَّن شَهِد على حُجْر بن عَدِيّ لقتله، (تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٠٠) وكان من عيون بني أمية في الكوفة، وكان من النّاقمين على النُّعمان بن بشير والي الكوفة لعدم حزمه في ضبط الكوفة والقضاء على ثورة مسلم بن عقيل عليه السلام، ويتّهمه بالضَّعف أو الإستضعاف، ومن ثَمَّ كتب إلى يزيد: أمَّا بعدُ، فإنَّ مسلم بن عقيل، قد قدم الكوفة فبايعته الشِّيعة للحسين بن عليّ عليه السلام، فإنْ كان لك بالكوفة حاجةٌ فابعث إليها رجلاً قويّاً، ينفِّذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوِّك، فإنَّ النعمان بن بشير رجلٌ ضعيف أو هو يتضعَّف. فكان أوّل من كتب إليه. (الإرشاد ٢/ ٤٢، تاريخ ابن كثير ٤/ ٢٢، تهذيب الكمال ٦/ ٤٢٣)

(٥) أسْماءُ بنُ خَارِجَةَ بنِ حِصْنِ بنِ حُذَيْفَةَ، الفَزارِيُّ، الكُوفِيُّ، أحد الثَّلاثة الذين ذهبوا بهانئ بن عروة إلى ابن زياد، وكان ممن سعى في قتل مسلم بن عقيل عليه السلام، (تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٦٨، سير أعلام النُّبلاء ٣/ ٣٠٨، مقاتل الطالبين / ٧٢، الإرشاد ٢/ ٦٤، ذوب النضار / ١٢٤، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٤٢٧) خرج مع ابن زياد لحرب ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله يوم كربلاء، وهو الّذي جاء بعد شهادة مولانا الحسين صلوات الله ⇦

الجَوْشَن الضَّبَابِيّ.

وعلم أنّ له من هؤلاء لَيَوْماً.

وهؤلاء هم الكوفيُّون الناشزون، الّذين كانوا يشرِّعون الأخلاق لأنفسهم وللنَّاس الّذين يماثلونهم - رَغْم ادِّعائهم الإسلام ! وكان الإسلام الّذي عَمَر الأخلاق في النُّفوس وزخر به النَّعيم على المسلمين، قد هزمته المادَّة بين أوساط هذا المجتمع المأفون، فتباعدت بينهم وبينه القُربى، وعجزوا عن مسايرته بتعاليمه وتربيته وتثقيفه، فما بايعوا الحسن عَلَى السَّمع والطَّاعة حتى كانوا عملاء أعدائه على الشَّغب والعصيان، يرقبون الحوادث، ويتربَّصون الدَّوائر، وينتهزون الفُرَص، ويتآمرون على أخطر الموبقات غيرَ حافلين بعواقبها ولا عارِها ولا نارها.

وكان الخطر المتوقَّع من انخراط هؤلاء في الجيش، أكبر من الخطر المنتظر من أعدائه الّذين يُصارحونه العداء وجهاً لوجه.

⇦

عليه إلى المقتل فوجد الحسن المثنّى مجروحاً بين الأسارى، فانتزعه من أيديهم، وقال: والله لا يوصل إلى ابن خولة أبداً . فقال عمر بن سعد: دعوا لأبي حسّان ابن أخته، وجاء به إلى الكوفة وعالجه. (عمدة المطالب في أنساب أل أبي طالب لابن عنبة / ١٠٠، الإرشاد ٢/ ٢٥،) أراد المختار قتله فهرب فهدم داره (ذوب النّضار / ١٢٤).

(١) القَعْقَاعُ بنُ شَوْرٍ، السَّدُوسِيُّ، الذُّهْلِيُّ، استعمله أمير المؤمنين عليه السلام على كسكر ، فنقم منه سرفه وبذخه، منها: أنَّه تزوَّج امرأةً فأصدقها مائة ألف درهم ، فهرب إلى معاوية، الغارات ٢/ ٥٣٢، شرح نهج البلاغة ٤/ ٨٧) وصفه العامَّة بالجود وحسن الجوار، وكان جليس معاوية، وهو ممَّن شهد على حجر بن عديّ رضي الله عنه لإراقة دمه (تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٠٠)، وكان هذا الخبيث له الدَّور الفاعل في إفشال نهضة مسلم عليه السلام من خلال بثِّ الذّعر ونشر الخوف بين الناس. (الإرشاد ٢/ ٥٣، تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٧٦) وشَرِك في قتال مسلم بن عقيل عليه السلام (تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٨٦).

فَلِم لا يتخوَّف عاهل الكوفة من الخذلان، ولم لا يتمهَّل بالحرب ما وسعه التمهُّل، وللنتائج الغامضة حكمُها الّذي يفرض الأناة ويذكِّر بالصَّبر، ويلوِّح بالخسران.

ولكنَّه ـ وقد دُعي الآن إلى المبارزة ـ خليقٌ أن يرجع إلى الميراث النَّفيس الّذي يشيع في نفسه من ملكات أبيه العظيم (وكان لابدَّ للشبل أن ينتهي إلى طبيعة الأسد).

فليرجع إلى وصيَّة أبيه له، وكان ممَّا أوصاه به أبوه: «**لا تَدْعُوَنَّ إلى مُبَارَزَةٍ، وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ، فَإِنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهَا بَاغٍ..**»[1].

وليرجع إلى واجبه الشَّرعي بما له من ولاية أمر المسلمين، وليس للإمام الّذي قلّده النّاس بيعتهم، أنْ يغضي على الجهر بالمنكر والبغي على الإسلام ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

والله تعالى شأنه يقول: ﴿**فَقَاتِلُوا الّتي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله**﴾[2].

ورسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ دَعَا إلى نَفْسِهِ، أوْ إلى أَحَدٍ، وَعَلَى النَّاسِ إمَامٌ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله فَاقْتُلُوه**»[3].

أمَّا السَّبيل إلى ذلك، ولا نَعْني به إلاّ القوَّة على إنكار المنكر، فقد كان للكوفة من القُوى العسكريّة في مختلف الثُّغور الخاضعة لها، ما يؤكِّد الظَّن بوجود الكفاية للحرب، رَغم الأوضاع الشاذّة الّتي نزع إليها كثيرٌ من خونة الكوفيين المواطنين.

وكان للدَّولة الإسلامية في أواسط القرن الأوَّل، أعظم جيش تحتفل بمثله تلك القطعة من الزَّمن، لولا أنَّ الإلتزام بقاعدة «المرابطة» الّتي تفرضها حماية الثُّغور والَّتي

(١) نهج البلاغة ٤/ ٥٢، الحكمة: ٢٣٣.

(٢) سورة الحجرات/ ٩.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٣٩/ ٣١٢، تاريخ الطَّبري ٣/ ٣٨٤، تاريخ الإسلام ٣/ ٤٣٦ - ٤٣٧، كنز العمال ٦/ ٦٤.

كان من لوازمها توزيع القسم الأكثر من الجيوش الإسلامية على مختلف المواقع البعيدة عن المركز، كان يحول دائماً دون استقدام العدد الكثير من تلك الوحدات للإستعانة به في الحروب القريبة من المركز، ولا سيَّما مع صعوبة العمليَّات السّوقية بنظامها السَّابق ووسائطها القديمة المعروفة.

وكان الجيش المقدَّر على الكوفة وحدها، تسعين ألفاً أو مائة ألف ـ على اختلاف الرِّوايتين[1] ـ وكان الجيش المقدَّر على البصرة ثمانين ألفاً[2]. وهؤلاء هم أهل العطاء في المصرين، أعني الجنود الّذين يتقاضَون الرَّواتب من خزينة الدَّولة. وفي المصرين العسكريين ـ الكوفة والبصرة ـ مثل هؤلاء عدداً من أتباعهم ومواليهم ومن متطوِّعة الجهاد غالباً. فهذه زُهاء ثلاثمائة وخمسين ألفاً، هي مقاتلة العراق، فيما يحسب على العراق من القدرة العسكريّة، عدا جيوش فارس واليمن والحجاز والمعسكرات الأخرى.

وكان من تحمُّس الشِّيعة للحرب (يوم الحسن)، ومن إلحاح الخوارج على حرب الحالِّين الضالِّين أهل الشَّام ـ على حدِّ تعبيرهم[3] ـ، ومن انسياح النّاس إلى صفوفهم يوم نجحت دعاوة الدُّعاة إلى الجهاد في الكوفة. ما يكفي وحده رصيداً للظَّن بوجود الكفاية، بل اليقين بوجودها، لو أنَّهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يوم التقت الفئتان وحميت الصُّدور واحمرَّت الحدق.

---

(١) يرجع إلى اليعقوبي (ج ٢: ص ٩٤) [٢/ ٢١٨]، والى الإمامة والسِّياسة (ص ١٥١) [١/ ٧١ ت.ز]. (المؤلف رحمه الله)

(٢) حضارة الإسلام في دار السَّلام لجميل مدور . (المؤلف رحمه الله)

(٣) مرّ عليك في الصَّفحة / ١٤٣.

النَّفِيرُ وَالقِيَادَةُ

ونادى منادي الكوفة ـ الصَّلاة جامعة ـ واجتمع النّاس فخرج الحسن عليه السلام، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ الجِهَادَ عَلَى خَلْقِهِ، وَسَمَّاهُ كُرْهاً، ثُمَّ قَالَ لأَهْلِ الجِهَادِ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]. فَلَسْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نَائِلِينَ مَا تُحِبُّونَ إِلاَّ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ. إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُعَاوِيَةَ بَلَغَهُ أَنَّا كُنَّا أَزْمَعْنَا عَلَى المَسِيرِ إِلَيْهِ فَتَحَرَّكَ لِذَلِكَ. اخْرُجُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى مُعَسْكَرِكُمْ فِي النُّخَيْلَةِ[2] حَتَّى نَنْظُرُ وَتَنْظُرُونَ، وَنَرَى وَتَرَوْنَ».

قال مؤرِّخو الحادثة: وسكت النّاس فلم يتكلّم أحدٌ منهم ولا أجابه بحرفٍ.

ورأى ذلك «عَدِيُّ بنُ حَاتِم» وكان سيِّد طيء والزَّعيم المرموق بسوابقه المجيدة في صحبته للنبيِّ والوَصيِّ معاً (صلَّى اللهُ عليهما) فانتفض انتفاضته المؤمنة الغضبى، ودوَّى بصوته الرَّزين الّذي هزَّ الجمع، فاستدارت إليه الوجوه تستوعب مقالته وتعني بشأنه ـ وفي النّاس كثير ممن عرف لابن حاتم الطَّائي، تاريخه وسؤدده وثباته على القول الحقِّ ـ واندفع الزَّعيم محموم اللَّهجة قاسي التقريع، يستنكر على النّاس سكوتهم، ويستهجن عليهم ظاهرة التخاذل البغيض.

وقال: «أنا عَدِيُّ بن حَاتِم، ما أقبح هذا المقام! إلاّ تجيبون إمامكم وابن بنت نبيِّكم ؟ أين خطباء المصر الّذين ألسنتهم كالمخاريق في الدّعة، فإذا جدّ الجدّ، راوغوا

---

(١) سورة الأنفال / ٤٦.

(٢) تصغير نخلة، موضع قرب الكوفة على سمت الشام، أقول: ويوجد اليوم على سمت كربلاء بناية تعرف بخان النّخيلة، بينها وبين الكوفة اثنا عشر ميلاً. (المؤلف رحمه الله)

كالثَّعالب ؟ أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها ؟»

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال:

«أصاب الله بك المراشد، وجنّبك المكاره، ووفقك لما يحمد وِردُه وصدْرُه، وقد سمعنا مقالتك، وانتهينا إلى أمرك، وسمعنا لك، وأطعنا فيما قلت ورأيت»

قال: «وهذا وجهي إلى معسكرنا، فمن أحبَّ أن يوافي فليواف»

ثم خرج من المسجد، ودابّته بالباب، فركبها ومضى إلى النُّخَيلة، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه. وكان المثل الأوّل للمجاهد المطيع، وهو إذ ذاك أوّل النّاس عسكراً[1]. وفي طيء ألف مقاتل لا يعصون لِعدِيٍّ أمراً[2].

ونشط ـ بعده ـ خطباء آخرون، فكلّموا الحسن بمثل كلام عَدِيّ بن حاتم، فقال لهم الحسن عليه السلام: «**رَحِمَكُمُ اللهُ، مَا زِلتُ أعْرِفُكُمْ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالوَفَاءِ وَالقَبُولِ وَالمَوَدَّةِ فَجَزَاكُمُ اللهُ خَيْرَاً**».

واستخلف الحسن على الكوفة عليه السلام ـ ابن عمِّه ـ المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب[3]، وأمره باستحثاث النّاس للشُّخوص إليه في النُّخَيلة.[4]

---

(١) شرح النهج (ج٤ ص١٤) [١٦/ ٣٨، وعنه بحار الأنوار ٤٤/ ٥٠] (المؤلف رحمه الله)

أيضاً أنظر: مقاتل الطالبيين / ٣٩.

(٢) اليعقوبي (ج٢ ص١٧١) [٢/ ١٩٥] (المؤلف رحمه الله).

أيضاً أنظر: الغارات ٢/ ٤٥٥، وعنه شرح النهج ٢/ ٣٠١.

(٣) المُغِيرَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، الهَاشِمِيُّ، القُرَشِيُّ، قال في الإصابة ٦/ ١٥٩: والمغيرة هذا كان قاضياً بالمدينة في خلافة عثمان، ثمَّ كان مع عليٍّ في حروبه، وهو الَّذي طرح على بن ملجم القطيفة، لَمَّا ضَرَب عليّاً فأمسكه وضرب به الأرض ونزع منه سيفه وسجنه حتى مات. وفي تهذيب الأحكام ٨/ ٢٥٨ عن أبي عبد الله الإمام الصَّادق عليه السلام ـ أنَّ أباهُ حدَّثهُ ـ قال: «**أَنَّ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ وَأُمُّهَا زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَتَزَوَّجَهَا**

⇦

وخرج هو بمن معه، وكان خروجه لأوّل يوم من إعلانه الجهاد، أبلغ حجّة على النّاس في سبيل استنفارهم.

وانتظمت كتائب النُّخَيلة خيار الأصحاب من شيعته وشيعة أبيه وآخرين من غيرهم. ونشط المُغِيرة بن نَوْفَل لاستحثاث النّاس إلى الجهاد وكان من المنتظر للعهد الجديد ـ الّذي قُوبِل بالمهرجانات القويّة في أسبوع البيعة، أنْ لا يتأخّر أحدٌ بالكوفة عن النَّشاط المتحمّس لإجابة دعوة الإمام. ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يقع! وحتّى السَّرايا الجاهزة الّتي كان أمير المؤمنين عليه السلام قد أعدَّها للكرَّة على جنود الشَّام قُبَيل وفاته ـ وكانت تعدُّ أربعين ألف مقاتل[2] ـ قد انفرط عِقْدُها وتمرَّد أكثرها، وتثاقل معها أكثر حَمَلة السِّلاح في الكوفة عن الإنصياع للأمر.

وكان المذبذبون من رؤساء الكوفة، أشدَّهم نشاطاً في اللَّحظة الدَّقيقة الّتي أزِفَت فيها ساعة الجدّ. قالت النُّصوص التّاريخيّة فيما ترفعه إلى الحارث الهمداني كشاهد عيان: «وركب

⇨

بَعْدَ عَلِيٍّ عليه السلام **الْمُغِيرَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، أَنَّهَا وَجِعَتْ وَجَعاً شَدِيداً حَتَّى اعْتُقِلَ لِسَانُهَا، فَأَتَاهَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهما السلام وَهِيَ لا تَسْتَطِيعُ الْكَلامَ، فَجَعَلا يَقُولانِ وَالْمُغِيرَةُ كَارِهٌ لِمَا يَقُولانِ: أَعْتَقْتِ فُلاناً وَأَهْلَهُ؟ فَتُشِيرُ بِرَأْسِهَا نَعَمْ، وَكَذَا وَكَذَا فَتُشِيرُ بِرَأْسِهَا نَعَمْ أَمْ لا،...».** قال الشّيخ التّستري عن هذا الخبر: يلوح منه ذمّه، من حيث كراهته ما ارتكبه الحسنان عليهما السلام من استعلام وصاياها. قاموس الرّجال ١٠/ ٢٠١.

(١) مقاتل الطّالبيين / ٤٠. شرح النهج ١٦/ ٣٩.

(٢) كما في خبر نوف، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر وهو يريد الرّجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر، فكان يقول: فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان. نهج البلاغة ٢/ ١١٠، الخطبة: ١٨٢. وقال ابن الأثير: كان أمير المؤمنين عليٌّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت. الكامل ٣/ ٤٠٤.

معه ـ أي مع الحسن ـ من أراد الخروج وتخلّف عنه خلقٌ كثيرٌ لم يفوا بما قالوا، وبما وعدوا، وغرّوه كما غرّوا أمير المؤمنين من قبله.. وعسكر في النُّخَيلة عشرة أيّام فلم يحضره إلاّ أربعة آلاف. فرجع إلى الكوفة، ليستنفر النّاس، وخطب خطبته الّتي يقول فيها: «**قَدْ غَرَرْتُمُونِي كَمَا غَرَرْتُمْ مَنْ كَانَ قَبْلِي..** »[1].

أقول: ثمَّ لا ندري على التَّحقيق عدد من انضوى إليه ـ بعد ذلك ـ ولكنّا علمنا أنّه: سار من الكوفة في عسكر عظيم، على حدِّ تعبير ابن أبي الحديد في شرح النَّهج[2].

وسنأتي في فصل «عدد الجيش» على غربلة أقوال المؤرِّخين لاختيار القول الفصل في عدد جنود الحسن عليه السلام.

وغادر النُّخيلة وبلغ «دَيْرَ عبدِ الرَّحمن» فأقام ثلاثاً، والتحق به عند هذا الموضع مجاهدون آخرون[3] لا نعلم عددهم.

وكان دَيْر عبد الرحمن هذا مفرق الطَّريق بين معسكري الإمام في المدائن[4]

---

(١) الخرايج والجرايح (ص ٢٢٨ ـ طبع إيران) [٢/ ٥٧٤]. (المؤلف رحمه الله)
أيضاً أنظر: الهداية الكبرى للخصيبي / ١٩٠، .

(٢) شرح النهج ١٦/ ٣٩، مقاتل الطالبيين / ٤٠ .

(٣) المصدر السَّابق.

(٤) وهي العاصمة السَّاسانيّة الّتي بلغت من العمر ألف سنة. وكانت وَرِيثة بابل في عظمتها، ولم يبق من آثارها اليوم إلاّ طاق كسرى، ومرقد الصَّحابي العظيم «سَلْمَان الفَارِسِيّ رضي الله عنه». وكانت سبع مدن متقاربة، تتقابل على ضفاف دجلة. فتحها المسلمون سنة ١٥ هـ ، وكانت إذ ذاك عاصمة الشَّرق الفارسيّ كُلّه، ففي الجانب الغربيِّ: سلوقية، ودرزجان وبهرسير، وجنديسابور «كوكه» في ناحية (مُظْلِم سَابَاط) المتَّصلة بنهر الملك. وفي الجانب الشَّرقي اسفانبر، ورومية، وطيشفون (وهي أمّ الطّاق).

وكان لابدَّ من مرور أكثر من مائة عام قبل أن تندثر المدائن نتيجة لإنشاء بغداد سنة ١٥٠ هـ . وفي خلال تلك الفترة كانت تغذي الكوفة بصناعاتها وكنوزها ومحصولاتها، وذلك بإرسالها الموالي ⇦

ومَسْكِن[1]. وللإمام الحسن خُطَّته من هذين المعسكرين.

ـ أمّا «المدائن» فكانت رأس الجسر صوب فارس والبلاد المتاخمة لها. وهي بموقعها الجُغرافي، النُّقطة الوحيدة الّتي تحمي الخطوط الثَّلاث الّتي تصل كُلاً من الكوفة والبصرة وفارس، بالأخرى. وتقف بقيمتها العسكرية درءاً في وجه الأحداث الّتي تُنذِر بها ظروف الحرب. وكانت فارس معرض الإنتفاضات الخَطِرَةِ على الدَّولة. وكان عليها من قبل الإمام «زِياد بن عُبَيْد» ولمَّا يُطْبع ـ بعد ـ على صفحته المقلوبة الّتي غَيَّرت منه كلَّ شيءٍ.

وأمّا «مَسْكِن» فقد كانت النُّقطة الحسّاسة في تاريخ جهاد الحسن عليه السلام لأنَّها الميدان الّذي قُدِّر له أن يقابل العدوَّ وجهاً لوجه. وهي إذ ذاك أقصى الحدود الشّمالية للعراق

⇦

من الفرس إليها وقد صاروا مسلمين. وكانت المدائن منذ العهد الَّذي وليها فيه سلمان الفارسي تتشيَّع لآل محمَّد صلى الله عليه وآله وكانت لا تزال في القرن السَّابع الهجري قريةً لا يسكنها إلاّ شيعةٌ متحمِّسُون. وذكرها المسعوديُّ عند ذكره العراق فقال: «ومدنه: المدائن وما والاها، ولأهله أعدل الألوان، وأنْقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل، وفوائد المبرات، ...». [المسعودي ٢/ ٣٦] (المؤلف رحمه الله)

(١) بفتح أوَّلِه وكسر ثالثه، اسم الطَّسُّوج الَّذي منه «أوَانَا» على نهر دُجَيْل ـ القرية الكثيرة البساتين والشَّجر ـ الَّتي عناها أبو الفرج السَّوادي (من شعراء القرن السَّادس) بقوله:

وَاجْتَلُوهَا بِكْراً نَشَتْ «بِأَوَانَا» حَجَبَتْ عَنْ خُطَّابِهَا بِالأَوَانِي

كان بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.

وفي «مَسْكِن» هذه، كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزّبير سنة ٧٢ هـ، وفيها قُتل مصعب، وقُتل معه إبراهيم بن مالك «الأشتر» النَّخعي، ودُفِنا حيث قُتلا. ولا يزال القبران ظاهرين وعليهما قُبَّةٌ متواضعة تُعرف عند أعراب سميكة «بقبر الشَّيخ إبراهيم» وبينه وبين بغداد نحو من ستّين كيلو متراً. وبينه وبين دِجلة عشرة كيلو مترات، فمَسْكِن هي المنطقة الَّتي تترامى حوالي هذا القبر بها في ذلك نهرُ دُجَيل وهنالك كانت «أوَانَا» أيضاً. (المؤلف رحمه الله)

الهاشميّ، أو المناطق الخاضعة لحكومة الكوفة من هذه الجهة. وكان في أراضي مَسْكِن مواطن معمورة بالمزارع والسُكَّان وقرىً كثيرة مشهورة ـ منها: «أوَانَا» و «عُكْبَرَا» ومنها: «العَلْث» وهي آخر قُراها الشّمالية، وكان بإزائها قرية «الجُنُوبِيَّة» وهي الّتي انحدر إليها معاوية بجيوشه منذ غادر «جِسْر مَنْبِج». والتقى عندها الجمعان.

والمفهوم أنّ موقع مَسْكِن اليوم لا يعدو هذه السّهول الواسعة الواقعة بين قرية «سَمِيكَة» وقرية «بَلَد» دون سامَرَّاء.

ولمسْكِن طبيعتها الغنيَّة بخيراتها الكثيرة ومشارعها القريبة وسهولها الواسعة، فكانت ـ على هذا ـ الموقع المفضَّل للنزال والحروب، وكانت لأوَّل مرَّة في تاريخها ميدان الحسن ومعاوية في زحفهما هذا، ثم تُبودِلت فيها بعد ذلك وقائع كثيرة بين العراق والشَّام.

ورأى الحسن عليه السلام أن يتّخذ من المدائن ـ بما لموقعها من الأهمّية العسكرية ـ مقرّاً لقيادته العليا. ليستقبل عندها نجدات جيوشه من الأقطار الثَّلاث القريبة منه، ثم ليكون من وراء ميدانه الّذي ينازل به معاوية وأهل الشَّام في «مَسْكِن». وليس بين المعسكرين الهاشميّين في ـ المدائن ومسكن ـ أكثر من خمسة عشر فرسخاً.

وكانت الخطّة المثلى الّتي لا بدل عنها للوضع الحربي الرَّاهن. وهكذا انكشف الحسن في رسم خططه الحربية، عن القائد الملهم الّذي يحسن فنون الحرب كما كان يصطلح عليها عصره أفضل إحسان. ودلَّت خطواته المتدرِّجة في سبيل مقاومته لعدوّه سواء في اختيار الوقت أو في اختيار المواقع أو في تسيير الجيوش، على مواهب عسكرية ممتازة، كانت كفاء ما رُزق من مواهب في سياسته وفي إخلاصه وفي تضحيته.

---

(١) قال الماوردي في الاحكام السُلطانيّة ـ على رواية الحموي [معجم البلدان ٤/ ١٤٥] ـ : و«العَلْث» هو أوّل العراق من هذه الجهة. أقول: ويقع « العَلْث» بين «عُكْبَرَا» و«سَامَرَّاء». و«عُكْبَرَا» قريةٌ من نواحي دجيل قُرب «أوَانَا». (المؤلف رحمه الله)

ونظر عن يمينه وعن شماله، وتصفَّح ـ مَليّاً ـ الوجوه الّتي كانت تدور حوله من زُعماء شيعته ومن سُراة أهل بيته، ليختار منهم قائد «مقدِّمته» الّتي صمَّم على إرسالها إلى مَسْكِن، فلم ير في بقيَّة السُّيوف من كرام العشيرة وخلاصة الأنصار، أكثَرَ اندفاعاً للنُّصرة ولا أشدَّ تظاهراً بالإخلاص للموقف من ابن عمِّه «عُبَيْدِ الله»[1] بنِ عبَّاس بنِ عبدِ المطَّلِب» و «قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاريّ» و «سعيد بن قيس الهَمْداني» ـ رئيس اليمانية في الكوفة ـ. فَعَهِد إلى هؤلاء الثَّلاثة بالقيادة مُرَتَّبين[2].

وكان عبيد الله بن عبَّاس أحد أولئك المرتجزين للحرب، المستهترين بالحياة، تحفِّزه الغيرةُ الدِّينيّة، وتُلهِبه العنعنات القَبَليّة، فإذا هو الفولاذ المصهور في تَعصُّبه للعرش الهاشميّ، وهل هو إلاَّ أحد سُراة الهاشميين، وقديماً قيل: «لَيْسَتِ الثَّكلى كالمُسْتَأْجَرَة». وهو في سوابقه أمير الحجِّ سنة ٣٦ (على رواية الإصابة) أو سنة ٣٩

---

(١) الإرشاد للشَّيخ المفيد (ص١٧٠) [٢/ ١٣]، وابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٤) [١٦/ ٤٠] واليعقوبي (ج ٢ ص ١٩١) [٢/ ٢١٤].

وذكر مؤرِّخ آخر [أنظر: الكامل ٣/ ٤٠٤] أنّه (عبد الله بن عباس أخوه) ولا يصحُّ ذلك، لأنَّ عبد الله لم يكن في الكوفة أيام خلافة الحسن، وإنما كان في مكَّة، وكتب إلى الحسن كتابه الَّذي يشير فيه بالحرب وتجد صورته في شرح النَّهج (ج ٤ ص ٨ ـ ٩) [١٦/ ٢٣] ولم يكن عبد الله بالَّذي يختفي ذِكره في أحداث هذا العهد لو أنّه كان موجوداً في الكوفة. قال الطَّبري في تاريخه (ج ٦ ص ٨١) [٤/ ١٠٨]: «وفيها ـ يعني في سنة ٤٠ ـ خرج عبد الله بن العبَّاس من البصرة ولحق بمكَّة في قول عامَّة أهل السِّير. وقد أنكر [ذلك] بعضهم وزعم أنَّه لم يزل في البصرة عاملاً عليها من قِبَل أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام حتى قُتل، وبعد مقتل عليٍّ حتى صالح الحسنُ، ثمَّ خرج حينئذٍ إلى مكَّة». أقول: ولا في البصرة وإلاَّ لما تأخّر جيش البصرة عن الحسن أحوج ما كان إليه في المدائن. وأيَّد ابن الأثير (ج ٣: ص ١٦٦) [الكامل ٣/ ٤١٦] أنَّ عبد الله بن عبَّاس فارق عليّاً في حياته. والمظنون أنَّ اتِّحاد الأخوين أباً وتَشابُه اسميهما كتابة هو الَّذي أثار الخطأ في نسبة القيادة لعبد الله. ووَهَم آخرٌ فذكر قيادة المقدِّمة لقيس بن سعد. وكان قيس على الطَّلائع من هذه المقدِّمة، كما نصَّ عليه ابن الأثير [الكامل ٣/ ٤٠٤]، ولعلَّ ذلك هو سبب هذا الوهم فلاحظ. (المؤلف رحمه الله)

(٢) مقاتل الطالبيين / ٤٠، وستأتي صورة العهد في كلام المصنِّف.

(على رواية الطبري)[1] أو هو أمير الحجّ في السّنتين معاً، وهو والي البحرين[2]، وعامل اليمن[3] وتوابعها على عهد أمير المؤمنين عليه السلام، والجواد المِطْعام الّذي شَهِد له الحجيجُ في

(١) الإصابة ٤/ ٣٣١، إلاّ أنّ في تاريخ الطبري ٤/ ١٠٢: «وحَجَّ بالنَّاس في هذه السَّنةِ (أي سنة ٣٩) قثم بن العبّاس من قِبل عَليّ».

وخلاف بين المؤرّخين في من أقام الحجّ لأمير المؤمنين عليه السلام مدّة خلافته أي في سنة ٣٦ و ٣٧ و ٣٨، بين أبناء العبّاس الثّلاث: عبدالله وعبيد الله وقثم. فقال بعضهم أنّ عبد الله بن عبّاس كان في الثّلاث، وردّ ذلك الطّبريّ عن قول بعضهم أنّ عبد الله بن عبّاس لم يشهد الموسم في عملٍ حتى قُتِل عليٌّ عليه السلام. أنظر: تاريخ الطبري ٤/ ١٠٤، والأقوال في ذلك متشتّة، ومرجع الإختلاف في ذلك تَشابُه الإسمين في عبد الله وعبيد الله ووحدة الأب. وأمّا سنة ٣٩ فلم يكن أيُّ واحدٍ منهم، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنفذ فيها عبيد الله بن عبّاس على الموسم، وبعث معاوية بن أبي سفيان يزيد بن شجرة الرّهاوي ـ وذلك أنّ معاوية رأى بعد أن ولاّه عمرو بن العاص بعد اتّفاقه مع أبي موسى على عزل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أنّ ولايته وقعت الموقع، فهو الّذي يجب طاعته فيما يعتقده ـ ، فلمّا اجتمعا بمكّة تنازعا وأبى كلُّ واحد منهما أن يُسلّم لصاحبه، فاصطلحا على شَيبةَ بن عُثمان بن أبي طَلحة.

(٢) ولّى امير المؤمنين عليه السلام عُمَرَ بنَ أَبِي سَلَمَةَ المَخْزُوميّ على البحرين بعد ما فرغ من حرب البصرة ثم استدعاه إليه للشُّخوص معه إلى حرب أهل الشّام واستعمل النُّعمان بن عَجْلان الزُّرَقِيّ مكانه لكنّه سرعان ما طمع بحطام الدُّنيا فذهب بمال البحرين، فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام يتوعّده إن كان قد فعل ما حُكي عنه، فلمّا جاءه كتابه عليه السلام، وعلم أنّه قد علم، حمل المال ولحق معاوية. وولّى بعدها عبيد الله بن عبّاس على البحرين وما يليها واليمن ومحاليفها، كما نصّ على ذلك الطّبريّ في تاريخه ٤/ ١١٩، وفي سنة ٤٠ هرب إلى أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، لمّا سار بُسر بن أرطاة إلى اليمن وأخذ ابنين لعبيد الله بن عباس صغيرين هما عبد الرحمن وقثم فقتلهما، واستخلف عليٌّ عليه السلام على اليمن عبد الله بن عبد المدان الحارثي، فأتاه بُسر فقتله وقتل ابنه.

(٣) وحاول بعضهم الإرتياب في سوابق عبيد الله هذا، بحادثة خروجه من اليمن . ومن الحقّ أن نعترف بضعف حامية اليمن ـ يومئذٍ ـ عن الصُّمود لحملة بُسر بن أرطأة، وكان من انشقاق بعض اليمانيين على الحكم الهاشمي ومكاتبتهم معاوية وإخراجهم أميرهم «سَعِيد بن نُمْران» من الجند وموافقتهم عاملهم «عبيد الله» ما يشهد لعبيد الله بالبراءة من موجبات الرَّيب . ولو أنّ عبيد الله كان قد حاول موافقة بُسر لكان له من عثمانيّة اليمن من يكفي بُسراً أمره، على أنّ الرّجل لم يفعل بخروجه من اليمن أكثر ممّا فعله نُظراؤه في مكّة والمدينة، حيث فرّ عاملاها من ⇦

مكّة[1]، ثم هو أسبق النّاس دعوةً إلى بيعة الحسن يوم بايعه النّاس.

فكان ـ على ذلك ـ حَرِيّاً بهذه الثّقة الغالية الّتي وضعها فيه ابنُ عمّه الإمام عليه السلام[2].

⇨

وجه بُسر، وأغار عامل معاوية على العواصم الثّلاث فقتل فيهن زُهاء ثلاثين ألفاً من الآمنين.
وعلمنا أنَّ عبيد الله قصد في خروجه من اليمن إلى الكوفة، ولو كان مريباً لما قصد الكوفة،
وعلمنا أنّ سعيد بن نُمْرانَ اعتذر لأمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إني دعوت النّاس ـ يعني أهل اليمن ـ للحرب وأجابني منهم عصابة، فقاتلت قتالاً ضعيفاً وتفرَّق النّاس عنِّي وانصرفت».
أقول: أفلا تكون تجربة ابن نُمْران تصحيحاً لمعذرة ابن عبّاس، فالرَّجل ـ في سوابقه ـ لا غمز فيه، ولا غرو إذا رضيه الحسن ثقةً بسوابقه. (المؤلف رحمه الله)

أقول: نعم، لا يُظن بعبيد الله أنّه تواطئ مع الشّام على اقتحام اليمن والقضاء على شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ولكن لا شَكَّ أنّه لم يحسن السّياسة مع رعيّته، خاصّة شيعة عثمان منهم، وهذا ما أخذه أمير المؤمنين عليه السلام عليه ومعه عامله على الجند سعيد بن نُمْرانَ في كتابه لهما: «**مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ إِلَى عُبَيْدِ الله بْنِ العَبَّاسِ وَسَعِيدِ بن نُمْرانَ، سَلامٌ عَلَيْكُمَا، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمَا اللهَ الَّذِي لا إِلَه إلاَّ هُوَ، أَمّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ أَتَانِي كِتَابُكُمَا تَذْكُرَانِ فِيهِ خُرُوجَ هَذِهِ الخَارِجَةِ وَتُعَظِّمَانِ مِنْ شَأنِهَا صَغِيراً، وَتُكْثِرَانِ مِنْ عَدَدِهَا قَلِيلاً، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَخْبَ أَفْئِدَتِكُمَا وَصِغَرَ أَنْفُسِكُمَا وَشَتَاتِ رَأْيِكُمَا وَسُوءِ تَدْبِيرِكُمَا هُوَ الَّذِي أَفْسَدَ عَلَيْكُمَا مَنْ لَمْ يَكُنْ عَنْكُمَا نَائِيَاً وَجَرَّأَ عَلَيْكُمَا مَنْ كَانَ عَنْ لِقَائِكُمَا جَبَاناً،...**» الغارات للثقفي ٢/ ٥٩٥.

(١) ذكروا أنّه كان سخيّاً جواداً وكان ينحر ويذبح ويطعم في موضع المجزرة بالسُّوق بمكّة. الإصابة لابن حجر ٤/ ٣٣١، تاريخ مدينة دمشق ٣٧/ ٤٧٢، تهذيب الكمال ١٩/ ٦٠، تاريخ مدينة دمشق ٣٧/ ٤٧٢.

(٢) يراجع عمّا ذكرناه من القيادة والحركات السّوقية ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٤) [١٦/ ٢٣]، والإرشاد (ص ١٦٨ - ١٦٩) [٢/ ١٣]، واليعقوبي (ج ٢ ص ١٩١) [٢/ ٢١٤]. وانفرد اليعقوبيُّ عنهما بعدم ذكر القائد الثّالث من قُوّاد المقدّمة، ثمّ قال:

وأمر الحسنُ عبيد الله بأن يعمل بأمر قيس بن سعد ورأيه، فسار إلى ناحية الجزيرة ـ يعني بين النّهرين ـ وأقبل معاوية لمّا انتهى إليه الخبر بقتل عليٍّ، فسار إلى «المَوْصِل» بعد قتل عليٍّ بثمانية عَشَرَ يوماً والتقى العسكران...

أقول: و«المَوْصِلُ» هذه قرية من قُرَى «مَسْكِن» دُفِن بالقرب منها سيِّدُنا «محمّد بن الإمام عليٍّ الهادي»

⇦

ودعاه، فَعَهِد إليه عهدَه الّذي لم يُرْوَ لنا بتمامه، وإنّما حملت بعض المصادر صورةً مختزلةً منه. قال فيه:

«يَا ابْنَ عَمِّ! إنِّي بَاعِثٌ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِنْ فُرْسَانِ العَرَبِ وَقُرَّاءِ المِصْرِ، الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَزِيدُ الكَتِيبَةَ، فَسِرْ بِهِمْ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَأَفْرِشْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَدْنِهِمْ مِنْ مَجْلِسِكَ، فَإنَّهُمْ بَقِيَّةُ ثِقَاتِ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ. وَسِرْ بِهِمْ عَلَى شَطِّ الفُرَاتِ، ثُمَّ امْضِ، حَتَّى تَسْتَقْبِلَ بِهِمْ مُعَاوِيَةَ، فَإنْ أَنْتَ لَقِيتَهُ، فَاحْتَبِسْهُ حَتَّى آتِيكَ، فَإنِّي عَلَى أَثَرِكَ وَشِيكاً. وَلْيَكُنْ خَبَرُكَ عِنْدِي كُلَّ يَوْمٍ، وَشَاوِرْ هَذَيْنِ ـ يَعْنِي قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَعِيدَ بْنَ قَيْسٍ ـ وَإذَا لَقِيتَ مُعَاوِيَةَ فَلا تُقَاتِلْهُ حَتَّى يُقَاتِلَكَ، فَإنْ فَعَلَ، فَقَاتِلْهُ. وَإنْ أُصِبْتَ، فَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى النَّاسِ، فَإنْ أُصِيبَ فَسَعِيدُ بْنُ قَيْسٍ عَلَى النَّاسِ»(١).

ولقد ترى أنَّ الامام الحسن عليه السلام، لم يَعنِ في عهده إلى عبيد الله بشيءٍ، عنايته بأصحابه، فمدحهم، وأطرى بسالتهم، وأضافهم إلى أبيه أمير المؤمنين عليه السلام. وأراد بكلِّ ذلك تغذية معنويّاتهم وإلهاب حماستهم والتّأثير على عواطفهم. ثم أمر قائده بأنْ يَلين لهم جانبه ويبسط لهم وجهه ويفرش لهم جناحه ويُدنيهم من مجلسه. وحَرِصت هذه التّعاليم على إيثار الثِّقة المتبادَلة بين القائد والجيش. وأَحْرِ بهذه الثّقة ـ في حرب تُعْوِزُها

⇨

كما أشار اليه الحموي في معجمه [١/ ٤٨١]، وهي غير مدينة المَوْصِل المعروفة. ولا تنافي بين ما رواه اليعقوبي وما رواه الآخرون من تعيين الموقع الّذي نزل فيه جيش معاوية في حربه للحسن عليه السلام، فالمَوْصِلُ والحيُوضَة والجُنُوبيّة كلُّها من قُرى «مَسْكِن» يومئذٍ ولعلَّ الجيش أشغل هذه القُرى كلَّها فوردت أسماؤها في مختلف الرِّوايات واقتصرت بعضها على اسمٍ دون إسمٍ كما ترى. ونحن إنّما اخترنا ذكر «الجُنُوبيّة» دون غيرها نزولاً على تصريح قيس بن سعد فيما كتب به إلى الحسن عليه السلام كما سيأتي في محلّه. (المؤلف رحمه الله)

(١) أنظر: مقاتل الطالبيين / ٤٠، شرح النّهج ١٦/ ٤٠، وعنه بحار الأنوار ٤٤/ ٥٠.

النُّظُم العسكريّة الّتي نعرفها اليوم ـ أن تكون أهمَّ عناصر القوَّة المرجوَّة للأيَّام السُّود.

وجاءت جُمَلاً متعاطفة أربعاً يؤكِّد بعضُها بعضاً، ثم هي لا تعني إلاَّ معنى واحداً. ترى فهل لنا أن نستفيد، من هذا القصد العامد إلى التّأكيد، أنّها كانت تحاول بتكرارها «المؤكّد»، استئصال خُلُقٍ خاصّ في عبيد الله (القائد الجديد).؟ وفي الجيش ـ معه ـ أعلامٌ من سُراة النّاس، ومن ذوي السَّوابق والذِّكريات المجيدة، الّذين لا يهضمون الخلق المزهوّ ولا الخشونة الآمرة النَّاهية في الفتى الهاشمي الّذي لا يزيدهم كَفَاءَة، ولا يسبقهم جهاداً، ولا يفضلهم تقوىً، ولا يكبرهم سِنّاً(١).

وقوله له ـ بعد ذلك ـ: «**وَشَاوِرْ هَذَيْنِ**» دليل آخر على القصد على تذليل خُلُق صعب، ربما كان يعهده الإمام في ابن عمِّه، وربما كان يخافه كعائق عن النَّجاح.

أقول: وليس من وجود الخُلُق المُخْشَوشِن في عبيد الله ـ إذا صدق الظَّن ـ ما يُعيقه عن استحقاق القيادة، وقد استدعته إليها ظروفٌ كثيرةٌ أخرى، على أنَّ بين الخشونة والحياة العسكرية أواصر رَحِم متينة الحلقات في القديم والحديث.

وفي هذه المناسبة ما يفسح المجال للتَّساؤل عن الحيثيَّات الّتي آثر بها الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن عبَّاس للقيادة على مقدِّمته، وفي الجيش مثل «قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري» الرَّجل المعتَرف بكَفاءاته العسكريَّة وبإخلاصه الصَّحيح لأهل البيت عليهم السلام وبأمانته.

وللجواب على هذا السُّؤال، وجوهٌ:

---

(١) كان عبيد الله بن عباس يوم قيادته لهذا الجيش في التاسعة والثلاثين من عمره. (المؤلف رحمه الله)

أقول: هذا غير دقيق، فإنّ عبيد الله ولد بسنتين قبل الهجرة وقبض النّبيُّ صلى الله عليه وآله وله اثنا عشرة سنة وكان أصغر من عبد الله بسنة ـ كم تقدّم بيانه ـ وقد بويع الحسن عليه السلام سنة أربعين للهجرة فيكون عمره قريب الاثنين والأربعين عاماً، والله أعلم.

أوّلها: أنَّ الحسن حين أراد عبيد الله للقيادة على «المقدِّمة» فرض عليه استشارة كلٍّ من قيس بن سعد وسعيد بن قيس ـ كما هو صريح عهده إليه ـ فخرج بذلك من الإيثار الّذي يُؤخذ عليه، إذا كان في هذا الإيثار تبعةٌ يخاف منها على مصلحة الموقف. وأصبحت القيادة ـ على هذا الأسلوب ـ شُورى بين ثلاثة، هم أليق رجاله لها.

أمَّا تقديم قيسٍ على صاحبيه وعلى غيرهما من صحابة وزُعماء، وإيثاره بالقيادة وحده فقد كان ـ في حينه ـ مَظنَّة لتنافس الأكفاء الآخرين الّذين كان يلفُّهم جناح هذا الجيش. وفي هؤلاء الشخصيَّات المعروفة في قيادتها الميادين وفي إخلاصها وجهادها وسوابقها، أمثال: أبي أيُّوبَ الأنصاريّ، وحُجْر بن عَدِيّ الكِندي، وعَدِيّ بن حاتِم الطائي وأضرابهم، ممَّن مرَّ ذكرهم.

لذلك كان تقديم ابن عمِّ الإمام، بل ابن عمِّ النبيِّ صلى الله عليه وآله، وتعيينه «إسماً» ثمَّ الإستفادة من رأي قيسٍ وصاحبه على الأسلوب الّذي ذكرنا، تخلُّصاً لَبِقاً، لا ينبغي الخلاف فيه، ولا التَّنافس عليه.

وثانيها: أنَّه كان من الإحتياطات الرَّائعة للوضع العام يوم ذاك، أن لا يكون القائد في جبهة الحسن إلاَّ هاشمياً.

وتفسير ذلك، أنَّ سَوْرَة التخاذل الّتي دارت مع قضيَّة الحسن في الكوفة، كانت لا تزال نذيرةَ تشاؤمٍ كثيرٍ في حساب الحسن عليه السلام، وكان عليه أن يتَّخذ من التدابير الممكنة كلَّ ما يدفع عنه ـ في حاضره وفي مستقبله ـ لَوْم النّاس وتخطئتَهم ونقدَهم. ومن السَّهل على النّاس أن يتسرَّعوا إلى التَّخطئة والنَّقد متى وجدوا موضعاً للضَّعف أو مَنْفذاً إلى الفشل والحِرمان.

وكان من المنتظر أنْ يقولوا فيما لو فشلت قضيَّةُ الحسن في مِسْكِن أنَّه لو كان القائد من أهله لكان أولى من غيره بالصَّبر على المكاره وتحمُّل العظائم، ولما آل الأمر إلى هذا المآل.

فكان الإستعداد لغوائل الوضع الرَّاهن بتعيين القائد الهاشميّ، تدبيراً دقيق الملاحظة.

وثالثها: أنَّه لن يكون إنسانٌ آخَر غير عبيد الله بن عبَّاس ـ لا قيسٌ ولا ابنُ قيسٍ ولا غيرهما ـ أشدَّ حَنَقاً ولا أعنفَ تألُّباً على معاوية منه، كأبٍ قُتِل ولداه (الصبيَّان) صَبراً، فيما أمْلَتْهُ فاجعةُ بُسر بن أرطأة يوم غارَتِه على اليمن (والقضيَّة من مشهورات التَّاريخ).

فكان من الإستغلال المناسب جِدّاً، اختيار هذا القائد الحانِق لقتال قاتل ولديه.

ورابعها: أنَّ جيش «المقدِّمة» الّذي ولي قيادته عبيد الله هذا، كان أكثره من بقايا الجيش الّذي أعدَّه أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة لحرب أجناد الشَّام، ثم تُوفِّي عنه. وكان قيس بن سعدِ بن عُبَادة هو قائد[1] ذلك الجيش في زمن أمير المؤمنين عليه السلام والقائم على مداراته. ولهذه السَّوابق أثرها في تونيق الرَّوابط الشخصيَّة بين القائد والمقود. وكان من السَّهل على القائد النَّافذ في جنوده، أنْ يجنح ـ متَّى شاء ـ إلى حُرِّية التصرُّف الّتي لا تعبِّر عن اتِّصال إيجابي بالمركز الأعلى، وهو ما كان يجب التحفُّظ منه، كأهمِّ عنصر ـ في الموقف.

وعلى أنَّنا نحترم سيِّدنا قَيْساً كما يجب له الإحترام، ولكنَّنا لا نُنكر قابليَّاته الشَّخصيَّة الّتي تجوز عليه هذا اللَّون من حُرِّية التصرُّف.

ولا نَنسى أنَّه وقف بين صفوفه ـ يوم رجعت له قيادة هذا الجيش في مَسْكِن ـ يخيرهم بين الإلتحاق بالإمام على الصُّلح، وبين الإستمرار على حرب معاوية بلا

---

(١) تاريخ ابن كثير (ج ٨ ص ١٤) وغيره. (المؤلف رحمه الله)

أقول: في آخر تعبئة للجيش من أجل حرب أهل الشام، خطب الإمام عليه السلام خطبة كلّها آلام وشجون، وذكر الشّجعان من جيشه، ثم أمّر قيساً على عشرة آلاف، كما عقد لغيره على أعداد أخرى، ولم نعهد لأمير المؤمنين عليه السلام أن يؤمّر شخصاً على الجيش كلّه.

إمام[1]!!

فأيُّ احتياط كان أحسن من جعل القيادة في غير هذا الرّجل وجعله ـ مع ذلك ـ المستشار العسكريّ للإستفادة من كَفَاءاته ودهائه، وهو ما فعله الإمام الحسن تنفيذاً لأفضل الرَّأيين.

أقول: ولا يُضِير هذه السِّياسة، تعيين قيسٍ للخلافة على القيادة بعد عبيد الله بن عبَّاس، لأنَّه لن يكون بعد مقتل سَلَفِه في ميادين مَسْكِن ـ كما كان هو المفروض في نصوص العهد ـ إلاَّ رهن التَّصميم الّذي سار عليه سلفه، والَّذي لا تسمح بتغييره ظروف الحرب القائمة بين الفريقين، ولعلَّه لن يكون ـ يومئذٍ ـ إلاّ رهن توجيه الإمام (القائد الأعلى) مباشرةً، وقد علمنا ـ ممَّا سبق ـ أنَّ الإمام وعد مقدِّمته بالإلتحاق بها وشيكاً.

وأيُّ محذور ـ بعد هذا ـ من تعيينه للخلافة على القيادة ما دام مقيّداً بتصميم خاصّ، أو مرتهناً بتسيير الإمام وإشرافه المباشر.

(١) قال في مقاتل الطالبيين / ٤٢: «وخرج إليهم بُسر بن أرطاة في عشرين ألفاً فصاحوا بهم: هذا أميركم قد بايع وهذا الحسن قد صالح، فعلام تقتلون أنفسكم؟ فقال لهم قيس بن سعد بن عُبادة: اختاروا إحدى اثنتين: إمَّا القتال مع غير إمام، أو تبايعون بيعة ضلال، فقالوا: بل نقاتل بلا إمام، فخرجوا فضربوا أهل الشَّام حتى رَدّوهم إلى مصافّهم.»

عَدَدُ الجيْشِ

كان في الكوفة من الجيش العامل في أواسط القرن الأوَّل أربعون ألفاً، يغزو كلَّ عام منهم عشرةُ آلاف (وهو ما تنصُّ على ذكره المصادر الموثوقة).(1)

وعلمنا أنَّ أمير المؤمنين عليّاًعليه السلام كان قد أعدَّ للكرَّة على جنود الشَّام أربعين ألفاً أو خمسين ألفاً ـ على اختلاف الرِّوايتين ـ ثم تُوفِّي قبل الزَّحف بها.(2) والمظنون أنَّ الحِصَّة المدورة من الجيش العامل، كانت بعض هذه العدّة الّتي كان أمير المؤمنين قد أعدّها لحرب معاوية.

ثم انقطع بنا العلم عن موقف هذا الجيش أو ذاك من الحسن بن عليّعليهما السلام، إبَّان دعوته إلى الجهاد. وعلمنا من أكثر من مصدر أنَّ المقدِّمة الّتي بعث بها الحسن إلى لقاء معاوية في «مَسْكِن» كانت تعدُّ اثني عشر ألفاً، والمرجَّح أنها فلول الجيش الّذي مات عنه أمير المؤمنينعليه السلام، فأجاب الحسن منهم من أجاب وتخلَّف الباقي.

(1) في تاريخ الطَّبري ٣/ ٣٠٧: «أنَّ مغازي أهل الكوفة كانت الرَّي وآذربيجان وكان بالثَّغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة، سِتَّة آلاف بآذربيجان وأربعة آلاف بالرَّي، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل، وكان يغزو هذين الثَّغرين منهم عشرةُ آلاف في كلِّ سَنَةٍ، فكان الرَّجلُ يُصيبه في كلِّ أربع سنين غزوة.»

(2) في نهج البلاغة ٢/ ١١٠، الخطبة: ١٨٢: «قال نَوْفٌ: وعقد (أي أمير المؤمنينعليه السلام) للحُسينعليه السلام في عَشَرَةِ آلَافٍ، ولِقَيسِ ابنِ سعدٍرحمه الله في عَشَرَةِ آلَافٍ، ولأبي أيُّوبَ الأنصارِي في عَشَرَةِ آلَافٍ، ولغيرهم على أعدادٍ أُخَر، وهو يريد الرَّجعة إلى صفِّين، فما دارت الجمعة حتَّى ضربه الملعون ابنُ مُلْجَم لعنه الله، فتراجعت العساكر.»

وفي تاريخ الطَّبري ٤/ ١٢١: «جعل عليٌّعليه السلام قيسَ ابن سعد على مقدِّمته من أهل العراق إلى قِبَل آذربيجان، وعلى أرضها وشُرْطَة الخميس الّتي ابتدعتها العرب وكانوا أربعين ألفاً، بايعوا عليّاًعليه السلام على الموت ولم يزل قيس يداري ذلك البعث حتى قُتِل عليٌّعليه السلام».

ثم علمنا من مصدر آخر أنَّ الكوفة جاشت في صميم تثاقلها يوم الحسن فجنَّدت أربعة آلاف[1] أخرى.

فهذه سِتّة عشر ألفاً، قام على إثباتها النَّصُّ الّذي لا يقبل النِّقاش.

وهناك أرقام أخرى لعدد الجيش، مرّ عليها المؤرِّخون وتضمّنتها بعض التَّصريحات ذات الشّأن. ولكنَّها خاضعة في ثبوتها للتَّمحيص والمناقشة.

وفيما يلي نصوص المصادر الّتي تشير إلى تلك الأرقام على اختلافها نعرضها أوّلاً بحرفها، ثم نعود أخيراً إلى تدقيقها كما يجب.

١ـ قال في البحار (ج ١٠ ص ١١٠)[2]:

«ثم وجَّه (يعني الحسن) إليه (يعني إلى معاوية) قائداً في أربعة آلاف، وكان من كِندة، وأمره أن يعسكر بالأنبار[3]، ولا يُحدِث شيئاً حتى يأتيه أمره. فلمَّا توجَّه إلى الأنبار، ونزل بها، وعلم معاوية بذلك، بعث إليه رُسُلاً، وكتب إليه معهم: إنَّك إن أقبلت إليَّ، أوَلِّيك بعضَ كُوَرِ الشَّام والجزيرة، غير مُنفِسٍ عليك. وأرْسِل إليه بخمسمائة ألف درهم.

فقبض الكِنديُّ المال، وقَلَبَ على الحسن، وصار إلى معاوية في مائتي رجلٍ من خاصَّته وأهل بيته. فبلغ ذلك الحسن فقام خطيباً وقال: «**هَذَا الكِنْدِيُّ تَوَجَّهَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَغَدَرَ بِي وَبِكُمْ، وَقَدْ أَخْبَرْتُكُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، أَنَّه لا وَفَاءَ لَكُمْ، أَنْتُمْ عَبِيدُ الدُّنْيَا،**

(١) الخرايج والجرايح للراوندي (ص ٢٢٨) [٢/ ٥٧٤] (المؤلف رحمه الله).

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٤٣.

(٣) مدينة كانت على الفرات (غربي بغداد) تبعد عنها عشرة فراسخ سمِّيت بذلك لأنها كانت تجمع بها أنابير الحنطة والشَّعير منذ أيَّام الفرس، وأقام بها أبو العبَّاس السفَّاح العباسي إلى أن مات، وجدّد بها قصوراً وأبنية، ثم اندثرت عمارتها. (المؤلف رحمه الله)

وَأَنا مُوَجِّهٌ رَجُلاً آخَرَ مَكَانَهُ، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ بِي وَبِكُمْ، مَا فَعَلَ صَاحِبُكُمْ، وَلا يُرَاقِبُ اللهَ فِيَّ وَلا فِيْكُمْ» فبعث إليهِ رَجُلاً من مراد في أربعة آلاف. وتقدَّم إليه بمشهدٍ من النّاس وتَوكَّد عليه، وأخبره أنَّه سيغدر كما غدر الكِنديُّ. فحلف له بالأيمان الّتي لا تقوم لها الجبال أنّه لا يفعل. فقال الحسن: «**إنَّهُ سَيَغْدِرُ**». فلمّا توجَّه إلى الأنبار، أرسل إليه معاوية رُسُلاً وكتب إليه بمثل ما كتب إلى صاحبه وبعث إليه بخمسة آلاف (ولعلَّه يريد خمسمائة ألف) درهم، ومنّاه أيَّ ولايةٍ أحبَّ من كُوَرِ الشَّام والجزيرة، فَقَلَبَ على الحسن، وأخذ طريقه إلى معاوية، ولم يحفظ ما أخذ عليه من عهود.».

ثم ذكر بعد هذا العرض، اتّخاذ الحسن النُّخيلة معسكراً له، ثمَّ خروجه إليها.

قال ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٤)[١]:

٢ـ «وخرج النّاس، فعسكروا ونشطوا للخروج، وخرج الحسن إلى المعسكر، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلّب وأمره باستحثاث النّاس وإشخاصهم إليه. فجعل يستحثُّهم ويخرجهم حتى يلتئم المعسكر. وسار الحسن في عسكر عظيم وعدَّة حسنة، حتّى نزل دَيْرَ عبد الرّحمن، فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع النّاس. ثم دعا عبيد الله بن العبّاس بن عبد المطلّب، فقال له: «**«يا ابْنَ عَمِّ، إنِّي بَاعِثٌ مَعَكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً مِنْ فُرْسَانِ العَرَبِ وَقُرَّاءِ المَصْرِ.**».

٣ـ روى الزُّهْرِيُّ[٢] فيما ينقله عنه ابن جَريرٍ الطَّبري (ج ٦ ص ٩٤)[٣] قال: «فَخَلَص

---

(١) شرح النَّهج ١٦/ ٣٩.

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِم بْنِ عُبَيْدِ الله بْنِ عَبْدِ الله بْنِ شِهَابٍ، الزُّهْرِيُّ، القُرَشِيُّ، المَدَنِيُّ، أَبُو بَكْرٍ، وُلد سنة ٥٢ هـ، وقيل غير ذلك. روى عن: جابر الأنصاري، وأنس، وسهل بن سعد، وأبي الطُّفيل عامر، وعليِّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وسعيد بن المسيَّب، وطائفةٍ. وحدَّث عنه: عطاء بن أبي رباح، وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، وقَتادة بن دعامة، وآخرون. وكان أحد كبار ⇐

معاوية حين فرغ من عبيد الله بن عبَّاس والحسن عليه السلام إلى مكايدة رجلٍ هو أهمّ النّاس عنده مكايدة، ومعه أربعون ألفاً. وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشَّام».

٤ ـ وجاء في كلام المسيَّب بن نجيَّة فيما عاتب به الإمام الحسن على صلحه مع معاوية (على رواية غير واحد من المؤرِّخين) ـ والنّصُّ للمدائني[2] كما يحدِّثنا عنه في شرح النَّهج (ج ٤ ص ٦)[3] ـ قال:

«فقال المسيَّب بن نجيَّة للحسن عليه السلام: ما ينقضي عجبي منك صالحت معاوية ومعك أربعون ألفاً! أو قال: بايعت. على اختلاف النُّقول».

٥ ـ قال ابن الأثير في كامله (ج ٣ ص ٦١)[4]:

⇨

الفقهاء والحفّاظ والمحدثين، نزل الشَّام واستقرَّ بها، ولزم عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، وكان يزيد بن عبد الملك قد استقضاه. ذُكر أنّ محمَّد بن نوح جمع فتاويه في ثلاثة أسفار ضخمة مرتّبة على أبواب الفقه. وله في «الخلاف» مائة وعشرة موارد في الفتاوى. وقيل: إنّه حفظ علم الفقهاء السَّبعة، وكان يقول: من سُنّة الصَّلاة أن يُقرأ فيها: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، ثمَّ فاتحة الكتاب، ثمّ تُقرأ سورةٌ، ويقول: أوّل من قرأ بسم الله الرَّحمن الرَّحيم سِرًّا بالمدينة عمرو بن العاص. وروي أنّه كان يحفظ ٢٢٠٠ حديث نصفها مسند.

عُدّ من أصحاب الإمام عليّ بن الحسين، والإمام جعفر الصادق عليهما السلام. وله عِدَّة روايات مذكورة في «الكافي» و «من لا يحضره الفقيه» و «تهذيب الأحكام». تُوفِّي سنة ١٢٤ هـ، وقيل ثلاث، وقيل غير ذلك. باختصار عن موسوعة طبقات الفقهاء ١/ ٥٢٣.

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٥.

(٢) هو: أبُو الحَسَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أبِي سَيْفٍ، البَصْرِيُّ الأصل. سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد، وتُوفِّي بها سنة ٢١٥ وهو الّذي يُكثر ابن أبي الحديد النَّقل عنه في شرح النَّهج. وله ما يقرب من مائتي كتاب في مختلف الموضوعات رحمه الله. (المؤلف رحمه الله)

(٣) شرح النَّهج ١٦/ ١٥، وفي الأصل: «المُسَيَّبُ بنُ نَجَبَةَ»

(٤) الكامل في التَّاريخ ٣/ ٤٠٤.

«كان أمير المؤمنين عليٌّ قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت، لَمّا ظهر ما كان يخبرهم به عن أهل الشَّام. فبينما هو يتجهَّز للمسير قُتِل عليه السلام وإذا أراد اللهُ أمراً فلا مردّ له. فلمّا قُتِل وبايع النّاس ولده الحسن بلغه مسيرُ معاوية في أهل الشَّام إليه، فتجهَّز هو والجيش الّذين كانوا بايعوا عليّاً، وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية ـ وكان قد نزل مَسْكِن ـ فوصل الحسن إلى المدائن، وجعل قيس بن عبادة الأنصاري على مقدِّمته في اثني عَشَرَ ألفاً، وقيل: بل كان الحسن قد جَعَل على مقدِّمته عبد الله[1] بن عبَّاس، فجعل عبدُ الله بن عبَّاس على مقدِّمته في الطَّلائع قيس بن سعد بن عبادة.».

أقول: وجرى على مثل هذا الحديث «ابن كثير»[2] والظَّاهر أنَّه أخذه من الكامل حرفيّاً.

٦ ـ كلمة الحسن عليه السلام فيما يرويه عنه المدائنيُّ[3] في جواب الرَّجل الّذي قال له: لقد كُنت على النِّصف فما فعلت؟ فقال: «**أجَلْ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أنْ تَأتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُونَ ألْفاً أوْ ثَمانُونَ ألْفاً تَشْخَبُ أوْدَاجُهُمْ، كُلُّهُمْ يَسْتَعْدِي اللهَ، فِيمَ أهْرِيقَ دَمُهُ**».

٧ ـ ما رواه ابن قُتَيبةَ الدِّينَوَرِيُّ في الإمامة والسِّياسة (ص ١٥١)[4] قال: وذكروا أنَّه لما تمّت البيعة لمعاوية، وانصرف راجعاً إلى الشَّام أتاه ـ يعني أتى الحسن ـ سُلَيْمانُ بْنُ صُرَد[5]، وكان غائباً عن الكوفة، وكان سيِّد أهل العراق ورأسهم، فدخل على الحسن

(١) هو عبيد الله لا عبد الله ولا قيس كما ذكرنا آنفاً، ونبّهنا على بواعث الخطأ في ذكر كلٍّ منهما. (المؤلف رحمه الله)

(٢) البداية والنِّهاية ٨/ ٤٥.

(٣) شرح النَّهج (ج ٤ ص ٧) [١٦/ ١٧]، وابن كثير (ج ٨ ص ٤٢) [البداية والنِّهاية ٨/ ٤٦] (المؤلف رحمه الله).

(٤) الإمامة والسياسة ١/ ١٤١.

(٥) سُلَيْمانُ بنُ صُرَدَ بْنِ الجَوْنِ بْنِ أبِي الجَوْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ مُنْقِذِ بْنِ رَبِيعَةَ، السَّلُولِيُّ، الخُزَاعِيُّ، أبو ⇐

فقال: السَّلام عليك يا مذلَّ المؤمنين ! فقال الحسن: «وَعَلَيْكَ السَّلامُ، اجْلِسْ لله أَبُوكَ».

قال: فجلس سليمان وقال: أمَّا بعدُ: فإنَّ تَعَجُّبنا لا ينقضي من بيعتك معاوية، ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق، وكلُّهم يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز !!

أقول: وروى كُلٌّ من المرتضى في «تنزيه الأنبياء»[1]، وابن شهرآشوب في «مناقبه»[2] والمجلسيُّ في «البحار»[3] النَّصَّ الكامل لما دار بين سُلَيمان بنِ صُرَدَ ورِفاقِه، وبين الحسن عليه السلام. ولم يرو أحدٌ منهم عن سليمان أو أصحابه فيما عرضوا له من عدد الجيش، أكثر من أربعين ألفاً.

فابن قتيبة ينفرد برواية المائة ألف عن سليمان، كما ينفرد بالتَّعبير عن الصُّلح بلفظ

⇦

المُطرِّفِ، أسلم وصحب النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وكان اسمه في الجاهليّة يَسَاراً، فلمّا أسلم سمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله سليمان، نزل الكوفة حين نزلها المسلمون وشهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام صفّين وكان أميراً على رَجَّالة الميمنة، كتب إلى الإمام الحسين عليه السلام فيمن كتب إليه يسأله القُدوم إلى الكوفة، فلمَّا قدمها ترك القتال معه، فلما قُتِلَ الحسين عليه السلام ندم هو وكثير ممّن خذله إذ لم يقاتلوا معه ثم قالوا: ما لنا من توبةٍ ممَّا فعلنا إلاَّ أن نقتل أنفسنا في الطَّلب بدمه، فخرجوا فعسكروا بالنُّخيلة وكانوا أربعة آلاف وذلك مستهلّ ربيع الآخر سنة خمس وستين وولّوا أمرهم سليمان بن صُرَد وسمَّوه: أمير التوّابين، ثمَّ ساروا إلى عبيد الله بن زياد فاقتتلوا بموضع يقال له: «عين الوردة» فقتل سليمان بن صرد بسهم رماه يزيد بن الحصين بن نمير وحمل رأسه إلى مروان بن الحكم وكان سليمان يوم قُتِل ابن ثلاثة وتسعين سنة.

أنظر: طَبقات بن سعد ٤/ ٢٩٢، الإستيعاب ٢/ ٦٥٠، أسد الغابة ٢/ ٣٥١، تهذيب الكمال للمزّي ١١/ ٤٥٥، الإصابة ٣/ ١٤٤، الأعلام للزّركلي ٣/ ١٢٧، أعيان الشِّيعة ٧/ ٢٩٨.

(١) تنزيه الأنبياء / ٢٢٣.

(٢) المناقب ٣/ ١٩٧.

(٣) بحار الأنوار ٤/ ٢٩.

«البيعة»![1].

٨ ـ التَّصريح الّذي فاه به زياد ابن أبيه، يوم كان لا يزال عاملاً للحسن بن عليٍّ على فارس، وذلك فيما أجاب به على تهديد معاوية إيَّاه، قال:

«إنَّ ابن آكلة الأكباد، وكهف النِّفاق، وبقيَّة الأحزاب، كتب يتوعَّدُني ويتهدَّدني، وبيني وبينه، ابنا رسول الله في تسعين ألفاً (وعلى رواية في سبعين ألفاً) واضعي قبائع سيوفهم تحت أذقانهم، لا يلتفت أحدهم حتَّى يموت. أما والله لئن وصل إليَّ ليجدني أحمَزَ، ضَرَّاباً بالسَّيف»[2].

المناقشة: وهكذا توفّرت هذه النُّصوص بمختلف صِيغها، على أرقامٍ فَرَضَتْها في موضوع عدد الجيش، وتدرّج العدد الكبير فيها من أربعين ألفاً إلى ثمانين ألفاً فمائة ألف. والواقع أنَّ المراتب الثَّلاث بجملتها، معرَّضة للشَّك وخاضعة للتَّمحيص، وحتى أدناها. وإليك البيان:

أمّا أوّلاً: فالعدد الأعلى (وهو مائة ألف أو أكثر، أو تسعون ألفاً) فيما يشير إليه زياد ابن أبيه (على رواية اليعقوبي)، أو فيما يُنسب إلى سليمان بن صُرَد (برواية ينفرد بها الدِّينَوَرِيُّ خلافاً لمؤرِّخين كثيرين) مشكوكٌ فيه من جهات:

أهمُّها أنَّ كُلاًّ من هذين الزَّعيمين ـ سُليمانُ وزِياد ـ كانا غائِبَين عن بيعة الحسن وجهاد الحسن وكوفة الحسن، طِيلة خلافته في الكوفة وكانا قد غادرا مواطنهما في

---

(١) أقول: وينفرد ابن قتيبة بزيادة أخرى لا نعلم من أين أتى بها وهي: السَّلام عليك يا مذلَّ المؤمنين، فإنَّ صاحب هذه الكلمة هو: «سُفْيَانُ بْنُ لَيْلَى» كما هو مشهور.

(٢) اليعقوبي (ج٢ ص١٩٤) [٢/ ٢١٨]، وابن الأثير (ج٣ ص١٦٦) [٣/ ٤١٥] . ورواه الأوَّل بتسعين ألفاً، والثَّاني بسبعين ألفاً. (المؤلف ﷫)

العراق منذ سنين(١). وأيُّ قيمةٍ لتصريح غائب لم يشهد الوضع السَّائد في الكوفة، بما كان يجتاح هذه الحاضرة من تحزُّب قويٍّ وتثاقلٍ لئيمٍ فيما واجهت به إمامها وصاحب بيعتها.

وأنَّ زياداً وسليمان إذ يفرضان هذه الأعداد من الجيش فإنما يقيسان حاضر الكوفة على ماضيها، ويظنَّان أنها جنَّدت مع الحسن ما كانت تجنِّده مع أبيه أمير المؤمنين سنة ٣٧ و ٣٨ يوم كان كلٌّ منهما لا يزال في الكوفة يساهم بنصيبه من تلك الصُّفوف. هذا أوَّلاً.

وأمَّا ثانياً: فقد كان من موقف الرّجلين كليهما في اللَّحظة العاطفيَّة الّتي اندفعا بها إلى هذا التَّصريح، ما يبرِّر لهما الجُنوح إلى أسلوب المبالغات، وكانت المبالغة في عدد الجيش تهويلاً قريب التناول من جموح العاطفة النَّاقمة في سليمان، وهو ينكر على الإمام الحسن عليه السلام الرِّضا بالصُّلح، وقريب التناول ـ كذلك ـ من سياق التَّهديد والوعيد في زياد وهو يردُّ في خطابه على تهديد معاوية.

وبعد هذا كلِّه، فليس في هذين التَّصريحين ما يصحُّ الرُّكون إليه من إحصاء أو تعيين أعداد.

وعلمنا أنَّ سليمان هذا، كان صديق المسيَّب بن نجيَّة وصاحبه الّذي تربطه به وشائج أخرى هي أبعد أثراً من الصَّداقات الشخصيَّة. وقد مرَّ عليك في النَّص (رقم:

---

(١) صرّح بغياب سليمان بن صرد عن الكوفة كلٌّ من ابن قتيبة في الإمامة والسِّياسة [الإمامة والسِّياسة ١/ ١٤١]، والمرتضى في تنزيه الأنبياء [/ ٢٢٣]، ونصَّ فيه على غيبته سنتين . وأمّا زياد فكان والي فارس من سنة ٣٩ بعثه إليها عبد الله بن عبَّاس وهو إذ ذاك والي البصرة. وكان زياد قبل سنة ٣٩ في البصرة كما صرّح به الطَّبريُّ في حوادث ٣٩ [تاريخ الطَّبري ٤/ ١٠٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

٤) قول المسيَّب للحسن في معرض العتاب على الصُّلح: ومعك أربعون ألفاً. ومن المقطوع عليه أنّ مثل هذين الصَّديقين لا يختلفان في قضايا أهل البيت عليهم السلام اختلافهما في هذا التَّقدير.

أذاً، فما من سبب لشذوذ كلمة ابن صُرَدَ، إلاّ كون راويها الدِّينَوَرِيّ الّذي انفرد في قضية الحسن بعدّة روايات لم يهضمها التَّمحيص الصَّحيح!

وشاءت المقادير أنْ لا يفارق الزَّعيمان الصَّديقان الدُّنيا، حتَّى يَأخذا جوابهما ـ عمليّاً ـ عن عتابهما الطّائش الّذي قابلا به إمامهما أبا محمَّد عليه السلام، فيما أنكرا عليه من الصُّلح.

فبايعهما على الأخذ بثأر الحسين عليه السلام سنة ٦٥ هجري ثمانية عَشَر ألفاً من أهل الكوفة، ثمَّ لم يكن معهما حين جدَّ الجِدّ في ساحة «عين الوردة» غير ثلاثة آلاف ومائة[1]. ومُنِيا من خذلان النّاس بما ذكرهما بالصَّميم من قضايا أهل البيت عليهم السلام.

ثم استشهد سليمان والمسيَّب وهما زعيما حركة التوّابين في عين الوردة، واستشهد معهما ـ يوم ذاك ـ أكثر من كان قد انضوى إليها.

وأمّا ثانياً: فالعدد ثمانون ألفاً أو سبعون ألفاً، وهو ما تضمَّنه كلام الحسن في جواب الرَّجل الّذي قال له: لقد كنت على النِّصف فما فعلت؟

وكلام الحسن ـ في حقيقته ـ لا يدلُّ على أكثر من عشرين ألفاً على أكبر تقدير، وذلك لأنَّ الحسن حين يذكر الّذين «**تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» ثم يتردَّد في تعيين عددهم بين السَّبعين والثَّمانين ألفاً، لا يعني جنوده خاصَّة، وإنَّما يُشير بذلك إلى

---

(١) أقول: الوارد في كتب التاريخ أنّ عدد من بايع سليمان ستة عشر ألفاً مثبوتة أسماؤهم في ديوانه، إلا أنّه لم يفِ له بذلك سوى أربعة آلاف. أنظر: ذوب النضار لابن نما الحلّي / ٨٣، تاريخ الطَّبري ٤/ ٤٥٢، تاريخ ابن الأثير ٤/ ١٧٥.

الجيشين المتحاربين جميعاً. وعلمنا أنّ عدد أهل الشّام في زحفهم على الحسن، كان ستّين ألفاً،[1] فيكون الباقي عدد جيشه الخاصّ.

وكان تردُّده في تعيين العدد صريحاً بما أفدناه، لأنّه لو عنى جيشه دون غيره، لذكره برقمه الّذي لا تردُّد فيه، وهو أعلم النّاس بعدده.

وأمّا ثالثاً: فالعدد أربعون ألفاً، وهو الّذي سبق إلى ذكره غيرُ واحد من المؤرِّخين، وذكره المسيَّب بن نجيَّة، فيما رويناه عنه في النصِّ الرّابع من النُّصوص الثّمانية. ولا كلام لنا على هذا العدد إلاّ من وجهين:

(أحدهما) أنّه لا يتّفق وكلمة الحسن نفسه الّتي أشار بها إلى عدد الجيش، وقد عرفت أنّ كلمته لم تَعْنِ أكثر من عِشرين ألفاً على أكبر تقدير، ولا يتّفق وكلمته الأخرى الّتي وصف بها موقف النّاس منه ـ بالنُّكول عن القتال[2] ـ ومن كان معه أربعون ألفاً لم ينكل النّاس معه عن القتال، فالعدد إذاً لا يزال مُعرَّضاً للشّك.

(وثانيهما) أنّه عدد أملاه الظّن على القائلين به، فرأوا أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان قد جهَّز لحملته الأخيرة على الشّام أربعين ألفاً، ثمَّ اخترمت حياته الكريمة ولمّا يزحف بهذا

---

(١) روى أحمد بن أعثم الكوفيُّ في الفتوح ٤/ ٢٨٦: «جمع معاويةُ النّاس وخرج في ستّين ألفاً يريد العراق، وكتب الحسنُ بن عليٍّ إلى عُمّاله يأمرهم بالإحتراس، ثمَّ ندب النّاس إلى حرب معاوية، ودعا بالمُغِيرَة بنِ نَوفَل بنِ الحَارث فاستخلفه على الكوفة، وخرج في نَيِّفٍ عن أربعين ألفاً.»

وروى البيهقيُّ في دلائل النبوّة ٦/ ٤١٩، والذّهبيُّ في تاريخ الإسلام ١/ ٣٩٠، وابن كثيرٍ في البداية والنّهاية ٦/ ٢٣٩، عن صفوان بن عمرو قال: «كان أهل الشّام ستّين ألفاً، فَقُتِل منهم عِشرُون ألفاً، وكان أهل العراق مائة ألف وعشرين ألفاً فَقُتِل منهم أربعون ألفاً وذلك يوم صفّين.»

(٢) وذلك فيما أجاب به بشير الهمداني وهو أحد وجوه شيعته في الكوفة، البحار (ج١٠ص١١٣). (المؤلف رحمه الله)

أقول: هذا الخبر غير موجود في البحار بل هو في الأخبار الطّوال لابن قتيبة الدِّينوري / ٢٢١.

الجيش، فظنّوا ـ اجتهاداً ـ أنَّ جنود الأب انضافت إلى الإبن، وفَاتَهُم أنْ يُقدِّروا حيال هـذا الظَّن قيمة التَّخاذل الّذي جُوبِه به الخليفة الجديد في الكوفة.

وبعد، فأيُّ قيمةٍ للإحصاء مُبتنياً على هذه الأخطاء.

وكانت أغرب روايات الموضوع، رواية الزُّهرِيِّ الّتي تشير إلى وجود أربعين ألفاً من جيش الحسن، مع قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاريّ، بعد أن رجعت إليه قيادة المقدِّمة في «مَسْكِن» بفرار عُبيد الله ومن معه. ومعنى ذلك أنَّ مقدِّمة الحسن وحدها كانت قبل حوادث الفرار ثمانية وأربعين ألف مقاتل!!

وهذا ما لا يصحُّ في التَّاريخ.

فلم تكن المقدِّمة إلاّ اثني عشر ألفاً، منذ كان عليها عُبيد الله بن عبَّاس كما هو صريح الفِقْرَة الّتي تخصُّ العدد فيما عَهِد به الحسن إلى قائده، حين سَرَّحه على رأس هذه المقدِّمة، وصريح نصوص كثيرة للمؤرِّخين لا يتخلَّلها شكٌّ.

وروايات الزُّهْرِيّ في قضايا أهل البيت أضعف الرِّوايات، وأشدُّها إرْبَاكاً لموضوعاتها. وَسَمَهُ صاحب «دراسات في الإسلام» (ص١٦) بأنَّه كان: عَاملاً مَأجوراً للأمويين. وكفى.

على أننا إذا حاولنا التصرُّف في رواية الزُّهْرِيّ هذه وأردنا علاج إرباكها المقصود، فأرجعنا الضَّمير في قوله: وقد نزل معاوية بهم وعمرو وأهل الشَّام، إلى جيش معاوية دون جيش قيس، يكون المعدود حينئذٍ جنود معاوية الّتي نزل بها على قيس، وليكن المقصود منهم «أهل العطاء خاصَّة» وليكن المقصود من «أهل الشَّام» المتطوِّعين غير أهل العطاء، ليتمَّ بذلك التَّوفيق بين روايته هذه، والرِّوايات الأخرى الّتي تعدُّ مقدِّمة الحسن، والَّتي تعدُّ جنود معاوية.

وأمّا رابعاً: فالعسكر العظيم، وهو تصريح ابن أبي الحديد فيما وصف به مسير

الحسن من النُّخيلة صوب دَيْر عبد الرَّحمن في طريقه إلى معسكراته. والكلمة كما ترى، مجملةً لا تأبى الإنطباق على العدد الّذي ذكرناه آنفاً، فإنَّ سِتَّة عشر ـ ألفاً «عسكر عظيم»، وإن أبيت فعشرين ألفاً.

وأمّا خامساً: فرواية البحار، وهي أُولى النُّصوص الّتي أوردناها في سبيل استيعاب ما رُوِي في الموضوع، وأنَّ لهذه الرِّواية من التَّناسق في حوادثها المتكرِّرة ما يفرض الشّكَّ بها فرضاً.

وهي تغفل عند عرضها الحوادث المتشابهة تسميةَ كلٍّ من القائِدَين ـ الكِنْدِيِّ والمُرَادِيِّ ـ اللَّذين تفرض أنّهما سبقا عبيد الله بن عبَّاس إلى لقاء معاوية وسبقاه إلى الخيانة أيضاً. ولا يعهد في تاريخٍ قضيّة من هذا الوزن، إغفال تسميَة قائدين في حادثتين من أبشع حوادث الإنسان في التَّاريخ.

ولعلَّ الأغرب من ذلك، أنَّ رواية البحار هذه تشير إلى إصرار الإمام على اتّهام القائدين قبل بعثهما، ثمَّ تُصِرُّ على أنَّ الإمام بعثهما ـ مع ذلك ـ إلى لقاء معاوية عالماً بما سيصيران إليه من غدر!!

وبعض هذا يكفينا عن الإستمرار في نقاش هذه الرِّواية الّتي يجب أنْ نتركها لتعلن هي عن نفسها.

أقول: ولم نحصل ـ بعد هذا كلِّه ـ على محصَّلٍ في الموضوع الَّذي أردناه تحت عنوان «عدد الجيش» ولتكن هذه النُّصوص ـ على كثرتها ـ أحد أمثلتنا الّتي نقدِّمها للقارئ عمّا نُكِبت به قضيّة الحسن في التَّاريخ، من اختلاف كثيرٍ واختلاق صريح، ولا بِدْعَ في تقرير هذه الحقيقة وتكرارها وتعظيم خطرها وإنكارها والتَّنبيه إلى تَبِعاتها. فهذه ثمانية نصوص، ليس فيها ما يصبر على النِّقاش، ولا ما يصحُّ الإعتماد عليه كسندٍ تاريخي.

ولم يبق لدينا إلاَّ عدد جيش المقدِّمة، وهو اثنا عَشَر ألفاً، وعدد المتطوِّعين بعد ذلك في الكوفة، وهو أربعة آلاف، ثمَّ الفصائل الّتي تواردت على الحسن في دَيْر عبد الرَّحمن حين أقام بإزائه ثلاثاً ـ كما أشير إليه آنفاً ـ فهذه قرابة عِشرين ألفاً، هي جيش الحسن عند زحفه إلى معسكريه في مَسْكِن والمَدَائن. أمَّا مقاتلة المدائن نفسها، فقد عرفنا أنَّها لم تتخلَّف ـ فيما سبق ـ عن ميادين عليٍّ عليه السلام، ومن البعيد جِدّاً أن يُعَسْكر ابنه الحسن بين ظهرانيهم ثمَّ لا يلتحق به القادرون منهم على حمل السِّلاح.

وهذا ما يُؤكِّد الظَّنَّ ببلوغ عدد الجيش في كِلا المعسكرين العشرين ألفاً أو يزيد قليلاً.

وهو «العسكر العظيم» الّذي عناه ابن أبي الحديد، وهو ـ أيضاً ـ العدد الّذي يلتقي بتصريح الحسن عليه السلام ـ الآنف الذِّكر ـ ولا أحسن من تصريح الحسن دليلاً فيما يخصُّ قضاياه.

ثم لا نعلم أنَّ الحسن عليه السلام، تَلقَّى بعد وجوده في المدائن أيَّ نَجْدَةٍ من أيِّ جهة.



عَنَاصِرُ الجيْشِ

قال المفيد في الإرشاد (١٦٩): وبعث الحسنُ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ فأمر العُمَّال ـ يعني أمراء الأطراف ـ بالمسير، واستنفر النّاس للجهاد، فتثاقلوا عنه، ثم خَفُّوا، وخَفَّ معه أخلاطٌ من النَّاس، بعضهم شيعةٌ له ولأبيه، وبعضهم مُحكِّمَةٌ يُؤثِرون قِتَال معاوية بكلِّ حِيلة، وبعضهم أصحاب فِتَن وطَمَع بالغنائم، وبعضُهم شُكَّاكٌ، وبعضُهم أصحاب عَصَبيَّة اتَّبعوا رُؤساء قبائلهم لا يَرجِعون إلى دين..."[1].

أقول: علمنا ممَّا سبق قَريباً أنَّ جيش الحسن تألَّف من زُهاء عشرين ألفاً، أو يزيد قليلاً، ولكنَّا لم نعلم بالتَّفصيل الطَّريقة الّتي اتُّخذت لتأليف هذا الجيش. والمعتقد أنَّها كانت الطَّريقة البِدائية الّتي لم تدخلها التَّحسينات المكتسبة بعد ذلك. وهي ـ إذ ذاك ـ الطَّريقة المتَّبعة في التجمُّعات الإسلامية مع القرون الأولى في الإسلام، وهي الطَّريقة الّتي لا تشترط لقبول الجُنديّ أو لقبول المجاهد أيَّ قابليَّات شخصيَّة، ولا سِنّاً خاصّة، ولا تنزع في مناهج تجنيدها إلى الإجبار بمعناه المعروف اليوم. وللمسلم القادر على حمل السِّلاح وَازعُه الدِّينيُّ حين يسمع داعي الله بالجهاد فإمّا أن يبعث فيه هذا الوازع، الشُّعور بالواجب فيتطوَّع بدمه في سبيل الله. وإمّا أن يكون المغلوب على أمره بدوافع الدُّنيا، فيخمد في نفسه هذا الشُّعور، ويحرم نصيبه من الأجر ومن الغنيمة إذا قُدِّر لهذه الحرب الظَّفَرُ والغَنائم.

أمّا النُّظُم الحديثةُ المتَّبعةُ اليوم في الإجبار على خدمة العَلَم، ودعوة (مواليد)

---

(١) [الإرشاد ٢/ ١٠] وروى هذا النّصّ الأربَليُّ في كشف الغُمَّة (ص ١٦١) [٢/ ١٦٢]، والبحار (ج١٠ ص١١٠) [٤٤/ ٤٦]. (المؤلف ﵀)

السَّنوات المعيَّنة، وفحص القابليَّات المحدودة، فلم تكن يومئذٍ ولا هي ممَّا يتَّفق والتَّشريع الإسلاميّ بسعته وسماحته.

وللإسلام اعتداده بصِحَّة حقائقه الَّتي تَكفُل له بعث النَّاس إلى الطَّاعة والإنقياد. وليس في عناصر هذا الدِّين إكراهُ أحدٍ على الطَّاعة بالقوّة. ولكنَّه دلَّهم على السَّبيلين وأعان على خيرهما بالهدى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وكان هذا هو شِعار الإسلام في جميع ما أمر به أو نهى عنه.

وعلى ذلك جرى رُؤساء المسلمين فيما دَعَوا النّاس إليه، وفيما حَذَّروا النّاس منه.

وكان لهم عند اعتزامهم الحرب، دعواتهم الرَّائعة، في التَّحريض على الجهاد، وأساليبهم المؤثِّرة الّتي لا تتأخَّر ـ غالباً ـ عن إقناع أكبر عدد من المطلوبين إلى حمل السِّلاح.

فمن ذلك، أنَّهم كانوا يزيدون في مخصّصات أهل العطاء من مقاتلتهم، ويأمرون عُمّالهم على البلاد فيستنفرون النّاس للجهاد، ويَبُثُّون ألسنتهم وخطباءَهم وذوي التَّأثير من رجالهم لبعث النَّاس إلى التطوُّع في سبيل الله عزَّ وجلّ.

وفعل الحسن عليه السلام كلَّ ذلك منذ ولي الخلافة في الكوفة، ومنذ أعلن النَّفير للحرب. وكان من أوّليَّاته ـ كما أشير إليه آنفاً ـ : أنَّه زاد المقاتلة مائةً مائةً[2]، وبعث حُجْر بن عَدِي إلى عُمّاله يندبهم إلى الجهاد[3]، ونهض معه مَنَاطِقَتُه الأفذاذ من خطباء النّاس أمثال عَدِيِّ بن حاتِم، ومَعْقِل بن قيس الرِّياحي، وزياد بن صعصعة التَّيمي،

---

(١) سورة العنكبوت / ٦٩.

(٢) مقاتل الطَّالبيين / ٣٤، شرح النَّهج ١٦/ ٣٩.

(٣) مقاتل الطَّالبيين / ٣٩، شرح النَّهج ١٦/ ٣٨.

وقيس بن سعد الأنصاري. فأنّبوا النّاس[1]، ولامُوهم على تثاقلهم، وحرَّضوهم على إجابة داعي الله، ثم تسابقوا بأنفسهم إلى صفوفهم في المعسكر العام، يغلبون النّاس عليه.

ونُشِرت ألوية الجهاد في «أسباع الكوفة»[2] وفي مختلف مرافقها العامّة، تدعو النّاس إلى الله عزَّ وجلّ، وتدين بالطّاعة لآل محمَّدٍ عليهم السلام.

وانبعث في الحاضرة المتخاذلة وَعْيٌ جديد يَشبه أن يكون تحسُّساً بالواجب، أو استعداداً له.

وكان التّثاقل عن الحرب حُبّاً بالعافية أو انصهاراً بدعاوات الشّام، قد أخذ حظّه من أهل الكوفة وممّن حولها.

أمّا هذا الوَعيُ الجديدُ الّذي يَدين لهؤلاء الخطباء المفوّهين، فلم يلبث أنْ بعث في كثير من المتثاقلين رغبةً، فأثارت الرَّغبة نشاطاً، فانبثق من النَّشاط حماس.

ونجحت دَعاوة الشِّيعة إلى حدٍّ ما، في اكتساب العدد الأكبر من المتحمِّسين للحرب، رَغم المواقف اللّئيمة الّتي وقفها يومئذٍ المعارضون في الكوفة «ونشط النّاس للخروج إلى معسكرهم»[3].

---

(١) ابن أبي الحديد (ج٤ ص١٤) [١٦/ ٣٩]. (المؤلف رحمه الله).

(٢) حيث أن الكوفة منذ أنشأت كانت معسكراً للجيوش، فقد نظم الجيش فيها على أساس قبلي فرتّبت القبائل فيها على النظام الأسباعي، فكانت: ١ـ كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجَديلَة.٢ـ قُضاعَة. ٣ـ وبَجِيلَة وخَثْعَم وكِنْدَة وحَضرَمَوْت والأزد. ٤ـ مَذْحِج وحِمْيَر وهَمَدَان وحلفاؤهم.٥ـ تميم وسائر الرِّباب وهَوَازِن.٦ـ أسَد وغَطَفَان ومُحَارِب والنَّمِر وضُبَيْعَة وتَغْلِب.٧ـ إيَاد وعَكّ وعبد القَيس وأهل هَجَر والحَمْراء. فلم يزالوا بذلك زمان عمر وعثمان وأمير المؤمنين علي عليه السلام وعامة إمارة معاوية حتى ربّعهم زياد.

(٣) نصّ عبارة ابن أبي الحديد في الموضع [هكذا: وخرج الناس فعسكروا، ونشطوا للخروج] (ج٤ ص١٤) [١٦/ ٣٩] (المؤلف رحمه الله).

ونجحت ـ إلى حدٍّ بعيد ـ في اكتساب الرّأي العام، في الكوفة وأسباعها وقبائلها، وفي الضَّواحي القريبة الّتي لا تنقطع بمواصلاتها اليومية، عن أسواق الكوفة، وعن مراكز القضاء والإدارة فيها.

وكان من براعة خطباء الحسن، أنهم أحسنوا استغلال الذِّهنية المؤاتية في النّاس، فبذلوا قُصَارى إمكانيَّاتهم في الدَّعوة إلى أهل البيت تحت سِتَار الدَّعوة للجهاد.

وبُحَّت حناجر الأولياء، فيما يَعرضون من مناقب آل محمَّدٍ ومثالب أعدائهم. ومَرُّوا على مختلف نوادي الكوفة وأحيائها وأماكنها العامَّة، يُنبِّهون النّاس إلى المركز الممتاز الّذي ينفرد به سيِّدا شباب أهل الجنَّة اللَّذان لا يَعْدِل بهما أحدٌ من المسلمين، وإلى الصّلابة الدِّينيَّة المركّزة الموروثة في أهل بيت الوحي، والمزايا الّتي يستأثر بها هذا الفخذ من هاشم في العلم والطَّهارة والزُّهد بالدُّنيا والتَّضحية في الله والعمل لإصلاح الأمَّة ووجوب المودَّة على المؤمنين.

ثم ذكروا البيعة وما الله سائلُهم عنه من طاعة أولي الأمر ووجوب الوفاء بالميثاق. وعَرَّضُوا في حماستهم إلى الأنساب، فإذا هي «مقامة» ظريفةٌ جِدّاً وصَادِقةٌ جِدّاً ومؤثِّرةٌ جِدّاً، ملكت الألباب حتى أذهلت وأثارت الإعجاب حتى أدهشت.

ذكروا الحسن ومعاوية فقالوا: أين ابنُ عليٍّ من ابن صخر، وابن فاطمة من ابن هند، وأين من جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله ممن جدُّه حرب، ومن جدّتُه خديجة ممن جدَّته فتيلة ؟ ؟.. ولَعَنُوا أخمل الرَّجلين ذكراً، وألأمَهُمَا حَسَباً، وشرَّهما قديماً وحَديثاً، وأقدمَهُما كُفراً ونِفَاقاً، فعجَّ النّاسُ قائلين: آمين آمين. ثمَّ جاءت بعدهم الأجيال، فما استعرض هذه الموازنة الظَّريفة مُسلمٌ من المسلمين، إلاَّ سَجَّل على حسابه (آمين) جديدةً.

وعملت هذه الأساليب الحكيمة، والخُطَبُ الحماسيّة البليغة عملَها وانتشرت - كما قلنا - القناعة بخذلان الشّام والثّقة بظَفَر الكوفة.

وفي الكوفة، وهي الحاضرة الجديدة الجبّارة الّتي طاولت أهمَّ الحواضر الإسلامية الكُبرى - يومئذٍ - أجناس من الجاليات العربيَّة وغير العربيَّة ومن حَمْرَاء النّاس وصَفْرَائها وممَّن لم يُرْضِهم الإسلامُ ولم يُجْدِهم اعتناقُه توجيهاً جديداً، ولا أدَباً إسلاميّاً ظاهراً، إلاّ أن يكونوا قد أنِسُوا منه وسيلته إلى منافعهم العاجلة. فكان هؤلاء لا يفهمون من الجهاد إذا نُودِي بالجهاد إلاَّ دعوته للمنافع ووسيلته إلى الغنائم. ورأوا من انتشار القناعة بنجاح هذه الحرب، أنَّ الإلتحاق بجيش الحسن‏ عليه السلام هو الذَّريعة المضمونة إلى استعجال المنافع والرُّجوع بالغنائم، فَلِمَ لا يكونون من السَّابقين الأوّلين إلى هذا الجهاد ؟

ولعلَّك تَتَّفق معي الآن، على اكتشاف الحوافز الّتي اندفعت تحت تأثيرها «الأخلاط المختلفة» من رَعَاع النّاس إلى الإلتحاق بجيش الحسن، فإذا بأصحاب الفتن، وأصحاب الطَّمع بالغنائم، وأصحاب العصبيَّات الّتي لا ترجع إلى دين، والشُكَّاك ومن إليهم - جنودٌ متطوّعون في هذا الجيش، أبعد ما يكونون في طماحهم وفي طباعهم عن أهدافه وغاياته.

ولم يكن ثمَّة في نُظُم التَّجنيد المتَّبعة في التجمُّعات الإسلاميَّة يومئذٍ - كما بيَّنا آنفاً - ما يحول دون قبول هؤلاء كجنودٍ أو كمجاهدين، لأنَّ الكفاءة الإسلاميّة، والقدرة على حمل السِّلاح، هي كلُّ شيءٍ في حدود قابليَّات المجاهد المسلم.

وأمّا الخوارج، فيقول المفيد رحمه الله في تعليل التحاقهم بجيش الحسن: أنَّهم كانوا يُؤثِرون قتال معاوية بكلِّ حيلة.[1]

---

(١) الإرشاد ٢/ ١٠.

ولكنّا لا نُؤمن بهذا التَّعليل على إجماله، ولا نُنكره على بعض وجوهه وقد يكون ما يقوله المفيد بعضَ هدفهم، وقد يكون هدفهم شيئاً آخر غير هذا.

وليس فيما نعهده من علاقات «الخوارج» مع الحسن وأبي الحسن عليهما السلام ما يُشَجِّعنا على الظّنّ الحَسَن بهم، وإنّ لنا من دراسة أحداث النّهروان ما يزيدنا فيهم رَيباً على رَيب. وإذا صحَّ أنهم إنّما أرادوا قتال معاوية حين تبعوا الحسن، وأنهم كانوا لا يقصدون بالحسن سُوءاً، فأين كانوا عن معاوية قبل ذلك، ولِمَ لَمْ يتألّبوا عليه كما كانوا يتألّبون على عليٍّ عليه السلام في انتفاضاتهم الّتي حفظها التّأريخ..؟

وكان للخوارج من ذحولهم[1] القريبة العهد، ومن أسلوب دعاواتهم النّكراء ما يُحفِّزنا حَفزاً إلى سوء الظّنّ بما يهدفون إليه في خروجهم مع الحسن عليه السلام.

وعلمنا من أحوالهم قبل خروجهم لهذه الحرب، أنهم كانوا يُداهنون النّاس ويجاملون الحسن، بعد وقيعتهم الكافرة بالإمام الرّاحل عليه السلام، يتّقون بذلك غوائل الكراهة العامَّة الّتي غمرتهم في أعقاب الفاجعة الكبرى. أفلا يَقْرُب إلى الذهن، أن يكون من جملة أساليب دهائهم الّذي اضطرُّوا إليه تحت ضغط الظُّروف الموقّتة، أن يتظاهروا بالتطوُّع في الجيش كما لو كانوا جُنوداً مناصحين، وأن يُبْطِنوا من وراء هذا التَّظاهر مقاصدهم فإذا هم جنود مبادئهم المعروفة بل مبادئهم المبطَنة الّتي لم تعرف لحدِّ الآن.

وكانت فكرة «الخروج» بَذْرَةً خبيثةً انبثقت عن قضيّة التَّحكيم بصفِّين، ومنها سُمُّوا «المحكِّمة»، ورسخت جذور هذه الفكرة كعقيدة مَكينة في نفوس هؤلاء، واستطالت بمرور الزَّمن، فبسقت عليها أشجارٌ أثمرت للمسلمين ألواناً من الخطوب والنَّكبات.

وكان الخوارج على ظاهرتهم المُخْشَوشِنَة في الدِّين، قوماً يُحسِنُون المكر كثيراً.

---

(١) الذُّحُول» جمع الذَّحل: الحقد والعداوة، يقال طلب بذحله، أي: بثأره.

فلِم لا يغتنمون ظروف الحرب القائمة بين عَدُوَّين كبيرين من أعدائهم؟ ولم لا يكونون في غِمار هذا الجيش الزَّاحف من الكوفة يقتنصون الفرص المؤاتية، بين تجهيزات المجاهدين، والحركات السّوقية، والمعارك المنتظرة الّتي ستكون في كثير من أيامها سِجالاً ـ والفُرَصُ في الحَرْب السِّجَال[1] أقربُ تَناوُلاً، وأيسرُ حُصولاً، وأفظعُ مَفعُولاً، إذا حَذَقَ المتآمرون استخدامها ـ؟.

ولا أريد أن أنكر ـ بهذا ـ عداوتهم لمعاوية وإيثارهم قتاله بكلِّ حيلةٍ كما أفاده شيخنا المفيدﷺ. ولكنِّي أرى أنّهم كانوا يَرمُون من خُطّتهم إلى غرضين... وما من غرضٍ للخوارج في ثوراتهم ومؤامراتهم إلاّ اقتناص الرُّؤوس العالية في الإسلام! سواء في العراق أو في مصر أو في الشّام. وعَشْعَشَت بين ظَهرانيّ هؤلاء القوم كوامن الغِيلَة فغلبت على سائر مناهجهم الأخرى، فمشوا مع الحسن ولكن إلى الفتنة، وحبوا في طريق الجهاد ولكن إلى الفساد. وكانت الطَّعنة المركّزة الجريئة الّتي «أشوت»[2] الحسنعليه السلام في «مُظلِمِ سَابَاط[3]»، هي الحَلَقة الجهنَّميّة الثّانية من سلسلة جرائم هذه

(١) قال العينيُّ في عمدة القاري ١/ ٩٥: «الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ» [صحيح البخاريّ ١/ ٥] هذا تشبيهٌ بليغٌ، شَبَّه الحربَ بالسِّجال مع حذف أداة التَّشبيه، لقصد المبالغة، كما في قولك: زَيدٌ أسدٌ، إذا أردت به المبالغة في بيان شَجَاعته، فصار كأنَّه عَينُ الأسد، ولهذا حُمِلَ الأسدُ عليه، وَذَكَر السِّجَالَ وأراد به: النَّوْبَ، يعني: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ نُوَبٌ، نَوْبَةٌ لَنَا وَنَوْبَةٌ لَهُ، كَالْمُسْتَقِيَيْن إذا كان بينهما دَلْوَان يَسْتَقي أحدُهما. دَلْوَاً والآخَرُ دَلْوَاً. هذا إذا أُرِيدَ من السِّجَالِ الدِّلاءَ، لأنَّه جمعُ سَجْل، بالفتح وهو الدَّلْوُ العظيمُ. وإن أريد به المصدر، كالمُسَاجَلَةِ وهي المفاخَرة وهي أن يصنعَ أحدهما ما يصنع الآخر لا يكون من هذا الباب فافهم.

(٢) قولهم: «أَشْوَتِ المُصِيبَةُ» أي: لم تبلغ المقتل.

(٣) السَّاباط ـ لغةً ـ سقيفةٌ بين دارين من تحتها طريق نافذ، وسَابَاط قريةٌ في «المدائن» عندها قنطرة على «نهر الملك» ولعلَّها إنَّما سُمِّيت بهذا الإسم لوجود سقيفة نادرة من «السَّوابيط» فيها، والمظنون أنَّ هذه السَّقيفة هي «مُظْلِمُ سَابَاطَ» (المؤلفﷺ).

أقول: واللّعين رجلٌ من بني أسد من بني نصر بن قعين يقال له: «الجرَّاح بن سنان» أخذ بلجام بغلته ⇦

العصابة الخَطِرة في البيت النَّبويّ العظيم.

وكِلتا الجريمتين وليدة المؤامرات السِّرِّية النَّشيطة الّتي حذقها الخـوارجُ الطَّغَـامُ، في مختلف المناسبات.

وشاء الله بلطفه أن لا تبلغ طَعنة ابـن سـنان الأسـدي[١] مـن الحسـن، مـا بلغتـه بالأمس القريب ضربةُ صاحبه ابن مُلجَم المراديّ من أمير المؤمنين أبي الحسن عليه السلام.

ومَثَّلت هذه المؤامرة الدَّنيئة أفظع قطيعةٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله من نوعها، بـما حاولتـه من القضاء على الإمام الثَّاني ـ سبطِه الأكبر ـ. وازدلفت إلى معاويـة بالخدمـة الفريـدة الّتي لا تفضلها خدمةٌ أخرى لأهدافه، من القوم الّذين كـان يقـال عـنهم «أنَّهـم إنَّـما خرجوا مع الحسن لأنَّهم يُؤثرون قتال معاوية بكلِّ حيلة»!!

وهكذا ثَبَتَ للإمام الحسن بصورة لا تقبل الشّـكَّ، نِيَّـات المُحَكِّمـة معـه رَغـم مجاملاتهم الكاذبة له. وكان هو مُنذ البداية شديد الحذر منهم ولكنَّـه كـان يعـاملهم ـ دائماً ـ على ضِغْنٍ مكتوم. وليس أنكى من عَدُوٍّ في ثوب صديق. ذلك هو العَدُوُّ الّـذي يُنَافقك ظـاهراً، ويحاربـك سِرّاً. وأنكـى أقسـام هـذا العَـدُوِّ عَـدُوٌّ يحاربـك بذُحُولـه وعصبيّته كما حاربت الخوارج الحسن بذُحولها وعصبيّتها.

⇨

صلوات الله عليه وبيده معول فقال: الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل! ثم طعنه فوقعت الطَّعنة في فخذه فشقّته حتى بلغت أربيته فسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض، وقُتِل اللَّعين من ساعته.

(١) ووهم حسن مراد في كتابه: «الدَّولة الأمويّة في الشَّام والأندلس» (الباب الرابع: ص٥٠) حيث نسب طعن الحسن عليه السلام بالخنجر إلى أتباع الأمويِّين دون الخوارج. وستقرأ في فصل «سرّ الموقف» [/ ٣٣٧] نصوص الحادثة كما يرويها مؤرِّخوها القُدامى وكما يجب أن يفهمها المحدِّثون (المؤلف رحمه الله).

وهكذا قُدِّر لجيش الحسن عليه السلام، أن يَتَّخِمَ بالكثرة من هؤلاء وأولئك جميعاً، وأنْ يَفْقِد بهذا التلوُّن المنتشر في صفوفه، رُوحيَّة الجيش المؤمَّل لربح الوقائع. وأن يبتلي بالصَّريح والدَّخيل من كيد العَدُوَّين الدَّاخل والخارج، وفي المكانين العراق والشَّام معاً.

وأحْرِ بجيشٍ يتألّف من أمثال هذه العناصر، أنْ يكون مُهَدَّداً لدى كلِّ بادرة بالإنقسام على نفسه، والإنتقاض على رُؤسَائه.

ولم يكن الجهاد المُقدَّس ـ يوماً من الأيّام ـ وسيلةً لطمع مادِّي، ولا مجالاً للمؤامرات الشَّائكة، ولا مَظْهَراً للعصبيَّات الجاهليَّة الهزيلة، ولا مَسرحَاً لتجارب الشَّكّاكين.

و«ازدادت بصيرةُ الحسن بخذلان القوم له»[1]، وتراءى له من خلال ظُروفه شَبح الخيبة الّذي ينتظر هذه الحرب في نهاية مَطَافِها، إذ كانت العُدَّة المدَّخرة لها، هي هذا الجيش الّذي لا يُرجَى استصلاحه بحالٍ.

وأُثِرَ عنه كلماتٌ كثيرةٌ في التَّعبير عن ضعف ثقته بجيشه.

وكان من أبلغ ما أفضى به في هذا الصَّدد ـ ممَّا يناسب موضوع هذا الفصل ـ خطابه الّذي خاطب به جيشه في المدائن. وقال فيه:

«وَكُنْتُمْ فِي مَسِيرِكُمْ إِلَى صِفِّينَ، وَدِينُكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ. وَأَصْبَحْتُمُ الْيَوْمَ وَدُنْيَاكُمْ أَمَامَ دِينِكُمْ. وَأَنْتَمْ بَيْنَ قَتِيلَيْنِ، قَتِيلٍ بِصِفِّينَ تَبْكُونَ عَلَيْهِ، وَقَتِيلٍ بِالنَّهْرَوَانِ تَطْلُبُونَ[2] بِثَارِهِ. فَأَمَّا البَاقِي فَخَاذِلٌ، وَأَمَّا البَاكِي فَثَائِرٌ.».

وهذه هي خُطبته الوحيدةُ الّتي تَعرَّض إلى تقسيم عناصر الجيش من ناحية نَزَعَاته وأهوائه في الحرب.

---

(١) نَصُّ عبارة المفيد في الإرشاد (ص١٧٠) [٢/ ١٣]. (المؤلف رحمه الله)

(٢) وبرواية ابن طاووس في كتاب «الملاحم والفتن» (ص١٤٢ طبع النجف سنة ١٣٦٨) [/ ٣٦٢]: «وَقَتِيلٍ بِالنَّهْرَوَانِ تَطْلُبُونَ مِنَّا ثَارَهُ». (المؤلف رحمه الله)

فيشير بالباغي الثَّائر إلى الكثرة من أصحابه وخاصَّته، وبالطَّالب للثَّأر إلى الخوارج الموجودين في معسكره (وما كان ثأرهم الّذي يَعنيهِ إلاَّ عنده) ويُشير بالخاذل إلى العناصر الأخرى من أصحاب الفتن وأتْبَاع المطامع وعَبَدَة الأهواء.

واستطرد التَّاريخ بين صفحاته أسْطُراً قاتمة دامية. بما انقاد إليه الأغرار المفتونون من هذه «العناصر»، وبما صَبَغُوا به ميدان الجهاد المقدَّس ـ بعد ذلك ـ من أساليب الغدر، والخلاف، ونقض العهود، والمؤامرات، ونسيان الدِّين، وخَفْر الذِّمام... حتَّى قد عادت بقيَّة آثار النبوَّة ـ متمثِّلة بالطيِّبين من آل محمَّدٍ وبنيه عليهم السلام ـ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِه. ولعلَّنا سنأتي على استطراد صورةٍ من هذه المآسي في محلِّها المناسب لذكرها من الكتاب.

تتميم:

وبقي علينا أن نستمع هنا إلى ما يدور في خَلَد كثيرٍ من النَّاس حين يدرسون هذا العَرْض المؤسِف لعناصر جيش الحسن عليه السلام، فيسألون: لماذا فسح الحسن مجاله لهذه العناصر؟ ولماذا تَأَخَّر بعد ذلك عن تصفية جيشه بسبيلٍ من هذه السُّبل الّتي يفزع إليها رُؤساء الجيوش في تصفية جيوشهم بقطع العضو الفاسد، أو بإدانته، أو بإقصائه على الأقلّ؟

ونحن من هذه النُّقطة بإزاء قلب المشكلة وصميمها على الأكثر.

ونقول في الجواب على هذا السُّؤال:

أوّلاً: إنّ الإسلام كما ألغى الطَّبقات فيما شرَّعه من شؤون الإجتماع، ألغاها في الجهاد أيضاً. فكان على أولياء الأمُور أنْ لا يفرِّقوا في قبولهم الجنود بين سائر طبقات المسلمين، ما دام المتطوِّع للجنديَّة مُدَّعياً للإسلام وقادراً على حمل السِّلاح. ولمَّا لم يكن أحدٌ من هؤلاء «الأخلاط» الّذين التحقوا بالحسن، إلاّ مُدّعياً للإسلام وقادراً على حمل السِّلاح، فلا مَنْدُوحة للإمام ـ بالنَّظر إلى صميم التَّشريع الإسلامي ـ عن قبوله.

وثانياً: إنّ النبيَّ نفسهﷺ، وأمير المؤمنين أيضاً، مُنِيَا في بعض وقائعهما بمثل هذا الجيش، ولا يُؤثَر عنهما أنّهما مَنَعا قبول أمثال هؤلاء الجنود في صفوفهما، ولا طَرَدَا أَحَداً منهم بعد قبوله، مع العلم بأنَّ كُلاً منهما، جَنى بعد ذلك أضرار وجود هذه العناصر في كلٍّ من ميدانيهما.

فقالت السِّير عن واقعة حُنَين ما لفظه بحرفه: رأى بعضُ المسلمين كثرةَ جيشهم فأعجبتهم كثرتهم، وقالوا سوف لا نُغْلَب من قلّة، ولكن جيش المسلمين كان خليطاً، وبينهم الكثيرون ممَّن جاء للغنيمة..[1].

وجاء في حوادث إقفال[2] المسلمين من غزوة بَنِي الْمُصْطَلِق ما يُشعر بمثل ذلك.

وقالوا عن حروب عليٍّؑ: كان جند عليٍّ في صفِّين خليطاً من أمم وقبائل شتَّى، وهو جندٌ مُشاكِسٌ مُعَاكسٌ لا يرضخ لأمر ولا يعمل بنصيحة...

وقال معاوية ـ فيما يحكيه البيهقيُّ في «المحاسن والمساوئ»: وكان ـ يعني عليّاًؑ ـ في أخبث جيشٍ وأشدِّهم خِلافاً، وكنت في أطوع جُندٍ وأقلِّهم خِلافاً[1].

---

(١) روي أنَّ يَوم حُنَيْنٍ كان عدد المسلمين اثني عَشَرَ ألفاً، فتداخلهم الإعجابُ بالكثرة وزلَّ عنهم أنَّ الله هو النَّاصر لا كثرة الجنود، فقال رجلٌ منهم ـ وفي كثير من النُّصوص القائل هو أبو بكر ـ يومها: لن نُغلب من قلّة، فشقَّ ذلك على رسول اللهﷺ فأنزل الله تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ سورة التَّوبة / ٢٥، فانهزموا حتى بلغ فَلُّهم مكَّة وبقي رسول اللهﷺ وحده وليس معه إلاَّ عمُّه العبَّاس آخذٌ بلجام دابَّته وأبو سفيان ابنُ الحارث ابنُ عَمِّه وأميرُ المؤمنينؑ يضرب بين يديهﷺ بالسَّيف، والعبَّاس يُنادي المنهزمين: يا أصحاب سورة البقرة! يا أهل بيعة الشَّجرة! حتَّى استجاب له قومٌ قد كفاهم أمير المؤمنينؑ المؤونةَ، وتكفَّل دونهم المعونة.

(٢) من «القَفْل» وهو: الرُّجوع. تاج العروس ١٥/ ٦٢٥.

أقول: وما على الحسن إلاّ أن يسير بسنَّة جدِّه وبسيرة أبيه، ومن الحيف أن يُطالَب بأكثر ممَّا أتى به جدُّه وأبوه، وكفى بهما أسوةٌ حسنةٌ وقدوةٌ صالحةٌ.

وكان التحرُّج في الدِّين والإلتزام بحرفيَّة الإسلام يقيِّدان الحسن في كلِّ حركة وسكون، ولكنَّهما لا يقيِّدان خصومه فيما يفعلون أو يتركون، ولولا ذلك لرأيت تاريخ هذه الحُقبة من الزَّمن تُكتب على غير ما تقرأه اليوم.

وثالثا: فإنَّ معالجة الوضع بما يرجع إليه رؤساء الجيوش في تنقية جيوشهم بالقتل، أو بالإقصاء، أو بالإدانة، كان في مثل ظروف الحسن تعجُّلاً للنَّكبة قبل أوانها ـ كما ألمحنا إليه في غِمار الفصل الرّابع ـ وسبباً مُباشِراً لإثارة الشِّقاق وإعلان الخلاف ورفع راية العصيان في نصف جيشه على أقلّ تقدير ومعنى ذلك القصد إلى إشعال نار الثَّورة في صميم الجيش. ومعنى هذا أنْ ينقلب الجهاد المقدَّس إلى حرب داخليّة شَعواء، هي أقصى ما كان يتمنّاه معاوية في موقفه من الحسن وأصحابه، وهي أقصى ما يَحْذَرُه الحسن في موقفه من معاوية وأحابيله.

⇨

(١) المحاسن والمساوئ / ٣٧٦، وفي الإستيعاب ٣/ ١٤٢٢: «قال معاوية: أُعِنْتُ على عليٍّ بثلاثٍ: كان رَجُلاً ربما أظهر سِرَّه وكنت كتُوماً لسرِّي، وكان في أخبث جُندٍ وأشدِّه خِلافاً عليه، وكُنتُ في أطوعِ جُندٍ وأقلِّه خِلافاً عليَّ، ولَمَّا ظَفَر بأصحاب الجمل لم أشكّ أنَّ بعض جُندِه سيعدّ ذلك وهناً في دينه ولو ظفروا به كان وهناً في شوكته، ومع هذا فكُنْتُ أحبَّ إلى قُريش منه لأنّي كُنْتُ أعطيهم وكان يمنعُهُم، فكم سببٍ من قاطع إليَّ ونافرٍ عنه.»

وشيءٌ آخر: هو أن الحسن عليه السلام، لم يكن له من عهده القصير الّذي احتوشته فيه النَّكبات بشتَّى ألوانها، مجالٌ للعمل على استصلاح هذه الألوان من النّاس، وجمعهم على رأيٍ واحد. بل إنَّ ذلك لم يكن ـ في وقته ـ من مقدور أحدٍ إلاّ الله عزَّ وجلّ، ذلك لأنّ الصَّلاح في الأخلاق ليس ممَّا يمكن تزريقه في الزَّمن القليل، وإنَّما هو تهذيب الدِّين وصِقَال الدَّهر الطَّويل، ولأنَّ التيَّارات المعاكسة الّتي طلعت على ذلك الجيل بأنواع المُغْرِيات، حالت دون إمكان الإصلاح وجمع الأهواء، إلاَّ من طريق المطامع نفسها، وكان معنى ذلك معالجة الدَّاء بالدَّاء، وكان من دون هذه الأساليب في عُرف الحسن حاجزٌ من أمر الله.



عُبيدُ اللهِ بنُ عبَّاس

أمّا ذلك القائدُ الملتهِب بالحماسة للحرب، والموتور من معاوية بابنيه المقتولين صَبراً في اليمن، فقد كان منذُ انفصل بجيشه من دَيْرِ عبد الرَّحمن[1]، لا ينفكُّ يتسقَّط أخبار الكوفة، وإنَّه ليَعْهَدُ في الكوفة دَعاوتها الشِّيعيَّة السَّائرة على وتيرتها المحبّبة، والذَّاهبة صُعُداً في نشاطها والَّتي كان ينتظر من تعبئتها النَّجَدَات الّتي يجب أن لا تنقطع عنه.

ونَمَى إليه، وقد انتهى إلى «مَسْكِن» وهي النُّقطة الّتي التقى عندها الجيشان المتحاربان، أنَّ الدَّعَاوات النَّشيطة البارعة في أسباع الكوفة لم تأمر شيئاً جديداً، إلاّ أن تكون بعض الفصائل من مقاتلة الأطراف أو من متطوِّعة المدائن نفسها، قد التحقت بمعسكرها هناك.

وبلغه أنَّ المناورات العَدُوَّة الّتي كان يقودها بعض الزُّعماء الكوفيين هي الّتي أحبطت المساعي الكثيرة لرجالات الشِّيعة، وهي الّتي عَرْقَلت النَّفير العَامَّ بنطاقه الواسع الّذي كان ينتظر نتيجة لذلك النّشاط المحسوس. ولم يكن عجيباً، أن تُغيظ هذه الأنباء عبيد الله بن العبَّاس فتملأ إهَابَه ثورةً على الوضع وحَنَقَاً على النّاس.

وكان عليه كقائد جيشٍ، ضَعُفَ أملُه بالنَّجدات القريبة الّتي كان يُعَلِّق عليها أروع آماله، أن ينتفع من هذا الدَّرس الّذي أمْلَته عليه ظروفُ الكوفة، وأن يرجع إلى قُوَّاته هذه فيوازن بها قُوَّات عَدُوِّه الّتي تنازله وَجهاً لوجه، والّتي علم أنها لا تَقلُّ عن

---

(١) قال في مقاتل الطَّالبيين / ٤٠: ثم إنّ الحسن بن علي سار في عسكر عظيم وعدّة حسنة حتى أتى دير عبد الرّحمن فأقام به ثلاثاً حتى اجتمع النّاس ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب فقال له: «**يا بْنَ عَمِّ إنِّي باعِثٌ مَعَكَ اثْني عَشَرَ أَلْفاً...**» وعنه شرح النَّهج ١٦/ ٣٩.

ستّين ألفاً من أجناد الشّام المعروفين بالطّاعة العمياء لأمرائهم وقُوّادهم.

ولم يكن التفاوت بالعدد ممّا يستفزّه كثيراً، ولكنّه كان شديد العناية بالمزايا المعنويَّة الّتي يتحلّى بها جنود الفريقين. وكان القائد الحريص على روحية جيشه الّتي هي كلّ ما يدّخره للقاء عدوّه.

ولاح له في سبيل موازنته، اشتراك «الأخلاط» من العناصر المختلفة في جيشه. وإنّه ليستقبل حَرباً لن تُجْدِي فيها غير الكثرة المخلصة من المحاربين الأشدّاء، فما شأن الجماعات الّتي لم تفهم الجهاد إلاّ كوسيلة للغنائم.

وتشاءَم عبيد الله بن عبّاس، مُنذُ السَّاعة الأولى الّتي يمَّم بها معسكره في «مَسْكِن»، تَشَاؤمَاً كان له أثره في المراحل القريبة ممّا استقبله من خُطُوات. وكان أنكى ما يخافه على مقدّرات جيشه، أنْ تتسرَّب إلى صفوفه أخبار التَّعبئة الفاشلة في الكوفة، أو أن تحبو إليه أحابيل معاوية بما تحمله من أكاذيب ومواعيد، وهاهم أولاء وقد جمعهم صعيدٌ واحدٌ ومشارع واحدةٌ وأظلّتهم سماءُ مَسْكِن جميعاً، وماذا يؤمِنه من أن يكون مع جنوده أو من جنوده أنفسهم من هو بريد معاوية في الإفساد عليه وعلى الإمام. وكانت أسلحة معاوية (الباردة) أروعَ أسلحته في هذا الميدان بل في سائر ميادينه. وصدق ظَنُّ عبيد الله.

فإذا بباكورة دسائس معاوية تَشُقُّ طريقها إلى معسكر مَسْكِن، وفي هذا المعسكر من أصحاب الحسن مخلصون ومنافقون، وآخرون يُؤثِرون العافية ويَتَمنَّون لو صدقت الشَّائعة الجديدة، وكانت الشَّائعة الكاذبة: أنَّ الحسن يكاتب معاوية على الصُّلح، فَلِمَ تقتلون أنفسكم[1].

---

(١) شرح النَّهج (ج٤: ص١٥) [١٦/ ٤٢] (المؤلف رحمه الله).

ولم يجد ابن عبَّاس أن يعلم هو وخاصّته كذب الشَّائعة، واصطدامها بالواقع الّذي لا يقبل الشَّكّ، لأنَّ الحسن الّذي لا يزال يُشَمِّر للحرب في رسله إلى الأطراف، وفي رسائله إلى معاوية، وفي خطبه بالكوفة، لن يكتب في صلح ولن ينزل عن رأي ارتآه.

ولكنها كانت أحبولة الشَّيطان الرَّائعة الصُّنع.

وارتفعت أصوات المخلصين من الأنصار، تدعو النّاس إلى الهدوء، وتستمهلهم رَيْثَمَا يصل بريد المدائن، ولكنَّها كانت صيحاتٍ في واد، ونفخاتٍ في رماد، واجتاح الموقف ارتباكٌ مؤسِف لا يناسب ساحة قتال.

وتخاذل عبيد الله للخدعة الخبيثة الّتي أصابت المحز من موقفه الدَّقيق. فخلا بنفسه، وانقبع تحت سماء خيمته البعيدة عن ضوضاء النّاس. ورأى أنَّ قيادته هذه ستُطرِّحُ بمكانته العسكرية إلى أبعد الحدود، فثار لسُمعته وحديث النّاس عنه، وندم على قبولها. وكان من دفعات الحِدَّة الّتي طُبع عليها، أنْ لَعَن الظُّروف الّتي عاكسته في رحلته العسكرية هذه والظُّروف الّتي خلقت منه قائداً على هذه الجبهة. ثمَّ انطوى على نفسه تحت كابوس من القلق وحُبّ الذَّات لا يدري ماذا يصنع.

⇦

أقول: فيما يَعرِضُه المؤلِّف من أنَّ ابن عبّاس فُوجِئ بانتشار الشَّائعة الكاذبة، نظرٌ. إذ صريح ما في مقاتل الطَّالبيين / ٤٢، وغيره من المصادر، أنّ انتشار الشَّائعة الكاذبة كان بعد خيانة ابن عبّاس وتخلّيه عن الجيش لا قبلها.

ورأى أخيراً ـ وكان المَخْرَج الّذي بلغته قُصارى براعته ـ أن يتقدّم باستقالته، نزولاً على حكم ملكاته الأنانيّة الّتي كان يستكين لها رَاغباً عامداً. وما يُدرينا، فربما لم يكن له من القابليّات الشّخصيَّة ما يمكنه من محاسبة نفسه والتَّفكير في إصلاح ما يمرُّ به من أخطاء أو ما يفجؤه من نكبات.

وكان عليه ـ وقد صمَّمَ على الإستقالة ـ أن يترك مقرَّ القيادة إلى مصيرها الّذي لا يعدو رأيَ الإمام، أو يتخلّى عنها لخليفته وهو (قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري).

ولكنَّه فَطِنَ ـ ولمَّا يغادر فسطاطه المترفّع الّذي كان يقع على جانب بعيد من مضارب جنوده، والَّذي شَهِدَ وحده ثورة القائد المتخاذل، وسمع وحده تمتمته الناقمة، وكفرانه الأيادى البيض الّتي استوعب بها مدى جيلين من بني عمِّه المطهَّرين ـ فَطِنَ، إلى أنَّ الإستقالة من عملٍ مَا، لا تستكمل شرائطها في التَّشريع الإسلامي، إلاَّ بالإعتراف صريحاً «بالعجز». ولم يكن الفَتى الأنانيّ بالَّذي يُفرِّط بشخصيَّته فَيُعرِّضُها لسُخرية النَّاس. ورجع إلى نفسه من جديد، ليلتمس المخرج الّذي لا يَضطرُّه إلى مثل هذا الإعتراف.

وكانت رسائل معاوية الّتي وصلته ليلته هذه والّتي خَفِي عليه أنَّه تَسَلَّمها من يد البريد الّذي نَشَر الشَّائعة السَّوداء في معسكره صَباحاً، هي الأخرى لا تزال تَعِنُّ[1] له بمغرياتها الجبّارة، كلّما أدار رأسه في تفكير أو تدبير. وأذهله حين ذكر رسائل معاوية، الفارق الهائل بين الحُلم الجميل المموَّه بالذَّهب، وبين الحقيقة المُرَّة، فشُلَّ تفكيره وشعوره ولم يهتد إلى الرّأي الّذي يناسبه كزعيم هاشميٍّ يُنازِل أصلب عَدُوٍّ للهاشميَّة في ميدان موت أو حياة.

إنَّه كان بامكانه أن يستقيل وأن يعترف بالعجز غير مُتلكِّىء ولا حيران ثمَّ ينتزع

---

(١) أي: تَعْتَرِض.

معذرته لسُمعته وكرامته، من الإخفاق المحقّق الّذي كان ينتظر القائد الثّاني، الّذي سيتسلّم قيادته في ظرف لا يستقيم معه ميدان حرب.

وكان بإمكانه أن يتجلّد في موقفه، فيتوعّد المُشاغبين، ويأخذ بالحزم المصطنع الّذي يكون ظاهره العنف وباطنه التوجيه، بلون من ألوان هذه المناورات الإدارية الّتي كان ينبغي له أن يجيدها كما يجيدها أمثاله من رؤساء النّاس، ويتريّث قليلا، ثمّ ينتظر تعاليمه الأخيرة من ناحية الإمام، ويكون ـ عند ذلك ـ المعذور في دينه وفي سمعته معاً.

أمّا أنْ يتنازل من شموخه كقائد في معسكر إمام، فيُساوِم رُسُلَ معاوية على أجر الهزيمة، فلا ولا كرامة؟!!

وكانت رسالة معاوية إليه، تضرب على وَتَرِه الحسّاس من ناحية حُبِّه للتّعاظم وتطلُّعه إلى السَّبق، فيقول له فيها: إنَّ الحسن سَيضطَرُّ(١) إلى الصّلح، وخيرٌ لك أن تكون متبوعاً ولا تكون تابعاً(٢).. وجعل له فيها ألفَ ألفَ درهم(٣).

وكان معاوية أحرصَ بشرٍ على استغلال مآزق أعدائه.

---

(١) أقول: وهذا النّصُّ صريحٌ بتكذيب الشّائعة التي اجتاحت معسكر «مَسْكِن»: بأنَّ الحسن كاتب معاوية على الصُّلح. (المؤلف).

كما أسلفنا أنَّ الشّائعة كانت بعد التحاق ابن عبّاس بمعاوية. وقبل خيانته لم تكن هناك شائعةٌ بصُلح الإمام الحسن، وهو واضح لمن تتبّع نصوص الباب.

(٢) ابن ابي الحديد (ج٤ ص١٥) [١٦/ ٤٢، عن مقاتل الطالبيين / ٤٢]. (المؤلف).

ونصُّ ما كتبه إليه معاوية: «أنّ الحسن قد راسلني في الصُّلح، وهو مسلِّمٌ الأمر إليَّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كُنْتَ مَتبوعاً، وإلاّ دخلت وأنت تابعٌ، ولكَ إنْ أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم، أعجّل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر.»

(٣) اليعقوبي (ج٢ ص١٩١)[٢/ ٢١٤] وشرح النهج أيضاً (ج٤ ص١٥) [١٦/ ٤٢، مقاتل الطالبيين / ٤٢]. (المؤلف).

وكان إيمان معاوية بالسَّفَالَةِ البشريَّة، إيماناً لا حدَّ له. وهو إيمانٌ يقوم على الإعتقاد بأنَّ أقوم النّاس خُلُقاً، وأشدّهم عَزماً، وأنقاهم فضيلةً، قد تستغويه الأطماعُ ويذلّه الحرصُ، في ساعةٍ من ساعات الضَّعف الّذي يطرأ على النّفوس، وفترة من فترات الشّكِّ الّذي لا ينفكُّ عن مطاردة النَّاس، ولا يسلم من غوائله أفاضل النَّاس وأعالي البشريَّة(١).

وكان فيما حَذَّر به أمير المؤمنين عليه السلام زياداً، أن قال له: «**وإنَّ مُعَاوِيَةَ يَأْتي الإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ. فَاحْذَرْ ثُمَّ احْذَر**»(٢).

وهكذا صُرِع الشُّعور بالخيبة، والإستسلام للطَّمع، الفتى الأصيل. فاذا هو من أبشع صُور الخيانة المفضوحة والضَّعف المخذول.

فلا الدِّين، ولا الوَتَر، ولا العنعنات القَبَلِيَّة، ولا الرَّحِم الماسَّة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قائده الأعلى، ولا الميثاق الّذي واثق الله عليه في البيعة منذ كان أوّل من دعا الناس إلى بيعة الحسن في مسجد الكوفة، ولا الخوف من حديث النَّاس ونقمة التَّاريخ ـ بالّذي منعه عن الإنحدار إلى هذا المنحدر السَّحيق.

ودخل حِمَى معاوية ليلاً، دخول المنهزم المخذول الّذي يعلم في نفسه أيَّ إثم عظيم أتاه.

ثم شاح عنه التَّاريخ بوجهه، فلم يذكره إلاَّ في قائمته السَّوداء. وكان ذلك جزاء الخائنين، الّذين يحفرون أجداثهم بايديهم، ثم يموتون عامدين، قبل أن يموتوا مرغمين.

---

(١) علي أدهم ـ مجلة العالم العربي (السنة١١ العدد٢ ص٣٠) (المؤلِّف رحمه الله).

(٢) ابن الاثير في الكامل (ج٥ ص١٧٦) [٣/ ٤٤٤]. (المؤلِّف رحمه الله).

أيضاً أنظر: تاريخ ابن عساكر ١٩/ ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٧.

وخَلَقَت هزيمة عبيدالله بن عبّاس في «مَسْكِن» جَوّاً من التَّشاؤم الذَّريع، لم يقتصر أثرُه على مَسْكِن، ولكنَّه تجاوزها إلى «المدائن» أيضاً. فكانت النَّكْبَةُ الفاقرةُ بكلِّ معانيها.

وللمسؤوليَّات الهائلة الّتي تدرَّج إليها الموقف بعد هذه النَّكْبَة، ما يحمله عبيدالله أمام الله وأمام التّاريخ.

وتسلّم قيادة المقدِّمة بعد فرار قائدها الأوَّل، صاحبُها الشّرعيُّ الَّذي سبق للإمام تعيينه للقيادة بعد عبيدالله، وهو «قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري» العقيدة المصهورة، والدَّهاء المعترف به في تاريخ العرب، والشَّخصيَّة الممتازة من بقايا أصحاب[1] عليٍّ عليه السلام. شَبَّ مع الجهاد، واستمرَّ على الدَّرب اللاَّحِب[2]. وأنكر على الآخرين ضعفهم حين ضَعُفوا، ونَقِم عليهم استجابتهم للمُغريات وعُزُوفهم عن

---

(١) قال المسعودي: «كان قيسُ بن سعدٍ من الزُّهد والدِّيانة والميل إلى عليٍّ بالموضع العظيم. وبلغ من خوفه الله وطاعته إيَّاه، أنّه كان يُصلِّي فلمَّا أهوى للسُّجود إذا في موضع سجوده ثُعبانٌ عظيمٌ مُطَوَّق، فمال عن الثُّعبان برأسه وسجد إلى جانبه، فتطوّق الثُّعبان برقبته، فلم يَقْصِر من صلاته ولا نَقَص منها شيئاً حتى فرغ، ثم أخذ الثُّعبان فرمى به.» قال: «وكذلك ذَكَر الحسنُ بن عليِّ بن عبدالله بن المغيرة بنِ المُعَمَّر بنِ خلاَّد عن أبي الحسن عليِّ بن موسى الرِّضا.» [مروج الذهب ٣/ ١٧] وتوفي قيس سنة ٨٥. (المؤلف رحمه الله).

أقول: والحديث الرّضوي المشار إليه في كلام المسعوديّ رواه الكشّي بإسناده عن أبي الحسن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**إنَّ رَجُلاً مِنْ أصْحَابِ عَلِيٍّ عليه السلام يُقَالُ لَهُ: قَيْسٌ، كَانَ يُصَلِّي فَلَمَّا صَلَّى رَكْعَةً أَقْبَلَ أَسْوَدُ سالِخٌ فَصَارَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ، فَلَمَّا نَحَّى جَبِينَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ تَطَوَّقَ الأسْوَدُ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ انْسَابَ فِي قَمِيصِهِ. وَإنِّي أَقْبَلْتُ يَوْماً مِنَ الفُرْعِ، فَحَضَرَتِ الصَّلاةُ فَنَزَلْتُ فَصِرْتُ إلَى ثُمَامَةٍ، فَلَمَّا صَلَّيْتُ رَكْعَةً أَقْبَلَ أفْعَى نَحْوِي، فَأقْبَلْتُ عَلَى صَلاتِي لَمْ أخَفِّفْهَا وَلَمْ يَنْتَقِصْ مِنْهَا شَيْءٌ فَدَنَا مِنِّي ثُمَّ رَجَعَ إلَى ثُمَامَةٍ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ صَلاتِي وَلَمْ أُخَفِّفْ دُعَائِي، دَعَوْتُ بَعْضَهُمْ مَعِيَ فَقُلْتُ: دُونَكَ الأفْعَى تَحْتَ الثُّمَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يَخَفْ إلاَّ اللهَ كَفَاهُ**». رجال الكشّي ٣/ ٣٠٩.

(٢) اللاَّحِب: الواضح والظاهر.

الواجب.

وما أن دان له المعسكر في مَسْكِن حتَّى وقف بين صفوفه المتباقية ـ بعد حوادث الفرار ـ ليودِّع سلفه بما هو أهله، ثم ليبدأ عمله في قيادته الجديدة، فيداري ما أحدثته هذه الرّجَّة العنيفة في معنويّات جيشه.

فقال: «أيُّها النّاس لا يهولنّكم ولا يعظُمنَّ عليكم، ما صنع هذا الرّجل المولّه. إنَّ هذا وأباه وأخاه، لم يأتوا بيومِ خيرٍ قطّ. إنَّ أباه عمَّ رسول الله خرج يقاتله ببدر، فأسره أَبو اليُسْرِ كعبُ بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله، فأخذ فداءه، فقسَمه بين المسلمين. و إنّ أخاه ولاَّه عليٌّ على البصرة، فسرق ماله ومال المسلمين. فاشترى به الجواري، وزعم أنّ ذلك له حلال. وإنّ هذا ولاَّه عليٌّ على اليمن، فهرب من بُسر بن أرطاة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الَّذى صنع»[1].

وكان قيسٌ الخطيب المؤثِّر فيما يقصد إليه من تأثير، ولا سيّما إذا اندفع بعاطفة مشبوبة، كعاطفته عند موقفه الأخير.

وكان من تأثيره على سامعيه، فيما ثَلَب به عبيدالله بن عبَّاس أنْ تَنَادى النَّاس: الحمدلله الّذي أخرجه من بيننا!!»[2].

أقول: وهكذا كانت التَّجارب مفاتيح الرِّجال كما يقول المثل العربيّ.

---

(١) مقاتل الطَّالبيين (ص ٣٥) [/ ٤٢]. (المؤلف رحمه الله).

(٢) مقاتل الطَّالبيين (ص ٣٥) [/ ٤٢]. (المؤلف رحمه الله).

بِدايةُ النّهَايَةِ

وجاء إلى الحسن عليه السلام بريدُ مَسْكِنٍ ـ لأوّل مرَّةٍ ـ و إذا بكتابِ قيس بن سعد وهو يقول:

«إنّهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها «الجُنُوبيّة» بازاء «مَسْكِن» وإنّ معاوية أرسل إلى عبيدالله بن العبَّاس، يُرغِّبه في المصير إليه، وضمن له ألف ألف درهم. يعجِّل له منها النِّصف، ويُعطيه النِّصف الآخر عند دخوله الكوفة. فانسلَّ عبيدالله في اللَّيل، إلى معسكر معاوية في خاصَّته، وأصبح النَّاس قد فقدوا أميرهم، فصلَّى بهم قيس بن سعد ونظر في أمورهم»[1]

والكتاب في فِقْرَته الأولى، يُشعرنا بأنّ عبيدالله بن عبَّاس لم يُراسل[2] الحسن منذ نزل بجيشه عند مَسْكِن.

ولا أدري هل في انقطاع اتِّصال أحد القُوَّاد عن المركز الأعلى ما يدلُّ على سبق إصرار على التمرُّد ؟. على أنّنا لا نعلم على التَّحقيق الفواصل الزَّمانية الّتي تتَّسع للمراسلات بين نزوله مَسْكِن وبين هُروبِه إلى معاوية.

وتتابعت أخبار مَسْكِن مع كتاب قيس وبعده ـ وأخبار السُّوء أسرع الأخبار بِدَاراً وأكثرُها انتشاراً ـ ، فبلغ الحسن أنَّ هذه «الخاصَّة» الّتي ورد ذكرها في كتاب

---

(١) الإرشاد (ص ١٧٠) [٢/ ١٣]. (المؤلف رحمه الله)

(٢) لأنّ الفِقْرَة الأولى هي الخبر الاوّل الّذي وصل الحسن عن نزولهم مسكن. والكتاب من قيس لا من عبيد الله. (المؤلف رحمه الله)

قيس، والّتي سمّتها المصادر الأخرى «أهل الشَّرف والبيوتات» أو «الوجوه وأهل البيوت»[1]، كانت شريكة عبيد الله في تدبير خطّة الخيانة وعَلِمَ أيضاً أنّ بعض هؤلاء سبق عبيد الله إلى الهزيمة ـ وتطرَّفت بعض الأنباء فأوغلت في النّكاية بعبيد الله حتى قالت «إنَّه مَرَّ بالرَّاية»[2]

وهَيَّأت هذه الحركة العَدُوَّة جَوّاً لتمرُّدٍ خبيث، نشبت عَدْوَاه في قوافل أخرى من الجيش، فنشطوا للفرار وهم يحسبون أنَّ في اتّباع أهل الشَّرف والبيوتات مَغنماً يخسرونه إذا تخلّفوا عنهم.

وعمل معاوية أكثر ما يمكن أن يعمل لإثارة هذا التمرُّد، ثمَّ لتغذيته بعد إثارته ثمّ لتوسعته بعد تغذيته، وكان العارف بنفسيّات أبناء البيوت الرَّعاديد، الّذين غلبهم التّرَفُ وأنستهم النِّعمة الوارفة عنعناتهم العربيّة العنود، فكان لا ينفكُّ يتوقَّع انزلاقهم إليه، ويتوسّل إليهم بمختلف الوسائل وانواع الكيد، حتى لقد نجح في استذلال شموخهم عن طريق المطامع المادِّية الّتي نطامن لسحرها كبيرهم المغرور، فنزل يهرول أمامهم، إلى الهُوَّة الّتي لا يختارها شريف يعتز بشرفه، ولا قائد يغار على سمعته.

وهكذا «جعل أصحاب الحسن الّذين وجّههم مع عبيد الله يتسلّلون إلى معاوية، الوجوه وأهل البيوتات»[3] وأتباعهم طبعاً.

ثم صعد عددُ الفارِّين من الزَّحف، عن طريق الخيانة لله ولرسوله ولابن رسوله، إلى ثمانية آلاف !! (كما يحدِّثنا أحمد بن يعقوب في تاريخه).

---

(١) أنظر: شرح النّهج ١٦/ ٢٢.

(٢) البحار (ج ١٠: ص ١١٤) [٤٤/ ٦٠] . (المؤلف رحمه الله).

(٣) شرح النَّهج (ج ٤ ص ٨).[١٦/ ٢٢] . (المؤلف رحمه الله).

قال: «إنَّه ـ يعني معاوية ـ أرسل إلى عبيد الله بن عبَّاس، وجعل له ألف ألف درهم، فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه، وأقام قيس بن سعد على محاربته.»[1]

نعم، ثمانية آلاف من اثني عشر ألفاً !

إنَّها الثَّغرة المخيفة في جدار المعسكر الواقف في جبهة القتال أمام ستّين ألفاً من الأعداء الأشدَّاء، لا، بل أنّه الإنهيار المخيف، والنّكبة الّتي تهدِّد بالكارثة القريبة. فليتحمَّل عبيد الله مسؤوليتها الثَّقيلة في الله، وفي التَّاريخ !!

وظنَّ هؤلاء المتسرِّعون إلى الفتنة، والرّاكضون بكلِّ أعصابهم إلى الهزيمة، أنهم إذا عملو مثل العمل الّذي أتاه ابن عمِّ الخليفة وأولى النّاس برعاية حقِّه والوفاء ببيعته فإنهم غير ملومين، واصطلحوا على مثل هذا المنطق المفلوج لتبرير عملهم أمام الناس، ولكنَّ النَّاس لم ينظروا إلى هزيمتهم إلاَّ من ناحية إطارها المموَّه بالذّهب الوهّاج، ذهب معاوية «الزَّائف»، ثم لم يشهدوا من أمجاد «ابناء البيوتات» إلاَّ سبقهم لنقض المواثيق الّتي واثقوا الله عليها، وبيعهم الدّنيا بالدِّين.

وما كان بالقوم ـ وهم يَفرُّون من ميادين الحسن ـ أنهم يُنكرون فضله ومزاياه، أو يجهلون سُمُوَّه وكفاءاته، ولكنَّهم كانوا يريدونه لدنياهم ثم لا يجدونه حيث يريدون.

وما كان بهم ـ وهم يفرّون إلى معاوية ـ أنهم وثقوا به وبمواعيده، وأنهم لم يقدِّروا العاقبة الّتي قابلهم بها يوم دخل الكوفة فنقض كلَّ عهد ووعدٍ. وما معاوية بالرَّجل الّذي يخفى أمره، ولا هم من الطَّبقة الّذين يجهلون أمثاله وهو إذ ذاك بين سمعهم وبصرهم.

---

(١) اليعقوبي (ج٢ ص ١٩١) [٢/ ٢١٤]، وروضة الشُّهداء (ص ١١٥) (المؤلف ﵀).

اذاً، فلا بغض الحسن ولا جهلهم له، ولا حُبُّ معاوية ولا ثقتهم به ـ كان هو السَّبب كلَّه لنفورهم وفرارهم، ولكنها كانت حوافز أخرى أو حوافز من ألوان شتى، دفعت بهؤلاء المؤلهين إلى هذا الشَّكل من الجهر بالسُّوء الّذي لا يزال صداه البغيض يرنّ في مسمع التَّاريخ.

وما يُدرينا فلعلَّها كانت مراحل مقرّرة ومؤامرات مدبّرة سبق إليها الزُّعماء المعارضون، ليتّقوا بها المصير الّذي كان ينتظرهم، فيما لو أُدِيلَ للكوفة من الشَّام. وكان من شأن التَّدابير الواسعة الّتي أخذ بها الإمام في دعوة الأقطار الإسلامية إلى الجهاد، ومن بوادر النَّشاط الّذي تطوّع له الشِّيعة في عضد هذه الدَّعوة، ما هو خليقٌ بأن يبعث في نفوس القلقين من الخونة والرُّؤساء المتبوعين، الخوف على أنفسهم ومصالحهم، وأن يزدادوا حذراً مما كانوا قد تورّطوا فيه من مناورات ومعارضات تجاه معسكرهم في الكوفة. فرأوا في الإلتحاق بمعاوية خُروجاً من هذا الخوف، وتحريباً سريع الأثر في قُوَّة الجانب الّذي يخافونه، وكان من تنفيذ الخطّة في أضيق وقت وعلى أوسع نطاق، ما يؤيّد كونها نتيجة لمؤامرة كثيرة الأنصار.

ولعلّ فهم مأساة الهزيمة على هذا الوجه أقرب إلى الواقع، ممَّا فهمها عليه سائر رُواتها من أعدائها ومن أصدقائها.

وليس معنى هذا التَّفسير، أنّ معاوية لم يَعِد أحداً أو لم يرشِ قائداً.

كَلاَّ ... فإنّه سخا بالمواعيد حتى أذهلهم، وأعطى القائد وحده مليوناً من الدّراهم حتى اشترى دينه وكرامته.

ولكنّ الشَّيء الّذي يسترعي النَّظر ويستدعي التَّنبيه، أنَّ حوادث الهزيمة لم تُنْسَب إلى اسم صريح آخر غير عبيدالله بن عبَّاس ـ قائد المقدِّمة في مَسْكِن ـ أنّه قبض من معاوية في سبيل الخيانة نقداً معيّناً.

ترى، فكيف رضي الزُّعماء الآخرون من معاوية بالوعد دون النَّقد، لولا أن يكون الخوف الّذي ذكرناه، هو الَّذي بعث فيهم روح الهزيمة وزيَّن لهم الإكتفاء بالوعود !!

وللخوف سلطانه على النُّفوس، ولاسيَّما نفوس المترفين من النّاس، فلا بدع إذا قدح في نفوس «أبناء البيوتات» فكرة الخيانة وأوقدتها ـ بعد ذلك ـ مُغرِيات الشّام، في بيئة ليس فيها إغراء بغير الله والعدل الصّارم.

وهكذا انكشفت كلُّ جماعة من عناصر هذا الجيش عن مكنونها الّذي مزّق السّتار، وظهر على المسرح باللَّون الّذي لا تشتبه فيه الأبصار، فكان لحُبِّ العافية من قوم وللعصبيَّات الجاهليّة من آخرين وللأهواء والمنازع وأصحابها الأثر المستبين فيما آل إليه الموقف من نتائج وأضرار.

وفضحت المطامع أولئك الّذين لم يلتحقوا بهذا الجيش إلاَّ طمعاً بالغنائم، وسرَّهم أن يتلقّفوا الغنائم من طريق الخيانة في سهولة ويُسْر، وكانوا يظنّون أنهم لن ينالوها إلاَّ بعد أنْ تزيغ قلوبهم هلعاً، من قراع الأسنّة والضَّرب الدَّرَّاكِ.[1]

ونزلوا عن هذا الطَّريق إلى الدَّرك الأسفل من حظوظهم الّتي تخيروها لأنفسهم مغرورين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وما كان المسلم الّذي يترك إمامه ليلتجيء إلى البُغاة إلاَّ شرّاً من باغ، وأولئك هم المستضعفون في دينهم، والقلقون في دنياهم، وإنَّ صفوف معاوية لأولى بالمستضعفين القلقين.

---

(١) أي: المُتَتَابع.

(٢) سورة الفتح / ١٠.

ومازت الكتيبة الّذين جثموا في مواقعهم، وثبتوا على مبدأ المقاومة لا يلتسمون محيداً عنه، وصمدوا ولكنهم إنّما صمدوا للموت المحقّق(١)، ينتظرونه فَرِحين مطمئنين، دفاعاً عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ووفاءاً لله ببيعتهم.

وكان الصُّمود للنكبات، والصَّبر على الكوارث، والإستعداد لتحمُّل الآلام وبذل التضحيَّات، أنبل دليل على طيب المعدن، وصدق النيَّة، وصلابة العود، والجدارة بالحياة. وهذه هي نعوت شيعة الحسن الأوفياء.

ثمَّ كان لأنباء هذه النَكبات المروّعة في مَسْكِن، وقعها السَّيِّءُ الّذي يناسب خطورتها، في أوساط الجيش الآخر الّذي كان يعسكر في (المدائن). وبلغت البالغات في تهويل هذه الأخبار بين حلقات هذا الجيش رقمها القياسي. وفي هذا الجيش كثرة ساحقة من رَعاع أهل السَّواد ومن أخلاط النَّاس ومختلف الأحزاب. وفيه ـ إلى هؤلاء وأولئك ـ البهاليل من الهاشميين الميامين، والكُتل المخلصة من ربيعة وهمدان.

وكادت الرَّجَّة العاتية أن تجتاح المعسكر، لولا هذه الأطواد الرّاسية في مختلف أكنافه، الأطواد الّتي كانت تتكسر على صخرتها شتّى المحاولات الّتي كان يتسرَّع إليها المتوثّبون إلى الفتنة.

أمّا الحسن نفسه، فقد قابل هذه المُزْعِجَات بالأمل الّذي يَعْمُر القلوب القوية والنُّفوس الخالدة، وكان يرى أنَّ الإخفاق في ظرف خاصٍّ أو مكانٍ خاصٍّ، لا يعني الحِرمان من الإزدهار والإثمار أخيراً في ظرف لا يجبُ أن يكون هو ـ بشخصه ـ صاحبه، ولكن «بمبدئه»، وثمَّة نقطة التركُّز في أهداف الحسن ـ مُخفقاً أو مُنتصراً ـ وثمَّة مركز التجلِّي «الرَّبَّاني» الّذي تنشقُّ عنه الإنسانيَّة في شخصيَّة هذا الإمام الرُّوحي،

---

(١) قال ابن كثير (ج٨ ص١٩) [البداية والنهاية ٨/ ٢١]: قال أبو العريف: كنّا في مقدِّمة الحسن بن عليٍّ بمسْكِن، مستميتين من الجدّ على قتال أهل الشّام... (المؤلِّف رحمه الله).

بأفضل ما قُدِّر لها من مراتب الإنسياح في ذات الله، والفناء في سبيل الله.

ثم إنّه لم يزل على نشاطه الموفور، في تدوير دولاب حركته وجهاده وجيوشه، رغم ما كان يحسُّه من وميض الفتنة الّذي أخذ يستعر تحت رَمَاد الأحداث المتعاقبة بين يديه. ولم يسمع منه كلمةً واحدةً تتجاوز به إلى جُحْمةِ غضبٍ، أو تدلّ بحدَّتها على ما كان يشيع في نفسه من بلاغة الخُطب، وروعة التشاؤم، والنِّقمة على الوضع، اللّهُمَّ إلاَّ كلماته التوجيهيّة الّتي كان يقصد بها تدريب جماهيره على النّظام، وتعليمهم الإلتزام بقواعد «الجهاد» في الإسلام.

ودار بوجهه إلى كوفته، كأنَّه يَتذكَّر شيئاً، أو يستعرض أشياء عَقَّت الكوفة بها أياديه عندها وأيادي أبيه من قبل. وكان أبوه هو باعث مجدِها، ومؤسِّس كيانها المستطيل الشَّامخ، الّذي باتت تتمتّع به كأعظم حاضرة في العالم الإسلامي، تلتقي عندها حضاراته، وتَثُوب إليها شعوبه من مختلف الأجناس، وتلتحم بمصالحها الثَّقافية والتِّجارية مع أعظم الأقطار المعروفة في ذلك الزّمان. والكوفة هي كلُّ شيء في سياسة الحسنعليه السلام، أو هي أعظم ذخيرة كان يدَّخرها للأيّام السُّود، والوقائع الحمر، والبلايا الملوّنة الّتي شاءت اللّيالي أن تجمعها عليه في وقته الحاضر ـ فذكر، وهو يستعرض في نفسه سوابقه مع الكوفة أو سوابق الكوفة معه، انثيال النَّاس ـ هناك ـ على بيعته والأخذ بيده، وإجماعهم على قبول شرطه يوم رضي أن يمدّ يده لبيعتهم «على أن تكون بالسَّمع والطَّاعة، وأن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم».

ثم نظر إلى حوادث «مَسْكِن» وزلزلة الأكثر من جيوشه «الكوفيين» هناك، ونفورهم من القتال وركونهم إلى الفرار، وانخداعهم بالمطامع، وجهرهم بالعصيان، ونقضهم المواثيق الّتي عاهدوا الله عليها.

فساءه، أن تبلغ السَّفالة البشريّة، وميوعة الدِّين، وصفاقة الأخلاق، في عُصبة تدَّعي

الإسلام، وتتقلّد القرآن، وتؤمن ـ على ظاهرها ـ بالنبيّ فتصلّي عليه وعلى آله، في صلواتها الخمس كلّ يومٍ خمسَ مرّات ـ مبلغها من هؤلاء الّذين خانوا النبيّ في آله، وخانوا الله في مواثيقه، وباءوا بمخزاة التّاريخ على غير كُلفة ولا اكتراث.

وظنّوا أنّ معاوية مانعهم من الموت والفقر، ولا والله ما من الموت مفرّ، ولا رشوات معاوية بأجدى لهم من الرِّزق الحلال الّذي قُدِّر لهم في هذه الحياة، وسيصعد معاوية منبره في الكوفة، معلناً على رؤوسهم حَنثَه بأيمانه وعهوده ومواعيده، وجاعلاً «كلَّ ذلك تحت قدميه»[١]، وما هي إلاّ شِنْشِنَته الّتي كان يمليها عليه طموحه إلى الغلبة بكلِّ سبب.

وليت شعري إلى أين كان يفرُّ هؤلاء من الفقر الّذي اتّقوه بالفرار من إمامهم الشّرعي، يوم يستيقنون إصرار معاوية على الخُلف بوعده وعهوده ـ وإنهم لمستيقنون ـ وإلى أين كانوا يفرّون من الموت وقد خافوه بالجهاد مع ابن بنت نبيِّهم صلى الله عليه وآله، وإنّه لمدركهم «ولو كانوا في بروج مشيّدة»، وسيدركهم وهم فقراء من دينهم ودنياهم معاً، فلا بمواثيق الله عملوا ولا على رشوات معاوية حصلوا، وسيموتون ميتتهم الجاهلية الّتي سبقت لآبائهم فاستبقوا بها إلى النّار، ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[٢].

---

(١) يُراجعُ عن هذا التّصريح أكثر المصادر التاريخيّة، وذكره ابن قتيبة في «تاريخ الخلفاء الرَّاشدين ودولة بني أميَّة» (ص ١٥١ ـ مطبعة مصطفى محمَّد ـ بمصر). (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) سورة هود عليه السلام / ٩٨.

يَـــا وَيــــحَ مَـــن وَلّى الكِتَـــا ... بَ قَفَــــاهُ والـــدُّنيا أمَامَــــه
فَليَقْــــرِعَنْ سِــــنَّ النَّــــدا ... مَــــة يـــومَ لا تُغنـــي النَّدامـــة
وَليُــــدْرِكنَّ عَـــلى الغَــــرا ... مَــــةِ سُـــوءَ عَاقبـــةِ الغرامَـــه
يَـــا لَعْنَـــةً صَـــارَتْ عَـــلى ... أعْنَـــاقِهِمْ طَـــوْقَ الحَمَامَـــة(١)

وكان الوِزرُ الأكبر الّذي تأزّره الكوفيُّون في مَسْكِن، وِزْرَ النّفر الّذين قادوا الحركة الخائنة في خطواتها الأولى، منذ ركبوا المآثم السُّود بتكتّلاتهم ومكاتباتهم..

وتمثَّل للحسن وهو بالمدائن، أفراد من «الوجوه وأبناء البيوتات» في جيش مَسْكِن كان يعرفهم بلحنِ القول حِيناً ولحنِ العمل أحياناً، وما كانوا بالّذين ينقطعون عنه وعن جماعته في الكوفة، ولكنَّهم المنقطعون عن مودَّته وعن الإخلاص لأهدافه فيما يُبطنون، ولم يكن شيءٌ ممَّا يُبطِنونه بالَّذي يغيب عنه، ولا شيءَ يزاولونه ـ في مناوراتهم معه ـ فيجهله من نواياهم. وكانوا إذ يتَّصلون به، إنما يصطنعون الدِّين وسيلةً إلى الدُّنيا، ويخيَّل إليهم أنهم قد حذقوا اتِّخاذ الوسيلة، حتى إذا علموا خطأهم بدأوا يزرعون في بطاح غدهم نوابت الزَّرع الخبيث، وعادوا وهم ـ في عهده ـ على سابق عهدهم، يوم كانوا يجترُّون تملّقهم الأصفر وخذلانهم الأسود الّذي نسجوا عليه لعابهم المرير في عهد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة يوم سَئِم أبوه الحياة من سوء صحبتهم، وتمنَّى الموت صريحاً لفراقهم.

وعلم الحسن بن عليٍّ غير متردِّدٍ في علم، أنَّ هذه العصابة نفسها كانت هي أصابع معاوية الّتي عاثت بمقدِّرات جيشه في مَسْكِن، وهي الّتي شجَّعت القوافل على

---

(١) بديع الزّمان الهمداني. [أنظر القصيدة بكاملها في أعيان الشّيعة ٢/ ٥٧٦] (المؤلف رحمه الله)

الفرار إلى معاوية، اغتراراً برشواته الأخّاذة المنوّعة الّتي جاوز بها معاوية المألوف من رشوات النَّاس وعرض فيها من العرض ما لا يعهد الرَّشوة بمثله، حتى لقد كتب إلى بعضهم: «وبنت من بناتي!»[1]

وكانت الخَصِيصَةُ البارزة في معاوية، أنّه الرّجل الّذي لا تفوته الفُرَصُ السَّانحة من مآزق خصومه، وكان هو ـ قبل كلِّ شيء ـ الصنّاع المُفِنّ[2] في بعث هذه المآزق واستغلال فُرَصها، وكانت هذه هي موهبته الّتي خلب بها ألباب المعجبين به، وبرع فيها البراعة بأقصى حدودها، حتى ليُخيَّل إلى مؤرِّخته حين ينظرون إليه من هذه الزَّاوية أنّه الدَّاهية، وأنّه السِّياسيُّ المحنّك، وأنّه العسكريُّ المفنّ.

ولكن دراسة معاوية ـ على ضوء ما تقلّب فيه الرّجل من أطوار وما زاوله من محاولات ـ كمحارب لرسول الله صلى الله عليه وآله في بدر[3]، فطليقٌ من طلقاء يوم الفتح بمكّة، فصُعْلُوكٌ[4] لا مال له يركُضُ حافِياً ـ بغير نعل ـ تحت ركاب عَلْقَمَةَ بنِ وَائل الحَضْرَمِي[5] في المدينة، فوالٍ على الشّام ولكن من عمر وعثمان مدى عشرين سنة،

---

(١) علل الشرائع لابن بابويه (ص ٨٤ ـ طبع ايران) [١/ ٢٢١] (المؤلّف رحمه الله).

(٢) رَجُلٌ مِفَنٌّ، كمِسَنّ: يأتي بالعجائِبِ. تاج العروس ١٨/ ٤٣٨.

(٣) ابن النديم (ص٢٤٩) [الفهرست / ٢٢٣] قال: سُئل هشام بن الحكم عن معاوية أشهد بدراً؟ فقال: نعم من ذاك الجانب! (المؤلف رحمه الله).

(٤) الدَّمِيرِيّ (ج١: ص ٥٩) [حياة الحيوان الكبرى ١/ ٩٠] قال: وكانت امرأة استشارت النبي صلّى الله عليه وسلّم في أن تتزوَّج منه ـ يعني معاوية ـ فقال ـ: «**إِنَّهُ صُعْلُوكٌ لا مَالَ لَهُ**». (المؤلف رحمه الله)

أيضاً أنظر: الإستذكار ٦/ ١٧١، الكفاية في علم الرِّواية للخطيب البغدادي / ٥٧، الإصابة ٦/ ٢٣٩.

(٥) البيهقي في المحاسن والمساوئ (ج١: ص ٢٠٩ و ٢١٠) [/ ٢٦٨] وغيره. (المؤلف رحمه الله).

والقصّة كما عن علقمة بن وائل قال: وفد وائل بن حجر بن سعد الحضرمي على النبيّ صلّى الله عليه ⇦

فمحارب للإمامين عليٍّ وابنه الحسن عليهما السلام أربع سنوات، فمدّعٍ للخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله يناقضه صريحاً في أحكامه ويخالفه عامداً في سيرته، ويقول: والله ما بقي شيءٌ يُصيبه النَّاس من الدُّنيا إلاَّ وقد أصبتُه»[1] ـ أقول: إنَّ دراسته على ضوء محاولاته الكثيرة، ووصوليَّاته المنوّعة مما ذُكر أو لم يُذكر، لا تُفضي بنا إلى الإعتراف بكلِّ الأوصاف الّتي يسبغها عليه المعجبون به.

ولا تدلُّ على أكثر من براعته في استغلال الفُرَص جاهليَّةً وإسلاماً.

وما كان من الدَّهاء، ولا من السِّياسة بمعناها الصَّحيح، أن يتّصل الإنسان في طريقه إلى مآربه بوسائل لا يملك لها وجاهة الإقناع ـ ولو ظاهراً ـ في عُرف المجتمع، ولا أن يتسوَّر إلى أهدافه بالشُّذوذ المكشوف الّذي لا يهضمه تقليدٌ، ولا يُقرُّه دينٌ، ثم هو لا ينفكُّ يحاول أن يدّعي أنَّه رئيس حماة الدِّين، وكبير رعاة التَّقاليد.

وما من دَهاءٍ في منطقة مناقضات.

ولا من دهاء في اغتيال الآمنين من النَّاس، ولا في إعلان السَّب والشّتم وفرضه على النّاس في كلِّ مكان، ولا في نقض العهود والحَنث بالأيمان.

⇦

وسلّم فمسح وجهه ودعا له ورفّله على قومه ثم خطب الناس فقال: «**أَيُّهَا النَّاس هَذَا وائِلُ بْنُ حُجْرٍ أَتَاكُمْ مِنْ حَضْرَمَوْتَ**» ومدّ بها صوته راغباً في الإسلام ثم قال لمعاوية: «**انْطَلِقْ بِهِ فَأَنْزِلْهُ مَنْزِلاً بالحَرَّةِ**» قال معاوية: فانطلقت به وقد أحرقت رجلي الرّمضاء فقلت: أردِفني قال: لَسْتَ من أَرْدَافِ المُلُوك، قلت: فأعطني نعليك أَتَوَقَّى بهما من الحرِّ، قال: لا يبلغ أهل اليمن أنَّ سوقة لبس نعل ملك، ولكن إن شئت قَصُرت عليك ناقتي فَسِرتَ في ظِلِّها. أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٥٠ـ٣٥١، تاريخ مدينة دمشق ٦٢/ ٣٨٩، تاريخ المدينة لابن شبة ٢/ ٥٧٩، وفي المصدر أنَّه كان بمعيّة وائل بن حجر بن سعيد الحضرمي. وفي المحقّقين من يراها مختلقة في الجهاز الأموي، والغاية إظهار معاوية وهو يحتلُّ مكانة في الثّقة عند الرّسول صلى الله عليه وآله، والله العالم.

(١) المصدر السَّابق [المحاسن والمساوئ / ٢٦٩]. (المؤلّف رحمه الله)

إنّ شيئاً من ذلك لا يدخل في حساب الدَّهاء، ولا هو من سياسة الملك، ولكنها الأساليب البدائية في دُنيا العداوات، ولعلّ في أدنياء المتناجزين من سواد النَّاس من يستطيع أن يأتي بالأفظع الأروع من هذه الأساليب نَكالاً في خصومه. أفيكون حينئذٍ أعظم دهاء من معاوية؟

ومتى كان الشُّذوذ في الكيد دهاء يا ترى ؟

وإذا كان معاوية فيما أتاه من هذه الأفاعيل النُّكر داهية، فلقد زاده ابنه يزيد دهاء، لانّه توسَّل إلى مآربه بوسائل أنكى من وسائل أبيه.

ودع عنك من شواهد الضَّعف في معاوية، استرضاءه البيزنطيين بالمال، وخطابه الطَّائش الّذي نقض عليه سياسته ـ في الكوفة ـ عند دخوله إليها، وموقفه الفَطير من شهداء «مَرْجِ عَذْراءَ»[1]، وأشياء أخرى ليس هنا مجال بحثها.

ولكنّنا ـ ولننصف القائلين بدهائه ـ نتذكّر لمعاوية موقفاً يشبه أن يكون فيه «الدّاهية» الّذي يحيك الخطط ليمهّد إلى غده، ثم هو يصدر إلى الناس من وراء خطته بعذر يقبله المعنيون به.

ذلك هو الموقف المبرقع الّذي وقفه معاوية من نجدة عثمان، يوم خلع وقتل..

وربح معاوية من مقتل عثمان أنصاراً من «العثمانية» قبلوا عذره اذ يخذل[2] عثمان

---

(١) «مَرْجُ» الأرض الواسعة، فيها نبتٌ كثيرٌ تَرعى فيها الدَّوابُّ. و«عَذْرَاءُ» موضعٌ قريب من الشَّام، والمعلوم أنَّ حُجر بنَ عَدِيٍّ وآخرين من أصحاب أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، استشهدوا ظُلماً هناك.

(٢) نجد التَّصريح بهذه الحقيقة التَّاريخيَّة في كثير ممَّا دار حولها من أحاديث معاصريها وخطبهم وأشعارهم. وكان فيما واجه به شَبَثُ بنُ رِبْعِيّ معاوية أن قال له: «إنّه والله لا يخفى علينا ما تعزو وما تطلب، إنّك لم تجد شيئاً تستغوي به النَّاس وتستميل به أهواءهم، وتستخلِص به طاعتهم إلاَّ قولك: قُتِلَ إمامُكم مَظْلوماً فنحن نطلب بدمه، فاستجاب له سُفهاءٌ طَغَامٌ، وقد علمنا أنْ قد أبْطَأتَ عنه بالنَّصر، وأحببت له القتل لهذه المنزلة الّتي أصبحت تطلب، ورُبَّ

⇦

وهو حيّ، ثم تطوّعوا له لينصر بهم عثمان وهو ميت، وهو انما ينتصر بهم لنفسه، ولكنهم لا يشعرون. فعزز بهذه الحفنة من «الاغنياء» جبهته الضعيفة في ميادينه مع علي عليه السلام.

ومن هنا عرض معاوية عسكريته على التاريخ.

ولا نعرف عن عسكرية معاوية ـ بما يلتقي عند هذه الكلمة من المعنيين ـ شيئاً مذكوراً.

⇨

متمنّي أمرٍ وطالبه، الله عزَّ وجلّ يحول دونه بقدرته. وربما أوتي المتمنّي أمنيَّته وفوق أمنيته. ووالله ما لك في واحدة منهما خيرٌ، لئن اخطأت ما ترجو، لأنت شرُّ العرب حالاً في ذلك، ولئن أصبت ما تمني، لا تُصيبه حتى تستحقَّ من ربِّك صِلِيّ النَّار، فاتَّقِ الله يا معاوية، ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله .. ». الطَّبري (ج٥ ص٢٤٣) [٣/ ٥٧٠، تاريخ ابن كثير ٣/ ٢٨٦، شرح النهج ٤/ ١٥، وقعة صفّين / ١٨٧].

وأخرج ابن عساكر [٢٦/ ١١٦، وأيضاً الإستيعاب ٤/ ١٦٩٧، وأسد الغابة ٥/ ٢٣٤] عن ابي الطُّفيل عامر بن واثلة، أنه دخل على معاوية فقال له: ما منعك عن نصر عثمان اذ لم ينصره المهاجرون والأنصار؟ فقال معاوية: أما لقد كان حقُّه واجباً عليهم أن ينصروه. قال: فما منعك يا امير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشَّام ؟ قال معاوية أمَا طلبي بدمه نصرةٌ له؟ فضحك أبو الطُّفيل بن واثلة ثم قال: انت وعثمان كما قال الشاعر:

لا ألفِيَنَّكَ بَعْدَ المَوْتِ تَنْدُبُنِي ... وفِي حَيَاتِيَ مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي!

وروى المسعوديُّ [مروج الذّهب ٣/ ١٦] ما رواه ابن عساكر ثم ذكر في جواب ابي الطُّفيل لمعاوية قوله: منعني ما منعك إذ تربّص به ريب المنون، وأنت بالشَّام ! وقال البلاذري [بل هو من قول ابن أبي الحديد في شرح النّهج ٥/ ٨٢] : إنَّ معاوية لما استصرخه عثمان، تثاقل عنه، وهو في ذلك يَعِدُه، حتى إذا اشتدَّ به الحصار، بعث إليه يزيد بن أسد القُشيري وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها، ولا تقل: الشَّاهد يرى ما لا يرى الغائب، فَأنَا الشَّاهد وأنت الغائب !! .. قالوا: فأقام بذي خشب حتَّى قُتِل عثمان، فاستقدَمَهُ. (المؤلف ﷺ)

فلا هو بالعسكري على المعنى المصطلح عليه، الّذي يعني «بوضع الخطط وقيادة الميدان»، ولا هو بالعسكري في شجاعته وفروسيته، حين يدعى لمقارعة شجاع أو منازلة فارس.

ودعاه أمير المؤمنين عليه السلام ليبارزه، فاما واما، فأبى إباءَ الرّعاديد!![1]

---

(١) قال البيهقي في المحاسن والمساوىء (ج١ ص ٣٧)[/ ٥٢]: ولما كان حرب صفِّين، كتب أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: «**مَا لَكَ يُقْتَلُ النَّاسُ بَيْنَنَا، أُبْرُزْ لِي فَإِنْ قَتَلْتَنِيَ اسْتَرَحْتَ مِنِّي، وَإِنْ قَتَلْتُكَ اسْتَرَحْتُ مِنْكَ**». فقال له عمرو بن العاص: أنصفك الرَّجلُ، فابرُز إليه. قال: كَلاّ يا عمرو، أردت أنْ أبرُزَ إليه فيقتلني. وتَثِب على الخلافة بعدي!! .. قد علمت قريشٌ أنَّ ابن ابي طالب سيِّدُها وأسدُها.

وقال (ص٣٨)[/ ٥٣]: عن الشَّعْبِيّ، أنّ عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ناسٌ، فلمّا رآهُ مُقبلاً استضحك فقال: يا أمير المؤمنين أضحك الله سنَّك وأقرّ عينك، ما كلُّ ما أرى يوجب الضَّحِك. فقال معاوية: خَطَر ببالي يوم صِفِّين يوم بارزت أهل العراق، فحمل عليك عليُّ بن أبي طالب فلمّا غشيك طرحت نفسك عن دابَّتك وأبديت عورتك ! كيف حضرك ذهنك في تلك الحال ؟. أما والله لقد واقفت هَاشمياً مَنَافِيّاً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك. فقال عمرو: يامعاوية إن كان أضحكك شأني، فمن نفسك فاضحك. أما والله لو بدا له من صفحتك مثل الّذي بدا له من صفحتي لأوجع قَذَالَكَ وأيتم عِيالك، وأنهب مالك، وعزل سلطانك، غير أنّك تحرّزت منه بالرِّجال في أيديها العوالي، أما إنِّي قد رأيتك يوم دعاك إلى البراز فأحولت عيناك، وأزبَدَ شِدقاك، وتنشّر منخراك، وعرق جبينُك، وبدا من أسفلك ما أكره ذكرَه!! فقال معاوية: حَسْبُك حيث بلغت، لم نُرِد كلَّ هذا..».

وروى هذا الحديث المسعوديُّ (هامش ابن الاثير ج ٦: ص ٩١) [مروج الذَّهب ٣/ ٢٠] وبدأه بقول عمرو بن العاص لمعاوية: «لولا مصر وولايتها لركبت النَّجاة منها، فاني أعلم أنّ عليَّ بن أبي طالب على الحقِّ وأنا على ضدّه»، فقال معاوية: «مصر ـ والله أعْمَتك، ولولا مصر ـ لألفَيْتُك بصيراً»، ثم ضحك معاوية ضحكاً ذهب به كلَّ مذهب. قال: «ممَّ تضحك يا امير المؤمنين أضحك الله سنّك؟» قال: «أضحك من حضور ذهنك يوم بارزت علياً». (المؤلف رحمه الله).

أقول: أنظر في ذلك أيضاً الإمامة والسّياسة ١/ ٩٥، وقعة صِفِّين لابن مزاحم / ٢٧٥ و٣٨٧، تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ٤٨٦، الأخبار الطّوال للدِّينَوَريّ / ١٧٦، شرح نهج البلاغة ٨/ ٥٣ و٥/ ٢١٧. وفي نهج البلاغة ٣/ ١١ الكتاب: ١٠: «**وَقَدْ دَعَوْتَ إلى الحَرْبِ فَدَعْ**
⇐

نعم هو صاحب موهبة ـ كما قلنا ـ ولكن في حيّزٍ محدود، وصاحب سخاءٍ ولكن من نوع فريد، وصاحب هواية خاصَّة لها سلطانها القاهر على نفسه.

فأمَّا موهبته ففي اغتنام الفُرَص من مآزق النَّاس، وأمّا هَوَايتُه ففي الغلبة والسلطان، واما سخاؤه فبما لا يسخو به من يحسب لآخرته حسابها.

والمرجَّح أنَّ معاوية كان يعرف من نفسه قصورها عن العسكريّ الّذي كان يجب أن يكونه وهو يناضل أشجع عسكريّة في الإسلام، فكان يَودُّ دائماً أن يلتوي بحروبه مع العراق، إلى الطَّريقة الخاضعة لموهبته، ويفرُّ ـ ما وَسِعَه الفِرار ـ من حرب السِّلاح إلى حرب الفتن.

وكانت التَّجارب الّتي صارعها معاوية في حروب صِفِّين، هي الأخرى الّتي أملت عليه القناعة القُصوى بهذا الإختيار.

ولم يُفْلِتْ معاويةُ من الإنهيار المحقَّق الّذي حاق به يوم ذاك، والَّذي نشط به إلى محاولة الفرار بنفسه على ظهر جواد، إلاَّ حين أخذ بالرَّأي البِكر الّذي أملاه عليه مستشاره الكبير «ابنُ العاص» ! ثم كانت الفتنة بنِطاقها الواسع الّذي خلق للمسلمين أنواع المشاكل والنَّكبات فيما بعد.

فالفتنة في نظر معاوية خَيرُ مركبٍ للنَّجاح، وهي بتجارب معاوية أمضى أثراً من السِّلاح، فكيف لا يجنح إليها كُلَّما حاق به مأزقٌ من هذه المآزق الّتي كان يجرُّها على

⇨

النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ وَالْمُغَطَّى عَلَى بَصَرِهِ، فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً وَلا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً، وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ»

ورجلٌ رِعْدِيد: جبان يدع القتال من رِعدةٍ تأخذه. كتاب العين ٢/ ٣٣، لسان العرب ٣/ ١٧٩.

نفسه في مختلف المناسبات ؟

ووُفِّق معاوية في ميدان «الفتنة» إلى تعبئة جهاز من النَّوع الثَّقيل، لا نعهد مثله لغيره، بما يسَّر له من الثَّراء الضَّخم الّذي مهدته له بلاد الشَّام في عِقدين كاملين من السِّنين وبما حَظِيَ به من صَحْبٍ مساعير في هذا الميدان، أمثال: المُغيرَة بن شُعْبة وعَمرو بن العَاص. وكان ابن العاص هذا، أعظم مُصَارع على هذا المسرح، وهو الّذي «ما حَكَّ قَرحَةً إلاّ نَكَأَهَا».

واستلحق ـ إلى هذين ـ زِيَادَ بن عُبيد الرُّوميّ الّذي انتزعه من معسكر الحسن عليه السلام انتزاعته[1] المفضوحة في التّاريخ، فكانوا ثَالوثَهُ المُخيف الّذي فتن الناس وزلزل الدُّنيا وبلبل

---

(١) كان زياد هذا، عامل الحسن بن عليٍّ عليهما السلام على ناحية من فارس وهو عليها منذ عَهْدِ أبيه، بعثه إليها عبدالله بن عبَّاس منذ كان على البصرة.

فكتب إليه معاوية يَتَوعَّدُه ويتهدَّدُه، فقام زياد في محلّ عمله بفارس خطيباً فشتم معاوية ووصفه «بابن آكلة الأكباد وكهف النِّفاق وبقيَّة الأحزاب»، وهدَّده بابني رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهو إذ ذاك من شيعتهما ـ وبأجنادهما من المسلمين. وتجد نصَّ الخطبة في فصل «عدد الجيش» من هذا الكتاب.

وأمّا قضيَّة استلحاقه، فهي على الإجمال، حكايةُ زِنْيَةٍ يزنيها أبو سفيان ببغيٍّ من ذوات الأعلام بالطَّائف كانت تؤدِّي الضريبة إلى الحَرِث بنِ كَلَدَة الثَّقفي، تُدعَى «سُمَيَّة» فيكون نتيجتها «زياد» هذا، ويقبل معاوية شهادة كُلٍّ من ابن أسماء الجِرْمَازِيّ وأبي مريم الخمّار السَّلولي ـ قَوَّاد هذه البَغِيِّ وغيرها من أمثالها ـ فيستلحق زياداً كأخٍ شَرعيٍّ رَغم أنّ عبد الله بن عامر (صهر معاوية على ابنته هند) كان يهمّ أن يأتي بقَسَامَةٍ من قريش يحلفون أنّ أباسفيان لم يرَ سُميَّة !! ثم تكشف جُوَيْرِيَّة بنت أبي سفيان لزِيَاد عن شعرها وتقول له: «أنت أخي، أخبرني بذلك أبومريم !!» [مروج الذّهب ٣/ ٧، تاريخ مدينة دمشق ١٩/ ١٣١] ثم يقول زيادٌ عن أبيه الأوّل الّذي وُلِد على فراشه فبدّله بأبي سفيان، وكان عبداً رُوميّاً للحَرِث بن كَلَدَة الثَّقفي، يُدعى «عُبَيْداً»: وما كان عُبَيْدٌ إلاّ والداً مشكوراً ونزل!! .. وكان ذلك سنة ٤١ للهجرة على الأصحّ.

وعدَّ الناس حادثة الإستلحاق أعظم تهتُّك وقع في الإسلام عَلَنَاً.

قال ابن الأثير: وكان استلحاقُه أوَّل ما رُدَّت به أحكام الشَّريعة عَلانيةً، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قضى

⇦

الإسلام. وأخيراً فإنَّ الفتنة بمعناها الأعم، هي موهبة معاوية الّتي لا يغلبه عليها ألمعيٌّ قطّ.

وعلى هذه القاعدة، طَوَّر معاوية حزبه مع الحسن إلى الحرب بالفتن.

وكان إذ يُعَسْكِر بجيوشه على حدود العراق، لا يريد القتال، وإنّما يخاف المُبادءة

⇨

بالولد للفراش وللعاهر الحجر، وقضى معاوية بعكس ذلك، طبقاً لما كان العمل عليه قبل الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ سورة المائدة / ٥٠. انتهى بلفظه. [الكامل في التاريخ ٣/ ٤٤٥]

وعلم زيادٌ أنّ العرب لا تُقِرُّ له بالنَّسب الجديد لعلمهم بحقيقة حاله، وبالدَّواعي الّتي اقتضت استلحاقه، فعمل «كتاب المثالب» وألصق فيه بالعرب كُلَّ نقيصةٍ، فَدَلَّ بذلك أيضاً على شُعُوبيّتِه الهوجاء.

وقُضِيَ للكوفة أن يحكمها زيادٌ هذا ـ بعد هلاك حاكمها الأُمَوِيّ الأوّل المُغِيرَة بن شُعبَةَ الثَّقفيّ ـ فجعل منها جَحيماً يَسْتَعِر وزِلْزَالاً لا يستقرّ.

قال الطَّبريُّ (ج٦ ص١٢٣) [٤/ ١٦٣]: إنّ زياداً لما قَدِم الكوفة قال: قد جِئتُكُم في أمرٍ مَا طَلَبْتُه إلاّ لكم. قالوا: أدْعُنا إلى ما شئت. قال: تُلحِقُون نسبي بمعاوية. قالوا: أمّا بشهادة الزُّور فلا.

وهو أوّل من جُمِع له الكوفةُ والبصرةُ معاً، وأوّل من سِيرَ بين يديه بالحِراب، ومُشِي بين يديه بالعُمُد، واتّخذ الحرس. وكان يستخلف على البصرة عند غيابه «سَمُرَة بنَ جُنْدَب» وعلى الكوفة «عَمْرو بن حُرَيْث» ولما رجع إلى البصرة بعد سِتَّة أشهر وجد سَمُرَة قد قتل ثمانية آلاف من النّاس !! [تاريخ ابن الأثير ٣/ ٤٦٢،]. كُلّهم قد جمع القرآن [في تاريخ ابن الأثير ٣/ ٤٦١: سبعة وأربعين كلّهم قد جمع القرآن].

ومات زيادٌ سَنة ٥٣ هـ. وجاء المهديُّ العبَّاسيُّ سنة ١٥٩ هـ، فألغى هذا الإستلحاق، وأمر بإخراج آل زياد من ديوان قريش والعرب، وعاد زيادٌ إلى أبيه العبد الرُّومي مَرَّة أخرى!! (المؤلِّف ﵀)

أقول: لا يعود ابن زياد إلى أبيه ما لم تخلو الأرض من هواة بني أميّة ومن ينظّر لهم، مثل محمّد بن إسماعيل البخاري، ففي صحيحه ينسب ابن زياد إلى أبي سفيان بكلّ وقاحة، وكذلك ابن تيمية في كتبه، وغيرهما الكثير، وكأنّهم لم يقرؤا قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سورة الأحزاب / ٥.

من خصومه. ويَودُّ لو حاربهم في ميدانٍ غيرِ ميدان الجيوش.

ولم يَبُحْ بسرِّه هذا، إلاّ على أسلوب من المصانعة والتَّمويه، يتظاهر من ورائهما بالجُنوح إلى المصلحة والخوف على أمور النَّاس. فيقول حين ينظر إلى جيوش الفريقين في موقفه من الحسن بن عليٍّ عليهما السلام: إنْ قَتَلَ هؤُلاءِ هؤلاءِ، وهؤلاءِ هؤُلاءِ، مَنْ لي بأمور النَّاس[1]، ويقول: الأمر الكبير يدفعه الأمرُ الصَّغير[2].

وما يُدرينا، فلعلَّه اذ يتلكَّأ بهذا ونحوه، إنَّما يتلكَّأ لأنَّه يحذر نتائج حرب السِّلاح، فيما لو صدق العراق بالقراع. وليَكُن ـ على هذا الإحتمال ـ قد جهل موقف الكوفة في نفيرها مع الحسن وخيّل إليه من نتائج الدَّعاوة الشِّيعيَّة ما لم يكن.

وقد يكون معنى تَردُّدِه، أنَّه كان يرى اتِّقاء الفضيحة الَّتي لا يسترها عذرٌ أمام العالم الإسلامي، في محاربة سيِّدي شباب أهل الجنَّة، ابني بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وجهاً لوجه.

وقد يكون إنَّما أغراه باتِّخاذ هذه الوسيلة دون وسيلة السّلاح، كُتُبُ الخونة من رؤساء الكوفة وزُعماء قبائلها، يَعْرِضُون بها له السَّمع والطَّاعة، ويتبرَّعون له بالمواعيد، ويتَّخذون عنده الأيادي، ويستحثُّونه على المسير نحوهم، ويضمنون له تسليم الحسن عند دُنوِّهم من عسكره، أو الفتك به[3].

وكان من أبرع أساليب «الفتنة» أن يجمع معاويةُ كُلَّ ما ورد عليه من كُتُب هؤلاء، ثمَّ يدعو كُلاًّ من المُغِيرَة بن شُعْبة وعبدالله بن عَامر بن كُرَيْزٍ وعبد الرَّحمن بن

---

(١) ابن كثير (ج٨ ص١٧) [٦/ ٢٤٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: صحيح البخاري ٣/ ١٦٩، مستدرك الحاكم ٣/ ١٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٧١، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٤٨، وغيرها الكثير من المصادر.

(٢) المسعودي: هامش ابن الاثير (ج٦ ص٦٧) [مروج الذّهب ٣/ ٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) سبق ذكر المصادر في الفصل الثَّالث.

الحَكَم[1]، فَيوفِدُهم جميعاً بهذه الكُتُب كلِّها إلى الحسن[2] نفسه ليطّلع عليها، وليعرف نوايا أصحابها من متطوِّعة صفوفه، ثم ليكون من اللَّفتة البارعة مدخلٌ للمفاوضة في الصُّلح أو التفاهم على نِصفٍ من الأمر، فيما لو وجد هذا الوفدُ من جانب الحسن عليه السلام استعداداً لتفاهُمٍ أو صُلح.

وتفقَّد الحسنُ خطوط الكوفيين وتواقيعهم بشيءٍ من العناية والإمعان كما لو كان يعرف ـ قبل ذلك خُطُوطَهم وتواقيهم وتأكَّد صِحّة نسبة الكُتُب لأصحاب التواقيع، ولكنَّها لم تكن لتزيده مَعرفةً بأصحابها، ولم ير فيها جديداً لا يعهده من هذه الطَّبقة المعروفة بميولها وأهوائها وشذوذها الخُلُقِيِّ، الّذي جَرَّ عليه الشَّيء الكثير من المآسي والنّكبات في شتَّى مراحله منذ فاه بدعوة الجهاد.

ثم رجع بخطابه إلى الوفد الشَّامي، دقيقَ العبارة لا يَبُتُّ بأمر ولا ينكشف عن سِرٍّ، ولم يترك النَّصيحة للمغيرة ورفاقه، بالدَّعوة إلى الله عزَّ وجلّ، عن طريق نصرته وترك البغي عليه، وذكَّرهم بما هم مسؤولون عنه أمام الله ورسوله في حقِّه.

ولا نعلم ـ بعد ذلك ـ ولا فيما ترويه المصادر، أنَّه ذكر الصُّلح بنفيٍ أو إثبات.

ولكنَّا علمنا أنَّ المُغيرَةَ ورِفَاقه الّذين دخلوا معسكر المدائن حين أذن لهم بدخوله لعرض هذه الكتب على الإمام، لم يغادروا المعسكر حتى زرعوا في ميدانه أكبر فتنةٍ في النَّاس. فخرج الوفدُ العَدُوُّ ويستعرض في طريقه مضارب الجيش، وهو إذ ذاك هَدَفَ الأنظار في حركته، وهَدَفَ الأسماع في حديثه، فقال بعض أفراده لبعضٍ ـ وهم يرفعون من أصواتهم ليَسْمَعَهم النَّاس ـ : إنَّ الله قد حَقَن بابن رسول الله الدِّماء

---

(١) في الأصل: عبد الرَّحمن بن أمِّ الحكم.

(٢) يراجع اليعقوبي (ج٢ ص ١٩١) [٢/ ٢١٥]. (المؤلِّف رحمه الله).

وسكن الفتنة، وأجاب إلى الصُّلح[1].

وما كان حديثهم هذا إلاَّ الفتنة نفسها، ليَعْبُروا بها وبمثيلاتها من هذا الطِّرازِ، إلى انتزاع الصُّلح انتزاعاً.

وإذا هي الطَّعنة النَّجلاء، في ظروف مُولِّيَة كظروف المدائن بما كان قد لحقها من التَّبلبُل الذَّريع، في أعقاب الحوادث المؤسِفة في مُعَسْكَر «مَسْكِن».

وكانت أكثرية المدائن لا تزال مُلِحَّة على مباشرة الحرب، فهي لا ترى للصُّلح مكاناً، وكان يُخَيَّل إليها أنَّ في بقايا المجاهدين في مَسْكِن كِفايةً لمنازلة معاوية، وأنَّ في احتياطي المدائن ما يضمن لمَسْكِن القُوَّة على الصُّمود فيما لو ضَعُفت كفايتها. وربما كانوا أو كان فيهم، من لا يتخيّل شيئاً من ذلك، ولكنَّهم إنَّما يُلِحُّون على الحرب لأنَّهم: يُؤثِرون قتال معاوية بكلِّ حيلةٍ.[2] وتلك هي نَعرة الخوارج في جيش الحسن عليه السلام. وكيف يقول المُغِيرَة ورفاقُه: إنَّ الحسن أجاب إلى الصُّلح، إنَّها الكلمة الكافرةُ الَّتي لا يجوز الصَّبر عليها ـ برأيهم ـ.

وكان شغبٌ فئة كبيرة كالخوارج، مَدْعَاةً لزلزلةِ فئاتٍ أكثر عدداً ولا سيَّما من أغْرَارِ النَّاس المتأرجِحين بين الطَّاعة والعصيان، والمتأهِّبين للفتن والإضطرابات مع كلِّ ناعقٍ بها وفي كلِّ آن.

وجاءت الخطّة المدبَّرة الّتي أجاد حِياكتها الثَّالوث الشَّامي، فتنة عنيفة الأثر على مقدّرات المدائن، ناشزة على خُطَط التدبير.

ومن السَّهل أن نَفْطِن الآن ـ جازمين ـ إلى أنَّ أجوبة الحسن لهذا الوفد، لم تكن لتشتمل على ذكر الصُّلح أو الإستعداد له، لأنّه لو كان قد أجاب إليه كما أشاعه الوفد

---

(١) يراجع اليعقوبي (ج٢ ص ١٩١) [٢/ ٢١٥]. (المؤلِّف رحمه الله).

(٢) البحار (ج١٠ ص١١٠) [٤٤/ ٤٦] والإرشاد [٢/ ١٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

عند خروجه منه، لانتهى كلُّ شيء ولأغلق الموقف بين العراق والشَّام. فَلِمَ هذه الفتن إذاً؟. وهل هي إلاَّ من قبيل استعمال السِّلاح مع الصُّلح ؟ وهل معنى الصُّلح إلاَّ نزع السِّلاح؟

وعلى هذا، فلا تصريح بقبول الصُّلح من جانب الحسن قطعاً.

وإنما هي الفتنة، وهي سلاح الشَّام الأنكى.

وتَلوَّن معاوية في هذا السِّلاح تَلوُّناً مخيفاً جِدّاً، فعمد إلى سَلَّة أكاذيب، يختار مضامينها اختياراً دقيقاً، وينخُل أساليبها نخلاً فنيّاً، ثم يبعث بها إلى معسكرات الحسن، هنا وهناك.

«فكان يَدُسُّ إلى عسكر الحسن ـ في المدائن ـ من يتحدَّث: أنَّ قيس بن سعد ـ وهو قائد مَسْكِن بعد فرار ابن عبَّاس ـ قد صالح معاويةَ وصار معه».

«ويُوجِّه إلى عسكر قيس ـ في مَسْكِن ـ من يتحدَّث أنَّ الحسن قد صالح معاويةَ وأجابه»(١)

ثم ينشر في إشاعةٍ أخرى على معسكر المدائن: «ألا إنَّ قيس بن سعدٍ قَد قُتِلَ فَانْفِرُوا»(٢).

وما ظنُّك بأثَر هذه الشَّائعات في جيشٍ مثل جيش المدائن، وقد سبق له أنَّه عَلِمَ خيانة قائد سابق لم يكن أهلاً للخيانة، فَلِمَ لا يُصدِّق خيانة الثَّاني، أو الخبر بقتله ؟

وفي مَسْكِن مثلُ ما في المدائن من مآسٍ ودفائن وقوافل تنزع إلى الفرار، وعملاء

(١) اليعقوبي (ج٢ ص١٩١) [٢/ ٢١٤]. (المؤلِّف ﵀)

(٢) ابن الأثير (ج٣ ص١٦١) [٣/ ٤٠٤]، والطَّبري (ج٦ ص٩٢) [٤/ ١٢٢]، وابن كثير (ج٨ ص١٤) [البداية والنهاية ٨/ ١٦] والدَّميري في حياة الحيوان (ص٥٧) [١/ ٨٨]. (المؤلِّف ﵀)

أيضاً: تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٦٢، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٤.

لا يفتأون يبعثون الفتن ويبثّون أفظع الأخبار.

وهكذا بلغ معاوية «بِفِتَنِه» ما أراد، وبات الجيشان كلاهما طُعمَةَ الإضطرابات والحوادث المؤسِفة الّتي لا تناسب ساحة قتال.

وما مُنِي الإسلام مُنْذُ ضَرب بِجِرَانِه على جزيرة العرب، بأفظع من هذه النَّكبة الّتي يترنّح بها موقفُ الخلافة الإسلامية، بين تثاقُلِ الجنود، وتخاذل الزُّعماء وخيانة القائد، وفتنِ العدوِّ!

إنَّها الظُّروف القاهرة الّتي بدأت تُنْذِر بأكداسٍ من الخطوب والنَّكَبات والَّتي ستجرُّ حَتماً إلى نهاية تاريخ قصير، كان أنصع وأروع صفحات التّاريخ الإسلاميّ، وأبعدها ارتفاعاً في المجد، وأقربها أسباباً إلى الفخر.

إنَّها الكارثة الّتي تُؤذِنُ باللَّحظة المشؤومة في تاريخ الإسلام، اللَّحظة القائمة على عمليَّة الفصل بين العهدين، عهد الخلافة بمميِّزاتها ومثاليّتها، وعهد «المُلْك العَضُوض»(١) وبلائه المقدَّر المفروض.

وكان الحسن عليه السلام، أعرفَ النَّاس بِقِيَم هذه المعنويَّات المهدَّدة وأحرصَ المسلمين على حفظ الإسلام، والرَّجل الحديديّ الّذي لا تزيده النَّكَبات المحيطة به، إلاَّ لمعاناً في الإخلاص، واتِّقاداً في الرَّأي، واستبسالاً في تلبية الواجب، وتفادياً للمبدأ.

ولم يكن لتَسَاوُره الحيرة، على كَثرة ما كان في موقفه من البواعث عليها، ولا

---

(١) قال الدَّمِيرِيُّ (ج١ ص٥٨) [حَيَاة الحَيَوَان ١/ ٩٠] وبعد أن ذكر خلافة الحسن عليه السلام وأحصى أيامها: «وهي تكملة ما ذكره رسول الله صلَّى الله عليه وَسلَّم من مدَّة الخلافة، ثم تكون مُلكاً عضوضاً ثم تكون جبروتاً وفساداً في الأرض، وكان كما قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم.». (المؤلِّف رحمه الله)

وجد في صدره حَرَجاً[1] ولا تَلَوُّماً ولا نَدَماً، ولكنَّه وقف ليختار الرَّأي، و ليَرسِمَ الخُطَّة، وليتَّخذ التَّدابير.

وكان لابدَّ لاصطفاء الرَّأي، من دراسة سائر الآراء. وذلك ما نريد أن نُسمِّيه: «مَوْقِف الحَيْرَة».

(١) قال ابن كثير (ج٨ ص١٩) [البداية والنهاية ٨/ ٢١]: وهو ـ يعني الحسن عليه السلام ـ في ذلك، الإمام البارُّ الرَّاشِدُ المَمْدوح، وليس يجِدُ في صدره حَرَجاً ولا تَلوُّماً ولا نَدَماً بل هو راضٍ بذلك، مُستبشرٌ به. (المؤلِّف رحمه الله)

مَوْقِفُ الحيْرَةِ

وانصرف إلى التَّفكير، فما كان ليغيبَ عنه ما يُهدِّد موقفه من عبءٍ، بعضُه فجيعةٌ. وبعضُه هوانٌ، وبعضُه موتٌ لا يشبه موت العظماء.

ولم تكن الحَيرةُ عنده بالغةَ الغَور، ولكنَّها كانت بالغةَ الأسى مشبوبةَ الأحاسيس، تخُزُّه وَخزَ الشَّوك الملتهب، وتَسْتَفِزُّه بإلْحاحٍ إلى اختراع المَخْرَج الّذي لا يُسَاوِرُه الهوان، ولا يخضع للفجيعة، ولا هو من الموت المغتصب، الّذي تَرْبَأ عن مطارحته الذِّكريات الكريمة.

وكلُّ ما كانت تحتفل به اللَّحظة القائمة بين يديه، هو اللَّجَاجَةُ اللاَّغِبة[1]، والشَّائعات الكاذبة، والإندفاع في تَيَّار الفوضى الرَّهيب.

والحسن بين هذه الهزاهز، الجبل الَّذي لا تُزَعْزِعُه العواصف، والإمام البَرُّ الّذي لا يَغِيظُه جهل الجاهلين عليه، ولا يُحفِّظه سخط النَّاقمين منه، ووقف غير عابئٍ بما يدور حوله، ولكن ليستقرئ الخُطَطَ فيضع خطَّته، وليستعرض الآراء فيبتّ برأيه.

وليس بمقدورنا الآن أنْ نقرأ ـ بتفصيل ـ الأفكار الّتي كانت تحت سيطرته ساعة إذٍ، أو كان هو تحت سيطرتها، ولكنَّها ـ بالإجمال ـ لم تكن لتعدو «ما يريده اللهُ وما يُؤثَر عن رسول الله وما يجب لصيانة المبدأ».

أمّا ما يقوله النَّاس، فلم يكن ممَّا يعنيه كثيراً.

---

(١) من «اللُّغُوب» وهو التَّعَبُ والإعياء، أنظر: لسان العرب ١/ ٧٤٢، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ سورة ق / ٣٨.

ولنتذّكر دائماً، أنّه الإمامُ الرُّوحيُّ، الّذي لا يريد الحياة بين الناس إلاّ بمقدار ما تكون الحياة بَذْلَةً في سبيل الله، ووسيلة للنَّفع العام ومثلاً يُحتذى في الإصلاح ونشر الإحسان. فما قيمة ما يقول النَّاس إلى جنب هذه المعنويّات المُمْعِنة(١) في اتجاهها إلى الله.

والإمام بصفته الرُّوحية الّتي يقود بها الغير إلى الخير، لايهجس أبداً بغير هذا النَّوع من التَّفكير، ولا ينصرف بخلجاته ومشاعره وعواطفه إلى غير الله، وسيرة النبيِّ صلى الله عليه وآله، والمبدأ الصَّحيح.

لذلك لم تكن الحيرة عنده ـ كما قلنا ـ بالغةَ الغَور، لأنَّ طريق الله لاحِبٌ، وأسوة رسول الله واضحة، ولكنَّها كانت حيرةً مَرِيرَةَ المذاق.

وكم من المُزعِج أن يُساق الإنسان من ظروفه، ومن حيثُ لا يَدَ له، إلى وضعٍ لا يُسيغُه طبعٌ، تصطلح عليه الأزمات، ثم لا يفتأ يقوم من نفسه على عُقَدٍ لا تنقطع إلاّ لتتَّصل. ذلك هو الوضع «الشَّاذ» الّذي لايعهد إلاّ مع الحيرة، ولا يَطَّرد في نوازعه إلاّ مع القلق، ولا تكون النَّفس معه إلاّ بين الإقدام والإحجام واليأس والرَّجاء. وللنَّفس ـ مع هذا الوضع ـ حاجتها القُصوى إلى التأمُّل والتفكير، وإلى الكلاءة والتَّثبيت. وللضمير ـ مع هذا الوضع ـ موقفُه الدَّقيق الّذي تتفاوت فيه معادن النَّاس.

وأيُّ نفس كانت هي تلك النَّفس، وأيُّ ضمير كان هو ذلك الضمير؟!! إنَّها النَّفس المطمئنةُ الّتي ترجع عند كلِّ هولٍ يَعصِف بها إلى ربِّها راضيةً مرضيةً، لا تستكفي بغيره، ولا تسترشد بسواه. وإنَّه الضمير الطّاهر النّقيُّ، الّذي لم يضعف على ثقل الواجب وإنَّما كان ـ على كلِّ حالٍ ـ أصلب من الكارثة. ولم نسمع عن الحسن أنّ أحداً ممن حوله شعر عليه في لحظات مرزأته، أنه المرزأ في دخيلته أو الممتحن في موقفه،

(١) «المُمْعِنَة»: من الإمعان.

اذ لا حزن ولا انكسار، وإنما كلُّ ظاهراته ثبات وعزم وإستقرار، و حتى في مناجاته لربّه فإنه كان مثال الصَّبر واللَّجأ إلى الله والإستكفاء به من دون النَّاس.

وكان من دعائه عليه السلام: «**اللَّهُمَّ يَاذَا القُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ يَا عَلِيَّ المَكَانِ، كَيْفَ أَخَافُ وَأَنْتَ أَمَلِي، وَكَيْفَ أَخْشَى وَعَلَيْكَ تَوَكُّلِي. أَفْرِغْ عَلَيَّ مِنْ صَبْرِكَ، وَأَظْهِرْنِي عَلَى أَعْدَائِي بِأَمْرِكَ، وَأَيِّدْنِي بِنَصْرِكَ. إِلَيْكَ اللَّجَأُ، وَبِكَ المُلْتَجَأُ، فَاجْعَلْ لِي مِنْ أَمْرِي فَرَجاً وَمَخْرَجاً. يَا كَافِيَ أَهْلِ الحَرَمِ مِنْ أَصْحَابِ الفِيلِ، وَالمُرْسِلُ عَلَيْهِمْ طَيْرَاً أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، إِرْمِ مَنْ عَادَانِي بِالتَّنْكِيلِ!**».[1]

والْتَمَعَتْ[2] على جوانب فِكَرِه اليائسة، وفي زوايا تأمُّلاته العابسه، إشعاعةٌ من الأمل، كانت جواب دعائه إلى الله عزَّ وجلّ، ففاحت ذَكِيَّةُ العُرْفِ، ولاحت مضواءة الملامح، كأنها نُذُر البشارة.

وكانت مُفاجَأة غريبة أغلقت في وجهه هموم حاضره كلِّها، فإذا هو بين طوفان من الذِّكريات الّتي لا تمُتّ إلى ظرفه ولا تتَّصل بأرزاء لحظته. ذكريات تشيع فيها اللَّذة وتجد فيها النَّفس ألواناً من الإمتاع والمؤانسة.

وللنَّفس إذا أفرط بها الألم وأرهقها الفكر والصَّمت العميق، انتفاضتها المباركة الّتي تفرُّ بها من الضِّيق إلى السَّعة، ومن اليأس إلى الرَّجاء، ومن الحيرة إلى الدّلالة المليئة بالآمال.

---

(١) المصباح للشَّيخ الكفعمي رحمه الله / ٢١٥. عنه بحار الأنوار ٩١/ ٣٧٣.

(٢) من «اللَّمَعَان» أي : أضاءَت.

إنَّه لَيُفكِّر لحاضره من هذه المزعجات، ولمستقبله من هذا العَدُوّ المستهتر بالمقدَّسات، وإنَّه ليظنّ «بأنَّه لو وضع يده في يده فسالمه لم يتركه أنْ يَدين لدين جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

أمّا هذه المفاجأة الجديدة، فقد رجعت به إلى ثُلُثِ قرنٍ مضى وحواليه فإذا هو بين مَنازل النُّبوَّة تتجاذبه، ومَهابط الوحي تتلاقفه، وحَلَقَات المهاجرين والأنصار تحتفل به.

رؤىً تملك الحِسَّ وأحلام لذيذة تؤاسي الجراح.

هذا جدُّه الأعظم، وهذا سلطان نبوَّته في قومه، وهذه نجوم الآي الكريمة تتنزَّل بين الفَيْنَةِ والفيْنَة. كأنها بريد السَّماء إلى الأرض ولا تتنزَّل إلاَّ في بيته، وهذا أبوه، وزير النبيِّ والمجاهد الأكبر الّذي أخضع صناديد العرب لكلمات الله، كأنَّه يرجع الآن وقد فتح حصن خيبر، وهذه أمُّهُ الطَّاهرة البتول، الّتي باهل بها الرَّسولُ فكانت بحقٍّ سيِّدةَ نساء العالمين.

وإذا لم يكن شيءٌ ممَّا يراه الآن، واقعاً خارجيّاً، فليكن بحقيقته واقعاً نفسيّاً، جلاه لناظره تيّار رُوحيٌّ لا ينقطع بروحه عن هذا الجد وهذين الأبوين، كما كان لا ينقطع عنهم بجسمه ـ في الواقع الخارجي ـ يوم ألّف الله وفده لمباهلة نصارى نجران، فكان الوفد هو الحسنَ وجدَّه و أباه وأمَّه وأخاه، ويوم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالكساء فلفَّه على الصَّفوة المختارة (أصحاب الكساء الخمسة) فكانوا (الحسنين وأبويها وجدَّهما الأعظم)، يوم نزلت آية التطهير ففسَّرها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بالخمسة الميامين عليهم السلام. خصائصٌ من العظمة لا يشاركهم فيها أحدٌ في الإسلام.

---

(١) من كلمات الحسن نفسه كما يرويها البحار (ج١٠ ص١٠٧) [٤٤/ ٣٣، عن علل الشرائع ١/ ٢٢١]. (المؤلِّف رحمه الله)

وتراءت له من وراء أفقه الحزين، صور ممتعةٌ من طفولته المباركة وصِباه الباكر الكريم، فتطلّع منها إلى أيّامه البيض الحافلة بالنُّور في المدينة المنوَّرة، يوم كان يَدْرُج فيها بموقعه الممتاز، ومقامه المدلَّل المرموق بين أقرانه وأترابه، و يوم كان يلعب ويمرح فيها، ولكن بين سواعد أبويه العظيمين وعلى صدر جدِّه الأعظم أو على ظهره المقدَّس أو على أعواد منبره الشَّريف، ويوم كان يتلقّف الوحي منذ لحظاته الأولى، ويتعلّم كلمات الله من لسان نبيّ الله ﷺ، ويتخرَّج بعلمه على مصدر العلم، ويضع النُّقاط على الحروف ليستقبل سيادته على النَّاس، وإمامته المفروضة في أعناق المسلمين. وإنّه ليستمع إلى جدِّه حين كان يراود النَّاس في كلِّ مناسبة على الإعتراف له ـ بلسان أشبه بمباهاة ـ كُلَّما ذكر ابنه الحسن للسِّيادة و الإمامة. و طالما ذكره لهما في حديثه أو ذكرهما له.

كانت عهوداً مُفعَمَةً بروح العظمة وبعظمة الرُّوح، جديرة بأن تهيب بالحسن فيتذكَّر منها أطيب الذِّكريات، وأحفلها بالغبطة والقُوَّة والمكرُمَات.

وكانت الذِّكرى الأخَّاذة الّتي تمكَّنت بسلطانها من نفسه حتى انتزعت منه ابتسامته الملذوذة غير مظنون الإبتسام في ظرفه. أنّه رأى جدَّه رسول الله ﷺ كأنَّه ينتزعه الآن من عاتق أمِّه فيأخذه بيده ويوقفه على قدميه المباركتين، ثمَّ لا يزال يُبَاغِمُهُ[1] بأنشودته المقدَّسة: «**حُزُقَّةٌ حُزُقَّهْ، تَرَقَّ عَينَ بَقَّهْ**»[2] فيرقى بقدميه الصَّغيرتين

(١) «باغَمَهُ مُباغَمَةً» : إذا حادَثَهُ بِصَوْتٍ رَخِيم. تاج العروس ١٦/ ٥٦.

(٢) قال ابنُ الأَثِير: ذَكَرَها له على سَبيل المُداعَبَة والتأنيس له، وتَرَقَّ: بمَعنى اصعَد، وعَيْن بَقَّه: كنايةٌ عن صِغَر العَين، وحُزُقَّة مرفوع على خَبر مبتدأ مَحذوف، تَقديرُه: أَنْتَ حُزُقَّة، وحُزُقَةٌ الثّانِي كذلك، أو أَنَّه خبرٌ مكرَّرٌ، ومن لم يُنَوِّنْ حُزُقَّة أَراد يا حُزُقَّةَ، فحَذَف حرف النِّداء، وهو في الشُّذوذ كقولهم: أَطْرِق كَرا، لأنَّ حرف النِّداء إِنَّما يُحذَفُ من العَلَم المَضمُوم، أَو المُضاف. النّهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٧٨.

مُتَدرِّجاً حتى يضعهما على صدر جدِّه العظيم، ويفتح فاه، إذ يقول له: «افْتَحْ فَاكَ»، فيقبِّله بفيه، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّي أحِبُّهُ فَأحِبَّهُ وَأحِبَّ مَنْ أحَبَّهُ.**»(١)

ثم كانت هذه الذِّكرى مفتاح ذكريات كان من حقِّها أن تُؤنسه وأن تُنسيه مُزعجات لحظته الأخيرة، و إنَّ أسطع فترة في حياة كلِّ إنسان هي فتره طفولته البريئة بما يعمُرُها من الرَّوابط المقدَّسة ـ بينه وبين الأحضان الّتي يلجأ إليها، وبينه وبين المجتمع الّذي يعيش فيه ـ. وإنَّ ذكريات تلك الفترة من حياة أيِّ إنسانٍ تبقى خالدةً في رأسه وفي قلبه وفي روحه ولا يمكن نسيانها أبداً.

فَذَكَر مَرَّةً جَدَّه رسول الله صلى الله عليه وآله وقد وضعه على منكبه الأيمن، ووضع أخاه الحسين على منكبه الأيسر، فاستقبله أبوبكر فقال لهما: نِعْمَ المركب ركبتما يا غلامان، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**وَنِعْمَ الرَّاكِبَانِ هُمَا، إنَّ هَذَيْنِ الغُلامَينِ رَيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيا!**».(٢)

---

(١) الزَّمخشري [في الفايق في غريب الحديث ١/ ٢٤٢] وابن البيِّع [المستدرك ٣/ ١٧٧ـ١٧٨] والطَّبراني [في المعجم الكبير ٣/ ٥٠] وينابيع المودة [٢/ ٤٠] والإصابة (ج٢ ص١٢) [٢/ ٦٢] وغيرها. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: مجمع الزّوائد ٩/ ١٧٦، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ١٩٤، النّهاية لابن أثير ١/ ٣٧٨.

(٢) كتاب سليم بن قيس [/ ٢٧٥]، والبيهقي في المحاسن والمساويء (ص٤٩) [/ ٦٧] وروى الأخير قول الحِمْيَري في نظمه الحديث:

أتى حَسناً والحُسينَ الرَّسولُ ... وَقَدْ بَرزَا ضَحْوَةً يَلْعَبَانِ

فَضَمَّهُمَا وَتَفَدَّاهُمَا ... وَكَانَا لَديْهِ بِذَاكَ المَكَانِ

وَمَرَّا وَتَحْتَهُمَا عَاتِقَاهُ ... فَنِعْمَ المَطِيَّةُ وَالرَّاكِبَانِ

(المؤلِّف رحمه الله)

وفي مصادر أخرى دون أن تذكر اسم أبي بكر، أنظر: سنن الترمذي ٥/ ٣٢٧، ومستدرك الحاكم ٣/ ١٧٠، الكامل لابن عدي ٣/ ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢١٧، أسد الغابة ٢/ ١٢، سير أعلام النُّبلاء ٣/ ٢٥٧، البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ٤٠، والقضية ذكرها البعض بصور ⇦

وذكر يوم جثا جدُّه وأركبه على ظهره، وأركب معه أخاه الحسين، وقال لهما: «**نِعْمَ الجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ العَدْلانِ أَنْتُمَا**».[1]

وذكر مرّةً أخرى يوم جاء وجدُّه ساجد فركب رقبته وهو في صلاته[2]. و يوم جاء وجدُّه راكعٌ، فأفرج له بين رجليه حتى خرج من الجانب الآخر[3]. ويوم قيل لجدِّه: يا رسول الله إنَّك تصنع بهذا ـ يعني الحسن ـ شيئاً لم تصنعه بأحد؟، فقال: «**إِنَّ هَذَا رَيْحَانَتِي، وَإِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ سَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**».[4]

⇦

تختلف عن هذه ممّا يشعر أنّ الحادثة متكرّرة.

(١) الإبانة لابن بطة. (المؤلِّف)

هذا الحديث في الأجزاء الأخيرة المفقودة من كتاب الإبانة، والمطبوع منه إلى الآن الجزء ١ وحتّى الجزء ١٤ ـ بحسب أجزاء المؤلِّف ـ ثمّ ٢٧ و٢٨ وما بعد هذين الجزئين وما قبلهما لا يزال مفقوداً. والظّاهر أن المؤلِّف اعتمد على نقل ابن شهر آشوب في المناقب ٣/ ١٥٨. والحديث مرويٌّ أيضاً في: المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٥٢، مجمع الزّوائد للهيثمي ٩/ ١٨٢، طبقات المحدثين بأصبهان لابن حبان ٣/ ٣٧٤، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢١٦ـ٢١٧، سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٥٦.

(٢) الحلية لأبي نعيم [٢/ ٣٥]. (المؤلِّف)

أنظر أيضاً: تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ١٧٦، تهذيب الكمال للمزي ٦/ ٢٢٥، الإصابة لابن حجر ٢/ ٦٢، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٥٧.

(٣) الاصابة (ج٢ ص١١) [٢/ ٦٢]. (المؤلِّف)

(٤) الحلية [٢/ ٣٥] (المؤلِّف)

أقول: ورد هذا الحديث في جلّ المصادر الحديثيّة المعتبرة عند أهل السنّة، بألفاظ قريبة، وتنتهي أكثر طرقه إلى الحسن البصري عن أبي بكرة أنّه قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن ابن عليّ إلى جنبه وهو يُقبل على الناس مرّة وعليه أخرى ويقول: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**» أنظر: صحيح البخاري ٣/ ١٧٠، مسند أحمد ٥/ ٤٩، المستدرك للحاكم ٣/ ١٧٥، المصنّف للصنعاني ١١/ ٤٥٢، السّنن الكبرى للنّسائي ٥/ ٤٩، تهذيب التهذيب لابن

⇨

⇦

حجر ٢/ ٢٥٨، تاريخ بغداد للخطيب ١٣/ ١٩.

الفِقْرَة الأولى منه حقّ، دلّت عليها روايات صحيحة أخرى، وأمّا الفِقْرَة الثّانيّة من الحديث أي: «**سَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» فهي لا تثبت، لأنّ سند الحديث باطل لوجوه:

أوّلها: بعد الفحص عن طرق هذا الحديث تبيّن أنّ أكثرها ـ كما أسلفنا ـ تنتهي إلى أبي بكرة نُفَيْع بن الحارث أخي زياد بن أبيه من أمّه سميّة، ويرويه عنه الحسن البصري، وأبو بكرة هذا جلده عمر بن الخطاب حدَّ القذف فيمن جلد في قصّة الشهادة على زنا المغيرة بن شعبة بعد ردّ شهادتهم، إلاّ أنّ أبا بكرة لم يتراجع عن رأيه بزنا المغيرة ، والمعلوم من ضرورة الشّرع أنّ القاذف الذي لم يأت بأربعة شهداء يُجلد فتسقط شهادته مطلقاً حتّى يتوب ويُصلح قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [سورة النُور / ٤ـ٥] فكيف صحّ أخذ الحديث عنه وهو فاسق حسب الآية الشريفة؟

ولا يقال: أنّ رواية الحسن البصري عنه قد تكون قبل قصّة زنا المغيرة، لأنّا نقول: إنَّ الحسن ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر في المدينة.

ولا يخفى أن كلامنا هذا يجري مجرى الإحتجاج على المخالف الّذي يعتمد على ما في الصّحيحين، ويرى صحّة كلِّ حديث وخبر ضمّتها دفّتاه.

ثانيها: ما صرّح به بعض المحدِّثين أنَّ الحسن لم يسمع من أبي بكرة، وضعَّف الدَّارقطني سماع الحسن من أبي بكرة قال: أخرج البخاري أحاديث للحسن عن أبي بكرة منها حديث: «**زَادَكَ اللهُ حِرْصاً وَلا تَعُدْ**» والحسن إنما يروي عن الأحنف بن قيس عن أبي بكرة يعنى فيكون الحديث منقطعاً. أنظر: مقدمة فتح الباري لابن حجر / ٣٥٠.

ثالثها: أبو بكرة هذا كان من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام وممّن امتنع عن بيعته بعد قتل عثمان وكان يثبِّط النّاس عن بيعته ونصرته في أيام خلافته فعن الحسن، عن الأحنف، قال: بايعت علياً رضي الله عنه، فرآني أبو بكرة وأنا متقلِّد السّيف، فقال: ما هذا يا ابن أخي؟ قلت: بايعت علياً. قال: لا تفعل، إنهم يقتتلون على الدّنيا، وإنما أخذوها بغير مشورة. كتاب الفتن لابن حمّاد / ٩٧، سير أعلام النبلاء ٣/ ٨.

وأيضاً عن الحسن عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرّجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يعنى علياً، قال: فقال لي: يا أحنف ارجع، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول: «**إِذَا تَوَاجَهَ**

⇦

وذكر رُكُوبه على رقبة جدِّه ﷺ وهو يخطب في مسجده، حتى لقد كان يُرى بريق خلخاليه من أقصى المسجد، وهما يلمعان على صدر جدِّه العظيم، ثم لا يزال كذلك حتى يفرغ النبيُّ من خطبته[1].

وذكر نزول جدِّه رسول الله ﷺ من على منبره فَزِعاً وكان هو قد عثر عند باب

⇨

المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّار» قال: فقلت: ـ أو قيل ـ يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ قَدْ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ» صحيح مسلم ٨/ ١٧٠، صحيح البخاري ١/ ١٣، مسند احمد ٥/ ٤٧. فمن كان معلوم النَّصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام فهو متّهم في ما يرويه بشأنهم عليهم السلام.

رابعها: الحسن البصري، وحاله معلوم وبغضه وعداؤه لأمير المؤمنين عليه السلام غير خاف على أحد.

هذا وقد روى النّسائي في أكثر من كتاب الحديث بالإسناد عن خالد قال: حدّثنا أشعث عن الحسن عن بعض أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم يعني أنساً قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يخطب والحسن بن علي على فخذه... .

وغير خفي أنّ عبارة: «يعني أنساً» في الرِّواية هي من اجتهاد الأشعث، وليس من النّسائي كما ظنّه البعض بدليل أنَّ الحديث بهذا الشكل رواه غير النسائي وفيه الزّيادة عينها أنظر: الأحاديث المختارة لضياء المقدسي ٦/ ١٠٩، ورواه النّسائي بأكثر من طريق كلّها تنتهي إلى الأشعث عن الحسن، وهو قد أرسل الرّواية عن بعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فكيف يجزم الأشعث بأنَّ هذا البعض هو أنسٌ ؟ فإذا لم يعلم من هو هذا البعض يكون حكمها حكم الطّرق الكثيرة المنتهية إلى أبي بكرة بالقياس .

وهناك مصادر ضعيفة أوردت طرقاً أخرى للحديث تنتهي إلى جابر الأنصاري لا تخلو جميعاً من ضعف.

أضف إلى ذلك أنّ الإمام عليه السلام حرص على حقن دم أصحابه وشيعته وأمّا أصحاب معاوية فهم أهل بغي كما كانوا على عهد أمير المؤمنين عليه السلام يدعون إلى النّار .

(١) البحار (ج٦ ص٥٨) [٤٣/ ٢٠٥، عن علل الشرائع ١/ ١٨٩]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: قبول هذا الخبر صعب، والسَّند ضعيف.

المسجد، فحمله وأخذه معه إلى منبره، ثم قال: «**أيُّهَا النَّاسُ مَا الوَلَدُ إلاّ فِتْنَةٌ**»(١).

وذكر جدَّه وهو يقول له غير مرَّةٍ: «**أشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**»(٢).

وذكر يوم استيقظ من نومه، فاذا جدُّه وأمّه يتحدَّثان، فأقبل على جدِّه قائلاً: «**يَا جَدَّاهُ اسْقِنِي**»، فأخذه جدُّه وقام إلى لِقْحَةٍ(٣) كانت له، فاحتلبها ثم جاء بالعُلبة(٤) وعلى اللَّبن رَغوةٌ، ليُناوله الحسن، فاستيقظ الحسين فقال: «**يَا أبَتِ اسْقِنِي**»، فقال له: «**يَابُنَيَّ أخُوكَ أكْبَرُ مِنْكَ، وَقَدْ اسْتَسْقَانِي قَبْلَكَ**»(٥).

وذكر يوم كان طِفلاً بين يدي أمِّه فاطمة عليها السلام، ودخل عليها أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله، ورآه يلعب، فقال لها: «**إنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُصْلِحُ عَلَى يَدَي ابْنِكِ هَذَا، بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**»(٦).

---

(١) المناقب [لابن شهر آشوب ٣/ ١٥٦] والتِّرمذي [٥/ ٣٢٤] والسَّمعاني [في التفسير ٥/ ٤٥٤] وفضائل أحمد [٥/ ٣٥٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً: المصنّف لابن أبي شيبة ٧/ ٥١٣، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢١٥، المعجم الكبير للطبراني ٣/ ٤٢، صحيح ابن خزيمة ٢/ ٣٥٥، وغيرها من مصادر العامّة، وعلّق المفسِّر السّيد الطباطبائي رحمه الله مستنكراً على هذه الرّوايات فقال: والرِّواية لا تخلو من شئ وأنّى تَنَال الفتنة من النبيِّ صلى الله عليه وآله وهو سيِّد الأنبياء المخلَصين، معصومٌ مؤيّدٌ بروح القُدُس. تفسير الميزان ١٩/ ٣١٠.

(٢) الغزالي والمكي في الإحياء [إحياء علوم الدِّين ٤/ ١١١]، وقوت القلوب [٢/ ٤١٢] [وكذا بحار الأنوار ٤٣/ ٢٩٤، المناقب لابن شهر آشوب ٣/ ١٨٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) النَّاقة الكثيرة اللَّبن. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) «العُلبَة» بضم أوَّله: إناء من جلد أو خشب. (المؤلِّف رحمه الله)

(٥) كتاب سليم بن قيس (ص٩٨) [بتحقيق الأنصاري / ٢٧٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

ورواه أيضاً: الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٤٠٦، والهيثمي في مجمع الزّوائد ٩/ ١٧١.

(٦) العِقد الفريد (ج١ ص١٩٤) [١/ ٣٢٠] والبيهقيُّ (ج١ ص٤٠) [/ ٥٥]، والبخاريُّ [الجامع الصّحيح ٣/ ١٧٠] والخطيب [تاريخ بغداد ١٣/ ١٨ـ١٩] والسَّمعاني [التّفسير ٤/ ٢٩٠]

⇦

وذكر من ملامح سلطانه في صِباه، يوم جاء إلى أبي بكر وهو على منبر جدِّه رسول الله ﷺ، فقال له: «**إِنْزِلْ عَنْ مَجْلِسِ أَبِي!**»(١).

وذكر جدَّه وقد أخذه معه إلى منبره، فهو يُقْبِل على النَّاس مَرَّةً، وعليه مَرَّة، ويقول: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهُ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(٢).

وكانت مناظر وجدان مؤثرة في الحسن، وذكريات تاريخ ملذوذة في النَّفس بدّلت من وحشة اللّحظة، وخففت من عرامة الخطب، وكانت كلّ ذكرى تثير ذكريات، وكلّ منظر يمرّ يوقظ مناظر أخريات.

وإنه ليطمئن إلى قول جدِّه ﷺ، كما يطمئن إلى محكم التنزيل. وها هو ذا جدُّه العظيم يقول له، وكان صوته الشريف يرنّ بعذوبته المحببة في أذنه، ويقول لأمِّه الطاهرة البتول، ويقول على منبره، ويقول بين أصحابه، و يقول ما لا يحصى كثرةً: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»(٣).

ويرجع الحسن إلى نفسه فيقول:

⇨

والحركوشي والجنابذى وابو نعيم في الحلية [٢/ ٣٥] وينابيع المودَّة [٢/ ٣٦] ومروج الذهب [٢/ ٤٣٠] وغيرها. (المؤلِّف ﷺ)

(١) الصّواعق المحرقة (ص١٠٥) [/ ١٠٥] وأخرجه الدّار قطني [٢/ ١٢٥، إلاَّ أنَّ فيه الحسين بن علي عليه السلام والّذي على المنبر عمر]. (المؤلِّف ﷺ)

أيضاً: تاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٠٧، السيرة الحلبية ١/ ٤٤٢،

(٢) البخاري [٣/ ١٧٠] ومسلم [غير موجود فيه] والإصابة (ج٢ ص١٢) [١/ ٦٤]. (المؤلِّف ﷺ)

أقول: تقدَّم الكلام في هذا الحديث بالتّفصيل، وأنَّ الفقرة الثّانية منه مختلقةٌ.

(٣) أقول: كيف يكون الحديث صادراً عنه ﷺ بما لا يُحصى كثرةً والحال أنّ جُلَّ طرقه تنتهي إلى أبي بكرة! وهذا سهوٌ منه قدّس الله نفسه، فالجواد قد يكبو.

ترى، هل أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن أصالح اليوم أهل الشَّام ؟.

وهل أهل الشَّام البُغاة، فئةٌ مسلمةٌ يصحُّ أن يعنيها هذا الحديث ؟.

وهل هذه هي الفتنة الّتي أرادني رسول الله صلى الله عليه وآله لإصلاحها ؟. أو قد فقدنا الكفاية لقمعها من طريق القُوَّة ؟.

كلُّ ذلك كان يُراود الحسن، فيثير في نفسه تَفاعُلاً عنيفاً ،يُنذِر بانقلاب تاريخ، وكلُّ هذه الأسئلة كانت تنتظر الجواب من الحسن استعداداً للمصير الأخير.

وبعثت هذه الذِّكريات بما فيها التَّوجيه النّبويُّ الّذي استشعر منه الحسن حماية جدِّه له في أحرج ساعاته، فكرة الإنقاذ للموقف، فيما لو أتيح لهذه الأسئلة أجوبتها المطابقة لمقتضى الحال.

ـ نعم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال ذلك يقيناً دون شكٍّ.

وإنَّ هذه الفتنة هي الفتنة الّتي عناها فيما لوَّح إليه في أحاديثه الشَّريفة، ولا فتنة أعظم من فتنة تشقُّ المسلمين انشقاقهم هذا، فَتُلهيهم عما يُراد بهم أعدائهم الواقفين لهم بالمرصاد(١)، وعمّا يراد منهم من إعمار وتنظيم وجهاد.

وأمّا الحكم على البُغاة بحصانة الإسلام، فهو ما يشير إليه موقف أمير المؤمنين عليه السلام منهم، حين منع سَبْيَ نسائهم وذراريهم، وكفى بسيرة أمير المؤمنين أسوةً صالحةً وقدوةً في الدِّين راجحة.

وأمّا السّؤال عن الكفاية لقمع هذه الفتنة بالقُوَّة، وهو الحُلم اللَّذيذ الّذي هتف به الشِّيعة المتحمِّسون بالكوفة إبّان النَّهضة للجهاد.

فالجواب عليه، يتوقّف على دراسة الموقف من ناحيتيه المعنويَّة والعَدَديّة معاً،

---

(١) إشارة إلى محاولات البيزنطيين عند ثغور الشَّام سنة ٤٠ هـ. (المؤلِّف رحمه الله)

وذلك باستعراض الإمكانيَّات الحاضرة على حقيقتها. والمعنويَّات في الجيوش هي رمز القُوَّة الّتي تُدَّخر لربح الوقائع، وهي أهمّ بكثيرٍ من تصاعد الأعداد الّتي لا تُعزِّزها الرُّوح العسكريَّة الرَّفيعة.

وكان للحسن في مَسْكِن بقيَّةٌ من جيش، لا تجد المعنويات سبيلها إليه إلاّ بالمعجزة، بعد النَّكبة الّتي أصيب بها هذا المعسكر بخيانة قائده وفرار ثمانية آلاف من أفراده.

وفي المدائن، مجموعةٌ من أشباح، كَشَفت الإرجافات العَدُوَّة المربكة عن نواياها، فإذا بها لا تفتأ تتلقّف الفتن، وتَهُمّ بالعظائم ولا تُرجَى لميدان حرب، وهذه هي النَّاحية المعنوية على واقعها.

وأمَّا النّسبة العَدَدِيَّة فقد كان أكبر عددٍ بلغه جيش الحسن عليه السلام فيما زحف به إلى لقاء معاوية عشرين ألفاً أو يزيدها قليلاً، وكان جيش معاوية الّذي عسكر به على حدود العراق سِتِّين ألفاً!

فللحسن ـ يومئذٍ ـ ثُلُث أعداد جيش معاوية.

وجاءت عملية الفرار الّتي اجتاحت معسكر مَسْكِن والّتي انهزم بها ابـن العـمِّ «وربَّ ابن عَمٍّ ليس بابنِ عَمٍّ» ـ كما يقول المثل العربيُّ[1] ـ بثمانية آلاف ! فتصـاعدت النِّسـبة صُـعُوداً مريعاً.

وبقى الحسن في معسكريه جميعاً على الخُمس من عسكر معاوية !

واذا اعتبرنا ـ هنا ـ القاعدة العسكرية الحديثة الّتي تنسب القُوَّة المعنوية إلى الكثرة العدديَّة، بنسبة ثلاثة إلى واحد رجعنا إلى نتيجة مُؤسِفَةٍ جِدّاً، هي نسبة واحد إلى خمسة عَشَر.

---

(١) من بيت شعر عجزه: «... بَادِي الضِّغِنِ ضَيِّقُ المَجَمِّ». تاج العروس ١٦/ ١١٩.

وإذا نظرنا إلى جيش الحسن الّذي بقي يُنازِل معاوية في مَسْكِن وحده ـ على ضوء هذه القاعدة ـ رأيناه يُنَازِل عَدُوّاً يعدُّه خمسةً وأربعين ضِعفاً بالضَّبط.

فأين هي الكفاية لقمع فتنة الشَّام بالقُوَّة، ياترى..؟

ولن تجيز النُّظُم المتَّبعة لحروب الإنسان في التَّاريخ، مبارزة واحد لخمسة وأربعين، ولا محاربة واحد لخمسة عشر. و ما هي ـ إنِ اتَّفقت يوماً ـ بحرب نظامية، تنتظرها النتائج، وإنَّما هي الحملات المستميتة الّتي تقصد إلى الإنتحار عن إرادةٍ وعمدٍ.

فليكن الحسن ابن رسول الله، هو ذلك المخلوق الّذي ادَّخره الله للإصلاح لا للحرب، وللسَّلام لا للخصام، وليكن الغَرس الّذي أنبته الله للمسلمين لا لنفسه، وللدِّين لا للسُّلطان وليكن نصيبه من هذا الموقف في الباقي دون الزَّائل، وفي الخالد دون الفاني، وفي الله دون النَّاس.

وهكذا حالت رسالة الحسن بالسّلام، دون أن يشتبك الفريقان بحربٍ ما، وكان ذلك هو الثَّابت ـ تاريخيّاً ـ رَغْم أنّ بعض المؤرِّخين حاول التَّلميح إلى موقعة حربية، بين جيش قيسٍ، قائد الحسن على مقدِّمته ـ وبين جند الشَّام في «مَسْكِن». وصَرَّح السيِّد في «الدَّرجَات الرَّفيعة»[1] بشيءٍ من أطوار هذه الموقعة المزعومة.

ولا نعرف لهذا النَّبأ مصدراً جديراً بالإعتبار، أقدم من السيِّد الرّفيع الدَّرجات (السيِّد علي خان المتوفَّى سنة ١١٢٠ هـ).

ولا نجد من دراسة الوضع الراهن يومئذ في مسكن ما يدعم هذا الزَّعم.

ولا نرى من خطة «حَقن الدِّماء» الّتي كانت طابع سياسة الحسن عليه السلام، في سائر مراحله، ما يبعثنا على التَّسليم لهذا الخبر.

---

(١) الدَّرجات الرّفيعة في طبقات الشِّيعة / ٣٤٦.

ولا نفهم مـن حـديث رسـول اللهﷺ بـ«إنَّ اللهَ سَيُصْلِحُ بِالحَسَنِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ» إلاّ كون الحسن رسول السَّلام في الإسلام.

فَأَنَّى يكون لجيشه أن يحارب أو يهاجم ؟.

وعلمنا من وصيَّة الحسن يوم حضرته الوفاةُ، أنَّه لم يرض أن يُهْرَق في أمره مِحْجَمَةُ دمٍ، فكان في ذلك وِفق رسالته الّتي أردها أو أريد لها.

على أنَّ شهود عيان كثيرين يؤكِّدون: أنَّه وَلِيُّ الخلافة ولم يُهرِق في خلافته محجَمَة دمٍ. وقال ذلك بعضُهم، وهو يعزِّز كلامه بالقَسم[1] مرَّتين.

---

(١) تراجع الإصابة (ج٢ ص١٢) [٢/ ٦٤]، وابن كثير في تاريخه (ج٨ ص٨ و١٤) [٨/ ١٩، و ٤٥] وغيرهما. (المؤلِّف)

أنظر أيضاً: مسند أحمد ٥/ ٤٤، السُّنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٧٣.



بَيْنَ المَبْدَأ وَالمُلْكِ

لَعَلَّ أفضل طريقة للإستعانة على تجلية موضوعنا في هذا الفصل، أن نبدأه بشيءٍ من الكشف الصَّريح عن المعنيين المختلف عليهما «للخلافة» في عُرف المسلمين. وللكلام على الخلافة ـ أو حواليها ـ، خَطَرُه ومسؤوليّتُه لدى واحد من الجانبيين غالباً، ولديهما معاً أحياناً.

ونحن إذ نُفَهرس الخلافة هنا كما هي عند الفريقين، لا نريد أن نأخذ من موضوعها إلاّ بمقدار ما يتّصل منه بموضوعنا.

ونريد مع ذلك أن نعمد ـ أستطراداً ـ وعلى ضوء ما نضعه من صيغة البحث، إلى تقريب النَّظريتين المختلفتين، تقريباً جديراً بأن يخلق من بذرتنا هذه شجرة الإصلاح، لو وجد الإصلاح في هذه التربة سبيلاً للإزدهار، ولا خطر ولا مسؤولية لدى أحد الجانبين ولا لديهما معاً ممَّا نريد، بل هو الخير كلُّه، وما في الإصلاح إلاّ الخير للكلّ.

فنقول: الخلافة هي النِّيابة العامّة عن النبيِّ ﷺ، في رياسة المسلمين بعد وفاته، ولها على النَّاس الطَّاعة، وللنَّاس عليها العمل بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

واعتاد فريقٌ من المسلمين أن يتقبَّلوا لهذه النِّيابة عن النّبيِّ ﷺ أحدهم فيما لو استطاع أن يدَّعيها لنفسه، إمّا بالقوّة، كخلافة معاوية الّذي: نال الخلافة بحدِّ السَّيف تارةً وبالمكيدة والسِّياسة تارةً أخرى[1]، وكخلافة ابن الزُّبير[2]، وأبى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي (ج١ ص٣٩٦) [١/ ٢٢٧، للدكتور حسن إبراهيم حسن، الطبعة الرابعة عشرة]. (المؤلِّف ﵀)

(٢) عَبْدُ الله بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ بْنِ خُوَيلِدٍ، أمُّه أسماء بنت أبي بكر وخالته عائشة، ممَّن امتنع عن مبايعة ⇦

العبّاس السَّفَّاح[1]، وعبدالرحمن الناصر[2]، وآخرين، وإمّا بالعهد إليه من سلفه الّذي كان أخذها بالقوّة أو بسبب آخر، كخلافة عمر[3] ويزيد[4]

⇦

يزيد ـ لعنه الله ـ وبايعه أهلُ الحرمين بالخلافة وآوى إلى مكّة فحاصره أصحاب يزيد، ونصبوا له المنجنيق على الكعبة، ورموها بالنّار فلمّا مات يزيد في سنة ٦٤ استثمر حالة الفوضى في العاصمة دمشق من جرّاء التّنافس على الخلافة بين الأمويين فبايعه أهل العراق واليمن وفي سنة ٧٣ نازل الحَجَّاجُ ابنَ الزُّبير بأمر من عبد الملك بن مروان فحاصره ونصب المنجنيق على أبي قبيس، ورمى الكعبة، ودام القتال أشهُراً، حتى قُتِل في هذه الفتنة خلقٌ كثيرٌ. فقتله الحجَّاج بن يوسف في المسجد سنة ٧٣ ثم صلبه على جِذعٍ مُنْكَساً.

(١) عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، أَبُو العَبَّاسِ السَّفَّاحُ، أوّلُ خُلفاء بني العبَّاسَ وأحد الجبَّارين، بُويع ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢، ولُقِّب بالسَّفَّاح لكثرة ما سَفَح من دماء بني أمَيَّة، مات بالأنبار سنة ١٣٦ هـ.

(٢) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، المُلَقَّبُ بِالنَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ، ويُسمَّى كذلك: عَبْدُ الرَّحْمَنِ الثَّالِث، ثامن أمراء أمويِّي الأندلس، وأوّل من تَسمَّى بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين في الأندلس. تولَّى إمارة الأندلس بعد وفاة جدِّه عام ٣٠٠ هـ، وكان عمره ٢٢ سنة، تُوفِّي عام ٣٥٠ هـ.

(٣) عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى بْنِ رِيَاحٍ، القُرَشِيُّ، العَدَوِيُّ، أَبُو حَفْصٍ، وأمُّه حَنْتَمَةُ بنت هِشَام أو هَاشِم بن المُغِيرَة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم، أسلم بعد نَيِّف وخمسين رجلاً وامرأةً، ثاني خلفاء العامَّة بعد أبي بكر، طَعنه أبو لُؤلُؤة غلامُ المغيرة بن شعبة لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجّة سنة ٢٣ هـ على المشهور عند العامّة والتاسع من ربيع الأوّل على قول، ودُفِن هلال المحرَّم سنة ٢٤ هـ، إلى جنب أبي بكر في حُجْرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت خلافته عشر سنين وستَّة أشهُر وخمس ليال.

وقصّة استخلافه أنَّ أبا بكر دعا في مرضه عُثْمان بنَ عَفَّان خالياً فقال له: اكتب: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، هذا ما عَهِد أبو بكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين أما بعد، قال: ثمَّ أغمي عليه فذهب عنه فكتب عثمان: أمَّا بعد فإنِّي قد استخلفت عليكم عمرَ بنَ الخطَّاب ولم آلكم خيراً منه! ثمَّ أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليَّ، فقرأ عليه، فكبَّر أبو بكر وقال: أراك خِفتَ أنْ يختلف النَّاس إن افْتَلَتت نفسي في غشيتي؟ قال: نعم! قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله، وأقرَّها أبو بكر من هذا الموضع. أنظر: الطَّبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٢٠٠، تاريخ ابن عساكر ٣٠/ ٤١١، الثِّقات لابن حبَّان ٢/ ١٩٢، تاريخ الطَّبري ٢/ ٦١٨، الكامل في التَّاريخ ٢/ ٤٢٥، تاريخ الإسلام

⇦

والرّشيد[٢] وغيرهم، و إمّا باختيار فئة من المسلمين ايّاه بادىء ذي بدء، كخلافة أبي

⇨

للذّهبي ٣/ ١١٧.

ولم يكن استخلاف عُمر مَرضيّاً عند الصّحابة بل أنكروا على أبي بكر فعله ونقموا عليه ذلك، وأبدوا امتعاضهم من خلافته، ففي المصنّف لابن أبي شيبة ٧/ ٤٨٥، وتاريخ ابن عساكر ٣٠/ ٤١٣، وأسد الغابة لابن الأثير ٤/ ٦٨: لمّا حضرت أبا بكر الوفاةُ أرسل إلى عمر ليستخلفه، قال: فقال النّاس: أتستخلف علينا فَظّاً غليظاً، فلو مَلَكَنا كان أفظّ وأغلظ، ماذا تقول لربّك إذا أتيته وقد استخلفته علينا، قال: تخوّفوني بربّي ! أقول: اللّهُمَّ أمّرتُ عليهم خيرَ أهلك.

(١) يَزيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أبي سُفيانَ، الأمَويُّ، ثَاني ملوك الدَّولة الأمَويَّة في الشَّام، وُلِد بالماطرون، ونشأ بدمشق، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ، وقد أخذها له في حياته وأبى البيعة له سيِّدُ الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام، ولم يَلْوِ للدّنيَّة جيده، حتّى استشهد في كربلاء مَظلوماً، مُضطهداً فصلوات الله عليه وسلامه واللّعنة على قتلته وظالميه، وفي سنة ٦٣ هـ، خلع أهلُ المدينة طاعته فأرسل إليهم مُسْلِم بن عُقْبَة، وأمره أن يستبيحها ثلاثة أيّام وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيدٌ ليزيد، ففعل بها مُسْلِم الأفاعيل القبيحة، وقتل فيها كثيراً من الصَّحابة وأبنائهم وخيار التَّابعين . ثم خرج مُسلِم بن عُقبة من المدينة يريد مكّة لمحاربة ابن الزُّبير، فأدركه الأجلُ واستخلف الحُصين بن نمير، فقدم مكة وقاتل ابن الزُّبير في الحرم، ورماه بالنِّيران حتى أحرق الكعبة. وكان يزيد نَزُوعاً إلى اللّهو، معروفاً بالمجون، يلعب بالقرود والكلاب ويشرب الخمر ويُظهر الفسوق. فعليه لعنة الله ورُسُلِه وملائكته والنَّاس أجمعين.

(٢) هَارُونُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المَنْصُورِ، العَبَّاسِيُّ، أبُو جَعْفَرٍ الرَّشِيدُ، خامس خلفاء الدَّولة العبَّاسيّة في العراق، وأشهرهم . وُلِد بالرَّي، لمّا كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان . ونشأ في دار الخلافة ببغداد . بُويع بالخلافة صبيحة اللّيلة الّتي مات فيها أخوه الهادي سنة ١٧٠ هـ، ومات بِطوس، بقرية يقال لها: «سَنَابَاذ»، يوم السَّبت لأربع ليالٍ خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ. حَبَس الإمام أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام سنين طويلة، وعُذّب فيها وبعث صلوات الله عليه إلى الرَّشيد برسالة من الحبس يقول: «**إنَّهُ لَنْ يَنْقَضِيَ عَنِّي يَوْمٌ مِنَ البَلاءِ إلاّ انْقَضَى عَنْكَ مَعَهُ يَوْمٌ مِنَ الرَّخَاءِ، حَتَّى نُفْضِي جَمِيعَاً إلَى يَوْم لَيْسَ لَهُ انْقِضَاءٌ، يَخْسَرُ فِيهِ المُبْطِلُونَ**». واستشهد صلوات الله عليه مسموماً في سجنه.

بكر(١)،

---

(١) عَتِيقُ بْنُ عُثْمَانَ بنِ عامِرِ بنِ عَمْرِو بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ تَيْمِ بنِ مُرَّةَ بنِ كَعْبِ بنِ لؤَيٍّ، القُرَشِيُّ، التَّيْمِيُّ، أَبُو بَكْرٍ، أوَّل خلفاء العامّة. مات بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وآله بسنتين وأشهر، وهو بن ثلاث وستِّين.

يقول السيِّد عبدُ الحسين شرف الدِّين رحمه الله في كتابه المراجعات / ٣٣٧: وبيعة السَّقيفة لم تكن عن مَشورةٍ، وإنَّما قام بها الخليفة الثَّاني، وأبو عُبيدة، ونفرٌ معهما، ثم فاجأوا بها أهل الحلِّ والعقد، وساعدتهم تلك الظُّروف على ما أرادوا، وأبو بَكرٍ يُصرِّح بأنَّ بيعته لم تكن عن مشورة ولا عن رويَّة، وذلك حيث خطب النَّاس في أوائل خلافته مُعتذراً إليهم، فقال: «إنَّ بيعتي كانت فلتةً، وقى الله شرَّها، وخشيت الفتنة... الخطبة» [السَّقيفة وفدك للجوهري/ ٤٧، السُّنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٥٣] وعُمَر يشهد بذلك على رؤوس الأشهاد في خُطبةٍ خطبها على المنبر النّبويِّ يوم الجمعة في أواخر خلافته، وقد طارت كُلَّ مطير، وأخرجها البُخاريُّ في صحيحه [٨/ ٢٦]، وإليك محلّ الشَّاهد منها بعين لفظه، قال: «ثمَّ إنَّه بلغني أنَّ قائلاً منكم يقول: والله لو مات عُمَر بايعت فلاناً، فلا يغترَّن امرؤٌ أن يقول: إنَّما كانت بيعة أبي بكر فلتةً وتمت، ألا وإنَّها قد كانت كذلك ولكنَّ الله وَقَى شرَّها» ـ إلى أن قال: ـ «مَنْ بايع رجلاً من غير مشورةٍ فلا يبايع هو ولا الَّذي بايعه تَغِرَّةً أن يُقتلا، وأنَّه قد كان من خبرنا حين تَوَفَّى الله نبيَّه صلى الله عليه وآله أنَّ الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا عليٌّ والزُّبير ومن معهما.» ثم استرسل في الإشارة إلى ما وقع في السَّقيفة من التَّنازع والإختلاف في الرَّأي، وارتفاع أصواتهم بما يوجب الفرق على الإسلام، وأنَّ عُمَر بايع أبا بكر في تلك الحال.

ومن المعلوم بحكم الضَّرورة من أخبارهم أنَّ أهل بيت النبوَّة، وموضع الرِّسالة لم يحضر البيعة أحدٌ منهم قطّ، وقد تخلَّفوا عنها في بيت عليٍّ، ومعهم سلمان، وأبو ذر، والمقداد، وعمّار، والزّبير، وخزيمة بن ثابت، وأبَيُّ بن كعب، وفروة بن عمرو بن ودقة الأنصاري، والبرّاء بن عازب، وخالد بن سعيد بن العاص الأمَوِيّ، وغير واحد من أمثالهم، فكيف يتمُّ الإجماع مع تخلُّف هؤلاء كلّهم، وفيهم آل محمَّد كافَّة، وهم من الأمَّة بمنزلة الرَّأس من الجسد، والعينين من الوجه، ثَقَل رسول الله وعيبته، وأعدال كتاب الله وسفرتُه، وسفن نجاة الأمَّة وباب حِطَّتها، وأمانها من الضَّلال في الدِّين وأعلام هدايتها... وقد أثبت البُخاريُّ ومسلم في صحيحيهما [البخاري٥/ ٨٢ ومسلم ٥/ ١٥٤]، وغير واحدٍ من أثبات السُّنن والأخبار، تخلُّف عليٍّ عن البيعة، وأنَّه لم يصالح حتى لحقت سيِّدة النِّساء بأبيها صلى الله عليه وآله، وذلك بعد البيعة بستَّة أشهر، حيث اضطرَّته المصلحة الإسلامية العامَّة في تلك الظُّروف الحَرِجة إلى الصُّلح والمسالمة، والحديث في هذا مُسندٌ إلى عائشة، وقد صرَّحت فيه: أنَّ الزَّهراء هجرت أبا بكر، فلم تكلِّمه بعد رسول الله، ⇦

وعثمان(١)،

⇦

حتى ماتت وأنَّ عَليّاً لما صالحهم، نَسَب إليهم الإستبداد بنصيبه من الخلافة، وليس في ذلك الحديث تصريح بمبايعته إيَّاهم حين الصُّلح، وما أبلغ حُجَّته إذ قال مخاطباً لأبي بكر:

فإنْ كُنْتَ بالقُربى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيرُك أوْلَى بالنَّبيِّ وَأقْرَبُ

وإنْ كُنْتَ بالشُّورى مَلَكْتَ أمُورَهُمْ ... فَكَيفَ بِهَذَا والمُشيرُون غُيَّبُ

واحتجَّ العبَّاس بن عبد المطلِّب بمثل هذا على أبي بكر، إذ قال له في كلام دار بينهما: فإن كُنتَ برسول الله طَلَبتَ، فحقُّنا أخَذتَ، وإن كُنتَ بالمؤمنين طَلَبتَ، فنَحنُ منهم متقدِّمون فيهم، وإنْ كان هذا الأمر إنَّما يجب لك بالمؤمنين، فما وجب إذ كنَّا كارهين. [الإمامة والسياسة ١/ ٢١]

(١) عُثمانُ بنُ عَفَّانَ بن أَبي العاصِ بْنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ عبدِ مَنَافٍ، القُرَشِيُّ، الأُمَوِيُّ، وُلِد بعد عام الفيل بستٍّ سنين، جعله عُمَرُ بعد ما طُعن في السِّتَّة أهل الشُّورى، ثم اختير لتولّي الخلافة بفرض شُروطٍ وقبوله لها، وذاك غُرَّة محرَّم سنة ٢٤ هـ، وقُتِل في المدينة سنة ٣٦ هـ، ودُفِن في حُشِّ كَوْكَب بالقُرب من البقيع.

أقول: خالف عمر بن الخطاب صاحبه أبابكر في كيفية انتقال الحكم من بعده واتَّخذ طريقة الشُّورى لذلك، وجعلها بين ستّة عيّنهم هو، لا يزيدون ولا ينقصون، على أن يكون الخليفة المنتخب واحداً من هؤلاء فقط، ولو اتّفق أكثرُهم على واحد منهم وعارضت الأقلّيَّةُ ضُربت أعناقهم، ولو اتّفق ثلاثةٌ منهم على رجل وثلاثة على آخر كانت الكلمة لعبد الرّحمن بن عوف، ومن خالف قُتل، وكأنّه قال رسول اللهﷺ: عبد الرحمن مع الحقِّ والحقُّ مع عبد الرَّحمن!

ومُدَّة المشاورة ثلاثة أيّام، فإن مضت ولم يُعيِّنوا أحداً قتلوهم عن آخرهم، وصُهَيبُ الرُّوميُّ هو الرَّقيب عليهم، وهناك خمسون رجلاً واقفون بأسيافهم، ينتظرون أن يخالف أحدُهم فيضربوا عنقه بأمر من عبد الرَّحمن بن عوف. فالأمر بيد عبد الرَّحمن بن عوف، فأعْطِي خاصَّةً حقَّ اتّخاذ القرار النهائي من دون الآخرين في تلك الشُّورى، وإليه يكون لكن عبد الرَّحمن بن عوف لابدّ وأن يدبِّر القضيَّة بحيث تُطبَّق كما يريد عمر بن الخطَّاب، وكما اتّفق معه عليه، إنّه يعلم رأي أمير المؤمنين عليٍّعليه السلام في خلافة الشيخين، ويعلم مخالفته لسيرتهما، فجاء مع علمه بهذا، واقترح على أمير المؤمنين عليٍّعليه السلام أن يكون خليفةً على أن يسير بالنّاس على الكتاب والسُّنة وسيرة الشّيخين، يعلم بأنّه سوف لا يوافق، أمّا عثمان فسيوافق في أوّل لحظة، فطرح هذا الأمر على عليّعليه السلام، فأجاب بما كان يتوقّعه عبد الرّحمن، من رفض الإلتزام بسيرة الشّيخين، وطرح الأمر على عثمان

⇦

⇦

فقبل عثمان، كرَّر عليهما ذلك، فأجابا بما أجابا أوّلاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام لعبد الرحمن: «**أَنْتَ مُجْتَهِدٌ أَنْ تُزْوِيَ هَذَا الأَمْرَ عَنِّي.**»

فبايع عبد الرَّحمن عثمان، فقال أمير المؤمنين عليه السلام لعبد الرّحمن: «**وَاللهِ مَا وَلَّيْتَ عُثْمَانَ إِلاَّ لِيَرُدَّ الأَمْرَ إِلَيْكَ أَوْ عَلَيْكَ**». فقال له: بايع وإلاّ ضَربتُ عُنُقَكَ. فخرج عليٌّ من الدَّار. فلحقه القوم وأرجعوه حتى أجبروه على البيعة. وهكذا تمّت البيعة لعثمان طبق القرار المتَّخذ خلف الكواليس. انتهى، الشُّورى في الإمامة للمحقِّق السيِّد عليّ الميلاني / ٤٣، بتصرُّف يسير.

وفي شرح النَّهج ٦ / ١٦٧ لابن أبي الحديد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لهم حين أجمعوا على بيعة عثمان: «**أَنْشُدُكُمُ اللهَ! أَفِيكُمْ أَحَدٌ آخَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، حَيْثُ آخَى بَيْنَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعْضٍ، غَيْرِي؟**» فقالوا: لا.

فقال: «**أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَهَذَا مَوْلاَهُ، غَيْرِي؟**» فقالوا: لا.

فقال: «**أَفِيكُمْ أَحَدٌ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي، غَيْرِي؟**» قالوا: لا.

قال: «**أَفِيكُمْ مَنِ اؤْتُمِنَ عَلَى سُورَةِ بَرَاءَةَ، وَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنَّهُ لا يُؤَدِّي عَنِّي إِلاَّ أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي غَيْرِي؟**» قالوا: لا.

قال: «**أَلاَ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَرُّوا عَنْهُ فِي مَأْقَطِ الْحَرْبِ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ، وَمَا فَرَرْتُ قَطُّ!**» قالوا: بلى.

قال: «**أَلاَ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوَّلُ النَّاسِ إِسْلاماً؟**» قالوا: بلى.

قال: «**فَأَيُّنَا أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله نَسَباً؟**» قالوا: أنت.

فقطع عليه عبدُ الرَّحمن بن عوف كلامه، وقال: يا عليُّ، قد أبى النَّاس إلاَّ على عثمان، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً!، ثم قال: «**يَا أَبَا طَلْحَةَ، مَا الَّذِي أَمَرَكَ بِهِ عُمَرُ؟**» قال: أن أَقْتُلَ من شقَّ عصا الجماعة! فقال عبد الرَّحمن لعليٍّ عليه السلام: بايع إذاً، وإلاّ كُنْتَ مَتَّبِعاً غير سبيل المؤمنين، وأنفذنا فيك ما أَمَرَنَا به. فقال: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي.**»، ثمّ مدّ يده فبايع..

إلاّ أن ثمّة إشكال يطرحه المخالفون على دخول أمير المؤمنين عليه السلام الشُّورى العُمَرِيَّة ، وما هي أسبابه ومبرِّراته؟ الجواب:

أوّلاً: نحنُ نعتقد عصمته صلوات الله عليه، وأنَّ جميع أفعَاله وأقواله في كلِّ شُؤونه وأحواله تستند إلى حُجَّة شرعيّةٍ هو أعلم بها منّا، إن خفي علينا الوجه منها، وقد جعله الله تعالى حُجَّةً علينا

⇦

ومحمَّد رشاد[1].

ورجع الفريق الثَّاني من المسلمين في تعيين النَّائب عن الرَّسولﷺ إلى نصوص

⇨

فهو الَّذي يسألنا عن أمورنا وليس لنا الحقُّ أن نسأله عن أموره.

ثانياً: من الواضح أنَّ الخلافة حقُّه صلوات الله عليه، وذا الحقِّ له أن يَتوصَّل إلى حقِّه من كلِّ جهة، وبكلِّ سببٍ أمكن، وقد جعل الله تعالى لوصوله إلى حَقِّه طريقاً، فإذا ما دُفِع عن ذلك وجُعِل إليه من وجهٍ آخر أن يناله، جاز له أن يلجأ إلى ذلك الوجه ليَصِلَ منه إلى حَقِّه .

ثالثاً: لو لم يكن في حضوره في الشُّورى أيُّ فائدةٍ سوى احتجاجه عليهم بجملة من فضائله ومناقبه وأخذه الإقرار منهم بها، لكان حَسناً ومحمُوداً.

رابعاً: إنّ دخولهعليه السلام للشُّورى العُمَريَّة لم يكن بمحض اختياره، بل أجْبِر على ذلك، ويدلُّ عليه أنَّ عُمَرَ أمر بقتل المخالف من السِّتَّة كما تقدّم. ولإكراههم عَليّاًعليه السلام على الدُّخول في الشُّورى أسبابٌ:

منها: أنهم كانوا يخشون منه، أنّه إذا لم يَدخُل سوف يمتنع عن بيعة عثمان كما امتنع عن بيعة أبي بكر من قبل وسوف يلتحق هذه المرَّة به أناسٌ كانوا قد قصَّروا في قِصَّة السَّقيفة أو وقعوا في الشُّبهة، ومعنى ذلك احتمال تكامل العدد الَّذي يرجوه أمير المؤمنينعليه السلام من الأنصار فيقوم في وجه عثمان.

منها: أنّ عمر بن الخطاب لمّا قرن هؤلاء الخمسة في الشُّورى بأمير المؤمنين عليٍّعليه السلام قد أوْجَدَ في نفوسهم نَوعاً من الشُّعور، جعلها به ترتفع في أعينهم إلى ما فوق القدر الَّذي عرفوه لها من قبل، وصار كلُّ واحد منهم يرى نفسه حقيقاً أن يكون خليفةً، ولا يعترف لأمير المؤمنينعليه السلام أدنى فضلٍ وسابقة، وهذا ما وقع بعد مقتل عثمان فامتنع سعدٌ عن بيعته وبغى عليه طلحة والزّبير،وصاروا ينافسونه الأمر.

وأضف إلى كلِّ ما تقدّم أنَّ دخول الإمامعليه السلام للشّورى السُّداسيَّة لا يعني تأييده لها أو لمؤسِّسها، بل إنّ رفضه القيام بالخلافة شريطة أن يعمل بسيرة الشّيخين، خير دليل على عدم شرعيّتها والقائمين عليها عنده.

(١) هو مُحَمَّد عَلِيُ بْنُ الخَليفَة عَبْدِ المَجِيد الأوَّل وُلد في ١٨٤٤ م ، أحد خلفاء الدَّولة العثمانيَّة. تَولَّى الحُكم بعد خلع أخيه عبد الحميد الثَّاني عام ١٩٠٩ م .

صاحب الرِّسالة نفسه، فلم يُنيبوا عنه إلاَّ من أنابه هو فيما أُثِرَ عنه.

وعلى ذلك جرى الفريقان، وعلى ذلك كانا فريقين[1].

وكما اختلفا في أسباب نصب الخليفة، اختلفا في قابليّته للتَّغيير والعزل، فعلى النَّظَريّة الأولى، كان حَرِيّاً بالعزل متى وُفِّق غيرُه للتغلُّب عليه، أو متى وجد اقتضاء آخر، وعلى نظريّة النَّصِّ ليس لأحد تغييره ولا عزله، ولن يكون الخليفة المنصوص عليه مُعرَّضاً لنقص يُخِلُّ بمقامه كنائب نبيٍّ، ومن هنا يُرْمَز إليه بالعصمة من الله تعالى شأنُه، كما هي شأن النّبيِّ نفسه صلى الله عليه وآله.

فالخلافة من النَّوع الأوَّل سلطةٌ عامَّةٌ مُقيَّدةٌ بدستور خاص، وهي بواقعها أشبه بهذه السُّلُطات القائمة اليوم، لا تختلف عنها إلاَّ من ناحية الإختلاف في الدُّستور، أو كما تختلف بعض هذه السُّلطات عن بعض.

وقداستها، فَرْعُ قابليَّات الرَّجل الّذي اختير لها أو الرَّجل الّذي تغلّب عليها، وأحياناً كان أفضل النَّاس قُدْسَاً، كما كان في وقت آخر من أشدِّ النَّاس تمرُّداً على الدِّين والخُلُق الصَّحيح.

وهي من النَّوع الثَّاني وعلى نظريَّة النَّصِّ منصبٌ إلهيٌّ تجب له الطَّاعة ديناً، كما تجب للنبيِّ، وما هي بهذا المعنى إلاّ ظلّ النّبوَّة بمعناها الّذي يَتَّصل بالسَّماء، ولكنَّها إنَّما تَتَّصل بالسَّماء عن طريق النّبيِّ، وهو مصدر رُوحِيَّتِها كما هو مصدر النّصِّ عليها.

أمَّا قداستُها فطبيعيةٌ ثابتةٌ لها، ثبوتها للنّبوَّة نفسها. ولا خليفة من خلفاء النَّص، إلاَّ كان أقدسَ شخصيَّةٍ في النَّاس وأفضلَهُم.

---

(١) فالفريق الاوَّل هم السُّنة، والفريق الثَّاني هم الشِّيعة. ووافق الشِّيعة أكثرية المعتزلة فقالوا: لا إمامة إلاَّ بالنَّصِّ والتَّعيين. يراجع «آراء المعتزلة السِّياسِيَّة» (ص١٥)، مجلَّة الألواح (ع١١ س١) (المؤلِّف رحمه الله).

وقديماً كان موضوع «الخلافة» مَثار شغبٍ عنيفٍ بين المسلمين ومصدر مآسٍ كثيرة مُؤسِفة في تاريخ الإسلام. وما كان من السَّهل ولا من الممكن يومئذٍ، ما نظنُّه اليوم ممكِناً وسهلاً، في موضوع تقريب الفريقين بعضهما من بعض، و جمعهما على نَصَفٍ من الرَّأي، يُنبَذُ به الخلاف، و يُؤخذُ معه بالواجب من الأُخوَّة و الجُنُوح إلى الإصلاح.

وذلك هو ما يقتضيه الإهتمام بالجوهر دون الأعراض، وبالدِّين الصَّحيح دون الأغراض، وذلك هو الإسلام الّذي يجب أن يتَّصل به المسلم إلى الله على حقيقته، دون أنْ تخدعه العنعنات أو العواطف أو المؤثِّرات.

وقضيَّة الدِّين ـ وهو العلاقة بين العبد ورَبِّه و هو النُّقطة الّتي يرتكز عليها مسقبله في حياته الأخرى ـ لا تشبه القضايا الدُّنيويَّة الّتي يجوز عليها أن تخضع في الكثير من علاقاتها، لهوى النَّفس أو لتقاليد البيئة، أو لعواطف أو المؤثِّرات.

وقضيَّة الدِّين ـ وهو العلاقة بين العبد ورَبِّه وهو النّقطة الّتي يرتكز عليها مستقبله في حياته الأخرى ـ لا تشبه القضايا الدُّنيويَّة الّتي يجوز عليها أن تخضع في الكثير من علاقاتها، لهوى النَّفس أو لتقاليد البيئة، أو لعواطف الإنسان وميوله وعصبيَّاته.

أمّا صاحب الدِّين، فلا همَّ له في دينه إلاَّ الواقع مجرَّداً.

ولا نريد الآن، في موضوع الخلافة، إلاَّ جمع الكلمة على الواقع المجرَّد دون أيِّ تصرُّف أو تحريف.

فيعترف الشِّيعيُّ بالخلافة (من النَّوع الأوَّل) على واقعها يوم وقعت (ولا ينبغي للإعتراف بأمرٍ ما أنْ يجاوز واقعه) بوصفها سلطة عامَّة قائمة بين المسلمين، لها ما تستحقُّه من الإطراء في كثير من آثارها في الإسلام.

ويعترف السُّنيُّ بالخلافة (من النَّوع الثَّاني) على واقعها أيضاً بوصفها واسطة بينه وبين النّبيِّ في دينه، وهي الحقيقة الّتي تواترت بها الصِّحاح في مختلف البيانات النّبويّة الّتي لا يصحّ ـ عِلمِيّاً ـ النِّقاش عليها، مَروِيّةً بأفضل الطُّرق الّتي يفزع إليها المسلم في أخذ دينه.

ثم يكون هذا هو الحلَّ[1] الجدير بالإعتبار، الّذي تتحلّل به العُقَدُ الرَّئيسةُ بين

---

(١) ولعلَّ من الخير أن ننبِّه هنا، إلى أنّ بعض منتحلة آراء النَّاس سبق إلى نَشر هذا الحلِّ من دون أن يَنسِبه إلى صاحبه. وكان الرَّجلُ أحدَ مُستمعينا ـ في أكثر من مناسبة ـ حين نوَّهنا بهذا الرَّأي كنموذج من آراء هذا الكتاب الّتي ينفرد بها. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: الحلّ الّذي ذكره المصنِّف رحمه الله في جمع كلمة المسلمين على معنىً جامعٍ للخلافة ممّا لا يمكن المساعدة عليه أبداً، فإنّه لم يبخس من الخلافة من النَّوع الأوّل ـ على حدِّ تعبيره ـ شيئاً، بالقدر الَّذي أزرى بالخلافة الحقَّة، فمن الواضح أنَّ الخلافة لو فُسِّرت بالوساطة بين النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمّته في الدِّين لما صار هناك فرقٌ بين الشِّيعة وغيرهم. فأصحاب الخلافة من النَّوع الأوّل لا يخصُّون أهل البيت عليهم السلام بالوساطة بل يثبتونها لكلِّ الصَّحابة على حدٍّ سواء. بل إنهم قد اهتمّوا بتراث سائر الصّحابة دونها أيّ اهتمام بتراث أهل البيت عليهم السلام، والواقع خيرُ دليل على ذلك، فإنّ مجموع ما روى أصحاب الصِّحاح عن أمير المؤمنين عليه السلام ٥٣٦ حديثاً، هذا وقد أحصي لأبي هُريرة وحده ٥٣٧٤ حديثاً. فإن كانت الخلافة بهذا الوجه فالصّحابة كُلُّهم خلفاء في منظور القوم، وتكون الخلافة عاريةَ المضمون وفاقدة المعنى. إلاّ أنْ يقال: أنَّ الفرق بينهما في النّصِّ على مرجعية أهل البيت عليهم السلام، دون غيرهم، فهذا وإن كان صريح الكثير من الآثار النّبويّة كحديث: «الثَّقَلَين» وحديث: «الأئمَّة الإثني عَشَر» وحديث: «مَدِينَة العِلْم» وحديث: «السَّفينة» وغيرها إلاّ أنَّ القوم لا يُذعنون بحصر المرجعيّة الدِّينية في أهل البيت عليهم السلام، فإنّ قبول ذلك يلزم منه هدمُ أساس مدرستهم، فقد وضعوا أحاديث في بعض الصَّحابة مثل: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**» أنظر: مسند أحمد ٤/ ١٢٦، سنن الدارمي ١/ ٤٥، سنن ابن ماجة ١/ ١٦، سنن أبي داود ٢/ ٣٩٣، سنن الترمذي ٤/ ١٥٠، مستدرك الحاكم ١/ ٩٦.

هذا مع تحفُّظنا على ما ذكره في الشِّقّ الأوّل من الحلّ. إذ كلُّ سُلطَةٍ لا يَعضُدُها النّصُّ ليس لها على الإسلام إلاّ أثر السُّوء.

الفريقين دون أيِّ غَبنٍ أو استئثار.

ولما كنَّا الآن بصدد البحث عن أحد أفراد الصَّفوة المختارة من خلفاء النّصِّ، فلنعلم بأنَّ لموضوع بحثنا ـ الحسن بن عليٍّ عليهما السلام ـ خلافةً إسلاميّة من طراز فريد في تاريخ الخلائف في الإسلام، ذلك لأنّه حظي «بالخلافة» منذ بيعته ووفاة أبيه عليه السلام، على النَّوعين من معنييها اللّذين يلتقيان عند هذا اللَّفظ في عُرف المسلمين كافَّة[1]، وعلى

(١) والحال كذلك في أمير المؤمنين عليه السلام فقد ثبتت إمامته بالمعنين اللّذين ذكرهما المؤلّف رحمه الله وهما النَّصُّ وانتخاب النَّاس، وهذا ما ورد على لسانه صلوات الله عليه في أكثر من موطن ومشهد، فكانت حُجَّتُه على حَقِّه في الخلافة قبل مقتل عثمان بالنُّصوص المتواترة الَّتي لا ينكرها أحدٌ، وأمَّا بعد مقتله وبيعة النَّاس له فاحتجَّ بالطَّريقين، والعجيب من بعضهم حين يقرأ النُّصوص المرويَّة عنه ـ مع غَضِّ النَّظر عن تماميَّة اعتبارها ـ الَّتي احتجَّ فيها عليه السلام ببيعة النَّاس له، يتوهَّم عن جهلٍ أو اتّباع هوىً، أنّ الإمام علياً أمير المؤمنين عليه السلام يعتمد نظام الشُّورى في تعيين الخليفة ويُقرّ به ويعتبر بيعة النَّاس مُضْفِيَةً للشَّرعية على من بويع لها، وهذا لا يستقيم مع تواتر الرِّوايات الَّتي تنصُّ بكلِّ وضوحٍ ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وإمامته المنصوصة، واحتجاجه هو عليه السلام بتلك النُّصوص، ونذكر هنا بعضاً منها:

منها: حديث رسول الله صلى الله عليه وآله «**مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ**» فأحدُ طرقه الكثيرة المرويّة عن الصَّحابة ينتهي إلى أمير المؤمنين عليه السلام رواه أحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٥٢، وعمرو ابن أبي عاصم في كتاب السُّنَة / ٥٩٣، والنّسائيُّ في السُّنن الكبرى ٣/ ١٩٨، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٢/ ٢١٣، والطَّبرانيُّ في المعجم الأوسط ٧/ ٧٠، وفي المعجم الكبير ٥/ ١٧٥، والهيثميُّ في مجمع الزَّوائد ٩/ ١٠٤، وقد وَثَّق كثيراً من طُرُقه، وابنُ كثير في البداية والنّهاية ٧/ ٣٨٥، وفي السِّيرة ٤/ ٤٢٠، قال عنه: «وقد رُوِيَ هذا من طُرُق متعدِّدةٍ عن عليٍّ رضي الله عنه.»

ومنها: خطبته في الكوفة الّتي عرفت بـ «الشِّقْشِقِيَّة»، ففيها: «**أَمَا وَالله لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ**» نهج البلاغة ١/ ٣٠، الخُطبة: ٣. وواضحٌ أنَّ الضَّمير في «**تَقَمَّصَهَا**» عائدٌ إلى الخلافة و«**فُلانٌ**» كنايةٌ عن أبي بكر، وفي نسخة ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة ١/ ١٥١: «**ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ**» مصرَّحاً، وفي رواية الشَّيخ الصَّدوق في معاني الأخبار / ٣٦١، و العِلَل ١/ ١٥٠ والسيِّد بن طاووس في الطَّرائف في معرفة مذاهب الطوائف / ٤١٨: «**لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ أَخُو تَيْم...**». ومعنى هذا الكلام أنّ أبا بكر تقمَّص الخلافة مع علمه بأنّ علياً عليه السلام مدار أمرها، ولا تنتظم إلاّ به، ولا عِوَض لها

⇦

⇦

عنه، كما أنّ الرّحى لا تدور إلا بالقطب ولا عوض لها عنه.

عَلَمُ الهدَايةِ قُطْبُ دِينِ مُحمّدٍ وَالقُطْبُ لا يَنفكُّ عنهُ رَحاهُ

ومنها: كلامه عليه السلام لما عزموا على بيعة عثمان قال: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي**» نهج البلاغة ١/ ١٢٤، الخطبة: ٧٢.

ومنها: ومن كلام له عليه السلام لما أشير عليه بألاّ يتبع طلحة والزّبير ولا يرصد لهما القتال: «**فَوَاللهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعاً عَنْ حَقِّي مُسْتَأْثَراً عَلَيَّ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله عليه وآله حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا**» نهج البلاغة ١/ ٤٢، الخطبة: ٦.

ومنها: قوله عليه السلام: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي**» نهج البلاغة ٢/ ٢٠٢، الخطبة: ١٧٢، الغارات ١/ ٣٠٨، المسترشد للطّبري الشّيعي / ٤١٦.

ومنها: مقالته الّتي أرسلها إلى معاوية عقيب رسالة بعثها إليه معاوية مع أبي الدّرداء وأبي هريرة وفيها يحتجّ صلوات الله عليه بالنّصوص عليه وبيعة المسلمين له، وهو يرى حُجّة النُّصوص أقوى ودعمها أكبر. فقال عليه السلام: «**وَقَدْ بَايَعَنِيَ النَّاسُ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وَبَايَعَنِيَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ بَعْدَمَا تَشَاوَرُوا بِي ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَهُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَقَدُوا إِمَامَتَهُمْ وَلِي بِذَلِكَ أَهْلُ بَدْرٍ وَالسَّابِقَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ. غَيْرَ أَنَّهُمْ بَايَعُوهُمْ قَبْلُ عَلَى غَيْرِ مَشْوَرَةٍ مِنَ العَامَّةِ، وَإِنَّ بَيْعَتِي كَانَتْ بِمَشْوَرَةٍ مِنَ العَامَّةِ. فَإِنْ كَانَ اللهُ جَلَّ اسْمُهُ جَعَلَ الإِخْتِيَارَ إِلَى الأُمَّةِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ وَيَنْظُرُونَ لأَنْفُسِهِمْ، وَاخْتِيَارُهُمْ لأَنْفُسِهِمْ وَنَظَرُهُمْ لَهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ اخْتِيَارِ اللهِ وَرَسُولِهِ لَهُمْ، وَكَانَ مَنِ اخْتَارُوهُ وَبَايَعُوهُ بَيْعَتُهُ بَيْعَةَ هُدَىً وَكَانَ إِمَاماً وَاجِباً عَلَى النَّاسِ طَاعَتُهُ وَنُصْرَتُهُ، فَقَدْ تَشَاوَرُوا فِيَّ وَاخْتَارُونِي بِإِجْمَاعٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ وَلَهُ الْخِيَرَةُ فَقَدْ اخْتَارَنِي لِلأُمَّةِ وَاسْتَخْلَفَنِي عَلَيْهِمْ وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِي وَنُصْرَتِي فِي كِتَابِهِ الْمُنْزَلِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله، فَذَلِكَ أَقْوَى بِحُجَّتِي وَأَوْجَبُ بِحَقِّي.**» أنظر: كتاب سليم بن قيس / ٢٩٢، بحار الأنوار ٣٣/ ١٤٣.

وأمّا ما ورد في نهج البلاغة ٣/ ٧، الكتاب: ٦، من كتاب لأمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية: «**إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ للهِ رِضًا فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلاهُ اللهُ مَا تَوَلَّى.**» فقد توهّم منه بعض النّاس أنّ الإمام عليه السلام باحتجاجه في

⇨

أفضل وجه في كلِّ نوع يحتمل التفاضل.

فهو الخليفة من النَّوع الأوَّل، ولكن «بالإنتخاب»، وهو الخليفة بالنّصِّ بلفظ «إمام».

⇨

هذا الكتاب على معاوية بالبيعة والشورى وإجماع المهاجرين والأنصار، أنّه يرى صحة إقامة الإمامة بما ذكره، والجواب عليه:

أوّلاً: لقد تواتر احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام، بحقّه في الخلافة وأنها لا تكون إلا بالنّص وذكرنا شطراً منه آنفاً، فيجب تأويلُ ما دلَّ بظاهره على قبول أمير المؤمنين عليه السلام بيعة النَّاس أو الشورى أو الإجماع في تعيين الخليفة، وإن لم يمكن ذلك وجب طرح المخالف لصريح ما تواتر عنه صلوات الله عليه.

ثانياً: لمّا كان معاوية وكثير من أمثاله لا يعترفون بالنصوص الواردة في أمير المؤمنين عليه السلام ولا يؤمنون بها ولكنّهم يستسلمون لخلافة من تقدّمه ويلتزمون بها، كان الجدير به عليه السلام أن يحتجّ عليهم بما يلتزمون هم به، ولا يعني ذلك قبوله هو صلوات الله عليه بما يحتجّ به عليهم، وهو شأن طبيعة الإلزام.

ثالثاً: كلامه عليه السلام إلى التّعريض والإنكار بخلافة الثّلاثة الّذين تقدّموه أقرب منه إلى الإقرار، فإنّ قوله عليه السلام **«وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ»** تعريض بمن تمّت خلافته فلتة! لم يستشر فيها مهاجريّ ولا أنصاريّ. وأيضاً لم يكن أيُّ إجماع على خلافتهم ويكفي للبرهنة عليه إمتناع بني هاشم وسيِّد الخزرج سعد بن عُبادة، والزُّبير وطلحة وغيرهم كثير.

رابعاً: على فرض أنه صلوات الله عليه قد كان قال: **«كَانَ ذَلِكَ للهِ رِضًا»** فهو أيضاً صحيح، فإنّ ما أجمع عليه المهاجرون والأنصار بما فيهم الإمام أمير المؤمنين عليٌّ والإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام كان ذلك لله رضاً.

خامساً: يمكن أن يقال أيضاً: أنّ طريق الشُّورى والإجماع قد يكون مُصحِّحاً للخلافة في صورة عدم وجود النَّص حقيقة، لضرورة وجوب إقامة الحكومة وليس ثمّةَ طريقٌ أنزه من اجتماع صالحيّ المجتمع وأهل ديانتهم على شخص.

ولعلّك قرأت (في الفصل الثّالث)[1] نموذجاً من النُّصوص على تعيينه للمنصب، وعرضاً عابراً لطريقة اختياره و بيعته من النّاس.

والحسن إذ يقف موقفه الأخير من معاوية ـ بين المَبْدأ والمُلك ـ فلا يعني بالمُلك إلاّ تلك السُّلطة الّتي كان مصدرها انتخاب النّاس له دون المنصب الّذي كان مصدره اختيار الله له ونَصّ الرّسول عليه، لأنّ هذا المنصب لا تناله يَدٌ في تغيير أو تبديل ـ كما نبّهنا عليه ـ وإنّما هو من أمر الله، وأمر الله لا مَردَّ له.

وكذلك كانت الزّعازع والنّكبات الّتي اصطلحت على الحسن في دور خلافته، فإنّها لا تعني الحسن «الإمام» وإنّما الحسن «ذا الجيش والسّلطان».

والحسن في إمامته، لا يناله تغيير ولا تمسُّه نَكبةٌ، فهو كالقرآن في إمامته. ولن يُضير القرآن، وهو المرجع الأعلى للمسلمين، الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، خلاف النّاس عليه، ولا جموحهم عنه، ولا نفارهم منه، وهو هو في منزلةٍ من إمامة النّاس، وعلى حقيقته من كلمات الله، رضي النّاس أو أبوا، عملوا بهداه أو عصوا، أسلموه قِيادهم أو جمحوا. وكذلك كانت إمامة الحسن عليه السلام.

وكلٌّ من القرآن والحسن، هو مركز الثِّقل في الإسلام، كما يكون كلٌّ من القانون والمَلِكِ في الدّولة الدُّستورية، هو مركز الثِّقل في الأمّة.

وأعني «بالثِّقل في الإسلام» ذاك الّذي نَوّه به رسول الله صلى الله عليه وآله، في الصّحيح بل المتواتر من حديثه الشّريف، حيث يقول:

«**إِنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثِّقْلَيْنِ كِتَابَ اللهِ وَأَهْلَ بَيْتِي لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[2].

---

(١) في الصفحة / ١١٣.

(٢) أخرجه الحاكم (ج٣ ص١٤٨) [٣/١٤٨] ثمّ قال: «هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد على شرط الشّيخين»، وأخرجه الذّهبيُّ في تلخيص المستدرك معترفاً بصحّته على شرط الشّيخين، وروى ⇦

والحسن من العترة ـ

يومئذٍ ـ واسطة العِقْد وإمام القوم، فهو من الإسلام كلِّه «مركز الدَّائرة» الّذي خلَّفه صاحب الرِّسالة للمسلمين، كما خلّف القرآن «المرجع الأعلى».

وهل الإمامة شيءٌ آخر غير هذا، ياترى ؟

وانظر إلى الحسن حين تتحدَّث عن حقيقته، كيف بتجاذبه كلمات الله من شتَّى جوانبه: القرآن، النّبوَّة، الإمامة، الثَّقلان، الجنَّة، الإصلاح، حَقن الدِّماء، الوفاء بالعهد.

ثم ارجع بذاكرتك قليلاً إلى خصمه الَّذي راح ينازعه على الطَّاعة المفروضة له في النَّاس، فانظر أيَّ كلمات تتجاذب الحديث عنه: الطَّمع، المُراوغَة، الفتنة، الرِّشَا، نقض العهود، المال والحُطَام، الحروب وشنّ الغارات

وإنَّ من هوان الدُّنيا أن ينازع فيها مثل هذا مثل ذاك!!

نعم ذاك هو الحسن ابن رسول الله «الإمام»، فما شأن المُلْك الدُّنيويّ وما شأن المال والحطام؟

وذاك هو «سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1]، كما وصفه جدُّه الأعظمﷺ ورواه عنه جميعُ فِرق الإسلام، وهو الحديث الذي واكب القرآن في صِحَّته وتواتره، وجاوز كلام الآدميين في عُمقه وبلاغته.

ونقول على هامش هذا الحديث: هل اختلج في رأس سائل أن يسأل: لماذا لم يُوصف

⇨

حديث الثَّقلين الإمام أحمد في مسنده (ص١٧ وص٢٦) [٣/ ١٤، و٣/ ١٧، و٣/ ٢٦، و٣/ ٥٩، و٥/ ١٨٢، و٥/ ١٨٩] وأخرجه ابن أبي شيبة [المصنّف ٧/ ٤١٨] وأبو يعلى [المسند ٢/ ٢٩٧] والمتّقي الهنديّ في الكنز (ج ١ ص ٤٧) [١/ ١٧٢] وغيرُهم. (المؤلِّف ﵀)

(١) سبق تخريجه في الصَّفحة / ٥٩.

الحسن في هذا الحديث، بأنَّه سَيِّد شباب أهل الدُّنيا؟ وهل كان في الدُّنيا إلاَّ سَيِّد شبابها خِلالاً مُشرقةً، ومزايا مُشرِّفةً، وكرائم مكرُمات غلب عليها النَّاس؟

مِنْ هَاشمٍ في ذُراهَا وهي صَاعدةٌ — إلى السَّماءِ تُميتُ النَّاسَ بالحَسَدِ
قَومٌ أبى اللهُ إلاَّ أنْ تكونَ لَهُمْ — مَكارمُ الدِّين والدُّنيا بلا أمَدِ[1]

فما هو سرُّ الطَّفرة الَّتي جاوزت بهذا الحديث عالماً بكامله، لتُضيف الحسن إلى عالمٍ آخر، غائب غير حاضر؟

إنَّهُ ليغيب عن الذِّهن «اليوم» التنبُّه إلى هذا الإستفهام، لأنَّ الذِّهن حين يلتفت اليوم إلى الحسن ـ وقد اختاره اللهُ إليه ـ لا يتصوَّره إلاَّ سَيِّداً من سادات الجنَّة، فليكن سيِّد شبابها، ثمَّ لا يَفْطِن إلى نسبة هذه السِّيادة للدُّنيا. ـ ولأنَّ القرون (الأربعة عَشَر) لاكَت الحديث ورَوَتْهُ في مختلف المناسبات، كأكثر ما يُرْوَى حديثٌ في مناسبة حتَّى أصبح كأنَّه كلمةٌ واحدةٌ لا يفهم النَّاس منها إلاَّ حَسَناً وحُسَيْناً، دون ما تنبَّه إلى الإستفهام.

---

(١) من أبيات لأم كلثوم عَمْرَة أخت عمْرو بن عبْدِ وُدّ العَامريّ وذاك حين نعي إليها أخوها عمرو، فقال: من اجترأ عليه؟ فقالوا: علي بن أبي طالب، فقالت: كفؤ كريم، فكانت ترثي أخاها:

لَوْ كَانَ قَاتلُ عَمرٍو غَيرَ قَاتِلِهِ — مَا زِلتُ أَبْكِي عَلَيهِ دَائمَ الأَبَدِ
لكنَّ قاتلَه مَنْ لا يُعابُ بِهِ — وكَانَ يُدْعَى قَدِيماً بَيْضَةَ البَلَدِ
مِنْ هَاشِمٍ فِي ذُرَاهَا وَهيَ صَاعِدَةٌ — إلى السَّماءِ تُميتُ النَّاسَ بِالحَسَدِ
قَوْمٌ أَبى اللهُ إلاَّ أَنْ تُكُونَ لَهُم — مَكَارِمُ الدِّين وَالدُّنيَا بِلا أَمَدِ
يا أُمَّ كُلْثُومَ، شُقِّي الجَيْبَ مُعْوِلَةً — على أَبيكِ، فقد أَوْدَى إلى الأَبَدِ
يا أُمَّ كُلْثُومَ، بَكِّيهِ ولا تَسِمِي — بُكَاءَ مُعْوِلَةٍ حَرَّى عَلَى وَلَدِ

أنظر: الإرشاد ١/ ١٠٨، رسائل الشّريف المرتضى ٤/ ١١٩، وفي أماليه ٣/ ٩٥، مستدرك الحاكم ٣/ ٣٣، ذيل تاريخ بغداد لابن النجار البغدادي ٢/ ١٩٨، فتح الباري لابن حجر ١٢/ ٧٣، شرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ٢٠، زهر الآداب وثمر الألباب للقيرواني ١/ ٨٤.

ترى، فهل فهم النَّاس منه، يوم صدر من مصدر بلاغته الأوَّل، ما أراد به ذلك البليغُ العظيمﷺ؟

نعم إنَّه أراد أن يُلْمِحَ ـ إذ يُبارك على ابنيه بهذا اللَّقب ـ إلى أنّ الوطن العاقّ الَّذي يُنْبِت الخيانة والغدر، كهذه الدُّنيا، والنَّاس القَلِقِين الَّذين مَرِنُوا على النِّفاق ونقض المواثيق، كشَبَاب ذلك العصر، لا يستحقَّان الإستظلال بسيادة هذين السيِّدين، ولا يناسبانها. فهما إذاً، سَيِّدا الشَّباب، ولكن من ذلك النَّوع المختار الَّذي وفى لله في عهده، وفي الوطن المختار الَّذي نزع الله فيه الغِلَّ من صدور ساكنيه، وجعلهم فيه إخواناً على سررٍ متقابلين[1].

سيِّدا شباب أهل الجنَّة وكفى.

وعلى أسلوبٍ أقرب إلى التَّوضيح: إنَّهما إذا عَقَّت الدُّنيا وعَقّ شباب هذه الدُّنيا حقَّهما، وبغيا عليهما، وأنكرا سيادتهما، وأبِقا منهما، فلابدَّ لسيادتهما أنْ تَسُود، ولكن في دُنيا خيرٍ من هذه الدُّنيا، وفي ناسٍ خيرٍ من هؤلاء النَّاس.

ولتبُؤ هذه الدُّنيا بحِرمانها من بركتهما وفضلهما وتوجيههما.

وليَبُؤ شبابها الخائن الغادر، بالعار والنَّدامة، وخزي التَّاريخ وعذاب القيامة.

والحديثُ ـ على هذا المفهوم ـ مَلْحَمَة نبويَّة، تقرأ الغيب من وراء الغيب، وتشير ـ بإجمال الملاحم ـ إلى ما سَيُلاقيه سيِّدا شباب أهل الجنَّة من شباب أهل الدُّنيا، وتفرض لكلٍّ من السيِّدينعليهما السلام نصيبهما رابحاً غير خاسر.

وما من شكٍّ، بأنَّ من كان سيِّد الجنَّة أو سيِّد شبابها، فإنَّه سيِّد النَّاس وسيِّد الدُّنيا بأسرها.

---

(١) إشارة إلى قوله جلّ من قائل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ سورة الحِجْر / ٤٧.

ولِسيِّد الأنبياء صلى الله عليه وآله، فيما تحمَّلته عنه الأسانيد الصَّحيحةُ من كلماته القِصَار، بلاغتُه الَّتي تتقاصر عن شَأوها مَلَكات العظماء من بُلغاء النَّاس. ثمَّ هي في فيضها العربيِّ الرَّائع، أعجوبةُ اللُّغة في سعتها وروعتها، وإنَّ من أروع وجوه الإمتياز في البلاغة النّبويَّة إشعاعَها الخاصّ إلى المعاني الكثيرة باللَّفظ القليل، فتارةً بالتَّصريح وأخرى بالتَّلويح. ومن هنا كان اتِّصالها الكثير بالنُّبوءات الصَّادقة الَّتي لا يُفارقها الإعجاز.

وكان هذا النَّوع من البلاغة ـ بذاته ـ دليلَ صحَّة الحديث النّبويِّ إذا كان في صحّته ما يُقال.

ومن ذلك، قوله صلى الله عليه وآله في سبيل النَّصِّ على إمامة سبطيه الكريمين الحسن والحسين عليهما السلام: «**إِنَّهُمَا إِمَامَانِ إِنْ قَامَا وَإِنْ قَعَدَا**»[1]. ـ ولقد تتدبَّر ظاهر هذا الحديث فلا تفهم منه إلاَّ التَّصريح بإمامة السيِّدين الحسنين، ثم تتدبَّره من وراء هذا الظاهر، فتراه يُلْمِحُ بنبوءته الصَّادقة إلى سيرة كلٍّ من هذين الإمامين، ويدلُّ على أنَّ أحدهما سيقوم وأنَّ الآخر سَيَقْعُد، أو على أنَّ أحدهما أو كُلاً منهما سيكون مرّةً قائماً، وأخرى قاعداً، ثمَّ هو في كلٍّ من الحالين إمامٌ لا يجوز الخلاف عليه على اختلاف حاليه.

ولم يكن أحدٌ في الإسلام أكثر استيعاباً لنُبوءات رسول الله صلى الله عليه وآله فيما أُثِر عنه، من ابنه وخليفته الحسن بن عليٍّ، فعلم ما عناه جَدُّه فيما أثبته له أو رفعه عنه، في هذين الحديثين، وفي أحاديث كثيرة أخرى.

وإنَّه لأولى من يتمسَّك بنبوءاته، ليَتَّخذ منها مناهج حياته ومماته.

أو ليس هو ابن ذلك النَّبيِّ صلى الله عليه وآله ووارث شمائله، ووصيُّه على أمّته؟ فليكن ما يلقاه من قومه، شبيه مالقيه النّبيُّ من قومه، ـ في دعوته ـ، وليَقُل اليوم مثل ما كان

---

(١) علل الشرائع ١/ ٢١١، الإرشاد ٢/ ٣٠. وممَّن رواه من أهل السُّنَّة: الصَّفوريُّ في نُزهَة المجالس ٢/ ١٨٤.

يقوله النّبيُّ يوم ذاك:

«اللّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإنّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»(١).

ولهذه النّبوَّة من تلكم النّبوَّة، خاصّتها الكريمة، الَّتي غلب بها الحسن سائر المسلمين في دنيا الإسلام، واستغنى بها عن القُوَّة المادِّيّة وعن الثَّروة والسُّلطان، لأنَّها بحقيقتها قُوَّة وثروةٌ وسلطان.

فليَبْغِ عليه معاوية، وليَخُنْهُ عبيد الله بن عبَّاس ولتخذله الكوفة، فلن تخذله بُنوَّتُه الكريمة من رسول الله، ولن تخونه إمامته المفروضة بأمر الله، ولن تَبغِي عليه مَودَّتُه الواجبة في كتاب الله.

وما قيمة المُلْكِ المحدود، إذا قِيسَ بالمُلْك الرُّوحيِّ الَّذي لا تَبْلُغُه الحدود.

وما كان الإخفاق ولا الفشل ولا الموت، بقادرٍ على القضاء ـ ولو يوماً واحداً ـ على هذه المعنويَّات الرُّوحيَّة الَّتي طبَّقت الجِوَاء فِخَاراً، وتجارب بها التَّاريخ إعجاباً وإكباراً، وبسطت سلطانها على قلوب المسلمين، لا يحرمها الإزدهار عدوان المعتدين، ولا يمنعها الإثمار إنكار المنكرين الجاحدين. وها هي ذي إلى يوم النَّاس هذا لتصّاعد قُدُماً في عظمتها وعلى طريق خلودها، في خطٍّ مستقيم بدون انحناءات.

وإلى هنا وقد تبيَّنّا ـ بهذا ـ الصِّلة الوشيجة بين الحسن وبين الينبوع الَّذي يَنِضُّ بالخير على البشريَّة في مزالق الشَّرِّ، وبالهدى على المسلمين في مواقف الفتنة والتِّيه، وبالبركة على الدُّنيا في ساعات الجَدْبِ والحِرمان، وعرفنا الحسن بوصفه ابن رسول الله وسيِّد شباب أهل الجنَّة وإماماً يُشارك القرآن في إمامته.

بقي علينا أن ننقاد بشيءٍ كثير من العناية والإهتمام، إلى فهم ما يَرمِزُ إليه الحسن نفسه في إيضاح موقفه ـ بين المُلك والمبدأ ـ.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣١٩٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٥، تاريخ مدينة دمشق ٦٢/ ٢٤٧.

ولنُرسِم الآن صورةً مُوجزةً مختارةً من كثير كثير، ممَّا تناقلته عنه الحكايات المتناثرة بأسانيدها المتفاوتة في الثِّقة، ثمَّ لنستظهر ـ بعد ذلك ـ إشارته البليغة الواردة فيما نذكره من هذه الحكايات، وهي ذات أهمِّيَّة كبرى، لتوجيهنا إلى القول الفصل في الموضوع.

ولنستمع الآن إلى تصريح شخصيٍّ منه له قيمته في موضوعنا الخاص.

إنَّه يجيب على السُّؤال العاتب الَّذي ألقاه عليه «سُليمان بنُ صُرُد» الرَّجل الَّذي وصفه ابن قتيبة بـ «سيِّد العراق ورئيسهم»[١]، فيقول:

«وَلَوْ كُنْتُ بِالحَزْمِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَلِلدُّنْيَا أعْمَلُ وَأنْصَبُ، مَا كَانَ مُعَاوِيَةُ بِأبْأسَ مِنِّي وَأشَدَّ شَكِيمَةً، وَلَكَانَ رَأيِي غَيْرَ مَا رَأيْتُم...»[٢]

ومَثَلٌ واحدٌ يُغني عن كثير ممَّا أجاب به شيعته.

أمَّا أجوبته لأعدائه، وفيهم من يَسرُّه أن يؤذيه وقد أمن الشَّرَّ من ناحيته، كعبد الله بن الزُّبير الَّذي كان يعلن مناوأته لآل محمَّدٍ صلى الله عليه وآله، فكان ممَّا أجابه به قوله **«وَتَزْعُمُ أنِّي سَلَّمْتُ الأمْرَ، وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ، وَيْحَكَ كَذَلِكَ، وَأنَا ابْنُ أشْجَعِ العَرَبِ، وَقَدْ وَلَدَتْنِي فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ. لَمْ أفْعَلْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ، جُبْناً وَلا ضَعْفاً وَلَكِنَّهُ بَايَعَنِي مِثْلُكَ، وَهُوَ يَطْلُبُنِي بِتِرَةٍ، وَيُدَاجِينِي[٣] المَوَدَّةَ، وَلَمْ أثِقْ بِنُصْرَتِهِ...»**[٤].

وتصريحٌ آخر قصير ولكنَّه خطير، ولعلَّه على إجماله، أبلغ تصريح في هذا

---

(١) ابن قتيبة الدينوري في الامامة والسياسة (ص ١٥١) [ت ز ١/ ١٤١،]. (المؤلِّف رحمه الله)
أقول: وفي الأصل: «وكان سيّد أهل العراق ورأسهم».

(٢) نفس المصدر.

(٣) «يُدَاجِينِي» من المداجاة: المداراة، يقال: داجيته، إذا داريته، كأنك ساترته العداوة. الصِّحاح للجوهري ٦/ ٢٣٣٤.

(٤) المحاسن والمساويء للبيهقي (ج ٢ ص ٦٠ ـ ٦٥) [/ ٨١]. (المؤلِّف رحمه الله)

الصَّدد، وهو ما يجيب به شقيقه ومزاج مائه، وشريك حَوْبَائِهِ في سَرَّائِه وضَرَّائِه «الحسين عليه السلام».

إنَّه سأله: «مَا الَّذِي دَعَاكَ إلى تَسْلِيمِ الأمْرِ؟» فقال: «الَّذِي دَعَا أَبَاكَ فِيمَا تَقَدَّمَ».[1]

أقول: ولتكفنا هذه النَّماذج القليلة عن كثير من مثيلاتها، شاهداً على «الإمتحان» القاسي الَّذي تعرَّضت له الإمامة من أصدقائها ومن أعدائها، والَّذي خرجت منه ـ في نهاية المطاف ـ مَزْهُوَّةً بدرجة الشَّرف في النَّجاح.

ونحن إذا نخلنا تصريحات الإمام في هذا الصَّدد، وجدناها تنكشف في شتَّى بياناتها عن العناصر الرَّئيسة الآتية.

١. أنَّه لم يعمل للدُّنيا.

٢. أنَّه لو أراد أن يعمل للدُّنيا، لكان أقوى عليها من خصومه، ولكانت مناهجه في الحياة، غير هذه المناهج.

٣. أنَّه لم يؤتَ في موقفه من ضعفِ نفسٍ ولا ضعفِ سياسةٍ ولا جبن، ولكنَّه لم يجد الأنصار المخلصين، ومعنى ذلك أنَّ أداة النَّصر كانت متوفِّرة لديه، لو قُدِّر له مؤازرون صادقون.

٤. أنَّ هدفه الوحيد هو هدف أبيه من قبل، وكان هدف أبيه فيما سكت عنه من حَقِّه، صيانة المعنويات الإسلامية من الإنقراض، والعقائد الدِّينيَّة عن الإنتقاض.

ولقد ترى أنَّ معالم الإمامة الرُّوحيَّة تتجلَّى واضحةً بين عناصر هذه البنود الأربع،

---

(١) البحار (ج١٠ ص١١٣) [٤٤/ ٥٧ عن المناقب لابن شهر آشوب ٣/ ١٩٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: ولعلَّ وجه احتجاج الإمام الحسين عليه السلام على أخيه ـ على فرض صحّته ـ تفهيم الآخرين وتنبيههم الحكمة من الصُّلح وليس اعتراضاً وحاشاهما أن يكون شئٌ من ذلك بينهما.

لا تشتبه بضعف ولا تَتَّصل بتراجع ولا تمتّ إلى نكول، ولكنّها القُوَّة القائمة بنفسها، والدَّائبة على العمل لربِّها، فلماذا تعمل للدُّنيا، وما الدُّنيا من شاكلتها ولا هي من شاكلة الدُّنيا. كذلك هي «الإمامة» بمعناها الصَّحيح، وبما هي ظِلّ النّبوَّة بمعناها الَّذي يتّصل بالسّماء، وما قامت النّبوَّة في الأرض ـ يوم شاء الله لها أن تقوم ـ إلاّ بالأنصار المخلصين، ولن تقوم الإمامة إذا شاء الله لها أن تقوم إلاّ بالأنصار المخلصين. وأين الأنصار المخلصون من هؤلاء الّذين يُداجُون المودَّة رئاءً وهم يطلبون بالتِّرات، ويبايعون على الطَّاعة المطلقة ثم يفرّون على غير مبالاة.

وكما لم يكن محمَّدٌ صلى الله عليه وآله إلاّ رسولاً قد خلت من قبله الرُّسل، فما كان ابنه الحسن إلاّ إماماً في قلبه الإيمان وعلى لسانه المثُل، وهذه هي رسالته التي أريدت له وأريد لها.

ومُني بالموقف الحرج، كذلك الذي مني به جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبية[1]؛

---

(١) ذكروا في خبر الحديبية أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله خرج في السَّنة السَّادسة للهجرة وفي شهر ذي القعدة منها نحو مكّة للحجّ ورغّب المسلمين جميعاً، في هذا الأمر فعزم على الذّهاب معه جمع من المهاجرين والأنصار وغيرهم، وكان عددهم ألف وثلاثمائة وفي بعضها ألف والأربعمائة وفي أخرى ألف وثمانمائة، ولم يحملوا معهم من أسلحة الحرب سوى ما يحمله المسافر من سيف وشبهه آنذاك، ولما وصل النبيُّ صلى الله عليه وآله قرب مكّة بلغه أنَّ قريشاً تهيأت لمنعه من الدخول إلى مكة، فنزل النبيّ صلى الله عليه وآله عند بئر يسمّى «الحديبية» وأمر أصحابه أن يحطوا رحالهم عندها، ثمّ تبادلوا السُّفراء بينهم للتوصّل إلى حَلٍّ، فحينها بلغ النبيَّ صلى الله عليه وآله ما أشيع من مقتل موفده عثمان بن عفّان، ولو كان هذا الخبر صحيحا لكان دليلاً على إعلان قريش الحرب ومنازلة النبيّ صلى الله عليه وآله لذلك فقال صلى الله عليه وآله: «**لا نُبارِحُ مَكَانَنَا الْحُدَيْبِيَةَ حَتَّى نَأْخُذَ البَيْعَةَ مِنْ قَوْمِنَا**».

فوقف النبيّ صلى الله عليه وآله وأخذ البيعة من أصحابه جميعاً، واختُلِفَ في كون البيعة على أن لا يفرُّوا أو على الموت؟ وعُرفت بـ«بيعة الشجرة» لأنها تمّت عند شجرة هناك وعرفت أيضاً بـ«الرّضوان» لقوله تعالى في سورة الفتح / ١٨: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾. وكما هو واضح من صريح الآية أنّ رضوان الله شمل المؤمنين منهم خاصّة ولا يعدو غيرهم، كيف وقد كان فيهم كهف المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول.

⇦

⇦

أنظر في ذلك السّيرة الحلبية ٢/ ٧٠٣، عمدة القاري للعيني ٨/ ٥٤، تفسير الرازي ١٦/ ١٥٣، تفسير الكشّاف للزّمخشري ٢/ ٢٠٦، الدّر المنثور للسّيوطي ٦/ ٢٢٥، تخريج الأحاديث للزيلعي ٢/ ٩٣، المحلّى لابن حزم ١١/ ٢١٠.

وما أن بلغ قريشاً هذه البيعة حتى ملئت صدورهم رُعباً وخشيةً من عواقبها، فالتمسوا مصالحة النبيّ ﷺ وطلبوا المهادنة على شروط اشترطوها كانت ثقيلة على المسلمين، ووافقهم النبيّ ﷺ في هذه الأمور للمصلحة المهمة الّتي يراها هو وإن كانت لا تظهر لبعض الناس في بادي الأمر، وقد واجه النبيّ ﷺ حينها عبارات مزعجة من بعض أصحابه ففي صحيح البخاري ٣/ ١٨٢ عن عمر بن الخطّاب قال: ... فأتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقّاً؟ قال: «**بَلَى**» قلت: ألسْنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: «**بَلَى**» قلت: فَلِمَ نُعطَى الدَّنية في ديننا إذاً؟ قال: «**إنّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي.**» قلت: أو ليس كُنْتَ تحدِّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بَلَى فَأَخْبَرْتُكَ أنّا نَأتِيهِ العَامَ؟**» قال: قلت: لا، قال: «**فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَوِّفٌ بِهِ**» قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبيّ الله حقّاً؟! قال: بلى، قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلى قلت: فَلِمَ نعطي الدَّنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرَّجل إنّه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربَّه وهو ناصره فاستمسك بِغَرْزِهِ، فوالله إنّه على الحقّ. قلت: أليس كان يحدِّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوِّفٌ به.

ثم تقول الرّواية: فلمّا فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قُومُوا فانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا**» قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرّات! فلمّا لم يقم منهم أحدٌ دخل على أمِّ سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أمُّ سلمة: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ أخرج ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تَنْحُر بُدنَك وتدعو حالقك فيَحْلِقَك، فخرج فلم يُكَلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك نَحَر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه، فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضُهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غَمّاً.

والرّواية هذه من بين الكثير من أمثالها تبيّن مدى تسليم الصّحابة لأوامره ﷺ في الحرب والسّلم وفي كثير من المواطن والسّاعات الحرجة، وحتّى في الصّلاة لا يبالون أن يتركونه اتّباعاً للهوى وطمعاً في الدّنيا وهو قائم يخطب: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ سورة الجمعة / ١١.

وبني أشجع[١]، ونكب من أنصاره كما نكب أبوه عليه السلام بخذلان الناصر يوم «السَّقيفة»[٢]؛ ويوم «الشُّورى»[٣]، فَلِمَ لا يتَّخذ من جدِّهِ وأبيه مَثَلَه، ويُنجز على سُنَّتِهما عَمَلَه، وما من غضاضةٍ عليه إذا كان فيما أتاه ثالث هذين الإثنين العظيمين.

ثم نقول على هامش ما ورد في دلالة البند الثَّاني: أنّ الحسن بن عليّ كان قد أخذ على نفسه أن يضع مواهبه وحياته وتاريخه وكيانه السِّياسي وما أوتي من جَلَدٍ وقُوَّة،

(١) «أشْجَع»: قبيلةٌ من غَطَفانَ، وهم: بَنُو أَشْجَعَ بنِ رَيْثِ بنِ غَطَفانَ بنِ سَعْدِ بنِ قَيْسِ بنِ عَيلانَ بْنِ مُضَرَ بنِ نِزَارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ. منازلهم بضواحي المدينة وكانوا حُلفاء للخزرج، استنفرتهم قريشٌ في غزوة الأحزاب فانضمُّوا إليهم، وفي الطَّبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٠٦: قدمت أشجعُ على رسول الله صلى الله عليه وآله عام الخندق [في السَّنة السَّادسة] وهم مائة، رأسهم «مَسْعُودُ بنُ رُخَيلَةَ» فنزلوا شِعب سَلْعٍ فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر لهم بأحمال التَّمر فقالوا: يا محمَّد لا نعلم أحداً من قومنا أقربَ داراً منك منّا، ولا أقلّ عدداً، وقد ضِقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك، فوادعهم. ويقال: بل قدمت أشجعُ بعد ما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من بني قُرَيْظَة، وهم سبعمائة، فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك.

(٢) «السَّقِيفةُ»: كل بناء سُقِفَت به صُفَةٌ أو شبهُها مما يكون بارزاً. أنظر: لسان العرب ٩/ ١٥٥، وسَقِيفَةُ بَنِي سَاعِدَةَ هي لبني سَاعِدَةَ بنِ كَعْبِ بنِ الخَزْرَجِ ـ وهم حَيٌّ من الأنصار ومنهم سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ نقيبهم ورئيس الخَزْرَجِ ـ ظِلّةٌ يجلسون تحتها، هي دار ندوتهم لفصل القضايا. وعقيب رحيل النَّبيِّ صلى الله عليه وآله اجتمع فيها الأنصار ولحقهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة من المهاجرين، وبعد شجار طويل أخذ عُمَرُ يدَ أبي بكر وبايعه على الخلافة وتبعه بذلك الآخرون، ولم يعبأوا بمن خالفهم في ذلك المقام كَسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ ما جعلهم أن يَدُوسُوا بطنه بصريح اعتراف عمر: وَنَزَوْنَا على سَعد بنِ عُبَادة، فقال قائل منهم: قَتَلتُم سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ، فقلت: قَتَلَ اللهُ سَعْدَ بنَ عُبَادَة. صحيح البخاري ٨/ ٢٨. وأحيل القارئ الكريم إلى كتاب: «السَّقيفَة» للعلاَّمة المجدِّد الشَّيخ محمَّد رضا المظفَّر رحمه الله ففيه دراسة متقنة حول الموضوع.

(٣) للتَّعريف بيوم السَّقيفَة، بحوثُها الَّتي استوفتها الكتب الطِّوال، وأمّا يوم الشُّورى، فإنَّ أحسن عرضٍ لموقف عليٍّ عليه السلام منه، هو ما يدلُّ عليه قولُه هُو لأصحاب الشُّورى يومئذٍ: «**لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لأُسْلِمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إلا عَلَيَّ خَاصَّةً، الْتِمَاساً لأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِبْرِجِهِ**» النهج (ج١ ص١٢٤) [الخطبة: ٧٢]. (المؤلِّف رحمه الله).

رهناً بخدمة مبدئه وقُرباناً في سبيل تخليده وإعلاء كلمته، وكان في خطوته الجبّارة الَّتي ختم بها موقفه ـ بين المَبدأ والمُلك ـ الإمام الزَّاهد بالدُّنيا والخليفة الَّذي لم ينزل إلى قبول المسؤولية من النَّاس إلاَّ ليصعد من طريقها إلى إقامة المُثُل الإنسانيَّة في النَّاس.

فهو فيما أخذ وفيما ترك، كان المثَل الأعلى للزُّعماء المبدئيين.

وجاءته الدُّنيا طائعةً بمُلْكِها وثروتها ونفوذها ولذاذاتها، ولم تُكلِّفه ثمناً لانقيادها إليه، وأختصاصها به، وعكوفها بين يديه، إلاَّ ايثارها من ناحيته، فأبى.

ولو أنَّه كان فَعَلَ، فآثرها «وحزم ونصب لها» لكان ـ بدون شكٍّ ـ أربح إنسان فيها، لانَّه إذ ذاك المَلِك الَّذي جمع أفضل نسب في تاريخ الإنسانيَّة، إلى أعظم مملكة في تاريخ الممالك.

ولكنَّه كان عليه، لو رضينا له أن يكون دُنيويّاً ـ وفرض المحال غير محال ـ أنْ يتجرَّد من قيود وراثته وتربيته، وأن يترك عنعناته الرُّوحيّة جانباً، وأن يكون هو غير الحسن بن عليٍّ وابن فاطمة وسبط رسول الله ﷺ، فيعمد إلى إرضاء الطَّامعين، واصطناع الموازرين وإرشاء القلقين. وفي جباية إمبراطوريَّته المترامية يومئذٍ، ما يتَّسع لشتَّى المطامع الَّتي يتطامن لسحرها زُعماء ذلك الجيل و «أبناء بيوتاته النفعيُّون» فإذا المنافقون كُلُّهم مؤمنون طيّبون، وإذا الخَوَنةُ كلُّهم أمناء مخلصون وإذا القلقون رعيّةٌ خاضعون، واذا النَّاس كُلُّهم مزيّفون وهم لا يشعرون!!

ولرأيت عمرو بن العاص والمُغِيرَة بن شُعْبة وزياد ابن أبيه ورجال مدرستهم، يلوذون ببلاط الحسن في الكوفة، كما يلوذ به اليوم حُجْرُ بنُ عَدِيّ وقيسُ بن سعد وعَدِيّ بن حاتِم، أو كما يلوذون هم ببلاط معاوية هناك، وما كانوا ليصطدموا من شمائل الحسن ـ إذ يلوذون به ـ بما يصدمهم من عناصر الفشل في معاوية وتاريخه ومواريثه وارتجاليَّاته.

ولَنَجَحَت قضيَّة الحسن، على الشَّكل الَّذي لا يُغرينا بأن نكتب عنها أو نخوض فيها، أو نضحِّي لها وقتاً..

ولرأيت هذا الشَّعب الكُوفيَّ اللَّئيم ـ الَّذي واكب عهد الحسن في التاريخ ـ ولاءً وطُمانينةً وإستقراراً، ما دامت خزائنه معرَّضة لشراء الضمائر وولاياته مفوّضة لإستجابة نَهَمِ الأكابر، وما دامت سياسة دولته تُداري ما حولها من الأهواء النَّفسيَّة، والأغراض الحزبيَّة، والأطماع الدُّنيويّة، اللَّهمّ إلاَّ ما يُنبِّهنا إليه استقراء نفسيَّات الأقلّيَّة المتزمِّته من «شيعة أبيه» الّذين برهنوا في ثباتهم مع الحسن العازف عن الدُّنيا، ومع أبيه الَّذي طَلَّق الدُّنيا ثلاثاً[1]، على أنهم كانوا وراء حقائق لا وراء مطامع.

ولكنَّ الَّذي كان يُؤمَّل أن يخفِّف الضَّغط من ناحية هؤلاء أنَّ بُنوَّة الحسن ـ الَّتي لن تُفَارِقه ـ من رسول الله صلى الله عليه وآله، ستكون هي شفيعه المقبول الشَّفاعة، لدى هذه الزُّمرة من المؤمنين غير المزيَّفين.

وما ظَنُّك بعد هذا؟ فهل ترى أنَّه كان من مستطاع معاوية أن يُقاوِم «هذا الحسن» أو ينتصر عليه؟ وأيُّهما ـ على هذا ـ كان أولى بالضَّعف، وأيُّهما كان أولى بالقُوَّة، الحسن أم معاوية؟

وعلى ضوء هذا التَّقريب، نفهم معنى قول الامام الحسن: «**وَلَوْ كُنْتُ بِالحَزْمِ فِي**

---

(١) ورد في خبر ضِرارِ بنِ ضَمْرَة الضَّبَابي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى اللَّيلُ سُدولَه، وهو قائم في محرابه قابضٌ على لحيته، يتململ تملمُل السَّليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: «**يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا إِلَيْكِ عَنِّي، أَبِي تَعَرَّضْتِ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ؟ لا حَانَ حِينُكِ، هَيْهَاتَ غُرِّي غَيْرِي، لا حَاجَةَ لِي فِيكِ، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً لا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ وَأَمَلُكِ حَقِيرٌ، آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَطُولِ الطَّرِيقِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَعَظِيمِ المَوْرِدِ.**» نهج البلاغة ٤/ ١٦، الحكمة: ٧٥، تاريخ مدينة دمشق ٢٤/ ٤٠٢.

أَمْرِ الدُّنْيَا وَلِلدُّنْيَا أعْمَلُ وَأَنْصَبُ، مَا كَانَ مُعَاوِيَةُ بِأَبْأَسَ[1] مِنِّي وَأَشَدَّ شَكِيمَةً[2]، وَلَكَانَ رَأْيِي غَيْرَ مَا رَأَيْتُمْ».

أجل، وهذا هو المظنون، لو أراد الحسن الدُّنيا.

ولكن الشَّيء المعلوم، هو أنَّ الإمام الحسن بن عليٍّ عليه وعلى أبيه السَّلام، كان بَشَراً آخر غير هذا.

إنَّه كان من ذلك النَّوع الَّذي لا يَطِلّ على هذا العالم، إلاَّ في فترات معدودة من الزَّمان، فَتَسْتَرْوِح البشريَّةُ من شمائله مُثُلَها، وتَتَرسَّم بهُداه النَّقِيّ الفاضل سعادتها.

إنّه كان يفهم من الشَّرف معنىً خاصّاً، مَزيجاً من عِزَّة النَّفس ومصالح الدِّين، فلا المُلْكُ ولا المال، ولا المُتَع الملذوذة في الدُّنيا، ممَّا يدخل في حساب الشَّرف عنده.

وكانت عِصْمَتُه عن الرِّجس كما يصفها الكتاب[3]، ورُوحِيَّتُه المثالية الَّتي تملأ ذلك الإهاب، تمنعانه النزول عن شموخ هذا الشَّرف، إلى الحضيض من رغبات المُلْك الزَّائل، واللُّبانات[4] المنغِّصات، مع ما يستلزم ذلك من الصُّدوف عن الله وعن كتبه ورسله واليوم الآخر، ولن يكون الرَّجل الدُّنيويُّ إلاَّ متغاضياً عن أولئك جميعاً أو مغاضباً لهم.

وكان معنى رِبح الموقف، عن طريق هذه الأساليب الملتوية، الخسارة الكبرى،

---

(١) «البَأْسُ»: الشَّجاعة والقُوَّة. ومعنى «**مَا كَانَ مُعَاوِيَةُ بِأَبْأَسَ مِنِّي**»: ما كان بأشجع وأقوى مني. (المولّف ﵀)

(٢) «الشَّكِيمَةُ»: الأَنفَة والإنتصار من الظُّلم، وشديد الشَّكيمة: هو الأبيُّ الَّذي لا ينقاد. (المولّف ﵀)

(٣) إشارة إلى قوله عزّ وجلَّ من قائل في سورة الأحزاب / ٣٣: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾

(٤) جمع اللُّبَانَة: الحاجة.

في حياة هذا النَّرع من ذروات المثالية وأعالي النَّاس.

وكان من لوازم هذا الإلتواء ـ في جانب الحسن ـ أن تتلاشى في نفسه، الغرائز المثلى الَّتي غرستها في كيانه يدُ النُّبوَّة، وغذَّتها في روحه أثداء الوحي، وبسطتها في وجدانه مهابط التنزيل.

و أنَّى لتلك الغرائز أن تتلاشى في نفسه، وهي منه كبعض ذاتيَّاته الَّتي لا تنفصل عنه؟. وأنَّى له أن يعمل للدُّنيا أو «يحزم وينصب لها» وهو ابن رسول الله وربيب حجره، وتلميذ مدرسته؟.

وما لرسول الله وللدُّنيا، لو لا أنها ميدان رسالته.

فليكن الحسن بحكم طبيعته المملاة عليه من تربيته وعقيدته ومحيطه، مرآة جده، ولكن في ميدان إمامته، وتلك هي القدوة الحسنة والأسوة الطيِّبة، الّتي لا يمسّها ضعف، ولاتُتَّهم بجبن، ولايهزمها هُمَزةٌ بنقص ـ مرآته في زهده بالدُّنيا، كما هو مرآته في كرائم صفاته، لأنَّه كان «أشبههم به خَلْقَاً خُلُقَاً»[1]، ومرآته حتى في سياسته وإدارته.

فأين هي مآخذ الضَّعف على الحسن فيما يتسرَّع إليه المنتقدون؟.

ونسي الخائضون في نقد سياسة الحسن عليه السلام، حَرَاجَة موقفه من أنصاره، ونسوا أنَّ شذوذ هؤلاء الأنصار إنَّما كان وليد الحوادث الزَّمنيّة التي لا يَدَ للحسن فيها، بحكم تطوُّر الحياة العامّة منذ الجيل الثالث بعد عهد النُّبوّة، وانطلاق النَّاس ـ أو اكثرهم ـ من عقال التَّقوى، واستكانتهم للمطامع وللملذَّات. فالجناية إذاً جناية ظرفه، والخيانة خيانة جيله الّذي قُدِّر له أن يعيش معه، ولا تثريب على الحسن من هذا أو ذاك.

---

(١) وهو المعروف بين الصَّحابة أنّ الحسن بن عليّ عليهما السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله. أنظر: صحيح مسلم ٧/ ٨٥، سنن الترمذي ٤/ ٢١٠، مستدرك الحاكم ٣/ ١٦٨، المعجم الكبير للطبراني ٢٢/ ١٢٨، تاريخ ابن عساكر ١٤/ ١٢٧، الإرشاد للشّيخ المفيد رحمه الله ٢/ ٥.

ونسوا ـ وهم يتحاملون على سياسة الحسن عليه السلام ـ أنّ العاقبة لمثل هذا الموقف ومثل هذا الظَّرف، ومثل هذا المجتمع الَّذي جُبل على الرِّياء والباطل، مع الرَّجل الّذي لا يحلُم بغير الإخلاص والحقِّ، لا تحتمل في الإمكان أحسن ممَّا كان.

لذلك نَرى أنّ التدابير الخاصّة الَّتي اتخذها الإمام الحسن في خُطُوات قضيَّته، كانت أبرع الحلول لمشاكلها، وأروعها سياسةً، وأدقَّها نَظراً، وأليقَها بسيرة إمام.

وقد عرضنا في فصولنا هذه، المآخذ الّتي أخذت على الحسن عليه السلام فذكرنا كُلاً منها فيما ناسبه من موضوعاتنا، ورجعناه هناك إلى وجه الصّحيح الذي كان يُواكبه في واقعه، والّذي لا يدع مجالاً ـ بعده ـ لتحريف أو تخريف.

وهكذا انتفض الحسن ـ أخيراً ـ انتفاضته الإصلاحيّة الكُبرى، فطوَّر الموقعة القائمة على الفتن والسِّلاح، إلى دعاوة خُلُق ومحبَّةٍ وإصلاحٍ، فإذا هو «المصلح الأكبر» المُجَلِّي في ميدان المُصْلِحين، وإذا هو «القائد المبدئيُّ» الظَّافر بأسمى مدارج الكمال بين الابطال المبدئيين.

وإذا هو ـ بعد ـ مَلِكُ الدّنيا بأسرها، وإن لم يكن مِلِكُ عرش.

وهل الإسلام في حقيقته، إلاّ هذه الرُّوح الملائكية، الّتي لن تغلبها مادِّيّة الدُّنيا، ولن تستذلها شهواتها الرَّخيصة وأوهامها الخُلَّب الكذوب؟

إنّه نظر إلى الكثرة من «أصحابه» فَسَاءَه أن يَجِدَهم في تواكلهم عن الواجب، وعُزوفهم عن الخلق، وتفرُّقهم عن حقِّهم، أصحاباً لعَدُوِّه من دونه، وكانت العَدْوَى الخبيثة الّتي نشبت أظافرها في رؤوس الخائنين المعدودين، قد فتكت في المجتمع المغلوب على أمره ففرَّقت كلمته وضعضعت من صفوفه وجعلت منه ـ في قليل من الزَّمن ـ طَرائقَ وأوزاعاً، يَرسِم كلُّ فريق منهم خُططَه بيده ويستعدّ للحرب، ولكن ليُحَارب ـ في يوم كريهته ـ أبعد الرَّجلين عن مآربه وأقربهما إلى حرمانه.

وأيُّ أملٍ بـ صحاب ليس شَرّاً منهم الأعداء؟

فَلِمَ لا يقول الإمام «النّائب عن النّبيِّ ﷺ» كلمته التي يُفرِغُ بها عن لسان النّبوَّة في رحمتها وسُمُوِّها، كلمته الّتي تَتَحَايد بمغزاها عن الفريقين المتحاربين، كما لو كانت شيئاً فوق الجميع؟

وهل «الإمام» في حقيقته إلاَّ شيئاً فوق الجميع؟.

التَّضْحِيَةُ

ما كان من السَّهل الإنصياع إلى هَذه النَّبَالَة[1] في «رَقمها القياسي» الّذي لا تحلم بمثله كُبرياتُ النُّفوس مهما بلغ بها إنكار الذّات، لو لا ما أودع الله في هذه النَّفس من القُوَّة والصَّبر والإحتمال والكبرياء على الحياة.

وأين تكون التَّضحية في سبيل الله والفَنَاء في ذات الله والعمل في جنب الله إلاَّ حين تستقيم النَّفس سافرةً لا تلتمس رِيبَةً، صريحةً لا تتكلّف مُداراة ولا مُداورة ولا استخفاء، مجاهِدةً جِهَادها الأكبر في تحطيم ميولها الشَّخصيَّة، ومعاكسة طبيعتها البَشَريّة بكبح جِمَاحَها الأرِضيٌّ الأنانيّ.

وها هي ذي «الإمامة» بكلِّ معانيها المنقطعة إلى الله وها هو ذا «الإمام» المنقطع إلى الله بكلِّ معانيه.

وإذا لم يكن الظَّرف القائم بين يديه، كافياً للإنتصار على الباطل فلم لا يتَّخذ منه ظَرفاً كافياً للإحتفاظ بالحقِّ؟

وذلك هو ما انتهت إليه صورةُ الموقف، بعد أن رفع السِّتار عن نوايا الجماهير الّتي كانت ترتجز أمامه للجهاد، وتتركز في حقيقتها على الأغراض.

واذا كان لا يردّ عَادِيَةَ معاوية عن الإسلام الصَّحيح، مُتَمثِّلاً في الصَّفوة من آل محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم والبقيَّة الباقية من حزب الله المخلصين، ولا يَرُدُّ أجناده من أهل الشَّام، ورِتْلَه الخامس المتغلغل في صميم الكوفة وفي معسكر الإمام إلاَّ الغَلَب على المُلك.. فلتكن لهذه الأيدى العادية الضَّارية غنيمتها من الدُّنيا، بشهواتها ومطامعها ومضارِّها

---

(١) النَّبَالَة: من النُّبل وهو الفضل والشَّرف.

ومعايبها، ولتسلَم للحسن وللبقيّة من حزب الله، مَبَادِئُهم الرُّوحيّة، بجلالها وقُوَّتها واتِّساعها وعظمتها وخلودها.

وما من غضاضة على ابن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا تنزَّه عن وَضَر[1] المادَّة، فترك الدُّنيا لأهلها، وأنفرد بسلطان الرُّوح، ثابت المقام في عظمته، مرفوع الأعلام في إمامته، معروف الفضل في أمثُولته، مشكور الشَّمائل في جهاده وصبره وتضحياته.

وما لمسلمٍ معنيٍّ بإسلاميَّته، ولا لمؤمنٍ حريص على الصَّحيح من عقيدته، أن يشتبه في أمره، أو يُفرِّط بحقّه، أو يتناسى مكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله أو يتجاهل إمامته الثابتة بأمر الله ـ تلك الإمامة الّتي لا تقبل تغييراً ولا انتقالاً، ولاتحتمل ضَعفاً ولا انخذالاً، ولكنَّها الغالبة المنتصرة رَغم المحاولات المخذولة المناوئة، تقوى بقُوَّة الله، وتثبت بثبوت الحقِّ، وتمتدُّ في أعناق الأجيال كما تمتدُّ النُبوَّات في أعناق أممها، فيها كلُّ معاني المجد الحقيقي، وفيها الهيبة القادرة، وفيها الإستخفاف بخُيَلاء المناوئين.

إنَّها المرحلة الدَّقيقة من مراحل تاريخ الإسلام. وهي مرحلة الفصل بين الخلافة الحقيقية والمُلْك ـ بين الإمامة الدِّينيَّة والسُّلطان ـ، بين السُّلطة الزَّمنيّة والسّلطة الرُّوحيّة.

ولم يكن هذا الفصل ـ على صورته الظَّاهرة ـ ممَّا تألَفُه الذِّهنية الإسلاميّة بادىء الرّأي، ولكنَّه الأمر الواقع الّذي درج عليه الإسلام وألِفَه المسلمون من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، منذُ قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله، إلاَّ في الفترات القصيرة الّتي كانت قطرةً في بحر هذه القرون. وكان الإستسلام لعمليّة الفصل من قِبَل أولياء الأمر الشَّرعيّين، الوسيلة الإصلاحية الّتي يجب الأخذ بها عند الخوف على بيضة الإسلام.

ولكي نكون أكثرَ صراحةً في البحث، وأوضح تعبيراً عن الغرض نقول: إنّ الإمام الحسن لم يفعل في موقفه من معاوية، إلاَّ مثل ما فعله أبوه أمير المؤمنين عليه السلام في موقفه من أبي

---

(١) الوَضَر: الدَّرَن.

بكر وصاحبيه. وذلك هو معنى جوابه لأخيه الحسينعليه السلام فيما مرَّ عليك، حين سأله: «مَا الَّذِي دَعَاكَ إلى تَسْلِيمِ الأمْرِ؟» فقال له: «الَّذِي دَعَا أبَاكَ فِيمَا تَقَدَّمَ».[1]

ولكلٍّ من الإمامين في ظرفه الخاصّ، تضحياته الرَّفيعة الّتي حفظ بها الإسلام.

ومحا الحسن ـ على هذه القاعدة ـ خَارِطَة مملكته المادّيَّة من الأرض، لينقش بدلها خارطةَ عظمته الرُّوحيّة في الأرض والسَّماء معاً. وتلفّت إلى «حدود» مملكته في المُلك الجديد الّذي لا يبلى، فإذا هي الحدود بين مملكة الحقِّ والمملكة الّتي هي شيء غير الحقّ، بين الإنسانية المثالية والانانية الطَّاغية، بين روحانية «الإمام» الّذي يحيا ويموت، وعلى لسانه كلمات الله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾[2]، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[3]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[4]، ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[5] ـ وبين ماديّة «الجبّار» الّذي يعالن النّاس قائلاً: والله إنِّي ما قاتلتكم لتُصلُّوا ولا لتزكُّوا ولا لتصوموا ولا لتحجُّوا، وإنَّما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون![6].

واعتاد النّاس أن يتلقَّوا مثل هذه الحادثة، كما يتلقَّون الصَّدمة الكبيرة من أحداث الزَّمان، ذلك لأنَّهم إنَّما ينظرون إليها من ناحيتها الدُّنيويّة الضيِّقة فلا يرون فيها إلاّ الخسارة.

---

(١) تقدّم تخريجه وتعليقنا عليه في الصَّفحة / ٣١١.

(٢) سورة البقرة / ٤٣.

(٣) من الآية المتقدِّمة.

(٤) سورة البقرة / ١٨٣.

(٥) سورة آل عمران / ٩٧.

(٦) تقدّم تخريجه في الصفحة / ٣٣.

أمّا النَّفس المطمئنَّة المفطورة على الخير المحض، فالحادثة عندها وسيلة أهداف هي أعزُّ من المُلك، وهي أعزُّ من الدُّنيا بأسرها، وهي ـ مع ذلك ـ التَّاريخ الَّذى يُلَعْلِعُ على الإنسانيّة بالأمجاد.

وهكذا غلب الحسن النّاس في جهاده، وفي صبره، وفي تضحيته جميعاً. وهذه ثلاث هُنَّ أمَّهات الفضائل كلّها. وللحسن ثلاثٌ أخرى وثلاثٌ ثالثةٌ، كُلُّهن أدوات عظمته، وشواهد مزاياه.

غلب النّاس بإمامته، وبوجوب مَودَّته، وببنوَّته من رسول اللهصلى الله عليه وآله.

ونُكب من النّاس بأنصاره، وبأعدائه، وبزوجه.

وخُصَّ بين النّاس ـ كما قلنا ـ بالنَّوع الممتاز من جهاده، والنَّوع العظيم من صبره، والنَّوع الفريد من تضحيته.

ولكي نتوفَّر على فهم هذه المواهب الثَّلاث على الأخصِّ، كخصائص حَسَنِيَّة لها مميِّزاتها الّتي لا تقبل الجدال، نقول:

١ـ أما جهاده

فقد كان أروع الجهاد، وآلَمُهُ للنَّفس، وأوسعه ميداناً وأطوله عناءً.

إنّه جاهد في سبيل الله ولكن في ميادين كثيرة، لا في ميدان واحد: جَاهَد عَدُوَّه بما زحف إلى لقائه، وبما جُوبِه بِه من فِتنَه وأسوائه، وجاهد أصحابه وجنوده بما حاول من إستصلاحهم بمختلف الأساليب، فأعْيَته الأساليب كُلُّها، وجاهد نفسه بما ضبط من عواطفها، وبما كَبَت من طُموحِها، وبما ردّ من سلطانها، ولا نعرف في زُعماء البشريّة إنساناً تمكّن من نفسه ومن أعصابه ومن عواطفه كما تمكَّن منها الحسن في مواقفه الّتي مرّ عليها، وجاهد شيعتَه المخلصين في تشيّعهم له، بما تحمَّل من عتابهم الجرىء على قبوله الصُّلح، فَوَقَف منهم موقفه الّذي دلّ بذاته، على خصائصه الملَكيَّة

الممتازة الّتي لا تُفارق الإمام «المعصوم»، بما مَلَك من حفيظته، وبما ربط من جأشه، وبما قابلهم به من هُدوء الطَّبيعة، وميوعة اللَّهجة وطول الأناة.

وأجاب كُلاً على عتابه أوضح جواب، وأقربه إلى صواب، وكشف له عن أهدافه فيما أتاه، بما استأصل به شأفة عتابه، فإذا المخاطب مأخوذ ببراعة الحجّة وروعة الغرض وأصالة الرّأي، يستذكر بمواقف إمامه مواقف الأنبياء، ويتسقَّط من أخباره مساقط الوحي، فاذا هو هي.

وإليك هنا نموذجاً واحداً مما قاله له أحدهم ومما أجابه به، قال:

يا ابن رسول الله لِمَ هادنت معاوية وصالحته، وقد علمت أنَّ الحقَّ لك دونه، وأنَّ معاوية ضالٌّ باغٍ؟.

فأجابه: **«يَا أَبَا سَعِيدٍ أَلَسْتُ حُجَّةَ الله تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ وَإِمَامَاً عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَبِي؟»** قال: بلى، قال: **«أَلَسْتُ الّذِي قَالَ رَسُولُ الله لِي وَلأخِي: الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ إِمَامَانِ قَامَا أَوْ قَعَدَا؟»** قال: بلى، قال: **«فَأَنَا إِذَاً إِمَامٌ لَوْ قُمْتُ وَأَنَا إِمَامٌ إِذَا قَعَدْتُ»**.

«يَا أَبَا سَعِيدٍ، عِلَّةُ مُصَالحَتِي لِمُعَاوِيَةَ، عِلَّةُ مُصَالحَةِ رَسُولِ الله لِبَنِي ضَمْرَةَ وَبَنِي أَشْجَعَ وَلأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الحُدَيبِيَةِ، أولَئِكَ كُفَّارٌ بِالتَّنْزِيلِ، وَمُعَاوِيَةُ وَأَصْحَابُهُ كُفَّارٌ بِالتَّأوِيلِ».

«يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِذَا كُنْتُ إِمَامَاً مِنْ قِبَلِ الله تَعَالَى ذِكْرُهُ، لَمْ يَجِبْ أَنْ يُسَفَّهَ رَأيِي فِيمَا أَتَيْتُهُ مِنْ مُهَادَنَةٍ أَوْ مُحَارَبَةٍ، وَإِنْ كَانَ وَجْهُ الحِكْمَةِ فِيمَا أَتَيْتُهُ مُلْتَبِساً، ألا تَرَى الخِضْرَ ـ لَمَّا خَرَقَ السَّفِينَةَ وَقَتَلَ الغُلامَ وَأَقَامَ الجِدَارَ، سَخِطَ مُوسَى فِعْلَهُ لاشْتِبَاهِ وَجْهِ الحِكْمَةِ عَلَيْهِ، حَتَّى أَخْبَرَهُ فَرَضِيَ، هَكَذَا أنَا، سَخِطْتُمْ عَلَيَّ بِجَهْلِكُمْ وَجْهَ الحِكْمَةِ، وَلَوْلا مَا أَتَيْتُ لَمَا تُرِكَ مِنْ

شَيعَتِنَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ إلاَّ قُتِلَ.»(١)

أقول: وللحسن من فصيلة هذا الجهاد، جهادٌ آخر مثله، مع فصيلةٍ أخرى من النَّاس، هم الأمويُّون أنفسهم (وسنشير إليه قريباً).

وهذه وحدها خمسة ميادين، أفنى الحسن عليه السلام فيها عُمْرَهُ الشَّريف وتحمَّل هُمومَهَا بقوَّةٍ ثابتة، وجَلَدٍ عنيف.

ولم يبقَ ميدانٌ للجهاد، لم يَبْرُز الحسن فيه للنِّضال.

وإنَّه إذ ينزل عن سلطان مُلكِه، إنَّما يجاهد في الله من هذا الطَّريق إبقاءً على الإسلام، وتيسيراً لحياة المسلمين، ودفعاً للقتل عن المؤمنين، وهو في ذلك كالّذي ينزل عن حقِّه في حياته جهاداً في سبيل الله، ويبيع الله نفسه ليشتري منه جَنَّتَه.

٢ـ وأمّا صبره

فإنَّه صَدَى جهاده، والحصن الّذي يلجأ إليه في مختلف ميادينه.

ولقي من زمانه ومن أهل زمانه، الحِرمان والخيانة والغدر والمؤامرات والنِّفاق والغِيلة ونقض العهود، وبهتان الأعداء وسبابهم، وازورار الأصدقاء وعتابهم، وما لم يلقَه أحدٌ غيره فيما نعهد من زُعماء التّاريخ، وتفجَّرت عليه من كلِّ مكان، المحنُ السُّود والنَّكبات الفواتن.

فقابل كُلَّ ذلك بالصَّبر الّذي لا تُوازنه الجبال.

وعالج الأوضاع الّتي دارت حوله، بما أوتي من الحِكمة البالغة والحِنكة الموهوبة، مُتدرِّجاً معها من البداية إلى النِّهاية، لا يستسلم للغضب ولا يتأثَّر بالعاطفة، ولا يستكين للحوادث، ولا يتقلقل للمُربِكات، ولا تهزُّه إلاَّ نُصرَةُ الدِّين وكلمة القرآن

(١) البحار (ج١٠ ص١٠١) [٤٤/ ١، نقلاً عن علل الشرائع ١/ ٢١١]. (المؤلّف رحمه الله)
وأبو سعيد هذا من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، اسمه دينار، ولقبه عقيصا، وإنما لقب بذلك لشعر قاله.

ودعوة الإسلام.

وهذا هو الحسن السِّبط على حقيقته الّتي خلقه الله عليها. ولن يُنْكِر على الحسن خصالَه هذه، إلاَّ مُتعنِّتٌ جاهلٌ، أو عَدُوٌّ متحاملٌ، وكانت مزاياه في عصره مُثُلَ المزايا، وكان كرمه في النّاس مَضرِبَ المَثَل. وكان من حلاوة حديثه، وسرعة بديهته، وقُوَّة حُجَّته، وهيبته، وحِلمه، وحِجاه، ما شهد به أعداؤه فضلاً عن أصدقائه.

أنظر إلى تقريظ معاوية له في خواتيم «المشاجرات» الّتي كان يُثيرها عليه في مجالسه، وإلى إطرائه إيّاه في مناسبات أخرى لا تَتَّصل بهذه المشاجرات.

فقال مَرَّة وهو يُطري حلاوة حديثه:

«ما تَكلَّم عندي أحدٌ أحبّ إليَّ إذا تكلَّم أن لا يَسْكُت من الحسن بن عليٍّ»[1].

وقال عنه وقد ذُكر عنده:

«إنَّهم قومٌ قد أُلهِمُوا الكلام»[2].

وقال عن هيبته وحسن محضره:

«والله ما رأيته إلاَّ كَرِهتُ غيابه وهِبْتُ عتابه»[3].

وقال أيضاً:

---

(١) اليعقوبي (ج٢ ص٢٠٢) [٢/ ٢٢٧]، وابن كثير (ج٨ ص٣٩) [٨/ ٤٣]. (المؤلّف)

أقول: نفس الكلام نسب في بعض المصادر إلى عُميرِ بن إسحاق، وأخرى إلى محمَّد بن إسحاق، كما في البداية والنّهاية لابن كثير وقد مرّ، ويحتمل أن يكون محمَّد تصحيف عمير لقرب كتابتهما، وفي تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٥٢، عمير بن إسحاق يرويه عن معاوية.

(٢) العقد الفريد (ج٢ ص٣٢٣) [٤/ ١٠٤]. (المؤلّف)

أيضاً أنظر: وفيات الأعيان ٢/ ٦٨.

(٣) البحار (ج١٠ ص١١٦) [٤٤/ ٧٠ عن الإحتجاج ١/ ٤٠٢، وفيه: «شيابه» بدل: «جنابه»]. (المؤلّف)

«فوالله ما رأيتُه قطّ، جالساً عندي، إلاّ خفت مقامه وعَيبَه لي»[1].

وقال يمدحه:

أمَا حَسَنٌ فابنُ الّذي كانَ قَبْلَهُ	إذا سَارَ سَارَ المَوتُ حَيثُ يسير
وَهَـلْ يَلِـدُ الرِّئبَـالُ إلاّ نظـيرَه	وذا حَسَـنٌ شِـبهٌ لَـهُ ونَظـير
ولَكِنَّهُ لَو يُوزنُ الحِلمُ والحِجَـا	بـأمرٍ لَقـالُوا يَـذبُلٌ وثَبـير[2]

نعم هذا هو معاوية وهو عدوُّ الحسن (رقم: ١). وأمّا مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ، فهو الّذي كان يقول عن الحسن عليه السلام: «إنّه لَيُوازنُ حِلمُه الجبال»[3].

وكان التَّظاهر بالثّناء على الحسن من عَدُوَّيه هذين، دليلُ قُوَّةِ الحسن في النَّاس، وإلاَّ فدليل خضوعهما للأمر الواقع، أو هو السِّتار الّذي يُسْدِلُه الخصم على الفكرة الّتي يجهز بها على خصمه.

أمّا هذه المشاجرات الّتي مررنا على ذكرها مُروراً، والّتي حفل بكثير منها بعض الموسوعات ذات الشَّأن، فهي «الحُدَيَّا»[4] الّتي كان ينشط لها معاوية في مُضطَربه مع الحسن، حين يوجد الحسن في الشَّام ـ بعد الصُّلح ـ أو حين يوجد هو في المدينة.

وكانت مجالس يستعدُّ لها معاوية، بالأقوياء من أصدقائه الخُلَّص وأقربائه الأدْنَين، الّذين يُساهمُونَه النَّظر إلى أهل البيت عليهم السلام كالعائق لهم عن النُّفوذ إلى قلوب

---

(١) شرح النهج (ج٢ ص١٠١) [٦/ ٢٨٦]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) ابن ابي الحديد (ج٤ ص٧٣) [١٦/ ١٩٥]. (المؤلّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: ١٩/ ١٩٩. و«الرِّئبَال»: من أسماء الأسد والذئب، و«يَذبُل» و«ثَبير»: جبلان.

(٣) ابن ابي الحديد (ج٤ ص٥ وص١٨) [١٦/ ١٣]. (المؤلّف رحمه الله)

(٤) (المنازعة والمباراة). (المؤلّف رحمه الله)

«حُدَيَّاك»: من التحدِّي، قال الجوهري في الصّحاح ٦/ ٢٣١: يقال: أنَا حُدَيَّاك، أي: ابرُز لي وحدك.

النَّاس، فيجمع إليه ـ عمرو بن العاص، عُتْبَة بن أبي سفيان[١]، وعمرو بن عثمان بن عفَّان[٢]، والمُغِيرَة بن شُعْبة، والوَليد بن عُقْبَةَ بن أَبِي مُعَيْط[٣]، ومَرْوَان بن الحَكَم، وعبد

---

(١) عُتْبَةُ بن صَخْرٍ أبي سفيان بن حرب بن أمية، أخو معاوية بن أبي سفيان، ولد على عهد رسول الله ﷺ يُكنى أبا الوليد، ولاّه عمر بن الخطاب الطّائف وصدقاتها، وشهد الجمل مع عائشة فذهبت عينه يومئذ وشهد صفين مع أخيه معاوية وشهد الحكمين بدومة الجندل، ولاّه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص فأقام عليها حتّى توفي ودفن فيها وذلك سنة أربع وأربعين. أنظر: الإستيعاب ٣/ ١٠٢٦، الإصابة ٥/ ٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٣٨/ ٢٦٢

(٢) عمرو بن عثمان بن عفان القرشي الأموي، وأمّه أسماء بنت عمرو الدوسية، زوّجه معاوية ابنته رملة فأولد منها عثمان درج وخالداً. أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ١٥٠.

(٣) الوَلِيدُ بنُ عُقْبَةَ بنِ أبانٍ أَبِي مُعَيْطٍ، أَبُو وَهَبٍ، القُرَشِيُّ، الأُمَوِيُّ، أخُو عُثْمانش بْنِ عَفَّانَ لأمّه، أسلم يوم الفتح، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق فسار حتى إذا كان قريباً منهم رجع فأخبر النّبيّ ﷺ أنهم ارتدُّوا وأبوا من أداء الصَّدقة، فنزل حينها قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ سورة الحجرات/ ٦، وهذا الخبر من المجمع عليه بين المحدِّثين، قال ابن عبد البرّ في الإستيعاب ٤/ ١٥٥٣: «ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمتُ أنَّ قوله عزّ وجل ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ نزلت في الوليد بن عُقبة.»

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ سورة السَّجدة/ ١٨، عن ابن عبَّاس قال: قال الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط لعليِّ بن أبي طالب: أنا أحدُّ منك سِناناً، وأبسطُ منك لساناً وأملأ للكتيبة منك، فقال له عليّ عليه السلام: «أسْكُتْ فَإِنَّمَا أَنْتَ فَاسِقٌ»، فنزلت الآية الكريمة. أنظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ٣/ ٨٧، الدّر المنثور ٥/ ١٧٨، فتح القدير للشوكاني ٤/ ٢٥٥، تاريخ ابن عساكر ٦٣/ ٢٣٥، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٤١٥، ثمّ قال الذّهبي: «قلت: إسنادُه قويٌّ، لكن سياق الآية يدلُّ على أنها في أهل النار!.» ولاّه عمر صدقات بني تغلب، وولاّه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص سنة ٢٥ هـ، فصلّى بهم صلاة الصُّبح أربع ركعات، ثمَّ التفت إليهم وقال لهم: هل أزيدكم؟ فشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر، فعزله ودعا به إلى المدينة وأمر بإقامة الحدِّ عليه، فامتنع الجماعة عن ذلك توقّياً لغضب عثمان لقرابته منه، فنهض أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ السّوط ودنا منه، فلمّا أقبل نحوه سبَّه الوليدُ، فقال عقيل بن أبي طالب: إنّك لتتكلّم يا بن أبي مُعيط كأنك لا تدري من أنت؟ وأنت عِلْجٌ من أهل صَفُوريّة، فأقبل الوليد يروغ من عليٍّ عليه السلام فاجتذبه وضرب به الأرض وعلاه بالسَّوط، فقال له عثمان: ليس لك أن

⇦

الله بن الزُّبير، وزياد أبن أبيه، وربما جمع بعض هؤلاء دون بعض، وربما ضمَّ اليهم آخرين. ثمَّ يدعو الحسن عليه السلام، فلا يزال يبرُز لمشاجرته رجال الحلبة من هذا الحزب، الواحد تلو الآخر، مشبوب الحفيظة، وارم الأنف لا يدع شيئاً يقدر عليه فيما يتحدَّى به الحسن إلاَّ أتاه، ليَشْفِي نفسه وليرضي هواه، فإذا هي مؤامرة في أسلوب مشاجرة.

أمّا الحسن عليه السلام وهو «الصَّخْرةُ الململمةُ الّتي تنحطُّ عنها السُّيول، وتقصر دونها الوعول، ولا تبلغها السِّهام» ـ على حدِّ تعبير عبد الله بن جعفر عنه[1] ـ، فقد كان له من براءة القلب وروحانية النَّفس وشعار الطُّهر، ما يَرْبَأ به عن النُّزول إلى مثل مهاتراتهم. ولكنَّه كان يجيبهم وهو يقول: «**أَمَا وَاللهِ لَو لا أنَّ بَنِي أُمَيَّةَ تَنْسِبُنِي إلَى الْعَجْزِ عَنِ المَقَالِ لَكَفَفْتُ تَهَاوُنَاً**»[2].

ويَرُدُّ عليهم بالحُجَّة القويّة البالغة الّتي تُرْغِم ذلك العناد الصّاعد ليعود استكانةً وهزيمةً و ذهولاً.

ويستعرض في بعض ردوده عليهم، ميراث النّبوة وولاية الأمر، فيستدرجهم ببديهته الّتي تغترف من بحره المتدفِّق الزَّاخر، إلى الإعتراف له بحقّه وبحقِّ أبيه.

ويمضي قائلاً فلا يزال بهم، حتى يجزيهم على بذاءتهم المنكرة، غير مستعين

⇨

تفعل به هذا ؟ قال: «**بَلْ وَشَرّاً مِنْ هَذَا، إذَا فَسَقَ وَمَنَعَ حَقَّ الله أنْ يُؤخَذَ مِنْهُ**». ولما قُتِل عثمان انضمَّ إلى معاوية وصار يحرِّضه على الأخذ بثأره، ومات في أيّامه. أنظر ترجمته في: الإستيعاب ٤/ ١٥٥٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٣/ ٢١٨، الإصابة ٦/ ٤٨١.

أقول: مع تصريح محكم القرآن بفسقه، وصلاته بالنَّاس وهو سكران وجلده عليه، والعشرات من شناعاته، إلاّ أنّه ثقةٌ وعدلٌ في فكر العامّة لأنّه صحابيّ! عَدَّه ابنُ حِبَّان في الثّقات ٣/ ٤٢٩.

(١) يراجع المحاسن والمساويء للبيهقي (ج١ ص٦٢) [/ ٨٣]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) المحاسن والمساويء للبيهقي / ٨١.

ـ مثلهم ـ بالكذب، ولا متذرّع ـ مثلهم ـ بالبذاء. بل يطعن كُلاً على انفراده، فيُصيب منه أبرز مقوِّماته، في نسبه المعروف أو حسبه الموصوف... وإنَّ أبلغ حُدَيَّاكَ لخصمِكَ، أن تمسَّه في غروره وفي صميم مزاياه الّتي يخالها مناط أمجاده، ومرتكز شخصيَّته.

وكان الحسن في كلِّ هذه المجالس، الغالب القوي إلى جانب الضعفاء المغلوبين.

وكان أشدّ القوم شعوراً بالضَّعف والتماساً للهزيمة (في هذه المجالس) كبيرهم الّذي كان أكثرهم وسائل في القُوّة الماديّة الطيِّعة لأوامره، وكان يغيظه أن يَرى أشلاء إخوانه وبني عمومته، مضرّجةً بطعناتها النَّجْل، عند نهاية كلِّ شجار.

فيقول لهم آنذاك: «قد كُنْتُ أخبرتكم وأبيتم، حتى سمعتم ما أظْلَم عليكم بيتكم وأفسد عليكم مجلسكم!»(١).

ويقول لهم: «قد أنبأتكم أنَّه ـ يعني الحسن ـ ممَّن لا تُطاق عارضته!»(٢).

ويقول وهو يخاطب مَرْوَان بن الحَكَم: «قد كُنْتُ نهيتك عن هذا الرَّجل، وأنت تأبى إلاَّ انهماكاً فيما يعنيك، أرْبع على نفسك، فليس أبوك كأبيه، ولا أنت مثلُه. أنت ابن الطَّريد الشَّريد، وهو ابن رسول الله ﷺ الكريم، ولكن رُبَّ باحثٍ عن حَتْفِه، وحافرٍ عن مُدْيَتِه»(٣).

ويقول لعمرو بن العاص مُؤنِّباً ومحرِّضاً: «طعنك أبوه ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ فوقيت نفسك بِخُصْيَيْكَ، فلذلك تحذَّرْه!»(٤).

ويقول له في مجلس آخر: «لا تُجارِ البِحَار فَتَغْمُرُكَ، ولا الجبال فَتَبْهَرُك، واسْتَرِح

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٦٨.

(٢) شرح النهج ٦/ ٢٩٤.

(٣) المحاسن والمساوئ / ٨٦.

(٤) نفس المصدر.

من الإعتذار!»[1].

و يندم ابن الزُّبير، وهو إذ ذاك من نُدماء معاوية، على مشاجرته للحسن عليه السلام، فيعتذر قائلاً: «أعْذِرْ أبَا محمَّدٍ، فما حملني على مُحَاوَرتك إلاّ هذا ـ ويُشير إلى معاوية ـ ، أحبّ الإغراء بيننا، فهلاّ إذ جهلتُ أمسكتَ عني، فإنّكم أهل بيت سجيّتُكم الحِلْمُ والعفو..»[2].

فيقول له معاوية وقد عزَّ عليه أن يسمَعه وهو يعتذر إلى الحسن اعتذار المنهزِم المغلوب: «أمَا إنَّهُ قد شَفَى بَلابِل صدري منك، ورمى مقتلك، فَصِرتَ كالحِجْل في كفِّ البازيّ، يتلاعب بك كيف أراد، فلا أراك تفتخر على أحد بعدها!»[3].

ويقول في أعقاب مشاجرةٍ اشترك فيها ابن العاص ومروان وأبن سميَّة في جهة، والحسن بن عليٍّ عليه السلام في جهة، ما لفظه: «أجَاد عمروٌ الكلام لولا أنَّ حُجَّته دُحِضَت، وتكلَّم مروان لولا أنْ نَكَصَ»، ثم التفت إلى زياد وقال: «ما دعاك إلى محاورته، ما كنت إلا كَالحِجل في كَفِّ البازي!».

فقال عمرو: «ألا رميت من ورائنا؟»، قال معاوية: «إذاً كنتُ شريككم في الجهل، أفاخِرُ رجلاً جَدّه رسول الله وهو سيِّدُ من مضى ومن بقي، وأمّه فاطمة الزَّهراء سيِّدة نساء العالمين». ثم قال لعمرو: «والله لئن سمع به اهل الشَّام، لهي السَّوءة السَّوءاء»، فقال عمرو: «لقد أبقى عليك، ولكنَّه طَحَنَ مروان وزياداً طَحْنَ الرَّحى بثِفَالِها، ووطئهما وطء البَازِل القُرَاد بمنسِمِه!»، فقال زياد: «قد والله فَعَل، ولكنَّ معاوية يأبى إلاّ الإغراء بيننا وبينهم».

---

(١) نفس المصدر.

(٢) المحاسن والمساوئ / ٨٢.

(٣) نفس المصدر.

وهكذا شَهِدَ على معاوية بالإغراء على هذه المهاترات كلٌّ من ابن الزُّبير وزياد صريحاً، وشهدﷺ في الكثير من ردوده عليهم. قالوا: «وخلا عبد الله بن عبَّاس بالحسن، فقبَّل بين عينيه وقال: «أفديك يا ابن عمٍّ والله ما زال بَحْرُك يزخَر، وأنت تَصُولُ حتى شَفَيتني من أولاد ...»»[1].

وكانت نصوصُ هذه المشاجرات بِصِيَغِها البلاغيَّة، وقيمها الأدبيّة، جديرةٌ بالعرض، كتُراثٍ عَربيٍّ أصيلٍ يَدُلُّ بنفسه على صِحَّة نسبه ويعطينا بأسلوبه وصياغته، صورةً عن «أدب المشاجرات» في عصره. ولكنَّ الّذي رغّبنا عن استعراضها في سطورنا هذه، إيغالُهَا[2] المؤسِفُ بالتَّهْتَار[3] البَذِيء، الّذي بلغ به صَاغة الأكاذيب الأمَوِيُّون غايتهم، فأساءوا لأنفسهم أكثرَ ممَّا أرادوا بعدوِّهم، وما كانوا محسنين.

وإذ قد آثرنا الرَّغبة عن استعراضها هنا، فلا نُؤثِر أنْ نتجاهل - في موضوع الكلام على صبر الحسنﷺ - ما بلغته هذه المجالس، من الإساءة إلى الحسن، وما بلغه الحسن في نفسه من عظيم الصَّبر عليها، وعظيم البلاء في التعرُّض لها ولأمثالها من أساليب معاوية وأحابيله، سِلماً وحرباً.

وممَّا لا شكَّ فيه، أنَّها كانت مجالس مُبَيَّتة، وكان لها هدفها السِّياسيَّ المقصود، وهي من هذه النَّاحية، أحد ميادين معاوية، فيما شنَّه على الحسن وشيعته من حرب الأعصاب الّتي استبدل بها حرب الميدان.

---

(١) يراجع المحاسن والمساوىء للبيهقي (ج١ ص٥٩-٦٤) [/ ٨٠-٨٦]، والعِقد الفريد (ج٢ ص٣٢٣) [٤/ ٩٩، هذه المشاجرة الأخيرة لم أجدها فيه]، والبحار (ج١٠ ص١١٦) [لم أعثر عليه فيه]. وتجد خطب الحسنﷺ في هذه المشاجرات مجتمعة في كتابنا: «أوج البلاغة» - فيما أثر عن الإمامين الحسنين من الخطب والكتب والكلمات - مشروحاً. (المؤلّف)

(٢) الإيغَال: السَّير الشديد. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥/ ٢٠٩.

(٣) التَّهْتَارُ: الحُمْق والجهل. تاج العروس ٧/ ٦٠٥.

ثم كان من ميادين حربه (الباردة) ما سيجيء الإلمام بطَرَفٍ منه في الفصول القريبة.

٣. التّضحية

وأمّا النَّوع الفريد من تضحيته، فهو موقفه من الحكم والسُّلطان، وفي سبيل مبدئه.

وقد تكون التَّضحية بالعرش من صاحب الحقِّ به، أشدَّ دلالةً على إنكار الذّات من التَّضحية بالنَّفس. وإنكار الذّات في سبيل المبدأ، أوضح صفات الحسن بن علي عليه السلام، وأروع أدواته في جهاده الموصول الحلقات.

وهي على كلِّ حال، آلمُ التَّضحيتين للنَّفس، وأطولهما عناءً في الحياة، وأشدُّهما إرهاقاً لكيان الإنسان.

وقديماً كان الحرص على العرش أعنف أثراً في نفوس القائمين عليه، من الحرص على النفس بَلْهَ[1] المبدأ، فترى العدد الكثير ممَّن فدى عرشه بنفسه، ولا ترى إلاّ عدداً ضئيلاً جدّاً ممَّن فدى نفسه بعرشه.

وفي التَّاريخ صورٌ بشعةٌ كثيرةٌ من قرابين العروش الّتي كان يفتدي الملوك عروشهم بها أوّلاً، وبأنفسهم أخيراً (إذا لم يكن بدٌّ من الفداء بالنَّفس).

وعلى مثل هذه النِّسبة من كثرة التَّضحية بالنَّفس في سبيل التَّاج وندرة التَّضحية بالتَّاج في سبيل النَّفس، كان الفرق بين قيمتها المعنوية فيما يتواضع عليه النّاس من القيم المعنوية للأشياء.

وذلك هو سرُّ ما تستأثر به الحادثة النّادرة، من حوادث السَّخاء بالعرش من

---

(١) «بَلْهَ» من أسماء الأفعال بمعنى: دَعْ واتْرُكْ، تقول: بَلْهَ زيداً، وقد توضع موضع المصدر وتضاف فتقول: بَلْهَ زَيدٍ أي: تَرْكَ زيد. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ١/ ١٥٥.

اهتمام النّاس، ولغط الأندية، وقالة الجماهير. وهو سرٌّ ما تستثير من نَهَمِ المتطفِّلين إلى الإشتباك بألوان النِّقاش ومختلف التَّحاليل والتَّعاليل. ولا يروي التَّاريخ حادثة سلطان يتنازل عن عرشه، ثمَّ لا يختلف عليه النّاس، فمِن مُصوِّبٍ ومخطِّيءٍ، وعاذرٍ وعاذلٍ، ـ فقومٌ له وآخرون عليه ـ.

إلاّ الحسن بن عليّ عليهما السلام.

فقد خرج عن سلطان مُلْكِه، وضَحَّى بإمكانيّاته الدّنيويَّة كُلِّها، في سبيل مبدئه، فما شكَّ إنسانٌ قطّ في نيّته وإخلاصه واستهدافه المصلحة، وسُمُوِّ تضحيته في الله. وسمّي عَامَه «عام الجماعة» إشعاراً بالإجماع على موافقته والأخذ برأيه ـ عمليّاً ـ.

وتلك هي آية عظمته في التَّاريخ.

وآية مقامه المكين من قلوب المسلمين.

وآية سلطانه الرُّوحيِّ الّذي لا يُضيرُه نزع الصَّولجَان.

وشكا بعضُهم عُزوفه ـ بهذه التَّضحيّة ـ عن معركة السِّلاح وكان من هؤلاء أفراد من كِبار شيعته، ولكنَّ أحداً ممَّن شكا ذلك بدوافعه الزّمنية، لم يشكَّ قطّ في صِحَّة ما أتاه الإمام بدوافعه الدِّينيّة، من صلاح الأمَّة، وحقن دمائها، والإنتصار لأهدافها.

وسترى فيما تقرأه قريباً ـ في الفصل الآتي ـ أنَّ العاتبين لم يُنصِفُوا الحسن فيما شكوه منه، أو عتبوا به عليه، وإنَّ الحلَّ الّذي اتّخذه الحسن للخروج من مشاكله الأخيرة، كان هو المخرج الوحيد لظرفه الخاصّ.

ولم يكن الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، حين قَرَّر النُّزول إلى أصعب التَّضحيتين ألماً في النّفس، وأفضلهما أثراً في الدِّين، وأقلّهما حُدوثاً في التّاريخ، وأكبرهما قيمةً في عُرف النّاس، مثاراً لشبهة، أو مجالاً لنقد، أو هدفاً لاتّهامٍ، وأين يجد الإتّهام أو الشّبهة أو النّقد سبيله فيمن يختار من الوجوه أشدّها على نفسه. وأنفعها لغيره، وأقربها إلى ربّه. وهو

هو الرَّباني المعرف به، والمطهّر بنصّ الكتاب عن كلِّ ما يوجب شُبهةً أو خطأً أو اتّهاماً.

ومتى كانت الدُّنيا من حساب الحسن، حتى يطمع بالحياة فيها، وحتى يستأخر على حسابها ما ينتظره ـ في لقاء ربِّه ـ من المقام المحمود، و ـ في جوار جدِّه وأبويه ـ من الكرامة، يَحْبُونَه بها ويزلفونه إلى الله تعالى شأنه؟

ومتى كان الحسن بن عليٍّ، الرِّعدِيد الجبَان، حتى يخاف القتل، فيتَّقيه بالتنازل عن ملكه. ومن أين تَسمُتُ[1] إلى الحسن بن علي الجُبَانة يا ترى؟. أمن أبيه أسدِ الله وأسد رسوله، أم من جدَّيه رسول الله صلى الله عليه وآله وشيخ البطحاء، أمْ من عمَّيه سيِّدي الشُّهداء العظيمين حمزة وجعفر، أم من أخيه أبي الشّهداء، أم من مواقفه المشهورة في مختلف الميادين، يوم الدّار ويوم البصرة وفي مُظْلِمِ سَابَاط[2]، وهو ذلك الرِّئبالُ الّذي «إذا سار سار الموت حيث يسير» على حدِّ تعبير عدوِّه فيه؟ (والفضل ما شهدت به الأعداء).[3]

---

(١) «تَسْمُتُ» أي: تَقصُد.

(٢) يراجع «الفخري» [/ ٨٥] عن موقف الحسن يوم الدار، و«كتاب الجمل» للمفيد عن مواقفه يوم البصرة، [ذكر أنّه كان على ميمنة جيش أمير المؤمنين عليه السلام] و«اليعقوبي» عن بسالته في حادثة مُظْلِم سَابَاط [لم أجد له عليه السلام فيه ذكراً]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: «يوم الدّار» يوم حوصر عثمان في داره حتّى قتل وذكر بعضهم أن أمير المؤمنين عليه السلام أرسل ولديه الحسنين عليهما السلام إلى دار عثمان يقاتلان في الدّفاع عنه، وتقدّم في الصّفحة / ١٦٢ من هذا الكتاب تحقيق لنا بهذا الشّأن، وأنّ حضور الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام عند دار عثمان وقتالهما لأجله، لا أساس له من الصحّة.

(٣) من بيتين للشّاعر السَّريّ بن أحمد الكِندي المعروف بالرَّفَّاء، وهما:

نَسَبٌ أضَاءَ عَمُودُهُ فِي رِفعَةٍ ... كَالصُّبْحِ فِيهِ تَرَفُّعٌ وَضِيَاءُ

وَشَمَائِلٍ شَهِدَ العِدَاةُ بِفَضْلِهَا ... وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعْدَاءُ

أنظر: يتيمة الدهر للثعالبي ٢/ ١٩١، أعيان الشّيعة ٧/ ٢١٠.

وكانت تضحيته بسلطانه لِذَاتِها، من أروع آيات شجاعته، لو كانوا يَشعرون.

فأين هو الطَّمع بالحياة، أو الخوف من القتل.

وليس في موازين الحسن، إلاّ مبادئُه الّتي لا يُوازِنها في حسابه شيءٌ آخر، فرأى أنْ يفدي مبادئه بسُلطانه ليحفظ كيانها وكرامتها، وليحميها من الأيدي العادِية الّتي لا تخاف عاجلَ عارٍ ولا آجِلَ نَارٍ، وتولّى شَطْر هذه الخُطَّة مُتسامياً على الدُّنيا لا يتغيَّر ولا ينحرف ولا يَحِيد، فإذا به المنتصر في صميم الخذلان، والفاتح في صميم الهزيمة، والظَّافر في صميم الإنهيار.

ورضي لنفسه أن تحيا حياة أهون من آلامها الموت، صِيانةً لأهدافه من أن تموت، ورضي لنفسه أن تكون بكُلِّ وجودها أداة الخير للغير، دون أيِّ استغلال أو استئثار أو احتكار. وهذا بمفرده، قُصارى ما يَصلُ إليه أفذاذ المصلحين في التَّاريخ، وقُصارى ما تصبو إليه التَّربية الإسلاميَّة لتحقيق وجهة النَّظر الإسلامي، في نشر الإصلاح في النّاس، وفي تعبئة المبادىء الصَّحيحة في المجتمع.

وكثير أولئك الّذين خدموا مبادئهم، بتحمُّل النَّوائب في أنفسهم، إلاَّ أنّ أحداً من أولئك لم يبلغ مبلغ الحسن فيما تحمَّله، من ألوانها المختلفة، الّتي اصطلحت عليه، وصحبته كَظِلِّه الملازم له حتى خُتِمَت حياته ـ في نهاية المطاف ـ بالنَّكبة الكُبرى.

فكان ـ من جميع أطرافه ـ أمثولةَ الإمام الصّاعد في مثاليته، والمصلح العظيم الّذي اختَطَّ للمصلحين، آلَمَ التَّضحيَّات للنّفس، في سبيل الإبقاء على المبدأ.

وقاد الخطوات المقبلة، بما زهد فيه من حظوظ الدُّنيا العاجلة، فكان زهدُه في دنياه، وصبرُه على مثل حياته، وتضحيتُه بملكه، هو نفسه جهاداً في سبيل الله، وانتصاراً في خلود المبدأ، وأداته في الخلود.



سِرُّ المَوْقِفِ

ولعلَّنا لم نأت إلى الآن، بشيءٍ يُنْقِع الغَليل، أو يُقْنِع كدليل فيما يرجع إلى فهم السِّرِّ الّذي تجافى به الحسن عليه السلام، عن الشَّهادة قتلاً ونزل منه إلى قبول الصُّلح عَمليّاً. وهنا نقطة التَّركُّز في قضيَّة الحسن منذ حِيكَت من حولها الأقاويل الكُثْر، والنَّقدات النُّكْر. وليس في ما تتناوله بحوثُنا في غضون هذه الدِّراسة الواسعة الخُطُوات، موضوع أجدر بالعناية وبالكشف وبالتَّحقيق من هذا الموضوع، بماله من الأهميَّة الذّاتية القائمة بنفسه، وبما هو «سِرّ المَوْقِف» الّذي لم يُوَفَّق لإزاحة السِّتار عنه أحدٌ في التّاريخ ـ مدى ثلاثة عَشَر قَرْنَاً ونَيِّفاً ـ !

ولِكَي نكون أكثرَ تَوفُّراً على الأخذ بأسباب الغرض الّذي نهدف إليه من هذا البحث، نبدأ أوّلاً بنقل تصريحات أشهر المؤرِّخين في الموضوع، ثمَّ نعود ـ بعد ذلك ـ إلى غربلتنا الدَّقيقة للظَّرف القائم ساعة تسليم الحسن، وإلى نتائجنا من البحث.

(١) اليعقوبيُّ في تاريخه:

«وكان معاويةُ يَدُسُّ إلى عسكر الحسن من يتحدَّث أنَّ قيس بن سعدٍ قد صالح مُعاوية وصار معه، ووَجَّه إلى عسكر قَيس ـ بعد هزيمة عبيد الله ابن عبَّاس ومن معه ـ من يتحدَّث أنّ الحسن قد صالح معاوية وأجابه، ووَجَّه معاويةُ إلى الحسن المُغِيرَةَ بنَ شُعْبة وعبد الله بنَ كُرَيْزٍ وعبدَ الرَّحمن بنَ أمِّ الحكم وأتوه وهو بالمدائن، نَازِلٌ في مضاربه، ثم خرجوا من عنده وهم يقولون ويسمعون النَّاس: إنّ الله قد حَقَن بابن رسول الله الدِّماءَ وسكن الفتنة وأجاب إلى الصُّلح، فاضطرب العسكر، ولم يُشكِّك النَّاس في صدقهم، فوثبوا بالحسن، فانتهبوا مضاربه وما فيها، فركب الحسن فرساً له

ومضى في مُظْلِمِ سَابَاط، وقد كَمَن الجَرّاحُ بن سِنانٍ الأسَدِيُّ، فجرحه بمِغْوَل[1] في فخذه، وقبض على لحية الجرَّاح ثم لواها، فَدَقَّ عُنُقَه، وحُمِل الحسنُ إلى المدائن، وقد نزف نزفاً شديداً، واشتدّت به العلّة، فافترق عنه النّاس. وقدم معاوية العراق فغلب على الأمر، والحسن عليل شديد العلّة، فلمّا رأى الحسنُ أنْ لا قُوَّة له به، وأنَّ أصحابه قد افترقوا عنه فلم يقوموا له، صالح معاوية...»[2].

(٢) الطّبريُّ:

«بايع النّاس الحسن بن عليّ عليهما السلام بالخلافة، ثمّ خرج بالنّاس حتى نزل المدائن، وبعث قيس بن سعد على مقدِّمته (كذا) في إثنى عَشَر ألفاً، وأقبل معاوية في أهل الشَّام حتَّى نزل مَسْكِن، فبينا الحسن في المدائن إذ نادى منادٍ في العسكر: ألا إنَّ قيس بن سعدٍ قد قُتل فانْفِرُوا، فنفروا ونهبوا سرادق الحسن عليه السلام، حتى نازعوه بِسَاطاً كان تحته وخرج الحسنُ حتَّى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن، وكان عـمُّ المختار بن أبي عبيد عاملاً على المدائن، وكان اسمه: سَعْدَ بنَ مَسْعُود، فقال له المختار وهو غلامٌ شابٌّ: هل لك في الغِنى والشَّرف؟ قال: وما ذاك؟ قال: تُوثِقُ الحسن وتستأمن به إلى معاوية، فقال له سعد: عليك لعنة الله! أَثِبُ على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فأوثِقُه، بئس الرَّجل أنت!! فلمّا رأى الحسن تفرُّق الأمر عنه، بعث إلى معاوية يطلُب الصُّلح وبعث معاوية إليه عبدَ الله بنَ عامر وعبدَ الرَّحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، فقدِما على الحسن بالمدائن، فأعطياه ما أراد وصالحاه»[3].

---

(١) «نصلٌ طويل». (المؤلّف رحمه الله)

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٤.

(٣) تاريخ الطّبري ٤/ ١٢١.

(٣) ابنُ الأثير في الكامل:

«فلمّا نزل الحسن المدائن، نادى منادٍ في العسكر: ألا إنَّ قيس بن سعد قُتل فانفروا، فنفروا بسرادق الحسن ونهبوا متاعه»[١].

(وساق حديث الطَّبريّ المذكور قبله)، ثمَّ قال:

«..وقيل: إنَّما سَلَّم الحسنُ الأمر إلى معاوية، لأنّه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة (كذا)، خطب النّاس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**إنَّا وَالله مَا يُثْنِينَا عَنْ أَهْلِ الشَّامِ شَكٌّ وَلا نَدَمٌ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ بِالسَّلامَةِ وَالصَّبرِ، فَشِيبَتِ السَّلامَةُ بِالعَدَاوَةِ وَالصَّبرُ بِالجزَعِ، وَكُنْتُمْ فِي مَسِيرِكُمْ إِلَى صِفِّينَ، وَدِينُكُمْ أَمَامَ دُنْيَاكُمْ، وَأَصْبَحْتُمُ اليَوْمَ وَدُنْيَاكُمْ أَمَامَ دِينِكُمْ. ألا وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ بَيْنَ قَتِيلَيْنِ: قَتِيلٍ بِصِفِّينَ تَبْكُونَ لَهُ، وَقَتِيلٍ بِالنَّهْرَوَانِ تَطْلُبُونَ بِثَارِهِ. أَمَّا البَاقِي فَخَاذِلٌ، وَأَمَّا البَاكِي فَثَائِرٌ. ألا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَانَا لأَمرٍ لَيْسَ فِيهِ عِزٌّ وَلا نَصَفَةٌ، فَإِنْ أَرَدْتُمُ المَوْتَ رَدَدْنَاهُ عَلَيْهِ وَحَاكَمْنَاهُ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ بِظُبَا السُّيُوفِ، وَإِنْ أَرَدْتُمُ الحَيَاةَ قَبِلْنَاهُ وَأَخَذْنَا لَكُمُ الرِّضَا**».. فناداه النّاس من كلّ جانب: البقيَّة البقيَّة، وأمضِ الصُّلح»[٢].

(٤) ابن أبى الحديد في شرح النّهج :

«عن المدائنيّ، قال: ثمَّ وَجَّه عبد الله بن عبَّاس (كذا) ومعه قيس بن سعد بن عُبادة مقدِّمةً له في إثنى عَشَر ألفاً إلى الشّام، وخرج هو يريد المدائن فطُعن بساباط وانتُهِب متاعه، ودخل المدائن وبلغ ذلك معاوية فأشاعه، وجعل أصحاب الحسن الّذين

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٠٤.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٠٦.

وَجَّهَهُم مع عبد الله يتسلَّلُون إلى معاوية، الوجوه وأهل البيوتات، فكتب عبدُ الله بن عبَّاس بذلك إلى الحسن عليه السلام، فخطب النّاس ووبخهم وقال: «**خَالَفْتُمْ أَبِي حَتَّى حَكَّمَ وَهُوَ كَارِهٌ، ثُمَّ دَعَاكُمْ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ بَعْدَ التَّحْكِيمِ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى صَارَ إِلَى كَرَامَةِ الله، ثُمَّ بَايَعْتُمُونِي عَلَى أَنْ تُسَالِمُوا مَنْ سَالَمَنِي وَتُحَارِبُوا مَنْ حَارَبَنِي، وَقَدْ أَتَانِي أَنَّ أَهْلَ الشَّرَفِ مِنْكُمْ قَدْ أَتَوْا مُعَاوِيَةَ وَبَايَعُوهُ، فَحَسْبِي مِنْكُمْ لا تُعْرُونِي مِنْ دِينِي وَنَفْسِي**» وأرسل عبدَ الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلِّب، وأمُّه هند بنت أبي سُفيان بن حرب إلى معاوية يسأله المسالمة، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنَّة نبيِّه، وأن لا يُبايع لأحدٍ بعده»[1].

(٥) المفيدُ في الإرشاد :

«وكتب جماعةٌ من رُؤساء القبائل إلى معاوية بالسَّمع والطّاعة في السِّرِّ، استحثّوه على المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن إليه عند دُنوِّهم من عسكره، أو الفتك به، وبلغ الحسن ذلك، وورد عليه كتاب قيس بن سعد وكان قد أنفذه مع عبيد الله بن العبَّاس عند مسيره من الكوفة، ليلقى معاوية ويردَّه عن العراق، وجعله أميراً على الجماعة، وقال: «**إنْ أُصِبْتَ فَالأمِيرُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ**». فوصل كتاب قيس بن سعد يخبره أنَّهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها: الجنوبية بازاء مَسْكِن، وأنّ معاوية أرسل إلى عبيد الله بن العبَّاس يُرَغِّبه في المصير إليه، وضمن له ألف ألف درهم، يُعجِّل له منها النِّصف ويُعطيه النِّصف الآخر عند دخوله إلى الكوفة، فانسلَّ عبيد الله في اللَّيل إلى معسكر معاوية في خاصَّته، وأصبح النّاس قد فقدوا أميرهم فصلّى بهم قيس بن سعد ونظر في أمورهم، فازدادت بصيرة الحسن بخذلان القوم له، وفساد نيّات المحكِّمة فيه بما

(١) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٢٢.

أظهروا من السّبِّ والتكفير له واستحلال دمه ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلاّ خاصّته من شيعة أبيه وشيعته، وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشّام. فكتب إليه معاوية في الهُدنة والصُّلح، وأنفذ إليه بكتب أصحابه الّذين ضمنوا له فيها الفتك به وتسليمه إليه، فاشترط له على نفسه في إجابته إلى صُلْحِه شُروطاً كثيرة، وعقد له عقوداً كان في الوفاء بها مصالح شاملة، فلم يَثِق به الحسن وعلم باحتياله بذلك، واغتياله، غير أنَّه لم يجد بُدّاً من إجابته إلى ما التمس من ترك الحرب وإنفاذ الهُدْنَة، لما كان عليه أصحابه مما وصفناه من ضعف البصائر في حقِّه والفساد عليه والخلف منهم له، وما انطوى عليه كثيرٌ منهم في استحلال دمه، وتسليمه إلى خصمه، وما كان من خذلان ابن عمِّه له، وميله إلى عدوِّه، وميل الجمهور منهم إلى العاجلة وزهدهم في الآجلة..»[1].

أقول: ثمَّ لا تجد في أكثر الموسوعات التَّاريخيَّة الأخرى، عَرْضاً يحفل بشيء من التَّفصيل عن قضيَّة الحسن عليه السلام، يشبه هذه العروض، على ما بَيْنَها من تضارب في استعراض الحقائق التّاريخيَّة، وعلى ما فيها من نقص في العرض وأختزال في التعبير.

فيرى أحدهم ـ كما رأيت ـ أنّ الّذي طلب الصُّلح هو الحسن، ويرى الآخر أنَّه معاوية، ويرى بعضُهم أنَّ سبب طلبه الصُّلح أو قبوله إيَّاه هو فتن الشّام في المعسكرين ـ مَسْكِن والمدائن ـ ، ثم يختلفون في نوع الفتنة. بينما يرى البعض الآخر أنَّ سبب قبول الصُّلح من جانب الحسن هو تَفرُّق النّاس عنه بعد إصابته ومرضه. ويرى ثالثٌ منهم أنّ السَّبب هو نكول النّاس عن القتال معه كما يدلّ عليه جوابهم على خطبته بـ «البُقيَة البُقيَة»[2] وقولهم له صريحاً «وأمضِ الصُّلح». ويرى الرّابعُ، أنّ فرار قائده وخيانة

(١) الإرشاد ٢/ ١٢.

(٢) هكذا ضبطها المؤلِّف رحمه الله، بضم الباء وتسكين القاف، وفي لسان العرب ١٤/ ٨٠: «البُقْيا» هو الإبقاء مثل: الرَّعْوَى و«الرُّعْيَا» من الإرْعَاء على الشَّيء، و هو الإبْقاء عليه. و العرب تقول للعدوِّ إذا غَلَبَ: البَقِيَّةَ أَي: أَبْقُوا علينا ولا تستأصلونا.

أصحابه واستحلال بعضهم دمه وعدم كفاية الباقين للقتال، هو السَّبب لقبوله الصُّلح.

ثمَّ لا يزالون مختلفين في تسمية قائد المقدِّمة، فيسمِّيه أحدُهم عبد الله ابنَ عبَّاس، ويسمِّيه الثَّاني قيس بن سعد بن عُبادة، ويسمِّيه الثَّالث عبيد الله ابن العبّاس...

وما أنكى النَّكبة الّتي تتعرَّض لها القضيَّة التّاريخيَّة، حين يخبط بها مؤرِّخوها هذا الخبط، ويخلطون حقائقها بموضوعاتها هذا الخلط.

ومرّت المصادر الأخرى على هذه القضيّة، مرورها على القضايا الهامشيّة في التّاريخ، دون أنْ تستفزُّها الأحداثُ الكبرى، الّتي حفلت بها هذه الحُقبة القصيرة من الزَّمن، الّتي هي عهد الحسن في الخلافة الإسلاميَّة العامَّة، وعهد الفصل بين السُّلطتين الرُّوحيّة والزَّمنيّة، وعهد انقلاب الخلافة إلى الملك، وعهد انبثاق الحزازات الطَّائفيّة في الإسلام.

ولم يَعْنِ مُؤرِّخو قضيَّة الحسن من الصِّنفين ـ المفصِّلين والموجِزين ـ بأكثر من الإشارة إلى الظُّروف المتأزِّمة الّتي كان من طبيعتها أن تشفع لدى الحسن بقبول الصُّلح أو تضطَرَّه إليه، فمن مُذعنٍ ساكتٍ لا يُبدي رأياً، ومن مصوِّبٍ عَاذر يتزيّد الحجج ويعدِّد المعاذير، ومن ناقدٍ جاهلٍ خفي عليه «سِرُّ المَوقِف» فراح يكشف عن سرِّ نفسه من التعصُّب الوَقِح والتَّحامل المرير.

ولم يكن فيما تَوفَّر عليه كلٌّ من الأصدقاء والنَّاقمين في استعراضهم التَّاريخيّ للمآزق الّتي تعرّض لها الحسن عليه السلام، ما يحول بنسقه دون النَّقد الجارح ـ أو قُل: ـ ما يجيب بأسلوبه على السُّؤال المتأدِّب، في عُزوف الحسن عن «الشَّهادة» الّتي كانت ـ ولا شَكَّ ـ أفضلَ النّهايتين، وأجدرهما بالإمام الخالد.

وكان الكلام على كشف هذا السّرِّ لو قدروا عليه هو نفسه الدَّليل الكاشف عن السّبب الجوهري فيما صار إليه الإمام من اختيار الصُّلح، دون أن يحتاجوا إلى جهد

آخر في تعداد المحن أو استعراض المآزق الصِّعاب لأنَّ شيئاً من ذلك لا يدلُّ في عُرف النَّاقمين ولا المستفهمين، على انحصار المَخرج بالصُّلح، ولا يغلق في وجوههم، احتمال ظرف الحسن للشَّهادة، كما احتملها ظرفُ أخيه الحسين، فيما كان قد اصطلح عليه من مضايقات هي في الكثير من ملامحها، صورة طبق الأصل عن ظروف أخيه، وقد خرج منها بالشَّهادة دون الصُّلح، وكانت آيةَ خُلودِهِ في تاريخ الإنسانيّة الثّائرة على الظُّلم.

إذاً، فلماذا لم يفعل الحسن أوّلاً، ما فعله الحسين أخيراً؟

أَلِجُبنٍ ـ وأستغفر الله ـ وما كان الحسين بأشجع من الحسن جَناناً، ولا أمضى منه سَيفاً، ولا أكثر منه تعرُّضاً لمهاب الأهوال. وهما الشَّقيقان بكلِّ مزاياهما العظيمة، خُلُقاً، وديناً، وتضحيةً في الدِّين، وشجاعةً في الميادين، وابنا أشجع العرب، فأين مكان الجبن منه يا ترى؟

أم لطمعٍ بالحياة، وحاشا الإمام الرُّوحي المعطّر التَّاريخ، أن يُؤثِر الحياة، على ما ادَّخره الله له من الكرامة والمُلْك العظيم، في الجِنان الّتي هو سيِّد شبابها الكريم، والطَّليعة من ملوكها المتوّجين، وما حياة متنازل عن عرشه، حتى تكون مَطمَعاً للنُّفوس العظيمة الّتي شبّت مع الجهاد، وترعرعت على التَّضحيات؟

أم لأنَّه رضي معاوية لرياسة الإسلام، فسالمه وسلّم له، وليس مثل الحسن بالّذي يرضى مثل معاوية، وهذه كلماته الّتي أثِرت عنه في شأن معاوية، وكُلُّها صريحةٌ في نسبة البغي إليه، وفي وجوب قتاله، وفي عدم الشّكِّ في أمره، وفي كُفره أخيراً.

فيقول فيما كتبه إليه أيَّام البيعة في الكوفة: «**وَدَعِ البَغْيَ وَاحْقِنْ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ، فَوَاللهِ مَالَكَ خَيْرٌ فِي أَنْ تَلْقَى اللهَ مِنْ دِمَائِهِمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَنْتَ لاقِيهِ بِهِ!**»[1].

---

(١) شرح النَّهج (ج٤ ص١٢) [١٦/ ٣٤]. (المؤلّف ﷺ)

ويقول وهو يجيب أحد اصحابه العاتبين عليه بالصُّلح: «**وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُ أَنْصَارَاً لَقَاتَلْتُ مُعَاوِيَةَ لَيْلِي وَنَهَارِي**»[١].

ويقول في خطابه التَّاريخيّ في المدائن: «**إِنَّا وَاللهِ مَا يَثْنِينَا عَنْ أَهْلِ الشَّامِ شَكٌّ وَلا نَدَمٌ..**»[٢].

ويقول لأبي سعيدٍ فيما نقلناه عنه آنفاً: «**عِلَّةُ مُصَالَحَتِي لِمُعَاوِيَةَ، عِلَّةُ مُصَالَحَةِ رَسُولِ اللهِ لِبَنِي ضَمْرَةَ وَبَنِي أَشْجَعَ وَلأَهْلِ مَكَّةَ حِينَ انْصَرَفَ مِنَ الْحُدَيبِيَةِ، أولَئِكَ كُفَّارٌ بِالتَّنْزِيلِ، وَمُعَاوِيَةُ وَأَصْحَابُهُ كُفَّارٌ بِالتَّأْوِيلِ**»[٣].

اذاً، فما سالم معاويةَ رضاً به، ولا ترك القتال جُبناً عن القتال، ولا تجافى عن الشَّهادة طمعاً بالحياة، ولكنَّه صَالَحَ حين لم يبق في ظرفه احتمالٌ لغير الصُّلح، وبذلك ينفرد الحسن عن الحسين، إذ كان للحسين مخرجان مُيسَّران من ظرفه ـ الشَّهادة والصُّلح ـ ولن يتأخَّر أفضل النّاس عن أفضل الوسيلتين، أمّا الحسن فقد أغلق في وجهه طريقُ الشَّهادة، ولم يبق أمامه إلاَّ بابٌ واحد لا مندوحةَ له ومن وُلوجه.[٤]

---

(١) احتجاج الطَّبرسي (١٥١) [٢/ ١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٠٦.

(٣) علل الشرائع ١/ ٢١١، وعنه البحار ٤٤/ ١.

(٤) أقول: إنّ قول المؤلّف رحمه الله: «كان للحسين مخرجان ميسَّران من ظرفه ـ الشَّهادة والصُّلح ـ» قد لا تُساعد عليه الشَّواهد والنُّصوص التّاريخية الّتي تحدّثت عن الظرف الّذي مرّ به الإمام الحسين عليه السلام، فإنّها تفيد أنَّه كان أمامه أحدُ خيارين: إمّا بيعة يزيد بن معاوية لعنه الله أو الشّهادة، ولا آخر في البين، وإليك بعض النصوص دليلاً على ما نقوله:

الأوّل: ما سأله شيخ من بني عكرمة يقال له عمرو بن لوذان والإمام في مسيره إلى العراق: أين تريد؟ فقال له الحسين عليه السلام: «**الكُوفَةَ**» فقال الشيخ: أنشدك الله لما انصرفت، فوالله ما تقدم إلاّ على الأسِنَّة وحدِّ السُّيوف، وإنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً، فأما على هذه الحال التي تذكر فإني لا أرى لك أن تفعل. ⇦

وأقول ذلك وأنا واثقٌ بما أقول.

وقد يبدو مُستَغْرَباً قولي ـ أُغلِقَ في وجهه طريق الشَّهادة ـ، وهل شهادة المؤمن الّذي نزل لله عن حقّه في حياته، إلاّ أن يقتحم الميدان مُستقتِلاً في سبيل الله، تَاركاً ما في الدُّنيا للدُّنيا، وبائعاً لله نفسه تَنْتَاشُه السُّيوفُ، وتنهل من دَمِه الأسنَّة والرِّماح، فإذا هو

⇨

فقال له: «يَا عَبْدَ الله، لَيْسَ يَخْفَى عَلَيَّ الرَّأيُ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى لا يُغْلَبُ عَلَى أمْرِهِ» ثم قال عليه السلام: «وَالله لا يَدَعُونِي حَتَّى يَسْتَخْرِجُوا هَذِهِ العَلَقَةَ مِنْ جَوْفِي، فَإذَا فَعَلُوا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يُذِلُّهُمْ حَتَّى يَكُونُوا أذَلَّ فِرَقِ الأمَمِ.» الإرشاد للشّيخ المفيد ٢/ ٧٦.

الثّاني: ما عن بعضهم قال: سمعت الحسين بن علي عليه السلام وهو بمكة وهو واقف مع عبد الله بن الزبير فقال له ابن الزُّبير: إليّ يا ابن فاطمة فأصغي إليه فساره، قال: ثم التفت إلينا الحسين عليه السلام فقال: «أتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ابْنُ الزُّبَيرِ؟» فقلنا لا ندري جعلنا الله فداك؟ فقال: «قَالَ: أقِمْ فِي هَذَا المَسْجِدِ أجْمَعُ لَكَ النَّاسَ» ثم قال الحسين عليه السلام: «وَالله لأنْ أُقْتَلَ خَارِجاً مِنْهَا بِشِبْرٍ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أُقْتَلَ دَاخِلاً مِنْهَا بِشِبرٍ وَأيْمُ الله لَوْ كُنْتُ فِي جُحْرِ هَامَّةٍ مِنْ هَذِهِ الهَوَامِّ لاسْتَخْرَجُونِي حَتَّى يَقْضُوا فِيَّ حَاجَتَهُمْ وَوَالله لَيَعْتَدُنَّ عَلَيَّ كَمَا اعْتَدَتْ اليَهُودُ فِي السَّبْتِ.» تاريخ الطبري ٤/ ٢٨٩

الثّالث: فيما احتجّ به على أهل الكوفة بكربلا: «ألا وَإنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِيِّ قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَينِ بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهَاتَ مِنَّا الذِّلَّة...» اللّهوف عَلَى قتلى الطفوف / ٥٩، الإحتجاج ٢/ ٢٤.

وهذا ولا يوجد نصٌّ على أنّ بني أمية عرضوا على الإمام الحسين عليه السلام شيئاً باسم الصُّلح، بل كان عزمهم بادئ الأمر على القضاء عليه صلوات الله عليه إن لم يبايع، ففي مثير الأحزان لابن نما الحلي / ١٣، وقريب منه في اللّهوف عَلَى قتلى الطفوف / ١٦ وفي تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٠، الكامل في التاريخ ٤/ ١٤، البداية والنهاية ٨/ ١٥٧: وكتب يزيد إلى الوليد يأمره بأخذ البيعة على أهلها وخاصة على الحسين ويقول: إن امتنع عليك فاضرب عنقه وابعث برأسه إلي. وكتب [يزيد] إليه [أي: إلى الوليد بن عتبة] في صحيفة كأنها أذن فأرة: أمّا بعد: فخذ حُسَيناً وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسَّلام. وفي تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٤١، زيادة: فإن امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث لي برؤوسهما.

فمتى كان لسيّد الشّهداء عليه السلام سبيل إلى الصُّلح؟ وأمّا الإمام الحسن عليه السلام فكانت تواجهه ثلاثة خيارات: الأوّل: البيعة لمعاوية، الثاني: قتاله، والثالث: الصُّلح معه.

الشَّهيد الخالد. وكيف يُغلَقُ مثل هذا على مجاهدٍ له من ميدانه مُتَّسع للجهاد؟. وللحسن ميدانه الّذي يواجه به العدوّ في «مَسْكِن»، فلماذا لم يخفَّ اليه؟. ولِمَ لَمْ نسمع أنّه وصله أو بارز العدوّ فيه، أو اقتحمه اقتحامةَ الموت، يوم ضاقت به الدُّنيا، فَسَدَّت في وجهه كُلَّ بابٍ إلاّ باباً واحداً؟ وأنّه لو فعل ذلك فبرز إلى ميدانه مُستميتاً، لاستهات بين يديه عامَّةُ شيعته المخلصين لأهدافه، فانَّما كانوا ينتظرون منه كلمته الأخيرة لخوض غمرات الموت.

نعم، ومن هنا كان مَهبّ الرِّياح الّتي اجتاحت قضيَّة الحسن بين قضايا أهل البيت عليهم السلام، ومن هنا جاءت الشُّبهات الّتي نسجت هيكل المشكلة التَّاريخية الّتي لغا حولها اللاَّغُون ما شاء لهم اللَّغو، فزادوا الواقع تعقيداً وابتعاداً به عن فهم النّاس.

ثمَّ كان من طبيعة هذا اللَّغو ـ أبعد ما يكون عن التغلغل في الصَّميم من تَسَلْسُل الحوادث ـ أن يرتجل الأحكام، وأن يتناول قبلَ كُلِّ شيءٍ سياسة الحسن فَيَنْبِزُها بالضَّعف، ويتطاول عليها بالنَّقد غير مكترث ولا مرتاب.

وسنرى بعد البحث، أيَّ هاتيك الآراء ممَّا اختاره الحسن أو ممَّا افترضه النَّاقدون، كان أقرب إلى الصَّواب، وأنفذ إلى صميم السِّياسة.

وما كان الحسن في عظمته بالرَّجل الّذي تستثار حوله الشُّبه، ولا بالزَّعيم الّذي يسهل على ناقده أن يجد المنفذ إلى نقده والمأخذ عليه.

وإذ قد انتهينا الآن عامدين، إلى مواجهة المشكلة في صميمها، وبما حيك حولها من نقدات ونَقِمات، فمن الخير أن نسبق الكلام على حلِّها، باستحضار حقائق ثلاث، هُنَّ هنا أصابع البحث الّتي تمتد بتدرُّج رقيقٍ إلى كشف الغطاء عن السِّرِّ، فإذا الموضوع كُلُّه وضوحٌ بعد تعقيد، وعذرٌ بعد نَقِمة، وتعديلٌ بعد تجريح.

الأولى: في بيان معنى الشَّهادة.

والثَّانية: في رسم صورة مُصغَّرة عن الواقع الّذي حاق بالحسن في لحظاته الأخيرة في «المَدَائن».

والثَّالثة: في خُطَّة معاوية تجاه أهداف الحسن عليه السلام.

وسيجرُّنا البحث إلى التَّلميح بحقائق تقدَّم عرضها في أطواء دراستنا السّابقة في الكتاب، ولكنَّ الحرص على استيفاء ما يجب أن يُقال هنا، هو الّذي سوّغ لنا هذا التجاوز فرأيناه جائزاً.

(١) الشّهادة في الله:

وهي بمعناها الّذي يصنع الحياة، تضحيةُ النَّفس لإحياء معروف أو إماتة منكر.

وليس منها التَّضحية لغايةٍ ليست من سُبُلِ الله، ولا التَّضحية في ميدان ليس من ميادين الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

فلو قَتَل كَافرٌ مُسلماً في ساحة جهاد، كان المسلم شهيداً.

ولو قَتل باغٍ مُسلِماً في ميدان دفاع كان المسلمُ شهيداً.

أمّا لو قَتل مُسلمٌ مُسلِماً في نزاع شخصيّ، أو قتله انتِصَاراً لمبدأ دينيٍّ صحيحٍ، فلا شهادةَ ولا مَجادةَ، ذلك لأنّ الكرامة الّتي تواضع عليها تاريخ الإنسانيّة للشّهيد، هي أجرة تضحيته بروحه في سبيل المصلحة العامّة فلا الحوادث الشَّخصيّة، ولا التَّضحيات الّتي تُنَاقض المصلحة في خطٍّ مستقيم، ممَّا يدخل في معنى الشَّهادة.

وقتلةٌ أخرى، أضْيَعُ دَمَاً، وأبعدُ عن «الشَّهادة» مَعنىً وإسماً، هي مِيتةُ رئيسٍ يثورُ به أتباعُه وذَوُو الحقِّ في أمره، فيُلْقُونه أرضاً. والمجموع في كلِّ مجتمع هو مصدر السُّلطات لكلِّ من يتولّى شيئاً من أموره باسمه، وكانت هذه هي القاعدة الّتي بُنِيَت عليها السُّلُطات الجماعية في الإسلام، وعلى هذه القاعدة قال المُسلِم الأوّل لعمر بن

الخطاب: «لو وجدنا فيك اعوِجَاجاً لَقوّمناه بسيوفنا»(١).

وإنّما كانت هذه القَتْلَة أضيعَ دَمَاً، وأبعد عن الشّهادة إسماً، لأنّ الأيدي الصَّدِيقَة الّتي اجتمعت على إراقة هذا الدّم، كانت في ثورتها لحقّها، وتضافرها النّاطق ببلاغة حُجَّتِها، أولى عند النّاس بالعذر.. «ولأنّ الأمَّة الّتي ولّته هي الّتي تُقيم عليه الحدود» - على حدِّ تعبير القفّال الشّافعي(٢) -.

---

(١) روي ما في هذا المعنى عن جماعة من الصّحابة، منهم: بَشِير بن سَعدٍ الأنصاريّ، من أنَّ عمر قال يوماً في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخّصت في بعض الأمر ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا فعاد مرّتين أو ثلاثاً، قال بشير بن سعد: لو فَعَلْتَ قوّمناك تقويمَ القِدْحِ! قال عمر: أنتم إذا أنتم. التّاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٩٩، تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٢٩٢.

وأيضاً عن حذيفة قال: دخلت على عمر وهو قاعد على جذع في داره وهو يحدِّث نفسه فدنوت منه فقلت: ما الّذي أهمّك يا أمير المؤمنين؟ فقال هكذا بيده وأشار بها، قال: قلت: الّذي يهمّك والله لو رأينا منك أمراً ننكره لقوّمناك، قال: الله الذي لا إله إلاّ هو، لو رأيتم مني أمراً تنكرونه لقوّمتموه؟ فقلت: الله الذي لا إله إلاّ هو، لو رأينا منك أمراً نُنْكِره لقوّمناك، قال: ففرح بذلك فرحاً شديداً، وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم أصحاب محمّد مَنِ الّذي إذا رأى مني أمراً ينكره قوّمني. المصنَّف لابن أبي شيبة ٨/ ١٥٤.

وهذه الحكايات اختُلِقَت لتقول أنّ المجتمع الذي عاصر الخلفاء كان يتمتّع بكلّ حرّية في الرّأي والتّعبير وجرأة الصّراحة في نقد الحكومة، والحكومة كانت في المقابل أيضاً تُبدي ارتياحها لهذا السّلوك. وهذه ظاهرة لم تألفها البشريّة إلاّ على عهد أمير المؤمنين عليه السلام، فكان ينعم في ظلّ حكومته الموافق والمخالف.

(٢) عبدُ الله بنُ أحْمَدَ بنِ عبدِ الله، المَرْوَزِيُّ، أبُو بَكرٍ، القَفَّال. كان حاذقاً في صنعة الاقفال، فلمّا بلغ الثلاثينَ من عمره أقبل علىَ دراسة الفقه، فتفقّه بأبي زيد المَرْوزي، وسمع منه ومن الخليل بن أحمد السجزي، وبرع في مذهب الشافعي، حتى صار رأساً فيه. وهو صاحب طريقة الخراسانيّين في الفقه.

روي أنّ رجلاً شكى إلى أبي بكر القفّال أنّ حماره أخذه بعض أعوان السُّلطان، فأمره القفّال بالغُسل وصلاة ركعتين، ففعل الرّجل، فلمّا فرغ من صلاته رُدَّ إليه حمارُه، وكان القَفَّال قد بعث من يردّه إليه، فلمّا سُئِل عن ذلك، قال: أردت أنْ أحفظ عليه دِينه.

⇦

فعثمان ـ مثلاً ـ الّذي كان ثالثَ ثلاثةٍ من أكبر الشَّخصيَّات التَّاريخيَّة، الّتي هَزَّت الأرض بسُلطانها المرهوب، مات مقتولاً بسِلاح الثَّائرين من ذوي الحقِّ في أمره. فلم يستطع التَّاريخ، ولم يُوفَّق أصدقاؤه في التَّاريخ، أن يُسجِّلوا له «الشَّهادة» كما تقتضيها كلمة «شهيد».

أمّا ذلك العبدُ الأسود الفقير، الّذي لم يكن له من الأثر في الحياة، ما يملأ الشُّعور أو يشغل الذَّاكرة «جَوْن مَوْلَى أبي ذَرٍّ الغِفَاريّ»[1]، فقد أرغَمَ التَّاريخ على تقديسه، لأنَّه قُتل في سبيل الله فكان «الشَّهيد» بكلِّ ما في الكلمة من معنى.

إذاً، فليس من شروط الشَّهادة ولا من لوازم كرامتها، أن لا تكون إلاَّ في العظيم، وليس من شروط العظيم إذا قُتِل أيَّ قتلةٍ كانت، أن يكون شهيداً على كلِّ حال.

ولْنَدَع الآن هذا التَّمهيد لنخطو عنه إلى الموضوع الثَّاني، ثمَّ لنأخذ منه حاجتنا

⇨

توفّي سنة ٤١٧ هـ، وله تسعون سنة. قال ابن خلّكان: دفن بسجستان، وقبره بها معروف يُزار. موسوعة طبقات الفقهاء ٥/ ١٩٢.

(١) جَوْنُ بنُ حُوَي، مَولى أبي ذَرٍّ من شُهداء الطَّف، ووقع التَّسليم عليه في زيارتي النَّاحية والرَّجبية، وفي مثير الأحزان لابن نما الحلّي / ٤٧: تقدّم جون مولى أبي ذَرٍّ وكان عبداً أسوداً، فقال لهعليه السلام: «**أنْتَ فِي إذْنٍ مِنِّي فَإنَّمَا تَبِعْتَنَا لِلْعَافِيَةِ فَلَا تَبْتَلِ بِطَرِيقِنَا**» فقال: يا بن رسول الله أنا في الرَّخاء ألحَسُ قِصَاعَكُم وفي الشِدَّة أخذُلُكُم؟ والله إنَّ ريحي لمنتنٌ وحسبي لَلئيم ولوني لأسود، فتنفَّس عَلَيَّ بالجنَّة، فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيضّ وجهي، لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدَّم الأسود مع دمائكم. ثم قاتل حتى قُتِل.

وفي بحار الأنوار ٤٥/ ٢٢: فوقف عليه الحسينعليه السلام وقال: «**اللَّهُمَّ بَيِّضْ وَجْهَهُ، وَطَيِّبْ رِيحَهُ، وَاحْشُرْهُ مَعَ الأبْرَارِ، وَعَرِّفْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.**» وروي عن الباقرعليه السلام عن عليِّ بنِ الحسينعليهما السلام: «**أنَّ النَّاسَ كَانُوا يَحْضُرُونَ المَعْرَكَةَ، وَيَدْفُنُونَ القَتْلَى، فَوَجَدُوا جَوْناً بَعْدَ عَشَرَةِ أيَّامٍ يَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ المِسْكِ.**»

عند اقتضاء البحث.

(٢) صورةٌ مُصغَرة عن الوضع الشّاذ في المدائن:

علمنا ممَّا سبق ـ وبعض الإعادة ضرورةٌ للبحث ـ أنَّ خِيرة أجناد الحسن كان في الرَّكب الّذي سبقه في مقدِّمته إلى «مَسْكِن»، وأنَّ الفصائل الّتي عسكر بها الحسن في «المدائن» كانت من أضعف الجيوش معنويَّة، ومن أقربها نَزْعَة إلى النّفور والقلق والإنقسام.

وعلمنا أنَّه فُوجِئ في أيَّامه الأُوَل من المدائن ـ ولمَّا يتلقَّ نجداته من معسكراته الأخرى ـ ببوادر ثلاثٍ، كانت نُذُرَ الكارثة على الموقف.

١. أنباء الخيانة الواسعة النطاق في «مَسْكِن».

٢. الشَّائعة الإستفزازيّة الّتي ناشدت النّاس بأن ينفروا، لأنّ قيس بن سعد ـ وهو القائد الثّاني على جيش مَسْكِن ـ قد قُتل!

٣. فتنة الوفد الشَّاميّ الّذي جاء ليعرض كُتُب الخونة الكوفيين على الإمام، ثمَّ خرج وهو يعلن في المعسكر أنَّ الحسن أجاب إلى الصُّلح!

وفي هذا الجيش ـ كما قدَّمنا في الفصل (٨) ـ، أصحاب الفتن، وأصحاب الطّمع بالغنائم، والخوارج، وغيرهم، ولم يكن لهؤلاء مرتعٌ أخصب من هذه الفتن الّتي زرعتها هذه البوادر المؤسفة الثَّلاث.

وجمع الحسن النَّاس فخطبهم وناشدهم سلامة النيَّة وحسن الصَّبر، وذكَّرهم بالمحمود من أيَّامهم في صِفِّين، ثم نعى عليهم اختلافهم في يومه منهم. وكان أروع ما أفاده الحسن من خطابه هذا، أنَّه انتزع من النّاس اعترافهم على أنفسهم بالنُّكول عن الحرب صَريحاً، واستدرجهم إلى هذا الإعتراف بما تظاهر به من استشارتهم فيما عرضه عليه معاوية، فقال في آخر خطابه: «**ألا وَإنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَانَا لأمرٍ لَيْسَ فِيهِ عِزٌّ وَلا نَصَفَةٌ،**

فَإنْ أَرَدْتُمُ المَوْتَ رَدَدْنَاهُ عَلَيْهِ وَحَاكَمْنَاهُ إلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِظُبَا السُّيُوفِ، وَإنْ أَرَدْتُمُ الحَيَاةَ قَبِلْنَاهُ وَأَخَذْنَا لَكُمُ الرِّضَا».. فناداه النّاس من كلّ جانب: البَقِيَّة البَقِيَّة، وأمضِ الصُّلح»[1].

أقول: وليس في تاريخ قضيَّة الحسن عليه السلام روايتان كَثُر رواتها حتى لقد أصبحت من مُسلَّمات هذا التَّاريخ، كرواية جواب النّاس على هذه الخُطْبَة بطلب البقيَّة وإمضاء الصُّلح، ورواية ثورة النّاس في المدائن إنكاراً للصُّلح وإلحاحاً على الحرب!! وليت شِعري. فأيُّ الرَّأيين كان هدف هؤلاء النّاس؟.

وهل هذه إلاَّ بوادر الإنقسام الّذي أشرنا إليه آنفاً، بل «الفَوْضَى» الّتي لن يستقيم معها ميدانُ حرب، والّتي لا تمنع أن يكون المنادون بالصُّلح من كلِّ جانب هم المنادين بالحرب أنفسهم.

وما للفوضى ودعوة جهاد وصحبة إمام؟!

وعلى أيٍّ، فقد كان هذا أحد ألوان معسكر المدائن وأحد ظواهر التلوُّن في عساكره وتحكّم العناصر المختلفة في مقدّراته.

ولقد تدلّ ملامح النِّداء بالتَّكفير للحسن عليه السلام من قِبَلِ الثَّائرين عليه من جنوده هناك، أنَّه كان لسان حال «الخوارج»، وكانت هذه هي لغتهم النّابية إذا استشرى غضبهم على أحدٍ من المسلمين أو أئمَّة المسلمين. وإنَّهم إذ يستغلّون هذه اللَّحظة، أو يبعثونها من مرقدها، فإنّما كانوا يقصدون التذرُّع إلى أعظم جريمة في الدَّم الحرام، وِفق مبادئهم الجهنميَّة الّتي طعن بها أحدهم الإمام الحسن في فَخِذه فشقّه حتى بلغ العَظم!

---

(١) ابن خلدون [في التّاريخ ٢/ ١٨٧] وابن الأثير [٣/ ١٣] والبحار [٤٤/ ٢١] وغيرهم [تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٦٨، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٦٩، الكامل في التّاريخ ٣/ ٤٠٦] ـ وكنّا عرضنا القسم الأوَّل من هذه الخطبة فيما رويناه في تصريحات المؤرِّخين من هذا الفصل. (المؤلِّف رحمه الله)

وتدلُّ ملامح النَّهب والسَّلب الّذي مزّق السّتار وتناول حتى رداء الحسن ومُصَلاَّه، على أنَّه كان عمل الفريق الآخر الّذي سمّته المصادر: «أصحاب الطَّمع بالغنائم»(١).

ويدلُّ طغيان الفتنة وسرعة انتشار الإضطرابات في المعسكر على أنَّه صنيعة «أصحاب الفتن» الّذين كان يَعُجُّ بهم هذا الجيش منذ كان في الكوفة ومنذ انتقل إلى المعسكرين تحت لواء الجهاد المقدّس!

وهكذا جمحت الفتنة في المدائن جماحها الّذي خرجت به من أعنّة المخلصين والمنظمين، وَحَالَ الأكثرون بأحداثهم دون قيام الأقلّين بواجبهم، ولم يَعُد لهذا الجيش من الإستقرار ما يستطيع به الثَّبات، ولا من الأهداف إلاَّ الأهداف الطَّائشة. فإن لم يتسنَّ لهم قتال معاوية فليقتلوا الحسن إمامهم، وإن لم يبلغوا غنائم الحرب من أعدائهم فليتبلّغوا بالغنائم من نهب أصدقائهم، وإنْ لم يمكنهم الفِرار إلى معاوية ـ كما فعل أمثالهم في المعسكر الثَّاني ـ فليكتبوا إلى معاوية ليجيء هو إليهم!!

وكان هذا هو ما حفظه التّاريخ على هذه المجموعة من النّاس، أمّا ما نَسيه التَّاريخ أو تناساه أو حِيل بينه وبين ذكره، فذلك ما لا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجلّ.

تُرى، فهل لو وضعنا معاوية مكان الحسن من هذه اللَّحظة أو من هذا الجيش بما لمعاوية من دَهاء وسَخاء، أكان يستطيع أن يخرج من مأزقه بأحسن ممَّا خرج به الحسن مضمون السَّلامة على مبادئه وخططه ومستقبله؟

ولِكَي نزداد تحرِّياً للأسباب الّتي أغْلَقت في وجه الحسن طريقَ الشَّهادة الكريمة، ننتقل بالقارئ إلى الموضوع الثَّالث من مراحل هذه الجولة الكثيبة الخطوات.

(٣) خُطّة معاوية من أهداف الحسن عليه السلام:

---

(١) عبارة الشّيخ المفيد رحمه الله في الإرشاد ٢/ ١٠.

ومات بموت عُثمان لقب: «الوَالي» عن معاوية، ولا نعرف ما كان يجب أنْ يُلقَّب به بعد ذلك، ولا نوع مسؤوليته في العُرف الإسلامي. وقد علمنا أنَّ الخليفتين الشَّرعيين عليّاً وابنه الحسن عليهما السلام لم يُولِّياه، فليس هو بالوالي، وعلمنا أنَّ الإسلام لا يتَّسع في تشريعه لخليفتين في عصر واحد، فليس هو بالخليفة.

اذاً، فما معاوية بعد عثمان؟

لا ندري.

نعم، إنَّه شَهَر السِّلاح في وجه هذين الخليفتين منذ عُزِل عن ولاية الشَّام، ورأينا أنَّ التَّشريع الإسلاميّ يثبت للقائم بمثل عمله هذا، لقباً نشكّ أنْ يكون معاوية رضي به لنفسه، وهذا اللَّقب هو «البَاغِي».

تُرى، فهل كان هو يعرف لنفسه لَقَباً آخر غير زعامة البُغاة؟

والمظنون أنَّ معاوية في طُموحه العتيد، لم يكن بالّذي يُزعجه أنْ يظلَّ مجهول اللَّقب، أو محكوماً في «الشَّرع» بلقب الباغي، مادام هو في طريقة إلى غزوٍ أكبر الألقاب بالقُوَّة، رضي الشَّرعُ أو أبى. فهو المَلِك ـ بعد ذلك ـ على لسان سعد بن أبي وقاص[1]، وهو «الخليفة» و«أمير المؤمنين» على لسان مسلم[1] بن عُقبَةَ والمُغِيرة

---

(١) في الكامل لابن أثير ٣/ ٤٠٩: «لما استقرّ الأمر لمعاوية دخل عليه سَعْدُ بنُ أبي وقَّاص فقال: السَّلام عليك أيُّها المَلِك، فضحك معاوية وقال: ما كان عليك يا أبا إسحاق لو قلت: يا أمير المؤمنين! فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً والله ما أحبّ أنِّي وُلِّيتُها بما وُلِّيتَها به!» انتهى. وفي المصنَّف لعبد الرّزاق الصَّنعاني ١٠/ ٣٩١، وتاريخ مدينة دمشق ١٧/ ٣٢٤: دخل سعدُ بنُ أبي وَقَّاص على معاوية فقال: السَّلام عليك أيُّها المَلِك! فقال معاوية: فهلاً غير ذلك! أنتُم المؤمنون وأنا أميركم، فقال سعد: نَعم، إنْ كنّا أمَّرناك، قال: فقال معاوية: لا يَبْلُغُني أنّ أحداً يقول: إنَّ سعداً ليس من قريش إلاّ فعلت به وفعلت.

ورُوي هذا المعنى عن سعدِ بنِ مالكٍ أنّه دخل على معاوية يوم الصُّلح فقال: السَّلام عليك أيُّها

⇦

بن شُعْبَة(٢) وعَمْرو(٣) بن العاص، وهو المتنعِّم الدُّنيويّ الّذي «لم يبق شيءٌ يُصيبه النَّاس

⇨

المَلِك. فغضب معاوية فقال: ألاّ قلت: السَّلام عليك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذاك إنْ كُنَّا أمَّرناك إنَّما أنت منتزٍ. أنظر: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٧.

(١) هو صاحب واقعة الحَرَّة في مدينة الرَّسول ﷺ يوم أباحها ثلاثاً شَرَّ إباحةٍ. وهو هادم الكعبة (زادها الله شَرفاً) يوم رماها بالمنجنيق. وكان معاوية هو الّذي نصح لابنه يزيد، فيما مَهَّد له من الأمور، بأنْ يُوَلّي «مُسْلِماً» هذا. قال له: إنَّ لك من أهل المدينة لَيوماً، فإن فعلوا فارمِهِم بمسلم بن عُقبةَ فإنَّه رَجلٌ قد عَرِفت نصيحتَه!!.

يراجع الطَّبري [٤/ ٣٨٠] والبيهقي [المحاسن والمساوئ / ٦٤] وابن الأثير [٤/ ١١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) كان المُغِيرَة ـ فيما يُحَدِّثنا عنه البيهقيُّ في المحاسن والمساوئ [/ ٣٦٧] ـ أوّل من رشى في الإسلام. [أيضاً أنظر: تاريخ مدينة دمشق ٦٠/ ١٨، الإصابة لابن حجر ٦/ ١٥٧، أسد الغابة ٤/ ٤٠٧] وكان ـ فيما يحدِّثنا به سائر مُؤرِّخته ـ الوسيط في قضية استلحاق زياد [تاريخ مدينة دمشق ١٩/ ١٣٠، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥، شرح نهج البلاغة ١٦/ ١٨٦، الغارات ٢/ ٩٣٠، خِزانة الأدب للبغدادي ٦/ ٥٠] ـ رَغم النّواميس الإسلاميَّة ـ. وكان السَّابق إلى ترشيح يزيد بن معاوية للخلافة، وهو الّذي يقول في ذلك: لقد وضعت رِجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً!! ..[الكامل في التاريخ ٣/ ٥٠٤] ـ. وكان هو الّذي عناه حَسَّان بن ثابت بقوله:

لو أنّ اللّؤمَ يُنسبُ كان عَبداً	قَبيحَ الوَجْهِ أعْوَرَ مِنْ ثَقِيفِ
تَرَكْتَ الدِّينَ والإيمانَ جَهْلاً	غَداةَ لَقِيتَ صَاحِبَةَ النَّصِيفِ
وَرَاجَعْتَ الصِّبا وذَكَرْتَ لَهْواً	مِنَ الأحْشَاءِ والخَصْرِ اللَّطِيفِ

[شرح نهج البلاغة ١٢/ ٢٣٨.] (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) نارٌ على عَلم. اعتركت الدُّنيا والآخرة على قلبه ـ على حدِّ تعبير غلامه «وردان» [شرح النّهج لابن أبي الحديد ٢/ ٦٣، وقعة صفّين لابن مزاحم / ٣٦، الإمامة والسّياسة لابن قتيبة ١/ ٨٧] ـ فقدَّم الدُّنيا على الآخرة، وشايع معاوية على أن تكون له مِصْرُ طُعمةً، فلا ظفرت يدُ البائع وخزيت أمانة المبتاع.

روى ابن عبد ربِّه [العقد الفريد ٣/ ١١٣] بسنده إلى الحسن البصريّ قال: علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو لم يتم له أمر، فقال له: يا عمرو اتّبعني. قال: لماذا؟ أَلِلآخرة؟ فوالله ما معك آخرةٌ،

⇦

⇨

أم للدُّنيا فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها. قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مِصْر وكُوَرَهَا. فكَتَب له مصر وكُوَرَهَا. وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السَّمع والطَّاعة. قال عمرو: واكتب أنّ السَّمع والطَّاعة لا يغيِّران من شرطه شيئاً. قال معاوية: لا ينظر إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب..!!

ورضي الصَّحابي المُسِنّ الّذي مات في الثَّامنة والتِّسعين أن يختم هذا العمر المديد على مثل هذه المداورة الخبيثة في الدِّين، وراح يقول غير مُبَال: لولا مِصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فإني أعلم أنّ عليّ بن أبي طالبٍ على الحقِّ، وأنا على ضدِّه! [مروج الذّهب ٣/ ٢٠، وقريب منه في شرح النَّهج لابن أبي الحديد ٥/ ٢٢١]

أمّا بواكير حياته فكانت أبعد أثراً في النّكاية بالإسلام ونبي الإسلامﷺ. وهو إذ ذاك أحد السَّهميين الّذين ساهموا في فكرة قتل النبيّﷺ ليلة الفراش في مكّة. وهو «الأبتر» المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [سورة الكوثر / ٣]. ثم كان بعد ذلك من المساهمين في التأليب على عثمان، ولم يخرج إلى فلسطين حتى نَكأ القَرحة كما قال هو عن نفسه يوم بلغه مقتل عثمان. والتحق أخيراً بمعاوية على هذه المساومة المفضوحة. ونجا من القتل المحقَّق في صِفِّين بأشنع وسيلة عرفها التَّاريخ. ثم كان صاحب الفكرة في رفع المصاحف الّتي فَتَنَ بها المسلمين ونقض بها فتل الإسلام. وحضرته الوفاة فقال لابنه: إني قد دخلت في أمور لا أدري ما حُجَّتي عند الله فيها. ثمَّ نظر إلى مالِه فرأى كثرته فقال: ياليته كان بعراً، ياليتني متُّ قبل هذا بثلاثين سنة، أصلحتُ لمعاوية دنياه وأفسدت ديني، آثرت دنياي وتركت آخرتي، عُمّي عليَّ رشدي حتى حضرني أجلي. [تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٢]

وخلّف من المال ثلاثمائة ألف دينار ذهباً ومليوني درهم فضَّة عدا الضِّياع. وكان رسول اللهﷺ يقول فيه وفي معاوية: «**إِنَّهُمَا مَا اجْتَمَعَا إلاّ عَلَى غَدْرٍ**»، [وقريب لهذا المعنى في وقعة صفّين لابن مزاحم / ٢١٨، كنز العمّال ١١/ ١٩٦]. أخرج هذا الحديث كلٌّ من الطبراني [المعجم الكبير ٧/ ٢٨٩] وابن عساكر [تاريخ مدينة دمشق ٤٦/ ١٦٩]، وأخرج أحمد وأبو يعلى في مسنديهما [٤/ ٤٢١، و١٣/ ٤٢٩] عن أبي برزة قال: كنّا مع النبيﷺ فسمع صوت غناء فقال: «**انْظُرُوا مَا هَذَا**». فصعدت فإذا معاوية وعمرو بن العاص يتغنيان فجئت فأخبرت النبيّﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ أَرْكِسْهُمَا فِي الفِتْنَةِ رَكْساً، اللَّهُمَّ دُعَّهُمَا فِي النَّارِ دَعّاً**». وعن تطهير الجنان لابن حجر: أن عمرواً صعد المنبر فوقع في عليٍّ ثم فعل مثله المغيرة بن شعبة، فقيل للحسن: اصعد المنبر لترد عليهما، فامتنع إلاّ أن يعطوه عهداً أنهم يصدِّقونه إن قال حَقّاً ويكذّبونه إن قال باطلاً فأعطوه

⇦

من الدُّنيا إلاَّ وقد أصابه»[1] ـ على حدِّ تعبيره عن نفسه ـ. ولن يُضيره بعد اعتراف ابن العاص وابن عُقبة وابن شُعبة له بالخلافة وامارة المؤمنين، أن يكون التَّشريع الإسلاميّ يُنكر عليه هذا اللَّقب، لأنَّه لا يُسيغ غزو الألقاب الدِّينيَّة بالقُوَّة، ولا يَسْبغُ لقب «الخليفة» على أحدٍ، إلاَّ عند قُرب الشَّبه بين صاحبه وبين النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، ويصرفه دائماً عن الرَّجل الّذي يكون بينه وبين النّبيِّ كما بين دينين.

ولا ندري على التَّحقيق مبلغ ما كلَّفت معاوية هذه الألقاب في دينه، يوم غزاها لنفسه، أو يوم غزاها لابنه يزيد، وإنَّه لأعرف النّاس بابنه؟!

ولا ندري مبلغ اهتمام الرَّجل، بمحاسبة نفسه تجاه الله، فيما كان يجب أن يحاسبها عليه؟.

⇨

ذلك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أَنْشُدُكَ اللهَ يَا عَمْرُو وَيَا مُغِيْرَةُ، أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ الله لَعَنَ السَّائِقَ وَالْقَائِدَ أَحَدُهُمَا فُلَانٌ ـ يَعْنِي مُعَاوِيَةَ ـ**»، قالا: بلى، ثم قال: «**أَنْشُدُكَ اللهَ يَا مُعَاوِيَةَ وَيَا مُغِيرَةَ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ النَّبِيَّ لَعَنَ عَمْرَواً بِكُلِّ قَافِيَةٍ قَالَهَا لَعْنَةً**»، فقالا: اللّهم بلى، ثم قال: «**أَنْشُدُكَ اللهَ يَا عَمْرُو وَيَا مُعَاوِيَةَ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ النَّبِيَّ لَعَنَ قَوْمَ هَذَا ـ يَعْنِي الْمُغِيرَةَ ـ**» قال الحسن «**فَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ الَّذِي جَعَلَكُمْ فِيمَنْ تَبَرَّأَ مِنْ هَذَا ـ يَعْنِي عَلِيّاً ـ**». [المعجم الكبير ٣/ ٧٢، مجمع الزّوائد ٧/ ٢٤٧، وقال عنه: رواه الطبراني عن شيخه زكريا بن يحيى السَّاجي قال الذَّهبي: أحد الأثبات ما علمت فيه جَرحاً أصلا، وقال ابن القطان مختلف فيه في الحديث وثَّقه قومٌ وضَعَّفه آخرون، وبقية رجاله رجال الصَّحيح.] وكان ابن العاص هذا، هو الّذي عناه الصحابيُّ الكريم عمار بن ياسر رضي الله عنه بقوله للمجاهدين في صِفِّين: أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما، وبغى على المسلمين وظاهر المشركين، فلما رأى الله عزَّ وجلّ يُعِزُّ دينه ويظهر رسوله صلى الله عليه وآله، أسلم وهو فيما نرى راهب غير راغب. ثم قبض الله رسوله صلى الله عليه وآله فوالله أن زال بعده معروفاً بعداوة المسلم وهوادة المجرم. فاثبتوا له وقاتلوه، فإنَّه يُطفئ نور الله ويظاهر أعداء الله عزّ وجل!! (الطَّبري [٤/ ٧]، ابن أبي الحديد [٤/ ٣٠]، المسعودي [لم أجده فيه]، وغيرهم [الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٩٤، وقعة صفّين لابن مزاحم / ٢١٤]). (المؤلِّف رحمه الله)

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٩/ ٩٩.

ولكننّا علمنا ـ على ضوء محاولاته الكثيرة في الأخذ والرّد ـ ، أنّه لم يَعن بمحاسبة نفسه قطّ، وعلمنا أنّ الأنانية الطّموح كانت تملأ مجاهل نفسه، فتُنسيه موقفه الواهن ـ المفضوح الوهن ـ الواقف في مهاب الرِّياح، والمتركِّز في حقيقته على خيوط العنكبوت، يوم طارت من حواليه الألقاب كلُّها.

وعلمنا أنَّ قَبَلِيَّته الطّاغية الجامحة، كانت تأخذ عليه منافذ تفكيره، فتريه من شهادة ابن العاص له بالخلافة، ومن ترشيح المُغِيرَة بن شُعْبة ابنه يزيد لإمارة المؤمنين، مُبرِّراً يردّ به الصّريح من شرائط الإسلام. وهل كانت هذه الشَّهادة أو ذاك التّرشيح، إلاّ نبتَ المساومات الرَّخيصة على ولاية مصر ـ وولاية الكوفة، كما هو الثَّابت تاريخياً؟(١).

ولا عجب من «ابن أبي سفيان» أن يكون كما كان، وهو الأمَوِيُّ الصَّريح، أو الأمّوِيُّ اللّصيق الّذي يعمل جاهداً ليكون أموياً صريحاً(٢).

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٨٦.

(٢) يراجع الزَّمخشري في «ربيع الأبرار» [٤/ ٢٧٥] وابن السائب في «المثالب» [باب: نكاح الجاهليّة] وأبو الفرج في «الأغاني» [٩/ ٣٧] وابن السّمعاني في «مثالب بني أميَّة» وجعفر بن محمَّد الهمداني في «بهجة المستفيد». ثم ليكن القارئ بعد ذلك عند اختياره في نسبة معاوية إلى أيِّ آبائه الأربعة المذكورين هناك بأسمائهم.

أقول: وإلى ذلك يشير سيِّد العرب في نهجه بقوله: «**وَلَيْسَ الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ**». (المؤلِّف ﷺ)

ذكر الزَّمخشري في ربيع الأبرار ٤/ ٢٧٥: «إنَّ معاوية كان يُعزى إلى أربعة: مسافر بن عمرو، وعُمارة بن الوليد، والعبَّاس بن عبد المطلِّب، والصَّبَّاح مغنٍّ أسود كان لعُمارة».

وروى أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ٩/ ٣٧: «أنّ مسافر بن أبي عمرو بن أميّة كان من فتيان قريش جمالاً وشعراً وسخاءً . قالوا : فعشق هنداً بنت عتبة بن ربيعة وعشقته ، فأتّهم بها وحملت منه . قال بعض الرُّواة : فقال معروف بن خرّبوذ : فلمَّا بان حملها أو كاد قالت له : أخرج ، فخرج حتى أتى الحيرة ، فأتى عمرو بن هند فكان ينادمه . وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها ، فلَقِيَ مُسافراً ، فسأله عن حال قريش والنَّاس ، فأخبره وقال له فيما

⇦

وللأموية والهاشمية تاريخهما الّذي يصعد بهما حتى يلتقيا وينزل معهما كلّما نـزل الزمان.

وكان من طبيعة «ردِّ الفعل» في النُّفوس الّتي شَبَّت مع العنعنات القَبَلِيَّة جاهليـةً وإسلاماً، والّتي قبلت الإسلام مُرغَمَة يوم الفتح، ثم لم تهضـم الإسـلام ـ كـما يريـده الإسلام ـ أن تكون دائماً عند ذحولها من الضَّغائن الموروثة، والتُّرات القديمة العميقة الجروح.

وكان معاوية ـ بعد الفتح ـ وعلى عهد النُّبـوَّة الطَّالعـة بـالنُّور، الطَّليـق «الحـافي القدمين»[1] كما يحدِّثنا هو عن نفسه. أمّا في الـدَّور الّـذي تململ معـه النُّفـوذ الأمَـوِي ليسترجع مكانته في المجتمع، وعلى عهد السّياسـة الجديـدة الّتـي رشـحت للشُّـورى عُضواً أمَوِيّاً عتيداً، فلِمَ لا يكون ابن عمِّ عـثمان والي الشَّـام القـويّ المرهـوب، الّـذي

⇨

يقول: وتزوَّجت هنداً بنت عتبة. فدخله من ذلـك مـا اعتـلّ معـه...» ولا تحضرـني المصـادر الثّلاثة الأخرى.

وكلمة أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة ٣/ ١٧، الكتاب: ١٧، هكذا: «**وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّـةُ كَهَاشِـمٍ وَلا حَرْبٌ كَعَبْدِ المُطَّلِبِ وَلا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ وَلَا المُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ وَلا الصَّرِيحُ كَاللَّصِـيقِ وَلا المُحِقُّ كَالمُبْطِلِ وَلا المُؤْمِنُ كَالمُدْغِلِ**».

(١) جاء في خبر وائِلِ بنِ حُجْرٍ حين وفد إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وأقطعه أرضاً، وبعـث معـه معاويـة بـن أبي سفيان لِيُعلِمه إيّاها، وكان وائل بن حجر راكباً على ناقة ومعاوية يمشي حافياً فقال لـه معاويـة: أَتُرْدِفُنِي؟ قال: لَسْتَ من أَرْدَافِ المُلُوك، وأكره أن أعيَّر بك، فقال: فألقِ إليَّ حِذاءك أتـوقَّى بـه من حرِّ الشّمس، قال: ما أضنُّ عليك بهاتين الجِلدَتين، ولكن لَسـت ممَّـن يَلـبسُ لبـاس الملـوك وأكره أن أعيَّر بك، ولكن امش في ظِلِّ ناقتي فحسبك بذاك شرفاً. أنظر: مسند أحمـد ٦/ ٣٩٩، صحيح ابن حبان ١٦/ ١٨٢، سنن البيهقـي ٦/ ١٤٤، المعجـم الكبـير ٢٢/ ١٣، وفي الصّـغير ٢/ ١٤٤، الإستيعاب ٤/ ١٥٦٣، الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٩، أسـد الغابـة ٥/ ٨١، سير أعلام النّبلاء ٢/ ٥٧٤، الإصابة ٦/ ٤٦٧.

يصطنع الأعوان والمؤيّدين، ويسترضي الأتباع والأجناد والمشاورين، ويتّخذ القصور والسُّتور والبوّابين، وفي ثروة ولايته ما يسع كلّ صاحب طمع أو بائع ضمير أو لاحس قصعة!!

ولئن كان معاوية في دور النُّبوّة الرَّعية المخذول العاجز عن الإنتصاف لنفسه ولقبيله من القوّة الّتي غلبت على أمره وأمر قبيله، فَلِمَ لا يحاسب تلك القُوَّة حسابها العسير في الدّور الّذي ملك فيه مقاليد القُوَّة بنفسه أو بقبيله، ولِمَ لا يعود إلى طبيعته فيتحسَّس بذحوله القديمة من الأبناء والأخوة والأصحاب، ويأخذ بثاره من المبادئ والأهداف؟. ولذلك فقد كان من المنتظر المرقوب لمعاوية، أن يشنّ غاراته المسلَّحة على عليٍّ والحسن عليهما السلام في أوّل فرصة تمكِّنه من ذلك، وأن يشنَّ معهما حروبه (الباردة) الأخرى، الّتي كانت أطول الحربين أمداً، وأبعدهما حراً، وأفظعهما نكالاً في الإسلام.

ويُستدلُّ من كثير كثير من الأعمال الدّبلوماسيَّة الّتي قام بها معاوية في عهده الطَّويل الأمد، أنّه كان قد قرَّر التوفُّر على حملة واسعة النّطاق لتحطيم المبادئ العلويّة، أو قُل: لتحطيم جوهرية الإسلام متمثِّلة في دعوة عليٍّ وأولاده المطهّرين عليهم السلام.

ويظهر أنّه كان ثمّة أربعة أهداف تَكْمُن وراء هذه الحملة.

١ ـ شَلُّ الكتلة الشِّيعيّة ـ وهي الكُتلة الحرَّة ـ والقضاء تدريجياً على كلِّ منتمٍ إلى التشيُّع وتمزيق جامعتهم.

٢ ـ خَلْقُ الإضطرابات المقصودة في المناطق المنتمية لأهل البيت والمعروفة بتشيُّعها لهم، ثُمَّ التَّنكيل بهؤلاء الآمنين بحُجَّة تسبيب الشَّغَب.

٣ ـ عزلُ أهل البيت عن العالم الإسلامي، وفَرْضُ نسيانهم على المسلمين إلاَّ بالذِّكر السَّيِّئ، والحؤول ـ بكلِّ الوسائل ـ دون تيسُّر النُّفوذ لهم، ثمَّ العمل على إبادتهم من طريق الغيلة.

٤ـ تشديدُ حرب الأعصاب.

ولمعاوية في الميدان الأخير جَولاتٌ ظالمةٌ سيطول حسابها عند الله عزَّ وجلّ كما طال حسابها في التّاريخ، وسيجرُّنا البحث إلى عرض نماذج منها عند الكلام على مخالفاته لشروط الصُّلح، وهو مكانها من الكتاب.

وكان من أبرز هذه الجولات في سبيل مناوأته لعليٍّ وأولاده ولمبادئهم وأهدافهم، أنَّه فَرَضَ لَعْنَهُم في جميع البلدان الخاضعة لنفوذه، بما ينطوي تحت مفاد «اللَّعن» من إنكار حقِّهم، ومنع رواية الحديث في فضلهم، وأخذ النَّاس بالبراءة منهم فكان ـ بهذا ـ أوَّل من فتح باب اللَّعن في الصَّحابة، وهي السَّابقة الّتي لا يحسده عليها مُسلِمٌ يغار على دينه، وتوصّل إلى استنزال الرّأي العام على إرادته في هذه الأحدوثة المنكرة «بتدابير محبوكة» تبتعد عن مبادئ الله عزَّ وجلّ، بمقدار ما تلتحم بمبادئ معاوية.

وإنّ من شذوذ أحوال المجتمع، أنَّه سريع التأثُّر بالدَّعاوات الجارفة القويَّة ـ مهما كان لونها ـ ولا سيّما إذا كانت مشفوعةً بالدَّليلين من مطامع المال ومطامع الجاه.

وما يدرينا بِمَ رضي النّاس من معاوية، فلعنوا معه عليّاً وحَسَناً وحُسيناً عليهم السلام؟ وما يدرينا بماذا نقم النّاس على أهل البيت فنالوا منهم كما شاء معاوية أن ينالوا؟!

ربما يكون قد أقنعهم بأنَّ عليّاً وأولاده، هم الّذين حاربوا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم إبّان دعوته[1]، وأنَّهم هم الّذين حرَّموا ما أحلّ الله وأحلّوا ما حرّم الله[1]، وهم الّذين ألحقوا

---

(١) محاربة معاوية وقومه للنبيِّ صلى الله عليه وآله من باكورة دعوته حتّى فُتحت مكّة فدخلوا في الإسلام مرغمين لا طائعين، أمرٌ أعرف وأشهر من أن تُدلَّل عليه المصادر أو يثبته تاريخ. ومن الطّريف ما روي عن هشام بن الحكم رضوان الله عليه من أصحاب الإمامين أبي عبد الله الصّادق عليه السلام وأبي الحسن الكاظم عليه السلام وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب، وسئل يوماً عن معاوية ابن أبي سفيان، أشهد بدراً؟ قال: نعم، من ذلك الجانب! وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥/ ٨٦ يرويه عن الأعمش.

العهار بالنَّسب، وهم الّذين نقضوا المواثيق وحنثوا بـالأيمان، وقتلـوا كبـار المسـلمين صبراً، ودفنوا الأبرياء أحياء[٢]، وصلّوا الجمعة يوم الأربعاء[٣].

وربما يكون قـد أطمعهـم دون أن يقـنعهم، وربـما يكـون قـد أخـافهم دون أن يطمعهم، فكان ما أراد «وارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعنَ عليٍّ سـنّةً ينشـأ عليها الصَّغير ويهلك الكبير»[٤]. والمرجَّح أنّ معاوية هو الّذي فضّل تسمية هذه البدعة

⇨

(١) بدع معاوية في الدّين تحتاج إلى بسط مقالٍ فيها لكثرتها وخطورة أثرها في الإسـلام والمسـلمين، كشربه الخمر، وانتشارها وبيعها وشرائها في الشّام، وأكله الرّبا، وإتمامه الصّلاة في السَّفر، وأذانه في العيدين، وصلاته الجمعة يوم الأربعـاء، وغيرهـا الكثـير، ولا يسـعنا أن نسـهب في ذكرهـا وتفصيلها هنا لأنّه يستدعي منّا الخروج عن موضوع الكتاب إلاّ أنّنا نحيل القارئ الكريم إلى ما جمعه وحقّقه العلاّمة الأميني في موسوعة الغدير ١٠/ ١٧٨.

(٢) سيأتي تفصيله في هذا الكتاب تحت عنوان: «الشُّهداء المقتولون صبراً».

(٣) يراجع عن هذا مروج الذّهب (ج٢ ص٧٢) [٣/ ٤٢] وعن غيره مما ذكـر قبلـه، المصـادر الّتـي أشرنا اليها آنفاً عند ذكر بعض هذه الحقائق، والمصادر الّتي سنذكرها في فصل الوفاء بشـروط الصُّلح فيما يأتي، عند ذكرنا للبعض الآخر. (المؤلّف)

(٤) مروج الذهب (ج٢ ص٧٢) [٣/ ٤٢]. (المؤلّف)

ولنتذكر هنا، أنَّ عليّاً سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشام أيـام حـربهم بصـفين، فنهـاهم، وقال لهم: «**إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَـفْتُمْ أَعْمَالَهُـمْ وَذَكَـرْتُمْ حَـالَهُمْ كَـانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَقُلْـتُمْ مَكَـانَ سَـبِّكُمْ إِيَّـاهُمْ: اللَّهُـمَّ احْقِـنْ دِمَاءَنَـا وَدِمَـاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَـيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ.**» ـ النَّهج: (ج١ ص٤٢٠ و٤٢١) [٢/ ١٨٥، الخطبة: ٢٠٦]. ـ وجاء يومـاً رسول معاوية إلى الحسن وكان فيما قال له: أسأل الله ان يحفظك ويهلك هـؤلاء القـوم، فقـال لـه الحسن: «**رِفْقاً لا تَخُنْ مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَحَسْبُكَ أَنْ تُحِبَّنِي لِحُبِّ رَسُولِ اللهِ وَلأَبِي وَأُمِّي، وَمِـنَ الْخِيَانَـةِ أَنْ يَثِقَ بِكَ قَوْمٌ وَأَنْتَ عَدُوٌّ لَهُمْ وَتَدْعُو عَلَيْهِم..**». الملاحم والفتن (ص ١٤٣ طبع النَّجـف) [للسـيّد ابن طاووس/ ٣٦٣]. (المؤلّف)

أقول: قد لا يواجه معاوية ربّه ـ الذي لم يؤمن به طيلة حياته ولا للحظة واحدة ـ بذنب هـو أفحش

⇦

«بالسّنَّة» فسمّاها معه المغرورون بزعامته والمأخوذون بطاعته كما أحبَّ، وظلّ النّاس بعده على بدعته.[1] إلى أن ألغاها عمر بن عبد العزيز - «وأخذ خطيب جامع

⇦

وأعظم من بغضه لأمير المؤمنين عليه السلام وعداوته وسبّه ولعنه وجعل ذلك بدعة ينشأ عليها الصّغير ويهلك الكبير، وهذه حقيقة لا يمكن أن ينكرها إلاّ معاند، فقد روى مسلم في صحيحه ٧/ ١٢٠، والترمذي في سننه ٥/ ٣٠١، عن طريق سعد بن أبي وقاص قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أنْ تسبَّ أبا التُّراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبَّه لإنْ تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النّعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له خلّفه في بعض مغازيه، فقال له عليٌّ: «**يَا رَسُولَ الله خَلَّفْتَنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟**» فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ أَنَّهُ لا نُبُوَّةَ بَعْدِي**» وسمعته يقول يوم خيبر: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**» قال: فتطاولنا لها فقال: «**ادْعُوا لِي عَلِيّاً**» فأتى به أرمد، فبصق في عينه ودفع الرَّاية إليه ففتح الله عليه. ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ سورة آل عمران/ ٦١، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وفاطمةَ وحسناً وحسيناً، فقال: «**اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلِي**».

(١) ومن الشّواهد على أنَّ كلمة: «السُّنة» كانت في القديم لا تطلق إلى على من كان منحرفاً عن أمير المؤمنين عليه السلام ما جاء في ترجمة: «إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السّعدي أبو إسحاق الجوزجاني» قال ابن حبّان عنه: وكان حريزيَّ المذهب ولم يكن بداعية إليه، وكان صلباً في السُّنة حافظاً للحديث، إلاّ أنّه من صلابته ربما كان يتعدّى طوره. الثِّقات لابن حبان ٨/ ٨١. وليس يخفى أنَّ قوله: لم يكن بداعية إليه - أي إلى مذهب حريز بن عثمان في النّصب - محاولةٌ لدرء حكم الفسق عنه، فإنَّ كثيراً من فقهاء العامّة لا يجوِّزون شهادة المبتدع إذا دعى إلى بدعته.

قال النووي في شرح مسلم ١/ ٦٠: قال العلماء من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول: المبتدع الذي يكفر ببدعته، لا تقبل روايته بالاتفاق، وأما الذي لا يكفر بها فاختلفوا في روايته، فمنهم من ردَّها مطلقاً لفسقه ولا ينفعه التأويل، ومنهم من قبلها مطلقاً إذا لم يكن ممن يستحلّ الكذب في نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه، سواء كان داعيةً إلى بدعته أو غير داعية وهذا محكيّ عن امامنا الشافعي لقوله: اقبل شهادة أهل الأهواء لا الخطابية من الرافضة، لكونهم يرون الشهادة بالزُّور لموافقيهم، ومنهم: من قال: تقبل إذا لم يكن داعيةً إلى بدعته ولا تقبل إذا كان داعية، وهذا مذهب كثيرين أو الأكثر من العلماء وهو الأعدل الصحيح.

⇦

⇦

وقال بعض أصحاب الشافعي اختلف أصحاب الشافعي في غير الداعية، واتّفقوا على عدم قبول الدّاعية، وقال أبو حاتِم بن حيان ـ بكسر الحاء ـ لا يجوز الإحتجاج بالدّاعية عند أئمتنا قاطبة، لا خلاف بينهم في ذلك، وأمّا المذهب الأوّل فضعيف جداً، ففي الصحيحين وغيرهما من كتب أئمة الحديث الإحتجاج بكثيرين من المبتدعة غير الدّعاة، ولم يزل السّلف والخلف على قبول الرواية منهم والإحتجاج بها والسّماع منهم وإسماعهم من غير إنكار منهم. إنتهى

لا أريد التكلّم في هذه الدَّعوى الّتي باتت رهن الدّفاتر وبطون الأوراق فإنَّ الصَّحيحين عندهم يكفيان لعرض صورة للواقع غير التي راح يطبّل عليها النووي وأشياخه، ولو تمعّن المنصف الخبير بحال بعض رجال البخاري ومسلم لألفاهما يرويان عن كثير من أهل البدع الدّاعين إليها.

وإنّما الكلام في أنّ ابن حبّان اعتبر النّصب بدعة خفيفة، وفي نفس الوقت اعترف بفسق الجوزجاني من حيث لا يشعر، إذ من المسلّم أنَّ صاحب البدعة عندهم لا يخلو من أحد وجهين: إما بدعة يكفّر بها وإمّا يفسَّق، فاتّفقوا على أنّ الأوّل لا يحتجّ بهم مطلقاً، واختلفوا في الثّاني، بين الأخذ مطلقاً والردّ مطلقاً، والتفصيل بين من يدعو إلى بدعته ومن ليس كذلك. ومن الواضح أنّ البغض والعداء لأمير المؤمنين عليه السلام يخرج صاحبه من الإسلام وهو كفر صريح بلا ريب، لشهادة الكتاب والسُّنة عليه. فالكافر والمنافق سواء كان داعية إلى بدعته أو لم يكن، فهو ممن يحرم أخذ الرّواية عنه والإحتجاج به.

وأمّا ابن حبّان الذي صار همّه تبرئة الجوزجاني من وصمة الفسق، تناقض مع نفسه فتارة يقول: لم يكن بداعية إليه، وأخرى: ربما كان يتعدّى طوره!

ولا يسمح بنا المقام أن نبيِّن كيف أنَّ الجوزجاني كان يتعدّى طوره، لتعرف أن هذا الوصف هو أشد خزياً من الدّعاء الى بدعته. ولكن مما يهمّني في البحث هنا أنَّ ابن حبّان يشرح لنا مقولة «السُّنة» التي كان عليها السّلف، وهي تتّحد لفظاً مع ما يطلقه أكثر المسلمين اليوم على أنفسهم، وتفترق معنىً، وإن كان الخلف عيال على السَّلف.

فإنَّ «السُّنة» التي يهتف بها القوم ويتبجّح بها لا تشير الى سنّة النبي صلى الله عليه وآله لا من قريب ولا من بعيد، بل هي ما سنّه لهم معاوية بن أبي سفيان، ولا أظنُّ مسلماً يمتلك الجرأة بالقول أنَّ سبّ عليّ عليه السلام وشتمه من سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله .

قال العلامة الحَضْرَمَوْتي: وقوله: كان صلباً في السُّنة ما هي تلك السنة؟ ما أراها إلاّ التي أنكر أهل دمشق على عمر بن عبد العزيز تركها، وهي لعن مولى المؤمنين وصاحوا به، فلعنها الله من سنّة،

⇦

(حرّان) يخطب ثم ختم خطبته ولم يقل شيئاً من سَبِّ أبي تراب كعادته، فتصايح النّاس من كلِّ جانب: ويحك ويحك السُّنة السُّنة، تركت السُّنة!»[1].

⇦

ولعن الله من سنَّها، ومن عمل بها كائناً من كان. وقوله كالمعتذر عنه: إنه من صلابته ربما كان يتعدّى طوره، عذر أقبح من الذنب، لأنه من باب غسل النجاسة بأخبث منها. العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل / ٨٧.

والجوزجاني هذا من أئمة الجرح والتعديل عندهم، فمنه يؤخد وعليه يعوّل في هذا الباب. وبالله أقسم أنّ هذه لمصيبة كبرى ونازلة عظمى أن يسلّم كرسيّ التعديل والتجريح لناصبي وقح، يتّخذ الوقيعة بأمير المؤمنين عليه السلام ديناً وشرعة ومنهاجاً.

ومن عَجبِ الدُّنيا حَكيمٌ مُصَفِّرٌ … وأعْمَشُ كَحَّالٌ وأعْمَى مُنَجِّمُ

وَقَارِئُنَا تُرْكٌ وَهِنْدِيٌّ خَطِيبُنَا … تَعَالَوْا عَلَى الإسْلامِ نَبْكِي وَنَلْطِمُ!

(١) «الإسلام بين السُّنّة والشّيعة» (ص٢٥). (المؤلِّف رحمه الله)

وفي سنن الدّارمي ١/ ٦٤، كتاب الفتن لابن حماد / ٢١، مستدرك الحاكم ٤/ ٥١٤، المصنَّف للصّنعاني ١١/ ٣٥٩، المصنَّف لابن أبي شيبة ٨/ ٥٩٩،: عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ابن مسعود قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنةٌ يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصّغير إذا تُرك منها شئ قيل: تُركَت السُّنة. قالوا: ومتى ذاك؟ قال: إذا ذهبت علماؤكم وكثرت جهلاؤكم وكثرت قراؤكم وقلت فقهاؤكم وكثرت أمراؤكم وقلّت أمناؤكم والتمست الدّنيا بعمل الآخرة وتُفِقِّه لغير الدّين. انتهى

وروي أيضاً عن أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة له قال: «**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبَسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ يَجْرِي النَّاسُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُونَهَا سُنَّةً فَإِذَا غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ قَدْ غُيِّرَتِ السُّنَّةُ وَقَدْ أَتَى النَّاسُ مُنْكَراً.**» الكافي الشّريف ٨/ ٥٩.

«والفتنة» هذه ليست غير «سُنّة» سبّ ولعن أمير المؤمنين عليه السلام الّتي أسّسها معاوية، وهذا الفهم لم يخف على كثير ممّن مرّت به هذه الأحاديث ودرس أهمّ الفتن الّتي واكبت دولة بني أمية، فرأى أنّ لعن أمير المؤمنين عليه السلام وسبّه كان من أشدِّها، وقد روى الجاحظ في كتابه: العثمانيّة / ٢٨٥، عن العبّاس بن بكار الضبي قال: حدثني أبو بكر الهذلي عن الزهري قال: قال ابن عباس لمعاوية: ألا تكفّ عن شتم هذا الرَّجل؟ قال: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصَّغير ويهرم فيه

⇦

ثم كانت «سُنَّة معاويـة» هـي الأصـل التّـاريخي لتكـوين هـذه الكلمـة تكوينـاً إصطلاحياً آخر، تناسل مع الأجيال، وتُنوسِيت معه مناسباته السّياسية الأولى.

وانتباهة منصفة في تناسق نفسيّات الرّجل، تغنيك عن استعراض أمثلة كثيرة من أعماله في هذا السّبيل..

وبعد هذا، فما ظنُّك بمعاوية لو قُدِّر له الظّفر في حربه مع الحسن، وقُدِّر للحسن الشّهادة في الحرب؟

أفكان من سوابق الرَّجل هذه، ما يدلّ على أنَّه سيلزم جانب الإعتدال والقصـد، في استغلال انتصاره تجاه فُلولِ الحرب من شيعة الحسن والبقيَّة الباقية من الثَّابتين على العقيدة والإيمان؟ أم أنّ مَوجَة إبادة ساحقةٍ ستكون هي عنوان علاقاته بهـؤلاء، بعـد موقفه الصَّريح من السُّلالة النّبويَّة نفسها، وبعد أن يكون قـد طحـن في هـذه الحـرب أكبر رأسٍ في البيت النَّبويّ العظيم.

إنَّ معاوية سوف لا يتّقي بعد ذلك أحـداً. وإنَّـه سـوف لا يـتردَّد سياسـياً، ولا يتورّع ديناً، من أن يمضي قُدماً في تصفية حسابه مع المبدأ الّذي أقضَّ مضـجعه وأكـل قلبه وهزئ بكيانه، منذ ولي عليٌّ الخلافة، بل منذ طلعت الهاشميَّة بالنُّور على الدُّنيا، بل منذ هزمت المنافرة أميّة إلى الشّام.

وما كان معاوية بالّذي يعجز عن وضـع «تـدابير محبوكـة» أخـرى لعمليـة محـق الشِّيعة، بعد مقتل الحسن، يحتال بها على المغرورين بزعامته من الجيل الّـذي شـدّ أزره

⇦

الكبير. فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كفّ عن شتمه فقال الناس: ترك السُّنة. قال: وقد روي عن ابن مسعود إمّا موقوفاً عليه أو مرفوعاً: كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليهـا الصَّـغير ويهـرم فيها الكبير، يجري عليها النّاس فيتخذونها سنّة، فإذا غُيِّر منها شئ قيل: غيرت السّنة.

على اصطناع د ناه من مخالفات.

وهو صاحب تدابير «لعن أهل البيت» وصاحب تدابير «رمي عليٍّ بدم عثمان»، فلتكن ثَالِثَةَ أثافيه تدابيره في «القضاء على التَّشيُّع» مادِّيّاً ومعنويّاً. وإنَّه لرجل الميدان في تعبئة هذه الألوان من التدابير.

وفي جنبات قصوره الشَّاهقات في الشَّام، الضَّمائر المعروضة للبيع والأقلام المفوَّضة للإيجار، فلتضع الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفق الخطط المرسومة، ولتنتهك المبادئ العلويَّة انتهاكاً فتمسخها مسخاً وتزدريها ازدراء تنتزع به استحقاقها للبقاء بين النّاس، ثم لتخلق منها ـ وقد خلا الجوُّ من آل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم ـ رِدّة أخرى عن الإسلام تتَّهم بها بُنَاة الإسلام ومهابط تنزيله ومنازل وحيه ومصادر تعاليمه أنفسهم، ثم لتشرِّع للنَّاس ـ مع تمادي الوضع والرَّفع ـ إسلاماً آخر، هو قريحة معاوية ـ لا ما هتفت به الهاشميَّة من وحي السَّماء.

وكان هذا هو الّذي عناه الحسن عليه السلام حين قال: «**مَا تَدْرُونَ مَا عَمِلْتُ، وَاللهِ لَلَّذِي عَمِلْتُ خَيْرٌ لَشِيعَتِي مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**».

وما شيءٌ خيراً ممّا طلعت عليه الشَّمس من حفظ العقيدة وتخليد المبدأ.

وكان هو ما عناه ـ أيضاً ـ الإمام محمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ الحسينِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ (الباقر) عليهم السلام، حين سُئِل عن صلح الحسن عليه السلام فقال: «**إِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا صَنَعَ لَوْلا مَا صَنَعَ لَكَانَ أَمْرٌ عَظِيمٌ**.»[1]

النتائج: وأغلب الظَّن أنّ خطوات هذه المراحل الثّلاث، بلغت بالقارئ الكريم هدفنا المقصود من البحث، قبل أن نُعلن عنه صريحاً، وكشفت له بتدرُّجها الرَّفيق

---

(١) علل الشرائع للشّيخ الصّدوق رحمه الله ١/ ٢١١.

كثيراً من الغموض الّذي هيّأ جوّاً للنّقد الموروث.

ونقول الآن تدليلاً على ما ادَّعيناه أوّلاً من انغلاق طريق الشّهادة عن الحسن عليه السلام، الّذي كان معناه امتناعها هي منه، دون امتناعه هو منها:

إنَّ الحسن لو حاول أن يجيب على حِدَّة مأزقه الّتي اصطلحت عليه في لحظته الأخيرة في المدائن، بإراقة دمه الطّاهر في سبيل الله عزَّ وجلّ إنكاراً على البغي الّذي صارحه به سِتُّون ألفاً من أجناد الشّام، وإيثاراً للشَّهادة ومقامها الكريم ـ لحيل بينه وبين ما يريد، ولكان ـ بلا ريبٍ ـ ذلك المقتول الضَّائع الدَّم الّذي لن يستطيع أصدقاؤه في التّاريخ أن يسجِّلوا له الشَّهادة كما تقتضيها كلمة: «شَهيد».

ذلك لأنَّ الظَّرف المؤسِف الّذي انتهى إليه طالع المدائن بما عبّرت عنه الفوضى الرَّعناء في صيحاتها الكافرة وفي سلاحها ـ أيضاً ـ، وبما كشفت عنه كتب الخونة الكوفيين في مواثيقهم لمعاوية على الفتك بالحسن ـ وهو ما وقف عليه الحسن نفسه في رسائلهم ـ، كلُّ ذلك يفرض علينا الإستسلام للإعتقاد بأنَّ فكرةً قويّةَ الأنصار من رجالات المعسكر، كانت قد قرّرت التورُّط في أعظم جريمة من أمر الإمام عليه السلام، وأنّهم كانوا يتحيَّنون الفُرَص لاقتراف هذه البائقة الكبرى.

ووجدوا من تلاشي النِّظام في المعسكر، بما انتاشه من الفزع وبما انتابه من الفتن، وبما بلغه من أخبار مَسْكِن، ومن الفوضى «المصطَنعة» الّتي أطْلَعَت رأسها بين جماهيره الهُوجُ[1] ـ ظَرفاً مناسِباً لإنزال الضّربة الحاسمة الّتي كانت هدف الخوارج فيما أرادوه من جهادهم مع الحسن وكانت غاية «الحزب الأموي» فيما تمّ عليه الإتّفاق بينه وبين معاوية. ولا ننسى أنّ معاوية نفسه كان قد لوّح للحسن عليه السلام في رسائله الأولى إليه، بما يُشعره

(١) «الهُوجُ» من الهَوَج، ورَجلٌ أَهْوَجُ بَيِّنُ الهَوَج: أي طَوِيلٌ به طَيْشٌ وتَسرُّعٌ، تاج العروس ٣/ ٥٢١. والهَوَجُ: الحُمْقُ. لسان العرب ٢/ ٣٩٤

التَّهديد بهذه الخطَّة العَدُوَّة ـ من أوَّل الأمر ـ وإلاَّ فما معنى قوله هناك: «فاحْـذَر أنْ تكـون منيَّتُك على أيدي رَعَاع من النّاس!!»[1].

وبلغ من دِقَّة الموقف وتَوتُّر الوضع، في لحظات المدائن الأخـيرة، أنّ أيَّ حركـة مـن الإمام عليه السلام سواء في سبيل الحرب أو في سبيل الصُّـلح، وفي سـبيل الإنضـمام إلى الجبهـة في مَسْكِن أو في سبيل العودة إلى الكوفـة ـ مـثلاً ـ لابـدّ أن تنقلـب إلى خـلافٍ حـادٍّ، فتمـرُّد واسع، فثورة مسلَّحة هَوْجَاء، هي كلُّ ما يتمنَّاه معاوية، ويُصوِّب له ذهبه وخزائنه.

ولن يُطفئ النّائرة يومئذٍ لو اتّقدت جذوتها إلاّ دم الحسن الزّكي.

وللثّورات الجامحة أحكامها القاسية وتجنياتها الّتي لا تبالي في سبيل الوصـول إلى أهدافها بالأشخاص مهما عظمت مكانتهم في النّفوس.

أَوَ ليست طعنة الحسن في سَاباط المدائن دليلاً عـلى مـا نقـول؟ وهـل كانـت إلاّ الطّعنة الّتي تطوّعت إلى قتله عن إرادة وعمدٍ؟ وكان قد خرج إذ ذاك من فسطاطه يؤمُّ مقصورة عامله على «المدائن» ليتجنَّب ضوضاء النَّاس، وليكون هناك أقدر على اتِّخـاذ ما يحتمله الظَّرف من تدبير.

وهنا يقول المؤرِّخون ما لفظه: «وأحدق به طوائفٌ من خاصَّته وشيعته، ومنعوا عنه من أراده.»[2] وفي نصٍّ آخر: «فأطافوا به ودفعوا النّاس عنه»[3] أقـول: فَمِـمَّ كـانوا يدفعون النّاس عنه؟ ومِمَّ منعوا من أراده؟.. أوَليس هذا كلُّه صريحاً بأنّه أصبح مُهدَّداً على حياته، وأنّ الّذين خرجوا معه كمجاهدين يدافعون عنه انكشفوا ـ بعد قليل ـ عن

---

(١) مقاتل الطالبيين / ٣٧، شرح النّهج ١٦/ ٣٧.

(٢) مقاتل الطالبيين / ٤١، الإرشاد للشّيخ المفيد رحمه الله ٢/ ١٢، شرح النّهج ١٦/ ٤١.

(٣) نفس المصادر المتقدّمة، كذلك الأخبار الطوال للدّينوري / ٢١٧. والّذين أطافوا به هم «رَبِيعَةُ وَهَمْدَان» بعد أن طلبهم صلوات الله عليه.

أعداءٍ يتدافعون عليه؟؟

وهل كان انكفاؤه إلى مقصورة سَعد بن مسعود، إلاَّ ليبتعد عن المحيط المفتون الّذي أصبح يستعد لثورةٍ لا يُدرى مدى اندفاعها بالموبقات؟. ورأى بأمِّ رأسه انسياح فصائله أنفسهم في مضاربه نهباً، وفي مقامه المقدَّس تكفيراً وسبّاً، ورأى تحاملهم المقصود على ايذائه وتدافعهم العامد على العظيم من أمره، فعلم أنّهم أصبحوا لا يُطيقون رؤيته، وأنَّ ظهوره بشخصه بينهم هو مثارُ تمرُّدهم الخبيث، فانتقل غير بعيد، وكانت انتقالته نفسها إحدى وسائله لعلاج الموقف، لو أنّه وجد للعلاج سبيلاً.

وبديهيّ أنه لم يكن أحد آخر في الدُّنيا كلِّها، أحرص من الحسن نفسه على الفوز في قضيَّته، ولا أكثر عملاً، ولا أشدَّ اهتماماً، ولا أنشطّ حيوية، ولا أسرع تضحيةً فيما تستدعيه من تضحيات.

وبديهيٌّ أيضاً، أنَّه لم يكن ليفوته ما لا يفوتنا من رأيٍ، ولا يَخْطَئُه ما لا يَخْطَئُنا من تدبير. ولقد برهنت سائر مراحله على أنَّه الرَّجل الحصيف الّذي غالب مشاكله كلَّها ثمَّ اختار لها أفضل الحلول في حربه وسلمه ومع مراحل جهاده ومعاهدات صلحه، وفي عاصمة ملكه «الكوفة» وعاصمة إمامته «المدينة».

تُرى، أفكان من جنون هذه اللَّحظات في المدائن، مجالٌ للموت الّذي يصنع الحياة؟ أم هو المجال الّذي لا يصنع إلاَّ الموت في الموت أبديّاً، وهو ما يجب أن تَرْبَأ عنه النُّفوس الكريمة الّتي لا تموت إلاَّ لتُحيي بعدها سُنَّةً أو تنقذ أمَّة.

فأين إمكان الشَّهادة للحسن يا تُرى؟

ولقد يحزُّ في النَّفس حتى ليَضِيقُ محبُّ الحسن ذَرعاً بما يترسَّمه في ذهنه من معالم الخطوب السُّود، الّتي كانت تتدفق بطوفانها الرَّهيب على هذا الإمام الممتحن في أحرج ساعاته وأدقِّ لحظاته.

ربما كان للذِّهن قابليّة التّصوّر أو قابليّة الهضم للحوادث الّتي ترجع إلى مصادرها الإعتيادية في النّاس، من العداء الشّخصي، أو النزاع القَبَلي، أو الخلاف النَّظري ـ كعداء معاوية للحسن، أو خصومة بني أمية للهاشميين، أو خلاف الخوارج على عليٍّ وأولاده عليهم السلام ـ. أمّا الحوادث الّتي لا مرجع لها إلاّ الطَّمع الدَّنيء فإنَّه من آلمِ ما يتصوَّره الإنسان من شذوذ النّاس.

أفتظنُّ أنّ من الممكن لشيعيٍّ يعتقد إمامة الحسن كما يعتقد نُبوّة النّبيِّ، ويعيش في نعمة الحسن كما يعيش في نعمة أبيه، ثم تُحدِّثه نفسه بالخيانة العظمى في أحرج اللَّحظات الّتي تمرُّ بإمامه ووليِّ نعمته، وأحوجها إلى الإخلاص الصَّحيح من شيعته؟

أجل، إنَّها للمؤامرة الدَّنيئة الّتي كانت من صميم الواقع الّذي دار حول الحسن عليه السلام، في إبّان وجوده في المقصورة البيضاء بالمدائن!!

فانظر إلى أيِّ حدٍّ كان قد بلغ التفسُّخ الخُلُقي في الجيل الّذي قُدِّر للحسن أن يتّخذ منه أجناده إلى جهاد عدوِّه.

قد يكون الفرد بذاته من ذوي الحسب، وقد يكون على انفراده من ذوي السّكينة، ولكنَّه إذا انساح بضعفه المتأصِّل في نفسه مع العاصفة الطارئة، واحتضنته الجماهير المتحمِّسة من حوله، كان جديراً بأن تغلب عليه روح الجماعة فلا يشعر إلاَّ بشعورها، ولا يفكر إلاَّ بفكرها، ولا يعمل إلاَّ بعملها ـ ويخالف ـ عندئذٍ ـ مشاعره الفطرية مخالفة لا تنفكّ في أكثر الأحيان عن النّدم الجارح عند سكون العاصفة وتبدّل الأحوال.

وهكذا كان من السَّورة الجامحة في ضوضاء المدائن يومئذٍ ما أخضع لتيَّاره حتى الشِّيعيِّ الضّعيف، فنسي تشيُّعه ونسي عنعناته، ونسي حتى المعنويَّات العربيَّة السّاذجة الّتي تتحلَّل من الدِّين على اختلاف نزعاته!!

فإنَّه إن لم يكن إمامَك فوليُّ نعمتك، وإن لم يكن وليَّ نعمتك فالكريم الجريح.

وهذا مثلٌ واحد ـ حفظه التَّاريخ ـ عن شيعيِّهم، ظنُّك بخارجيِّهم وأمويهم وشكّاكهم وأحمرهم؟[1].

ومثلٌ واحدٌ حفظه التَّاريخ، يدلّ على أمثال كثيرةٍ نسيها التَّاريخ أو تناساها.

ووجه آخر: هو ما أشار إليه الحسن نفسه في أجوبته لشيعته الّذين نقموا عليه الصُّلح. قال: «**مَا أَرَدْتُ بِمُصَالَحَتِي مُعَاوِيَةَ إلاَّ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمُ القَتْلَ**»[2].

وأُثِر عنه بهذا المعنى كلماتٌ كثيرةٌ.

وللتوفُّر على فهم هذه الحقيقة بشيءٍ من التَّفصيل الّذي يخرج بنا إلى القناعة بما أجمله الإمام بهذا القول، نقول:

لم يكن النِّزاع بين الحسن ومعاوية في حقيقته، نِزاعاً بين شخصين يتسابقان إلى عرش، وإنَّما كان صِراعاً بين مبدأين يتنازعان البقاء والخلود. وكان معنى الإنتصار في

---

(١) أقول: لا شكّ أنّ من طعن الإمام الحسن صلوات الله عليه لم يكن شيعيّاً، لا بالمعنى العام ـ وهو المحبّ فقط ـ ولا بالمعنى الخاصّ ـ من يعتقد إمامته ـ بل هو من الخوارج الّذين انضمّوا معه بغية قتال معاوية، وهذا ما تجده مصرّحاً به عند كلّ من ذكر الواقعة: أنهم حين بلغهم أنّ الحسن عليه السلام يريد تسليم الأمر إلى معاوية قالوا: كفر والله الرّجل، ثم شدُّوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاّه من تحته... فقام إليه رجلٌ من بني أسد من بني نصر بن قعين يقال له: «الجراح بن سنان» فلمَا مرَّ في مُظْلِم سَابَاط، قام إليه فأخذ بلجام بغلته وبيده معول فقال: الله أكبر يا حسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل، ثم طعنه فوقعت الطَّعنة في فخذه فشقَّته... أنظر المصادر الّتي ذُكرت سلفاً. وهذا المنطق ليس منطقاً شيعيّاً بل هو خارجيّ بحت، يعرفه كلّ من زاول التاريخ. وهذا أمر لم يخفَ على المؤلّف وقد أشار في ما مرّ عليك من الكتاب الصّفحة / ٣٥٣، بقوله: «ولقد تدلّ ملامح النِّداء بالتَّكفير للحسن عليه السلام من قِبَلِ الثَّائرين عليه من جنوده هناك، أنَّه كان لسان حال «الخَوارج»، وكانت هذه هي لغتهم النّابية إذا استشرى غضبهم على أحدٍ من المسلمين أو أئمَّة المسلمين.»

(٢) الدِّينَوَريّ (ص٣٠٣) [الأخبار الطّوال / ٢٢١]. (المؤلِّف رحمه الله)

هذا النّزاع، خلود المبدأ الّذي ينتصر له أحدُ الخصمين المتنازعين. وكذلك هي حرب المبادئ الّتي لا تسجِّل انتصاراتها من طريق السِّلاح، ولكن من طريق الظَّفر بثبات العقيدة وخلود المبدأ. وربما ظفر المبدأ بالخلود ولكن تحت ظلِّ اللِّواء المغلوب ظاهراً.

وانقسم المسلمون يومئذٍ، على اختلاف رأيهم في المبدأين، إلى معسكرين يحمي كلٌّ منهما مبدأه، ويتفادَى له بكلِّ ما أوتي من حول وقُوَّة.

فكانت العلويَّة والأمَوِيَّة، وكانت الكوفة والشّام.

ونخلت الأدوار الإستفزازية الّتي لعبها معاوية، باسم الثأر لعثمان، معسكر الشَّام من شيعة عليٍّ وأولاده عليهم السلام. فكان لابدَّ لهؤلاء أن ينضووا إلى معسكرهم في الكوفة، وفي البلاد الّتي ترجع بأمرها إلى الكوفة، غير مروعين ولا مطاردين.

واجتمع ـ على ذلك ـ في الكوفة والبصرة والمدائن والحجاز واليمن عامَّة القائلين بالتشيُّع لأهل البيت عليهم السلام.

وخَلَصَ إلى عاصمة الإمام في العراق من الأمصار كلِّها، الثِّقل الأكبر من أعلام المسلمين، وبقايا السُّيوف من المهاجرين والأنصار. فكانت كوفة عليٍّ عَلَى عهد الخلافة الهاشميَّة، مَباءَةَ الإسلام، والمركز الَّذي احتفظ بتراث الرِّسالة بأمانةٍ وصبر وإيمان.

وكان طبيعيّاً أن يستجيب لدعوة الحسن، في زحفه للموقعة الفاصلة بين المبدأين، عَامّة هذه النُّخبة المختارة المتبقِّية في الكوفة بعد وفاة أبيه عليه السلام، من شيعته وشيعة أبيه وصحابة جدِّه صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا هم جميعاً عند مواقعهم من صفوف وحداتهم، في الجيش الّذي يستعدّ في «النُّخَيلَة».

ولم يكن في الدُّنيا كلِّها، قابليّةٌ أخرى لصيانة التّراث الإسلامي على وجهه الصّحيح، كالقابليّات الّتي لفَّها جناح هذا الجيش، بانضواء هذه الكتل الكريمة إليه، وفيها أفراد الأسرة المطهَّرة من الهاشميِّين.

واحتضنت وحداتُ النُّخَيلَة مع هؤلاء، أجناساً كثيرة من النّاس، أتينا ـ فيما سبق ـ على عرض واسع لمختلف عناصرهم وشتّى منازعهم ونتائج أعمالهم.

وكان المضيُّ في الزَّحف ضرورةً اقتضاها الظَّرف الطّارئ كما أشير إليه آنفاً.

وما هي إلاّ أيّام لم تبلغ عدد الأصابع، حتى انتظم المعسكران في «المدائن» و«مَسْكِن» أقسام الجيش كلّها، فكان في كلٍّ منهما جماعةٌ من الطَّبقة الممتازة في مسلكها ومعنويَّاتها وإخلاصها، وجماعات أخرى من طبقات مختلفة منوّعة.

وجاءت هزيمة عبيد الله بن عبّاس ومن معه إلى معاوية، أشبه بعملية تصفية قد تكون نافعة، لو لم تُعزِّزها نَكَبات أخرى من نوعها ومن غير نوعها، ذلك لأنَّها نخلت معسكر مَسْكِن، وهو المعسكر الّذي نازل العدوَّ وجهاً لوجه، من الأخلاط الّتي كانت العضو الفاسد في هذا الجيش.

أمّا في المدائن فقد كان الحسن وخاصّته في سواد من أشباه المهزومين لا يتسنَّى لهم الوصول إلى معاوية فيفرُّون، ولا يستفزّهم الواجب فيرضخون. وكانوا في المستقبل القريب، أداة الكارثة التَّاريخية، بها حالوا بين الحسن وبين أهدافه من هذه الحرب، وبها أغلقوا عليه من طريق الشَّهادة الكريمة، وبها أفسدوا عليه كلَّ شيءٍ من أمره، (كما مرّ بيانه قريباً).

ولنفترض الآن أنَّ شيئاً واحداً كان لا يزال تحت متناول الحسن في سبيل الإستمرار على الحرب، أو في سبيل الإمتناع على الصُّلح.

ذلك هو أنْ يُصدر أوامره من حصاره في «المدائن» إلى أنصاره في «مَسْكِن» بمباشرة الحرب، تحت قيادة القائد الجديد «قيس بن سعد بن عبُادة الأنصاري»، الرَّجل العظيم الّذي نعرف من دراسة ميوله الشَّخصيّة، أنّه كان يُؤثر الحرب حتى ولو

صالح الإمام(١). وإذا كانت ثورة المشاكسين في المدائن، قد حالت دون تكتيب هذا الجيش للقتال، فما كانت لِتَحُول دون إرسال الأوامر إلى المخلِصين الأوفياء في جيش مَسْكِن بالحرب، إنْ سِرّاً وإنْ عَلَناً.

ومن المحتمل أنّ كثيراً من المغلوبين على أمرهم من مجاهدة المدائن المخلصين، كانوا يستطيعون التسلُّل إلى «مَسْكِن» لإنجاد القُوَّات المحاربة هناك، فيما لو وجدوا من جانب الحسن إستعداداً لهذه الفكرة أو تشجيعاً عليها.

ولعلَّ من المحتمل أيضاً أنَّ الإمام نفسه كان يستطيع هو أيضاً وبعد تَريُّث غير طويل، ينتظر به خُفُوت الزَّوابع الدَّائرة حوله في المدائن، أن يخفَّ إلى مَسْكِن حيث النَّصر الحاسم، أو الشَّهادة بكلِّ معانيها الكريمة في الله وفي التّاريخ.

فلماذا ينزل إلى الصُّلح، وله من هذا التَّدبير مندوحة عنه؟

نقول: ربما كان في مستطاع الحسن إصدار هذه الأوامر في لحظاته الأخيرة في المدائن، وربما لم يكن.

وعلى كلٍّ من التّقديرين، فما كلُّ مندوحةٍ لَوَّحت بنجاح، يجوز الأخذ بها، ورُبَّ تدبير في ظرفٍ هو نفسُه مفتاح مآزق صعابٍ لظرفٍ آخر. وهذه هي القاعدة الّتي يجب الإلتفات إليها عند الأخذ بأيِّ اقتراح في أيٍّ من المآزق.

وهنا أيضاً، فهل فكَّر مقترح هذا التَّدبير، في المُدَّة الّتي كان يمكن أن تستوعبها حرب أربعة آلاف ـ هم جيش الحسن في مَسْكِن ـ لسِتِّين ألفاً هم جيش معاوية أو ثمانية وسِتِّين ألفاً؟ وأستغفر الله، بل حرب مجموعة من جيش تنازل مجموعة من جيش تزيدها خمسة وأربعين ضعفاً! (إرجع إلى تحليل النِّسبة العددية بين الفريقين عسكر

---

(١) يراجع عن هذا ابن الأثير (ج٣ ص١٦٢) [٣/ ٤٠٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

مَسْكِن وعسكر الشَّام في الفصل ـ ١١ ـ)[1].

وهل فكَّر مُقتَرِح هذه المندوحة، فيما عسى أن يكون موقف الحسن عند انتهاء اللَّحظات القصيرة من عمر هذه الحرب، وعندما يتفانى المساعير من أنصاره في مسكن.

إنّه ولا شكَّ الموقف الّذي سيضطرّه ـ لو بقي حيّاً ـ إلى التَّسليم بدون قيدٍ ولا شرط.

وإنّه ولا شكَّ الطَّالع الجديد الّذي كان ينتظره معاوية للإجراءات الحاسمة بين الكوفة والشَّام، الإجراءات الّتي لا تعدو الإحتلال العسكري المظفَّر بويلاته ونقماته الّتي لا حدَّ لفظاعتها في أهل البيت وشيعتهم، وأخلق باحتلالٍ كهذا أن يطوِّح بكل أماني البلاد، وبشعائرها الممتازة، ومبادئها الّتي قامت على جماجم عشرات الألوف من صفوة الشّهداء المجاهدين في الله.

ولا أخالُ أنَّ أحداً يفطن إلى هذه النَّتائج المحتَّمة، ثم لا يحكم بفشل هذه المندوحة المنتقضة على نفسها، وإنّ من أبرز أخطائها أنها تنقل الحسن ـ في أقصر زمان ـ من خصم مرهوب يُمْلِي الشُّروط على عدوِّه، إلى محارب مغلوبٍ لا مَفرَّ له من التَّسليم بدون قيدٍ ولا شرط.

وهذا فيما لو انكشفت الحربُ والحسن حَيٌّ يحال بينه وبين الإشتراك فيها.

وأمّا لو قُدِّر لهذه الحرب القصيرة العُمر، أن تجتاح في طاحونتها حتى الحسن لينال الشَّهادة، وافترضنا أنَّه كان قد استطاع التسلُّل إلى مَسْكِن والإشتراك في القتال ـ الأمر الّذي لا ينسجم وسير الحوادث هناك كما عرفت قريباً ـ فالجواب هو أنّ الشّهادة الّتي يكون ثمنها إمحاء المبدأ إمحاءً أبديّاً، لا يمكن أن تكون وسيلة نجاح في الله ولا في

---

(١) فصل: «موقف الحيرة»، الصَّفحة / ٢٨٧.

التّاريخ.

وإنّ التّاريخ الّذي سيُناط به ذكر هذه الحرب، بعد شهادة الحسن وذيولها المؤسِفة، سيروي للأجيال من شؤون الحسن وحروبه، ما لا يَخرج بمفهومه عن معنى «الخروج». وذلك هو ما أردنا التّلميح إليه في كلامنا على «خُطّة معاوية تجاه أهداف الحسن» من هذا الفصل(١).

ولكي نزيد هذا الإجمال توضيحاً نقول:

علمنا ممّا تقدّم، أنّ الصّفوة من حملة الكتاب، والبقية من الصّحابة الأبرار، والنُّخبة المختارة من الشِّيعة الأوفياء، كانوا قد اجتمعوا للحسن عليه السلام فيمن دَلَفَ به إلى معاوية في زحفه هذا. ولا نعرف أنّ أحداً من هذا الطِّراز تخلَّف مختاراً عن تلبية الحسن فيما دعا إليه من الجهاد.

فكان الموقف في هذه اللَّحظة المبدئية الدَّقيقة بين الحسن ومعاوية، أشبه بالموقف الآنف بين أبويهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي سُفيان بن حربٍ يوم كان يبرز الإيمان كُلُّه للشِّرك كلِّه.

وعلمنا ممّا تقدَّم أيضاً أنّه لم يكن في الدُّنيا كلِّها مجموعة أخرى تؤتمن على الثِّقل الأكبر من نواميس الإسلام، والمبادئ المثالية الصّحيحة على وجهها الصَّحيح، مثل هذه المجموعة الّتي اجتمعت للحسن في هذا الزَّحف.

فكان معنى تنفيذ فكرة الحرب، والتورُّط بهذه الزُّمرة في القتال المستميت الّذي لن ينكشف منهم على نافخِ ضَرَمَةٍ قطّ، هو التّفريط بالثّقل الأكبر الّذي يحملونه ولا يحمله في الدُّنيا أحدٌ غيرهم.

---

(١) الصَّفحة / ٣٥٤.

وكان معنى التّفريط به، انقطاع الصِّلة بين علـيٍّ وأولاده الأئمـة الميـامين، وبـين الأجيال الآتية إلى يوم الدِّين.

ثم لتعودن قضيَّة الحسن ـ بعد ذلك ـ أشبه بقضـايا الأشراف العلـويين، الّـذين نهضوا في ظروف مختلفة من أيّام الحكـم الإسـلامي، يهتفـون بالإصـلاح، ويحتجُّـون بالرَّحم الماسَّة من رسول الله ﷺ، ثم غُلِبوا على أمـرهم، فلـم يبـقَ مـن دعـوتهم إلاّ أسماؤهم في أطواء التّاريخ أو في كتب الأنساب.

وما يُدرينا، فيما لو صُفِّي الحساب مع آل محمَّدٍ تصفيته الأمويَّـة الأخـيرة، فقُتِـل الحسن، وقُتِل معه جميع أهل بيته، وقُتِل معهم الصَّفوة المختارة من عباد الله المخلصين، وانقلب الإسلام أمَوِيّاً، ماذا سيكون مـن ذِكريـات محمَّـدٍ ﷺ في التّـاريخ؟. ومـاذا سيكون من شأن المثاليَّات الّتي نفخ الإسلام رُوحَها في الصَّفوة مـن رجالاتـه؟ وهـل رجالاته المصطَفَون إلاَّ هذه الأشلاء الّتي طحنتها سيوف الشَّام في هذه الحروب؟

وعلمنا ـ ممّا تقدّم ـ مبلغ ما تهتزّ به أوتار معاويـة بـن أبي سـفيان مـن العنعنـات القَبَلِيَّة والأنانيَّات والتِرات. فهل لنا ـ وقد أيسنا من ذكر عليٍّ وأولاده في أعقاب هـذه التَّصفية إلاّ بالسُّوء، أن نطمئنّ إلى ذكر محمَّدٍ ﷺ وذكر تعاليمه ومبادئـه الصَّـحيحة بخير؟.

والعدوُّ المنتصر هو معاوية بن أبي سفيان، الّذي ضـاق بـذكر النّـاس لأخـي هاشـم (النبيّ ﷺ) في كلِّ يوم خمسَ مرّاتٍ كما تقتضيه السُّنة الإسلامية في «الأذان»، حتّـى قـال للمغيرة بن شعبة: «فأيُّ عملٍ يبقى بعد هذا لا أُمَّ لك، إلاّ دَفناً دَفناً!!»[1].

---

(١) مروج الذَّهب (ج٢ ص٣٤٣) [٣/ ٤٥٤]، وابن أبي الحديـد (ج٢ ص٣٥٧) [٥/ ١٢٩] «قـال مُطَرِّف بن المُغِيرة بن شُعبة: وفدت مع أبي المُغيرة إلى معاوية فكان أبي يأتيه يتحـدَّث عنـده، ثـمَّ ينصرف إليَّ فيذكر معاوية ويذكر عقلَه، ويعجب مما يرى منه، اذ جـاء ذات ليلـةٍ، فأمسـك عـن ⇐

ورجاله المنتصرون هم: أخوه ـ الشَّرعيُّ؟! ـ «زيادُ بنُ أبيه»، والصَّحابيُّ المُسنُّ «عمرو بنُ العاص»، والدّاهية ـ النَّزيه؟! ـ «المُغِيرَة بن شُعْبة»، وفاتح الحرمين!! «مُسلِمُ بن عُقبةَ»، وأمثال هذه النَّماذج من الغَيَارى على رُوحيَّات الإسلام!!(١)

⇦

العشاء، فرأيته مُغْتمّاً فانتظرته ساعة، وظننت أنّه لشيءٍ حدث فينا أو في عملنا، فقلت له: مالي أراك مُغتمّاً منذ اللّيلة. قال: يا بنيّ إني جئت من أخبث النّاس. قلت له: وما ذاك. قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت مُناك يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عَدلاً وبسطت خيراً، فإنّك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيءٌ تخافه، فقال لي: هيهات هيهات، مَلَكَ أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فوالله ما عدا أن هلك، فهلك ذِكرُه، إلاّ أن يقول قائلٌ: أبو بكر. ثم مَلكَ أخو عَدِيّ فاجتهد وشمّر عشر سنين، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذِكرُه، إلاّ أن يقول قائلٌ: عمر، ثمَّ مَلَكَ أخونا عثمان فَمَلكَ رَجُلٌ لم يكن أحدٌ في مثل نَسَبه، فعمل ما عمل وعمل به، فوالله ما عدا أن هلك ذِكرُه وذكرُ ما فعل به. وإنَّ أخا هَاشم يُصرخ به في كلِّ يوم خمسَ مرّات: أشهدُ أنَّ محمَّداً رسول الله، فأيُّ عملٍ يبقى بعد هذا لا أمَّ لك، إلاّ دَفناً دَفناً».

(١) وتحضرني هنا كلمة جديرةٌ بالذِّكر لأخينا الأستاذ عبد الباقي قرنة الجزائري حيث قال في بعض مناسباته:

يُفترضُ فيمن يتبوّأ أعلى هرم السّلطة أن تكون حسناتُه أكثر من سيئاته، وألاّ يطّلع على هَنَاتِه إلاّ القليلُ من النّاس، كيما تُضمَنَ هيبَةُ الدّولة وحُرمتها، وحتى لا يتجرّأ السّفهاء على العقلاء؛ كما يُفترضُ أن يكون لديه بطانةٌ صالحةٌ من المستشارين والحكماء الذين يدلّونه على المحاسن ويُجنِّبونَه المساوئَ، ويحبِّبونه إلى العامّة ويعظِّمون شأنَه لدى الأعداء ومَن في خطِّهم ونهجِهم. لذلك كان الخلفاءُ والملوكُ يَجلِبُون مُؤدِّبين لأولادهم يجمَعون لهم بين العلم والسُّلُوك كيما تكون لديهم اللياقةُ للحُكم حينَ تحينُ دولتُهم. وقد كان معاويةُ بن أبي سفيانَ على هَرمِ السُّلطةِ في الشّام أميراً ومَلِكاً، فما هُو حظُّه من الأدب واللّياقة والاسْتقامة، وهل نَجح في تمثيل الحاكم المسلم الذي يأمُر بالمعرُوف وينْهى عن المُنكر؟

صحَّ عن النّبيِّ صلى الله عليه وآله أنّهُ وَصَف معاويةَ بن أبي سُفيان بالصُّعْلُوك، ولم يثْبُت أنّه صلى الله عليه وآله وصفَ غيرَه بهذا الوصفِ، ومع ذلك وصَلَ الصُّعلوكُ إلى الحُكم وبقِي فيه عشرات السّنين!

هلْ غيَّر الصُّعلُوكُ سُلوكَه بحيث يَتخَلَّص من الصُّعْلُوكيّة، أم أنّه تمادَى وتَسكّع في الخطأ وتجاسَر على

⇦

وفي مجازر (زياد) في الكوفة، وفتن (عمرو) في صِفِّين ودومة الجندل[1]، ومساعي أوَّل مُرتَشٍ في الإسلام (المُغِيرَة بن شُعْبة)[2] لتنصيب يزيد للخلافة ولإلحاق زياد للأخوَّة، ومواقف (ابن عُقبَةَ) من المدينة والكعبة، كفاية للإطمئنان على الرَّقم القياسيِّ الّذي صعدت إليه غيرة كلٍّ من هؤلاء، على التُّراث الإسلامي، وعلى مقدَّسات الإسلام، وعلى مصالح المسلمين.

إنّهم عملوا ما عملوا، وهم إذ ذاك على مسمعٍ ومشهد، من آل محمَّدٍ والصَّفوة الباقية من تلامذة محمَّدٍ ﷺ ومن أشياعهم الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر، والواقفين لهم بالمرصَاد.

فكيف بهم، وماذا كانوا يعملون، لو أصفرت الدُّنيا من آل محمَّدٍ وعباد الله الصّالحين؟؟

⇦

الشّريعة والآداب الإسلاميّة؟

هل أحاطَ مُعاويةُ نفسَه بأفراد من الصّالحين يُذكّرونه اللهَ تعالى ويَدُلّونه على الخير أم أنّه قرّب الدُّهَاةَ الّذين لا حَرِيجَةَ لهُم في الدّين طالمَا سَلِمتِ المصَالح؟

هل كان لمعاويةَ مَشروعٌ تَربويٌّ ينْهضُ بالأمّة نحو الصّلاحِ والإصلاحِ ويُهيِّئُ الأجيالَ إلى تَحمُّل مَسؤوليّة تَبليغ رسالة الإسلام إلى البشريّة، أم أنّهُ حَرِص على التّجهيل والتّسطيح وتَهميش كلِّ ما من شأنِه أن يُشكِّلَ خطراً على مُلكه؟

(١) «دُومَةُ الجَنْدَلِ»: مدينةٌ بين الشّام والمدينة، وهي إلى الشّام أقرب، وقيل: إنّها اسم حصن هناك. وقد كان بها تحكيم الحكمين في صفّين.

(٢) كان المغيرة يقول: أنا أوّلُ من رشا في الإسلام جئت إلى يَرْفَأ ـ حاجب عمر ـ وكنت أجالسُه فقلت له: خذ هذه العمامة فالبسها فإنّ عندي أختها، فكان يأنس بي ويأذن لي أن أجلس من داخل الباب، فكنت آتي فأجلس في القائلة، فيمرُّ المارّ فيقول: إنّ للمغيرة عند عمر منزلةً، إنّه ليدخل عليه في ساعة لا يدخل فيها أحد. أنظر: الإصابة ٦/ ١٥٧، تاريخ مدينة دمشق ٦٠/ ١٨، المعارف لابن قتيبة/ ٥٥٨.

إنَّ النَّتائج الواضحة المستقيمة الّتي لا عوج في تأويلها، هي أنَّ الإمام الحسن عليه السلام لو سَخَا بنفسه وبشيعته، وفرضنا أنّه كان قد استطاع حضور ميدانه في «مَسْكِن»، لحكم على نفسه بالموت حتى لا يبقى اسمه إلاَّ في كتب الأنساب، وعلى مبدئه المقدَّس بالإعدام حتى لا يبقى منه أيُّ أثرٍ بين سمع الأرض وبصرها، ولرأيت تاريخه المجيد وتاريخ بيته العتيد، أسطورةً مشوّهةً من أبشع الأساطير، يُمْلِيهَا معاويةُ كما يشتهي، ويشرحها بعده مروان وآل مروان كما يشاؤون.

وكان معنى ذلك نهاية تاريخ الرُّوحية الإسلاميَّة، وبداية تاريخ أمويٍّ له طابعه المعروف وخصائصه الغنيّة عن البيان.

وفي الحديث الشّريف: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إلاَّ عَجُوزٌ دَرْدَاءُ لَبَغَتْ دِينَ اللهِ عِوَجَاً**»(١).

تُرى، فهل كان في إمكان الحسن غير ما كان؟.

وإنَّ أقلّ استقراء وتَدبُّر، يُثبتان أنَّها كانت أفضل طريقة للتخفيف من عرامة الإجراءات المتوقَّعة، بل كانت الطَّريقة الوحيدة الّتي لا ثانية لها.

وحفظ الحسن بها ـ حين استيقن هذه النَّتائج كحقائق واقعة ـ خطوط اتّصاله بالأجيال، بل خطوط اتِّصال أبيه وجدِّه عليهما الصّلاة والسّلام، من طريق الإبقاء على شيعته، وأنقذ بذلك مبدأه من الإبادة المحقَّقة، وصان تاريخه من التَّشويه والتّزوير والمسخ والإزدراء.

وانتزع من الخذلان الّذي حَاقَ به في دُنياه، الإنتصار اللاَّمع لرُوحيَّته وعقيدته وأخراه.

---

(١) الخرائج والجرائح لسعيد بن هبة الله الرَّاوندي المُتوفَّى سنة ٥٧٣ (ص٢٢٨) [٢/ ٥٧٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

وهكذا ترك الدُّنيا ليحفظ الدِّين.

وذلك هو طابع الإمامة في هذه الزُّمرة المباركة من آل الله.



القِسْمُ الثَّالِثُ

الصُّلْحُ

دَوَافِعُ الفَرِيقَينِ لِلصُّلْحِ:

وما كان بِدْعاً من محاولات معاوية فيما يهدف إليه، أن يبتدر هو إلى طلب الصُّلح[1]، فيُعطي الحسنَ كُلَّ شرطٍ، ليأخذ عليه شَرطاً واحداً هو «المُلْك».

وقرَّر معاوية خطَّته هذه، في بحران نشاط الفريقين للحرب، وكان في توفُّره على تنفيذ هذه الخُطَّة، أعنفَ منه في عمله لتنظيم المعسكرات وتدبير شؤون الحرب. ورأى أنْ يُبادئ الحسن بطلب الصُّلح، فإن أجيب إليه فذاك، وإلاَّ فلينتزعه انتزاعاً، دون أن يلتحم والحسن في قتال.

وكان عليه قبل كلِّ شيءٍ، أن يصطنع في سبيل التَّمهيد إلى غايته، ظرفاً من شأنه أن يُنبِّه خصومه إلى تذكُّر الصُّلح.

ومن هنا طلعت على معسكرات الحسن عليه السلام، ألوانُ الأراجيف، وعَمَرَت سوق

---

(١) هذا هو الصَّحيح كما دلَّ عليه خطاب الحسن فيما استشار به أصحابه في «المدائن» فقال: «**أَلا وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ دَعَانَا لأَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ عِزٌّ وَلا نَصَفَةٌ..**» [سلف ذكر المصادر الصفحة / ٣٥٣ من هذا الكتاب]، وكما دلّت عليه مصادر أخرى خلافاً لبعض المؤرِّخين الآخرين، والتَّرجيح لخطاب الحسن عليه السلام. (المؤلِّف رحمه الله)

الرَّشوات، وجاء في قائمة وُعوده الّتي خلب بها ألباب كثير من الزُّعماء أو المتزعِّمين: رئاسة جيش، وولاية قُطر، ومصاهرةٌ على أميرةٍ أمويّة!!(١).. وجاء في أرقام رشواته النّقدية ألف ألف (مليون)!

واستعمل في سبيل هذه الفكرة كُلَّ قُوَاه وكُلَّ مواهبه وكُلَّ تجاربه، واستجاب له كثيرٌ من باعة الضَّمائر الّذين كانوا لا يُفارقون الحسن ظاهراً فإذا هم عيون معاوية الّتي ترى، وأصابعه الّتي تعمل، وعملاؤه الّذين لا يدَّخرون وُسعاً في ترويج أهدافه.

وكانت الجيوش والأسلحة والحركات السَّوقية في الزَّحف إلى المعسكرات، هي الأخرى بعض وسائله إلى الصُّلح، ولم يشأ أن يبدأ بهم غاراته على العراق، لانّه لن يلتحم مع الحسن بقتال، إلاّ إذا أعيته الوسائل كلُّها، والوسائل في عُرف معاوية، غير الوسائل في عرف النَّاس أو في عُرف الدِّين الجديد.

ومن الحقِّ أن نقول: إنَّ وسائله في هذا الميدان، كانت من النَّوع المحبوك الصُّنع، الدَّقيق الأساليب، الموفَّق كُلَّ التَّوفيق، في سبيل الغَرَض الّذي رَمَى إليه، من اصطناع الظَّرف الخاصّ الّذي يُذكِّر عدوَّه بالصُّلح.

فإذا باع القائد في جبهة العراق ضميره لمعاوية بالمال، وباع معه أكثر الرُّؤساء ضمائرهم بالعِدات.

واذا أصبح المعسكران في مَسْكِن والمدائن يَعُجَّان بالشَّائعات الّتي راحت تمطرهما بوابلٍ من الويل والثُّبور والمخاوف.

واذا أصبح الحسن نفسُه لا يَتَسَنَّى له تنفيذ أوامره في جيشه بما فعلته الأراجيف من حوله، بل لا يستطيع الظُّهور بشخصه أمام الكثرة من جنوده، إلاّ لَيُغتال بين

---

(١) علل الشرائع للشّيخ الصّدوق رحمه الله ١/ ٢٢٠.

مضاربه وعلى سواعد أصحابه.

فهل من سبيل إلاَّ الصُّلح؟

إنَّه الظَّرف الّذي استعصى صلاحُه بفساد ناسِه، ولا تثريب على الحسن من ظرفه إذا فسد، وناسه إذا فَشَت فيهم الفتنة، وإنَّ لانحراف الطَّبائع حُكْمَه، ولحداثة الإسلام خاصّتها، في القلقين من المسلمين أو في المفروضين على الإسلام فَرْضاً.

وإذا قُدِّر للحسن أن يخسر بخيانة جنوده، أو ببراعة الفتن الّتي تَسلَّح بها عَدوُّه «معركته الأولى»، فليكن منذُ اليوم عند «معركته الثَّانية» الّتي لا تنالها خيانةُ الجنود، ولا يُضيرها انحراف الطّبائع، ولا تزيدها دسائس العَدوِّ ولا أساليب فِتَنِه البارعة إلا مُضاءً ونفوذاً وانتصاراً مع الأيَّام.

وتلك هي «الفَذْلَكَة» الّتي أجاد الحسن استغلالها كأحسن ما تكون الإجادة، واستغفل بها معاوية أشدَّ ما يكون في موقفه من الحسن يقَظةً ونشاطاً وانتباهاً.

إنَّه لبّى طلب معاوية للصُّلح، ولكنّه لم يُلبِّه إلاَّ ليُركِسه في شروط لا يسع رَجُلاً كمعاوية إلاَّ أن يجهر في غدِه القريب بنقضها شرطاً شرطاً. ثمَّ لا يسع النّاس ـ أذا هو فعل ذلك ـ إلاَّ أن يجاهروه السَّخَط والإنكار، فإذا بالصُّلح نَواةُ السَّخَط الممتدِّ مع الأجيال، وإذا بهذا السَّخط نواة الثَّورات الّتي تعاونت على تصفية السَّيطرة الإغتصابية في التّاريخ.

وليكن هذا هو التَّصميم السِّياسيَّ الّذي نزل الحهسن من طريقه إلى قبول الصُّلح، ولتكن هذه هي الفَذَلكَة الّتي استغفل بها معاوية فكانت من أبرز معاني العبقرية المظلومة في الإمام المظلوم.

وأيُّ غضاضة على الحسن ـ بعد هذا ـ اذا هو وقَّع الصُّلح وِفق الخطط المرسومة.

وإنَّ له من حراجة ميدانه الأوَّل، ومن الأمل بنتائج ميدانه الثّاني ما يُزَيِّن له

حديث الصُّلح، فضلاً عما يستأثر به هذا الحديث من ظاهرة الإصلاح في الأمَّة، وما يتّفق معه من حَقنِ الدِّماء وصيانة المقدَّسات، وتحقيق وجهة النّظر الإسلامي.

وكانت أشْهُراً لم تُناهز عدد الأصابع العَشْر، ولكنَّها ناهزت عدد النُّجوم هزاهز وزعازع، وكانت قطعةً من الزَّمن يتّجه إليها القلب بكلّ ما يملكه من حُبٍّ وإعجاب، فاحت برَوائح النُّبوّة، وتجلّت فيها مزايا الإمامة الصَّادقة، وتكشّفت على قِلَّتها وقِصَر مُدَّتها عن حقائق كثير من النَّاس هنا وهناك. وهي الأشهر الّتي ختمت أعمالها بأفضل خواتيم الأعمال في الإصلاح، ووصلت بخاتمتها الفُضلى مصلحة الدُّنيا بمصلحة السَّماء.

وإذا بالحسن بن عليٍّ، هو ذلك المصلح الأكبر، الّذي بشّر به جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله في الحديث الّذي سبق ذكره: «**إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَـينِ عَظِيمَتَـينِ مِنَ المُسْلِمِينَ**».

وإنَّ الله سبحانه عوّد أهل هذا البيت أن يحفظ لهم الشَّرفَ في أعلى مراتبه وفي مختلف ميادينه، فإنْ لم يكن بالإنتصار بالسّلاح، فليكن بالشّهادة الكريمة في الله وفي التّاريخ. وإن لم يكن بهذا ولا ذاك فليكن بالإصلاح وجمع الكلمة وتوحيد أهل التَّوحيد. وكفى بالإصلاح شَرَفاً وكفى ببقاء الشَّرف انتصاراً. وبقاء الشَّرف ضمانٌ لبقاء العزَّة. والعزَّةُ حافز دائب يدفع إلى الحياة ويقوم على السِّيادة.

ومن السَّهل أن نفهم دوافع الحسن إلى الصُّلح ممَّا ذكرنا.

أمَّا دوافع معاوية الّتي اندلف بها من جانبه إلى طلب الصُّلح، فقد كانت من نوعٍ آخر لا يرجع في جوهره إلى العجز عن القتال، ولا ينظر في واقعه إلى وجهة نظر دين أو إصلاح أو حقن دِماء، فلا الإصلاح ولا حقن الدِّماء بالّذي يعنى به معاوية فينزل له عن مطامعه في الفتح. وفي غاراته على المدينة ومكّة واليمن، ومواقفه الجريئة

بصِفِّين، ما يزيدُنا بصيرةً في معرفة الرَّجل وإنْ قَلَّ عارفوه.

إذاً، فليكن طُموحاً نَفعيّاً خَالِصاً، هو الأشبه بتاريخ معاوية الّذي جاء تاريخه أشبه بأسطورة.

إنّه خُيِّل إليه بأنَّ تنازُل الحسن له عن الحكم، سيكون معناه في الرّأي العام، تنازله عن «الخلافة». وظنَّ أنّه سيصبح ـ على هذا ـ «الخليفة الشَّرعي في المسلمين»[1].

وكان الحلم اللّذيذ الّذي استرخص في سبيله كُلَّ غَالٍ، وخفي عليه أنَّ الإسلام أعزُّ جانباً من أن يهضم الأساليب الهَوَج، أو يعطي إقليده للطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء.

هذا، ولا ننكر أن يكون لمعاوية بواعث أخرى جعلت منه إنساناً آخر يُنكر الحرب ويمدّ يده إلى الصُّلح ويوقع الشّروط ويحلف الأيمان ويُؤكِّد المواثيق. ولكنَّا ـ إذ نتحرَّى بواعثه الأخرى ـ لا نزول عن الإعتقاد بأنَّ الحلم اللّذيذ الّذي ذكرنا، كان أكبرَ دوافعه وأشدَّ بواعثه.

وفيما يلي قائمة مناسبات، تَصْلُح لأنْ تكون بعض دوافعه إلى الصُّلح:

---

(١) وللحسن البصريّ كلمتُه الذّهبيَّة في هذا الموضوع ـ انتظرها فيما تقرأه عن «معاوية والخلافة» في الفصل ١٧ ـ. وأخرج أحمد في مسنده [٥/ ٢٢١] وأبو يعلى [في المسند ٢/ ١٧٧] والتِّرمذيُّ [٣/ ٣٤١] وابن حبّان [١٥/ ٣٩٢] وأبو داود [/ ١٥١] والحاكمُ [٣/ ٧١] قوله ﷺ: «**الخِلافَةُ بَعْدِي ثَلاثُونَ، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ**» وبلفظ أبي نُعيم في الفتن [/ ٥٤] والبيهقيِّ في الدّلائل [٦/ ٣٤٠] وغيرهما: «**ثُمَّ تَكُونُ مُلْكاً عَضُوضاً**». والحديث عند جماعة أهل السُّنة صحيح على شرطهم، وقال قائلهم فيما علَّق عليه: «انتهت الثلاثون سنة بعده ﷺ بخلافة الحسن بن علي عليه السلام» [النّصائح الكافية لابن عقيل / ١٩٠]، وأخرج أبو سعيد عن عبد الرَّحمن بن أبزي عن عمر أنه قال: «هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحدٌ، ثمَّ في أهل أحد ما بقي منهم أحدٌ، وفي كذا وكذا، وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شيءٌ» [الطَّبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٣٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٩/ ١٤٥، أسد الغابة ٤/ ٣٨٨].

أقول: أما بيعته الّتي أخذها على الناس بأساليبها المعروفة، فلن تجعل غير الجائز جائزاً. (المؤلِّف رحمه الله)

١ ـ إنّه كان يرى أنّ الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، هو صاحب الحقِّ في الأمر، ولا سبيل إلى اقتناص «الأمر» إلاّ من طريق إسكات الحسن ـ ولو ظاهراً ـ، ولا سبيل إلى إسكاته إلاّ بالصُّلح.

أمّا رأيُه بأولويَّة الحسن بالأمر، فقد جاء صَريحاً في كتابٍ إليه قبُيل زحفهما للصِّراع في مَسْكِن، بقوله له: «إنَّك أولى بهذا الأمر وأحقُّ به»[1]. وجاء صَريحاً فيما قاله لابنه يزيد على ذكر أهل البيت: «يا بُنيَّ إنَّ الحقَّ حقُّهم»[2]، وفيما كتبه إلى زياد ابن أبيه حيث يقول له على ذكر الحسن عليه السلام: «وأمّا تَسلُّطه عليك بالأمر فحقٌّ للحسن أن يتسلَّط»[3].

وكذلك رأيناه يستفتي الإمام الحسن، فيما يعرض له من معضلات كمن يعترف بإمامته[4].

---

(١) ابن ابي الحديد (ج٤ ص٥) [١٦/ ٣٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) ابن ابي الحديد (ج٤ ص١٣) [١٦/ ١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) ابن ابي الحديد (ج٤ ص٧٣) [١٦/ ١٩٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) وتجد الشّواهد الكثيرة على ذلك فيما أورده اليعقوبي في تاريخه (ج٢ ص٢٠١ وص٢٠٢) [٢/ ٢٢٦]، وفيما استعرضه ابن كثير في البداية والنهاية (ج٨ ص٤٠) [البداية والنّهاية ٨/ ٤٥]، وفيما رواه في البحار (ج١٠ ص٩٨) [٤٣/ ٣٥٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: في تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٦: قال معاوية للحسن: يا أبا محمد ثلاث خلال ما وجدت من يخبرني عنهن، قال: «وَمَا هُنَّ؟» قال: المروة، والكرم، والنجدة. قال: «**أَمَّا المُرُوَةُ فَإِصْلَاحُ الرَّجُلِ أَمْرَ دِينِهِ، وَحُسْنُ قِيَامِهِ عَلَى مَالِهِ، وَلِينُ الكَفِّ، وَإِفْشَاءُ السَّلام وَالتَّحَبُّبُ إِلَى النَّاسِ. وَالكَرَمُ العَطِيَّةُ قَبْلَ السُّؤَالِ، وَالتَّبَرُّعُ بِالمَعْرُوفِ، وَالإِطْعَامُ فِي المَحَلِّ، ثُمَّ النَّجْدَةُ الذَّبُّ عَنِ الجَارِ وَالمُحَامَاةُ فِي الكَرِيهَةِ وَالصَّبْرُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ.**»

وفي البحار نقلاً عن المناقب لابن شهر آشوب ٣/ ١٧٨ قال: كتب ملك الرُّوم إلى معاوية يسأله عن ثلاث: عن مكان بمقدار وسط السّماء، وعن أوّل قطرة دمٍ وقعت على الأرض، وعن مكان

⇦

ويعترف للحسن بأنّه «سيِّد المسلمين»[1]. وهل سيِّد المسلمين إلا إمامهم؟.

٢ـ إنّه كان ـ على كثرة الوسائل الطيِّعة لأمره ـ شديدَ التوجُّس من نتائج حربه مع الحسن، ولم يكن كتوماً (كما يدّعي لنفسه) يوم قال في وصف خصومه العراقيين: «فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصِفِّين إلاّ لُبِّسَ عَلَى عقلي»[2]، ويوم قال فيهم «ما لهم غضبهم الله بشرٍّ، ما قلوبهم إلاّ كقلب رجلٍ واحد»[3]، فكان يرى في الجنوح إلى الصُّلح، مَفرّاً من منازلة هؤلاء ومواجهة عيونهم تحت المغافر!!

٣ـ إنّه كان يهاب موقع الحسن ابن رسول الله ﷺ في النّاس، ومقامه الرُّوحيّ الفريد في العقيدة الإسلامية، فيتّقي حربه بالصُّلح.

وكان يرى من الجائز، أن يُقيِّض الله لمعسكر الشَّام من يتطوَّع لتنبيه النَّاس فيه إلى حقيقة أمر الحسن وفظاعة موقفهم منه، الأمر الّذي من شأنه أن لا يتأخّر بمسلمة الجيش في جبهة معاوية عن الإنتقاض عليه والنّكول عنه، وبالجيش كلِّه عن الإنهيار أخيراً.

⇨

طلعت فيه الشَّمس مرّة، فلم يعلم ذلك، فاستغاث بالحسن بن عليٍّ عليه السلام فقال: «**ظَهْرُ الكَعْبَةِ، وَدَمُ حَوَّاءَ، وَأَرْضُ البَحْرِ حِينَ ضَرَبَهُ مُوسَى**».

(١) الإمامة والسِّياسة (ص١٥٩ـ١٦٠) [لم أجد هذه العبارة بعينها ولا قريباً منها في المصدر، ولعلّه يشير إلى قول معاوية لابن عبَّاس: يا بن العبَّاس: أصبحت سيِّد قومك من بعده. ١/ ١٥١، وذاك بعد رحيل الإمام الحسن عليه السلام].

(٢) المسعودي هامش ابن الاثير (ج٦ ص٦٧) وغيره [الأمالي للشّيخ الطّوسي / ٢١٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) الطبري (ج٦ ص٣) [٤/ ٣]. (المؤلف رحمه الله)

أقول: في المصدر: «عَضَبَهم»، والعَضْبُ: القطع.

وكان معاوية لا يزال يتذكَّر في زحفه على الحسن، حديث النُّعمان بنِ جَبَلَةَ التَّنُوخِيّ معه في «صِفِّين» ـ وهو إذ ذاك أحد رؤساء جنوده المحاربين ـ، وقد صارحه بما لم يُصارحه بمثله شاميٌّ آخر، وسخر منه بما لم يسخر بمثله رعيَّةٌ من سلطان. وما يُؤمن معاوية أن يَشعُر النَّاس تجاهه ـ اليوم ـ شُعور ذلك التَّنُوخِيّ المغلوب على أمره ـ يومئذٍ.

وكان مما قاله هذا التَّنُوخِيُّ لمعاوية في صِفِّين: «والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت مُلكَكَ على ديني، وتركت لهواك الرُّشد وأنا أعرفه، وحِدْتُ عن الحقِّ وأنا أبْصِرُه، وما وُفِّقت لرشدٍ وأنا أقاتل عن مُلك ابنِ عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأوّل مؤمنٍ به ومهاجرٍ معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك، لكان أرأف بالرَّعية وأجزل في العطيَّة، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولابدَّ من إتمامه كان غَيّاً أو رُشْداً، وحاشا أن يكون رُشْداً. وسنقاتل عن تِين الغُوطة وزيتونها، إذا حُرِمنا أثمار الجنَّة وأنهارها!»[1].

وكان من سياسة معاوية، حَبس أهل الشَّام عن التَّعرُّف على أحد من كبراء المسلمين ـ خارج الشَّام ـ لئلاً يكون لهم من ذلك منفذ إلى إنكاره أو الإنقسام عليه. ولذلك فلا نعرف كيف تسنّى لهذا الشَّامي معرفة ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة سبقه إلى الإيمان ورأفته بالنّاس وكرمه في العطاء وأولويّته بالأمر.

وحَرَى معاوية على تجهيل أهل الشَّام بأعلام الإسلام إلى آخر عهده، وكانت سياستُه هذه، هي أداته في التجمُّعات الّتي ساقها لحروب صِفِّين أوَّلاً، ولحرب الحسن بن عليٍّ في مَسْكِن أخيراً.

وتجد ظاهرة هذه السِّياسة ـ بما فيها من إعلان عن ضعف صاحبها ـ فيما قاله

---

(١) المسعودي (هامش ابن الأثير ج٥ ص٢١٦) [مروج الذهب ٢/ ٣٨٥، أيضاً أنظر: كتاب الفتوح لابن أعثم ٣/ ٦٩]. (المؤلِّف رحمه الله)

معاوية ذات يوم لعمرو بن العاص وقد تحدَّى الحسن بن عليٍّ عليه السلام، فردّ عليه الحسنُ بِحُدَّياه البليغة الّتي لم يَسْلَم منها المحرِّض عليها ـ أيضاً ـ، فقال معاوية لعمرو: «والله ما أردتَ إلاَّ هتكي، ما كان أهل الشَّام يرون أنَّ أحَداً مثلي، حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا»[1].

٤ـ وكان من الرَّشاقة السِّياسيَّة الّتي لا يُخطئها معاوية في سبيل طموحه الأنانيّ إلاَّ نادراً، أن يدعو إلى «الصُّلح» فيُلحّ عليه ويشهد على دعوته هذه أكبر عدد ممكن من النّاس في القطرين ـ الشَّام والعراق ـ وفي سائر الآفاق الّتي يصلها صوته من بلاد الإسلام. ثم هو لا يقصد من وراء هذه الدَّعوة ـ على ظاهرتها ـ إلاَّ التَّمهيد لغدِه

---

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقي (ج١ ص٦٤) [/ ٨٤].

وفي القصص التاريخي نوادر كثيرة عن جهل أهل الشَّام بأعلام الإسلام فمن ذلك أنَّ أحدهم سأل رَجلاً من زعمائهم وذوي الرَّأي والعقل فيهم: «من أبو ترابٍ الّذي يلعنه الإمام ـ يعني معاوية! ـ على المنبر؟» قال: «أراه لِصّاً من لِصُوص الفتن!!» [مروج الذهب ٣/ ٣٢]. وسأل شامي صديقاً له وقد سمعه يصلِّي على محمَّد صلى الله عليه وآله: «ما تقول في محمَّد هذا، أربُّنا هو؟» [مروج الذهب ٣/ ٣٢].

ولما فتح عبد الله بن عليّ [بن عبد الله بن العبَّاس] الشَّام سنة ١٣٢ هجرية، وَجَّه إلى أبي العبَّاس السَّفَّاح أشياخاً من أهل الشَّام من أرباب النِّعم والرِّئاسة، فحلفوا لأبي العبَّاس أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وآله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية، حتى وُلِّيتم الخلافة..!! [وفيات الأعيان لابن خلّكان ٦/ ١٠١] يراجع عنه مروج الذَّهب على هامش الجزء السَّادس من الكامل لابن الأثير (ص ١٠٧ و١٠٨ و١٠٩) [مروج الذَّهب ٣/ ٣٣].

أقول: وهذا يدلُّ على أنَّ عامة الملوك الأمويين نهجوا على سياسة معاوية في تجهيل النَّاس بعظمائهم ولا سيَّما بأهل البيت عليهم السلام ومنع نفوذ أسمائهم إلى الشَّام. ويدلُّ ـ أيضاً ـ على مبلغ دناية أولئك الشَّاميِّين بإسلاميَّتهم. والمظنون أنَّ الشَّام ـ على العهد الأموي ـ كانت لا تزال تزخر بأكثريَّة غير مسلمة من بقايا أهلها الأصليين ـ الرُّوم والآراميين ـ . ولا نعهد غير قضيَّة الفتح عملاً جِدِّياً آخر كان من شأنه أن يغيِّر القديم عن قِدَمه، ولا نعهد تصريحاً تاريخيّاً ينقض علينا هذا الظن. (المؤلِّف رحمه الله)

القريب الّذي ستنكشف عنه نتائج الحرب بينه وبين الحسن. وكان أحد الوجهين المحتملين، أن يُدَال[1] للشَّام من الكوفة وأن تقضي الحرب وذيولها على الحسن والحسين وعلى من إليهما من أهل بيتهما وشيعتهما. ولا تدبير ـ يومئذٍ ـ للعذر من هذه البائقة الكبرى أروع من أن يُلقي معاوية مسؤوليتها على الحسن نفسه، ويقول للنَّاس ـ غير كاذب ـ «إنِّي دعوتُ الحسن للصُّلح، ولكنَّ الحسن أبى إلاَّ الحرب، وكُنتُ أريد له الحياة، ولكنَّه أراد لي القتل، وأردت حَقنَ الدِّماء، ولكنه أراد هلاك النّاس بيني وبينه...».

ولمعاوية من هذه اللَّباقة الرّائعة أهدافُه الّتي لا تتأخّر به عن تصفية الحساب مع آل محمَّدٍ صلى الله عليه وآله تصفيتَه الأمويّة الأخيرة، وهو إذ ذاك المنتصر العادل المتظاهر بالإنصاف، الّذي يشهد له على إنصافه كُلُّ من كان قد أشهده ـ قبل الحرب ـ على ندائه بالصُّلح. أمّا الحسن عليه السلام، فلم يكنِ الرَّجل الّذي تَفوتُه الرَّشاقة السّياسيّة ولا الأساليب الدَّقيقة الّتي يبرع فيها عَدُوُّه للنّكاية به. وانّما كان ـ على كلِّ حالٍ ـ أكبرَ من عدوِّه دهاء، وأبرع منه في استغلال الظّروف واقتناص الفرص السّانحة الّتي تجتمع عليها كلمة الله وكلمة المصلحة معاً. فرأى من ظروفه المتداعية، ومن سوء نوايا عَدُوِّه فيما أراد من الدّعوة إلى «الصُّلح»، ما استدعاه إلى الجواب بالإيجاب.

ثمَّ لم يكفه أنّه قضى بذلك على خطط معاوية وشَلَّها عن التّنفيذ، حتى أخذ يضع الخطّة الحكيمة من جانبه للقضاء على خصومه باسم الصُّلح. وسيجيء في الفصل القريبة التّوضيح اللاّئق بالموضوع.

---

(١) «يُدَالُ» من الإِدالة: الغَلَبة، يقال: أُدِيل لنا على أَعدائنا أَي نُصِرْنا عليهم، وكانت الدَّوْلة لنا. لسان العرب ١١/ ٢٥٢.

مُعَاهَدَةُ الصُّلْح

وروى فريق من المؤرِّخين، فيهم الطَّبريُّ وابنُ الأثير: «أنَّ معاوية أرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء، مختوماً على أسفلها بختمه»، وكتب إليه: «أنِ اشْتَرِط في هذه الصَّحيفة الّتي خَتَمْتُ أسفلها ما شِئتَ، فهو لك»[1].

ثمَّ بتروا الحديث، فلم يذكروا بعد ذلك، ماذا كتب الحسن على صحيفة معاوية.
وتَتَبَّعنا المصادر الّتي يُسِّر لنا الوقوف عليها، فلم نرَ فيها عرضته من شروط الحسن عليه السلام، إلاّ النُّتف الشَّوارد الّتي يعترف رواتُها بأنَّها جزءٌ من كلّ. وسَجَّل مصدرٌ واحدٌ صورةً ذات بدء وختام، فَرَضَ أنَّها ـ النَّصّ الكامل لمعاهدة الصُّلح ـ ، ولكنَّها جاءت ـ في كثيرٍ من موادِّها ـ منقوضةً بروايات أخرى تَفْضُلُها سنداً، وتزيدها عدداً.

ولنا لو أردنا الإكتفاء، أن نكتفي ـ في سبيل التعرُّف على محتويات المعاهدة ـ برواية (الصَّحيفة البيضاء)، كما فعل رُواتُها السَّابقون، فبتروها اكتفاءً بإجمالها عن التَّفصيل، ذلك لأنَّ تنفيذ الصُّلح على قاعدة «اشترط ما شئت فهو لك» معناه أنَّ الحسن أغرق الصَّحيفة المختومة في أسفلها، بشتَّى شروطه الّتي أرادها، فيما يتَّصل بمصلحته، أو يهدف إلى فائدته، سواء في نفسه أو في أهل بيته أو في شيعته أو في أهدافه، ولا شيء يحتمل غير ذلك.

واذا قُدِّر لنا ـ اليوم ـ أن لا نعرف تلك الشُّروط بمفرداتها، فلنعرف أنَّها كانت من السَّعَةِ والسَّماحة والجنوح إلى الحسن، بحيث صَحَّحت ما يكون من الفقرات المنقولة عن

---

(١) الطَّبري (ج٦ ص٩٣) [٤/ ١٢٤] وابن الأثير (ج٣ ص١٦٢) [٣/ ٤٠٥]. (المؤلّف رحمه الله)

المعاهدة أقرب إلى صَالِحِ الحسن، ورجَّحته على ما يكون منها في صالح خصومه، كنتيجة قطعيَّة لحرِّية الحسن عليه السلام في أن يكتب من الشُّروط ما يشاء.

ورأينا بدورنا، وقد أخطأنا التَّوفيق عن تعرُّف ما كتبه الحسن هناك، أن ننسِّق ـ هنا ـ الفقرات المنثورة في مختلف المصادر من شروط الحسن على معاوية في الصُّلح، وأن نؤلِّف من مجموع هذا الشَّتات صورة تحتفل بالأصح الأهمِّ، مما حملته الرِّوايات الكثيرة عن هذه المعاهدة، فوضعنا الصُّورة في موادٍّ، وأضفنا كُلَّ فقرة من الفقرات إلى المادة الّتي تناسبها، لتكون ـ مع هذه العناية في الإختيار والتّسجيل ـ أقرب إلى واقعها الّذي وقعت عليه. وإليك هي:

صورة المعاهدة الّتي وقّعها الفريقان:

المادّة الأولى:

تسليمُ الأمر إلى معاوية، على أن يعمل بكتاب الله وبسُنَّة رسوله صلى الله عليه وآله[1]، وبسيرة الخُلفاء الصَّالحين[2].

---

(١) المدائني ـ فيما رواه عنه ابن أبي الحديد في شرح النهج ـ (ج ٤ ص ٨) [١٦/ ٢٢]. (المؤلّف رحمه الله)
أيضاً أنظر: فتح الباري ١٣/ ٥٤، بحار الأنوار ٤٤/ ٦٥، أنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٨٧.

(٢) «فتح الباري» شرح صحيح البخاري ـ فيما رواه عنه ابن عقيل في النصايح الكافية ـ (ص١٥٦ الطبعة الاولى) [/ ١٩٢]، والبحار (ج١٠ ص١١٥) [٤٤/ ٦٥]. (المؤلّف رحمه الله)

أقول: ليس في فتح الباري لابن حجر ذِكرٌ للمادّة الأولى، وإنّما فيه صالح معاوية على أن يجعل للإمام الحسن عليه السلام ما في بيت مال الكوفة وأن يكون له خراج دار أبجرد، (١٣/ ٥٥) وروى عن الزّهري، قال: كاتب الحسن بن عليّ معاوية واشترط لنفسه فوصلت الصَّحيفة لمعاوية وقد أرسل إلى الحسن يسأله الصُّلح ومع الرَّسول صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط ما شئت فهو لك، فاشترط الحسن أضعاف ما كان سأل أوّلاً، فلمّا التقيا وبايعه الحسن ⇦

المادَّة الثَّانية:

أن يكون الأمر للحسنِ من بعده[1]، فإنْ حَدَثَ به حَدَثٌ فلأخيه الحسين[2]، وليس لمعاوية أن يَعْهَدَ به إلى أحدٍ[3].

المادَّة الثَّالثة:

⇦

سأله أن يعطيه ما اشترط في السجل الّذي ختم معاوية في أسفله، فتمسّك معاوية إلاّ ما كان الحسن سأله أوّلاً، واحتجَّ بأنّه أجاب سؤاله أوّلَ ما وقف عليه، فاختلفا في ذلك فلم ينفِّذ للحسن من الشّرطين شيء. (١٣/ ٥٥)

نعم، من المصادر الّتي ذكرت هذه المادَّة أنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٨٧، قال: كتب الحسن:
«**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، صَالَحَهُ عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ وِلايَةَ أَمْرِ المُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا بِكِتَابِ الله وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَسِيرَةِ الخُلَفَاءِ الصَّالِحِينَ، وَعَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَعْهَدَ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنْ يَكُونَ الأَمْرُ شُورَى، وَالنَّاسُ آمِنُونَ حَيْثُ كَانُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ، وَعَلَى أَنْ لا يَبْغِي الحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ غَائِلَةً سِرّاً وَلا عَلانِيَةً، وَلَا يُخِيفَ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ...**»

وروى مثله ابن الأعثم في كتاب الفتوح ٤/ ٢٩٠، وابن المطهّر المقدسي في البدء والتّاريخ ٥/ ٢٣٦، والصَّواعق المحرقة / ٨١، وينابيع المودة ٢/ ٤٢٥، ومطالب السّؤول لابن طلحة / ٣٥٧.

(١) تاريخ الخلفاء للسّيوطي (ص ١٩٤)، وابن كثير (ج ٨ ص ٤١) [لم أجده فيهما]، والاصابة (ج٢ ص١٢ و١٣) [الإصابة ٢/ ٦٥]، وابن قتيبة (ص١٥٠) [الإمامة والسِّياسة ١/ ١٤٠] ودائرة المعارف الإسلامية لفريد وجدي (ج٣ ص٤٤٣ الطبعة الثانية) وغيرهم. (المؤلِّف)

أقول: أنظر أيضاً: تهذيب الكمال ٦/ ٢٤٧، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢/ ٢٥٩، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٢٦٤، تاريخ الإسلام للذّهبي ٤/ ٥، إمتاع الأسماع للمقريزي ٥/٣٥٨، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٦٦، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٢٩٠.

(٢) عمدة الطالب لابن المهنَّا (ص ٥٢) [/ ٦٧]. (المؤلِّف)

(٣) المدائني ـ فيما يرويه عنه في شرح النَّهج ـ (ج ٤ ص ٨)، والبحار (ج ١٠ ص ١١٥) [٤٤/ ٦٥]، والفصول المهمة لابن الصبَّاغ [٢/ ٧٢٩] وغيرهم [الفتوح للكوفي ٤/ ٢٩١، الصواعق المحرقة / ٨١، كشف الغمّة للإربلي ٢/ ١٩٣]. (المؤلِّف)

أن يترُك سبَّ أمير المؤمنين[1] والقُنوت عليه بالصَّلاة[2]، وأن لا يذكر عليّاً إلاّ بخير[3].

المادَّة الرَّابعة:

استثناءُ ما في بيت المال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف فلا يشمله تسليم الأمر.[4] وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كُلَّ عامٍ ألفي ألف درهم، وأن يُفضِّل بني هاشم في العطاء والصِّلات على بني عبد شمس، وأن يُفرِّق في أولاد من قُتِل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وأولاد من قُتِل معه بصِفِّين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دَارِ أبجُرْد[5].

---

(١) البداية والنّهاية ٨/ ١٧، تاريخ الطبري ٤/ ١٢٢، الكامل في التّاريخ ٣/ ٤٠٥، إمتاع الأسماع للمقريزي ٥/ ٣٥٩، تاريخ مدينة دمشق ١٣/ ٢٦٤.

(٢) أعيان الشيعة (ج ٤ ص ٤٣) [١/ ٥٧٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً: مقاتل الطالبيين / ٤٣، الإرشاد للشّيخ المفيد ٢/ ١٤.

(٣) الأصفهاني في مقاتل الطالبيين (ص ٢٦) [/ ٤٣]، وشرح النَّهج (ج ٤ ص ١٥) [١٦/ ٤٤] وقال غيرهما [تاريخ أبي الفداء ١/ ١٨٣، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٠٥، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٨٦]: «إنَّ الحسن طلب إلى معاوية أن لا يَشْتِمَ عَلِيّاً، فلَمْ يُجِبْهُ إلى الكفِّ عن شَتْمِه، وأجابه على أن لا يَشْتِم عَلِيّاً وهو يَسمَعُ». قال ابن الأثير: «ثمَّ لمْ يفِ بِهِ أيضاً». (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: في جواهر التَّاريخ للشَّيخ الكوراني ٣/ ٦٥ قال: أضاف رواة بني أمية إلى هذا البند قولهم: «وهو يَسمَعُ»! فجعلوا شرط الإمام الحسن عليه السلام على معاوية أن لا يسبّ عليّاً عليه السلام في حضوره فقط، أمّا في غيابه فلا بأس !! وهو أمرٌ غريب، يريدون به تبرير فعل معاوية وتحليل سبِّه لعليٍّ عليه السلام، وتصوير الإمام الحسن عليه السلام ضعيفاً لا غيرة له على معصية الله تعالى بشتم أبيه!

(٤) تاريخ الطَّبريّ ٤/ ١٢٢، تجارب الأمم لابن مسكويه الرّازي ١/ ٥٧٣، فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٥٥، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ٥/ ١٨٣، البداية والنّهاية ٨/ ١٧، تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٨٦، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٢٩٠،

(٥) تجد هذه النُّصوص متفرِّقة في الإمامة والسِّياسة (ص ٢٠٠) [١/ ١٤٠] والطَّبري (ج٦ ص ٩٢) [٤/ ١٢٢] وعلل الشرائع لابن بابويه (ص ٨١) [١/ ١٢١] وابن كثير (ج ٨ ص ١٤) ⇦

المادَّة الخامسة:

«علی أنَّ النَّاس آمنون حيثُ كانوا من أرض الله[1]، في شامِهم وعِراقهم وحجازهم ويمنِهم، وأنْ يُؤمَّنَ الأسودُ والأحمر، وأنْ يحتمل معاويةُ ما يكون من هفواتهم، وأن لا يتَّبع أحداً بما مضى، وأنْ لا يأخذ أهلَ العراق بإحْنَةٍ»[2].

«وعلى أمانِ أصحابِ عَليٍّ حيث كانوا، وأنْ لا يَنال أحداً من شيعةِ عَلِيٍّ بمكروهٍ، وأنَّ أصحاب عَليٍّ وشيعتَه آمنونَ على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأنْ لا يتعقَّب عليهم شيئاً، ولا يتعرَّض لأحدٍ منهم بسوء، ويُوصِل إلى كُلِّ ذي حقٍّ حَقَّه، وعلى ما أصاب أصحاب عَلِيٍّ حيث كانوا..»[3].

⇦

[البداية والنّهاية ٨/ ١٧] وغيرهم [أنظر: الكامل في التّاريخ لابن الأثير ٣/ ٤٠٥، إمتاع الأسماع للمقريزي ٥/ ٣٥٨، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٢٩٠] .

و«دار ابجرد» ولاية بفارس على حدود الأهواز . وجرد أو جراد: هي البلد أو المدينة بالفارسية القديمة والرّوسية الحديثة، فتكون دار ابجرد بمعنى: «مدينة دار ابجرد» . (المؤلِّف ﵀)

أقول: «دار أبجرد» ضبطها الصَّحيح هكذا: «داراب جِرد» أو تخفيفاً بحذف الألف الثّانية: «داربجِرد». مدينة قديمة تُعرف بالفارسية بـ«دارابگرد»، وهي العاصمة الأولى للدَّولة السَّاسانية ، واسمها الآن: «داراب» تقع في محافظة فارس، شرق شيراز وتبعد عنها ٢٥٣ كيلومتراً.

(١) الفتوح لابن أعثم ٤/ ٢٩٠.

(٢) المصادر: مقاتل الطالبيين (ص٢٦) [/ ٤٣]، ابن أبي الحديد (ج٤ ص١٥) [١٦/ ٤٤]، البحار (ج١٠ ص١٠١ و١١٥) [٤٤/ ٥٣ و٦٥]، الدِّينوَري (ص٢٠٠) [الأخبار الطّوال / ٢١٨]، ونقلنا كلَّ فِقْرَة من مصدرها حرفياً. (المؤلِّف ﵀)

(٣) يتَّفق على نقل كُلّ فِقْرَة أو فقرتين أو أكثر، من هذه الفقرات الّتي تتضمن الأمان لأصحاب علي ﵇ وشيعته، كلٌّ من الطَّبري (ج٦ ص٩٧) [٤/ ١٢٨]، وابن الأثير (ج٣ ص١٦٦) [٣/ ٤٠٨]، وأبي الفرج في المقاتل (ص٢٦) [/ ٤٣]، وشرح النَّهج (ج٤ ص١٥) [١٦/ ٢٢]، والبحار (ج١٠ ص١١٥) [٤٤/ ٦٥]، وعلل الشَّرائع (ص٨١) [١/ ٢١٢]، والنَّصائح الكافية

⇦

«وعلى أن لا يَبْغِي للحسن بن عليٍّ، ولا لأخيه الحسين، ولا لأحدٍ من أهل بيت رسول الله، غَائلةً، سِرّاً ولا جهراً، ولا يُخِيفُ أحَداً منهم، في أفُقٍ من الآفاق»[1].

الختام:

قال ابن قتيبة: «ثمَّ كتب عبد الله بن عامر ـ يعني رسول معاوية إلى الحسن عليه السلام ـ إلى مُعاوية شروط الحسن كما أملاها عليه، فكتب معاوية جميع ذلك بخطِّه، وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكَّدة، والإيمان المغلَّظة، وأشهد على ذلك جميع رُؤساء أهل الشَّام، ووَجَّه به إلى عبد الله ابن عامر، فأوصله إلى الحسن»[2].

وذكر غيره نصَّ الصِّيغة الّتي كتبها معاوية في ختام المعاهدة فيما واثق اللهَ عليه من الوفاء بها، بما لفظه بحرفه:

«وعلى معاوية بن أبي سُفيان بذلك، عَهْدُ الله وميثاقُه، وما أخذ الله على أحدٍ من خلقه بالوَفاء، وبما أعطى اللهَ من نفسه»[3]

وكان ذلك في النِّصف من جُمَادَى الأُولَى سنة ٤١ ـ على أصَحِّ الرِّوايات ـ.[4]

⇨

(ص١٥٦) [/ ١٤٨]. (المؤلِّف رحمه الله)

(١) البحار (ج١٠ ص١١٥) [٤٤/ ٦٥]، والنَّصائح الكافية (ص ١٥٦ ـ ط. ل) [/ ١٤٨]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) الإمامة والسّياسة (ص٢٠٠). (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: الرّواية ذكرها ابن قتيبة في الأخبار الطّوال / ٢١٨، لا في الإمامة والسّياسة.

(٣) البحار (ج١٠ ص١١٥) [٤٤/ ٦٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) تقدّم في أوّل الكتاب الصَّفحة / ٧٣، تحقيق بهذا الشّأن.

دِرَاسَةُ النُّصُوصِ البَارِزَةِ فِي المُعَاهَدَةِ

لِتكُن صيغة المعاهدة بما لَوْلَوَت عليه من عناصر موضوعيَّة لها أهميَّتُها في النَّاحيتين الدِّينيَّة والسِّياسيَّة، شاهداً جَديداً على ما وُفِّق له واضع بنودها من سُموِّ النَّظر في النَّاحيتين جميعاً.

ومن الحقِّ أن نعترف للحسن بن عليٍّ عليهما السلام ـ على ضوء ما أُثِر عنه من تدابير ودساتير هي خير ما تتوصَّل اليه اللّباقة الدِّبلوماسيّة لمثل ظروفه من زمانه وأهل زمانه ـ بالقابليَّات السِّياسية الرَّائعة الّتي لو قُدِّر لها أنْ تَلِي الحكم في ظرفٍ غير هذا الظرف، وفي شعبٍ أو بلاد رتيبةٍ بحوافزها ودوافعها، لجاءت بصاحبها على رأس القائمة من السِّياسيِّين المحنَّكين وحُكَّام المسلمين اللاَّمعين. ولن يكون الحِرمان يوماً من الأيَّام، ولا الفشلُ في ميدان من الميادين بدوافعه القائمة على طبيعة الزَّمان، دليلاً على ضعفٍ أو مَنفذاً إلى نقدٍ، ما دامت الشَّواهد على بعد النَّظر وقُوَّة التَّدبير وسموِّ الرَّأي، كثيرة متضافرة تكبر على الرَّيب وتنبو عن النِّقاش.

وللقابليَّات الشَّخصيّة مُضاؤُها الّذي لا يعدم مجال العمل، مهما حدَّ من تيَّارها الحِرمان أو ثنَّى من عنانها الفشل. وها هي ذي من لدن هذا الرَّجل العظيم تستجدُّ ـ منذُ الآن ـ ميدانها البِكر، القائم على الفكرة الجديدة القائمة على صيانة حياة أمَّة بكاملها في حاضرها ومستقبلها، بما تضعه في هذه المعاهدة من خطوط، وبما تستقبل به خصومها من شروط.

وإنَّك لتلمح من بلاغة المعاهدة بموادِّها الخمس، أنَّ واضعها لم يعالج موضوعه جُزافاً، ولم يتناوله تَفَاريقَ وأجزاءً، وإنَّما وضع الفكرة وَحْدَةً متماسِكةَ الأجزاء متناسقةَ الإتِّجاهات. وتوفَّر فيها على تحرِّي أقرب المحتملات إلى التَّنفيذ عَمَليّاً، في سبيل

الإحتياط لثبوت حقِّه الشَّرعيّ، وفي سبيل صيانة مقامه ومقام أخيه، وتيسير شؤون أسرته وحفظهم، واعتصم فيها بالأمان لشيعته وشيعة أبيه وإنعاش أيتامهم، ليجزيهم بذلك على ثباتهم معه ووفائهم مع أبيه، وليحتفظ بهم أمناء على مبدئه وأنصاراً مخلصين لتمكين مركزه ومركز أخيه، يوم يعود الحقُّ إلى نصابه. وسَلَّم فيها «الأمر» إلى معاوية مَشروطاً بالعمل على سُنَّة النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسيرة الخلفاء الصَّالحين، فقلَّص بذلك من نُفوذ عَدُوِّه في «الأمر» بما عرضه ـ من وراء هذا الشَّرط ـ للمخالفات الّتي لا عَدَّ لها ولا حَدَّ لنقمتها، وهو إذ ذاك أعرف النَّاس بمعاوية وبقابليَّاته الخُلُقيَّة تجاه هذا الشَّرط.

والمعاهدة ـ بَعْدُ ـ هي الصَّكُّ الّذي وَقَّعه الفريقان ليُسَجِّلا على أنفسهما الإلتزام بما أعطى كُلٌّ منهما صاحِبَه وبما أُخِذ عليه. وهي هنا ـ على الأكثر ـ قضيَّة «ماديَّات» محدودة لجّ في تحصيلها أحدُ الفريقين لقاء «معنويَّات» لا حدَّ لها استأثر بها الفريق الثَّاني.

فلم يَهدِف معاوية في صلحه مع الحسن عليه السلام، إلاَّ للإستيلاء على المُلك، ولم يرض الحسن بتسليم الملك لمعاوية إلاَّ ليصون مبادئه من الإنقراض، وليحفظ شيعته من الإبادة، وليتأكَّد السَّبيل إلى استرجاع الحقِّ المغصوب يوم موت معاوية.

ومن سِدَادِ الرَّأي أن لا نفهم مغزى هذه المعاهدة إلاَّ على هذا الوجه.

ولكي نتبيّن صِحَّة هذا التَّفسير لأهداف الفريقين يوم صُلحِهما، علينا أن نتحلَّل هنا في سبيل الكشف عن حقيقة تاريخية لها أهميّتها، من التعبُّد بأقوال المؤرِّخين وبتصرّفاتهم، وأن نرجع تَوّاً إلى التَّصريحات الشَّخصيّة الّتي فاه بها كلٌّ من المتعاقدين أنفسهما، فيما يمتُّ إلى عناصر اتّفاقيتهما هذه، أو فيما يُلقي الضَّوء على تفسير ما يفتقر إلى التَّفسير منها. ولعلَّنا سنصل من وراء هذا الأسلوب في طريقة الإستنتاج، إلى حلِّ شيءٍ كثير من الرُّموز الّتي استعصى حَلُّها على كثير من الأصدقاء في التّاريخ.

١ـ تصريحات الفريقين:

ويكفينا الآن من تصريحات معاوية بعد الصُّلح، فيما يمتُّ إلى معاهدته مع الحسنعليه السلام قوله فيما يرويه عنه كثير، منهم ابن كثير[١]: «رَضينَا بها مُلكاً»، وقوله في التَّمهيد لهذه المعاهدة ـ قبل الصُّلح ـ فيما كان يُراسل به الحسن: «ولكَ أن لا يَستولى عليكَ بالإساءة ولا تُقضَى دونك الأمورُ ولا تُعصَى في أمرٍ»[٢].

ويكفينا من تصريحات الحسنعليه السلام ما قاله أكثرَ من مرَّة في سبيل إفهام شيعته حيثيَّات صُلحه مع معاوية: «**مَا تَدْرُونَ مَا فَعَلْتُ، وَاللهِ لَلَّذِي فَعَلْتُ خَيْرٌ لِشِيعَتِي مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[٣]. وما قاله مرَّةً أخرى لبشير الهَمْدَاني وهو أحد رؤساء شيعته في الكوفة: «**مَا أَرَدْتُ بِمُصَالَحَتِي إلاَّ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمُ القَتْلَ**»[٤]، وما قاله في خطابه ـ بعد الصُّلح ـ : «**أَيُّهَا النَّاس إنَّ اللهَ هَدَاكُمْ بِأَوَّلِنَا، وَحَقَنَ دِمَاءَكُمْ بِآخِرِنَا، وَقَدْ سَالَمْتُ مُعَاوِيَةَ، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾**[٥]»[٦].

وليس في شيءٍ من هذه التَّصريحات ولا في الكثير ممَّا جرى على نسقها، سواء من معاوية أو من الحسنعليه السلام، ما يَستدعينَا إلى الإلتواء في فهم العَقْد القائم بينهما، الّذي لم يُقصَد منه إلاّ الأهداف الّتي أشرنا اليها آنفاً. فلمعاوية طموحُه إلى المُلك، وللحسن خُطَّته في حماية الشِّيعة من القتل، وصيانة المبادئ الدِّينيّة الّتي هي خير ممَّا طلعت عليه

---

(١) في تاريخه (ج٦ ص٢٢٠) [البداية والنّهاية ٦/ ٢٤٦]. (المؤلِّف)

(٢) ابن ابي الحديد (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٦، عن مقاتل الطّالبيين / ٣٧]. (المؤلِّف)

(٣) كمال الدِّين وتمام النِّعمة / ٣١٦.

(٤) الدِّينوَري (ص ٢٠٣) [الأخبار الطّوال / ٢٢١]. (المؤلِّف)

(٥) سورة الأنبياء عليهم السلام / ١١١.

(٦) اليعقوبي (ج٢ ص١٩٢) [٢/ ٢١٥]. (المؤلِّف) أيضاً أنظر: تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٧٤، الإمامة والسّياسة ١/ ١٤١.

الشّمس، والمسالمة إلى حينٍ.

ولا بِدع ـ بعد هذا ـ في تقرير هذه الحقيقة على واقعها، وفي التّنبيه إلى جَنَفِ كثيرٍ من المؤرِّخين فيما حرَّفوا من أهداف كُلٍّ من المتعاقدين، وفيما أساءوا فهمه من نصوصهما. ولقد تَرى، أنَّ المعاهدة نفسها وتصريحات المتعاقدين أنفسهما، لم تَنبِس قطّ، بذكر بيعة ولا إمامة ولا خلافة. فأين إذاً، ما يدَّعيه غير واحد من هؤلاء المؤرِّخين وعلى رأسهم ابنُ قتيبة الدِّينَوَرِيُّ، من أنّ الحسن بايع معاوية على الإمامة!!

وقبل الإنتقال إلى مناقشة هذا الموضوع، أو مناقشة القائلين به نتقدَّم بتمهيدٍ عابرٍ عن نسبة الخلافة الإسلامية إلى معاوية بن أبي سفيان، وامتناع البيعة الشَّرعيَّة لمثله، فنقول:

معاوية والخلافة:

لقد مرّ فيما ذكرناه بين أطواء المناسبات الآنفة، أنَّ خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله في الإسلام لا ينبغي أن تكون إلاَّ في أقرب المسلمين شَبَهاً به في سائر مزاياه الفُضْلَى، وإنّه ليس لطليقٍ ولا لولد طليقٍ ولا لُمسلِمَة الفتح شيءٌ في هذا الأمر (كما قاله عمر)[1]، وأنّ الخلافة بعد رسول الله ثلاثون سنةً ثمَّ تكون مُلْكَاً عَضُوضَاً (الحديث كما صَحَّحَه أهلُ السُّنة)[2]، وأنْ لا إمامة إلاَّ بالنَّصِّ والتَّعيين (كما عليه الشِّيعةُ والمعتزلةُ)[3]، وأنّ الغلبة

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٣٤٢، تاريخ ابن عساكر ٥٩/ ١٤٥، أسد الغابة ٤/ ٣٨٨، تاريخ السيوطي / ١٦١.

(٢) تقدّم تخريج الحديث وتصحيحه الصَّفحة / ٤٢.

(٣) أقول: ليس هو قول جميع المعتزلة بل هو رأي جماعة منهم، كالنظّاميّة، أصحاب إبراهيم بن يسار بن هانيء النظّام، حيث يقول: «لا إمامه إلا بالنصّ والتعيين ظاهراً مكشوفا، وقد نصّ النبيّ صلى الله عليه وآله على عليّ رضى الله عنه في مواضع وأظهر إظهاراً لم يشتبه على الجماعة إلاّ أنّ عمر كتم

والقُوّة لا تجعل غيرَ الجائز جائزاً، فلا يصحُّ أخذُ الخلافة عنوةً ولا فَرضُهَا على المسلمين قَسْراً، وأنّ الّذي يكون خليفةَ النّبيِّ ﷺ لا يمكن أن يَنقَاد ـ لا ظاهراً ولا سِرّاً ـ إلى مناقضته في أحكامه، فَيُلْحِق العِهَارَ بالنّسب ويُصَلِّي الجمعة يوم الأربعاء وينقض عهد الله بعد ميثاقه.

ونزيد هنا: أنّ قادة الرّأي في الأمّة الإسلاميّة مُنْذُ عهدِ معاوية وإلى يوم النّاس هذا، لم يفهموا من استيلاء معاوية على الأمر، معنى الخلافة عن رسول الله ﷺ بما في هذا اللّفظ من معنى، رَغم الدّعاوة الأمويّة النّشيطة الّتي تجنّد لها الخلفاءُ الإسميُّون من بني أميّة ومن إليهم، زُهاءَ ألفِ شهرٍ، هي مُدّة حكمهم في الإسلام، أنفقوا فيها الرّشَوات بسَخَاء، ووضعوا فيها الأحاديث والأقاصيص وِفْقَ الخُطَط والأهواء، ثم بقي معاوية ـ مع كل ذلك ـ مَلِكاً دنيويّاً وخليفةً إسميّاً لا أقلّ ولا أكثر.

دخل عليه ـ بعد أن استقرَّ له الأمر ـ سعد بن أبي وقّاص فقال له:

«السَّلامُ عليكَ أيُّها المَلِكُ» فضحك له معاوية وقال: «ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت: يا أمير المؤمنين»، قال: «أتقولُها جَذْلاَنَ ضاحِكاً، والله ما أُحِبُّ أنّي وُلِّيتُها بما وُلِّيتَهَا به»[1].

وقال ابن عبّاس لأبي موسى الأشعري في كلام طويل: «وليس في معاوية خِصلةٌ تُقرِّبه من الخلافة»[2].

⇦

ذلك وهو الّذي تولى بيعة أبى بكر يوم السقيفة.» الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٥٣.

(١) ابن الأثير في الكامل (ج ٣ ص ١٦٣) [٣/ ٤٠٩] والنّصائح الكافية (ص١٥٨) [/ ١٩٥]. (المؤلّف ﵀) أيضاً أنظر: أنساب الأشراف ٥/ ٣١.

(٢) المسعودي (هامش ابن الاثير ج٦ ص٧) [مروج الذّهب ٢/ ٣٩٥]. (المؤلّف ﵀)

وقال أبو هُريرَةَ في سبيل إنكاره خلافة معاوية فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخِلافة بالمدينة والمُلكُ بالشَّام»[1].

وسُئِلَ سفينةُ مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ ـ عن استحقاق بني أميَّة للخلافة، فقال: «كَذَبَ بنو الزَّرقَاء، بل هم ملوكٌ من شرِّ الملوك، وأوّل الملوك معاوية»[2].

وأنكرت عائشةُ على معاوية ادِّعاءَه الخلافة وبلغه ذلك، فقال: «عجباً لعائشة تزعُم أنِّي في غير ما أنا أهله، وأنَّ الّذي أصبحت فيه ليس لي بحقٍّ، مالها ولهذا يغفر الله لها»[3].

وحضر أبو بَكرة (أخو زياد لأمِّه) مجلسَ معاوية، فقال له: «حَدِّثنا يا أبا بَكرة»، فقال ـ فيما أخرَجهُ ابنُ سعيد ـ: «إنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**الخِلافَةُ ثَلاثُونَ، ثُمَّ يَكُونُ المُلْكُ**». قال عبد الرَّحمن بن أبي بكرة: «وكنت مع أبي فأمرَ معاوية فَوَجَئ في أقفائنا حتى أخْرَجَنَا»[4].

وسأل مُعاويةُ صَعْصَعَةَ بن صُوحانَ العبديّ قائلاً: «أيُّ الخلفاء رأيتموني؟»،

---

(١) ابن كثير (ج٦ ص٣٢١) [البداية والنّهاية ٦/ ٢٤٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: المستدرك للحاكم ٣/ ٧٢، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/ ١٨٦، تاريخ ابن عساكر ١/ ١٨٣، إمتاع الأسماع للمقريزي ١٢/ ٢٠٩، دلائل النبوّة للبيهقي ٦/ ٤٤٧.

(٢) النَّصائح الكافية (ص١٥٣ ـ طبع ايران) [/ ١٩٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: المصنّف لابن أبي شيبة ٨/ ٣٥٥، سنن الترمذي ٣/ ٣٤١، أسد الغابة ٢/ ٣٢٤، إمتاع الأسماع ١٤/ ٢٠٦، تاريخ الخلفاء للسّيوطي / ٢١٧.

(٣) شرح النَّهج (ج ٤ ص ٥) [١٦/ ١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) النَّصائح الكافية (ص١٥٩ ـ ط. أ) [/ ١٩٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً رواه ابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ١٨٦.

فقال صعصعة: «أنَّى يكون الخليفة من مَلَك النّاس قهراً ودانهم كِبراً، واستولى بأسباب الباطل كَذِباً ومكراً. أما والله ما لك في يوم بَدْرٍ مَضرِبٌ ولا مرمى، ولقد كُنتَ أنت وأبوك في العِيرِ والنَّفيرِ، ممَّن أجلب على رسول الله ﷺ. وإنّما أنت طليقٌ وابنُ طليقٍ أطلقكما رسول الله ﷺ. فأنّى تصْلُح الخلافة لطليق؟!»(١).

ودخل عليه صديقه المُغيرَة بن شُعْبة، ثم انكفأ عنه وهو يقول لابنه: «إني جئت من أخبث النّاس!!»(٢).

ولَعَنه عاملُه سَمُرة يوم عزله عن ولاية البصرة، فقال: «لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعته لما عذَّبني أبداً»(٣).

وقال الحسن البصري: «أربع خِصالٍ كُنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلاّ واحدةٌ لكانت موبِقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسُّفهاء حتى ابتزّها أمرها (يعني الخلافة) بغير مشورةٍ منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سِكّيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ: **«الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَ لِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»**، وقتلُه حُجْراً، ويلٌ له من حُجْر وأصحاب حُجر، (مرَّتين)»(٤).

وأبى المعتزلة بيعة معاوية بعد الصُّلح، واعتزلوا الحسن ومعاوية جميعاً، وبذلك

---

(١) المسعودي (هامش ابن الاثير ج ٦ ص ٧) [مروج الذهب ٣/ ٤١]. (المؤلِّف ﵀)

(٢) مروج الذهب (ج٢ ص٣٤٢) [٣/ ٤٥٤]، وابن ابي الحديد (ج٢ ص٣٥٧) [٥/ ١٢٩]. (المؤلِّف ﵀)

(٣) ابن الاثير فيما يرويه عنه في النصائح (ص٩) [/ ٢٧، وفي الكامل في التّاريخ ٣/ ٤٩٥]. (المؤلِّف ﵀)

رواه أيضاً: تاريخ الطّبري ٤/ ٢١٧، أنساب الأشراف ٥/ ٢٤٨، البداية والنهاية ٨/ ٧٣.

(٤) الطّبري (ج٦ ص١٥٧ ـ الطبعة الاولى) [٤/ ٢٠٨]. (المؤلِّف ﵀)

أنظر أيضاً: تاريخ ابن الأثير ٣/ ٤٨٧، شرح ابن أبي الحديد ٢/ ٢٦٢.

سَمُّوا أنفسهم «المعتزلة»[١].

ثم مشى موكب الزَّمان بتاريخ معاوية، فإذا به المثال الّذي يضربه فقهاءُ المذاهب الأربعة، للسُّلطان الجائر[٢].

واذا به الباغي الّذي يجب قتاله برأي أبي حنيفة النُّعمان بن ثابت[٣].

---

(١) كتاب التَّنبيه والرَّد على أهل الاهواء والبدع: لمحمَّد بن أحمد المَلَطِيّ المتوفى سنة ٣٧٧ هجري (ص٢٨) [/ ٣٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: خلافٌ بين العلماء في أساس نشأة «المعتزلة» فيرى بعضهم أنها ابتدأت في جماعة من أصحاب الإمام الحسن عليه السلام، اعتزلوا السِّياسة عقيب صُلحه صلوات الله عليه مع معاوية، قال أبو الحسين المَلَطِيّ المتوفى سنة ٣٧٧ هـ في «ردِّ الأهواءِ والبدع» ـ وهو أقدم مصدر يبيِّن وجه تلقيبهم بالمعتزلة ـ : «وهم سَمُّوا أنفسهم معتزلة، وذلك عندما بايع الحسن بن عليٍّ عليه السلام مُعاوية وسلَّم إليه الأمر، اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع النَّاس ـ وكانوا من أصحاب عليٍّ ـ ولزِمُوا منازلهم ومساجدهم، وقالوا: نشتغل بالعِلم والعبادة، فَسُمُّوا بذلك معتزلةً.» انتهى

ويقول الشَّيخ المفيد رحمه الله: «وأما المعتزلة وما وسمت به من إسم الاعتزال، فهو لقبٌ حَدَث لها عند القول بالمنزلة بين المنزلتين، وما أحدثه وَاصِلُ بن عَطاء من المذهب في ذلك ونصب من الإحتجاج له، فتابعه عمرو بن عُبيد ووافقه على التديُّن به من قال بها، واتَّبعهما عليه إلى اعتزال الحسنِ البصريِّ وأصحابه والتحيُّز عن مجلسه، فسمَّاهم النَّاس المعتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن بعد أن كانوا من أهله، وتفرّدهم بما ذهبوا إليه من هذه المسألة من جميع الأمَّة وسائر العلماء، ولم يك قبل ذلك يُعرف الإعتزال ولا كان عَلَمَاً على فريق من النَّاس.» أوائل المقالات / ٣٨.

وقيل: انَّ وَاصِل بن عَطاء، طرده الحسن عن مجلسه لما قال: «الفاسق لا مؤمنٌ ولا كافرٌ»، فانضمَّ إليه عمرو، واعتزلا حلقة الحسن، فسُمُّوا المعتزلة.

وهناك آراءٌ أخرى، ذكرتها كتب الملل والنّحل، والتّحقيق فيها جديرٌ يترك إلى محلِّه.

(٢) وذلك في اتِّفاقهم على جواز تقلُّد القضاء من السُّلطان الجائر، استناداً إلى عمل الصَّحابة في تقلُّدهم القضاء من معاوية. [أنظر: نصب الرّاية للزيلعي ٥/ ٤٧، البحر الرائق لابن نجيم المصري ٦/ ٤٦٠، الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢/ ١٦٨]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) قال أبو حنيفة: «أتدرون لم يبغضنا أهل الشَّام؟». قالوا: «لا»، قال: «لأنّا نعتقد أن لو حضرنا

⇦

فأين الخلافة المزعومة، يا ترى؟

وجاء المُعتَضِد العبّاسي، فنشر من جديد فِعَال معاوية وبوائقه الكبرى وما قيل فيه، وما روي في شأنه. ودعا المسلمين إلى لَعنِه، في مرسوم مَلِكِيّ أذيع على النّاس سنة ٢٨٤ للهجرة[1].

وقال الغَزَاليُّ بعد ذكره لخلافة الحسن بن عليﷺ: «وأفْضَت الخلافةُ إلى قومٍ تَولَّوهَا بغير استحقاق»[2].

وكان أروع ما ذكره به القرن السَّادس، قول نقيب البصرة فيه: «وما معاوية إلاّ كالدِّرهم الزَّائف»[3].

وصَرَّح ابنُ كثير بنفي الخلافة عن معاوية استناداً إلى الحديث، قال: «قد تقدَّم أنّ الخلافة بعدهﷺ ثلاثون سنةً، ثم تكون مُلْكاً، وقد انقضت الثَّلاثون بخلافة الحسن بن عليٍّ، فأيَّام معاوية أوَّل المُلك»[4].

وقال الدَّميريُّ المتوفَّى سنة ٨٠٨ هجري بعد ذكره مُدَّة خلافة الحسنﷺ: «وهي

⇦

عسكر عليِّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، لكنّا نعين علياً على معاوية، ونقاتل معاوية لأجل عليٍّ، فلذلك لا يحبّوننا». يراجع النَّصائح الكافية لابن عقيل (ص٣٦) [/ ٥٩] فيما يرويه عن أبي شكور في كتابه «التمهيد في بيان التوحيد». (المؤلِّفﷺ)

أقول: لا يحضرني كتاب «التَّمهيد في بيان التَّوحيد»، وتجد هذه الرِّواية في «بغية الطَّلب في تاريخ حلب» لابن العديم ١/ ٢٩١.

(١) نجد نصَّ المرسوم على طوله في تاريخ الطَّبري (ج١١ ص٣٥٥) [٨/ ١٨٣]. (المؤلِّفﷺ)

(٢) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي (ج ٣ ص ٢٣١) [أنظر: إحياء علوم الدِّين ١/ ٧٠]. (المؤلِّفﷺ)

(٣) أبو جعفر النَّقيب (ص ٤١ ـ طبع بغداد) [أنظر: شرح نهج البلاغة ١٠/ ٢٢٦]. (المؤلِّفﷺ)

(٤) البداية والنِّهاية (ج٨ ص١٩) [٨/ ٢١]. (المؤلِّفﷺ)

تَكملة ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله من مُدَّة الخلافة، ثم تكون مُلْكاً عَضُوضاً ثمَّ تكون جَبروتاً وفَساداً في الأرض، وكان كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله»(١).

وجاء محمَّد بن عقيل ـ أخيراً ـ فكتب كتابه الجليل «النَّصائح الكافية لمن يتولّى معاوية» وهو بحقٍّ: القولُ الفصلُ في موضوع معاوية، وقد طُبع الكتاب مرّتين، فليراجع.

وفي إباء التّشريع الإسلاميّ مثل هذه الخلافة ـ أوّلاً ـ.

وفي المخالفات الصُّلْع الّتي ثبتت على معاوية للنبيّ صلى الله عليه وآله ـ ثانياً ـ.

وفي إنكار قادَة الرّأي المسلِمين عليه ـ في مختلف العصور الإسلامية ـ ادِّعاءَه الخِلافةَ ـ ثالثاً ـ. ما يَكفينَا مَؤنةَ البحث في موضوع (معاوية والخلافة).

وكذلك كان الحسن نفسُه بعد تسليم الأمر لمعاوية، صريحاً في نفي الخلافة عنه، شأنُه في ذلك شأن سائر القادة من المسلمين. فقال في خطابه يوم الاجتماع في الكوفة: **«وَإنَّ مُعَاوِيَةَ زَعَمَ أَنِّي رَأَيْتُهُ لِلْخِلافَةِ أهْلاً وَلَمْ أرَ نَفْسِي لَهَا أهْلاً، فَكَذَبَ مُعَاوِيَةُ، نَحْنُ أوْلَى النّاس بِالنّاس فِي كِتَابِ الله عزَّ وجلّ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ»**(٢). وسيأتي ذكر خطابه هذا في (الفصل ١٨).

وقال في خطاب آخر له ـ بعد الصُّلح ـ وكان معاوية حاضراً: **«وَلَيْسَ الخَلِيفَةُ مَنْ دَانَ بِالجَوْرِ وَعَطَّلَ السُّنَنَ وَاتَّخَذَ الدُّنْيَا أباً وَأمّاً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مَلِكٌ أصاب مُلْكاً يُمَتَّعُ بِهِ، وَكَانَ قَدِ انْقَطَعَ عَنْهُ، وَاسْتَعْجَلَ لَذَّتَهُ وَبَقِيَتْ عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ، فَكَانَ كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ:**

---

(١) حَيَاة الحَيَوَان (ج١ ص٥٨) [١/ ٩٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) الأمالي للشّيخ الطّوسي / ٥٥٩، الإحتجاج ٢/ ٨، كتاب سليم بن قيس / ٤٥٨، بحار الأنوار ٤٤/ ٢٢.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1]»[2].

٢. حديث البيعة:

وجاء فيما يرويه الكُلينيُّ (ص٦١): «إنَّ الحسن اشترط على معاوية أن لا يُسمِّيه أمير المؤمنين»[3].

وجاء فيما يرويه ابنُ بابويه في العلل (ص ٨١)، وروى غيره أيضاً: «أنَّ الحسن اشترط على معاوية أن لا يُقيمَ عنده شهادةً»[4].

ولا أكثر ممَّا تضمَّنته هاتان الرِّوايتان تحفُّظاً عن الإعتراف بصِحَّة خلافة معاوية فضلاً عن البيعة له. ولم يكن ثمَّة إلاَّ تسليم الملك الّذي عَبَّرت عنه المعاهدة «بتسليم الأمر» وعَبَّر عنه آخرون بتسليم الحُكم.

أمّا قول الدِّينَوَريّ في «الإمامة والسِّياسة» أنّ الحسن بايع معاوية على الإمامة، فهو القول الّذي يصطدم قبلَ كلِّ شيء بقابليّات معاوية الّتي عرفنا قريباً النِّسبة بينها وبين الخلافة وصلاحيّة البيعة على المسلمين، ويصطدم ثانياً بتصريحات الحسن في إنكار خلافة معاوية. سواء في خطابيه الآنفين، أو في تحفّظاته الواضحة في هاتين الرِّوايتين.

وهكذا دلَّ الدِّينَوَريُّ فيما مرَّ عليه من قضايا الحسن ومعاوية، على تحيُّزٍ واضحٍ لا يَليق بمؤرِّخٍ يعيش في القرن الثَّالث حيث لا معاوية ولا رشواته ولا دعاواته، ولكنها

---

(١) سورة الأنبياء / ١١١.

(٢) ذكرها البيهقي في المحاسن والمساوئ (ج٢ ص٦٣)[/ ٨٤] وذكرها غيره [أنظر: الإحتجاج ١/ ٤١٩، الخرائج والجرائح للراوندي ١/ ٢٣٧، بحار الأنوار ٤٣/ ٣٥٤]. (المؤلِّف)

(٣) لم أعثر عليه في الكتاب.

(٤) علل الشّرائع ١/ ٢١٢.

الدَّوافع العاطفيّة الّتي لم يسلَم من تأثيرها كثيرٌ من مُؤرِّخينا المسلمين... فقال مرَّةً أخرى: «ولم يَرَ الحسن والحسين طول حياة معاوية منه سُوءاً في أنفسهما ولا مكروهاً!»(١).

أقول: وأيُّ سُوء يُصاب به إنسانٌ أعظم من قَتلِهِ سَمّاً؟. وأيُّ مكروهٍ ينزل بإنسان أفظع من اغتصاب عرشه ظُلماً؟. فأين مقاييس الدِّينَوَريّ بعد هذا يا تُرى؟

ونحن إذ أردنا هنا، أن نتعسَّف للمتسرِّعين إلى ذكر البيعة عُذراً أو شِبه عُذرٍ، حملناهم على التأثُّر بالدَّعاوات الكثيرة الّتي كانت لا تزال آخذةً بالأسماع، ولم يكن في التَّاريخ قضيّةٌ أبرز من انتقال الحكم في الإسلام من سبط النبيِّ نفسه، إلى طليقٍ من الطُّلقاء المعروفين بتاريخهم القريب، ولذلك فقد بلغ الكَلَفُ بالمنكرين على الصُّلح حَدّاً استساغوا به الإسترسال في ذُيوله وحواشيه، فحوَّروا ما كان، وزوَّروا ما لم يكن. ومن هنا نَسَج الخيالُ حديث البيعة، وكان في اللَّغط بهذا الحديث ـ المصطنع ـ غرضٌ قويٌّ للقُوَّة القائمة على الحكم بعد حادثة الصُّلح، لأنَّه الدِّعَامةُ الّتي تسند دَعَاوَتهم باستحقاق الخلافة المزعومة، الأمر الّذي تصايح المسلمون بإنكاره لهم وإنكارهم له، منذُ قال سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَذَبَ بنو الزَّرقاء بل هم ملوكٌ من شرِّ الملوك وأوَّل الملوك معاوية»(٢).

ثم جاءت السّطحيَّة السَّاذجة الّتي تقمَّصها إخوانُنا المؤرِّخون فيما جمعوه أو فيما فرَّقوه من تاريخ الإسلام، فمرُّوا على هذه الأقصوصة المصطنعة كحقيقةٍ واقعة، وكان القليل منهم من وقف عن الفضول في الكلام، وكان منهم من جاوز الحقيقة فخلط وخَبَط، حتّى نَسَبَ إلى الحسن نفسه الإعتراف بالبيعة صريحاً! وكان منهم من أوقعه

---

(١) الأخبار الطِّوال / ٢٢٥.

(٢) سبق تخريجه في الصَّفحة / ٤٠٦.

الخَلْط والخَبط في فرية وضيعة لا تَجْمُل بمروءة الرَّجل المسلم فيما يكتبه عن سبط من أسباط نبيِّه العظيمﷺ، فضلاً عن نَبوِها المكشوف بأمانة التاريخ، فادّعى أنّه باع الخلافة بالمال!!

ولسنا الآن بصدد الرّدّ على تقوُّلات الأفّاكين.

ولكنَّنا إذْ نُبرِّئ حديث الصُّلح بواقعه الأوَّل الّذي رضيه الفريقان من قضيَّة البيعة المزعومة، لا نعتمد في التبرئة إلاّ على الفهم الّذي يجب أن يفهمه المسلم من معنى البيعة ومن معنى الإمامة على حقيقتها ـ هذا أوّلاً، وأمّا ثانياً فلمّا مرَّ عليك قريباً من روايات الحادثة، ومن تصريحات ذوي الشَّأن في الموضوع.

وما من حقيقة تتعاون على تقريرها مثل هذه الأدلَّة فتُبقِي مجالاً للشَّكّ.

وقديماً اعتاد النّاس أن يرجعوا في كشف الوقائع الماضية إلى أقوال المؤرِّخين القُدامى، ممَّن عاصر تلك الوقائع أو جاء بعدها بقليل أو كثير من الزّمن. وكان من الجمود على هذه الطَّريقة ما أدَّى في الأجيال المتأخِّرة إلى مختلف الآراء وشتّى التحزُّبات، بين المجتمع الواحد وفي الأفق الواحد والدِّين الواحد، ذلك لأنَّ مراجع هذا التَّاريخ أنفسهم، كانوا يعيشون تحت تأثير آراء وتحزُّبات لا مَعْدَى لهم عنها في مثل عصورهم. ومن الصَّعب جِدّاً أن يُطيق كاتبٌ ما يومئذٍ التحلُّل ـ فيما يكتب ـ من المؤثِّرات العاطفيّة الّتي تشترك في تكوينه أدبياً وفي تدوير أعماله ومصالحه اجتماعياً. ومن هنا كان هذا القَلَق الملموس ـ المأسوف عليه ـ في كثير من موضوعات التّاريخ الإسلامي.

ومن الحقِّ أن نعتقد هنا، بأنَّ قصّة «البيعة» الّتي طَعَنت بها قضيّة الحسن في صلحه مع معاوية، إنَّما كانت وليدةَ تلك المؤثِّرات الّتي كتب المؤرِّخون تحت تأثيرها تواريخهم، فرأوا من الدَّعاوات المغرضة لتسجيل هذه القصَّة كحقيقة واقعة ما يحفّزهم إلى حسن الإحتذاء، تطوُّعاً للمنفعة العاجلة أو جهلاً بالواقع، ورأوا من التَّصريح

«بتسليم الأمر» في صُلب المعاهدة ما يُسوِّغ لهم ـ أو قُل: ـ ما يُيَسِّر لهم التوسُّع إلى ادِّعاء الإعتراف بالخلافة، ثم إلى ادِّعاء الإنقياد بالبيعة!! وخَفي عليهم أنَّ الخلافة ـ بما هي منصبٌ إلهيٌّ ـ لا يمكن أن تنقاد إلى مساومة أو تسليم، ولا يمكن أن تمسَّها الظُّروف الزّمنية في «صلح» أو «تحكيم».

ولكي نزداد بصيرةً في تفهُّم معنى «تسليم الأمر» الوارد في المادّة الأولى من معاهدة الصُّلح، علينا أن نرجع إلى طريقتنا في استنتاج الجدِّ بين هزل المؤرِّخين فندرس على المتعاقدين أنفسهما تفسير هذا المجمل من حيث التَّقييد والإطلاق.

٢ـ تسليم الأمر:

علمنا ـ ممَّا تقدَّم ـ أنّ معاوية قال لابنه يزيد، وهو يُشير إلى أهل البيت عليهم السلام: «إنَّ الحقَّ حقُّهم»[١].

وعلمنا أنّه كتب إلى الحسن في التّمهيد للصُّلح «ولا تُقْضَى دونك الأمورُ ولا تُعْصَى في أمرٍ»[٢].

وعلمنا أنَّه قال بعد الصُّلح: «رَضِينَا بها مُلكاً»[٣].

وعلمنا أنَّه خطب على منبر الكوفة يوم وُصوله إليها. فقال: «إنِّي لمْ أقَاتِلكم لتُصلُّوا ولا لِتزكُّوا.. وإنَّما قاتلتُكم لأتأمَّر عليكم»[٤].

---

(١) شرح النهج ١٦/ ١٢.

(٢) مرّ تخريجه في الصَّفحة / ٤٠٣.

(٣) مرّ تخريجه في الصَّفحة / ٤٠٣.

(٤) عن سعيد بن سويد قال: صَلَّى بنا معاويةُ بالنُّخيلة الجمعة في الصَّحن ثم خطبنا فقال: إنّي والله ما قاتلتكم لتُصلُّوا ولا لتصوموا ولا لتحجُّوا ولا لتزكُّوا، إنّكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون. مقاتل الطالبيين / ٤٥، وروي بألفاظ أخرى ⇦

وعلمنا أنَّ الحسن بن عليٍّ أنكر عليه الخلافة وِجَاهاً، فسكت ولم يردّ عليه.

فلنعلم إذاً، بأنَّ معاوية حين رضيها مُلْكاً نفاها عن نفسه خلافة، وحين قال: «لم أقاتلكم لتُصلُّوا ولا لتزكُّوا..» دلّ على أنّه ليس خليفةَ دينٍ، ولكنَّه مَلِك دُنيا لا هَمَّ له في صلاةٍ ولا زكاةٍ، وإنَّما كُلُّ همّه في التأمُّر على النّاس. وهو حين يقول للحسن: «لا تُقضَى دونك الأمور» ويقول لابنه: «إنّ الحَقَّ حقُّهم»، يعترف للحسن بالمقام الأعلى وبالسُّلطة الّتي لا تُعصَى في أمرٍ. وما ذلك إلاَّ مقام الخلافة فحسب. وكان لابدَّ لمعاوية أن يسكُت ـ والحال هذه ـ حين يُصارِحُه الحسن بإنكار خلافته، ويُكذِّبه على ادّعائها بغير استحقاق.

فأين مِن هذا، تسليمُ الخلافة الّذي فَسَّروا به تسليمَ الأمر؟.

وشيء آخر، قد يكون في مغزاه أدقَّ دلالةٍ على اعتراف معاوية ببراءته من استحقاق الخلافة، وذلك هو ضَحْكَته المخذولة لسعد بن أبي وقَّاص يوم دخل عليه وقال له: «السَّلام عليك أيُّها المَلِك»[1]، ولم يَقُل يا أمير المؤمنين، فقد كانت هذه الضَّحكَة بلُغَتِها المُبْطِنة، صريحةً بالإعتراف بالخطأ إذ يريد أن يأخذ الخلافة لَقَباً من غنائم الحرب، لا واسطةً بين المسلمين ونبيِّهمﷺ، وبهذا استحقَّ من سعدٍ، وهو الرَّجل الّذي لا تَغلِبُه مداورات معاوية، أن يقول له: «والله مَا أحِبُّ أنِّي وُلِّيتُها بمَا وُلِّيتَها به»[2]، يعني أنَّه كان يترفَّع عنها لَقباً ينبت على الدِّماء المحرَّمة، والفتن السُّود،

⇦

قريبة، أنظر: تاريخ ابن عساكر ٥٢/ ٣٨٠، و٥٩/ ١٥٠، سير أعلام النّبلاء ٣/ ١٤٦، البداية والنّهاية ٨/ ١٤٠، شرح نهج البلاغة ١٦/ ١٥، الإرشاد ٢/ ١٤.

(١) مرّ تخريجه آنفاً.

(٢) مرّ تخريجه في الصَّفحة / ٤٠٥.

والعهود الخَائِسَة.

وترى ـ على هذا ـ أنّ سعداً لم يفهم من تسليم الأمر إلاّ تسليم المُلك وهو ما يجب أن يَفْهَمَه كُلّ من فهم لغة القرآن في الخلافة، أو لغة الفريقين المتعاقدين في المعاهدة. ولمّا مرّ البحّاثة الإسلاميُّ الجليلُ السيِّد أمير عليّ الهندي رحمه الله، على ذكر هذا الصُّلح عبّر عنه «بالتَّنازُل عن الحُكم»[1].

وكان فيما قاله الحسن عليه السلام في سبيل التعبير عن صلحه مع معاوية جواباً لبعضهم: «**لا تَقُلْ ذَلِكَ يَا أَبَا عَامِرٍ، لَمْ أُذِلَّ الْمُؤمنين وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُمْ عَلَى الْمُلْكِ**»[2].

وقال لآخر: «**أَضْرِبُ هَؤلاءِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فِي مُلْكٍ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا؟ لا حَاجَةَ لِي بِهِ**»[3].

وهكذا نجد الفريقين ـ الحسن ومعاوية ـ يَتَّفقان على أنَّ الحرب الّتي زحفا إليها بجيوشهما، إنّما كانت حَرْباً على المُلك. ومعنى ذلك أنَّ الصُّلح الّذي اتّفقا عليه في معاهدتهما، إنّما كان صُلحاً على المُلك، لأنّهما يصطلحان اليوم على ما تنازعا عليه أمس. وليس في وجهة النَّظر القائمة بين الإثنين في خلال هذه التَّصريحات ولا يوم صلحهما، ذكرٌ للخلافة تَسلُّماً ولا تسليماً.

ثم نجدهما يتّفقان في هذه التَّصريحات، على إيثار أحدهما دون الآخر بالمركز الّذي لا تُقضَى دونه الأمور.. وهو المركز الَّذي سَوَّغ للحسن أن يقول عن معاوية كما لو قلَّده عملاً من أعماله وهو إذ ذاك حاضر مجلسه: «**إِنَّهُ أَعْرَفُ بِشَأْنِهِ وَأَشْكَرُ لِمَا وَلَّيْنَاهُ**

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدُّن الإسلامي (ص ٦١). (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) ابن كثير (ج٨ ص١٩) [٨/ ٢١]، وأعيان الشيعة (ج٤ ص٥٢) [٧/ ٢٦٣]، والمستدرك للحاكم [٣/ ١٧٥]. (المؤلف رحمه الله)

(٣) الإصابة (ج٢ ص١٢) [٢/ ٦٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

هَذَا الأمْرَ»[1] يعني أمر المُلك.

أقول: وكم هو الفرق بين هذا المركز وبين ما تَوهَّمه المتحذلِقُون من حديث البيعة أو من تفسير تسليم الأمر بتسليم الخلافة؟.

وكانت فيما نَظُنُ غَلطَة سبق إليها كاتبٌ عن قصد، ثم أخذها عنه كُتَّاب عن غير قصد، واندسَّت على مثل هذا الأسلوب أخطاءٌ كثيرةٌ في التّاريخ، شَوَّهت من حقائقه وبَدَّلت من رَوْعَته وضاعفت من جُهْد الباحثين فيه، ثمَّ أذا أنْتَ عُنيتَ بموضوعك فدقَّقْتَ مَرَاجِعَهُ، رأيتَه لا يرجع إلاّ إلى أصلٍ واحدٍ، ثمَّ إذا محَّصت الأصل رأيته لا يرجع إلى أصلٍ!

هذا، وأمّا الخلافة الإسميَّة، فلا خلاف فيها على معاوية ولا على أحدٍ من هؤلاء المتنفِّذين الّذين ادّعوها لأنفسهم، أو غزوها بسلاحهم، أو ورثوها من الغُزاة والمدَّعين.

وإذا صَحَّ في عُرف المجتمع الّذي بايع معاوية، أو بايع أحدَ هؤلاء، أن ينتزع من الإدِّعاء أو قُوّة السّلاح «خلافة» فلا مُشَاحّة في الإصطلاح.

وليكن معاوية ـ على هذا ـ خليفة النُّفوذ والسُّلطان، وليبق الحسن بن عليٍّ خليفة النَّبيّ وشريك القرآن.

وليكُن ما ورد في بعض النُّصوص ـ على تقدير صِحَّة السَّند والأمن من التَّحريف ـ تطبيقاً عملياً لإستعمال الكلمة في مصطلحها الجديد!

٤. مصير الأمر بعد معاوية

ولم يُعهد في كُتُب معاوية إلى الحسن فيما كان يُراسلُه به في سبيل التَّمهيد للصُّلح،

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقي (ج١ ص٦٤) [/٨٦ وفيه: «لَهُوَ أعْرَفُ» بدل: «إنَّهُ أعْرَفُ»]. (المؤلِّف)

كتابٌ يغفل تعيين المصير الّذي كان يجب أن يرجع إليه الأمر من بعد معاوية. وهو إذ يَطلب من الحسن في هذه الرَّسائل تَسلُّم الأمر محدوداً بحياته، يقول في بعضها: «ولك الأمر من بعدي» ويقول في بعضها الآخر: «وأنت أولى النَّاس بها»(١).

وهكذا جاء النّصُّ في المعاهدة.

وهكذا فهم النَّاس الصُّلح، انتزاعاً للسُّلطة محدوداً بعُمْر معاوية الّذي كان يكبر الحسن زُهاء ثلاثة عُقود، فكان من المتوقَّع القريب أن يسبِقَه إلى الموت، وأن يعود الحقُّ إلى نِصَابه، والحسنُ بعدُ في أوائل كُهولَته أو أواخر شبابه، لولا أنَّ للخُطط الجهنميَّة حساباً لا يخضع للمقاييس!!

وظَلَّت المادَّة الصَّريحة باستحقاق الحسن الأمر بعد معاوية، أبرز مواد المعاهدة في المجتمعات الإسلاميّة، وأكثرها ذُيوعاً بين النَّاس، مَدَى عِقدٍ كاملٍ من السِّنين. ثم طَغَت عليها الدَّعاوات العَدُوَّة، وأخذها حملة الأخبار إلى مصانعهم الجديدة، فبدَّلوا من معالمها وغيَّروا من حقائقها، وصاغها بعضُهم بقوله: «ليسَ لمعاوية أن يعهد إلى أحدٍ»(٢). وتلطَّف آخرٌ بها من عنده فقال: «ويكون الأمر بعده شُورى بين المسلمين»(٣). ـ أمَّا الصَّادقون فرووها على حقيقتها. وفات المؤرِّخين المحترفين، أنّ صرف الحقيقة عن واقعها في هذا النَّصّ، لن يجديهم في صرف الواقع عن حقيقته في مرحلة التَّطبيق،

---

(١) ابن ابي الحديد في شرح النهج (ج٤ ص١٣) [١٦/ ٣٧، عن مقاتل الطَّالبيين / ٣٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٨٧، الصّواعق المحرقة لابن حجر / ٨١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦/ ٢٢، السّيرة الحلبيّة ٣/ ٣٥٩، الفصول المهمّة لابن صبّاغ المالكي ٢/ ٧٢٩، الفتوح لابن أعثم الكوفي ٤/ ٢٩١، مطال السؤول لابن طلحة الشافعي / ٣٥٧، كشف الغمة للإربلي ٢/ ١٩٣.

(٣) المصادر المتقدِّمة.

فلم يكن من المحتمل عادةً، أن يتجاوز المسلمون ـ في شوراهم أو في غير شوراهم ـ ابنَ رسول الله ﷺ ، لو قُدِّر له أن يكون حَيّاً يوم يموت معاوية، وقُدِّر للمسلمين أن يختاروا الخليفة أحراراً، أو يتشاوروا أمرهم مختارين. فالرِّوايتان ـ الصَّحيحة والمحرَّفة ـ بل الصُّور الثَّلاث المزعومة للرِّواية الواحدة، تَتَّحد عَمَليّاً ما دام الحسن حيّاً.

إذاً، فلماذا التَّهرُّب من أمانة التّاريخ إلاّ أنْ يكون تعاوُناً رخيصاً مع السُّلطة القائمة على التَّمهيد لبيعة يزيد؟!!

وخُيِّل للمؤرِّخ البارع الّذي ألغى التَّعيين الصَّريح، ونقل الأمر إلى الشُّورى، أنّه أحسن اتِّخاذ الأسلوب للوضع والتَّحريف، وخَفِي عليه، أنَّه لم يزد فيما هدف إليه على صاحبه الّذي ألغاهما معاً، وذلك لأنَّ الشُّورى الّتي عناها لا تكون في انتخاب الخليفة، وإنَّما تكون في الشُّؤون الّتي يُديرُها الخليفة أو رئيس المسلمين من أمورهم، وهكذا كان تشريعُها الأوَّل يوم قال سبحانه: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[1]، وعلى ذلك مَدَحَهُم بقوله تعَالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى**﴾[2].

والآية في نفي الرّئاسات الّتي جعلها النّاس، أصرح منها في فرضها على النّاس.

وليس فيما تَوهَّمَه هذا المؤرِّخ أو توهَّمه آخرون، من الإستناد إلى الكتاب في قضيَّة الإنتخاب إلاّ الوهم ـ ولذلك فإنّ عائشة لما أرادت الدَّعوة إلى الشُّورى لم تنسبها إلى الله عزَّ وجلّ وإنَّما نسبتها إلى عمر بن الخطَّاب ولو وجدت في نسبتها إلى الله سبيلاً لما تأخّرت عنه لأنّه كان ـ إذ ذاك ـ أدعَم لحجَّتها، فقالت يوم دخولها البصرة: «وَمِنَ الرّأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيُقتلوا به، ثم يُردُّ هذا الأمر شُورى على ما جعله عُمَر

---

(١) سورة آل عمران / ١٥٩.

(٢) سورة الشُّورى / ٣٨.

بن الخطَّاب»[١].

وأخيراً، فإنَّ القرائن القطعيّة الكثيرة، لا تقبل لهذا النَّصّ ـ موضوع البحث ـ إلاّ الرّواية الصّريحة الّتي ذكرناها في المادّة الثّانية من صورة المعاهدة.

أمّا أوّلاً ـ فلمّا دلّت عليه كتب معاوية إلى الحسن عليه السلام ـ كما أشير إليه قريباً ـ

وأمّا ثانياً ـ فلأنّها الأنسب بشروط يضعها الحسن نفسه ـ كما نَبَّهنا إليه في حديث (الصَّحيفة البيضاء).

وأمّا ثَالِثَاً ـ فلأنّ رواتها أكثر، وروايتها أشهر.

وأمّا رابعاً ـ فَلِمَا أشرنا إليه من ذُيوع المادة الثّانية بنصِّها الصَّريح مدّة حياة الحسن عليه السلام، حتّى لقد كانت الشّاهد في كثير من الخُطَب والأحاديث.

فنَرَى سليمانَ بن صُرَد يُشير إليها فيما يعرِضُه للحسن بعد الصُّلح[٢]. ونرى جَارِيَةَ بن قُدَامة يذكُر لمعاوية حَقَّ الحسن بالأمر بعده كقرار معروف[٣]. ونرى الأحنف بن قيسٍ يُرسِلُه إرسال المسلَّمات، في خُطبته الّتي يردُّ بها على البيعة ليزيد، وهو إذ ذاك يخاطِبُ معاوية نفسه في حَفْلٍ حاشد.

قال: «وقد علمت أنَّك لم تفتح العراق عنوةً، ولم تظهر عليه مَقْصَاً[٤]. ولكنَّك أعطيت الحسن بن عليٍّ من عهود الله ما قد عَلِمت، ليكون له الأمر من بعدك، فإن تفِ، فأنت أهلُ الوفاء، وإن تغدِر تَظْلِم. والله إنّ وراء الحسن خُيولاً جِياداً، وأذرُعاً

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي (ج٤ ص٥٣٥). (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: الإمامة والسّياسة ١/ ٦٤.

(٢) الإمامة والسّياسة ١/ ١٤١.

(٣) تهذيب الكمال للمزّي ٤/ ٤٨٢، تاريخ الخلفاء للسّيوطي / ٢١٨.

(٤) في المصدر: «قَعْصَاً» أي: أي لم تأخذ العراق بالحرب.

شِداداً، وسُيوفاً حِداداً، إنْ تَدْنُ له شِبراً من غَدْرٍ، تجد وراءه باعاً من نَصْر. وإنّك تعلم من أهل العراق، ما أحبُّوك منذ أبغَضُوك..»[1].

إلى كثيرٍ من الشّواهد الأخرى الّتي يُزَهِّدنا في استيعابها رَغبتُنا في الإختصار.

٥. بقيّة المواد

ولقد ترى ـ إلى هنا ـ بأنّ دراستنا للنُّقاط البارزة في مواد المعاهدة لم تتجاوز المادّتين ـ الأولى والثّانية ـ.

أمّا المادّة الثّالثة، فقد سبق في (الفصل: ١٤) مناقشة معاوية في موضوعها كما يجب ـ فليراجع ـ، وسبق في الكلام على حديث الصَّحيفة البيضاء الّتي أرسلها معاوية إلى الحسن عليه السلام، لِيَكْتُب عليها ما يشاء من شروط، (في الفصل: ١٦) أنّ حديث هذه الصَّحيفة هو القرينة على ترجيح ما يكون من روايات المعاهدة أقرب إلى صالح الحسن منه إلى صالح خصومه، وعلى هذا فالمادَّة الثَّالثة لا تعني إلاّ الإطلاق في منع معاوية من شتمِ أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام، سواء حَضَرـ الحسن أو غاب. ولا يُؤخذ بما ألحقه بها بعض المؤرِّخين من اشتراط الإمتناع عن السَّب بحال حضور الحسن واستماعه[2]، ولا هو ممَّا يتمشَّى مع روح الصُّلح اذا كان الفريقان في صدد صلح حقيقيٍّ وتفاهم دائم.

وأمّا المادّة الرّابعة، فلم تكن في حقيقتها إلاّ استثناءاً مُتَّصلاً من المادِّيات الّتي اشترطت المعاهدة تسليمها لمعاوية. ومعنى ذلك أنّ المعاهدة سَلَّمَت لمعاوية ما أراد من

---

(١) نجد تمام هذه الخطبة وذكر مصادرها في (الفصل ٢٠) عند ذكرنا طريقة التمهيد لبيعة يزيد. (المؤلّف رحمه الله)

راجع الإمامة والسّياسة ١/ ١٤٦.

(٢) قاله ابن الأثير (ج٣ ص١٦٢) [٣/ ٤٠٥]، وقال بعده: «ثم لم يفِ به أيضاً!!». (المؤلّف رحمه الله)

المُلك عدا المبالغ المنوّه عنها في هذه المادَّة، فاستأثر الحسن بها لنفسه ولأخيه ولشيعته، وكانت من حُقوقه الّتي جعل له الله تعالى التصرُّف فيها. واختار من الخراج الحلال ـ فيما استثنى ـ أبعدَه عن الشُّبهات من الوجهة الشَّرعيّة، وهو خراج دار أبجرد[1].

أقول: وأين هذا التّفسير ممَّا تطاول به بعضهم من التحامُل الجَريء والإفتِئَات[2] البذيء، على مقام الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، حين أساء فهمَ هذه المادَّة فخَلَقَ من هذه الأموال ثمناً للخلافة ومن الحسن بائعاً ومن معاوية مُشترياً. وإنّ الأولى بهذا الفهم البليد ـ الّذي هان عليه أن يتصوَّر الثَّمن والمُثْمَن كِليهما من البائع، ثم يَدَّعي مع ذلك وقوع البيع ـ أن لا يتعرَّض فيما يكتب للموضوعات الّتي تكشف لقارئه بلادته، فيُسيءُ إلى نفسه قبل أنْ يُسيءَ إلى موضوعه.

وقد مرَّ في معنى الخلافة (لِذاتها)، وفي قابليّات معاوية للخلافة ما يكفينا القول باستحالة هذا الهذر، ولا نعيد.

وأمَّا المادّة الخامسة، فللفصول القريبة الآتية ما تحمله عنها.

---

(١) قال في الكامل (ج٣ ص١٦٢) [٣/ ٤٠٥]: «وأمّا خراج دار أبجرد فإن أهل البصرة منعوه، وقالوا هو فيئنا لا نُعطيه أحداً». قال: «وكان منعُهُم بأمرِ معاوية أيضاً!!». (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) «الإفْتِئَات» من «فَأتَ»، ورجل مُفْتَئِتٌ، وذلك إذا قال عليك الباطلَ. أنظر: لسان العرب ٢/ ٦٤.

الإجْتِمَاعُ فِي الكُوفَةِ

وكان طبيعيَّاً أن يتَّفق الفريقان بعد توقيعهما الصُّلح، على مكان يلتقيان فيه على سلام، ليكون اجتماعُهما في مكان واحد تطبيقاً عمليّاً للصُّلح الّذي يشهده التّاريخ، وليعترف كُلٌّ منهما على مسمعٍ من النّاس بما أعطى صاحبه من نفسه وبما يلتزم له من الوفاء بعهوده. واختارا الكوفة، فأقفلا إليها، وأقفل معهما سيولٌ من النّاس غَصَّت بهم العاصمة الكبرى، وهم ـ على الأكثر ـ أجنادُ الفريقين، تركوا معسكريهما وخَفُّوا لليوم التَّاريخيِّ الّذي كُتب على طالع الكوفة النَّحس أن تشهده راغمةً أو راغبةً. وللمرَّة الأولى تزخر عاصمة العراق بعشرات الألوف من أجناد الشَّام الحُمر ـ مُسْلِمين ومسيحيِّين ـ. ولهذين المعسكرين ـ الكوفة والشذَام ـ سوابقهما الّتي لا تعهد الهوادة في سلسلة العداوات التَّاريخيّة والوقائع الدَّامية، منذُ حوادث سلمان الباهليِّ وحبيب بن مَسْلَمَة الفِهريِّ (على عهد عثمان بن عفان)[1] وإلى يوم الصُّلح هذا. فما ظنُّك

---

(١) روى الحاكم في المستدرك ٣/ ٣٤٦، وابن عبد البرّ في الإستيعاب ١/ ٣٢٠، وابن الأثير في أسد الغابة ١/ ٣٧٤، والبيهقي في السّنن الكبرى ٦/ ٣٣٥، وابن عساكر في تاريخه ١٢/ ٧٢، والمزّي في تهذيب الكمال ٥/ ٤٠٠، والطّبري في تاريخه ٣/ ٣٥٣، وآخرون، واللّفظ للحاكم، قال: سارت الرُّوم إلى حَبيب بن مَسْلَمَةَ وهو بأرمينية، فكتب إلى معاوية يستمدّه، فكتب معاوية إلى عثمان بذلك، فكتب عثمان إلى أمير العراق يأمره أن يمدّ حبيباً، فأمدّه بأهل العراق وأمّر عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي، فساروا يريدون غياث حبيب فلم يبلغوهم حتى لقي هو وأصحابه العدوَّ ففتح الله لهم، فلمّا قدم سلمان وأصحابه على حبيب سألوهم أن يشركوهم في الغنيمة قالوا: قد أمددناكم، وقال أهل الشَّام: لم تشهدوا القتال، ليس لكم معنا شيءٌ، فأبى حبيب أن يشركهم وحوى هو وأصحابه على غنيمتهم، فتنازع أهل الشام وأهل العراق في ذلك، حتى كاد أن يكون بينهم في ذلك، فقال بعض أهل العراق:

فَإِنْ تَقْتُلُوا سَلْمَانَ نَقْتُلْ حَبِيبَكُم ... وَإِنْ تَرْحَلُوا نَحْوَ ابْنِ عَفَّانَ نَرْحَلُ

قال أبو بكر الغسّاني: وسمعت أنها أوّل عداوة وقعت بين أهل الشَّام والعراق.

يومئذٍ بحال الجُندي الكوفي الثّابت على الوفاء، الّذي قُدِّر له أن يُلقي سلاحه تحت موجة طاغية من مُكاء الجنود الشّاميين وتصديتهم الّتي عَجَّت بها أروقة المسجد الجامع، الّذي كان أُسِّسَ على تقوىً من الله.

وكانت الفجيعة القاتلة للفئة المخلصة من أنصار أهل البيت عليهم السلام، وللّذين جهلوا من هؤلاء الأنصار أهداف الحسن في الصُّلح، أو جهلوا حقيقة الوضع بدوافعه الّتي اقتادت الحسن إلى الصُّلح. أمّا الأكثريّة الخائنة فقد مَزَّقت السِّتار في يومها المنشود، وظهرت على المسرح باللَّون الّذي لا تشتبه فيه الأبصار، وَشُوهد بين جماهير الشّاميين زُمَرٌ من الكوفيين يُساهمونهم الفَرَح المغبون في مهرجاناتهم الباردة، وانتصارهم المغلوب!!

ونُودي في النّاس إلى المسجد الجامع، ليستمعوا هناك إلى الخطيبين الموقِّعَين على معاهدة الصُّلح.

وكان لابدَّ لمعاوية أن يستبق إلى المنبر، فسبق إليه وجلس عليه[1]، وخطب في

---

(١) قال جابر بن سمرة: «ما رأيت رسول الله يخطب إلاّ وهو قائم، فمن حدَّثك أنّه خطب وهو جالس فكذِّبه» رواه الجزائري في آيات الاحكام (ص٧٥) [تفسير مجمع البيان ١٠/ ١٥]، والظّاهر أنَّ معاوية أوّل من خطب وهو جالس. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: ويؤيِّده ما في التّهذيب للشّيخ الطّوسي رحمه الله ٣/ ٢٠ عن أبي عبد الله الصّادق عليه السلام قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَنْ خَطَبَ وَهُوَ جَالِسٌ مُعَاوِيَة.**» وفي المصنّف لابن أبي شيبة ٨/ ٣٢٥: عن مغيرة الشّعبي قال: «أوّل من خطب جالساً معاوية حين كَبُر وكَثُر شحمُه وعَظُم بطنُه.» وقريب منه روي في الآحاد والمثاني ١/ ٣٨٠، الإستذكار لابن عبد البرّ ٢/ ٦١، تاريخ ابن عساكر ٥٩/ ٢٠٢، سير أعلام النّبلاء ٣/ ١٥٦، البداية والنّهاية ٨/ ١٤٨.

وفي المصنّف لابن أبي شيبة ٢/ ٢٢، بإسناده عن علقمة سأله رجلٌ أكان النبيّ صلى الله عليه وآله يخطب قائماً أو قاعداً؟ قال: ألست تقرأ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ سورة الجمعة/ ١١. وفي مسند أبي يعلى ٨/ ٤٤٧، والمعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٧٦، رواه عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل... وفي تفسير القمّي ٢/ ٣٦٧، بإسناده عن ابن مسكان عن أبي بصير أنه سأل عن الجمعة كيف يخطب الإمام؟ قال عليه السلام: «**يَخْطِبُ قَائِماً، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾.**»

النّاس خُطْبَته الطَّويلة الّتي لم تَروِ المصادر منها إلا فقراتها البارزة فحسب.

منها (على رواية اليعقوبيّ):

«أمَّا بعد ذلكم، فإنَّه لم تختلف أمَّةٌ بعد نبيِّها، إلاّ غَلَب باطلُها حَقَّها!!» ـ قال: «وانتبه معاوية لما وقع فيه. فقال: إلاَّ ما كان من هذه الأمّة، فإنَّ حقّها غلب باطلَها!!»[١].

ومنها (على رواية المدائني):

«يا أهل الكوفة، أترونني قَاتَلتُكم على الصَّلاة والزَّكاة والحجِّ؟ وقد علمت أنَّكم تُصلُّون وتُزكُّون وتحجُّون، ولكنِّي قاتلتكم لأتأمَّر عليكم وعَلَى رِقَابكم، وقد آتاني اللهُ ذلك وأنتم كارهون! ألا إنَّ كُلَّ دمٍ أصيب في هذه الفتنة مَطْلُول، وكُلُّ شرط شرطتُه فتحت قَدَمَيَّ هاتين!! ولا يصلح النَّاس إلاّ ثلاث: إخراج العطاء عند محلِّه، وإقفال الجنود لوقتها، وغزو العدوِّ في داره، فإن لم تغزوهم غزوكم»[٢].

وروى أبو الفرج الأصفهاني عن حبيب بن أبي ثابت مسنداً، أنه ذكر في هذه الخطبة عَليّاً فنال منه، ثم نال من الحسن!![٣].

وزاد أبو إسحق السبيعي[٤] فيما رواه من خطبة معاوية قوله: «ألا وإنّ كلَّ شيءٍ

---

(١) تاريخ اليعقوبي (ج ٢ ص١٩٢) [٢/ ٢١٦]. (المؤلِّف)

(٢) شرح النهج (ج ٤ ص ١٦) [١٦/ ١٤]. (المؤلِّف)

(٣) شرح النَّهج ١٦/ ٤٦.

(٤) هو عمرو بن عبد الله الهمداني التابعي، الّذي يقال عنه أنه صلّى أربعين سنة صلاة الغداة بوضوء الْعَتَمَة، وكان يختم القرآن في كلّ ليلة، ولم يكن في زمانه أعبد منه ولا أوثق في الحديث [الإختصاص للشّيخ المفيد / ٨٣]. (المؤلِّف)

أقول: أنظر ترجمته في الجرح والتّعديل لأبي حاتم الرّازي ٦/ ٢٤٢، تذكرة الحفّاظ للذّهبي ١/ ١١٤، سير أعلام النّبلاء ٧/ ٢٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٦/ ٢٠٤، ذكر أخبار إصبهان للحافظ ⇦

أعطيت الحسن بن علي، تحت قدميّ هاتين لا أفي به!!»[1].

قال أبو اسحق: «وكان والله غداراً»[2].

ثم تطلّع النّاس، فإذا هم بابن رسول الله الّذي كان أشبههم به خَلْقاً وخُلُقاً وهيبةً وسؤدَداً، يخطو من ناحية محراب أبيه في المسجد العظيم ليصعد على منبره. وفي غوغاء النّاس ولع بالفضول لا يصبر عن استقراء الدقائق من شؤون الكبراء، فذكروا لجلجة معاوية في خطبته، ورباطة الجأش الموفورة في الحسن وقد استوى على أعواده، وأخذ يستعرض الجموع الزّاخرة الّتي كانت تضغط المسجد الرّحب على سعته، وكلّها ـ إذ ذاك ـ أسماع مرهفة لا همَّ لها إلاّ أن تعي ما يردّ به على معاوية، فيما خرج به عن موضوع الصُّلح، فنقض العهود وأهدر الدّماء وتطاول على الأولياء. وكان الحسن بن علي عليهما السلام أسرع النّاس بديهة بالقول، وأبرع الخطباء المفوَّهين على تلوين الموضوعات، فخطب في هذا الموقف الدَّقيق، خطبته البليغة الطويلة الّتي جاءت من أروع الوثائق عن الوضع القائم بين النّاس وبين أهل البيت عليهم السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، ووعظ ونصح ودعا المسلمين ـ في أوَّلها ـ إلى المحبّة والرّضا والإجتماع، وذكّرهم ـ في أواسطها ـ مواقف أهله بل مواقف الأنبياء، ثم ردّ على معاوية ـ في آخرها ـ دون أن يناله بسبٍّ أو شتمٍ، ولكنه كان بأسلوبه البليغ، أوجع شاتم وسابّ.

⇨

الأصبهاني ٢/ ٢٦، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ٧/ ٢٦٣. وقال عنه الفنيه السيّد الخوئي رحمه الله: «لا يبعد أن يكون الرّجل من العامّة» ثم ذكر شاهداً على ذلك وقال في آخر بحثه: «فالرَّجل لم تثبت وثاقته.» معجم رجال الحديث ١٤/ ١٢٢.

(١) شرح النّهج ١٦/ ٤٦.

(٢) شرح النّهج (ج ٤ ص ١٦) [١٦/ ٤٦، أيضاً: مقاتل الطلبيين / ٤٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

قال: «الحَمْدُ لله كُلَّما حَمِدَهُ حَامِدٌ، وَأشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلاّ اللهُ كُلَّمَا شَهِدَ لَهُ شَاهِدٌ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أرْسَلَهُ بِالهُدَى، وَائْتَمَنَهُ عَلَى الوَحْيِ، صلى الله عليه وآله.

أمَّا بَعْدُ، فَوَاللهِ إنِّي لأرْجُو أنْ أكُونَ قَدْ أصْبَحْتُ بِحَمْدِ اللهِ وَمَنِّهِ، وَأنَا أنْصَحُ خَلْقِ اللهِ لِخَلْقِهِ، وَمَا أصْبَحْتُ مُحْتَمِلاً عَلَى مُسْلِمٍ ضَغِينَةً، وَلا مُرِيداً لَهُ سُوءاً وَلا غَائِلَةً. ألا وَإنَّ مَا تَكْرَهُونَ فِي الجَمَاعَةِ، خَيرٌ لَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الفُرْقَةِ، ألا وَإنِّي نَاظِرٌ لَكُمْ خَيراً مِنْ نَظَرِكُمْ لأنْفُسِكُمْ، فَلا تُخَالِفُوا أمْرِي، وَلا تَرُدُّوا عَلَيَّ رَأيِي، غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ، وَأرْشَدَنِي وَإيَّاكُم لِمَا فِيهِ المَحَبَّةُ وَالرِّضَا»[1].

ثم قال: «أيُّهَا النّاس، إنَّ اللهَ هَدَاكُمْ بِأوَّلِنَا، وَحَقَنَ دِمَاءَكُمْ بِآخِرِنَا، وَإنَّ لِهَذَا الأمْرِ مُدَّةً، وَالدُّنْيَا دُوَلٌ، قَالَ اللهُ عزَّ وجلّ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2]»[3].

ثم قال: «..وَإنَّ مُعَاوِيَةَ زَعَمَ لَكُمْ أنِّي رَأيْتُهُ لِلْخِلافَةِ أهْلاً، وَلَمْ أرَ نَفْسِي لَهَا أهْلاً، فَكَذَبَ مُعَاوِيَةُ، نَحْنُ أوْلَى النّاس بِالنّاس فِي كِتَابِ الله عزَّ وجلّ وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، وَلَمْ نَزَلْ ـ أهَلَ البَيْتِ ـ مَظْلُومِينَ مُنْذُ قَبَضَ اللهُ نَبِيَّهُ، فَاللهُ بَيْنَنَا وَبَينَ مَنْ ظَلَمَنَا، وَتَوَثَّبَ عَلَى رِقَابِنَا، وَحَمَلَ النّاس عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا سَهْمَنَا مِنَ الفَيْءِ، وَمَنَعَ أمَّنَا مَا جَعَلَ لَهَا رَسُولُ الله،

---

(١) الإرشاد للشّيخ المفيد (ص ١٦٩ ـ طبع ايران) [٢/ ١١]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: رواها أيضاً أبو الفرج في مقاتل الطّالبيين / ٤١، وابن أبي الحديد في الشّرح ١٦/ ٤٠، وذكروا جميعاً أنّ الإمام الحسن عليه السلام ألقى خطبته هذه على أصحابه ليمتحنهم، وذاك في ساباط دون القنطرة، وكان ذلك قبل الصّلح.

(٢) سورة الأنبياء عليهم السلام / ١٠٩.

(٣) المسعودي (هامش ابن الاثير ج ٦ ص ٦١ ـ ٦٢) [مروج الذّهب ٢/ ٤٣١]، وابن كثير (ج ٨ ص ١٨) [٨/ ٢٠]، والطبري (ج ٦ ص٩٣) [٤/ ١٢٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

وَأقْسِمُ بِالله لَوْ أنَّ النّاس بَايَعُوا أبِي حِينَ فَارَقَهُمْ رَسُولُ الله، لأعْطَتْهُمُ السَّمَاءُ قَطْرَهَا وَالأرْضُ بَرَكَتَهَا، وَلَمَا طَمِعْتَ فِيهَا يَا مُعَاوِيَةُ.. فَلَمَّا خَرَجَتْ مِنْ مَعْدَنِهَا، تَنَازَعَتْهَا قُرَيْشٌ بَيْنَهَا، فَطَمِعَ فِيهَا الطُّلَقَاءُ وَأبْنَاءُ الطُّلَقَاءِ، أنْتَ وَأصْحَابُكَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: مَا وَلَّتْ أمَّةٌ أمْرَهَا رَجُلاً وَفِيهِمْ مَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْهُ، إلاَّ لَمْ يَزَلْ أمْرُهُمْ يَذْهَبُ سَفَالاً، حَتَّى يَرْجِعُوا إلَى مَا تَرَكُوا، فَقَدْ تَرَكَ بَنُو إسْرَائِيلُ هَارُونَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّهُ خَلِيفَةُ مُوسَى فِيهِمْ، وَاتَّبَعُوا السَّامِرِيَّ، وَتَرَكَتْ هَذِهِ الأمَّةُ أبِي وَبَايَعُوا غَيْرَهُ وَقَدْ سَمِعُوا رَسُولَ الله يَقُولُ لَهُ: أنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ النُّبُوَّةُ، وَقَدْ رَأوا رَسُولَ الله نَصَبَ أبِي يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ، وَأمَرَهُمْ أنْ يُبَلِّغَ أمْرَهُ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، وَهَرَبَ رَسُولُ الله مِنْ قَوْمِهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إلَى الله، حَتَّى دَخَلَ الغَارَ، وَلَوْ أنَّهُ وَجَدَ أعْوَاناً لَمَا هَرَبَ، كَفَّ أبِي يَدَهُ حِينَ نَاشَدَهُمْ، وَاسْتَغَاثَ فَلَمْ يُغَثْ، فَجَعَلَ اللهُ هَارُونَ فِي سَعَةٍ حِينَ اسْتَضْعَفُوهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ، وَجَعَلَ اللهُ النَّبِيَّ فِي سَعَةٍ حِينَ دَخَلَ الغَارَ وَلَمْ يَجِدْ أعْوَاناً، وَكَذَلِكَ أبِي وَأنَا فِي سَعَةٍ مِنَ الله، حِينَ خَذَلَتْنَا هَذِهِ الأمَّةُ، وَإنَّمَا هِيَ السُّنَنُ وَالأمْثَالُ يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً»[1].

ثم قال: «فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّداً بِالحَقِّ، لا يَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّنَا ـ أهْلَ البَيْتِ ـ أحَدٌ إلاَّ نَقَصَهُ اللهُ مِنْ عَمَلِهِ، وَلا تَكُونُ عَلَيْنَا دَوْلَةٌ إلاَّ وَتَكُونُ لَنَا العَاقِبَةُ، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[2]»[3].

ثم دار بوجهه إلى معاوية ثانياً، ليرد عليه نيله من أبيه، فقال ـ وما أروع ما قال ـ:

---

(١) البحار (ج ١٠ ص ١١٤) [٤٤/ ٢٢] (المؤلف رحمه الله)، أيضاً أنظر: الأمالي للشيخ الطوسي / ٥٥٩، الإحتجاج ٢/ ٨.

(٢) سورة ص / ٨٨.

(٣) المسعودي (هامش ابن الاثير ج ٦ ص ٦١ ـ ٦٢) [مروج الذهب ٢/ ٤٣١، وفيه: «إلاَّ نَقَصَهُ اللهُ مِنْ عَمَلِهِ مِثْلَهُ»]. (المؤلف رحمه الله)

«أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيّاً! أَنَا الحَسَنُ وَأَبِي عَلِيٌّ، وَأَنْتَ مُعَاوِيَةُ وَأَبُوكَ صَخْرٌ، وَأُمِّي فَاطِمَةُ وَأُمُّكَ هِنْدٌ، وَجَدِّي رَسُولُ اللهِ وَجَدُّكَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَجَدَّتِي خَدِيجَةُ وَجَدَّتُكَ فُتَيْلَةُ، فَلَعَنَ اللهُ أَخْمَلَنَا ذِكْراً، وَألأَمَنَا حَسَباً وَشَرَّنَا قَدِيماً وَحَدِيثاً، وَأَقْدَمَنَا كُفْراً وَنِفَاقاً!!».

قال الراوي: «فقال طوائف من أهل المسجد: آمين. قال الفضل بن الحسن: قال يحيى بن معين: وأنا أقول آمين. قال ابو الفرج: قال أبو عبيد: قال الفضل: وأنا اقول آمين. ويقول علي بن الحسين الإصفهاني (أبو الفرج): آمين، قال ابن أبي الحديد: قلت: ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنّف هذا الكتاب (يعني شرح النهج): آمين»[1].

أقول: ونحن بدورنا نقول: آمين[2].

وهذه الخطبة هي الوحيدة في تاريخ الخطابات العالميّة، الّتي حظيت بهتاف الأجيال على طول التّاريخ.

وكذلك قول الحق، فانه لا ينفكّ يعلو صعداً ولا يُعلى عليه.

وتجهّز الحسن ـ بعد ذلك ـ للشخوص إلى المدينة، وجاءه من سراة شيعته المسيّب بن نجية الفزاري وظبيان بن عمارة التيمي ليودّعاه، فقال الحسن: **«الحَمْدُ للهِ الغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ، لَوْ أَجْمَعَ الخَلْقِ جَمِيعاً عَلَى أَنْ لا يَكُونَ مَا هُوَ كَائِنٌ مَا اسْتَطَاعُوا»**. وتكلّم المسيّب وعرض إخلاصه الصّميم لأهل البيت عليهم السلام، فقال له الحسين عليه السلام: **«يَا مُسَيَّبُ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّنَا»** وقال الحسن عليه السلام: **«سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: مَنْ أَحَبَّ قَوْماً كَانَ مَعَهُمْ»**. ثم عرض له المسيب وظبيان بالرّجوع، فقال: **«لَيْسَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ»**، فلمّا كان من غد خرج من الكوفة، وشيعه النّاس بالبكاء!! ولم تكن إقامته

---

(١) شرح النّهج (ج ٤ ص ١٦) [١٦/ ٤٧ وفي مقاتل الطّالبيين / ٤٦]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) اللّهمّ آمين.

فيها بعد الصُّلح إلاّ أيّاماً قلائل.

فلما صار بدير هند (١) (الحيرة) نظر إلى الكوفة وقال:

وَلا عَنْ قِلًى فَارَقْتُ دَارَ مَعَاشِرِي   هُمُ المَانِعُونَ حَوْزَتِي وَذِمَارِي(٢)

أقول: وأيُّ نفس ملائكية هذه الّتي لقيت من نشوز هذه الخاصرة ومن بوائقها ما لقيت، ثم هي تودِّعها بهذا البيت من الشّعر، فلا تذكر من تاريخها الطّويل العريض، إلاّ وفاء الأوفياء «المانعين الحوزة والذّمار» وهم الّذين منعوا عنه من أراده في المدائن، والّذين ثبتوا على طاعته يوم العسرة في مسكن، فكانوا إخوان الصّدق وخيرة الأنصار، على قلّتهم.

ثم سار الموكب الفخم الّذي كان يقلّ على رواحله، بقية الله في الأرض، وتراث رسول الله صلى الله عليه وآله في الإسلام، وقد ضاقت بهم الكوفة أو ضاقوا بها، فيمّموا شطر وطنهم الأوّل، ليمتنعوا هناك بجوار قبر جدِّهم الأعظم من مكاره الدّهر الخوّان.

وصبَّ الله على الكوفة بعد خروج آل محمَّد منها، الطّاعون الجارف، فكان عقوبتها العاجلة على موقفها من هؤلاء البررة الميامين. وهرب منها واليها الأموي (المُغِيرَة بن شُعْبة) خوف الطّاعون، ثم عاد اليها فطُعن به فمات(٣).

---

(١) هند هذه، هي بنت النّعمان بن المنذر، وكانت مترهبة في ديرها هذا بالحيرة. [راجع معجم البلدان ٢/ ٥٤١، مراصد الاطلاع ٢/ ٥٧٩] (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) يراجع عمّا سبق شرح النّهج (ج ٤ ص ٦) [١٦/ ٤٧ وفي مقاتل الطّالبيين/ ٤٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) إرجع إلى المسعودي على هامش ابن الاثير (ج ٦ ص ٩٧). (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: قال الطّبري في تاريخه ٤/ ١٧٤: إنّ في تاريخ هلاك المغيرة اختلافاً، فقال بعض أهل السّير: كان هلاكه في سنة ٤٩ وقال بعضهم: في سنة ٥٠.

المَيْدَانُ الجَدِيدُ

لعلّك تتّفق معي على أنَّ من أدقِّ المقاييس الّتي تُوزن بها شخصيّات الرِّجال فيما يضطربون فيه من محاولات، هو موقفهم من شروطهم الّتي يأخذونها على أنفسهم راغبين مختارين. وما من إنسان معنيٍّ بإنسانيَّته يُعطي الشَّرط من نفسه، إلاَّ وإنّه ليعلم ما يَسْتَوبِلُه[1] في شخصيَّته وفي سمعته وفي ذِمامه إذا هو حَنَث في شرطه أو رجع عن وعده أو نقض ميثاقه الّذي واثق على الوفاء به. ومن السَّهل أن نتصوَّر إنساناً يستميت في سبيل الوفاء لقولٍ قاله أو عهدٍ أعطاه، لأنّه إنما يموت ضحيّة خُلُق رفيع خسر به الحياة المحدودة فربح به الحياة الّتي لا حدَّ لها، وبنى ـ إلى ذلك ـ لَبِنةً جديدة في صرح الإنسانية المثالية الّتي لا تفتأ تتعاون على نشر الخير في المجموع.

أمّا ذلك الخائس بعهده الحانث بيمينه الكاذب بمواعيده، الّذي بَسَمَ لصاحبه وهو يخادعه على شروطه، ثم عَبَس وتولّى وندم على ما أعطى، فليس من السَّهل أن نتصوَّره إنساناً، ولكنّه عدوّ الإنسانية بما هدم من قواعدها وشلَّ من مقرّراتها، وعدوّ نفسه بما عرضها للنّقمة والإحتقار وسوء السّمعة والحرمان من ثقة المجتمع. ولن ينفعه ـ بعد ذلك ـ أن يقول أو يقال عنه: إنّ الغاية تبرِّر الواسطة ـ فإنَّ هذا الإعتذار بذاته جريمةٌ كاملة لا يتّسع لها صدر الغفران. وللغايات ـ على اختلافها ـ قيمتها الإعتبارية الّتي تواضع عليها النّاس، فليكن لكلِّ غايةٍ واسطتها الّتي تتناسب وغايتها في الإعتبار، ولن تكون الغاية شريفةً قطُّ إلا إذا قامت على وسائط شريفةٍ أيضاً.

---

(١) «يَسْتَوبِلُه» من اسْتَوْبَل الأَرضَ إذا لم تُوافِقْه في بدَنه وإن كان مُحِبّاً لها. وأصله من «الوَبالُ»: الفسادُ. لسان العرب ١١/ ٧٢.

وكان من الخير العام، أن يتواضع المجموع منذ بناية المجتمع، على اعتبار «اليمين» و «العهد» ضماناً في الأخذ والردّ، وأنْ تتضافر الأديان السّماوية كلّها على ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1] ...

ولعلَّ من الأفضل أن نستمع هنا إلى ما عهد به أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام للأشتر النّخعي في هذا الموضوع، قال:

«وإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَه مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ وارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، واجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّه لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ الله شَيْءٌ، النّاس أَشَدُّ عَلَيْه اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ، فَلا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ولا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، ولا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّه لا يَجْتَرِئُ عَلَى الله إِلاّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وقَدْ جَعَلَ الله عَهْدَه وذِمَّتَه أَمْناً أَفْضَاه بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِه، وحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِه ويَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِه...»[2].

أقول: وإذا رجعنا بعد الإلمام بهذه الحقائق إلى موضوعنا، رأينا أن الشُّروط الّتي أخذها الحسن بن عليّ عليهما السلام على معاوية فيما تمّ بينهما من التعاهد على الصُّلح، كانت أكثر شروط عرفها التّاريخ عهوداً مؤكّدةً وأيماناً مغلّظة، وكان معاوية هو الّذي كتب نسختها الأخيرة بقلمه ووقّعها بخاتمه.

ولم يكن بِدعاً أن يترقّب الرّأي العام الإسلامي، يومها، الوفاء بها كما يجب لمثل هذه العهود والأيمان، وكما هو الأنسب بشخصيتين من هذا الطّراز في الإسلام.

---

(١) سورة الإسراء / ٣٥.

(٢) نهج البلاغة ٣/ ١٠٦، الكتاب: ٥٣، عهده عليه السلام للأشتر النّخعي لما ولاّه على مصر وأعمالها.

أمّا تلك المفاجأة الغريبة الّتي سبق إليها معاوية في خطابه على منبر الكوفـة، ولما يَمضِ على إمضائه المعاهدة إلاّ أيّام ربما كانت لا تزيد على أسبوع واحد، فقد وقعت في المجتمع الإسلامي وقوع الصّاعقة الّتي لا يسبقها إنذار. فقال (على رواية المدائني) كما أشير اليه آنفاً: «وكلّ شرط شرطته فتحت قدميّ هـاتين!»[1]، وصرَّح (عـلى روايـة أبي إسحق السَّبيعِيّ) بقوله: «ألا إنَّ كُلَّ شَيءٍ أعطيتُه للحسن بن عليٍّ تحتَ قَدَمَيَّ هاتين لا أفي به!»[2] ثم شَهِد عليه الحُصَين بن المنذِر الرَّقَاشِيّ قائلاً: «ما وَفى معاويةُ للحسن بشيءٍ ممّا أعطاه، قَتَل حُجْراً وأصحاب حُجْر، وبايع لابنه، وسَمَّ الحسن!!»[3].

وهكذا قُدِّر لهذا الرَّجل الواسع الممتلَكات، الضّيِّق الملكات أن يعود بعد حِنْثِهِ بأيمانه عَلناً، ونقضه لمواثيقه صَراحةً، أبعد النّاس عن ثقةِ النّاس، وأقلّهم وزناً في المقاييس المعنويَّة الّتي يتواضع عليها النّاس، وكان جُزاءً وِفاقاً، أن يُنكره أكثر المغرورين بما كان أنكر هو عهوده ومواثيقه، وأنْ يضعوه من أنفسهم في المحلِّ الّذي وضع هو شروطه من نفسه..

وما يُدرينا، فلعلَّنا الآن عند مفترق الطَّريق بين الماضي المغلوب والمستقبل الغالب، الّذي سينكشف عنه الصِّراع التّاريخي بين الحسن ومعاوية. ولعلّنا الآن على أبواب الخُطَّة الجبَّارة الّتي نزل الحسن بن عليٍّ عليه السلام من طريقها إلى الصُّلح، والّتي فرضت إرادتها على معاوية أبعد ما يكون في المعروف من دهائه عن الفشل في الخطط الّتي تمسّه في الصّميم من مصالحه.

وكان الحسن ـ كما نعلم ـ أعرف النّاس بمعاوية وبحظِّه من الصِّدق والوفاء،

(١) شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ١٥.

(٢) شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ٤٦.

(٣) يراجع ابن ابي الحديد (ج ٤ ص ١٦ و٦ و٧) [١٦/ ١٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

وهو إذ يأخذ عليه الصِّيغ المغلّظة في الأيمان والعهود، لا يقصد من ذلك إلى التّأكّد من صدقه أو وفائه، ولكن ليكشف للأغبياء قابليّات الرّجل في دينه وفي ذِمامه وفي شرفه بالقول.

وإنّها لَلْمُبَادأة الأولى الّتي ابتدأ الحسن عليه السلام زحفه منها إلى ميدانه الثّاني. ومن هنا وُضِعَ أوَّلُ حَجَرٍ في البِناء الجديد لقضيَّة أهل البيت عليهم السلام، ثم مشى موكب الزَّمان، فإذا بالخطوات الموفَّقة تمشي وئيداً مع الزَّمانِ وإذا بطلائع النَّجاح كفيالق الجيش الّتي تتلاحق تِباعاً لتتعاون على الفتح، وإنَّ من الفتوح ما لا يعتمد في أداته على السِّلاح، ومنها ما يكون وسائله الأوّليّة أشبه بالهزيمة، حتى ليخاله النّاس تسليماً محضاً، ولكنّه في منطق العقلاء، ظَفَرٌ لامعٌ وفتحٌ مبين.

وكان من أبرز الخطوات الّتي وُفِّقت إليها خُطَّة الحسن عليه السلام عن طريق الصُّلح، في سبيل التَّشهير بمعاوية حيّاً وميّتاً، والنّكاية ببني أميّة إطلاقاً.

١ ـ أنها أَلَّبَت على معاوية في بداية عهده الاستقلالي عدداً ضخماً من الشخصيات البارزة في المملكة الإسلامية.

فَلَعَنَه صراحةً بعضُهم، وخبَّثه آخر، وقرعه وجاهاً ثالث بل ثلاثة، وقاطعه رابع، وأنكر عليه حتى مات غمّاً من فعاله كبير خامس، وقال فيه أحدهم: «وكان والله غدَّاراً». وقال الآخر[1]: «أربعُ خصالٍ كُنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلاَّ واحدةٌ

---

(١) كان الّذي لعنه صاحبُه سَمُرَة، والّذي وصفه بأخبث النّاس صديقُه المغيرة، وكان الّذي قرعه وِجاهاً عائشة، وآخرون، والّذي قاطعه مالكُ ابنُ هُبَيْرَةَ السَّكوني، والّذي مات غَمّاً من فعاله الرَّبيع بن زياد الحارثي، وكان السّادس أبا إسحق السَّبِيعِيّ، والسّابع الحسن البصري. ويُراجع عن ذلك شرح النَّهج وابن الأثير ومروج الذَّهب وغيرها. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: لا بأس أن أوضّح بإختصار، ما أجمله المؤلِّف من ذكر النّاقمين على معاوية:

ـ سَمُرَةُ بنُ جُنْدَب: مرّ في هذا الكتاب خَبر سَمُرَة بن جُنْدَب عاملِ معاوية على البصرة وأنّه كان ⇦

⇦
يقول يوم عزله عن ولايتها: «لَعَنَ اللهُ معاوية، واللهِ لو أطَعتُ اللهَ كما أطعتُه لما عذَّبني أبداً» الكامل في التاريخ ٣/ ٤٩٥.

ـ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ: حين جاء من عند معاوية وقال لابنه مُطَرِّف: «يا بُنيّ إنِّي جئتُ من أخبثِ النَّاس...» ذكرنا خبره في الصَّفحة / ٣٧٩، من هذا الكتاب، نقلاً عن مروج الذَّهب ٣/ ٤٥٤، وشرح النَّهج لابن أبي الحديد ٥/ ١٢٩.

ـ عَائِشَة: رُوي أنّه أقبل معاوية ومعه خَلْقٌ كثيرٌ من أهل الشَّام، حتى أتى عائشة أمَّ المؤمنين فاستأذن عليها فأذنت له وحده، ولم يدخل عليها معه أحدٌ، وعندها مولاها ذكوان. فقالت عائشة: يا مُعاوية، أكُنْتَ تَأمنُ أنْ أقْعِدَ لك رَجُلاً فأقتلك كما قتلت أخي محمَّد بن أبي بكر؟ فقال معاوية: ما كُنتِ لتفعلي ذلك، قالت: لمَ؟ قال: لأنِّي في بيتِ آمن، بيتِ رسول الله! ثم إنّ عائشة حمدت الله وأثنت عليه، وذكرت رسول الله ﷺ، وذكرت أبا بكر وعمر، وحَضَّته على الإقتداء بهما، والإتِّباع لأثرهما، ثم صمتت، قال: فَلَمْ يخطِب معاوية، وخاف أن لا يبلغ ما بلغت، فارتجل الحديث ارتجالاً، ثم قال: أنْتِ ـ والله يا أمَّ المؤمنين ـ العالمةُ بالله وبرسوله، دَلَلْتِنَا على الحقِّ، وحَضَضْتِنَا على حَظِّ أنفسنا، وأنتِ أهلٌ لأن يُطاعَ أمرُك، ويُسمَع قولُك، وإنَّ أمر يزيد، قضاءٌ من القضاء، وليس للعباد الخِيَرَةُ من أمرهم، وقد أكَّد النَّاس بيعتَهم في أعناقهم، وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم، أفَتَرَينَّ أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم؟ فلمّا سمعت ذلك عائشة علمت أنّه سيمضي على أمره، فقالت: أما ما ذَكرتَ من عُهود ومواثيق، فاتَّقِ اللهَ في هؤلاء الرّهط، ولا تَعْجَل فيهم، فلعلَّهم لا يصنعون إلاّ ما أحببت، ثمَّ قام معاوية، فلمّا قام قالت عائشة: يا معاويةُ، قَتَلْتَ حُجْراً وأصحابه العابِدين المجتهدين؟ فقال معاوية: دَعِي هذا، كيف أنَا في الّذي بيني وبينك في حوائجك؟ قالت: صالحٌ!، قال: فدعينا وإيّاهم حتى نلقى ربَّنا. أنظر: الإمامة والسّياسة ١/ ١٥٨، مستدرك الحاكم ٣/ ٤٧٠، المعجم الكبير للطبراني ١٩/ ٣١٩، التاريخ الصّغير للبخاري ١/ ١٢١، تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢٢٩، وآخرون.

ـ مالكُ بنُ هُبَيْرَةَ: حين أُخِذَ حُجْرٌ وأصحابُه إلى معاوية وأمَرَ بقتلهم جاء مالكُ بنُ هُبَيْرَةَ معاويةَ وكلّمه فيه، إلاّ أنّ معاوية امتنع ولم يُشفِّعه في حُجْر، فجمع قومه وسار بهم إلى عَذراء ليخلِّص حُجْراً وأصحابه، فلقيه قَتَلَتُهُم، فلمّا رأوه علموا أنَّه جاء ليخلِّص حُجْراً، فقال لهم: ما وراءكم؟ قالوا: قد تاب القوم وجئنا لنخبر أمير المؤمنين! فسكت وسار إلى عَذْراء، فلقيه بعضُ من جاء منها، فأخبره بقتل القوم، فأرسل الخيلَ في أثر قتلتهم فلم يُدركوهم، ودخلوا على معاوية فأخبروه، فقال لهم: إنَّما هي حَرَارَةٌ يجدُها في نفسه، وكأنَّها طَفِئت. وعاد مالكٌ إلى بيته ولم يأت
⇨

لكانت مُوبِقةً». وقَابَلَهُ على مثل ذلك كثير من سادة وسيّدات، لسنا الآن بصدد إحصائهم، أو استيعاب كلماتهم.

٢ـ وخلقت له معارَضَة الطّبقات الّتي شملتها بنود المعاهدة، سواء في الأمان المفروض فيها، أو في الحقوق المالية المنصوص عليها. فإذا بعالم عظيم من النّاس أصبح ينظر إلى معاوية نظره إلى العدوّ الواتر في النّفس والمال، بما نقضه من شروطهم، في

⇦

معاوية فَلمّا كان اللّيل أرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، وقال: ما منعني أن أشَفِّعك إلاّ خوفاً أن يُعيدُوا لنا حَرْباً فيكون في ذلك من البلاء على المسلمين، ما هو أعظم من قتل حُجْر. فأخذها وطابت نفسُه!. أنظر خبره في: الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٨٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٣، أنساب الأشراف ٥/ ٢٦٦، الأغاني للأصفهاني ١٧/ ١٠٠.

ـ الرَّبيعُ بنُ زِيَادٍ الحَارِثي: عاملُ معاوية على خراسان، كتب زِيادُ بنُ أبيه إلى الرَّبيع هذا، إنّ أمير المؤمنين معاوية كَتَب يأمرك أن تُحرز الصَّفراء والبيضاء، وتُقسّم ما سوى ذلك، فكتب إليه: إنّي وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، ونادى في النّاس أن اغدُوا على غنائمكم، فأخذ الخُمس وقَسَّم الباقي على المسلمين ودعا الله تعالى أن يُميتَه، فما جَمَّعَ حتى مات. أسد الغابة ٢/ ١٦٤، شرح النَّهج ١١/ ٣٧. وفي رواية أخرى: أنّ الرَّبيع لَمّا بلغه قتلُ معاويةَ حُجْر بن عَدِيّ دعا الله عزّ وجلّ، فقال: اللّهُمّ إن كان للرَّبيع عندك خيرٌ فاقبِضْه إليك وعجِّل، فلم يبرح من مجلسه حتى مات. الإستيعاب ١/ ٣٣٢، أسد الغابة ١/ ٣٨٦، تهذيب الكمال للمزّي ٩/ ٧٩، تهذيب التّهذيب لابن حجر ٣/ ٢١١، تاريخ الإسلام للذّهبي ٤/ ٢٠٦.

ـ عَمْرُو بنُ عبد الله الهَمْدَاني: روي إنّ معاوية لّما قال في خطبته في النخيلة : ألا إنّ كلّ شيء أعطيته الحسن بن عليّ تحت قدمي هاتين لا أفي به. قال أبو إسحاق: «وكان والله غَدّاراً» شرح النّهج ١٦/ ٤٦، مقاتل الطلبيين / ٤٥.

ـ الحَسَنُ البَصْريُّ: مرّ في الصّفحة/ ٤٠٧، قوله: «أربعُ خصالٍ كُنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلاّ واحدةٌ لكانت مُوبِقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسُّفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير مشورةٍ منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سِكّيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ**»، وقتلُه حُجْراً، ويل له من حُجْرٍ وأصحاب حُجْر (مرتين).»

نفوسهم وأموالهم.

٣ـ وظنَّ معاوية أنَّه سيجعل من نقضه معاهدة الحسن وضعاً شكليّاً لبيعة ابنه يزيد، يتغلّب به على عنعنات الإسلام المقرَّرة بين المسلمين في أمر البيعة وصلاحيَّة الخلافة.

ولكنَّه لم يلبث أن اصطدم بالواقع، فإذا بهذه البيعة الجديدة، مَثار النّقمة الإسلاميّة العامّة الّتي أصبحت تتحسَّس منذ ترشيح يزيد للخلافة بنوايا بني أميَّة من الإسلام.

٤ـ ثمَّ كانت البوائق الدَّامية الّتي جَهَر بها معاوية بعد نقض الصُّلح، في قتله خيار المسلمين ـ من صحابة وتابعين ـ بغير ذنبٍ، عوامل أخرى للتَّشهير به، ولتحطيم معنويَّاته المزعومة، تمشِّياً مع الخُطَّة المكينة، الّتي أرادها الإمام الحسن عليه السلام منذُ قرَّر الإقدام على الصُّلح.

٥ـ وقضيَّة الحسين في كربلاء سنة (٦١) هـ، كُبرى قضايا الحسن فيما مهّد له من الزَّحف على عدوِّهما المشترك، وعَدُوِّ أبيهما من قبل.

ولا ننسى أنَّه قال له يوم وفاته: «**وَلا يَوْمَ كَيَوْمِكَ أَبا عَبْدِ الله**»[1].

وهذه الكلمة على اختزالها ـ المقصود ـ هي الرَّمز الوحيد الّذي سُمع من الحسن عليه السلام، فيما يُشير به إلى الخطة المقنَّعة بالسرِّ، الّتي اعتورها الغموض من ستِّ جهاتها، منذُ يوم الصُّلح إلى يوم صدور هذا الكتاب. وإنّك لتقرأ من هذه الكلمة لغة «القائد الأعلى» الّذي يُوزِّع القُوّاد لوقائعهم، ويُوزّع الأيّام لمناسباتها، ثم يميّز أخاه ويوم أخيه فيقول: «**وَلا يَوْمَ كَيَوْمِكَ**..».

وكان من طبيعة الحال أن تبعث المناسبات الزَّمنيّة حلقات الخُطّة كُلاًّ ليومها.

---

(١) الأمالي للشّيخ الصّدوق / ١٧٧، مثير الأحزان لابن نما الحلّي/ ١٣، بحار الأنوار ٤٥/ ٢١٨. وفي المصدر هكذا: «**وَلَكِنْ لا يَوْمَ كَيَوْمِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الله**».

وكان لابدَّ لكلِّ حلقة أن توقظ الأخرى، وأن تؤرِّث السابقة اللاَّحقـة، وتُوقِـد الأولى جذوة الثّانية، وهكذا دواليك.

وحَسَبَ الحسنُ لكُلِّ هذه الخطوات حسابها المناسب لها، منذ قاول معاوية على هذا الصُّلح المعلوم، ودرس ـ إلى ذلك ـ نفسيّات خصومه بما كانت تشرئبُّ له من النِّقمة عليه وعلى أخيه وعلى شيعته وعلى أهدافه جميعاً. وكانت هذه المطالعات بنطاقها الواسع، الأساس الّذي بنى عليه الحسن خطواته المستقبلة فيما مهَّده لنفسه ولعدوِّه معاً.

وكان من طبيعة الحال، أن تُلقي هذه الخطوات قيادتها إلى الحسين فيما لو حيل بين الحسن وبين قيادتها بنفسه. وهذا هو ما أردناه في بداية هذا القول.

وهكذا كانت نهضة الحسين الخالدة، الخطوة الجبّارة في خطّة أخيه العبقري العظيم.

ولا تزال فاجعة كربلاء الّتي استوعبتها كُلُّ لغات الأرض، اللَّطخة السَّوداء الّتي صبغت تاريخ أمَيَّة بالعار، مادام لكربلاء رسمٌ، ولأمية إسم.

٦ـ ثمَّ لم تزل الخُطَّة البعيدة الأهداف، تستعرض في الفترات المتقاربة التاريخ، بعد واقعة الحسين عليه السلام بكربلاء، سلسلة أحداثٍ قانية انبثقت من صميم الوضع الأموي المتشابه في أكثر ملامحه ـ بين عهد معاوية وابن عمه «الحمار»[1] ـ.

---

(١) هو مَرْوَان الأمَوِيُّ الّذي انقرضت دولة بني أمَيَّة على يده ـ ويُلقَّب «بالحمار» و «بالجَعْدِيّ» نِسبة إلى مُربِّيه «الجَعْد بن دِرْهَم». وكان ابن دِرهَم زِنديقاً فعلَّمه مذهبه، وكان الناس يَذمُّونه بنسبته إليه. ولمّا تعقَّب الفاتحون العبَّاسيُّون مَرواناً في هزيمته، أودع حرمه (الكنيسة) في بُوصِير! فأين هو عن المساجد يا ترى؟ ـ يراجع ابن الأثير (ج ٥ ص ١٥٩ و١٦٠) [الكامل في التَّاريخ ٥/ ٤٢٤ـ٤٢٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

وعادت الأمَويَّة في عُرف المسلمين المعنيِّين بإسلاميَّتهم الحكومة الجائرة المتغلِّبة بالظُّلم والإسراف وبالتحلُّل من كثير كثير من النّواميس الدّينية. واشتدّت نقمة النّاس عليها مع تمادي الأيّام، وكان أيُّ عَلَم يُرفع لحرب بني أمية، لا يعدم الألوف وعشرات الألوف من المبايعين له على الموت.

إذاً، فلتكن عملية الصُّلح ـ على هذا ـ البَذرة المستمدَّة من صميم مصلحة الإسلام ومصلحة أهل البيت عليهم السلام، ومن الوحي أيضاً. وليعد الحسن بن عليٍّ عليهما السلام بعد أقلِّ من قرن، الغالب المنتصر على الخصوم المغلوبين، المنهزمين في التاريخ.

خطوات موفَّقات، وسياسة صاعدة لا تبلغها السِّياسات، في صمت وتواضع واتّئاد، وتحت ظِلِّ إصلاح وتسليم وحقن دماء.

وهل العظمة شيءٌ آخر غير هذا، ياترى؟.

الوَفَاءُ بِالشُّرُوطِ

عَرفنا ـ إلى هنا ـ بواعثَ كُلٍّ من الفريقين فيما تَطلَّعَا به إلى الصُّلح. وعرفنا شروط كُلٍّ فيما اعتبره ضماناً لبواعثه تلك.

وعرفنا ـ بعد ذلك ـ أنّهما أرادا الجنوح إلى التَّصالح عَمليّاً، فاجتمعا في الكوفة، وكان من المنتظر لهذا الإجتماع التّاريخي أن يبعث بينهما من التّقارب ما لم تبعثه الصُّكوك التَّحريريّة ولا المقاولات الرَّسميّة، الّتي تُبُودِلَت بينهما في الصُّلح، لولا أنّ معاوية لم يشأ أن يلتزم في هذا الإجتماع جانبَ المجاملة، رَغم أنّه كان في ظرفه الخاصّ أحوج الرَّجلين إلى هذا النّمط من السّلوك، وإنّه ليمرّ ـ إذ ذاك ـ بأدقّ امتحان في سياسته العامّة وفي شخصيّته كمَلِكٍ يُريد أن يحكم شَعباً ما أحبَّه منذُ أبغضه ـ على حدِّ تعبير الأحنف بن قيس(١) ـ، فاجتمع بالحسن ولكن كما يجتمع «ابنُ أبي سفيان» بابن فاتح مكّة، لا كما يجتمع متناجزان ألقَيا السّلاح وتبادلا وثائق الصُّلح، وكان من هذا الخُلُقِ الثّابت لمعاوية ـ رَغم ما يتكلّفه من الحلم الكثير أحياناً ـ ما هو أداة الحسن في حملته المنظَّمة الّتي جرَّدها عليه في (ميدانه الثّاني) ـ كما أشير إليه في آخر فصلٍ مضى ـ

وإذ قد عرفنا ذلك كُلَّه من فصولنا القريبة السَّابقة، فلنعرف الآن موقف كُلٍّ من شروطه وفاءً ونقضاً. وها نحن أولاء من هذه المرحلة بإزاء النّقطة الحسّاسة الّتي طال حسابها في التّاريخ.

وكان بِوُدّنا لو طوينا كَشْحاً عن استنطاق هذا الموضوع، بما تُثيرُه تفاصيلُه من

---

(١) الإمامة والسّياسة ١/ ١٤٧.

ذِكريات: بعضها ألمٌ، وبعضها فضيحةٌ سَافِرَةٌ، وقليلٌ منها تاريخ تَعَافُه الأمجاد. ولكنَّنا ـ وقد أخذنا على أنفسنا في هذا الكتاب مُهمَّة البحث التَّحليلي المكشوف، عن قضيَّة الحسن ومعاوية ـ لا نجد مجالاً للتغافل عن عناصر الموضوع الّتي كان لها أروع الأثر في النَّتائج الّتي تَوخَّاها الحسن بن عليّ من صُلحه مع معاوية بن أبي سفيان. ولذلك، ولما لهذه التفاصيل الحسَّاسة الثَّقيلة على النَّفس من الأهميَّة القُصوى لموضوعنا العام، فلابدَّ لنا من مُسَايَرة هذا الموضوع في سائر خطواته، حتى ينتهي بنا أو ننتهي به إلى النَّتائج الواضحة المُمْلاة عن مقدِّماتها المسلّمة، بما في هذه النَّتائج من مجد المظلوم (الغالب) وخِزاية الظالم (المغلوب)، فنقول:

١) الوفاء بالشّرط الأوّل[1]

كان هذا الشَّرط هو الشَّرط الوحيد الّذي لمعاوية على الحسن.

فكان هو الشَّرط الوحيد الّذي حَظِي بالوفاء من شروط هذه المعاهدة إطلاقاً.

ثمَّ لا يُعهد من الحسن بعد توقيعه الصُّلح، أيُّ محاولةٍ لنقض شرطه هذا ولا التحدُّث بذلك، ولا الرِّضا بالحديث عنه.

وجاءه زُعماءُ شيعته بعد أن أعلن معاوية التخلّف عن شروطه، فعرضوا عليه ـ وقد رجع إلى المدينة ـ أنفسهم واتباعهم للجهاد بين يديه، ووعده الكوفيّون منهم بإخلاء الكوفة من عاملها الأمَوِيّ، وضمنوا له الكُرَاعَ والسِّلاح لإعادة الكرّة على الشَّام، فلم تهزه العواصف ولا قلقلته حوافز الأنصار المتوثّبين.

فقال له سُليمانُ بنُ صُرَد، وهو إذ ذاك سيِّد العراق ورئيسهم ـ على حدِّ تعبير بن

---

(١) وهو: تسليم الأمر إلى معاوية، على أن يعمل بكتاب الله وبسنَّة رسوله صلى الله عليه وآله، وبسيرة الخلفاء الصَّالحين.

قُتَيْبَة عنه ـ : «وزعم ـ يعني معاوية ـ على رؤوس النّاس ما قد سمعت: إنِّي كُنتُ شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عِدات ومنَّيتهم أمانيّ.. فإنَّ كُلّ ما هنالك تحت قدميَّ هاتين، ووالله ما عنى بذلك إلاّ نقض ما بينك وبينه، فأعِد الحرب خُدعةً وأْذَنْ لي أشخص إلى الكوفة، فأخرج عاملها منها وأُظهر فيها خلعه، وأنبذ إليه على سواء، ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(١).

ثمَّ سكت ابن صُرَد، فتكلَّم كُلُّ من حضر مجلسه بمثل مقالته، وكُلُّهم يقول: ابعث سُليمان بن صُرَد وابعثنا معه، ثم الحقنا، إذا علمت أنّا قد أشخصنا عامله، وأظهرنا خلعه»(٢).

وجاءه ـ أيضاً ـ حُجْر بن عَدِيّ الكِنْدِيّ، ومركزه القويّ في العراق مركزه، كما ستعرف قريباً.

وجاءه المسيَّب بن نجيّة، فارس مُضَر الحمراء كلِّها، إذا عُدّ من أشرافها عشرةٌ كان هو أحدهم ـ على حدِّ تعبير زُفَرِ بنِ الحَارث الكِلابي عنه(٣) ـ.

وجاءه آخرون من نظرائهم، وكُلُّهم لم يحظَ من الحسن إلاّ بالرَّد الجميل والإستمهال إلى موت معاوية، لأنَّه صاحب عهده فيما تعاهدا عليه، ولأنَّه كان قد درس من أحوال الكوفة في تجربته الأولى، ما أغناه عن تجارب أخرى.

وكان آخر جوابه اليهم قوله: «**لِيَكُنْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ حِلْسَاً مِنْ أَحْلاسِ**(٤) **بَيْتِهِ مَا دَامَ مُعَاوِيَةُ حَيَّاً، فَإِنْ يَهْلِكْ مُعَاوِيَةُ، وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ أَحْيَاءُ، سَأَلْنَا اللهَ العَزِيمَةَ عَلَى رُشْدِنَا،**

---

(١) سورة يوسف عليه السلام / ٥٢.

(٢) ابن قتيبة (ج ١: ص ١٥١) [الإمامة والسّياسة ١ / ١٤١]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) تاريخ الطّبري ٤ / ٤٦٠، الكامل في التاريخ ٤ / ١٧٩.

(٤) فلان حِلْسُ بيته يعني: ملازم بيته لا يبرحه. (المؤلِّف رحمه الله)

وَالمَعُونَـةَ عَـلَى أمْرِنَـا، وَأنْ لا يَكِلْنَـا إلَى أنْفُسِـنَا، فَـ ﴿إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[1]».

٢) الوفاء بالشّرط الثّاني[2]

أجمع المؤرِّخون ـ بما فيهم المتحزِّبون والمستقلّون ـ على أنَّ العهد الّذي أعطاه معاوية للحسن في شروط الصُّلح، هو أن لا يعهد بالأمر من بعده إلى أحدٍ، ومعنى ذلك رجوع الأمر من بعده إلى صاحبه الشَّرعي، أعني الحسن بن عليٍّ فإنْ لم يكن فللحسين أخيه، تمشِّياً مع مفهوم الشَّرط القائل بتسليم الأمر محدوداً بحياته، ومفهوم سلبه صلاحية العهد إلى أحد من بعده.

وأجمع المؤرِّخون ـ بعد ذلك ـ على أنَّ معاوية نقض هذا العهد علناً، وعهد من بعده إلى ابنه يزيد (المعروف!!).

ولسنا الآن بصدد مناقشة معاوية على نقضه العهد بعد ميثاقه، وهو ـ على كلِّ حالٍ ـ جِمَاع غلطاته الّتي أركسه «الصُّلح» فيها من حيث يدري أو لا يدري، ولكنّا وقد مررنا على موقف معاوية من عهوده مرّاتٍ ومرّات، لا نريد أن نمرَّ هنا على تعيينه يزيد ابنه لخلافة المسلمين دون أن نقول: إنّه ارتكب بهذا العمل الجريء أكبر إثم في دينه، وأفظع جريمة في الصّالح العام. وقد كان من أبرز النّتائج، لأعمال معاوية الإرتجالية الجريئة هذه، أن تنحرف قيادة الإسلام عن منهجها القويم، وأن تفقد الرَّعية قدوتها العمليّة، وأن تسود الأَثَرَة، ويضطرب حبل الثّقة بين الأفراد والجماعات، وأن

---

(١) سورة النَّحل / ١٢٨.

(٢) الإمامة والسِّياسة (ج ١ ص ١٥٢) [١/ ١٤٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) وهو: أن يكون الأمر للحسن من بعده، فإن حدث به حدثٌ فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد.

ينعدم التَّجاوب والتَّفاعل الوجدانيّ بين القادة والأتباع. فتتوزَّع الميول وتتباين المقاصد، ثمَّ لا يزال الأمر يأخذ بهم سَفَالاً، حتَّى يستعدَّ إلى الثَّورات الدَّامية والإنتفاضات الدَّاخليّة الّتي كان لابدَّ منها لتدارك الأخطاء والتنبُّه على الأخطار. دع عنك ما كان يُقال عن يزيد هذا، وعن قابليَّاته الشَّخصيّة والخُلُقِيَّة الّتي عجّت بها التّواريخ، من يومه إلى يومنا، والّتي كان من آثارها ـ في حكومته ـ ما كان (ممَّا لا نريد التوسُّع في ذكره)، وإنَّما جُلُّ ما نريد هو التَّنبيه على الغَلطَة الكُبرى الّتي أتاها معاوية، فتقمَّص بها مسؤولية الحُرُمَات الإسلاميَّة الّتي انتهكها بهذه الغَلطة غيرَ مُتَحرِّج ولا متأثِّم.

وكان من الأساليب العجيبة الّتي توفّر على روايتها أصدقاءُ الرَّجل فَضلاً عن أعدائه، فيما لجأ إليه يَوْمَ نصب ابنه وليّاً لعهد المسلمين، ما يكفينا للتأكُّد من وزنه كمسلم فضلاً عن وزنه كخليفة!! وإنّها لصفحةٌ من أنكد صفحات التَّاريخ، وأبعدها عن «الإسلام» رُوحاً ومعنى وأهدافاً، ولولا أنَّها ـ بنتائجها الّتي تنكشف عنها في معاوية وفي المجتمع الَّذي كان يدور في فلك معاوية ـ أحد شرايين بحثنا الواسع فيما يهدف إليه هذا البحث من بيان أسرار الحسن فيما أتاه من الصُّلح، لأعرضنا عن ذكرها، ولكُنّا أحرص على سترها، رَغم افتضاحها المكشوف مدى ثلاثة عشر قرناً.

أمّا الآن فسنعرض خُلاصة من نصوص المؤرِّخين، دون أن نتعمَّد الشَّرح والتَّعليق في الأثناء، لأنَّ هذه النُّصوص بذاتها غنيّةٌ عن الشَّرح والتَّعليق.

هكذا بايع معاوية ليزيد:

قال أبو الفرج الأصفهانيُّ: «وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد، فلم يكن شيءٌ أثقلَ

عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقّاص، فدسَّ إليهما سَمّاً، فماتا منه»[1].

وقال ابن قتيبة الدِّينَوَرِيُّ: «ثمَّ لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن إلاّ يسيراً حتى بايع ليزيد بالشَّام وكتب ببيعته إلى الآفاق»[2].

وقال ابن الأثير: «وكان ابتداءُ ذلك وأوَّلُه من المُغِيرَة بن شُعْبة، فإنَّ معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة، ويستعمل عوضه سعيد بن العاص، فبلغه ذلك، فقال: الرّأي أن أشْخَصَ إلى معاوية فاستعفيه، ليظهر للنّاس كراهتي للولاية، فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه: إن لم أكسبكم الآن ولايةً وإمارةً لا أفعل ذلك أبداً، ومضى حتى دخل على يزيد[3] وقال له: إنه ذهب أعيان أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكُبراء قريش وذوو أسنانهم![4] وإنّما بقي أبناؤهم، وأنت من أفضلهم! وأحسنهم رأياً! وأعلمهم بالسُّنّة!! والسِّياسة!، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟ قال: أَوَتَرى ذلك يَتِمُّ؟ قال: نعم. فدخل على أبيه، وأخبره بما قال المغيرة، فأحضر المغيرة وقال له: ما يقول يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدِّماء والإختلاف بعد عثمان، وفي يزيد خلف!، فاعقد له، فإنْ حدث بك حادثٌ كان كهفاً للنّاس وخلفاً منك، ولا تُسْفَكُ دِماءٌ!! ولا تكون فتنة!! قال: ومن لي بهذا؟ قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زيادٌ أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحدٌ يخالفك. قال: فارجع إلى عملك، وتحدَّث مع من

---

(١) المقاتل (ص ٢٩) [/ ٤٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) الإمامة والسِّياسة (ج ١ ص ١٦٠) [١/ ١٥١]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) وذكر البيهقيُّ في المحاسن والمساوئ (ج ١: ص ١٠٨) [/ ١٤١] مناورة المغيرة بن شعبة هذه، ولكنه رأى أو روى أنّ المغيرة ابتدأ بمعاوية أوّلاً، وأنّ معاوية لما وثق منه أرجعه إلى عمله وقال له: «انصرف إلى عملك، وأحكِم الأمر لابن أخيك، وأعاده على البريد يركض (كذا)». (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) أنظر إلى مكانة السِّن في عُرف المغيرة .. (المؤلِّف رحمه الله)

تثق إليه في ذلك، وترى ونرى.

فودَّعه ورجع إلى أصحابه. فقالوا: مَه؟ قال: لقد وضعت رِجل معاوية في غرزٍ بعيد الغاية على أمَّة محمَّدٍ!!، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً!»[1].

«وتواطأ معاوية مع رؤساء الوفود المناصحين له، أن يخطبوا ويذكروا فضل يزيد!! فلمّا اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار، وفيهم الأحنف بن قيس الفهري، فقال له: إذا جلستُ على المنبر، وفرغتُ من بعض موعظتي وكلامي، فاستأذن للقيام فاذا أذنّا لك، فاحمد الله تعالى واذكر يزيد، وقل فيه الّذي يحقّ له من حسن الثّناء عليه!! ثم ادعني إلى توليته! ثم دعا عبد الرّحمن بن عثمان الثّقفي وعبيد الله بن مسعدة الفزاري وثور بن مَعْنٍ السَّلَمي وعبد الله بن عِصَام الأشعري، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضّحاك، وأن يصدِّقوا قوله!! فقام هؤلاء النَّفر خطباء يُشيدُون بيزيد!! إلى أن قام الأحنفُ بن قيسٍ (ولم يكن من الممثِّلين الّذين رتّبهم معاوية لهذه الرِّواية) فقال:

«أصْلَحَ اللهُ الأمير، إنَّ النَّاس قد أمْسَوا في مُنكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتنف، وقد حلبت الدُّهور وجربت الأمور، فاعرف من تسند إليه الأمر بعدك، ثمَّ اعص من يأمرك، ولا يغررك من يشير عليك ولا ينظر إليك، مع أنَّ أهل الحجاز وأهل العراق، لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما دام الحسنُ حَيّاً».

ثمَّ أردف قائلاً:

«وقد علمت يا معاوية، أنّك لم تفتح العراق عَنْوةً، ولم تظهر عليه مقصاً، ولكنّك أعطيتَ الحسن بن عليٍّ من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الأمر من بعدك[2]. فإن

---

(١) كامل ابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٨ ـ ٢٠١) [٣/٥٠٣]. وفي هذا الحديث ما يُشْعِرُك بروحيّة المغيرة بن شعبة ومدى غيرة هذا الصَّحابي ذي الفتوق على أمة محمَّد ﷺ!. (المؤلِّف ﷻ)

(٢) وأخطأ فهم هذه الحُقبة من الزَّمن كثيرٌ ممّن كتب عنها، فقال حسن مراد في «الدَّولة الأمويّة» ⇦

تف فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تظلم. والله إنَّ وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً. وإن تَدْنُ له شبراً من غدر، تجد وراءه باعاً من نصر. وإنّك تعلم من أهل العراق، ما أحبُّوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليّاً وحسناً منذ أحبّوهما، وما نزل عليهم في ذلك غيَرٌ من السّماء، وإنَّ السُّيوف الّتي شهروها عليك مع عليٍّ يوم صِفِّين، لَعَلَى عواتقهم، والقلوب الّتي أبغضوك بها لبين جوانحهم»[1].

أقول: وكلام الأحنفِ هذا، صريحٌ بأنَّ معاوية حاول البيعة لابنه يزيد في حياة الحسن بن عليٍّ، بينما صرَّح آخرون، بأنَّ بيعة يزيد إنَّما وقعت بعد وفاة الحسن، حتى قال أبو الفرج: «إنّه سَمَّ الحسن وسعد بن أبي وقّاص تمهيداً لبيعة ابنه يزيد» (كما أشير إليه). إذاً فقد كان لمعاوية محاولتان لهذا التَّصميم: إحداهما في حياة الحسن رَغم العهود والأيمان والمواثيق، وهي إنَّما فشلت لمكان وجود صاحب العهد حيّاً. وثانيتهما بعد وفاة الحسن عليه السلام، وهي الّتي تمّت بأساليبها الظَّالمة الّتي عرضها أكثر المؤرِّخين.

«فعزل مروانَ عن المدينة حين عجز عن أخذ البيعة على أهلها ليزيد، وولّى المدينة سعيد بن العاص، فأظهر الغِلْظَة وأخذهم بالعزم والشِّدّة، وسَطَا بكلِّ من أبطأ عن البيعة ليزيد، فأبطأ النّاس عنها إلاّ اليسير، لا سيَّما بني هاشم، فانّه لم يجبه منهم أحدٌ.

أمّا مروان فذهب إلى الشَّام مُغاضباً، وواجه معاوية بكلام طويل قال فيه: وأقم الأمر يا ابن أبي سفيان، واهدأ من تأميرك الصِّبيان، واعلم أنَّ لك في قومك نظراء،

⇨

(ص ٧٠): «ومن هنا نرى أنَّ عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد على ما سيجيء لم يكن إنتقالاً غير منتظر!!». وقد عرفت من كلام الأحنف هنا ومن كلامنا في البحوث الآنفة أنّه كان انتقالاً غير منتظر. (المؤلِّف رحمه الله)

(١) ابن قتيبة (ج ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٨) [الإمامة والسِّياسة ١/ ١٦٤]، والمسعودي ـ هامش ابن الأثير (ج ٦ ص ١٠٠ ـ ١٠٢) [مروج الذّهب ٣/ ٢٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

وأنّهم على مناوأتك وزراء.»

ـ ثم سكت لأنّه رزقه ألف دينار في كُلِّ هلال!! ـ

«وكتب معاوية إلى عبد الله بن عبّاس وإلى عبد الله بن الزُّبير وإلى عبد الله بن جعفر وإلى الحسين بن عليٍّ، يدعوهم إلى البيعة ليزيد!»

ـ وكان كتابه إلى الحسين عليه السلام ما لفظه ـ:

«أمّا بعد، فقد انتهت إليَّ منك أمورٌ، لم أكن أظنُّك بها، رغبةً بك عنها، وإنَّ أحقَّ النّاس بالوفاء من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك الّتي أنزلك الله بها، فلا تُنازع إلى قطيعتك، واتَّق الله!! ولا تَرِدَنَّ هذه الأمّة في فتنة!! وانظر لنفسك ودينك وأمّة محمَّد، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1]!!».

ـ فكتب إليه الحسين بما يلي ـ:

«أَمّا بَعْدُ، فَقَدْ جاءَنِي كِتَابُكَ، تَذْكُرُ فِيهِ أَنَّهَا انْتَهَتْ إِلَيْكَ مِنِّي أُمُورٌ لَمْ تَكُنْ تَظُنُّنِي بِهَا رَغْبَةً بِي عَنْهَا، وَإِنَّ الحَسَنَاتِ لا يَهْدِي لَهَا وَلا يُسَدِّدُ عَلَيْهَا إلاَّ اللهُ تَعَالَى. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّه رَقَى إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّمَا رَقَاهُ المَلاَّقُونَ المَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفَرِّقُونَ بَينَ الجَمْعِ. وَكَذِبَ الغَاوُونَ المَارِقُونَ، مَا أَرَدْتُ حَرْباً وَلا خِلافَاً. وَإِنِّي أَخْشَى اللهَ فِي تَرْكِ ذَلِكَ مِنْكَ وَمِنْ حِزْبِكَ القَاسِطِينَ المُحِلِّينَ، حِزْبِ الظُّلْمِ وَأَعْوَانِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. أَلَسْتَ قَاتِلَ حُجْرٍ وَأَصْحَابَهُ العَابِدِينَ المُخْبِتِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَفْظِعُونَ البِدَعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ؟ فَقَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً، مِنْ بَعْدِ مَا أَعْطَيْتَهُمُ المَوَاثِيقَ الغَلِيظَةَ وَالعُهُودَ المُؤَكَّدَةَ، جُرْأَةً عَلَى اللهِ وَاسْتِخْفَافاً بِعَهْدِهِ، أَوَلَسْتَ بِقَاتِلِ عَمْرِو بْنِ الحَمِقِ الَّذِي أَخْلَقَتْ وَأَبْلَتْ

(١) سورة الرّوم / ٦٠.

وَجْهَهُ العِبَادَةُ؟ فَقَتَلْتَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَعْطَيْتَهُ مِنَ العُهُودِ مَا لَـوْ فَهِمَتْـهُ العُصْـمُ[1] لَنَزَلَـتْ مِـنْ شَعَفِ[2] الجِبَالِ. أَوَلَسْتَ المُدَّعِي زِيَاداً فِي الإِسْلامِ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ؟ وَقَـدْ قَضَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله، أَنَّ الوَلَدَ لِلْفِرَاشِ ولِلْعَاهِرِ الحَجَرُ، ثُمَّ سَـلَّطْتَهُ عَـلَى أَهْـلِ الإِسْـلامِ يَقْـتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ وَيَصْلِبُهُمْ عَلَى جُذُوعِ النَّخْـلِ! سُـبْحَانَ اللهِ يَـا مُعَاوِيَـةُ، لَكَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ!! أَوَلَسْتَ قَاتِلَ الحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ إِلَيْكَ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ؟ وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ ابْنِ عَمِّهِ صلى الله عليه وآله الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّـذِي أَنْـتَ فِيـهِ، وَلَوْلا ذَلِكَ كَانَ أَفْضَلُ شَرَفِكَ وَشَرَفِ آبَائِـكَ تَجَشُّـمَ الـرِّحْلَتَيْنِ، رِحْلَـةَ الشِّـتَاءِ وَالصَّـيْفِ، فَوَضَعَهَا اللهُ عَنْكُمْ بِنَا، مِنَّةً عَلَيْكُم!

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: لا تَرُدَّ هَذِهِ الأُمَّةَ فِي فِتْنَةٍ، وَإِنِّي لا أَعْلَمُ فِتْنَةً لَهَا أَعْظَمَ مِنْ إِمَارَتِكَ عَلَيْهَا.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظُرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَلأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَعْـرِفُ أَفْضَـلَ مِنْ جِهَادِكَ (أي: قتالك)، فَإِنْ أَفْعَـلْ، فَإِنَّـهُ قُرْبَـةٌ إِلَى رَبِّي، وَإِنْ لَمْ أَفْعَـلْ، فَأَسْـتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ لِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: مَتَى تَكِدْنِي أَكِدْكَ، فَكِدْنِي يَا مُعَاوِيَةُ فِيمَا بَـدَا لَـكَ، فَلَعَمْـرِي لَقَدِيماً يُكَادُ الصَّـالِحُونَ، وَإِنِّي لأَرْجُـو أَنْ لا تَضُرَّ إِلاَّ نَفْسَـكَ، وَلا تَمْحَـقُ إِلاَّ عَمَلَـكَ، فَكِدْنِي مَا بَدَا لَكَ!

«وَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ!، وَاعْلَمْ إِنَّ للهِ كِتَاباً لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَـاهَا!

---

(١) العُصْمُ [جمع أَعْصَم] وهو: الظَّبي في ذراعيه أو في إحداهما بياضٌ وسائره أسود أو أحمر. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: بل هو في مطلق الحيوانات كما هو ظاهر كلام ابن الأثير في لسان العرب ١٢/ ٤٠٥.

(٢) «الشَّعَفَة» بالتّحريك: رأس الجبل. وشَعَفَةُ كُلِّ شيءٍ: أعلاه، وجمعه: «شعف» محرّكا في النّص. (المؤلِّف رحمه الله)

وَاعْلَمْ إنَّ اللهَ لَيْسَ بِنَاسٍ لَكَ قَتْلَكَ بِالظِّنَّةِ وَأَخْذَكَ بِالتُّهْمَةِ، وَإمَارَتَكَ صَبِيّاً يَشْرَبُ الشَّرَابَ وَيَلْعَبُ بِالْكِلابِ!! مَا أَرَاكَ إلاَّ وَقَدْ أَوْبَقْتَ نَفْسَكَ، وَأَهْلَكْتَ دِينَكَ، وَأَضَعْتَ الرَّعِيَّةَ، وَالسَّلامُ»[1].

ثم قدم معاوية بعد ذلك إلى المدينة، ومعه خلقٌ كثير من أهل الشّام عدَّهم ابن الأثير بألف فارس، قال: «ثم دخل على عائشة، وكان قد بلغها أنَّه ذكر الحسين وأصحابه وقال: لأقتلنَّهم إن لم يبايعوا.. فقالت له فيما قالت: وارْفُقْ بهم فإنَّهم يصيرون إلى ما تحبُّ، إن شاء الله!![2]»[3].

وقال الدِّينَوَرِيُّ[4] بعد ذكره ورود معاوية إلى المدينة: «ثمَّ جلس معاويةُ صبيحةَ اليوم الثَّاني، وأجلس كُتّابه بحيث يسمعون ما يأمر به، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحدٍ من النَّاس وإن قَرُب. ثمَّ أرسل إلى الحسين بن عليٍّ وعبد الله بن عبَّاس، فسبق ابن عبَّاس، فأجلسه عن يساره، وشاغله بالحديث حتى أقبل الحسينُ ودخل، فأجلسه عن يمينه، وسأله عن حال بني الحسن (!!) وأسنانهم، فأخبره.

ثمَّ خطب معاوية خُطبة أثنى فيها على الله ورسوله وذكر الشَّيخين وعثمان، ثم ذكر أمر يزيد، وأنّه يُحاول ببيعته سَدَّ خلل الرَّعية!، وذكر علمه بالقرآن والسُّنة!، واتِّصافه بالحِلم!، وأنّه يفوقهما سياسةً ومُناظرةً! وإن كانا أكبر منه سِنّاً[5]، وأفضل

---

(١) ابن قتيبة (ج ١ ص ٦٣ ـ ٦٥) [الإمامة والسِّياسة ١/ ١٥١ـ١٥٧] (المؤلِّف)

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٥٠٨ و ٥٠٩.

(٣) أقول: ولنا أن نفهم من هذه اللُّغة أنّ أمّ المؤمنين نفسها كانت قد صارت إلى ما يحبّ معاوية من البيعة ليزيد!! (المؤلِّف)

(٤) (ج ١ ص ١٦٨ ـ ١٧٢) [الإمامة والسّياسة ١/ ١٥٩ـ].

(٥) سبق أنّ معاوية كان يحتجّ على الحسن بكبر سنِّه، [مرّ في الصَّفحة / ١٦٧] ولم تكن له حجَّة غيرها على استحقاقه الخلافة دونه. فما لهذه الباء لا تجرّ هنا؟!! (المؤلِّف)

قرابةً. واستشهد بتولية النّبيّ صلى الله عليه وآله عمرو بن العاص في غزوة ذات السّلاسل، على أبي بكر وعمر وأكابر الصَّحابة، ثم استجابهما عمّا ذكر».

قال: «فتهيّأ ابن عبّاس للكلام، فقال لـه الحسين: «**عَلَى رِسْلِكَ، فَأَنَا المُرَادُ**[1]، **وَنَصِيبي في التُّهْمَةِ أَوْفَرُ**»

وقام الحسين، فحمد الله تعالى وصلّى على الرّسول صلى الله عليه وآله وقال:

«**أمّا بَعْدُ ـ يا مُعَاوِيَةُ ـ، فَلَنْ يُؤدِّي القَائِلُ وَإنْ أطْنَبَ فِي صِفَةِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وآله مِنْ جَميعٍ جُزْءاً، وَقَدْ فَهِمْتُ ما لَبِسْتَ بِهِ الخُلَفَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ**[2] **مِنْ إيجازِ الصِّفَةِ وَالتَّنَكُّبِ عَنِ اسْتِبْلاغِ البَيْعَةِ، وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ يا مُعاوِيَةُ! فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجى، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ أَنْوارَ السُّرُجِ، وَلَقَدْ فَضَّلْتَ حَتّى أَفْرَطْتَ، وَأسْتَأْثَرْتَ حَتّى أَجْحَفْتَ، وَمَنَعْتَ حَتّى مَحِلْتَ، وَجُزْتَ حَتّى جاوَزْتَ، ما بَذَلْتَ لِذي حَقٍّ مِنِ إسْمِ حَقِّهِ بِنَصيبٍ حَتّى أَخَذَ الشَّيْطانُ حَظَّهُ الأوْفَرَ**[3]**، وَنَصيبَهُ الأكْمَلَ.**

وَفَهِمْتُ ما ذَكَرْتَهُ عَنْ يَزيدَ مِنِ اكْتِمالِهِ وَسِياسَتِهِ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ، تُريدُ أَنْ تُوهِمَ النّاسَ في يَزيدَ، كَأَنَّكَ تَصِفُ مَحْجُوباً، أَوْ تَنْعِتُ غائِباً، أَوْ تُخْبِرُ عَمّا كانَ مِمّا احْتَوَيْتَهُ بِعِلْمٍ خاصٍّ، وَقَدْ دَلَّ يَزيدُ مِنْ نَفْسِهِ عَلى مَوْقِعِ رَأْيِهِ، فَخُذْ لِيَزيدَ فيما أَخَذَ بِهِ مِنَ اسْتِقْرائِهِ الْكِلابَ المُهارِشَةَ عِنْدَ التَّحارُشِ، وَالحَمامَ السُّبَّقَ لأِتْرابِهِنَّ، وَالقِيانَ ذَواتِ المَعازِفِ، وَضَربِ المَلاهي، تَجِدُهُ باصِراً.

وَدَعْ عَنْكَ ما تُحاوِلُ، فَما أَغْناكَ أَنْ تَلْقَى اللهَ مِنْ وِزْرِ هَذا الخَلْقِ بِأَكْثَرَ مِمّا أَنْتَ

---

(١) لأنّه هو صاحب الحقّ بالخلافة بعد الحسن، كما نصّ عليه جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله أوّلاً، وكما نصّت عليه معاهدة الصُّلح ثانياً. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) يشير إلى إعراضه عن ذكر أمير المؤمنين عليه السلام فيمن ذكره بعد رسول الله صلى الله عليه وآله. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) يريد أنّ هذا الإجحاف المقصود كان هو منية الشّيطان في تأريخ الخلاف.. (المؤلِّف رحمه الله)

لاقيهِ، فَوَالله! مَا بَرِحْتَ تَقْدَحُ بَاطِلاً في جَوْرٍ، وَحَنَقاً فِي ظُلْمٍ، حَتّى مَلأْتَ الأَسْقِيَةَ، وَما بَيْنَكَ وَبَيْنَ المَوْتِ إِلاّ غَمْضَةٌ، فَتَقْدِمَ عَلى عَمَلٍ مَحْفُوظٍ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ..

«وَذَكَرْتَ قِيادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَأْميرَهُ لَهُ، وَقَدْ كانَ ذلِكَ وَلِعَمْرِو بْنِ الْعاصِ يَوْمَئِذٍ فَضِيلَةٌ بِصُحْبَةِ الرَّسُولِ، وَبَيْعَتِهِ لَهُ، وَمَا صَارَ ـ لَعَمْرُ الله! ـ يَوْمَئِذٍ مَبْعَثُهُمْ حَتَّى أَنِفَ الْقَوْمُ إِمْرَتَهُ، وَكَرِهُوا تَقْديمَهُ، وَعَدُّوا عَلَيْهِ أَفْعالَهُ، فَقالَ ﷺ: لا جَرَمَ مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ لا يَعْمَلُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ اليَوْمَ غَيرِي، فَكَيْفَ تَحْتَجُّ بِالْمَنْسُوخِ مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ فِي أَوْكَدِ الأَحْكامِ وَأَوْلاهَا بِالمُجْتَمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوابِ؟ أَمْ كَيْفَ صاحَبْتَ بِصاحِبٍ تَابِعاً وَحَوْلَكَ مَنْ لا يُؤْمَنُ فِي صُحْبَتِهِ، وَلا يُعْتَمَدُ فِي دِينِهِ وَقَرابَتِهِ، وَتَتَخَطّاهُمْ إِلى مُسْرِف مَفْتُون تُريدُ أَنْ تُلْبِسَ النّاسَ شُبْهَةً يَسْعَدُ بِهَا الْباقي فِي دُنْياهُ، وَتَشقى بِهَا فِي آخِرَتِكَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.».

قال: «فنظر معاوية إلى ابن عبَّاس، فقال: ما هذا يا ابن عبَّاس؟ ولما عندك أدهى وأمرّ! فقال ابن عبَّاس: لعمر الله، إنّه لذرّية الرّسول، وأحد أصحاب الكساء، ومن البيت المطهّر فَالْهُ عمّا تُريد، فإنَّ لك في النّاس مقنعاً، حتى يحكم الله بأمره، وهو خير الحاكمين.

ثمّ خرج معاوية إلى مكّة كما يحدّثنا ابن الأثير وغيره من المؤرّخين[1]، قال: «وسبقه الحسين بن عليٍّ وعبد الله بن الزّبير وعبد الرّحمن بن أبي بكر وابن عمر إليها. ولمّا كان آخر أيّامه بمكّة، أحضر هؤلاء... وقال لهم: إنّي أحببت أن أتقدّم إليكم، إنّه قد أعذر من أنذر، إني كنت أخطب فيكم، فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذّبني على رؤوس النّاس، فأحمل ذلك وأصفح. وإنّي قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردّ عليَّ أحدكم كلمة

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٥١٠، البداية والنهاية ٨/ ٨٦، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٣٤٢.

في مقامي هذا، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها حتى يسبقها السَّيفُ إلى رأسه، فلا يُبْقِينَّ رجلٌ إلاَّ على نفسه!

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كلِّ رجل من هؤلاء رجلين، ومع كلِّ واحدٍ سيف، فإن ذهب رجلٌ منهم يَرُدّ عليَّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما!!

ثمّ خرج وخرجوا معه، حتى أتى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنّ هؤلاء الرّهط سادة المسلمين وخيارهم، لا يُبتزّ أمرٌ دونهم، ولا يقضى إلاّ عن مشورتهم، وإنَّهم قد رضوا وبايعوا يزيد!! فبايعوا على اسم الله! فبايع النّاس. انتهى مُلخَّصاً.

وولدت هذه البيعة البغيضة ولكن بعد إعسار شديد، لم تنجع فيه إلاَّ السّيوف المشهورة على رؤوس الرِّجال، فإذا هي بنتُ مؤامرات ومناورات وإرهاب!

وإذا كانت هذه هي خلافة الإسلام، فعلى الإسلام السّلام.

وأخرج البخاريُّ في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«مَا مِنْ والٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ فَيَمُوتُ وهْوَ غَاشٌّ لهُمْ، إلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ»**[1].

٣) الوَفَاءُ بالشّرط الثّالث[2]

قال ابن الأثير: «إنَّ معاوية كان إذا قَنَت سبَّ عليّاً وابن عبّاس والحسن والحسين والأشتر»[3]. ونقل أبو عثمان الجاحظ في كتاب «الرّد على الإماميَّة»: «إنّ معاوية كان

---

(١) صحيح البُخاري ٨/ ١٠٧.

(٢) وهو: أن يترك سبَّ أمير المؤمنين عليه السلام والقنوت عليه بالصّلاة، وأن لا يذكره إلاَّ بخير.

(٣) «النَّصائح الكافية» لابن عقيل (ص ١٩ ـ ٢٠) [/ ٩٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: أيضاً أنظر: الكامل في التاريخ ٣/ ٣٣٣، المحلّى لابن حزم ٤/ ١٤٥، المصنّف للصّنعاني ٣/ ١٠٧، تاريخ الطّبري ٤/ ٥٢، تنقيح التحقيق في أحاديث التَّعليق للذّهبي ١/ ٢٤٧، تاريخ ⇦

يقول في آخر خطبته: اللَّهُمّ إنّ أبا تراب ـ يعني عليّاً ـ ألحَدَ في دينك، وصدَّ عن سبيلك، فالعنه لَعْناً وبيلاً وعذِّبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشَاد بها على المنابر»[1].

وقيل لمروان: «ما لكم تَسُبُّونه على المنابر؟» فقال: «لا يَستقيمُ لنا الأمر إلاّ بذلك!!»[2]..

وكان من مجهود معاوية في هذا السَّبيل ما طفحت به السِّير والتَّواريخ. وهو ـ على هذا ـ أوّل من سنَّ الجهر بسبِّ صحابة الرَّسول، وأوّل من فتح هذا الباب على مِصْرَاعَيه لمن جاء من بعده، ولا نعرف أنّ أحداً سبقه إلى مثل هذا، اللَّهُمّ إلاّ ما كان من عائشة يوم قالت: «أقتُلوا نَعثلاً فقد كفر!! »[3]، ثمَّ لا نعهد في علماء المسلمين من حكم على عائشة بالكفر، ولا على معاوية بالمُروق من الدِّين، لأنَّهما استباحا سَبَّ الصَّحابة، أو لأنَّهما أوغلا في السَّبِّ حتى عمدا إلى التَّكفير. وممَّا لا شَكَّ فيه أنّ حكم الأمثال واحدٌ لا يختلف مع الزَّمان، ولذلك، فإنَّا لا نجد مَساغاً إلى الحُكم على من نال من معاوية أو نال من صحابيٍّ آخر، إلاّ بما حكم به علماءُ المسلمين على معاوية وعائشة في نيلهما من عليٍّ وعثمان، لا أقلّ ولا أكثر.

وأمّا الأثر المزعوم القائل: «بأيِّهم اقتديتم اهتديتم»[4]، فقد خُصَّ حتى سقط عمومه

⇦

بن خلدون ٢/ ١٧٨،

(١) «النَّصائح الكافية» لابن عقيل (ص ١٩ ـ ٢٠) [/٩٦، وفي شرح النَّهج لابن أبي الحديد ٤/ ٥٦]. (المؤلِّف ﷺ)

(٢) العثمانيّة للجاحظ / ٢٨٣، شرح النَّهج لابن أبي الحديد ١٣/ ٢٢٠.

(٣) شرح النَّهج لابن أبي الحديد ٦/ ٢١٥، تاريخ الطَّبري ٣/ ٤٧٧، الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٠٦، الإمامة والسّياسة ١/ ٥١، الفتوح لابن أعثم ٢/ ٤٢١.

(٤) عدَّ غير واحد من علماء العامّة هذا الحديث من الموضوعات، منهم: علي بن محمد الكناني في

⇦

عن الحُجِّية، وإلاّ لكان السّبَّابون للصَّحابة من الصّحابة أولى بالعمل به. ولو كفّ معاوية لسانه عن النُّجوم من آل محمَّد صلى الله عليه وآله الّذين كان عليه أن يقتدي بهم ليهتدي، لكفَّ النّاس ألسنتهم عنه وعن أمثاله من الظالمين، ولماتت النعرات ولتم الصُّلح بصلاح المسلمين.

ولكنّها كانت البذرة الخبيثة الّتي زرعها الرَّجل عامداً، ثم تعاهدها هو وذوُوه بالتَّغذية والسَّقي، فإذا بها شجرة العوسج في تاريخ الإسلام، استغفلوا بها البُسطاء ولبسوا بها على عقول الجهلاء، وجعلوا من السُّبة في التّاريخ «سُنّة» في المسلمين،

⇦

تنزيه الشَّريعة المرفوعة عن الأخبار الشَّنيعة الموضوعة ١/ ٤١٩، والـذَّهبيُّ في ميـزان الإعتـدال ١/ ٨٢، وابن حجر في لسان الميزان ١/ ١٣٦، ومنهم ابن حزم في كتابه الإحكام ٦/ ٨١٠، قال: «وأمّا ما يُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وآله: أصحابي كالنُّجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم، فهـذا كـلام لا يصـحّ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله، ... فقد ظهر أنّ هذه الرّواية لا تثبت أصلاً، بـلا شـكٍّ أنهـا مكذوبـة، لأنّ الله تعالى يقول في صـفة نبيّـه صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [سـورة الـنجم / ٣ـ٤،] فإذا كان كلامه عليه السلام في الشّريعة حقّاً كلّه، فهو من الله تعالى بلا شك، وما كـان من الله تعالى فلا اختلاف فيـه، بقولـه تعـالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء / ٨٢]. وقد نهى تعالى عن التفرّق والإختلاف بقوله: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ [سـورة الأنفـال / ٤٦] فمن المحال أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله باتّباع كلّ قائل من الصّحابة رضي الله عنهم، وفيهم مـن يحلِّل الشّئ، وغيره منهم يحرّمه، ولو كان ذلك لكان بيع الخمر حـلالاً اقتـداء بسـمرة بـن جنـدب، ولكان أكل البرد للصّائم حلالاً اقتداء بأبي طلحة، وحراماً اقتداء بغيره منهم، ولكان ترك الغسل من الاكسال واجباً اقتداء بعليّ وعثمان وطلحة وأبي أيوب وأبي بن كعب، وحرامـاً اقتـداء بعائشـة وابـن عمر، ولكان بيع الثمر قبل ظهور الطيب فيها حلالاً قتداء بعمر، حراماً اقتداء بغيره منهم، وكلّ هذا مرويّ عندنا بالأسانيد الصحيحة، تركناهـا خـوف التطويـل بهـا،... وقـد كـان الصّـحابة يقولـون بآرائهم في عصره صلى الله عليه وآله، فيبلغه ذلك فيصوّب المصيب ويخطّئ المخطئ، فذلك بعد موته صلى الله عليه وآله أفشى وأكثر» ثمّ أطال الطلام في بيان كذب الحديث من عدّة وجوه. أيضاً حَكَمَ بوضع الحـديث بمختلـف طُرُقِه وألفاظه، الألبانيُّ في سِلْسِلة الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة ١/ ١٤٤.

يتنادون عليها، ويحتفلون بها، ويحتجُّون[1] على تركها إذا تركت!!

وما لمعاوية فيما قَدَّم لنفسه من هذه الباقيات من عذرٍ يُرجى، ولا فيما أخّر لتاريخه من مجدٍ يحسد عليه أو يُطرى. وإذا كان الدَّهاءُ هو فشل الإنسان فيما قدّم وفيما أخّر، فمعاوية أدهى الدُّهَاة!

وكان من أروع مظاهر الدَّهاء فيه موقفه من صلح الحسن عليه السلام بما جرَّ عليه هذا الصُّلح من ويلات معنويّة ونكَبَات تاريخيَّة في حياته وبعد مماته!!

وكان معنى الصُّلح في مفهوم النَّاس، وأعني الصُّلح الّذي لجَّ هو في تحصيله حتى أقام الدُّنيا وأقعدها ـ هو أن يُحطِّم السِّنان وأن يكمَّ اللّسان وأن يكون كلٌّ وشأنه. وفق الحدود الّتي ستقرِّرُها المعاهدة فيما يتّفق عليه الفريقان. وجاءت المادّة الثّالثة من اتفاقيتهما، وهي صريحة بوجوب الكفّ عن السّب، فكان على معاوية أن يكفّ، لو أنه أراد الصُّلح حقيقة، أو أراد الوفاء بالشّروط كما يفرضه الذّمام والعهد والأيمان.

ولكنّ الرجل لم يطلب الصُّلح إلاّ ليسرح الجنود، وليأمن غائلة حربه مع الحسن ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما أشير إليه ـ ، لم يشأ أن يرجع في صلحه إلى التزام المقرّرات، أو الإكتراث بالمعاهدات، فوقَّع الصُّلح ولكنّه إنما وقّعه حِبراً على ورق، وحَلَفَ الأيمان وأعطى المواثيق ولكنَّه أرسلها إرسالاً لا يتحسَّسُ من ورائه ذِمةً ولا سُؤالاً. وجاء الكوفة، وسبق إلى منبرها فذكر عليّاً ونال منه، ثم نال من الحسن، فقام الحسين ليردّ عليه، فأخذ الحسنُ بيده فأجلسه، ثمَّ قام فقال ما شاء أن يقول من أسلوب حكيم، ودعوة حقٍّ إلى صراط مستقيم.. ـ وقد مرّت خطبة الحسن بطولها وما قاله معاوية قبلها في الفصل (١٨) ـ.

---

(١) سبق في الفصل (١٤) زيادة توضيح للبحث مع ذكر المصادر بأرقامها [أنظر الصّفحة / ٣٦٢ من هذا الكتاب]. (المؤلِّف رحمه الله)

وكان فيما هتف النّاس به للحسن على خطابه وجوابه، ما لم يرض له معاوية، وهو إذ ذاك لا يزال ثَمِلاً بخمرة الإنتصار الموهوم، فرأى أن يُنظِّم حملَةً جديدة لتربيب الخلق الّذي لا يُحسد عليه ـ خُلُق السّباب والشّتم والطّعن في النّاس ـ، رَغم أنّ المثاليّة الإسلاميّة تُناقِضُ هذا الخلق وتنكره على النَّاس وتدعوهم إلى التَّراحم والتَّحابب والأُخُوَّة في الدِّين، وتقول فيما تقول: «لا يكون المؤمنُ سَبَّاباً ولا فَحَّاشاً ولا طَعَّاناً ولا لَعَّاناً»[1].

«فقال أبو الحسن عليُّ بن محمَّد بن أبي يوسف المدائني في كتاب الأحداث: كتب معاوية نسخةً واحدةً بعد عام الجماعة، أن برئت الذِّمَّة ممَّن روى شيئاً من فضل أبي تُراب ـ يعني علياًعليه السلام ـ وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كُورَةٍ وعلى كلِّ مِنبر، يلعنون عَليّاً ويبرؤون منه، ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدَّ النّاس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة عليٍّعليه السلام»[2].

ودعا المُغيرَة بن شُعْبَة وهو يريد أن يستعمله على الكوفة ـ بعد الصُّلح ـ فقال له: أمَّا بعد، فإنّ لذي الحِلمِ قبلَ اليومِ ما تُقْرَعُ العصا ، ولا يجزي عنك الحليم بغير التَّعليم، وقد أردت إيصاءَك بأشياء كثيرةٍ، أنَا تاركها، اعتماداً على بصرك. ولست تاركاً ايصاءك بخصلةٍ واحدة، لا تترك شتم عليٍّ وذمَّه!!»[3].

ثم خَلَفَ المغيرةَ على الكوفة زِيَادٌ «فكان يجمع النَّاس بباب قصره يحرِّضُهم على لعن عليٍّ، فمن أبى عَرَضَهُ على السَّيف!!»[4].

وأما في البصرة، فإنّه استعمل عليها بُسرَ بن أرطاة «فكان يخطب على منبرها

---

(١) ورد ما بمعناه في بعض الأحاديث الشّريفة.

(٢) ابن ابي الحديد (ج ٣ ص ١٥) [١١/ ٤٤]. (المؤلّف)

(٣) ابن الاثير (ج ٣ ص ١٨٧) [٣/ ٤٧٢]، والطبري (ج ٦ ص ١٤١) [٤/ ١٨٨]. (المؤلّف)

(٤) المسعودي (هامش ابن الاثير ج ٦ ص ٩٩) [مروج الذّهب ٣/ ٢٦]. (المؤلّف)

فيشتم عليّاً، ويقول: ناشدت اللهَ رَجُلاً علم اني صادق إلاَّ صدّقني أو كاذبٌ إلاّ كذّبني». قال الطَّبريُّ في تاريخه: «فقال له أبو بكرة: اللّهُمَّ إنّا لا نعلمك إلاَّ كاذباً! قال: فأمر به فخنق، ثم أنقذوه منه!!»[1].

وأمّا في المدينة، وواليه عليها مَرْوَان بن الحَكَم، فكان لا يدع سبَّ عليٍّ عليه السلام على المنبر كُلَّ جُمُعَة. قال ابن حَجَر المكّي: «وكان الحسن يعلم ذلك ولا يدخل المسجد إلاَّ عند الإقامة، فلم يرضَ بذلك مروان، حتى أرسل إلى الحسن في بيته بالسَّبِّ البليغ لأبيه وله!!»[2].

«ولمَّا حَجَّ معاوية ـ بعد الصُّلح ـ طاف بالبيت ومعه سعد بن أبي وقاص، فلمَّا فرغ انصرف معاوية إلى دار النَّدوة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في عليٍّ وشرع في سبِّه، فزحف سعد، ثم قال: أجلستني معك على سريرك ثم شرعت في سبِّ عليٍّ! والله لأنْ يكون فيَّ خِصلةٌ واحدةٌ من خصالٍ كانت لعليٍّ أحبّ اليَّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشّمس! والله لأن أكون صِهر الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، لي من الولد ما لعليٍّ، أحبّ اليَّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشَّمس! والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ما قاله يوم خيبر: «**لأُعْطِينَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه، لَيْسَ بِفَرَّارٍ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ**»، أحبّ إليَّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشَّمس! والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ما قاله له في غزوة تبوك: «**ألا تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بمنزلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إلاَّ أنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي**»، أحبّ إليَّ من أن يكون لي ما طلعت عليه الشّمس! وأيم الله لا دخلتُ لك داراً ما بقيتُ»[3].

---

(١) الطبري (ج ٦ ص ٩٦) [٤/ ١٢٨] وابن الاثير (ج ٣ ص ١٠٥) [٣/ ٤١٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) يراجع النصائح الكافية (ص ٧٣ الطبعة الاولى) [/ ١٠١]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) المسعودي (هامش ابن الاثير ج ٦ ص ٨١ ـ ٨٢) [مروج الذهب ٣/ ١٤]. (المؤلِّف رحمه الله)

وروى المسعوديُّ من جواب معاوية لسعد، ما نربأ بقلمنا عن التَّصريح به لقبحه، ولكنَّه على كُلِّ حالٍ دليل جديد على مبلغ إسفاف الرَّجل في خلقه وفي آدابه وفي مجاملاته..

٤) الوَفاءُ بالشَّرط الرَّابع[١]

قال الطَّبريُّ (ج ٦ ص ٩٥): «وحَالَ أهلُ البصرة بينه ـ يعني بين الحسن ـ وبين خَراج دَارابجِرد، وقالوا: فيئُنا»[٢].

وقال ابن الأثير (ج ٣ ص ١٦٢): «وكان منعُهم ـ يعني منع أهل البصرة ـ بأمر من معاوية أيضاً!!»[٣].

٥) الوَفاءُ بالشَّرط الخامس

وكان الشَّرط ـ كما علمت ـ هو العهد بالأمان العام، والأمان لشيعة عليٍّ على الخصوص، وأن لا يَبغي للحسنين عليهما السلام وأهل بيتهما غائلةً سِرَّاً ولا جهراً.

وللمؤرِّخين فيما يرجع إلى موضوع هذا الشَّرط نصوصٌ كثيرة، بعضها وصف للكوارث الدّاجية[٤] الّتي جُوبِهِ بها الشِّيعة من الحكّام الأمويين في عهد معاوية، وبعضها قضايا فرديَّة فيما نَكَب به معاوية الشّخصيَّات الممتازة من أصحاب أمير المؤمنين، وبعضها خيانته تجاه الحسن والحسين خاصَّة. وليكن عرضنا لهذه النُّصوص هنا على التَّرتيب المذكور أيضاً.

---

(١) وهو: تخصيص ألف ألف (مليون) درهم من خراج دَارابجِرْد لتُفَرَّق في أولاد من قُتِل مع أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) تاريخ الطّبري ٤/ ١٢٦.

(٣) الكامل في التّاريخ ٣/ ٤٠٥.

(٤) أي: المُظْلِمة.

مُعَاوِيَةُ وَشِيعَةُ عَلِيٍّ عليه السلام(١)

(١) ما يذكره المؤلِّف في هذا الفصل هو المشهور بين المؤرِّخين، وهناك من يخالف هذا الرّأي مثل المحقِّق الجليل السيِّد سامي البدري في كتابه: الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الإنشقاق الأموي / ١١٤ فيقول:

«هناك جملة من الرِّوايات التاريخيّة وهي الّتي استندت إليها الرؤية السّائدة والمشهورة، تصوِّر لنا أنَّ معاوية دخل الكوفة وأخذ البيعة من النّاس، ثمَّ خطب فيهم بحضور الحسن والحسين ووجوه أصحابهم وأعلن لهم أنَّ كلَّ شرطٍ اشترطه الحسن فهو مردود، ثمَّ تناول عليّاً بالطَّعن وأمر ولاته بذلك... ثمَّ تتابعت سياسة ترويع الشِّيعة وتهجيرهم وسجنهم.

غير أنَّ هذه الرِّوايات على فرض صحّة سندها تواجهها عدّة قضايا:

١. إنَّ تهجير خمس وعشرين ألفاً من الكوفة ومثلهم من البصرة إنّما كان بعد سنة خمسين، أي بعد عشر سنوات من الصُّلح، أي بعد وفاة الحسن عليه السلام.

٢. قَتلُ حُجر بن عديّ وأصحابه إنما تمَّ بعد عشر سنوات من الصُّلح، أي بعد وفاة الحسن عليه السلام.

٣. إعادة لعن عليٍّ إلى المجتمع إنما تمّ بعد عشر سنوات من الصُّلح، أي بعد وفاة الحسن عليه السلام، كما تفيد روايات امتناع سعد عن لعن عليٍّ.

روى ابن عبد ربّه قال: ولما مات الحسنُ بن عليٍّ، حجَّ معاوية، فدخل المدينة، وأراد أن يَلعن عليّاً على منبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. فقيل له: إنَّ هاهنا سعد بن أبي وقّاص: ولا نراه يرضى بهذا، فابعث إليه وخُذ رأيه، فأرسل إليه وذكر له ذلك. فقال: إنْ فعلت لأخرُجن من المسجد، ثمَّ لا أعود إليه، فأمسك معاويةُ عن لعنه حتى مات سعد. فلمّا مات لعنه على المنبر، وكتب إلى عمّاله أن يَلعنوه على المنابر، ففعلوا. فكتبت أمُّ سَلمة زوج النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى معاوية: إنّكم تَلعنون الله ورسولَه على منابركم، وذلك أنّكم تلعنون عليَّ بن أبي طالب، ومن أحبَّه، وأنا أشهد أنَّ الله أحبَّه، ورسولَه، فلم يلتفت إلى كلامها. [العقد الفريد ٥/ ١١٤] ومن المعلوم أنَّ وفاة سعد كانت بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام وفي السَّنة نفسها سنة ٥١ هـ.

ويؤيِّد ذلك رواية المسعودي أنَّ زياداً جمع النّاس بالكوفة بباب قصره يحرِّضهم على لعن عليٍّ فمن أبى ذلك عرضه على السَّيف. [مروج الذَّهب ٣/ ٢٦] ومن المعلوم أنَّ ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٥١ بعد موت المغيرة بن شعبة.

٤. استضافة معاوية للشخصيات العراقية وحواراته معهم وذكر سيرة عليٍّ عليه السلام وترحمه عليه لا ⇦

كانت السّياسة الأمويّة الّتي وضعها معاوية ثم تبعه عليها الأمراءُ الأمويُّون من بعده، هي أن يخلقوا من أنفسهم سادةً يستأثرون بكلِّ مَحْمَدةٍ في النّاس، فما الكرم ولا الحِلم ولا الدَّهاء ولا الشَّجاعة ولا الفصاحة إلاّ بعض هِباتهم الخاصَّة الّتي احتجزوها من دون النّاس جميعاً، وقد وضعوا في سبيل تركيز هذه السِّياسة المتعمَّدة، التَّاريخ الزَّائف الّذي ظلَّ يفيض بسلسلة من الأحاديث الموضوعة، والقصص المصطنعة، والأكاذيب المنوّعة، والإدّعاء الفارغ، وأمروا الوُعّاظ المأجورين، ومعلِّمي الكتاتيب في سائر بلدان المملكة الإسلاميَّة، بدراسة الأمالي الأمويّة بما فيها من مدحٍ زائفٍ أو قدحٍ كاذب، وعملوا كلَّ ما كان بوسعهم أن يعملوه ليُثيروا في قلوب النَّاشئة من أولاد النّاس الغرور بحبّهم، والإنقياد المطلق لدهائهم، فإذا بهذه النَّاشئة بعد لأيٍ جنود لأميَّةَ يتخاصمون بدمائهم البريئة لأهدافها، وإذا بسيول الدِّماء تصبغ بقاع الأرض لتستقيم صفوفُ الخَدَم والحشم والوُكلاء والمقدِّمين في بلاد الأسياد المتغلِّبين.

ولم يكن ثمَّةَ هدفٌ آخر غير هدف الإستئثار بالسِّيادة والملك والثَّراء واللَّذّات الدّنيوية الرّخيصة، وهو ما كان يضيق به المعنيّون بدينهم من آل محمَّدٍ عليهم السلام، ومن المسلِمين الثَّابتين على الإخلاص لله في إسلاميَّتهم، ومن هنا كان مبعث الشّقاق

⇦

ينسجم مع حالة الإعلام السّلبي ضدّه، إلاّ بافتراض أنَّ الأوَّل كان في سنوات الصُّلح قبل وفاة الحسن عليه السلام والثّاني بعد موته عليه السلام .

٥. غاية ما كان يحلم به معاوية هو التمتّع بحُكم الشّام وأن لا يضايقه عليها أمير المؤمنين عليٌّ ولا ابنه الحسن عليه السلام بعده، وحين عرض عليه الحسن الصُّلح كان على معاوية إظهار الإنفتاح على عليٍّ وشيعته والوفاء بالعهود، ليتم له حكم البلاد كلّها، وبغير ذلك فإنّ الحسن وشيعته قادرون على الدّفاع عن أنفسهم واستعادة سلطانهم في العراق.» انتهى

هذا كلامه نقلناه بتصرُّف يسير، ثمّ ذكر شواهد على ذلك من خلال بعض النّصوص التّاريخيّة .

المتواصل الحلقات بين هذه الطّبقة من أموية الإسلام، وتلك الفئة من حملة تراث الإسلام ودعاته المخلصين.

جاء في تاريخ الطَّبريّ (ج ٧ ص ١٠٤) استطرادٌ مقتضبٌ يرفعه إلى زيد بن أنس عن الوضع العام الّذي كان يَرْزَحُ[1] تحته معاشر الشِّيعة في أيّام معاوية، وكان فيما يقوله أحدُهم وهو يخاطبهم: «إنّكم كنتم تُقتَلون وتُقطَّع أيديكم وأرجلكم وتُسمَل أعينكم وتُرفعون على جذوع النّخل في حبِّ أهل بيت نبيّكم وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوِّكم!!»[2].

والحديث على اقتضابه تفصيلٌ غريب ومعرض رهيبٌ لم يحدِّثنا المسعوديُّ إلاَّ بطرف منه فيما نقلناه عنه قريباً.

أمّا المدائنيّ المتوفَّى سنة ٢٢٥، وسُلَيم بن قيس المتوفَّى سنة ٧٠، فإنَّهما عرضا صورةً كاملة من هذه المَعَارض الرَّهيبة والمآسي الكئيبة، وكان سُليم بن قيسٍ أحد شهودها المروّعين بها، لأنَّه عاش معاصراً لمعاوية ومات بعده بعشر سنين، ولا شاهد كشاهد عيان، ولذلك فلنُؤثِر لفظه، وإن كان المدائنيُّ يكاد لا يختلف عنه في قليل ولا كثير، قال:

«قدم معاوية حاجّاً ـ في خلافته ـ بعدما قُتِل أمير المؤمنين وصالح الحسن.. واستقبله أهل المدينة وفيهم قيسُ بن سعد ـ وكان سيِّد الأنصار وابن سيِّدهم ـ فدار بينهما الحديث حتى انتهيا إلى (الخلافة)، فقال قيس: ولعمري ما لأحدٍ من الأنصار ولا لقريش ولا لأحد من العرب والعجم في الخلافة حقٌّ مع عليٍّ وولده من بعده».

---

(١) «يَرْزَحُ» من رَزَحَ، سقط من الإعياءِ هُزالاً؛ وقولهم رَزَحَ فلانٌ معناه ضَعُفَ وذهب ما في يده. لسان العرب ٢/ ٤٤٨.

(٢) تاريخ الطّبري ٤/ ٥٠٣.

فغضب معاويه.. ونادى مناديه وكتب بذلك نُسخةً واحدةً إلى عمّاله: ألا بَرِئت الذِّمّة ممَّن روى حديثاً في مناقب عليٍّ وأهل بيته!! وقامت الخُطباء في كُلِّ كُورةٍ ومكان على المنابر بلعن عليٍّ بن أبي طالب والبراءة منه، والوقيعة في أهل بيته، واللَّعنة لهم بما ليس فيهم. ثم إنَّ معاوية مَرَّ بحَلَقَةٍ من قريش، فلمّا رأوه قاموا إليه غير عبد الله بن عبَّاس، فقال له: يا ابن عبّاس ما منعك من القيام كما قام أصحابك؟ إلاّ لموجدة عليٍّ بقتالي إيّاكم يوم صِفِّين، يا ابن عبّاس إنَّ ابن عمِّي عثمان قُتل مظلوماً، قال ابن عبَّاس: فعُمَرُ بن الخطَّاب قد قُتل مظلوماً فسلِّم الأمر إلى ولده، وهذا ابنه، قال: إنّ عمر قتله مشركٌ، قال ابن عبَّاس: فمن قتل عثمان؟ قال: قتله المسلمون، قال: فذلك أدحضُ لحجّتك، إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلاَّ بحقٍّ، قال: فإنّا كتبنا إلى الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليٍّ وأهل بيته، فكُفَّ لسانك يا ابن عبّاس، قال: فتنهانا عن قراءة القرآن؟ قال: لا، قال: فتنهانا عن تأويله؟ قال: نعم، قال: فنقرأه ولا نسأل عمّا عنى الله به؟ قال: نعم، قال: فأيُّهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟ قال: العمل به، قال: فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟ قال: سَل عن ذلك من يتأوّله على غير ما تتأوّله أنت وأهل بيتك، قال: إنما أنزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي مُعيط؟! قال: فاقرأوا القرآن ولا تَرووا شيئاً ممَّا أنزل الله فيكم وممّا قال رسول الله، وارووا ما سوى ذلك! قال ابن عبَّاس: قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1] قال معاوية: يا ابن عبَّاس اكفني نفسك وكفَّ عنّي لسانك، وإن كنت لابدّ فاعلاً فليكن سِرّاً ولا تُسمعه أحَداً علانيةً! ـ

ثم رجع إلى منزله واشتدّ البلاء بالأمصار كلّها على شيعة عليٍّ وأهل بيته، وكان

(١) سورة التَّوبة / ٣٢.

أشدَّ النّاس بليَّة أهل الكوفة لكثرة من بها من الشِّيعة، واستعمل عليها زياداً، وجمع له العراقين، وكان يتتبَّع الشّيعة وهو بهم عالم، لأنّه كان منهم، فقتلهم تحت كلِّ كوكب، وتحت كلِّ حَجَر ومدر وأحلأهم وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل منهم، وصلبهم على جذوع النّخل، وسَمَل أعينهم، وطردهم وشرّدهم، وكتب معاوية إلى قضاته وولاته في الأمصار أن لا يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليٍّ الّذين يروون فضله ويتحدَّثون بمناقبه شهادةً!! وكتب إلى عُمَّاله: أنظروا مَنْ قِبَلكم من شيعة عثمان الّذين يروون فضله ويتحدَّثون بمناقبه فأكرموهم وشرّفوهم، واكتبوا إليّ بما يروي كُلُّ واحد منهم فيه باسمه واسم أبيه. وبَعَثَ إليهم بالصِّلات والكُسا، وأكثر القطائع للعرب والموالي فكثروا، وتنافسوا في المنازل والضّياع، واتّسعت عليهم الدُّنيا، ثم كتب إلى عُمَّاله: إنَّ الحديث قد كَثُرَ في عثمان، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوهم إلى الرِّواية في أبي بكر وعمر، فقرأ كلُّ قاضٍ وأمير كتابه على النّاس، وأخذ النّاس في الرّوايات فيهم وفي مناقبهم، ثم كتب نسخةً جمع فيها جميع ما روي فيهم من المناقب، وأنفذها إلى عُمَّاله، وأمرهم بقراءتها على المنابر. وفي كلِّ كورة، وفي كلِّ مسجد، وأمرهم أن ينفذوا إلى معلِّمي الكتاتيب أن يعلِّموها صبيانهم حتى يرووها ويتعلّموها كما يتعلّمون القرآن، حتى علَّموها بناتهم ونساءهم وخدمهم ـ ثم كتب إلى عُمَّاله نسخة واحدةً: أنظروا من قامت عليه البيّنة أنّه يحبُّ عَلياً وأهل بيته فامحوه من الدّيوان. ثمّ كتب كتاباً آخر: من اتَّهمتموه ولم تقم عليه بيّنةٌ فاقتلوه!! فقتلوهم على التُّهم والظّن والشُّبه تحتَ كُلِّ كوكب، حتى لقد كان الرّجل يسقط بالكلمة فتُضْرَب عنقه!! وجعل الأمر لا يزداد إلاَّ شدّة، وكثر عددُهم، وأظهروا أحاديثهم الكاذبة فنشأ النّاس على ذلك، لا يتعلّمون إلاّ منهم. وكان أعظم النّاس في ذلك القُرَّاء المراؤُون المتصنّعون الّذين يظهرون الحزن والخشوع والنُّسُك ويكذبون، ليحظوا عند وُلاتهم، ويصيبوا بذلك الأموال والقطائع والمنازل. حتى صارت أحاديثهم في أيدي من يحسب أنَّها حقٌّ فرووها وعلّموها.

وصارت في أيدي المتديّنين الّذين لا يستحلُّون الكذب، فقبلوها وهم يرون أنها حقّ، ولو علموا أنها باطل لم يرووها ولم يتديّنوا بها، فلمّا مات الحسن بن عليّ عليهما السلام، لم تزل الفتنة والبلاء يعظمان ويشتدّان»[1].

أقول: وروى مثل ذلك بكامله أبو الحسن المدائنيُّ فيما أخذه عنه ابن أبي الحديد (ج ٣ ص ١٥ ـ ١٦)[2] وقال في آخره:

«فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن عليٍّ عليهما السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلاّ وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض».

وكان هذا أسلوباً من الحوادث تستسيغه المحاكمة في ظروف الفريقين، ويصدّقه التّناسق التاريخي في تسلسل الأحداث. ولا يضيره إغفال المؤرِّخين الآخرين لأنّهم ـ ولنعذرهم ـ إنما كانوا يكتبون للسّياسة القائمة، أو لما لا يضيرها على الأقل.

وتقدَّم أنّ الطَّبريَّ والمسعوديّ ألمحا إلى كلّ ذلك باختصار. وعلى هذا فمصادر هذه المادة: سليم بن قيس، المدائني، ابن ابي الحديد، الطّبري، المسعودي.

وفي سبيل الله أشلاء مضرّجة، وشمل شتيت، وحطام من مساكن يشرّد أهلها أو يساقون إلى الجزر سوق القطيع! ﴿**فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾[3].

وتلك هي تعبئة معاوية لاقتناص الخلافة في الإسلام له ولبنيه!

وتلك هي طريقته البِكر في وفائه بعهود الله ومواثيقه!

---

(١) كتاب سليم بن قيس / ٣١١ـ٣١٩.

(٢) شرح النَّهج لابن أبي الحديد ١١/ ٤٣ ـ ٤٦.

(٣) سورة الأحزاب / ٢٣.

وزاد سليم بن قيس بعد ذلك فقال:

«ولما كان قبل موت معاوية بسنة، حجَّ الحسين بن عليٍّ وعبد الله بن عبَّاس وعبد الله بن جعفر، فجمع الحسينُ بني هاشم، ثمَّ رجالهم ونساءهم ومواليهم ومن حجَّ منهم من الأنصار، ممّن يعرفه الحسينعليه السلام وأهل بيته، ثم أرسل رسلاً: «**لا تَدَعُوا أحَدَاً حَجَّ العَامَ مِنْ أصْحَابَ رَسُولِ اللهصلى الله عليه وآله وسلم المَعْرُوفِينَ بِالصَّلاحِ وَالنُّسُكِ إلاّ أجْمِعُوهُمْ لِي**»، فاجتمع إليه بِمِنى أكثر من سبعمائة رجل، وهم في سرادقه، عامّتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبيصلى الله عليه وآله وسلم، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال:

«**أَمّا بَعْدُ فَإنَّ هذَا الطّاغِيَةَ قَدْ فَعَلَ بِنا وَبِشيعَتِنا مَا قَدْ رَأَيْتُمْ وَعَلِمْتُمْ وَشَهِدْتُمْ، وَإنّي أُريدُ أَنْ أَسأَلَكُمْ عَنْ شَيْء، فَإنْ صَدَقْتُ فَصَدِّقُوني وَإنْ كَذِبْتُ فَكَذِّبُوني، إسْمَعُوا مَقالَتي وَاكْتُبُوا قَوْلي، ثُمَّ ارْجِعوا إلى أَمْصارِكُمْ وَقَبائِلِكُمْ فَمَنْ أَمِنْتُمْ مِنَ النّاسِ، وَوَثِقْتُمْ بِهِ فَادْعُوهُمْ إلى مَا تَعْلَمُونَ مِنْ حَقِّنا فَإنّي أَتَخَوَّفُ أَنْ يَدْرُسَ هَذَا الأَمْرُ وَيَذْهَبَ الْحَقُّ وَيُغْلَبَ، ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾**[1]

«وما ترك شيئاً ممّا أنزل الله فيهم من القُرآن إلاّ تلاه وفسّره، ولا شيئاً ممّا قاله رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم في أبيه وأخيه وأُمِّه وفي نفسه وأهل بيته إلاّ رواه، وكلُّ ذلك يقول أصحابه: اللّهمّ نعم، وقد سمعنا وشهدنا، ويقول التّابعيُّ: اللَّهمّ قد حدّثني به من أُصدِّقه وأئتمنه من الصّحابة، فقال: «**أنْشُدُكُمُ اللهَ إلاّ حَدَّثْتُمْ بِهِ مَنْ تَثِقُونَ بِهِ وَبِدينِهِ.**»[2].

---

(١) سورة الصَّف / ٨.

(٢) كتاب سليم بن قيس / ٣٢١.

معاوية وزعماء الشّيعة

وكان موقف معاوية من زُعماء الشِّيعة بعد صُلحه مع الحسن موقف المنتقم الحاقد الّذي لا تأخذه بهم رأفةٌ ولا ذمَّةٌ ولا «عهد»، وكان لخوفه من الدَّعاوة الفعَّالة الّتي يحملها هؤلاء السَّادة من زُعماء الشِّيعة أثره فيما توفّر عليه من القصد إلى إيذائهم وإقصائهم وقتلهم والتّنكيل بهم. ولسنا الآن بسبيل استقصاء ما عمله معاوية تجاه هؤلاء الشِّيعة، ولا استقصاء ما كان ينويه بهم من خطط بعيدة الأهداف. ولكنّنا ـ لندلَّ على مدى وفاء هذا الأمَوِيّ بشُروطه وأيمانه ـ سَنُورِد في هذا الفصل بعض أعماله تجاههم وبعض نواياه بهم. وفي قليل من هذه الأمثلة كفاية عن الكثير آثرنا تركه أو خفي علينا علمه.

وقد خسر تاريخ هؤلاء الشِّيعة إنصاف المؤرِّخين بعد ذلك، ولعب التعصُّب الذَّميم دَوْرَه المهمَّ في طمس معالم هذا التّاريخ أحفل ما يكون بالقضايا البارزة الّتي كان من حقِّها أن تأخذ مكانها من عبرة الأجيال. وكان للسُّلطات الحاكمة عملُهَا في توجيه ما يُكْتَب للتَّاريخ أو يُمْلَى للحديث، حتى فيما يتناول أئمة الشِّيعة فضلاً عن زعمائهم أو سوادهم.

روى ابنُ عَرَفة المعروف بنِفْطَوَيْه وهو من أكابر المحدِّثين وأعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا.. قال: «إنَّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصَّحابة افتُعِلت في أيام بني أمَيَّة تقرُّباً إليهم بما يظنُّون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم!»[1].

وقال المدائنيُّ عن عصر معاوية: «وظهر حديثٌ كثيرٌ موضوعٌ، وبهتانٌ منتشرٌ، ومضى على ذلك الفُقَهاء والقضاة والوُلاة، وكان أعظم النّاس في ذلك بَلِيَّةً القُرَّاء المراؤُون، والمستضعفون الّذين يُظهِرون الخشوع والنُّسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند

---

(١) شرح النَّهج لابن أبي الحديد ١١/ ٤٦.

وُلاتهم ويقرّبوا مجلسهم، ويصيبوا به الأموال والضِّياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديَّانين الّذين لا يستحلُّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، وهم يظنّون أنها حقٌّ، ولو علموا أنّها باطلةٌ لما رووها ولا تديَّنوا بها»(١).

وقال ابن أبي الحديد: «وذكر شيخُنا أبو جعفر الإسكافي.. أنَّ معاوية وضع قوماً من الصَّحابة وقوماً من التّابعين على رِوَاية أخبارٍ قبيحةٍ في عليٍّ عليه السلام، تقتضي الطَّعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعْلاً يُرغَب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هُريرة وعمرو بن العاص والمُغِيرَة بن شُعْبة. ومن التَّابعين عروة بن الزُّبير»(٢).

أقول: وشيءٌ قليلٌ من حيدةٍ في النّظر ودقَّة في الإستنتاج يكفينا للقناعة بألوان التصرُّفات الكيفيَّة الواسعة النِّطاق الّتي نُكِب بها كلٌّ من حديث الإسلام وتاريخُ أحداثه معاً. حتَّى لقد يعزُّ على المتتبِّع في ماجَرَيات الحوادث الإسلاميَّة الأولى أن لا يجد قضيّةً من مُهمَّات القضايا الإسلاميّة يومئذٍ سَلِمت في تناسقها التّاريخي من الإصطدام بالمفارقات البعيدة الّتي تغمرُها بالشّكِّ، ثمذَ لا تزال تأخذ بها بين التيّارات المتعاكسة ذات اليمين وذات الشِّمال.

ولا حاجةَ بنا بعد ذلك إلى جمع الشَّهادات والتَّصريحات على شُيوع الوضع(٣) وكثرة الوضّاعين، لأنَّ خير شهودِ كلِّ شيءٍ ما كان منه مباشرة.

وكانت قضيَّة الحسن بن عليٍّ عليهما السلام بملابساتها وذيولها إحدى هاتيك القضايا الّتي لَعِبت الأهواء في التحدُّث عنها وضعاً ورفعاً وجمعاً وتفريقاً، وفقدت تحت تأثير هذا

---

(١) ابن أبي الحديد (ج ٣ ص ١٠) [١١/ ٤٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) ابن أبي الحديد (ج ١ ص ٣٥٨) [٤/ ٦٣]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) وللعلاّمة الأميني النّجفيّ في «كتاب الغدير» (ج ٥ من ص ١٨٥ إلى ٣٢٩) [٥/ ٢٠٩] بحثُه القيِّم عن الوضّاعين الكذّابين جمع فيه ستمائة وعشرين كذّاباً وضّاعاً ممن سلكهم القوم في رواة الحديث والتّاريخ. فليراجع. (المؤلِّف رحمه الله)

التَّلاعب المؤسِف الّذي لم يكن كُلُّه مقصوداً، كما لم يكن كُلُّه غير مقصود، روعة واقعها الأوّل. وكان من طبيعة هذا الوضع أن تختلف عليه الأفهام، ويكثر حوله النَّقض والإبرام. وما هي إلا كنموذجٍ واحد من قضايا كثيرة في تاريخ الإسلام ظَلَمَهَا التَّاريخ وجَلَّلها بالظَّلام.

وإنّهم ليعرفون، وهم يُؤرِّخون الحسن، مكانة الحسن في التَّاريخ ويعلمون أنَّهم إنَّما يكتبون عن «أحد الأحدين» في العالم الإسلامي كُلِّه.

فكيف بهم إذا جاوزوا فيما يؤرِّخون مثل هذه النُّقطة المركَّزة، إلى نقاط لا تبلغ في موضوعها خطورة إمام؟.

لذلك يجب أن لا نطمع في موضوع (معاوية وزعماء الشِّيعة) بالحصول على الحقائق الكافية الّتي تملأ نَهَم البحث، ولا بالوقوف على الإحصاءات الصَّحيحة الّتي تسدُّ نطاق الموضوع، بما يتناسب وحديث المدائنيِّ، وتفاصيل سُلَيم بن قيس.

ذلك لأنّ كُلَّ شيءٍ من هذا القبيل، وكُلُّ شيءٍ من تاريخ الشِّيعة الصَّحيح، قد طغت عليه التَّصرُّفات المعارضة، وأكلته الأكاذيب المأجورة على طول التَّاريخ.

وليس لنا الآن، إلاَّ أن نعود فنتسقَّط الأخبار من هنا ومن هنالك لنعرض شيئاً له صُورتُه التاريخيّة الّتي نعتقد أنَّها ـ على فظاعتها ـ قليل من كثير، وبعض من كلٍّ.

وإليك الآن القائمة المحزونة الّتي تحمل أسماء هؤلاء بما فيهم من صحابةٍ وتابعين، ولندرُس على ضوء هذه القائمة جواب معاوية على الشَّرط الخامس من شروط معاهدة الصُّلح. ثم لنتدرَّج مع فقرات هذا الشَّرط فيما نأتي عليه من فصول.

أ ـ الشُّهداء المقتُولون صَبراً

١ـ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ الكِنْدِيُّ[1]:

---

(١) ذكرنا طَرَفاً من ترجمته في هذا الكتاب الصَّفحة / ١٤٧ـ١٤٨ فلتراجع.

يُعرف بـ «حُجْرِ الخَيْرِ»، ويُكَنّى بأبي عَبْدِ الرَّحمنِ بن عَدِيٍّ بنِ الحَرِثِ بنِ عَمْرِو بنِ حُجْرِ الملقَّب بآكل المرار (ملك الكِنديِّين).[1] وقيل: هو ابنُ عَدِيٍّ بن مُعَاوِيَةَ بنِ جَبَلَـةِ بنِ عَدِيِّ بنِ رَبِيعَةَ بنِ مُعَاوِيَةَ الأكْرَمينَ مِن كِنْدَةَ[2]، ومن ذؤابتها العُلْيَا.[3]

صَحابيٌّ من أعيان أصحاب عليٍّ وابنه الحسن عليهما السلام، وسيِّدٌ من سـادات المسـلمين في الكوفة ومن أبدالها.

وَفَدَ هُو وأخوه هَانِئ بْنُ عَدِيٍّ على النّبيِّ صلى الله عليه وآله، قال في الإستيعاب: «كانَ حُجْـر

(١) لم أعثر على هذا النّسب لحُجْر، في كلِّ ما راجعته من كتب الرّجال والتَّراجم، والمعروف هو الثّاني الّذي ذكره المؤلِّف بقوله: «وَقِيلَ»، وستأتي الإشارة إلى بعض مصادره قريباً.

(٢) و«كِنْدَةُ» هي من بني كَهْلان، وبلادهم في اليمن، ثمَّ كان من كبرائهم في العراق ـ وكَهْلان وحِمْيَر إبنا سَبَإٍ بنِ يَشْجُبَ بنِ يَعرُبَ بن قَحطانَ، وسبأ اسم يجمع القبيلتـين كلتـيهما. وكـان يقـال: إنّ العرب تُعدُّ البيوتات المشهورة بالكِبْرِ والشَّرف بعد بيت هاشِم بنِ عَبدِ مَنَافٍ أربعة بيوت: بيتُ قَيسٍ الفَزَارِيّ، والدَّارِمِيِّينَ، وبَني شَيْبَان، وبيت اليمن من بني الحَارِث بن كَعْب ـ وأمّا كِنْدَة فلا يُعدُّون من أهل البُيوتَات إنَّما كانوا مُلُوكاً. ومنهم «المَلِكُ الضِّلِّيلُ ـ امرؤُ القَيْسِ» وكان لهم مُلكٌ باليمن وبالحجاز ـ وبقي لكندة مجدها في الإسـلام، فمـن كِنْـدة مـن كـان لـه ذِكـرٌ في الفُتـوح والثَّورات، ومنهم من ولي الولايات، ومنهم من تقلّد القضـاء كحُسـينِ بـنِ حَسَـن الحَجَـرِيّ، ومنهم الشُّعراء كجَعفَر بن عفّان المكفوف شاعر الشِّيعة، وكان هَانِئ بن الجَعْدِ بنِ عَـدِيّ ـ ابـن أخي حجر ـ من أشراف الكوفة، وكان جعفر بنُ الأشعث وابنُه العبَّاس بـن جعفـر مـن شـيعة الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر وابنه الرِّضا عليهما السلام. أمّا الأشعثُ بن قُيسٍ الكِنْدِيّ فكـان أكـبر منافقيّ الكوفة. أسلم ثم ارتدَّ بعد النّبيِّ ثمَّ أسلم وقَبِلَ أبو بكر إسلامه، وزوّجه أختـه وهـي أُمُّ محمَّد بن الأشعث، وتزوّج الإمام الحسن ابنته، وهي الّتـي سَـقَته السُّـمَّ بـإغراء معاويـة إيّاهـا. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) أنظر: الطّبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٢١٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٢٠٧، سير أعلام النُّبلاء ٣/ ٤٦٢، وفي هذه الثّلاث: «حُجرُ بْنُ عَدِيٍّ بْنِ جَبَلَةَ» بدون: «بْنِ مُعَاوِيَةَ»، أسد الغابة ١/ ٣٨٥، الإستيعاب ١/ ٣٢٩.

من فُضلاء الصَّحابة، وصِغَرِ سِنِّه عن كِبارهم»[1]، وذكره بمثل ذلك في أُسْدِ الغابةِ[2]، ووصفه الحاكم في المستدرك بأنَّه: «رَاهبُ أصحابِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»[3].

وبلغ من عبادته أنَّه ما أحدث إلاَّ توضَّأ وما توضّأ إلاَّ صَلَّى[4]. وكان يُصلِّي في اليوم واللَّيلة ألف ركعة[5]، وكان ظاهرَ الزُّهد، مجابَ الدَّعوة[6]، ثِقَةً من الثِّقات المُصْطَفَين، اختار الآخرة على الدُّنيا حتى سَلَّم نفسه للقتل دون البراءة من إمامه، وإنَّه مقام تَزِلُّ فيه الأقدام وتزيغ الأحلام.

كان في الجيش الّذي فتح الشَّام، وفي الجيش الّذي فتح القادسيَّة، وشَهِد الجَمل مع عليٍّ، وكان أمير كِنْدَة يوم صِفِّين، وأمير الميسرة يوم النَّهروان، وهو الشُّجاع المُطْرِق الّذي قهر الضَّحَّاك بن قيس في غربيّ تَدْمُرَ. وهو القائل: «نحن بنو الحرب وأهلها، نُلْقِحُهَا ونُنْتِجُهَا، قد ضارستنا وضارسناها»[7].

ثمَّ كان أوَّل من قُتِل صَبراً في الإسلام.

---

(١) الإستيعاب لابن عبد البرّ ١/ ٣٢٩.

(٢) أُسْدُ الغابة ١/ ٣٨٥.

(٣) مستدرك الحاكم ٣/ ٤٦٨.

(٤) الوافي بالوفيات ١١/ ٢٤٧، تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢١٢، طبقات ابن سعد ٦/ ٢١٩.

(٥) الكنى والألقاب للقمّي ١/ ٣٠٤، شجرة طوبى للشّيخ الحائري ١/ ٨٥.

(٦) قال في الاصابة (ج ١ ص ٣٢٩) [٢/ ٣٣]: «أصابته جنابة ـ وهو أسير ـ فقال للموكَّل به: أعطني شرابي أتطهّر به، ولا تعطني غداً شيئاً، فقال: أخاف أن تموت عطشاً فيقتلني معاوية، قال: فدعا الله فانسكبت له سحابة بالماء، فأخذ منها الّذي أحتاج إليه فقال له أصحابه: أدع الله أن يخلّصنا، فقال: اللّهمّ خِر لنا». (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: وفي أسد الغابة ١/ ٣٨٦، والإستيعاب ١/ ٣٣١: «وكان مجاب الدَّعوة».

(٧) وقعة صِفِّين لابن مزاحم / ١٠٤، المعيار والموازنة للإسكافي / ١٣٠، شرح النَّهج لابن أبي الحديد ٣/ ١٨٢.

قَتَلَه وسِتَّة من أصحابه معاوية بن أبي سفيان سنة ٥١ في « مَرْجِ عَـذْراءَ» بغُوطَـةِ دمشق على بعد ١٢ ميلاً منها. وقبره إلى اليوم ظاهرٌ مشهورٌ، وعليه قُبَّةٌ محكَمَـة تظهـر عليها آثار القِدَم في جانب مسجد واسع، ومعـه في ضريحـه أصحابه المقتولـون معـه وسنأتي على ذكرهم.

وهدم زياد ابن أبيه دار حُجْر في الكوفة.

السَّبَبُ في قتله

أنَّه كان يردُّ على المغيرة وزياد حين يشتمان عليّاًعليه السلام، ويقول: «أنَـا أشـهَدُ أنَّ مـن تَذُمُّون أحقُّ بالفضل، ومن تزكُّون أولى بالذَّم، وكان إذا جهر بكلمته هذه، وافقه أكثر من ثُلُثَي النّاس، وقالوا: «صَدَقَ والله حُجْر وبرَّ».

أمّا المُغِيرَة بن شُعْبة فقد قَدَّر المعنويَّات الّتي تُعزِّز حُجْراً كصحابيٍّ فاضـلٍ، وكـرأسٍ من رجالات عليٍّ في الكوفة، وكأميرٍ عربيٍّ يَرِث تاج الكِنديِّين من أقرباء الجـدود، وسـمع بأذنيه تأييد النّاس دعوته غير آبهين بالقُوَّة، ولا خائفين نَقِمَةَ السُّلطان، فرأى أن يتمهَّـل في أمره وأن يعتذر إلى ذوي مشورته الّذين كانوا يُحرِّضُونه على التَّنكيل به. ثمَّ قـال لهـم: «إني قد قتلتُه»، قالوا: «وكيف ذلك؟» قال: «إنَّه سيأتي أميرٌ بعدي فيحسبه مثلي فيصنع به شبيهاً بما ترونه، فيأخذه عند أوّل وهلة فيقتله شرَّ قتلة»، وكان المغيرة في موقفه من حُجْـر المنـافق الحكيم، وكذلك كان فيما أجاب به صَعْصَعَة بن صُـوحان يـوم فتنـة المستورد بـن علفـة الخارجي سنة ٤٣ قال له: «وإيَّاكَ أن يبلُغُني عنك أنّك تُظْهِر شيئاً من فضل عَـليٍّ علانيـةً، فإنّك لست بذاكر من فضل عليٍّ شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك!! ولكـن هـذا السُّـلطان ـ يعني معاوية ـ قد ظهر، وقد أخذنا بإظهار عيبه للنّـاس، فـنحن نـدع كثـيراً ممَّـا أمرنـا بـه،

ونذكر الشَّيء الّذي لا نجد من ذكره بُدّاً، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقيّةً»[١].

وولي ابنُ سميَّة الكوفة بعد هلاك المغيرة سنة ٥٠ أو ٥١، فرأى أن يخدم أَمَوِيَّته «المزعومة» بقتل حُجْر بن عَدِيّ ليريحها من أكبر المشاغبين عليها. ولكنَّه جَهِل أنَّ دم حُجْر سيظلّ يُشاغب على تاريخ أميَّة ما عرف النّاس هذين الإسمين.

وأطال الوالي الجديد خُطْبَته يوم الجمعة حتى ضاق وقت الصَّلاة ـ ولصلاة الجُمعة وقتها المحدود ـ فقال حُجْر ـ وكان لا يُفارِق جمعتهم وجماعتهم ـ: «الصَّلاة!» فمضى زيادٌ في خُطبته، فقال ثانياً: «الصَّلاة!» فمضى في خطبته. وخشي حُجْرٌ فوت الفريضة فضرب بيده إلى كفٍّ من الحصا، وثار إلى الصَّلاة وثار النّاس معه.

وما كان أبو عبد الرَّحمن بمكانته الإجتماعيّة وبروحه العابدة الزَّاهدة بالّذي يترخَّص في دينه أو يلجأ إلى مجاملة المترخصين، وكان يَظنُّ أنَّ في هؤلاء بقيّة من الحسن قد تنفعُهَا الذِّكرى وقد يُجْدِي معها الإنكار، فأنكر انتصافاً للحقِّ المهضوم، وجاهد لدينه ولإمامه ولصلاته بلسانه، كما كان يُجاهد بسيفه في فتوح الإسلام.

وجاءت قائمة جَرائمه ـ في عُرف بني أميَّة ـ أنَّه يَرُدُّ السَّبَّ عن عليٍّ عليه السلام، وأنَّه يريد الصَّلاة لوقتها، ولا شيءَ غير ذلك!

ودعا زيادٌ «حواشيه الطَّيِّعَة» الّذين كانوا يُبادلونه الذِّمم بالنِّعم أمثال عمر بن سعد ـ قاتل الحسين عليه السلام ـ، والمنذر بن الزُّبير، وشِمْر بن ذي الجوشن العامري، وإسماعيل وإسحق ابني طلحة بن عبد الله، وخالد بن عَرْفَطَة، وشَبَث بن رِبعي، وحَجَّار بن أبجر، وعمرو بن الحجَّاج، وزَجْر بن قيس.. و«درازن» أخرى من هذه النَّماذج الّتي طلّقت المُروءَة ثلاثاً، وكانوا سبعين رَجُلاً، عَدَّهم الطَّبريُّ في تاريخه واحداً

---

(١) الطَّبريّ (ج ٦ ص ١٠٨) [٤/ ١٨٩]. (المؤلِّف رحمه الله)

واحداً (ج ٦ ص ١٥٠ ـ ١٥١)[1]، وماز من بينهم أبا بردة بن أبي موسى الأشعريّ لأنّه كان أضعفهم عنده أو لأنّه كان أقواهم عند معاوية، وقال له أكتب:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم. هذا ما شَهِد عليه أبو بُردَة بن أبي موسى الأشعري لله رَبِّ العالمين!! أشْهَدُ أنَّ حُجْرَ بن عَدِيّ خلع الطَّاعة، وفارق الجماعة!! ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نَكْثِ البيعة، وكفر بالله عزَّ وجلّ كَفْرَةً صَلْعَاء!!».

وقال للسَّبعين: «على مثل هذه الشَّهادة فاشهدوا. أما والله لأجهدن على قطع خيط هذا الخائن الأحمق!!»[2]. فشَهِد على هذه الصَّحيفة الخائنة الحَمْقَاء سَبعُون من أشراف الكوفة و«أبناء البيوتات»!! وكتب إلى معاوية في حُجْر وكَثَّر عليه فكتب إليه معاوية: «شُدَّه في الحديد وأحمله إليّ»[3].

ولنتذكَّر هنا سوابق هذه الحَفْنة من أبناء بيوتات الكوفة في قضيَّة الحسن بن عليٍّ عليهما السلام أيّام خلافته، وهل كان الفارُّون من الزَّحف في مَسْكِن، والمتألِّبون على الشرِّ في المدائن، والمكاتِبُون معاوية على الغدر بالإمام وتسليمه إيّاه إلاّ هؤلاء؟. فمن هو إذاً الّذي خلع الطَّاعة وفارق الجماعة ونكث البيعة أحُجْرُ بنُ عديٍّ أم هم؟

ثمَّ لنتذكّر مواقف هؤلاء أنفسهم في فاجعة الحسين عليه السلام بكربلاء، وكانوا يَومَئِذٍ سيوف الجبابرة الأمويِّين الّذين تحمَّلوا مسؤوليات تلك الأحداث المؤلمة الّتي لا حَدَّ لفظاعتها في تاريخ العرب والإسلام.

---

(١) تاريخ الطَّبري ٤/ ٢٠٠، أيضاً أنظر: أنساب الأشراف ٥/ ٢٦٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ١٩٠.

مَوقفُ الكوفة في حادثة حُجرٍ:

وكان باستطاعة حُجْر أن يُشعل نارَ الثَّورة الّتي تَقُضُّ مضجع معاوية في الكوفة، لو أنَّه شاء المقاومة بالسِّلاح. وفهم معاويةُ ذلك حين راح يقول ـ بعد مقتل حُجْرٍ ـ : «لو بقي حُجْر لأشفقت أن يُعيدَها حَرباً أخرى»[1]، وفهم زيادٌ ذلك حين أتْبَع حُجْراً بريدَه وقال له: «أركُض إلى معاوية وقُل له: إن كان لك في سلطانك حاجةٌ فاكفِني حُجْراً»[2].

ولكنَّ الزَّعيم الشِّيعيّ الّذي كان قد دَرَس على الإمام الحسن بن عليٍّ عليهما السلام تضحياتِه الغالية في سبيل حَقنِ الدِّماء، مَنَعَ قومه من الحرب صَريحاً.

ولكن جماعة من أصحابه اشتبكت بشُرْطَة زياد و (بُخَارِيّتِه)[3] عند أبواب كِندة، وجماعة أخرى التحمت بهم عند باب داره ـ قُرب جَبّانة كِندة ـ وكان من أبطال هاتين الموقِعَتين عبد الله بن خليفة الطّائي[4]، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي ـ وسنأتي على ذكرهما في الفصول القريبة ـ ، وعبد الرّحمن بن مُحرِز الطَّمحي[5]، وعائذ بن حَمَلَةَ التَّميميّ[6]، وقيس بن يزيد[7]، وعُبيدة بن

---

(١) قاله فيما اعتذر به لمالك بن هبيرة، حين جاء يتشفّع لحُجر، أنظر: تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٤، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٧، تاريخ مدينة دمشق ٨/ ٢٤، أنساب الأشراف ٥/ ٢٦٦.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢١٥.

(٣) البُخَارِيَّة : سِكَّةٌ بالبصرة أسكنها عبيد الله بن زياد أهلَ بُخَارَى الّذين نقلهم ، من بُخَارَى إلى البَصرة وبنى لهم هذه السِّكّة فعُرِفت بهم ولم تعرف به. معجم البلدان ١/ ٣٥٦.

(٤) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه صفّين أنظر: وقعة صفّين لابن مزاحم / ٢٧٩.

(٥) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه صفّين أنظر: وقعة صفّين لابن مزاحم / ٢٧٦.

(٦) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وقرّاء الكوفة، إعترض هو وصلحاء الكوفة كمالك الأشتر، وكميل بن زياد، وزيد بن صوحان وأخيه صعصعة، على والي الكوفة سعيد بن العاص عند عثمان، إلاَّ أنه لم يقبل منهم، ونفاهم إلى الشّام، فآذاهم معاوية، شهد عائذ مع أمير المؤمنين عليه السلام مشاهدَه. أنظر: أنساب الأشراف ٦/ ١٥٢، الفتوح لابن أعثم ٢/ ٣٨٦.

عمرو[3]، وقيس بن شمر[4]، وعمير بن يزيد الكِندي المعروف (بأبي العُمَرَّطَة)[5]. قالوا: «وكان سيف أبي العمرّطَة أوّل سيف ضرب به في الكوفة يوم حُجْر»[6]. ـ وخرج قيس بن فَهْدَان الكِنْدِيّ[6] على حمار له، يسير في مجالس كِنْدَة يُحَرِّضهم على الحرب.

وحصب أهل الكوفة زياداً[7] ـ وكان ذلك هو ميراثُه الشَّرعيّ من أُمِّه سميَّة.

أمّا حُجْر نفسه فأصرَّ على قومه بأن يَرُدُّوا السُّيوف إلى أغمادها، وقال لهم: «لا تُقاتلوا فإني لا أحِبُّ أن أعَرِّضَكُم للهلاك.. وأنا آخذٌ في بعض هذه السِّكك»[8].

وأخطأته عيونُ زياد الّتي كانت تُلاحِقُه، لأنَّ النّاس كُلَّهم أو أكثر من ثُلُثي

⇨

(١) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، رجال الشّيخ الطّوسي / ٧٩.

(٢) قال الفقيه المحقّق السيّد الخوئي رحمه الله: «عبيدة السّلماني: من أصحاب عليّ عليه السلام، رجال الشّيخ، وعدّه البرقيّ من أولياء أمير المؤمنين عليه السلام، روى «عبيدة» عن عبد الله بن مسعود، وروى عنه عبد الله بن سلمة، (كامل الزّيارات [/ ١١٤]: الباب ١٤، في حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام، الحديث ٥ ، وقال ابن حجر في تقريبه [١/ ٦٤٩]: «عبيدة بن عمرو السّلماني»، بسكون اللام، ويقال: بفتحها، المرادي أبو عمرو الكوفي، تابعي كبير مخضرم، ثقة، ثبت، كان شريح إذا أشكل عليه شئ سأله، مات سنة اثنتين وسبعين أو بعدها. والصّحيح أنه مات قبل سنة سبعين. معجم رجال الحديث ١٢/ ١٠٤.

(٣) لم أعثر على ترجمة له سوى ما ذكر من حمايته لحُجْر في هذا الخبر.

(٤) لم أعثر على ترجمة له سوى ما ذكر من حمايته لِحُجْر في هذا الخبر.

(٥) تاريخ الطّبري ٤/ ١٩٣، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٧٥.

(٦) عدّه الشّيخ الطّوسي في رجاله / ٨٠، في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، وفي تاريخ الطّبري ٤/ ٢١، ووقعة صفّين لابن مزاحم / ٢٨٠، أنّه كان يحرّض أصحابه على أهل الشّام في صفّين.

(٧) قال الطبري: «ومن يومه اتخذ المقصورة» (ج ٦ ص ١٣٢) [٤/ ١٧٦].

(٨) تاريخ الطّبري ٤/ ١٧٦.

النَّاس كانوا يمنعون حُجْراً من هذه العيون.

وهكذا ضاق زيادٌ بحُجْر وأصحابه، فجمع أشراف الكوفة وقال لهم: «يا أهل الكوفة: أتُشَجّون بيدٍ وتَأسَونَ بأخْرَى، أبدانُكم معي، وأهواؤكم مع حُجْرٍ، أنتم معي وإخوانُكم وأبناؤُكم وعشائرُكم مع حُجْر. هذا والله من دَحْسِكم وغشِّكم. والله لتُظْهِرُنّ لي براءتكم، أو لآتينَّكم بقومٍ أقيمُ بهم أوَدَكُم وصَعَرَكم».. ثمَّ قال: «فَلْيَقُم كُلُّ امرئٍ منكم إلى هذه الجماعة حول حُجْر. فليدعُ كُلَّ رجلٍ منكم أخاه وابنه وذا قرابته ومن يُطيعُه من عشيرته، حتى تُقيموا عنه كلَّ من استطعتم أن تقيموه»[1].

ثم أمر زيادٌ أمير شُرْطَته (شدَّاد بن الهيثم الهلالي) بالقبض على حُجْر. وعلم أنَّ شُرطَته ستعجز عنه، فدعا محمَّد بن الأشعث الكِنديّ، وقال له: «يا أبا ميثاء، أما والله لتأتينني بحُجْرٍ، أو لا أدَعَ لك نخلةً إلاَّ قطعتُها، ولا داراً إلاّ هدمتُها، ثمَّ لا تسلم حتَّى أقَطِّعك إرباً إرباً!» قال له: «أمْهِلني حتى أطلُبه»، قال: «أمهلتك ثلاثاً، فإن جئت به وإلاَّ عُدَّ نفسك في الهلكى!»[2].

أقول: ولِمَ كلُّ هذا الحَنَق؟ ألِلدِّين وما كان ابن سميَّة بأولى به من الصَّحابيِّ العابد الّذي كان يُصلِّي كُلَّ يوم وليلة ألف ركعة، ثمَّ لا ذنب له إلاَّ أنْ ينهى عن المنكر ويريد الفرائض لوقتها؟! ـ أم للدُّنيا، وقد خسروا في مقتل حُجْرٍ صَبَابة معنويَّاتهم في التَّاريخ!!

وحاول زيادٌ أن يقتل الكِنديِّين بعضَهم ببعضٍ بما أمر به ابن الأشعث الكِنديّ، وكان ذلك من جملة الأساليب الرَّثَّة الّتي يتوارثها الحاكمون بأمرهم في الشُّعوب

---

(١) تاريخ الطّبري ٤/ ١٩١.

(٢) تاريخ الطّبري ٤/ ١٩٥.

المغلوبة على أمرها في القديم والحديث.

وعلم حُجْر ما أراده زياد في الكِنديّين وأصحابهم فقال: «ولكن سمعٌ وطاعةٌ».

ودارت الشّرطة للقبض على الأسماء البارزة من مؤازِريه، فجمعوا تسعةً من أهل الكوفة وأربعةً من غيرها ـ برواية المسعوديّ[1] ـ

وعَدَّهم ابن الأثير هكذا: «حُجْر بن عَدِيّ الكِنديّ، والأرقم بن عبد الله الكِنديّ، وشريك بن شدَّاد الحضرمي، وصيفي بن فَسيل الشَّيباني، وقَبِيصَة بن ضُبَيْعة العَبسي، وكريم بن عفيف الخَثْعَمي، وعاصم بن عوف البَجَلي، ووَرْقَاء بن سميّ البجلي، وكِدَام بن حيَّان، وعبد الرَّحمن بن حسان العنزيان، ومُحرِز بن شهاب التَّميمي، وعبد الله بن حَوبَةَ السَّعدي التَّميميّ». قال: «فهؤلاء اثنا عَشَرَ رَجُلاً. وأتْبَعَهُم زيادٌ برجلين وهما: عُتْبةُ بن الأخْنس من سَعد بن بَكر، وسعد بن نُمْرانَ الهمداني. فتمّوا أربعة عشر رجلاً»[2].

ونَشَطَ ـ إذ ذاك ـ المشّاؤون بالنَّميم، وما كان أكثرُهم في هذا البلد المنكوب!

ومَكَث حُجْرٌ في سجن الكوفة عشرة أيَّام حتى جمعوا إليه من أصحابه من ذكرنا، ثمَّ أمر بهم فسيقوا إلى الشّام. وكان كلُّ ما في الكوفة يدلُّ على تمخُّض الوضع عن وثبةٍ لا يُدرى مَدى بلائها على الحاكم والمحكوم.

ولكنَّ زياداً فطن إلى ذلك، فأمر بإخراجهم «عشيَّةً» ليتستَّر بالظَّلام، فيخفّف من عرامة هذا الظُّلم المفضوح.

ونظر قَبيصَةُ بن ربيعةَ ـ أحد أصحاب حُجْرٍ ـ فإذا هو يمرُّ على داره في جَبَّانة «عَرْزَمٍ» وإذا بناته مُشرِفات يبكينه، فكلَّمهن ووعظهن بما سنأتي على ذكره عند ترجمته، ثم انصرف.

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣.

(٢) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٣.

وانشأت ابنةُ حُجْرٍ في إحدى لياليها السُّود وقد قطع الخوفُ على أبيها نياطَ قلبها وهي تُخاطِب القمر ـ وقيل بل الأبيات لهند بنت زيد الأنصارية تَرثِي حُجْراً:

تَرَفَّـعْ أيُّهَـا القَمَـرُ المُنـيرُ ... لَعَلَّـكَ أنْ تَـرَى حُجْـراً يَسِـيرُ
يَسِـيرُ إلَى مُعَاوِيَـةَ بـنِ حَـرْبٍ ... لِيَقْتُلَـهُ كَـمَا زَعَـمَ الأمِـيرُ
وَيَصْـلُبَهُ عَـلَى بَـابَي دِمَشْـقٍ ... وَتَأكُـلَ مِـنْ مَحَاسِـنِهِ النُّسُـورُ
تَجَـبَّرَتِ الجَبَـابِرُ بَعْـدَ حُجْـرٍ ... وَطَـابَ لَهَـا الخَوَرْنَـقُ وَالسَّـدِيرُ
وَأصْـبَحَتِ الـبِلادُ لَـهُ مُحُـولاً ... كَـأنْ لَمْ يُحْيِهَـا مُـزْنٌ مَطِـيرُ
ألا يَـا حُجْـرُ حُجْـرُ بَنِـي عَـدِيٍّ ... تَلَقَّتْـكَ السَّـلامَةُ وَالسُّـرُورُ
أخَـافُ عَلَيْـكَ مَـا أرْدَى عَـدِيَّاً ... وَشَـيْخَاً في دِمَشْـقَ لَـهُ زَئِـيرُ
فَـإنْ تَهْلِـكْ فَكُـلُّ عَميـدِ قَـوْمٍ ... مِـنَ الـدُّنيَا إلى هَلَـكٍ يَصِـيرُ[1]

مَقتَلُهُ

وصاروا بهم إلى عَذْرَاء، وكانت قريةً على إثني عَشَر مِيلاً من دِمَشق، فحُبِسوا هناك، ودار البريد بين معاوية وزياد، فما زادهم التّأخير إلاّ عذاباً. وجاءهم أعورُ معاوية في رهطٍ من أصحابه يحملون أمره بقتلهم ومعهم أكفانهم فقال لحُجْرٍ: «إنَّ أمير المؤمنين أمرني بقتلِكَ يا رأس الضَّلال!! ومعدِنَ الكُفر والطُّغيان!! والمتولِّي لأبي تُرابٍ، وقَتلِ أصحابك إلاّ أن تَرجِعُوا عن كُفْرِكُم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرَّأوا منه» ـ

---

(١) في الطَّبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٢٢٠، وتاريخ مدينة دمشق ١٢/ ٢١٩، الغارات ٢/ ٨١١، وتاريخ الطَّبري ٤/ ٢٠٨ـ٢٠٩، نُسِبت الأبيات إلى «هند بنت زيد بنِ مَخْرَبَةَ الأنصاريّة»، وفي مروج الذّهب ٣/ ٣، نسبها لابنته.

فقال حُجْر وأصحابه: «إنَّ الصَّبر على حدِّ السَّيف لأيسر علينا ممَّا تدعوننا إليه ثمَّ القدوم على الله وعلى نبيِّه وعلى وصيِّه أحبُّ إلينا من دخول النَّار»[1].

وحُفِرت القُبور، وقام حُجْرٌ وأصحابُه يُصَلُّون عامَّة اللَّيل، فلمَّا كان الغدُ قدَّموهم ليقتلوهم فقال لهم حُجْر: «أترُكُوني أتوضَّأ وأصَلِّ فإني ما توضَّأت إلاَّ صَلَّيت». فتركوه فصلَّى ثمَّ انصرف، وقال: «والله ما صَلَّيتُ صلاةً أخفَّ منها، ولولا أنْ تَظنُّوا فيّ جَزَعاً من الموت لاستكثرتُ منها».

ثمَّ قال: «أللَّهُمّ إنَّا نستعديك على أمَّتنا، فإنَّ اهل الكوفة شَهِدُوا علينا، وإنَّ أهل الشَّام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني بها، فإنِّي لأوَّلُ فارسٍ من المسلمين هَلَّل في واديها، وأوَّلُ رجلٍ من المسلمين نبحته كلابُهَا»[2].

ثمَّ مشى إليه هُدْبَةُ بنُ فيَّاض القُضَاعِيّ بالسَّيف، فارتعد ـ فقالوا له: «زَعَمتَ أنّك لا تَجْزَعُ من الموت، فابرأ من صاحبك ونَدَعُك!!».

فقال: «مالي لا أجزع وأرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وإني والله إن جزعت من القتل، لا أقول ما يُسخِطُ الرَّب!»[3].

وشُفِع في سبعةٍ من أصحاب حُجْر ذوو حزانتهم من المقرّبين لدى معاوية في الشَّام.

---

(١) مروج الذّهب ٣/ ٤.

(٢) وقال ابن سعد [الطَّبقات الكبرى ٦/ ٢١٧] ومصعب الزُّبيريُّ فيما رواه الحاكم [٣/ ٤٦٨] عنه عند ذكر حُجْر: «وقُتِلَ بمرج عذراء بأمر معاوية وكان حُجْر هو الّذي افتتحها فغدر بها». أقول: وهو معنى قوله هنا: « وأوَّل رجل من المسلمين نبحته كلابُها » يعني يوم فتحها. (المؤلِّف ﵀)

أقول: عبارة: «هو الّذي افتتحها فغدر بها» غير موجودة عند ابن سعد ولا الحاكم بل هي عند ابن حجر في الإصابة ٢/ ٣٢. وعبارته هكذا: «وقتل بمرج عذراء بأمر معاوية وكان حُجْر هو الّذي افتتحها فقدِّر أن قُتل بها»

(٣) ابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٢) [٣/ ٤٨٥]. (المؤلِّف ﵀)

وعُرِضَ الباقون على السَّيف، وقال حُجْر في آخر ما قال: «لا تُطلِقُوا عَنِّي حَديداً، ولا تَغْسِلوا عَنِّي دَماً، فإني لاقٍ معاوية غداً على الجادَّة وإنِّي مخاصِمٌ»[١]. وذكر معاوية كلمة حُجْر هذه فغصَّ بها ساعة هلك ـ معاوية ـ فجعل يُغَرغِر بالصَّوت ويقول: «يَومي مِنكَ يا حُجْرُ يومٌ طَويل»[٢].

فاجِعتُه في المسلمين[٣]

---

(١) مستدرك الحاكم ٣/ ٤٧٠، المصنّف لابن أبي شيبة ٧/ ٦٠٦، وابن عبد البرّ في الإستذكار ٥/ ١٢١، والإستيعاب ١/ ٣٣١، والتّمهيد ٢٤/ ٢٤٥، تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢٢٨، سير أعلام النّبلاء ٣/ ٤٦٦، الإصابة ٢/ ٣٣، أنساب الأشراف ٥/ ٢٧٠، تاريخ الطبري ٤/ ١٩٠، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٨، تاريخ الإسلام للذّهبي ٤/ ١٩٤.

(٢) تاريخ الطّبري ٤/ ١٩١، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ٥/ ٢٤٣، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٨.

(٣) أقول: لم يسلم حُجْر بن عديّ من الحقد الأمويّ المقيت رغم مقتله ومضيّ أكثر من ألف سنة من شهادته، حتى عادوا له من جديد، ففي يوم الخميس ٢٧ مايو ٢٠١٣ الموافق ٢١ جمادى الثّانية من عام ١٤٣٤، نبشت قبره بمدينة عذرا في سوريّا مجموعاتٌ إرهابيّة وهّابية، تُطلِق على نفسها اسم: «جبهة النُّصرة» واستخرجت جثمانه ونقلوه إلى مكان مجهول، وعاثوا خراباً في المقام. وقد ظهرت في ذلك كرامةٌ لهذا الصَّحابي الجليل بأن وُجدت جثّته طريّة سليمةً لم يتغيّر منها شيءٌ، ولم تكفهم هذه الكرامة أن يرتدعوا مما هم عليه من مخالفة منهاج رسول الله صلى الله عليه وآله. فوصلوا بجناياتهم ما جناه معاوية وبنو أمية.

والخطب بهذه المصيبة الكبرى وإن كان جليلاً والألم فادحاً، إلاّ أنَّ لله في ذلك أمراً هو بالغه، ونقول ما قاله مولانا السِّبط سيِّد الشُّهداء أبو عبد الله الإمام الحسين عليه السلام لَمّا ذُبح ولده الرَّضيع على يديه بسهم رماه به حرملة بن الكاهل الأسدي لعنه الله فتلقَّى الدَّم من نحره بكفَّيه فلمّا امتلأتا رمى بالدَّم نحو السَّماء ثمّ قال: «هَوَّنَ عَلَيَّ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَيْنِ اللهِ» اللّهوف / ٦٩، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

هذا وبحمد الله وبتوفيق منه أُنجز الكتاب الماثل بين يديك في غرّة شهر شعبان المبارك سنة ١٤٣٣، إلاّ أنَّ طباعته تأخّرت، وقبل أن أسلّم الكتاب إلى الطّبع رأيت من المناسب أن أدرج هذه الكلمات وفاءاً لشموخ هذا الرّجل وتخليداً لعظمته.

حَجَّ معاوية بعد قتله حُجْراً وأصحابه فمرَّ بعائشة «واستأذن عليها فأذنت له، فلمّا قعد قالت له: يا معاوية أأمنت أنْ أخَبِّئ لك من يقتُلك؟ قال: بيت الأمن دخلتُ، قالت: يا معاوية أمَا خَشيت اللهَ في قتل حُجْرٍ وأصحابِه؟»(١). وقالت: «لولا أنّا لم نُغيِّر شيئاً إلاّ صارت بنا الأمور إلى ما هو أشدّ منه لغيَّرنا قتل حُجْر، أما والله إن كان ما علمتُ لُمسلِماً حَجَّاجاً مُعْتَمِراً»(٢).

وكتب شُريح بن هاني إلى معاوية يذكر حُجْراً ويُفتيه بحرمة دمه وماله ويقول فيه: «إنَّه ممَّن يُقيمُ الصَّلاة، ويؤتي الزّكاة، ويديم الحجَّ والعمرة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، حرام الدَّم والمال»(٣).

وكان ابن عمر ـ منذ أخذ حُجْر ـ يتخبَّر عنه فأخبر بقتله وهو بالسُّوق فأطلق حِبْوَتَهِ وولَّى وهو يبكي(٤).

ودخل عبدُ الرَّحمن بن الحارث بن هشام على معاوية وقد قَتَل حُجْراً وأصحابَه، فقال له: «أين غاب عنك حِلمُ أبي سُفيان!؟» قال: «غاب عني حين غاب عني مثلُك من حُلماء قومي، وحملني ابن سميَّة فاحتملت!!» قال: «والله لا تَعُدُّ لك العربُ حِلْماً بعد هذا أبداً ولا رأياً، قَتَلتَ قوماً بُعِثَ بهم إليك أسَارَى من المسلمين؟..»(٥).

وقال مالكُ بن هُبيرَةَ السَّكُونِيّ حين أبى معاويةُ أن يهب له حُجْراً، وقد اجتمع

---

(١) الطبري (ج ٦ ص ١٥٦) [٤/ ٢٠٨]. (المؤلِّف)

(٢) ابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٣) [٣/ ٤٨٧]. (المؤلِّف)

(٣) الطبري (ج ٦ ص ١٥٣) [٤/ ٢٠٣]. (المؤلِّف)

(٤) الطبري (ج ٦ ص ١٥٣). (المؤلِّف)
أقول: لم أجد هذا النصَّ عند الطّبري، وهو مرويٌّ عند ابن حجر في الإصابة ٢/ ٣٣.

(٥) تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٣، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٤.

إليه قومُه من كندة والسَّكون وناسٌ من اليمن كثير، فقال: «والله لَنَحْنُ أغنى عن معاوية من معاوية عنَّا وإنَّا لنجد في قومه[1] منه بَدلاً ولا يجد مِنَّا في النَّاس خَلَفاً..»[2].

وقيل لأبي إسحق السَّبيعي: «متَّى ذلَّ النّاسُ؟» فقال: «حين مات الحسن، وادُّعِي زيادٌ، وقُتِل حُجْرُ بنُ عَدِيّ»[3].

وقال الحسن البصري: «أربعُ خصالٍ كُنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلاّ واحدةٌ لكانت مُوبِقَةً: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسُّفهاء حتى ابتزّها أمرها ـ يعني الخلافة ـ بغير مَشورةٍ منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذوو الفضيلة، واستخلافُه ابنَه بعدَهُ سِكّيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطَّنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَ لِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ**»، وقتلُه حُجْراً، ويلٌ له من حُجْر وأصحاب حُجْر، (مرَّتين)»[4].

ومات الرَّبيع بن زياد الحارثي غَمّاً لمقتل حُجْر، وكان عاملاً لمعاوية على خراسان. قال ابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٥): «وكان سببُ موتِه أنَّه سَخِطَ قَتلَ حُجْرِ بن عَدِيّ، حتى أنَّه قال: لا تزالُ العرب تُقتَل صبراً بعده، ولو نَفَرت عند قتله، لم يُقْتَل رجلٌ منهم صبراً، ولكنَّها قرَّت فذلَّت، ثمَّ مكث بعد هذا الكلام جُمُعَة، ثم خرج يوم الجُمُعَة فقال: أيُّها النَّاس، إنِّي قد مللتُ الحياة فإنِّي داعٍ بدعوةٍ فأمِّنوا. ثم رفع يديه بعد الصَّلاة فقال: اللّهُمَّ إن كان لي عندك خيرٌ فاقبِضْنِي إليك عاجلاً، وأمَّن النّاس ـ ثمَّ خرج، فما

---

(١) يعني بني هاشم. (المؤلِّف)

(٢) تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٧.

(٣) ابن ابي الحديد (ج ٤ ص ١٨) [١٦/ ٥١]. (المؤلِّف)

(٤) الطبري (ج٦ ص١٥٧) [٤/ ٢٠٨] وغيره [تاريخ ابن الأثير ٣/ ٤٨٧، شرح ابن أبي الحديد ٢/ ٢٦٢] (المؤلِّف)

توارت ثيابه حتى سقط»[1].

وكتب الحسين عليه السلام إلى معاوية في رسالة له: «**أَلَسْتَ الْقَاتِلَ حُجْراً أَخَا كِنْدَةَ، وَالْمُصَلِّينَ العَابِدِينَ، الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَعْظِمُونَ البِدَعَ، وَلا يَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ؟ قَتَلْتَهُمْ ظُلْماً وَعُدْوَاناً مِنْ بَعْدِ مَا كُنْتَ أَعْطَيْتَهُمُ الأَيمَانَ الْمُغَلَّظَةَ وَالمَوَاثِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ** ـ يشير إلى نصوص المادة الخامسة من معاهدة الصُّلح ـ **أَنْ لا تَأْخُذَهُمْ بِحَدَثٍ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَلا بِإِحْنَةٍ تَجِدُهَا فِي نَفْسِكَ عَلَيْهِمْ**»[2].

ثم جاء دور التَّاريخ فخصَّص نصرُ بن مُزاحِم المِنْقَرِي كتاباً في مقتل حُجْرِ بن عَدِيّ، ولوط بن يحيى بن سعيد الأزدي كتاباً[3]، وهشام بن محمد ابن السَّائب كتاباً في حُجْر، وكتاباً آخر في مقتل رُشَيد ومِيثَم وجُوَيْرِيَّة بنِ مُشْهِر»[4].

الأحاديث في حُجْرٍ وأصحابه

قال ابن عساكر: «إنَّ عائشة بعد أن أنكرت على معاوية قتلَه حُجْراً وأصحابه، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**سَيُقْتَلُ بِعَذْرَاءَ** ـ الموضع الَّذي قتل فيه حُجْر وأصحابه ـ **أَنَاسٌ يَغْضَبُ اللهُ لَهُمْ وَأَهْلُ السَّمَاءِ**»[5].

وروى مثلَه بطريق آخر عنها.

---

(١) وذكر ذلك كلٌّ من الإستيعاب [١/ ٣٣٢]، وأسد الغابة [١/ ٣٨٦]، والدَّرجات الرَّفيعة للسيِّد علي خان المدني / ٤٣٠] والشَّيخ في الأمالي [أي الطّوسي / ١٧٠].

(٢) البحار (ج ١٠ ص ١٤٩) [٤٤/ ٢١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) فهرست ابن النديم (ص ١٣٦) [/ ١٠٥ و ١٠٦]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) النَّجاشي (ص ٣٠٦) [/ ٤٣٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٥) تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢٢٦، أيضاً راجع: البداية والنّهاية ٦/ ٢٥٣، البداية والنّهاية ٨/ ٦٠، إمتاع الأسماع للمقريزي ١٢/ ٢٢٠.

وروى البيهقيُّ في الدَّلائل ويعقوبُ بن سفيان في تاريخه: عن عبد الله بن زرير الغافقي قال: سمعت عليَّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: «**يَا أَهْلَ العِرَاقِ، سَيُقْتَلُ مِنْكُمْ سَبْعَةُ نَفَرٍ بِعَذْرَاءَ، مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ أَصْحَابِ الأُخْدُودِ**»[1].

الشُّهداءُ من أصحاب حُجْر

عَلمنَا ـ ممَّا سبق ـ أنَّ أصحاب حُجْر صَفْوةٌ من رجال الله القليلين، وأنهّم «**المُصَلُّونَ العَابِدُونَ، الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرونَ الظُّلْمَ، وَيَسْتَعْظِمُونَ البِدَعَ، وَلا يَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ**» على حدِّ تعبير الحسين عليه السلام عنهم فيما كتبه إلى معاوية.

ورأينا ـ إلى ذلك ـ كيف يَذكُرُهُم كُبراءُ المسلمين الآخرون كُلَّما ذكروا حُجْراً.

وإذا شاءت المقادير، أو شاءت الرِّقابات الأمَوِيّة طمسَ أخبارهم وتناسي آثارهم، فإنَّهم شهداء المبادئ، وقرابين الحقِّ المغصوب، وكفاهم ذلك فضلاً ومجداً وظهوراً في التَّاريخ.

ولَقِي معاويةُ في حَجَّتَه «المقبولة..» بعد قتل هذه الزُّمرة الكريمة، الحسينَ بنَ عليٍّ عليهما السلام في مكّة، فقال له ـ مزهوّاً ـ: «هل بلغك ما صنعنا بحُجْرٍ وأصحابه وأشياعه شيعةِ أبيك؟». قال: «**وَمَا صَنَعْتَ بِهِمْ؟**» قال: «قتلناهم وكَفَّنّاهم وصلَّينا عليهم ودفنَّاهم!!» فضحك الحسين عليه السلام، ثم قال: «**خَصْمُكَ القَوْمُ يَا مُعَاوِيَةُ، لَكِنَّا لَوْ قَتَلْنَا شِيعَتَكَ، مَا كَفَّنَّاهُمْ، وَلا صَلَّيْنَا عَلَيْهِمْ، وَلا قَبَرْنَاهُمْ**»[2].

---

(١) دلائل النبوّة للبيهقي ٦/ ٤٥٦، أيضاً راجع: تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٢٢٧،البداية والنّهاية ٦/ ٢٥٢، إمتاع الأسماع للمقريزي ١٢/ ٢١٩،

(٢) البحار [٤٤/ ١٢٩] وغيره [الإحتجاج ٢/ ١٩]، وروى مثلها الطبري [٤/ ٢٠٧] عن الحسن، ولا يصحُّ لأنّ فجائع حُجْر وأصحابه كانت بعد وفاة الحسن بسنتين. وروى مثلها ابن الأثير ⇦

وإليك الآن أسماءَ الشُّهداء الممتحنين، مرتَّبة على الحروف وملحقة بما يتّصل بكلٍّ منهم من معلومات:

أ ـ **شريكُ بنُ شَدَّاد** أو ثداد **الحَضْرَمِيُّ**، وسمّاه آخر عَريكُ بنُ شَدَّاد[1].

ب ـ **صَيْفِي بنُ فَسِيلٍ الشَّيْبَانِيُّ**، رأسٌ في أصحاب حُجْر، حديد القلب، شديد العقيدة، سديد القول، ألقِي القبض عليه وأحضِر لزياد فقال له: «يا عدوَّ الله!! ما تقول في أبي تُراب؟»، قال: «ما أعرف أبا تُراب»، قال: «ما أعْرَفَكَ به؟»، قال: «ما أعرِفُه»، قال: «أما تعرِفُ عليَّ بن أبي طالب؟»، قال: «بَلى»، قال: «فذاك أبو تُراب»، قال: «كَلاَّ، ذاك أبو الحسن والحسين عليهما السلام». فقال له صاحب الشُّرطة: «يقول لك الأمير: هو أبو تُراب، وتقول أنت: لا؟»، قال: «وإنْ كَذَبَ الأميرُ أتريد أن أكذِب أنا وأشهد على باطلٍ كما شهد؟!» ـ أنظر إلى خُلُقِه وصلابته ـ قال له زياد: «وهذا أيضاً مع ذنبك!! عَلَيَّ بالعَصا»، فأتي بها، فقال: «ما قولُك؟»، قال: «أحْسَنُ قولٍ أنا قائله في عبدٍ من عباد الله المؤمنين»، قال: «إضربوا عَاتِقَه بالعصا حتى يلصق بالأرض»، فضُرِبَ حتى لزم الأرض!! ثم قال: «أقلعوا عنه ـ أيه، ما قولك في عليٍّ؟»، قال: «والله لو شرحتني بالمواسي والمُدى ما قلتُ إلاَّ ما سمعتَ مني». قال: «لَتَلْعَنُنَّه، أو لأضربنَّ عنقك!» قال: «إذاً تضربها والله قبل ذلك، فإن أبيت إلاَّ أن تضربها، رضيتُ بالله وشَقيت أنت!».

قال: «إدفعوا في رقبته» ـ ثم قال ـ: «أوقِرُوه حديداً، وألقوه في السِّجن!»[2].

⇦

[٣/ ٤٨٦] عن الحسن البصري قال: «فقال: حَجُوهُم وربِّ الكعبة»..(المؤلف رحمه الله)

(١) لم يرد له ذكرٌ في الأخبار سوى صحبته مع حُجْر.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٢٤/ ٢٥٩، تاريخ لطبري ٤/ ١٩٨، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٧٧.

أقول: من هذه الرّواية وكذلك مثيلاتها كخبر الشّهيد مِيثم التّمار والّذي قبض عليه زيادٌ ودعاه إلى

⇦

ثمَّ كان في قافلة الموت مع حُجْر، ومن شهداء عَذرَاء الميامين.

ج ـ **عبدُ الرَّحمَنِ بنُ حَسَّانٍ العَنَزِيُّ**. كان من أصحاب حُجْرٍ وسيق معه مُكبَّلاً بالحديد، ولما كانوا في مَرج عَذراء طلب أن يبعثوا به إلى معاوية ـ وكأنّه ظَنَّ أنَّ معاوية خيرٌ من ابن سميَّة ـ. فلمّا أدخل عليه، قال له معاوية: «يا أخَا ربيعةَ! ما تقول في عليٍّ؟» قال: «دَعني ولا تسألني، فهو خيرٌ لك!»، قال: «والله لا أدَعُك»، قال: «أشهَدُ أنَّه كان

⇦

البراءة من عليٍّ عليه السلام فقال له: «تبرّأ من أبي تراب»، قال: «لا أعرف أبا تراب»، قال: «تبرّأ من عليّ بن أبي طالب»، فقال له: «فإن لم أفعل؟» قال: «إذاً والله لأقتلنّك!...» رجال الكشّي ١/ ٢٩٦، قاموس الرِّجال ١٠/ ٣١٢. نجد أنّ صيفي بن فَسيل ومِيثم التّمار يرفضان وبكلّ شِدَّة تسمية أمير المؤمنين عليه السلام بـ«أبي تراب»، وهذا يعني أنّ هذه التّسمية وإن شاعت وذاعت له صلوات الله عليه، إلاّ أنّها غير مرضيّة عند الصَّدر الأوّل من الشّيعة بل عند خيارهم، ولو كانت ثابتةً لما صحّ لهما أنْ يُنكرانها وهما عارفانِ بأمير المؤمنين وأحواله. وممّا يقوّي قولنا هذا أنّ هذه الكُنية خَلت منها المصادر الشِّيعيَّة المعتبرة، وإن وردت فهي في روايات ضعيفة، يشهد متنها بوضعها، كالّتي رواها الشّيخ الصّدوق رحمه الله في علل الشّرائع ١/ ١٥٥ و ١٥٧ و ١٨٥ فكلُّها ضعيفة متناً وسنداً.

أضف إلى ذلك، أنَّ هذه الكنية لو صحّت لكثر ذكرها على لسان الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، في زياراتهم له صلوات الله عليه أو في ذكر فضائله ومناقبه، بل لا يوجد موردٌ واحد فيه ذكر لهذه الكنية. فهي لا تعدو أن تكون مستوردةً من الجهاز الأموي المقيت وخاصّة معاوية.

ومعنى «أبي تراب» هو الفقير الّذي ألصقه الفقر إلى التُّراب، منه قوله تعالى: ﴿**أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ (سورة البلد / ١٦) و«مَتْرَبَة» مصدر ميميّ من «تَرِبَ» ومعناه أنَّ المسكين لشدَّة حاجته ومسكنته كأنّه مطروح على التّراب وقد لصق به لشدَّة فقره والعجم تقول: «زمين گير». وهذا مثل قولهم: «فَقرٌ مُدْقِع» فإنّه مأخوذ من الدَّقعاء وهو التُّراب. ويقال: رَجُلٌ تَرِبٌ أي لصق بالتُّراب من الفقر، ويضادُّه: «أتْرَبَ الرَّجُلُ»، أي صار له من الأموال بعدد التُّراب. أنظر: لسان العرب ١/ ٢٢٨. وورد في صحيح مُسلم ٤/ ١٩٩، في حديث فاطمة بنتِ قَيْس قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ تَرِبٌ لا مَالَ لَهُ**». وكما قيل قديماً: «**رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ**». والبحثُ طويلٌ، لا يسع المقام بيانه، قد أفضنا القول فيه في بعض المناسبات.

من الذّاكرين الله كثيراً، والآمرين بالحقّ، والقائمين بالقسط، والعافين عن النّاس».
قال: «فما قولُك في عثمان؟»، قال: «هو أوَّلُ من فتح باب الظُّلم وأغلق أبواب الحقِّ»،
قال: «قَتَلْتَ نفسَك»، قال: «بلْ إيّاك قتلتُ، ولا ربيعة بالوادي؟!» ـ يعني ليشفعوا فيه
أو يدفعوا عنه ـ. فردَّه معاوية إلى زياد في الكوفة وأمره بقتله شرَّ قتلة!![1]

وكان عبد الرَّحمن هذا هو القائل يوم كبسهم جلاوِزة معاوية في مرج عذراء:
«اللّهُمَّ اجعلني ممَّن تُكْرِم بهوانهم وأنت عني راضٍ، فطالما عرَّضت نفسي للقتل فأبى
الله إلاَّ ما أراد»[2].

وذكره حبَّة العُرَني، فيما حدّث عنه في تاريخ الكوفة، (ض ٢٧٤) قال: «وكان عبد
الرَّحمن بن حسَّان العَنَزيّ من أصحاب عليٍّ عليه السلام، اقام بالكوفة يحرِّض النّاس على بني أميَّة،
فقبض عليه زيادٌ، وأرسله إلى الشَّام، فدعاه معاوية إلى البراءة من عليٍّ عليه السلام، فأغلظ عبد
الرَّحمن بالجواب، فردَّه معاوية إلى زياد فقتله»[3].

وقال ابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٢) والطَّبري (ج ٦ ص ١٥٥)[4] أنّه دفنه حَيّاً بقُسِّ
النَّاطِف[5].

أقول: ولو أدرك معاوية قتلات زياد لشيعة عليٍّ في الكوفة، وقطْعه الأيدي
والأرجل والألسنة، وسمله العيون، لما زاده وَصاة بابن حسَّان العَنَزِيّ حين أمره بأن
يقتله شرَّ قتلة، وهل قتلةٌ شرٌّ من هذه القتلات والمثلات؟ ولكنَّ زياداً نزل على وصيّة

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٨/ ٢٦، تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٦، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٦.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٨/ ٢٥، تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٥.
(٣) تاريخ الكوفة للسيّد البراقي/ ٣٢١.
(٤) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٨٦، تاريخ الطّبري ٤/ ٢٠٦.
(٥) موضعٌ قريبٌ من الكوفة على شاطئ الفرات الشّرقيّ ويُقابله «المروحة» على شاطئها الغربيّ كانت فيه موقعة أبي عبيد والد المختار الثّقفي. (المؤلِّف رحمه الله)

معاوية فابتدع قتلة الدّفن حيّاً!![1].

وما أدراك ما سيلقى معاوية على هذه الوَصاة، وما سيجازى زياد على هذه القتلات يوم يردون جميعاً إلى الله مولاهم الحقّ؟؟.

د ـ **قَبِيصَةُ بنُ رَبِيعَةَ العَبْسِيّ**[2]. وسمّاه بعضُهم: ابن ضُبَيعَة ـ بدل ربيعة[3] ـ وهو الشّجاع المقدام الّذي صمّم على المقاومة بسلاحه وبقومه، لولا أنّ صاحب الشُّرطة آمَنَه على دمه وماله، فوضع يده في أيديهم، إيماناً ببراءة «الأمان» الّذي كان لا يزال مُتَّبعاً لدى العرب فضلاً عن أهل الإسلام، ولولا أنّ الخلائق الإسلاميَّة والعربيّة معاً، كانت قد تبخَّرت عند القوم، أو أنّهم كانوا قد فهموها على أنّها وسائل للغلبة والبَّطش فحسب!

وأُحضِر ابن ضُبَيعَة العبسي لزياد فقال له: «أما والله لأجعلنَّ لك شاغلاً عن تلقيح الفتن والتوثُّب على الأمراء!!» ـ أنظر إلى المنفذ الضيّق الّذي ينظر منه الأقوياء ـ قال: «إنّي لم آتك إلاّ على الأمان»، قال: «انطلقوا به إلى السِّجن»[4].

ثم كان بعد ذلك في الرَّكب المثقَل بالحديد الّذي يُسار به إلى القتل صَبراً. وفي

---

(١) ثمّ كان هذا النّوع من القتل السُّنة السَّيئة الّتي تبعه عليها الجبابرة من بعده. ولما غضب بنو أمية على عمر المقصوص وهو مؤدِّب معاوية بن يزيد بن معاوية، الّذي استقال من خلافتهم احتجاجاً عليهم، أخذوه ودفنوه حياً!. الدَّميري في حياة الحَيَوَان (ص ٦٢) [١/ ٩٤] وروى هناك خطبة معاوية هذا الّتي يشرح فيها حيثيات استقالته بما يُشعر بتشيّعه لأهل البيت عليهم السلام. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ووجوه الشّيعة أنظر: الطَّبقات لابن سعد ٦/ ٢٣١، تاريخ ابن عساكر ٤٩/ ٢٦٤.

(٣) الطّبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٢٣١، تاريخ مدينة دمشق ٤٩/ ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري ٤/ ١٩٨، تاريخ ابن عساكر ٤٩/ ٢٦٦.

الحديث: «مَنْ آمَنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ وَإِنْ كَانَ المَقْتُولِ كَافِراً»[١].

ومرّوا به ـ ولَمَّا يخرجوا بالقافلة من الكوفة ـ على داره فإذا بناته مُشْرئبَّاتٌ إليه يبكينه، فقال للحرسيين وائل وكثير: «إئذنا لي فأوصي إلى أهلي»، فلمّا دنا منهنَّ وهن يبكين سكت عنهن ـ ساعة ـ، ثم قال لهن: «اسكتن»، فسكتن، فقال: «اتّقين الله عزَّ وجلّ واصبرن فإنِّي أرجو من ربِّي في وجهي هذا إحدى الحُسنَيين: إمَّا الشَّهادة وهي السَّعادة، وإمَّا الإنصراف إليكنَّ في عافيةٍ. وإنَّ الّذي يَرزُقُكُنَّ مؤونتكنَّ هو الله تعالى، وهو حيٌّ لا يموت. ـ أنظر إلى النَّفس الملائكيَّة في إهاب البشر الإنساني ـ أرجو أن لا يُضيِّعَكُنَّ، وأن يحفظني فيكُنَّ». ثم انصرف[٢].

وباتت الأسرة اليائسة الوَلهى (كما يشاء معاوية) تخلِطُ البكاء بالبكاء، وتصِلُ الدُّعاء بالدُّعاء، وكم لبنات قَبيصَةَ يومئذٍ من أمثال.

قال الطَّبريُّ: «ووقع قَبيصةُ بن ضُبيعة في يدي أبي شريف البَدِيّ فقال له قَبيصةُ: إنّ الشَّرَّ بين قومي وبين قومك آمن فليقتلني سواك، فقال: برّتك رَحمٌ! ثم قتله القُضَاعِيّ!»[٣].

أقول: وأيُّ نفس قويّة هذه الّتي تنتبه في مثل هذه اللّحظة إلى الحؤول دون الشرِّ بين القومين والإحتياط على الإصلاح.

هـ ـ كِدَامُ بنُ حَيَّانٍ العَنَزِيُّ.

---

(١) الاصابة (ج ٤ ص ٢٩٤) [٤/ ٥١٥]. (المؤلِّف ﷺ)

أيضاً ورد في مجمع الزوائد للهيثمي ٦/ ٢٨٥، المعجم الكبير للطبراني ٤/ ٢٩٨، وفي الأوسط ٦/ ٣٦٨، والصّغير ١/ ٢٢، تهذيب الكمال للمزي ٩/ ٢٠٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠١.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٠٥.

و ـ **مُحرزُ بنُ شِهَابِ بنِ بُجَيرِ بنِ سُفيَانِ بنِ خَالِدِ بنِ مِنْقَرِ التَّمِيمِيُّ**(١) وكان من رؤساء النّاس، ومن نُقاوَةِ الشِّيعة المعروفين بتشيُّعِهم، وكان مُحْرِزُ هذا على ميسرة جيش مَعْقِلِ بنِ قَيْسٍ في حربه للخوارج سنة ٤٣،(٢) وكان جيش مَعْقِل في هذه الحرب ثلاثة آلاف هم نُقَاوةُ الشِّيعة وفرسانُهم على حدِّ تعبير الطَّبَريّ فيما وصفهم به (ج ٦ ص ١٠٨)(٣).

٢ ـ عَمْرُو بنُ الحَمِقِ الخُزَاعِيّ(٤):

هو ابن الكَاهِنِ بن حَبِيبِ بنِ عَمْرِو بْنِ القَيْنِ بْنِ ذِرَاحِ(٥) بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ الخُزَاعِيّ.

أسلم قبل الفتح، وهاجر إلى المدينة، فكان الصَّحابيَّ البَرَّ الّذي حَظي بدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يمتِّعه الله بشبابه، فمرّت عليه ثمانون سَنَةً ولم يُرَ له شَعرةٌ بيضاء، على صباحةٍ في وجهه كانت تَزيدُه بهاء. وصحب بعده أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، فكان الحواريَّ المخلِص الّذي يقول له بحقٍّ: «**لَيْتَ فِي جُنْدِي مَائَةً مِثْلَكَ**»(٦). وشهد معه الجمل وصفّين والنّهروان.

---

(١) يُراجع عمّا كتبناه في حُجْرٍ وأصحابه: الدِّينَوَرِيّ [الأخبار الطِّوال / ٢٢٣] وابن الأثير [٣/ ٤٧٢] والطَبري [٤/ ١٨٧] وابن أبي الحديد [لم أعثر عليه] والإستيعاب [١/ ٣٢٩] والنَّصائح الكافية [/ ٨٢] وتاريخ الكوفة [/ ٣١٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) تاريخ الطَّبري ٤/ ١٦٠.

(٣) تاريخ الطبري ٤/ ١٤٤.

(٤) ذكرنا بعض أحواله في هذا الكتاب الصّفحة / ١٤٨.

(٥) الصّحيح: «رِزَاح» كما هو مضبوط في جميع المصادر.

(٦) المعيارُ والمُوازنة لأبي جعفر الإسكافي / ١٣٠، وقريب منه في شرح نهج البلاغة ٣/ ١٨٢، وقعة صفِّين لابن مزاحم / ١٠٤، الإختصاص للشّيخ المفيد رحمه الله / ١٥.

ودعا له أمير المؤمنين بقوله: «**اللَّهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ بِالتُّقَى، وَاهْدِهِ إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ**»[1]. وقال له: «**يَا عَمْرُو إِنَّكَ لَمَقْتُولٌ بَعْدِي، وَإِنَّ رَأْسَكَ لَمَنْقُولٌ، وَهُوَ أَوَّلُ رَأْسٍ يُنْقَلُ فِي الإِسْلامِ. وَالوَيْلُ لِقَاتِلِكَ**»[2].

قال ابن الأثير (ج ٣ ص ١٨٣)[3]: «ولما قَدِم زيادٌ الكوفة قال له عُمارة بن عُقْبَة بن أبي مُعَيط: إنّ عمرو بن الحَمِق يجمع إليه شيعة أبي تراب، فأرسل إليه زياد: ما هذه الجماعات عندك؟ من أردت كلامه ففي المسجد»[4].

«ثمَّ لم يزل عمرو ـ فيما يروي الطَّبري ـ خائفاً مُترقِّباً حتى كانت حادثة حُجْر بن عَدِيّ الكِندي، فأبلى فيها بلاء حَسَناً وضربه رجلٌ من الحَمراء ـ شُرْطَة زياد ـ يُدْعَى بَكر بن عُبيد بعمود على رأسه فوقع وحمله الشِّيعة فخبَّأوه في دار رجلٍ من الأزد، ثمَّ خرج فارّاً وصَحِبَه الزَّعيم الآخر ـ رِفَاعَةُ بنُ شَدَّاد ـ فيمَّما المدائن ثمَّ ارتحلا حتى أتيا أرض المَوْصِل فكمنا في جبل هناك، واستنكر عامل ذلك الرُّسْتاق شأنهما فسار إليهما بالخيل، فأمّا عمرٌو فلم يصل المَوْصِل إلاّ مريضاً بالإستسقاء، ولم يكن عنده امتناع. وأمّا رِفَاعَة بن شدَّاد ـ وكان شَابّاً قَوِيّاً ـ فوثب على فرس له جواد، وقال لعمرو: أقاتل عنك، قال: وما ينفعني أن تُقاتل، أنجُ بنفسك إن استطعت. فحمل عليهم فأفرجوا له، فخرج تنفُر به فرسه، وخرجت الخيل في طلبه ـ وكان رامياً ـ فأخذ لا يلحقُه فارسٌ إلاّ رماه فجرحه أو عقره فانصرفوا عنه. وسألوا عمرواً: من أنت؟ فقال: من إن تركتُموه

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٣/ ١٨١، وقعة صفّين لابن مزاحم / ١٠٣، بحار الأنوار ٣٢/ ٣٩٩.

(٢) سفينة البحار (ج ٢ ص ٣٦٠) [وفي البحار ٣٤/ ٣٠٠]. (المؤلِّف ﷺ)

(٣) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٢.

(٤) وذكر الطبري [٤/ ١٧٦] وشاية عمارة بن عقبة ثم قال: «ويقال ان الّذي رفع على عمرو بن الحمق وقال له: قد انغل المصرين هو يزيد بن رويم». (المؤلِّف ﷺ)

كان أسلَمَ لكم، وإنْ قتلتُمْوه كان أضرَّ لكم! فسألوه فأبى أن يخبرهم، فبعث به ابنُ أبي بَلتعَةَ، عامل الرُّستاق، إلى عامل المَوصِل، وهو (عبدُ الرَّحمن بن عبد الله بن عثمان الثَّقفِيّ)، فلمّا رأى عمرو بن الحمِق عرفه، وكتب إلى معاوية بخبره، فأمره معاوية بأن يَطْعَنَه تسعَ طَعنات كما كان فعل بعثمان فَطُعن ومات بالأولى منهن أو الثَّانية»[1].

وخالف ابنُ كثير رواية الطَّبريّ هذه، فقال: «إنّ أصحاب معاوية عَثَرُوا عليه في الغار مَيتاً، فحزّوا رأسه، وبعثوا به إلى معاوية، وهو أوَّل رأسٍ طيف به في الإسلام. ثمَّ بعث معاويةُ برأسه إلى زوجته (آمنة بنت الشّريد) وكانت في سجن معاوية ـ أنظر إلى أفظع ألوان الإرهاب ـ فألقي في حِجْرِها، فوضعت كفَّها على جبينه، ولثمت فمه، وقالت: غيَّبتُمُوه عَنِّي طويلاً، ثم أهديتُمُوه إليّ قتيلاً، فأهلاً به من هديّة غير قالية ولا مقليّة»[2].

ثمَّ كان فيما كتب به الحسين عليه السلام إلى معاوية: «**أوَ لَسْتَ قاتِلَ عَمْرِو بْنِ الْحُمْقِ صاحِبِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله الْعَبْدِ الصّالِحِ الَّذي أَبْلَتْهُ الْعِبادَةُ، فَنَحَلَ جِسْمُهُ، وَصَفَرَتْ لَوْنُهُ، بَعْدَ ما أَمَّنْتَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ عُهُودِ الله وَمَواثيقِهِ، ما لَوْ أَعْطَيْتَهُ طائِراً لَنَزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ، ثُمَّ قَتَلْتَهُ جُرْأَةً عَلى رَبِّكَ، وَاسْتِخْفافاً بِذلِكَ الْعَهْدِ.**»[3].

أقول: هو يُشير بذلك «العهد» إلى نصوص المادَّة الخامسة في معاهدة الصُّلح.

وقال في سفينة البحار: «وقبرُه بظاهر المَوْصِل، ابتدأ بعِمارته أبو عبد الله سعيدُ بن حَمْدَان، ابنُ عَمِّ سيف الدَّولة، في شعبان من سنة ٣٣٦»[4].

---

(١) تاريخ الطَّبري ٤/ ١٩٧، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٧٧، تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ٤٩٩.

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٥٢.

(٣) الإحتجاج ٢/ ٢٠، رجال الكشي ١/ ٢٥٣، أنساب الأشراف ٥/ ١٢٩.

(٤) سفينة البحار ٦/ ٤٦٣، أسد الغابة ٤/ ١٠١.

وجاء في أصول التّاريخ والأدب (ج ٩ ص ٢)[١]:

قال أبو الحسن عليُّ بن أبي بكر الهروي في كتاب الزّيارات[٢]: «وظاهر المَوْصِل على الشّرف الأعلى مشهد عَمْرِو بنِ الحَمِق، دُفِنَت جُثَّته، ورأسه حمل إلى دمشق، وقيل: هو أوّل رأسٍ حُمِلَ في الإسلام، وفي المشهد بعضُ الأشراف من وُلد الحسين عليه السلام».

٣ . عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى الحَضْرَمِيُّ، وأصحابه:

عن محمّد بن بحر الشّيباني في كتابه: «الفُروق بين الأباطيل والحُقوق» فيما أسنده إلى القاسم بن مجيمة: «ما وفى معاويةُ للحسن بن عليٍّ بشيء عاهده عليه، وإنّي قرأت كتاب الحسن إلى معاوية يُعدِّد عليه ذُنوبه إليه وإلى شيعة عليٍّ عليه السلام فبدأ بذكر عبد الله بن يحيى الحَضْرَميّ ومن قتلهم معه»[٣].

أقول: ولا نعرف الآن من أحوال الحَضْرَميّ وحادثة قتله وعِدَّة أصحابه المستشهدين شيئاً، ولكنّا نعرف أنَّ هذا الرَّجل كان من رجال أمير المؤمنين وأنّه الّذي قال له يوم الجمل: «**أَبْشِرْ يَا ابْنَ يَحْيَى أَنْتَ وَأَبُوكَ**»[٤].

وعلمنا فيما علّل به بعضهم تقديم الحسن عليه السلام ذكر الحضرميّ على غيره ممّن قتلهم معاوية من الشِّيعة، أنَّ الحَضْرَميَّ هذا كان أبعدهم عن الدُّنيا وأقربهم إلى حياة الرَّهبنة الّتي لا تُوهِم أيَّ خطرٍ على سياسة الملك. قالوا: «وعلم معاوية ما كان عليه ابنُ يحيى وأصحابه من الحزن لوفاة عليٍّ أمير المؤمنين، وحُبّهم إيّاه، وإفاضتهم في ذكره وفضله،

---

(١) مخطوط.

(٢) لا يحضرني الكتاب.

(٣) البحار (ج ١٠ ص ١٠١) [٤٤/ ٣، عن علل الشّرائع ١/ ٢١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) كلامه صلوات الله عليه بتمامه هكذا: «**أَبْشِرْ يَا ابْنَ يَحْيَى أَنْتَ وَأَبُوكَ مِنْ شُرْطَةِ الخَمِيسِ سَمَّاكُمُ اللهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ**» رجال البرقي / ٣، الإختصاص للشّيخ المفيد / ٧.

فجاء بهم وضَرَبَ أعناقهم صبراً. ومن أنزل راهباً من صومعته فقتله بلا جناية منه إلى قاتله أعجب ممَّن يُخرِجُ قَسّاً من دير فيقتله، لأنّ صاحب الدَّير أقرب إلى بسط اليد لتناول ما معه من صاحب الصَّومعة الّذي هو بين السَّماء والأرض، فتقديم الحسن ـ فيما عدَّده على معاوية من الذّنوب ـ العبَّاد على العُبَّاد، والزُّهَّاد على الزُّهَّاد، ومصابيح البلاد على مصابيح البلاد، لا يُتعجَّب منه، بل يُتعجَّب لو قدَّم في الذّكر مقصِّراً على مخبِت ومقتصِداً على مجتهد»[1].

وفاجعة (عبد الله بن يحيى) أشبه بفاجعة حُجْر بن عَدِيّ، وكلاهما قُتِلا صبراً، وكلاهما قُتل معهما أصحاب، وكلاهما أخِذا بغير ذنبٍ إلاّ الذّنب الّذي هو عنوان فضيلتهما.

٤. رُشَيْد الهَجَرِيّ[2]

تلميذ عليٍّ عليه السلام، وصاحبه المنقطع إليه، والعالم المعْتَرَف له بعلم البلايا والمنايا[3]، يروي عنه ناسٌ كثيرون، ولكنّهم جميعاً سكتوا عن إسمه خوف السُّلطان الأمويّ، فلم ترو عنه علناً إلا ابنته الوحيدة الّتي كانت قد حضرت مقتله، وهي الّتي جمعت أطرافه ـ يديه ورِجليه ـ وقد قَطَعَهَا ابن سميَّة!

قالت تسأله حين قطعت أطرافه: «يا أبَتِ هل تجد ألماً لما أصابك؟» فقال: «لا يا

(١) البحار (ج ١٠ ص ١٠٢) [٤٤/ ٩، والتّعليل هو من الشّيخ الصّدوق رحمه الله، أنظر علل الشّرائع ١/ ٢١٦]. (المؤلّف رحمه الله)

(٢) «رُشَيْد» بالتّصغير، و«هَجَري» بفتح أوّليه، نسبة إلى بلاد الهَجَر ـ البحرين [أنظر: معجم البلدان للحموي ٥/ ٣٩٣] ـ. (المؤلّف رحمه الله).

أقول: ذكرنا فيما مرّ عليك من مطاوي هذا الكتاب الصّفحة / ١٨٢، شيئاً من أحواله رضوان الله عليه.

(٣) بصائر الدّرجات للصفّار / ٢٨٤، الكافي الشريف ١/ ٤٨٤، دلائل الإمامة للطّبري الشّيعي / ٣٢٥، رجال الكشّي ٢/ ٧٠٩، الأمالي للشّيخ الطّوسي / ١٦٦.

بُنَيَّتي إلاّ كالزِّحَام بين النّاس!»[1].

أُتي به إلى زياد فقال له: «ما قال لك خليلُكَ ـ يعني علياً عليه السلام ـ إنّا فاعلون بك؟»، قال: «تَقْطَعُون يدي ورِجلي وتَصْلِبُونني»، فقال زياد: «أما والله لأكذِّبنَّ حديثه، خلّوا سبيله». فلما أراد أن يخرج، قال: «رُدُّوه، لا نجد لك شيئاً أصلح ممَّا قال صاحبك، إنّك لن تزال تَبغي لنا سُوءاً إن بقيت، إقطعوا يديه ورجليه»، فقطعوها وهو يتكلّم!، فقال: «إصْلِبُوه خَنقاً في عنقه»، فقال رُشَيد: «قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتُمُوه»، فقال زيادٌ: «إقطعوا لسانه»، فلمّا أخرجوا لسانه قال: «نفِّسوا عنّي حتى أتكلّم كلمةً واحدةً»، فنفّسوا عنه فقال: «هذا والله تصديقُ خبر أمير المؤمنين، أخبرني بقطع لساني».

وأُخْرِج من القصر مُقطَّعاً، فاجتمع النَّاس حوله، ومات من ليلته رضوان الله عليه.

قالت ابنته: «قلتُ لأبي: ما أشدَّ اجتهادك!»، قال: «يا بُنيَّة يأتي قومٌ بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهادنا».

وقال لها: «يا بُنيَّتي أميتي الحديث بالْكِتْمانِ، واجعلي القلب مَسْكَنَ الأمانة»[2][3].

٥. جُوَيْرِيَّةُ بْنُ مُسْهِر العَبْدِيُّ

قال ابن أبي الحديد: ونظر إليه عليٌّ عليه السلام يوماً فناداه: **«يَا جُوَيْرِيَةُ إلْحَقْ بِي فَإنِّي إذَا رَأَيْتُكَ هَوَيْتُكَ»**، ثمّ حدَّثه بأمور سرّاً، وفي آخر ما حدّثه قال: **«يَا جُوَيْرِيَّةُ أَحِبَّ حَبِيبَنَا مَا أَحَبَّنَا فَإذَا أَبْغَضَنَا فَأَبْغِضْهُ، وَابْغِضْ بَغِيضَنَا مَا أَبْغَضَنَا فَإذَا أَحَبَّنَا فَأَحِبَّهُ»**. وكان من

---

(١) الإختصاص للشّيخ المفيد / ٧٧، الأمالي للشّيخ الطّوسي / ١٦٦، رجال الكشّي ١/ ٢٩١.

(٢) الإختصاص / ٧٨، المحاسن للبرقي ١/ ٢٥١. (المؤلِّف رحمه الله)

وفي هذه المصادر نفسها، ورد إسمها: «القنوا» أو «القنوة».

(٣) سفينة البحار (ج ١ ص ٥٢٢). (المؤلِّف رحمه الله)

اختصاصه بعليٍّ عليه السلام ما روي أنّه دخل يوماً عليه وهو عليه السلام مضطجعٌ، وعنده قومٌ من أصحابه، فناداه جويريَّة: أيُّها النّائم استيقظ فلتُضْرَبُنَّ على رأسك ضربةً تُخْضَب منها لحيتك. قال: فتبسّم أمير المؤمنين عليه السلام، ثم قال: «**وَأُحَدِّثُكَ يَا جُوَيْرِيَّةُ بِأَمْرِكَ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُعْتَلَنَّ**(١) **إِلَى العُتُلِّ الزَّنِيمِ، فَلَيَقْطَعُنَّ يَدَكَ وَرِجْلَكَ وَلَيَصْلِبُنَّكَ تَحْتَ جِذْعِ كَافِرٍ!**» قال: فوالله ما مضت الأيّام على ذلك حتى أخذ زياد جويريَّة فقطع يده ورجله، وصلبه إلى جانب جِذع ابن معكبر، وكان جذعاً طويلاً، فصلبه على جذع قصير إلى جانبه»(٢).

أقول: وروى هذا الحديث أيضاً حَبَّة العُرَنيّ رحمه الله. وزاد قوله: «وكان زيادُ ابنُ أبيه ممَّن نصب العداوة لأمير المؤمنين عليه السلام وكان يتتبَّع أصحاب عليٍّ وهو بهم أبصر فيقتلهم تحت كُلِّ حَجَرٍ ومَدَر»(٣).

٦. أوفى بنُ حِصْنٍ:

أحد فرائس الظُّلم الأمويّ. طلبه زيادٌ فأبى مواجهته، واستعرض زياد النّاس فمرّ به فقال: «من هذا؟» فقيل له: «أوْفَى بْنُ حِصْنٍ»، فقال زياد: «أتَتْك بخائنٍ رجلاه»، وقال له: «ما رأيك في عثمان؟» قال: «خَتَنُ رسول الله صلى الله عليه وآله على ابنتيه» قال: «فما تقول في معاوية؟» قال: «جوادٌ حليمٌ».

وكان أوفى لَبِقاً في لغته وأسلوبه فلم يجد عليه زياد مُلْزِمَاً.

وعاد عليه فقال له: «فما تقول فيَّ؟» قال: «بلغني أنّك قلت بالبصرة: والله لآخُذَنَّ

---

(١) «عَتَلَهُ»: جَذَبه، و«العُتُلّ»: الجافي الغليظ، و«الزَّنيم»: الدَّعي. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) الإرشاد للشّيخ المفيد ١/ ٣٢٣، شرح النهج لابن أبي الحديد ٢/ ٢٩١.

(٣) أقول: الرّواية يرويها حبّة العرني، كما في المصدرين المشار إليهما أعلاه، إلاّ أنّ العبارة الأخيرة الّتي ذكرها المؤلِّف رحمه الله فهي ليست من كلام العرنيّ، بل هي للسيّد البراقي، قالها بعد أن انتهى من نقل الرّواية. أنظر: تاريخ الكوفة / ٣٢١.

البريءَ بالسَّقيم والمُقْبِل بالمدبِر»، قال: «قد قلتُ ذاك»[١] قال: «خَبَطْتَهَا خَبْطَ عَشْوَاء!».

أقول: وكان من لَبَاقة هذا الرَّجل الحصيف أنَّه تدرَّج في أجوبته لزياد ـ كما ترى ـ إلى طريقة حكيمة من الوعظ حاول بها تنبيهه إلى أخطائه. ولا تنسَ أنَّه كان يقف من عَدُوِّه ساعتئذٍ بين النَّطع والسَّيف، ومن ذمَّته بين الحقِّ والباطل. وهذا هو ما يزيدنا إعجاباً بهؤلاء الأبطال من تلامذة عليٍّ عليه السلام، ولكنَّ شيئاً من وعظه لم يُجْدِه نفعاً سوى أن يقول زياد فيه: «لَيْسَ النَّفّاخ بشرّ الزّمرة»[٢] ثم أمر به فقتل»[٣].

ولا أدري، ولا أظنّ زياداً نفسه يدري، بأيِّ جريرة أخذ ابن حصن فأشاط بدمه و «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**» ـ كما في الحديث[٤] ـ؟

والرَّجل في أجوبته كلِّها كما رأيت لم يفضح سِرّاً، ولم يهتك أمراً. ولكن الّذي ناقض الكتاب صريحاً فأخذ البريء بالسّقيم والمقبل بالمدبر خلافاً لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٥] لحريٌّ بأن لا يفهم لُغة الحديث ولا لغة الكتاب.

---

(١) روى خطبته أكثر المؤرخين [تاريخ الطّبري ٤/ ١٦٦، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٤٨، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٣٠٣، شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦/ ٤]، وروينا هذا الفصل منها في هوامش الفصل الحادي عشر. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) أي: ليس المحرِّض في الحرب دون المقاتل. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٤٢.

(٣) يراجع ابن الأثير (ج ٣ ص ١٨٣) [الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٢]، والطبري (ج ٦ ص١٣٠ ـ ١٣٢) [٤/ ١٧٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) صحيح مسلم ٨/ ١١، مسند أحمد ٢/ ٢٧٧، سنن ابن ماجة ٢/ ١٢٩٨، سنن أبي داوُد ٢/ ٤٥٢، سنن الترمذي ٣/ ٢١٨، السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٩٢.

(٥) سورة النجم/ ٣٨. أقول: في العقد الفريد ٤/ ٢٠١، وشرح النَّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ٤ ـ واللّفظ للثّاني ـ: ـ في ذكر خطبة زياد بالبصرة وتوعّده بأخذ البرئ بالسَّقيم، والوفي بالنَّاكث ـ فقام أبو بلالٍ مِرْداسٌ بنُ أُديّة، يهمس ـ وهو حينئذٍ شيخ كبير ـ فقال: أيُّها الأمير، أنبأنا الله بخلاف ما قلت، وحكم بغير ما حكمت، قال سبحانه: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾، فقال

⇦

واعتصم بغلوائه فإذا النّاس من حوله في أشدِّ محن الدُّنيا: جماعاتٌ تُساق إلى السُّجون، وزُرافاتٌ تُطارد أينما تكون، ومئاتٌ تُعرض عليه كُلَّ يوم لتُسمل عيونهم، أو لتقطَّع أطرافهم، أو ليؤمر بهم فتُحَطَّم ضلوعُهم(١). وبين الكوفة والشّام فرائسُ أخرى تَرْزَحُ بالأصفاد. وما في الكوفة إلاّ الإرهاب المُميت، وما في الشّام لهؤلاء إلاّ الموت المرهوب.

وخشعت الكوفة الّتي كانت تفور ـ في أمسِها القريب ـ بالمؤامرات والمعارضات خُشوعَ الجَناح الكسير، بما وسعها من مظالم الحكّام الأمويِّين. وكان المتآمرون بالأمس هم المتآمرين بالجور اليوم، وكانوا هم الحاكمين بأمرهم فيما يَسُنُّون أو فيما يُنَفِّذُون، فما بالها لا ترتجف فَرَقاً؟ وما بال أهلها لا يلوذون بالفِرار هَرَباً؟

وخفي على معاوية وعلى ابن أبيه ورجال مدرسته أنَّ الإمعان بالعنف من أكبر الأسباب الّتي تُغذِّي المثل الأعلى الّذي يحاربه الحاكم العنيف، وإنَّ العنف لن يستطيع أن يقتل الفكرة الّتي كتب لها الخلود، ولكنَّها ستظلُّ نَواة الشَّجرة الّتي ستبسِق مع التّاريخ.

وهكذا حَييت مئات الملايين ـ بعد ذلك ـ وهي تُشارك الكوفة في فكرتها، وتحمل لمعاوية ورجاله وِتْرَها الّذي لا تُخْلِقُه الأيّام.

التَّعذيب بغير القتل:

وكان للغارة الأمَوِيّة ألوانٌ أخرى غير القتل والتَّشريد وهدم البيوت ومصادرة الأموال وكَمِّ الأفواه.

⇨

زياد: يا أبا بِلال، إنّي لم أجهل ما علمت، ولكنّا لا نخْلَصُ إلى الحقِّ منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضاً.

(١) جيء إلى زياد بعُمير بن يزيد (من أصحاب حُجْر بن عَدِيّ) وقد أعطي الأمان على دمه وماله، فأمر به زيادٌ فأوقِر بالحديد، ثم أخذته الرِّجال ترفعه حين إذا بلغ سُورها ـ أعلى القامة ـ ألقَوه فوقع على الأرض ثم رفعوه ففعلوا به ذلك مِراراً! الطَّبري (ج ٦ ص ١٤٧)[٤/ ١٩٦]. (المؤلِّف ﵀)

فقال ابن الأثير عند ذكره لفاجعة (أَوْفَى بْنِ حِصْنٍ): «وكأنّ أوّل قتيلٍ قتله زياد، بعد حادثة الثَّلاثين أو الثَّمانين الّذين قطع أيديهم!!»[1].

واستبطن معاويةُ دخائل البصرة والكوفة فلم يَدَع في هذين المصرين رئيس قوم، ولا صاحب سيف، ولا خطيباً مرهوباً، ولا شاعراً موهوباً من الشِّيعة، إلاّ أزعجه عن مقرِّه، فسجنه، أو غلَّه، أو شرَّده، أو أهدر دمه!

وإليك فيما يلي أمثلةً قليلةً من هذه النَّكبات الّتي قارفها أبو يزيد في الشّخصيَّات البارزة من رؤساء الشِّيعة يومئذٍ.

ب ـ زُعَمَاءُ الشِّيعَةِ المُرَوَّعُون

١ ـ عَبْدُ اللهِ بْنُ هَاشِمِ المِرْقَال[2]:

كان كبيرَ قُريشٍ في البصرة، ورأسَ الشِّيعة فيها.

وكان أبوه هَاشِمُ ـ المِرْقَال ـ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ أبي وَقَّاصٍ، القائد الجريء المقدام الّذي لقي منه معاويةُ في صِفِّين الرُّعب المُميت، وهو يومئذٍ على ميسرة عليٍّ عليه السلام.

كَتَب معاوية إلى عامله زياد: «أمَّا بعدُ، فانْظُر عبدَ الله بْنَ هَاشِمِ بْنِ عُتْبَةَ، فشُدَّ يده على عنقه، ثم ابعث به اليَّ».

فطرقه زياد في منزله ليلاً، وحمله مُقيَّداً مغلولاً إلى دمشق. فأُدخل على معاوية، وعنده عمرو بن العاص، فقال معاوية لعمرو: «هل تعرف هذا؟» قال: «هذا الّذي يقول أبوه يوم صِفِّين...» وقرأ رَجَزه وكان يحفظه ثمَّ قال مُتَمَثِّلاً:

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٢.

(٢) عبدُ الله كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وحَضَر صِفِّين، ويومَها حين قُتل أبوه، أخذ الرَّاية وقاتل، ولزم بعده الإمام الحسن عليه السلام حتّى أُخِذ أسيراً عقيب الصُّلح. وأبوه هاشم تقدَّمت ترجمته في الصَّفحة / ١٠٦ من هذا الكتاب.

«وقَد يَنْبُتُ المَرعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفوسِ كَمَا هِيَـا»[١]

واستمرَّ قائلاً: «دونك يا أمير المؤمنين الضَّب المُضِبّ، فاشخب أوداجه على أثباجه، ولا تردّه إلى العراق، فإنّه لا يصبر على النّفاق، وهم أهل غدر وشقاق وحزب إبليس ليوم هيجانه، وإنّ له هوىً سيودّيه[٢]، ورأياً سيُطغيه، وبِطَانة ستقويه[٣]، وجزاء سيئة مثلها».

وكان مثل هذا المحضر ومثل هذا التّحامل على العراق وأهله هو شِنْشِنة عمرو بن العاص المعروفة عنه، ولا نعرف أحداً وصف أهل العراق هذا الوصف العَدُوَّ قبله.

أمّا ابنُ المِرقَال فلم يكن الرِّعديد الّذي يُغْلِق التّهويل عليه قريحتَه، وهو الشِّبل الّذي تَنْمِيه الأسود الضَّراغم ـ فقال، وتوجّه بكلامه إلى ابن العاص: «يا عمرو! إن أُقْتَلُ، فَرجُلٌ أسلَمَهُ قومُه، وأدركه يومُه. أفلا كان هذا منك إذ تَحِيدُ عن القتال، ونحن ندعوك إلى النِّزال، وأنت تلوذُ بشمال النِّطَافِ[٤]، وعَقَائِقِ الرِّصَاف[٥]، كالأمَة السَّوداء، والنَّعجَةِ القَوداء، لا تدفع يدَ لامسٍ؟».

---

(١) قائله: زُفَرُ بْنُ الحَارثِ الكِلابيُّ، الشَّامِيُّ.

(٢) في مروج الذّهب ٣/ ٩: «سَيُرْدِيه».

(٣) ولعلَّ الصَّحيح: «سَتُغْوِيه».

(٤) أي بأشام الجانبين من الماء القليل. (المؤلِّف رحمه الله)

أقول: في مروج الذّهب ٣/ ٩: «بسِمَال النِّطَاف».

(٥) «العَقَائِقُ»: سهام الإعتذار، كانوا يرمون بها نحو السّماء. و«الرِّصَافُ»: الحجارة المرصوف بعضها على بعض في مسيل الماء، فكأنه يقول له: إنّك تلوذ في أرض صلبة عند ماء قليل ترمي بسهام الإعتذار. (المؤلِّف رحمه الله)

فقال عمرو: «أما والله لقد وقعت في لَهَاذِم شَدْقَم[1] للأقران ذِي لِبَدٍ، ولا أحسبك مُنفلِتاً من مخالب أمير المؤمنين».

فقال عبد الله: «أما والله يا ابن العاص إنّك لَبَطِرٌ في الرَّخاء، جبانٌ عند اللِّقاء، غَشومٌ اذا وَلَّيت، هيّابٌ إذا لقيت، تَهْدِر كما يهدِر العود المنكوس المقيَّد بين مجرى الشَّوك، لا يُسْتعجل في المدَّة، ولا يُرتجى في الشِّدَّة. أفلا كان هذا منك، إذ غَمَرَك أقوامٌ لم يعنُفُوا صِغاراً، ولم يمرُقوا كِباراً، لهم أيدٍ شدادٌ، وألسنةٌ حداد، يدعمون العَوَجَ، ويُذهِبُون الحَرَج، يُكثِرون القليل، ويَشْفُون الغليل، ويُعِزُّون الذّليل»؟.

فقال عمرو: «أما والله لقد رأيتُ أباك يومئذٍ تخفق[2] أحشاؤه، وتُبَقُّ أمعاؤه، وتَضْطَرِبُ أصْلاؤُه[3] كما انطبق عليه ضَمَدٌ».

فقال عبد الله: «يا عمرو! إنّا قَد بلونَاكَ ومقالتك فوجدنا لِسَانك كَذُوباً غادِرَاً، خَلَوتَ بأقوام لا يعرفونك، وجندٍ لا يساوِمُونك، ولو رُمْتَ المنطق في غير أهل الشَّام لجَحَظَ[4] عليك عقلك، ولتلجلج لسانك، ولاضطرب فخذاك اضطراب القعود الّذي أثقله حمله».

فقال معاوية: «إيهاً عنكما» وأمر بإطلاق عبد الله لنسيبه. فلم يزل عمرو بن العاص يلومه على إطلاقه ويقول:

---

(١) أي واسع الشدقين. (المؤلّف)

(٢) تشقق. (المؤلِّف)، أقول: في مروج الذّهب ٣/ ٩: «تخفِقُ».

(٣) أوساط الظهر. (المؤلِّف)

(٤) جَحَظَ إِلَيْه عَمَلُهُ، نَظَرَ في عَمَلِهِ فرَأى سُوءَ ما صَنَعَ، وَجَحَطَ إليه عَقلُه أي نَظَر إلى رأيه فرأى سُوءَ ما ارتَأى. (المؤلِّف)

«أَمَرْتُكَ أَمْـراً عَازِمَـاً فَعَصَـيْتَنِي وَكَانَ مِنَ التَّوفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَاشِمِ
أَلَـيْسَ أَبُـوهُ يَـا مُعَاوِيَـةُ الَّـذِي أَعَانَ عَلِيَاً يَـوْمَ حَـزِّ الغَلاصِـمِ؟
فَلَم يَنثَنِ حَتَّى جَرَت مِنْ دِمَائنَـا بِصِفِّينَ أَمْثَالُ البُحـورِ الخَضَـارِمِ
وَهَذَا ابنُـهُ وَالمَـرْءُ يُشْـبِهُ شَـيْخَهُ ويُوشِكُ أَنْ تَقرَعَ بِهِ سِنَّ نَـادِمِ»(١)

٢ ـ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائي (٢)

صحابيٌّ كريمٌ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُكرمه إذا دخل عليه، وزعيمٌ عظيم، وخطيبٌ مِدْرَهٌ، وشجاع مرهوب. أسلم سنة تسع وحسن إسلامه، قال: «فلمّا قدمت المدينة استشرفني النّاس فقالوا: عَدِيُّ بنُ حَاتِم! وقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يَا عَدِيُّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ**»، قلت: إنّ لي دَيْنَاً، قال: «**أَنَا أَعْلَمُ بِدَيْنِكَ مِنْكَ... قَدْ أَظُنُّ أَنَّهُ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ غَضَاضَةٌ تَرَاهَا مِمَّنْ حَوْلِي، وَأَنَّكَ تَرْى النَّاسَ عَلَيْنَا إِلْبَاً وَاحِدَاً**». قال: «**هَلْ أَتَيْتَ الحِيرَةَ؟**» قلت: لم آتها وقد علمت مكانها، قال: «**يُوشِكُ أَنْ تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنْهَا بِغَيرِ جِوَارٍ حَتَّى تَطُوفَ بِالبَيْتِ، وَلَتُفْتَحُنَّ عَلَيْنَا كُنُوزُ كِسْرَى بِنِ هُرْمُزُ**»، فقلت: كِسرى بن هرمز؟ قال: «**نَعَمْ وَلَيُفِيضُنَّ المَالُ حَتَّى يَهُمُّ الرَّجُلُ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ**». قال عديّ: «فرأيت اثنتين: الظّعينة، وكنت في أوّل خيل غارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيئن الثّالثة».

وقال: «أتيت عمر في أناس من قومي فجعل يفرض للرّجل ويعرض عني، فاستقبلته فقلت: أتعرفني؟ قال: نعم، آمنت إذ كفروا، وعرفت إذ نكروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، إنّ أوّل صدقة بيّضت وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله صدقة

---

(١) مروج الذّهب ٣/ ٨، شرح النهج لابن أبي الحديد ٨/ ٣٠، تاريخ ابن عساكر ٣٣/ ٣٤٣.

(٢) تقدّمت ترجمته في الصّفحة / ١٥٠، من هذا الكتاب.

طيئ». وقال: «ما أقيمت الصَّلاة منذ أسلمت إلاَّ وأنا على وضوء»[1].

ونازعه الرَّاية يوم صِفِّين عائذُ بنُ قيسٍ الحِزمِرِيُّ الطَّائيُّ، وكانت بنو حِزمِرٍ أكثر من «عَدِيّ»[2] رهط حاتم، فوثب عليهم «عبد الله بن خليفة الطَّائي» البَوْلاَنِيّ عند علي عليه السلام فقال: « يا بنى حِزْمِرَ أعَلَى عَدِيٍّ تَتَوثَّبون! وهل فيكم مِثْلُ عَدِيٍّ؟ أو في آبائكُم مِثْلُ أبى عَدِيٍّ؟ أليسَ بحامي القِرْبَة ومانعِ المَاءِ يومَ رَوِيِّهِ؟ أليسَ بابنِ ذِي المِرْبَاعِ وابنِ جَواد العَربِ أَلَيْسَ بابنِ المُنْهَبِ مَالُه ومَانعِ جارِه؟ أليسَ مَنْ لمْ يغدِر ولمْ يفجُر ولم يَجْهَل ولمْ يبخَلْ ولمْ يمنُن ولم يجبُن؟ هَاتُوا في آبائكم مِثْلَ أبيهِ أو هاتوا فيكُم مثلَه أولَيسَ أفضلَكُم في الإسلام أولَيسَ وافِدَكُم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أَلَيسَ برأسِكُم يومَ النُّخيلة ويومَ القادسيَّة ويومَ المدائن ويومَ جَلُولاءَ الوَقِيعَةِ ويومَ نهاوَند ويومَ تُسْتَرَ؟! فما لَكم وله؟! والله ما من قومكم أحدٌ يطلُب مِثلَ الَّذي تَطْلُبُونَ»

فقال له عليّ عليه السلام: «**حَسْبُكَ يَا ابْنَ خَلِيفَةَ. هَلُمَّ أَيُّهَا القَوْمُ إِلَيّ، وَعَلَيَّ بِجَمَاعَةِ طَيّ**». فأتوه جميعاً. فقال عليّ عليه السلام: «**مَنْ كَانَ رَأسُكُمْ فِي هَذِهِ المَوَاطِنِ؟**»، قالت له طيئ: «عَدِيّ». فقال له ابن خليفة: «فسلهم يا أمير المؤمنين: أليسوا راضين مُسلِّمين لعَدِيٍّ الرِّياسة»، ففعل. فقالوا: «نعم». فقال لهم: «**عَدِيٌّ أَحَقُّكُمْ بِالرَّايَةِ، فَسَلِّمُوهَا لَهُ**»[3].

وبعث إليه زياد سنة (٥١) وكان في مسجده الّذي يعرف (بمسجد عَدِيّ) في الكوفة فأخرجه منه، وحبسه. فلم يبقَ رجلٌ من أهل المصر من اليمن وربيعة ومُضر إلاَّ فزِع لعَدِيٍّ بنِ حَاتِم. فأتوا زياداً وكلَّموه فيه، وقالوا: «تفعلُ هذا بعَدِيٍّ بن حاتِم

---

(١) الإصابة (ج ٤ ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩) [٤/ ٣٨٨-٣٨٩]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) هو الأب الخامس لعديّ. فعديّ الصّحابي هو ابن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عديّ ـ هذا ـ. (المؤلِّف رحمه الله)

(٣) الطبري (ج ٦ ص ٥) [٤/ ٥]. (المؤلِّف رحمه الله)

صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وآله؟».

وطلب زيادٌ من عَدِيّ أن يجيئه بعبد الله بن خليفة الطَّائي، وكان من أصحاب حُجْر بن عَدِيّ أشدائهم على شُرطَة زياد «الحمراء»، فأبى ثمَّ رضي زياد من عَدِيٍّ أن يُغيِّب ابن خليفة عن الكوفة(١).

ودخل عَدِيّ بن حاتِم على معاوية، وإنّ معاوية لَيَهَابُه ويعرف سَدادَه الحصيف في مزالق الفتن، وتمرُّسه البصير في الشَّدائد، وبصيرته النّافذة وتجاربه الكثيرة الماضية، فجرى في حديثه معه عند «موهبته الخاصَّة» الّتي كان يفزع إليها في منازلة العظماء من أعدائه، فقال: «يا عَدِيُّ أين الطَّرَفاتُ؟ ـ يعني بنيه طَرِيفاً وطارفاً(٢) وطَرَفَة ـ» قال: «قُتلوا يوم صِفِّين بين يدي عليٍّ بن أبي طالب». فقال: «ما أنصفك ابنُ أبي طالب، إذ قَدَّم بنيك وأخّر بنيه». قال: «بل ما أنصفتُ أنا عَليّاً، إذ قُتل وبقيت بعده». فقال معاوية: «أمَا إنَّه قد بقي قطرةٌ من دم عثمان ما يمحُوها إلاّ دمُ شريف من أشراف اليمن!». فقال عَدِيٌّ: «والله إنّ قُلوبَنَا الّتي أبغضناك بها لفي صُدورنا، وإنَّ أسيافنا الّتي قاتلناك بها لَعَلَى عواتقنا، ولئن أدنيت لنا من الغدرِ فِتْراً لنُدنينَّ إليك من الشّرِّ شِبراً! وإنَّ حَزَّ الحُلقُوم، وحَشْرَجَة الحَيزُوم، لأهونُ علينا من أن نسمع المَسَاءةَ في عليٍّ، فَسَلِّم السَّيف يا مُعاوية لبَاعِث السَّيف».

فقال معاوية: «هذِه كلماتُ حِكَمٍ فَاكتبُوهَا» ـ هزيمةٌ منكرة من معاوية ـ وأقبل على عَدِيّ يحادثه كأنّه ما خاطبه بشيء(٣).

«وَلاَ خَيْرَ في حِلْمٍ إذا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... بَوادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أن يُكَدَّرَا»(٤)

---

(١) ابن الاثير (ج ٣ ص ١٨٩) [٣/ ٤٧٨]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) في بعض المصادر: «مُطَرِّفٌ»

(٣) المسعودي هامش ابن الاثير (ج ٦ ص ٦٥) [مروج الذهب ٣/ ٥، وأيضاً في العقد الفريد ٤/ ١١٣]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) قائله: النَّابغَةُ الجَعدِيّ.

ثم قال له: «صِف لي عليّاً». فقال: «إن رأيتَ أن تَعْفِيني». قال: «لا أعفيك». قال:

«كانَ واللهِ بَعيدَ المَدى، شديدَ القُوَى، يقولُ عَدلاً، ويحكُم فَصْلاً، تَتَفجّر الحِكمةُ من جَوانِبه، والعِلمُ من نَواحِيهِ. يستوحِشُ من الدُّنيا وزَهْرَتِها، ويستأنس باللَّيل ووحشَتِه. وكان والله غزيرَ الدَّمعة، طويلَ الفِكْرَة، يُحاسِب نفسَه إذا خَلا، ويقلِّبُ كَفَّيهِ عَلَى ما مضى. يُعجِبُه من اللِّباس القَصير، ومن المعاش الخَشِن. وكان فينا كأحدِنَا يُجيبُنا إذَا سَألناهُ، ويُدنينَا إذا أتيناهُ. ونحنُ مع تقريبِه لنا وقُربه منّا لا نُكلِّمه لهيبتِه، ولا نرفع أعيُنَنَا إليه لعظمتِه. فإن تبسَّم فَعَن اللُّؤلؤ المنظُوم. يُعظِّمُ أهل الدِّين، ويتحبَّب إلى المساكين. لا يخافُ القَوِيّ ظلمه، ولا ييأس الضَّعيفُ من عدله. فأُقسِم لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثُل في محرابه، وأرخى اللَّيلُ سِربَاله، وغارت نجومُه، ودموعه تتحادَر على لحيته، وهو يتململ تململُ السَّليم، ويبكي بكاءَ الحزين، فكأنِّي الآن أسمعُه وهو يقول:

«يَا دُنْيَا! إِلَيَّ تَعَرَّضْتِ أَمْ إِلَيَّ أَقْبَلْتِ؟ غُرِّي غَيْرِي، لا حَانَ حِينُك، قَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثاً، لا رَجْعَةَ فِيهَا، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ، وَخَطَرُكِ يَسِيرٌ. آهِ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَقِلَّةِ الأنِيسِ».

فوَكَفت عينا معاوية، وجعل ينشِّفهما بكُمِّه. ثمَّ قال: «يَرحَمُ اللهُ أبا الحسن، كان كذلك. فكيف صبرُك عنه؟» قال: «كصبر من ذُبِحَ ولدُها في حِجْرِهَا، فهي لا تَرقَأ دمعتُها، ولا تسكُن عبرتها». قال: «فكيف ذكرُك له؟» قال: «وهل يَترُكني الدَّهر أن أنساه؟»[1].

---

(١) البيهقيُّ في المحاسن والمساوئ (ج ١ ص ٣٣) [/ ٤٦].

أقول: قد مرّ عليك في ترجمة ضِرار بن ضمرة من هذا الكتاب هامش الصَّفحة / ١٨٠، قريبٌ من هذه الألفاظ له، ولعلّ هذا تركيبٌ من كلام عَدِيّ المذكور في صدر الكلام ومن كلام ضِرار، ويبعد أن يكون قد صدر من كلٍّ واحد منهما مستقلاً. ويقوِّي إستبعادنا أنّ قريب هذه المضامين رويت لابن عبّاس أيضاً. أنظر المحاسن والمساوئ / ٤٥ـ٤٦.

أقول: وتوفي عديّ بن حاتم في عهد المختار بن أبي عبيد سنة (٦٨)[1] وهو ابن مائة وعشرين سنة فماتت معه نفس كريمة لا تخلق إلاّ في ملك، ورأي حصيف لا يختمر إلا في حكيم، وإيمان صادق لا يعهد إلا في وليّ.

٣ ـ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَان

سيِّدٌ من سادات العرب، وعظيمٌ من أقطاب الفضل والحسب. أسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنَّه لم يَلْقَه لصِغره، وأشكلت على عمر أيّام خلافته قضيَّة فخطب النّاس وسألهم عمّا يقولون ـ فقام صعصعةُ، وهو غلامٌ شابٌّ، فأماط الحجاب، وأوضح منهاج الصواب ـ وعملوا برأيه[2] ـ، وكان من أصحاب الخُطَطِ في الكوفة، وشَهِد مع أمير المؤمنين «الجَمَل» و «صِفِّين». قال في الإصابة[3] «إنَّ المُغيرَة نَفَى صَعْصَعَةَ بأمر معاوية من الكوفة إلى الجزيرة أو إلى البحرين، وقيل: إلى جزيرة ابن كافان فمات بها».

و«حَبَسَ[4] مُعاويةُ صَعْصَعَة بْن صُوحَانَ العَبديّ وعَبدَ الله بن الكَوَّاء اليَشْكُرِيَ ورجالاً من أصحاب عليٍّ مع رجالٍ من قريش، فدخل عليهم معاوية يوماً فقال: نَشَدْتُكُم

---

(١) تاريخ الكوفة (ص ٣٨٨) [/ ٤٣٣] والإصابة (ج ٤ ص ١١٩) [٤/ ٣٩٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) قال ابن الأثير في أسد الغابة ٣/ ٢٠: وصعصعة هو القائل لعمر بن الخطّاب حين قسم المال الّذي بعثه إليه أبو موسى وكان ألف ألف درهم، وفضلت فضلةٌ، فاختلفوا أين نضعها، فخطَب عمرُ النَّاس وقال: أيُّها النَّاس؛ قد بقيت لكم فضلةٌ بعد حقوق النّاس، فقام صَعْصَعَةُ بنَ صُوحَان وهو غلامٌ شابٌّ، وقال: يا أمير المؤمنين، إنَّما تُشَاورُ النَّاس فيما لم ينزل فيه القرآنُ، فأمَّا ما نَزَل به القرآنُ فَضَعْهُ مَواضعه الَّتي وضعه الله عزَّ وجلَّ فيها، فقال: صَدَقتَ، أنت مني وأنا منك، فقسمه بين المسلمين.

(٣) (ج ٣ ص ٢٣) [٣/ ٣٧٣]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٤) المسعودي هامش ابن الأثير (ج ٦ ص ١١٧) [مروج الذهب ٣/ ٤٠]. (المؤلِّف رحمه الله)

بالله إلاَّ ما قلتُم حقّاً وصِدقاً، أيُّ الخلفاء رأيتموني؟ فقال ابن الكّواء: لولا أنّك عزمت علينا ما قُلنا، لأنَّك جَبَّارٌ عنيدٌ، لا تُراقب اللهَ في قتلِ الأخيار، ولكنَّا نقول: إنَّك ما علمنا، واسعُ الدُّنيا ضَيِّق الآخرة، قريبُ الثَّرى بعيد المرعَى، تجعل الظُّلمات نوراً والنّور ظُلمات، فقال معاوية: إنَّ الله أكرم هذا الأمر بأهل الشَّام الذابّين عن بيضته، التاركين لمحارمه، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق المنتهكين لمحارم الله، والمحلِّين ما حرَّم الله، والمحرِّمين ما أحلّ الله. فقال عبد الله ابن الكوَّاء: يا ابن ابي سفيان إنَّ لكلِّ كلامٍ جَواباً، ونحن نخاف جبروتك، فإنْ كُنت تُطْلِق ألسنتنا ذَببنا عن أهل العراق بألسنةٍ حِدادٍ لا يأخذها في الله لومة لائم، وإلاَّ فإنّا صابرون حتى يحكم اللهُ ويضعُنا على فَرَجِه. قال: والله لا يُطلق لك لسانٌ.

ثمَّ تكلَّم صَعْصَعَةُ فقال: تكلَّمت يا ابن أبي سفيان فأبلغت ولم تَقصُر عمّا أردت، وليس الأمر على ما ذكرت، أنّى يكون الخليفةُ من مَلَكَ النَّاس قَهراً، ودَانَهُم كِبراً، واستولى بأسباب الباطل كَذِباً ومكراً، أمَا والله مَا لَكَ في يوم بَدرٍ مَضرِبٌ ولا مَرْمَى، وما كُنتَ فيه إلاّ كما قال القائل: لا حُلِّي ولا سِيرِي[1]، ولقد كُنت أنتَ وأبوك في العِيرِ والنَّفير ممَّن أجلب على رسول الله ﷺ. وإنَّما أنت طليق ابن طليق، أطلقكما رسول الله ﷺ. فأنَّى تصلُح الخلافة لطليق؟ فقال معاوية: لولا أنّي أرجع إلى قول أبي طالبٍ حيثُ يقول:

قابلتُ جهلَهُمُ حِلماً ومغفرةً ... والعَفوُ عَن قُدرةٍ ضَرْبٌ من الكَرَم

لقتلتكم.

---

(١) قال في لسان العرب ١١/ ١٦٣: يقال للرجل إذا لم يكن عنده غَنَاء: «لا حُلِّي ولا سيرِي»، قال ابن سيده: كأنّ هذا إنما قيل أَوَّل وَهْلَة لمؤنث فخوطب بعلامة التأنيث، ثم قيل ذلك للمذكّر والإثنين والإثنتين والجماعة مَحكيّاً بلفظ المؤنث.

وسأله معاوية: من البررة ومن الفسقة؟ فقال: يا ابن أبي سفيان، تَرَكَ الخِداعَ مَن كَشَفَ القِناع، عَلِيٌّ وأصحابُه من الأئمة الأبرار، وأنت وأصحابك من أولئك.

وسأله عن أهل الشّام فقال: أطوعُ النّاس لمخلوق، وأعصاهم للخالق، عُصاة الجبّار، وخَلْفَةُ الأشرار، فعليهم الدّمار، ولهم سوءُ الدّار. فقال معاوية: والله يا ابن صُوحان إنّك لحاملٌ مُدْيَتَك منذُ أزمان، إلاَّ أنّ حِلم ابن أبي سفيان يردُّ عنك. فقال صَعْصَعَة: بل أمر الله وقُدرتُه، إنّ أمر الله كان قَدَراً مَقدُوراً»[1].

قال المسعوديُّ: «ولِصَعْصَعَةَ بن صُوحَان أخبارٌ حِسَانٌ وكلامٌ في نهاية البلاغة والفصاحة والإيضاح عن المعاني على إيجازٍ واختصار»[2].

وكان صَعْصَعَةُ شخصيةً بارزةً في أصحاب أمير المؤمنين. ووصفه أمير المؤمنين بالخطيب الشَّحْشَح[3]، ثم وصفه الجاحظ بأنه من أفصح النّاس[4].

وقال له معاوية يوم دخل الكوفة بعد الصُّلح: «أما والله إنّي كُنتُ لأُبْغِضُ أن تدخل في أماني». قال: «وأنا والله أُبْغِضُ أن اسمّيك بهذا الإسم». ثم سلّم عليه بالخلافة فقال معاوية: «إنْ كنت صادقاً فاصعد المنبر والعن عليّاً». فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيُّها النَّاس أتيتكم من عند رجل قَدّم شَرَّه، وأخَّر خيرَه. وإنّه أمرني أن ألعنَ عليّاً فالعَنُوه لعنهُ الله». فضجَّ أهل المسجد بآمين. فلمّا رجع إليه فأخبره

---

(١) مروج الذّهب ٣/ ٤٢.

(٢) مروج الذّهب ٣/ ٤٣.

(٣) في حديث أنّ أمير المؤمنين عليه السلام رأى صَعْصَعَةَ بن صُوحَان يَخطُب فقال: «**هَذَا الخَطِيبُ الشَّحْشَحُ**» نهج البلاغة ٤/ ٥٧، غريب كلامه: ٢، مسند أحمد ١/ ١٤٧، مجمع الزّوائد للهيثمي ٩/ ٥٤، وقال السّيد الشّريف الرّضي في شرح هذه الكلمة: «يريد الماهر بالخطبة الماضي فيها، وكلُّ ماضٍ في كلام أو سيرٍ فهُو شَحْشَحٌ، والشَّحْشَحُ في غير هذا الموضع البخيل المُمْسِك.»

(٤) شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٩/ ١٠٦، كما صرَّح بذلك الزُّبيدِيُّ في تاج العروس ٤/ ١٠٢.

بما قال. قال: «لا والله ما عَنَيتَ غيري، إرجع حتى تُسمِّيه باسمه». فرجع وصعد المنبر ثمذَ قال: «أيّها النّاس إنَّ أمير المؤمنين أمرني أن ألعنَ عليَّ بن أبي طالب فالعَنُوه». فضجُّوا بآمين. فلمّا أخبر معاوية قال: «والله ما عَنى غيري، أخرِجُوه لا يُساكِنُني في بلد». فأخرجوه[1].

وقال ابن عبد ربّه: «دخل صَعْصَعَةُ بن صُوحَان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالسٌ على سريره فقال: وسِّع له على تُرابيَّة[2] فيه. فقال صَعْصَعَةُ: إني والله لَتُرابيٌّ، مِنهُ خُلِقتُ وإليه أعودُ ومنه أُبْعَثُ، وإنّك مارجٌ من مَارِجٍ من نَار»[3].

وقدم وفدُ العراقيين على معاوية، فقدم في وفد الكوفة عَدِيُّ بنُ حَاتِم، وفي وفد البصرة الأحنفُ بنُ قيسٍ وصَعْصَعَةُ بن صُوحَان. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: «هؤلاء رجال الدُّنيا، وهم شيعة عليٍّ الّذين قاتلوا معه يوم الجَمَل ويوم صِفِّين فكن منهم على حَذَرٍ»[4].

وفي أحاديث سيِّدِ عبد القيس صَعْصَعَةِ بن صُوحَان سعةٌ لا يُلَمُّ بها ما نقصده من الإيجاز. وإنّما أردنا أن نُعطِي بهذا، صفحةً من تاريخه مع معاوية وموقف معاوية منه.

٤ ـ عَبْدُ اللهِ بن خَلِيفَةَ الطَّائيّ

مِسعارُ حربٍ. كان من مواقفه في العذيب، وجَلُولاء الوَقِيعَةِ، ونَهَاوَنْد، وتُسْتَر، وصِفِّين ما شَهِد له بالبطولة النّادرة، وهو الخطيبُ الّذي ردَّ الطَّائيِّين يوم صِفِّين عن مزاحمة (عَدِيِّ بنِ حَاتِم) على الرَّاية ـ كما مرّ عليك في الحديث عن عَدِيّ ـ.

---

(١) السّفينة (ج ٢ ص ٣١) [رجال الكشّي ١/ ٢٨٥]. (المؤلِّف ﵀)

(٢) يعني على حبه لأبي تراب. ويكنون بها عن عليّ ﵇. (المؤلِّف ﵀)

(٣) العقد الفريد ٣/ ٣٥٥.

(٤) الإختصاص للشّيخ المفيد / ٦٤.

وصَحِب حجْر بنَ عَدِيٍّ الكِنْدِي في موقفه القويّ الّذي وقفه في الذَّب عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وطاردته شُرطَةُ زياد ـ وهم أهل الحمراء يومئذٍ ـ فامتنع عليهم، وهَزَمَهُم بقومه. خرجت أختُه النَّوارُ فقالت: «يا مَعشر طَيء أتُسْلِمُون سِنَانَكم ولِسَانَكُم عَبدَ الله بنَ خَليفة؟» فشدَّ الطّائيُّون على الشُّرَط فضربوهم، وأعيت الحيلة به زياداً فقبض على زعيم قبيلته (عَدِيّ بنِ حَاتِم) فحبسه أو يأتيه بابن خليفة. وأبى عَدِيٌّ أن يأتيه به ليقتله، فرضي زيادٌ منه بأن يغيِّبه عن الكوفة.

فأشار عَدِيٌّ على عبد الله بمغادرة الكوفة ووعده أن لا يألو جُهْداً في إرجاعه إليها، فسار إلى «الجبلين»[1] وقيل إلى «صنعاء». ولم يزل مُشرَّداً هناك مشبوب الأشواق إلى وطنه.

وطال عليه الأمد فكتب إلى عَدِيٍّ يستنجزه وعده، وكان شاعراً يُجِيدُ الوصف، وله عِدَّة قصائد ومقطوعات يُعاتب بها عَدِيّاً ويُذكِّره سوابقه وغُربته وإسارته، ولكن ظروف عَدِيّ لم تُساعده على إسعافه، فبقي هناك حتى مات رحمه الله[2] قبل موت (زياد) بقليل.

---

(١) هما جبلا طيء: أجأ وسلمى، بينهما وبين «فدك» يوم، وبين «خيبر» خمس ليال، وبينهما وبين المدينة ثلاث مراحل. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) يراجع الطبري (ج ٦ ص ٥ وص ١٥٧ ـ ١٦٠) [٤/ ٥ و ٢٠٩ـ٢١٢]. (المؤلِّف رحمه الله)

نِهايَةُ المَطَافّ

وبقي بين فَجَوات هذه الأحداث خلاءٌ ملحوظ في التّاريخ، لم تملأه المصادر الّتي بين أيدينا بالعُروض الّتي تُناسب تلك الأحداث.

رأينا ـ إلى هنا ـ مَبْلغَ وفاء معاوية بما أخذه على نفسه من شروط.

وعلمنا ـ إلى هنا ـ أنَّ المعاهدة بأبوابها الخمس، لم تَلْقَ من الرّجل أيّةَ رعاية تُناسب تلك العهود والمواثيق والأيمان الّتي قطعها على نفسه. فلا هو حين تَسَلَّم الحُكْمَ عَمِل على كتاب الله وسُنَّة نبيِّه وسيرة الخلفاء الصَّالحين. ولا ترك الأمر من بعده للشُّورى، أو لصاحب الحقِّ فيه. ولا أقلع عن شتم عليٍّ عليه السلام. ولكنَّه زاد حتى ملأ منابر الإسلام سِبَاباً وشَتماً. ولا وَفَى بخَرَاج. ولا سَلِمَ من غوائله شيعة عليٍّ وأصحابُه. ولكنّه ـ وبالرَّغم من كلِّ هذه الشُّروط والعهود ـ طالعهم بالأَوَّليات البِكر والأفاعيل النُّكر من بوائقه:

فكان أوَّل رأس يطاف به في الإسلام منهم، وبأمره يطاف به.

وكان أوَّل إنسان يُدفن حياً في الإسلام منهم، وبأمره يُفعل به ذلك.

وكانت اوَّل امرأةٍ تسجن في الإسلام منهم، وهو الأمر بسجنها.

وكان أوَّل شُهداء يُقتلون صَبراً في الإسلام منهم، وهو الّذي قتلهم.

واستقصى معاويةُ بنود المعاهدة كلِّها بالخُلف!!

فاستقصى أيمانه المغلَّظة بالحَنث، ومواثيقه المؤكَّدة الّتي واثق الله تعالى عليها بالنّقض!!

فأين هي الخلافة الدِّينيَّة يا تُرى؟؟

وبقيت آخِر فِقْرَةٍ من المعاهدة، تَحَامَاهَا معاويةُ لأنّها كانت أدقّ شروطها حسّاسية وأروعها وقعاً. وكان عليه إذا أساء الصَّنيع بهذه الفِقْرَة أن يتحدّى القرآن صَراحةً، ورسول الله صلى الله عليه وآله مباشرةً.

فصبر عليها ثماني سنين، ثم ضاق بها ذرعاً، وثارت به أمويَّتُه الّتي كان لا يزال يُصارع لَصاقتها، بأمثال هذه الأفاعيل، ليعود بها أمويّةً صريحة تشهد لهند بالبراءة من قالة النّاس وشهادات المؤرِّخين، وليكون ابن أبي سفيان حقّاً!

فما لابن أبي سفيان ولرسول الله؟. وما لابن هند وكتاب الله؟.

وكانت مُطْفِئَةَ الرَّضْفِ(١) الّتي أنْسَت النّاسَ الرَّزايا قبلها.

ثمَّ هي أوّل ذُلٍّ دخل على العرب ـ كما قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنه ـ

بل أوّل ذُلٍّ دخل على النّاس ـ كما قال أبو إسحق السَّبيعي رحمه الله ـ.

وكانت بطبيعتها، أبعد موادِّ المعاهدة عن الخيانة، كما كانت بظروفها وملابساتها أجدرها بالرِّعاية. وكانت بعد نزع السِّلاح ولَفِّ اللِّواء والإلتزام من الخصم بالوفاء، أفظع جريمة في تاريخ معاوية الحافل بالجرائم.

وما في المدينة ـ موطنِ الحسن عليه السلام ـ ولا في أهل البيت، ولا في شيعة الحسن، ولا في جميع ما يمتُّ إلى الحسن بسببٍ أو نسبٍ، أيُّ مُوجبٍ يستدعي الوهم، أو يوقِظ الرّيبة، أو يثير الظّنون بأمر يخشاه معاوية على دنياه.

إذاً، فما هذا الغَدر وما هو العُذر؟..

وأين تلك العهود والعقود والأيمان الّتي لا تبلغ قواميس اللُّغة أشدّ منها ألفاظاً غلاظاً وتأكيداً شديداً؟.

---

(١) «مُطْفِئَةُ الرَّضْفِ»: دَاهِيَةٌ تُنْسِي التي قَبْلَهَا فتُطْفِئُ حَرَّهَا. تاج العروس ١٢/ ٢٣٢.

ترى، فهل نعتذر عن معاوية بما اعتذر به الأغرَارُ المنسوبون إلى الإسلام عن ابنه يزيد في قتله الحسين ابن رسول الله عليه وعلى جدِّه أفضل الصّلاة والسّلام، فقالوا: «شابٌّ مغرور، ألهَتْهُ القرودُ وغَلبت عليه الخُمُور والفُجُور؟.».

فأين ـ إذاً ـ حنكة معاوية ودهاؤه المزعوم؟. وأين سِنُّه الطاعنة وتجاربه في الأمور؟

إنَّ بائقة الأب هذه، كانت هي السّبب الّذي بعث روح القُدوة في طموح الإبن. فليشتركا ـ متضامنين ـ في إنجاز أعظم جريمة في تاريخ الإسلام، تلك هي قتلُ سَيِّدي شباب أهل الجنَّة الأحَدَين الّذين لا ثالث لهما. وليتعاونا معاً، على قطع «الواسطة الوحيدة» الّتي انحصر بها نسلُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والجريمة ـ بهذا المعنى ـ قتلٌ مباشرٌ لحياة رسول الله بامتدادها التّاريخي!!

نعم، والقاتلان ـ مع ذلك ـ هما الخليفتان في الإسلام!!

فوا ضيعة الإسلام إن كان خُلفاؤُه من هذه النّماذج!!

وكان الدَّهاء المزعوم لمعاوية هو الّذي زيّن له أسلوباً من القتل قصّر عنه ابنه يزيد. فكان هذا «الشّاب المغرور» ـ وكان ذاك «الدَّاهية المحنَّك في تصريف الأمور»!!

ولو تنفَّس العُمر بأبي سفيان إلى عهد ولديه هذين، لأيقن أنَّهما قد أجادا اللُّعبة الّتي كان يتمنَّاها لبني أبيه.

فاستعمل مُعاوية مَرْوَانَ بنَ الحَكَم[1]، على إقناع جَعْدَةَ بنتِ الأشعث ابن قيس

(١) وروى المسعودي هامش ابن الأثير (ج ٥ ص ١٩٨) [مروج الذهب ٢/ ٣٦٩] والبيهقي (ج ١ ص ٦٤) [/ ٧٩ و ٨٥] سعيى الحسن عليه السلام بالامان لمروان يوم الجمل، وكان قد أخذ أسيراً، وقيل كان مختفياً في بيت امرأة في البصرة.

وقال الشّريف الرّضي في النَّهج (ج ١ ص ١٢١) [١/ ١٢٣، الكلمة: ٧٣] قالوا: «أخذ مروان بن ⇦

الكِنديّ ـ وكانت من زوجات الحسن عليه السلام ـ بأن تَسقي الحسن السُّمَّ ـ وكان شُرْبَةً من العسل بماء رُومَةَ ـ. فإن هو قضى نحبه زَوَّجها بيزيد، وأعطاها مائة ألف درهم.

وكانت جَعْدَةُ هذه بحكم بُنُوَّتها للأشعث بن قيس ـ المنافق المعروف ـ الّذي أسلم مرّتين، بينهما رِدَّةٌ مُنكَرة، أقرب النّاس رُوحاً إلى قبول هذه المعاملة النَّكراء.

قال الإمام جعفر بنُ محمّد الصَّادقُ عليه السلام: «**إنَّ الأَشْعَثَ بْنَ قَيْسٍ شَرِكَ فِي دَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وابْنَتُه جَعْدَةُ سَمَّتِ الْحَسَنَ عليه السلام وَمُحَمَّدٌ ابْنُه شَرِكَ فِي دَمِ الْحُسَيْنِ عليه السلام**»[1].

أقول: وهكذا تمَّ لمعاوية ما أراد.

وحَكم بفعلته هذه على مصير أمّة بكاملها، فأغرقها بالنَّكبات، وأغرق نفسه وبنيه بالذُّحول والحروب والإنقلابات.

وتمَّ له بذلك نقض المعاهدة إلى آخر سطر فيها.

وقال الحسن عليه السلام وقد حضرته الوفاة: «**لَقَدْ حَاقَتْ شُرْبَتُهُ وَبَلَغَ أُمْنِيَّتَهُ، وَاللهِ مَا**

⇨

الحكم أسيراً يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلّماه فيه فخلّى سبيله، فقالا له: «يُبَايِعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ» فقال عليه السلام: «**أَوَ لَمْ يُبَايِعْنِي بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ، لا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفٌّ يَهُودِيَّةٌ، لَوْ بَايَعَنِي بِكَفِّهِ لَغَدَرَ بِسَبَّتِهِ، أَمَا إِنَّ لَهُ إِمْرَةً كَلَعْقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ، وهُوَ أَبُو الأَكْبُشِ الأَرْبَعَةِ، وسَتَلْقَى الأُمَّةُ مِنْهُ ومِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!**». أقول: وجزى مروان سعي الحسن له بالأمان بسعيه إلى جعدة بقتله [أنظر: الفتوح لابن أعثم ٤/ ٣١٩، أرسل ـ معاوية ـ مروان بن الحكم (طريد) النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة وأعطاه مِنديلاً مَسْمُوماً، وأمره بأن يُوصِلَه إلى زوجة الحسن جَعْدَةَ بنتِ الأشعث بن قَيس بما استطاع من الحيل لكي تجعل الحَسَنَ يستعمل ذلك المنديل المسموم بعد قضاء حاجته وأن يتعهّد لها بمبلغ خمسين ألف درهم ويُزَوِّجُها من ابنه.] «وكُلُّ إنَاءٍ بالَّذي فِيهِ يَنْضَحُ». (المؤلِّف رحمه الله)

(١) الكافي الشّريف ٨/ ١٦٧.

وَفَى بِمَا وَعَدَ، وَلا صَدَقَ فِيمَا قَالَ»[1].

وورد بريد مروان إلى معاوية، بتنفيذ الخطَّة المسمومة، فقال: «يا عَجَباً من الحسن شرِبَ شُرْبَةً من العسل بماء رُومَةَ فقضى نحبه»[2].

ثمَّ لم يملك نفسه من إظهار السُّرور بموت الحسن عليه السلام.

«وكان بالخضراء، فكبَّر، وكبَّر معه أهلُ الخضراء، ثمَّ كبَّر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء، فخرجت فَاخِتَةُ بنتُ قَرَظَةَ بنِ عَمْرِو بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ ـ زوج معاوية ـ من خَوْخَةٍ[3] لها، فقالت: «سَرَّكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنين، ما هذا الَّذي بلغك فسُرِرتَ به؟». قال: «مَوتُ الحسن بن عليٍّ»، فقالت: «إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُون»، ثم بكت وقالت: «ماتَ سيِّدُ المسلمين، وابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله» فقال معاوية: «نِعِمَّا والله ما فعلتِ، إنَّه كان كذلك، أهلٌ أن يُبكَى عليه».

وزاد ابنُ قتيبة على هذا بقوله: «فلمَّا أتاه الخبرُ أظهر فَرَحاً وسُروراً حتى سجد وسجد من كان معه، وبلغ ذلك عبد الله بن عبَّاس ـ وكان بالشَّام يومئذٍ ـ فدخل على معاوية فلمَّا جلس، قال معاوية: يا ابن عبَّاس، هَلَكَ الحسن بن عليٍّ، فقال ابن عبَّاس: نَعم هلك، إنَّا لله وإنّا إليه رَاجِعُون، ترجيعاً مُكرَّراً. وقد بلغني الّذي أظهرت من الفرح والسُّرور لوفاته. أما والله ما سَدَّ جَسَدُهُ حُفرتَك، ولا زاد نُقْصَانُ أجَلِه في

---

(١) المسعودي هامش ابن الاثير (ج ٦ ص ٥٥ ـ ٥٦) [مروج الذّهب ٢/ ٤٢٧]. (المؤلِّف رحمه الله)

(٢) ابن عبد البر [في الإستيعاب ١/ ٣٩٠] (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: تاريخ ابن عساكر ١٢/ ٣١٠ و٥٩/ ١٩٧، أنساب الأشراف ٣/ ٢٩٨، البداية والنهاية ٨/ ١٤٧، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٥، شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦/ ١١، وفي تهذيب الكمال ٦/ ٢٥٢ للمزي، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٢٧٤، عن عبد الله بن الحسن: «... وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية قد تَلطَّف لبعض خَدَمِه أن يَسْقِيَه سَمّاً.»

(٣) «الخَوْخَة»: هِيَ كُوَّةٌ تُؤَدِّي الضَّوْءَ إلى البَيْتِ، وَالبَابُ الصَّغيرُ في البَابِ الكَبيرِ. (المؤلِّف رحمه الله)

عمركَ. ولقد مَاتَ وهو خيرٌ منك. ولئن أُصِبْنَا به، لقد أُصِبْنَا بمن كان خيراً منه، جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله. فجبر الله مصيبته وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة.

«ثمَّ شَهِقَ ابنُ عبَّاس وبكى من حضر في المجلس، وبكى معاوية. قال الرّاوي: فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم. فقال معاوية: كم أتى له من العُمْر؟ فقال ابن عبَّاس: أمر الحسن أعظم من أن يجهلَ أحدٌ مَولِدَه. قال: فسكت معاوية يسيراً ثمَّ قال: يا ابن عبَّاس، أصبحتَ سَيِّدَ قَومِكَ من بعده. فقال ابنُ عبَّاس: أما ما أبقى اللهُ أبا عبد الله الحُسينَ فلا»(١).

وعرض اليعقوبيُّ (ج ٢ ص ٢٠٣)(٢) صورة عن الأثر العظيم الّذي قُوبِلَ به نبأ وفاة الحسن عليه السلام في الكوفة، وما اجتمع عليه زُعَماءُ الشِّيعة هناك في دار كبيرهم «سُلَيْمانِ بنِ صُرُد» وتعزيتهم الحسين عليه السلام بكتاب مُفْتَجِع بليغ.

وبلغ نعيُه البصرة ـ وعليها زياد بن سميَّة ـ فبكى النَّاس وعلا الضَّجيجُ فسمعه أبو بَكَرَة ـ أخو زياد لأمِّه وهو إذ ذاك مريضٌ في بيته ـ فقال: «أَرَاحَهُ اللهُ من شرٍّ كثير، وفَقَدَ النَّاسُ بموتِهِ خَيراً كثيراً، يَرْحَمُ اللهُ حَسَناً»(٣).

وأَبّنهُ أخوه محمَّد بن الحنفيَّة، وقد وقف على جُثمانه الشَّريف، وإليك نصّ تأبينه:

«رَحمكَ اللهُ أبَا محمَّدٍ، فوالله لإنْ عَزَّت حَياتُك لَقَد هَدَّت وفاتُك، ونِعْمَ الرُّوحُ رُوحٌ عُمِرَ به بدنُك ونِعْمَ البَدَنُ بَدنٌ ضَمَّه كَفنُك، لِمَ لا تكونُ كذلك وأنت سَليلُ

---

(١) ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ (ص ١٥٩ ـ ١٦٠) [الإمامة والسّياسة ١/ ١٥١] وذكر مثله أو قريباً منه اليعقوبي [٢/ ٢٢٥] والمسعودي [٢/ ٤٣٠] أيضاً. (المؤلِّف رحمه الله)

أيضاً أنظر: الإمامة والسّياسة ١/ ١٥١، وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٦٦، حياة الحيوان للدّميري ١/ ٨٩، العِقد الفريد ٥/ ١١٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٨.

(٣) ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ٤) [١٦/ ١١]. (المؤلِّف رحمه الله)

الهُدَى وحِلْفُ أهلِ التَّقوى وخامس أصحاب الكِسَا، غَذَّتك كَفُّ الحقِّ ورُبِّيت في حِجْر الإسلام وأرضَعَتْكَ ثَدْيَا الإيمان، فَطِبْ حَيّاً ومَيِّتاً، فعليك السَّلام ورحمةُ الله. وإن كانت أنْفُسَاً غيرَ قَاليةٍ لحياتك ولا شَاكَّةٍ في الخيار لك»(١).

والنُّصوص على اغتيال معاوية الحسن بالسُّم متضافرةٌ كأوضح قضيَّةٍ في التَّاريخ.

ذكرها صاحب الإستيعاب، والإصابة، والإرشاد، وتذكرة الخواصّ ودلائل الإمامة(٢). ومقاتل الطالبيِّين، والشَّعبيُّ، واليعقوبيُّ، وابنُ سعد في الطَّبقات، والمدائنيُّ، وابنُ عساكر، والواقديُّ، وابنُ الاثير، والمسعوديُّ، وابنُ أبي الحديد، والمرتضى في تنزيه الأنبياء. والطُّوسيُّ في أماليه، والشَّريفُ الرَّضيُّ في ديوانه، والحاكمُ في المستدرك، وغيرُهم(٣).

---

(١) اليعقوبي (ج ٢ ص ٢٠٠) [٢/ ٢٢٥] والمسعودي هامش ابن الاثير (ج ٦ ص ٥٧) [مروج الذّهب ٢/ ٤٢٨] بتفاوت قليلٍ في بعض الكلمات. (المؤلِّف)

(٢) للطَّبري. (المؤلِّف)

(٣) الإستيعاب لابن عبد البرّ ١/ ٣٨٩، الإصابة لابن حجر ٢/ ٦٥، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي ٥/ ٢٢٦، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ١/ ١٨٣، مستدرك الحاكم ٣/ ١٧٦ [وفيه: سمَّت ابنةُ الأشعث بن قيس، الحسن بن عليٍّ وكانت تحته ورشيت على ذلك مالاً]، الطَّبقات الكبرى لابن سعد [ترجمة الإمام الحسن عليه السلام تحقيق السيّد عبد العزيز الطباطبائي] / ٨٤، أنساب الأشراف للبلاذري ٣/ ٢٩٥، إمتاع الأسماع للمقريزي ٥/ ٣٦١، تاريخ الخلفاء للسُّيوطي / ٢١٠، الكامل في التاريخ ٣/ ٤٦٠ [دون أن يصرِّح بمعاوية]، الفتوح لابن أعثم ٤/ ٣١٨، مروج الذّهب ٢/ ٤٢٧، شرح النّهج لابن أبي الحديد ١٦/ ١١، تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٢٨٤، مقاتل الطالبيِّين / ٣١، تهذيب الكمال للمزّي ٦/ ٢٥٢، عون المعبود للعظيم آبادي ١١/ ١٢٧ [نسب الدّسيسة إلى ابنه يزيد]، سير أعلام النُّبلاء ٣/ ٢٧٤، تذكرة الخواصّ / ١٩٢، دلائل الإمامة للطَّبري الشِّيعي / ١٦٠، الإرشاد للشَّيخ المفيد ٢/ ١٦، إعلام الورى للشَّيخ الطبرسيّ ١/ ٤٠٣، كمال الدِّين للشّيخ الصّدوق / ٥٤٦، الإحتجاج ٢/ ١٣، النّصاح الكافية لابن عقيل / ٨٦، وحسب تتبّعي القاصر لم أجده في هذه المصادر الّتي أشار إليها المؤلِّف: تنزيه الأنبياء للسيّد المرتضى، تاريخ اليعقوبي، الأمالي ⇐

وقال في «البدء والختام»[1]: «وتُوفِّي الحسن سنة ٤٩ للهجرة. سمَّتهُ جَعْدَةُ بنتُ الأشعث بها دسَّه معاوية إليها، ومَنَّاهَا بزواج ولده يزيد، ثم نقض عهدها».

وقال ابن سعد في طبقاته: «سَمَّه مُعاويةُ مِراراً»[2].

وقال المدائني: «سُقِي الحسنُ السُّمَّ أربعَ مرَّاتٍ»[3].

وقال الحاكم في مستدركه[4]: «إنَّ الحسن بن عليٍّ سُمَّ مِرارًا. كُلُّ ذلك يسلم حتَّى كانت المرَّة الأخيرة الَّتي مات فيها، فإنَّه رمى كَبِدَه».

وقال اليعقوبيُّ: ولما حضرته الوفاة قال لأخيه الحسين: «**يَا أَخِي إِنَّ هَذِهِ آخِرُ ثَلاثِ مَرَّاتٍ سُقِيتُ فِيهَا السَّمَّ، وَلَمْ أُسْقَهْ مِثْلُ مَرَّتي هَذِهِ، وَأَنَا مَيِّتٌ مِنْ يَوْمِي. فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَادْفُنِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، فَمَا أَحَدٌ أَوْلَى بِقُرْبِهِ مِنِّي، إلاَّ أَنْ تُمْنَعَ مِنْ ذَلِكَ، فَلا تَسْفِكْ فِيهِ مِحْجَمَةَ دَمٍ!**»[5].

وقال ابن عبد البرِّ: دخل الحسينُ على الحسن، فقال: «**يَا أَخِي إِنِّي سُقِيتُ السُّمَّ**

⇨

للشّيخ الطّوسي.

(١) لا يحضرني الكتاب ولا اسم مؤلِّفه.

(٢) هذه العبارة غير موجودة في ما بين أيدينا من الطّبقات، سواء المطبوع منه والّذي حذفت منه ترجمة الإمام الحسن عليه السلام كاملةً، أو المحقَّق منه في ترجمة مولانا الزّكي عليه السلام بجهود المحقِّق السيّد عبد العزيز الطباطبائي رحمه الله، إلاّ أنَّ الشّواهد على وقوع التّحريف فيه قائمة، فها هو سبط ابن الجوزي المتوفَّى سنةَ ٦٥٤ هـ ، يقول في تذكرته / ٢١١: «وقال ابنُ سعدٍ في الطَّبقات: سَمَّه معاويةُ مِرَاراً، لأنَّه كان يَقْدِم عليه الشّام هو وأخوه الحسين.» الغدير ١١/ ١٠. ولا وجود لهذه العبارة الآن في نسخة الطَّبقات.

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦/ ١٠.

(٤) (ج ٦ ص ٥) طبع باريس. [٣/ ١٧٣] (المؤلِّف رحمه الله)

(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٢٥.

ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَلَمْ أُسْقَ مِثْلَ هَذِهِ المَرَّةِ. إنِّي لأَضَعُ كَبِدِي». فقال الحسين: «**مَنْ سَقَاكَ يَا أخِي؟**» قال: «**مَا سُؤالُكَ عَنْ هَذَا؟ أتُرِيدُ أنْ تُقَاتِلَهُمْ؟ كِلْهُمْ إلَى الله**»[1].

وقال الطَّبَرِيُّ في دلائل الإمامة[2]: «وكان سبب وفاته أنّ معاوية سمَّه سبعين مرَّةً فلم يعمل فيه السَّم، فأرسل إلى امرأته جَعْدَةَ بنتِ محمَّد (كذا) بنِ الأشعث بن قيسٍ الكِنديّ وبذل لها عشرين ألف دينار وإقطاع عشر ضياع من شِعب السّواد، سواد الكوفة، وضمن لها أن يُزوِّجها يزيد ابنه. فَسَقَتِ الحَسَن السُّمَّ في بُرَادَةٍ من الذّهب في السَّويق المقنَّد».

وقال الله عزّ من قائل: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾[3].

---

(١) الإستيعاب ١/ ٣٩٠.

(٢) ٢ـ ص٦١. [لمحمَّد بن جرير الطَّبَري الشّيعيّ / ١٦٠] (المؤلِّف ﵀)

(٣) سورة محمّد ﷺ / ٢٢ـ٢٣.

خَاتِمَةٌ فِي المُوَازَنَةِ

بَيْنَ ظُرُوفِ الحَسَنِ وَظُرُوفِ الحُسَيْنِ

ورأى كثيرٌ من النّاس، أنّ الشَّمَم الهاشميّ[1] الّذي اعتاد أن يكون دائماً في الشَّواهق، كان أليق بموقف الحسين عليه السلام، منه بموقف الحسن عليه السلام.

وهذه هي النَّظرة البِدائية الّتي تَفقُد العمق ولا تستوعب الدِّقَّة.

فما كان الحسن في سائر مواقفه، إلاَّ الهاشميُّ الشَّامخ المجد، الّذي واكب في مَجَادَتِه مُثُلَ أبيه وأخيه مَعاً، فإذا هم جميعاً أمْثُولَة المُصلِحين المبدئيِّين في التَّاريخ. ولكُلٍّ ـ بعد ذلك ـ جهادُه، ورسالتُه، ومواقفُه الّتي يَسْتَمْلِيهَا من صميم ظروفه القائمة بين يديه، وكُلُّها الصُّور البِكر في الجهاد، وفي المجد، وفي الإنتصار للحقِّ المهتضم المغصوب.

وكان احتساء الموت ـ قَتْلاً ـ في ظرف الحسين، والإحتفاظ بالحياة ـ صُلْحَاً ـ في ظرف الحسن، بما مهَّدا به ـ عن طريق هاتين الوسيلتين ـ لِضَمَان حياة المبدأ، وللبرهنة على إدانة الخصوم، هو الحلُّ المنطقيُّ الّذي لا مَعْدَى عنه، لمشاكل كُلٍّ من الظَّرفين، وهو الوسيلة الفُضلى إلى الله تعالى، وإن لم يكن الوسيلةَ إلى الدّنيا. وهو الظَّفر الحقيقيُّ المتدرِّج مع التّاريخ وإن كان فيه الحِرمان حالاً، وخسارةُ السُّلطان ظاهراً.

وكانت التَّضحيتان: تضحيةُ الحسين بالنَّفس، وتضحيةُ الحسن بالسُّطان، هُمَا

---

(١) «الشَّمَمُ» الإرتفاعُ في كُلِّ شيء، وقال في لسان العرب ١٢/ ٣٢٧: إذا وَصَفَ الشَّاعِرُ فقال: «أَشَمُّ» فإنَّما يعني سَيِّداً ذا أَنَفَةٍ.

قُصَارى ما يسمو إليه الزُّعماءُ المبدئيُّون في مواقفهم الإنسانيَّة المجاهِدة.

وكانت عوامل الزَّمن الّتي صاحبت كُلاً من الحسن والحسين في زعامته، هي الّتي خَلقَت لكُلٍّ منهما ظَرفاً من أصدقائه، وظَرْفاً من أعدائه، لا يَشْبَه ظرف أخيه منهما، فكان من طبيعة اختلاف الظَّرفين اختلاف شكل الجهادين، واختلاف النِّهايتين أخيراً.

١ ـ ظُروفُهُما من أنصارهما:

ومَثَّلت خيانة الأصدقاء الكوفيين، بالنِّسبة إلى الحسين عليه السلام خُطْوَتَه الموفَّقة في سبيل التَّمهيد لنجاحه المطَّرد في التَّاريخ، ولكنّها كانت بالنسبة إلى أخيه الحسن عليه السلام ـ يوم مَسْكِن والمدائن ـ عَقَبَتَه الكَؤُود الّتي شَلَّت ميدانه عن تطبيق عَمليَّة الجهاد. ذلك لأنَّ حوادث نقض بيعة الحسين كانت قد سبقت تعبئته للحرب، فجاء جيشُه الصَّغير يوم وقف به للقتال، مَنخُولاً من كُلِّ شائبةٍ تُضيره كجيش إمامٍ له أهدافُه المُثْلَى.

أمَّا الجيش الّذي أخذ مواقعه من صفوف الحسن، ثم فرَّ ثُلُثَاه ونَفَرت به الدَّسائس المعادية، فإذا هو رهنُ الفوضى والإنتقاض والثَّورة، فذلك هو الجيش الّذي خسر به الحسنُ كُلَّ أملٍ من نجاح هذه الحرب.

ومن هنا ظهر أنَّ هؤلاء الأصدقاء الَّذين بايعوا الحسن وصحبوه إلى معسكراته كمجاهدين، ثمَّ نكثوا بيعتهم وفرُّوا إلى عَدوِّهم أو ثاروا بإمامهم، كانوا شرّاً من أولئك الَّذين نكثوا بيعة الحسين قبل أن يُواجِهُوه.

وهكذا مَهَّد الحسينُ لحربه ـ بعد أن نَخَلَت حوادث الخيانة أنصارَه ـ جَيْشَاً من أروع جيوش التَّاريخ إخلاصاً في غايته وتفادياً في طاعته وإن قَلَّ عَدَداً.

أمَّا الحسن فلم يعد بإمكانه أن يستبقي حتى من شيعته المخلصين أنصاراً يطمئنّ إلى جمعهم وتوجيه حركاتهم، لأنَّ الفوضى الّتى انتشرت عَدْوَاهَا في جنوده كانت قد

أفقدت الموقف قابليَّة الإستمرار على العمل، كما أشير إليه سابقاً.

وأيُّ فَرقٍ أعظم من هذا الفرق بين ظرفيهما من أنصارهما؟.

٢ ـ ظُروفُهُمَا من أعْدَائِهمَا:

وكان عَدوُّ الحسن هو معاوية، وعَدوُّ الحسين هو يزيد بن معاوية. وللفرق بين معاوية ويزيد ما طَفَح به التَّاريخ، من قصّة البَلادة السَّافرة في «الإبن». والنَّظرة البعيدة العُمق الّتي زعم النّاس لها الدَّهاء في «الأب».

وما كان لعداوة هذين العَدُوَّين ظرفها المرتجل مع الحسن والحسين، ولكنَّها الخصومة التّاريخيَّة الّتي أكَلَ عليها الدَّهر وشرب بين بني هاشم وبني أميَّة.

ولم تكن الأمَوِيَّة يوماً من الأيّام كُفْوَاً للهاشميّة[1]. وإنّما كانت عَدُوَّتها الّتي تخافها على سلطانها، وتُناوِئُها ـ دون هَوادَةٍ ـ. وكان هذا هو سرّ ذكرها بإزائها في أفواه النّاس وعلى أسْلاتِ[2] أقلام المؤرِّخين. وإلاَّ فأين سَورَةُ الهوى من مُثُلِ الكمال؟ وأين أنسابُ الخَنَا من المطهَّرين في الكتاب؟. وأين شهوة الغَلَب، وحُبُّ الإثْرَةِ، وألوان الفجُور، من شتيت المزايا في ملكات العقل، وسموِّ الأخلاق، وطهارة العُنْصُر، وآفاق العلوم الّتي تَعاوَنت على تغذية الفكر الإنسانيِّ في مختلف مناحي الثَّقافات العالية، فأضافت إلى ذخائره ثروةٍ لا تُطاوَل؟. أولئك هم بنو هاشم الطَّالعون بالنُّور.

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتبه إلى معاوية جواباً: «**لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا، ولَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا، فَنَكَحْنَا وأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الأَكْفَاءِ ولَسْتُمْ هُنَاكَ، وأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ ومِنَّا النَّبِيُّ ومِنْكُمُ المُكَذِّبُ، ومِنَّا أَسَدُ الله ومِنْكُمْ أَسَدُ الأَحْلَافِ، ومِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ومِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، ومِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ العَالَمِينَ ومِنْكُمْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وعَلَيْكُمْ**». [نهج البلاغة ٣/ ٣٢، الكتاب: ٢٨]

(٢) أي: أطْرَاف.

وإين هؤلاء من أولئك؟.

ولم يكُن من الإحتمال البعيد ما قَدَّره الحسن بن عليٍّ إحتمالاً قريباً، ـ فيما لو اشتبك مع عَدُوِّه التَّاريخي معاوية بن أبي سفيان بن حرب في حربٍ يائسة مثل هذه الحرب ـ أن تجرَّ الحرب بذيولها أكبر كارثة على الإسلام، وأن تُبيد بمكائدها آخرَ نَسمة تنبض بفكرة التشيُّع لأهل البيت عليهم السلام. ولمعاوية قابليَّاته الممتازة لتنفيذ هذه الخطة وتصفية الحساب الطَّويل في التَّاريخ، وهو هو في عدائه الصَّريح لعليٍّ ولأولاده ولشيعتهم.

وفيما مرَّ من الكلام على هذا الموضوع كفايةٌ عن الإعادة.

أمَّا الحسين فقد كُفِي مثل هذا الإحتمال حين كان خصمه الغلام المترف الَّذي لا يُحْسِن قيادة المشاكل، ولا تَعْبِئة التيَّارات، ولا حياكة الخطط، ثم هو لا يعنيه من الأمر إلاّ أن يكون الملك ذا الخزائن، حتى ولو واجهه الأخطل الشَّاعر بقوله ـ على رواية البيهقيّ[1] ـ:

«ودِيُنكَ حقّاً كَدينِ الحِمارِ بل أَنتَ أَكْفَرُ مـن هُرْمُـزِ»

وكفى الحسينَ هذا الإحتمال، بما ضَمِنه سيفُ الإرهاب الَّذي طارد الشِّيعة تحتَ كُلِّ حَجَرٍ ومَدَر في الكوفة وما إليها، والَّذي حفظ في غَيَابَات السُّجون والمَهَاجِر وكُهوف الجبال سَيلاً من السَّادة الَّذين كانوا يحملون مبادئ أهل البيت، وكانوا يُؤتمَنُون على إيصال هذه المبادئ إلى الأجيال بعدهم.

فرأى أن يمضي في تصميمه مُطمئِنّاً على خُطَّته وعلى أهدافه وعلى مستقبلهما من أعدائه.

---

(١) المحاسن والمساوئ / ٢٦١، وفي لسان العرب ٥/ ٣٨٥، تاج العروس للزّبيدي ٨/ ١٠٩.

أمّا الحسن فلم يكن له أن يَطْمئِنَّ على مخلّفاته المعنويّة طُمأنينةَ أخيه وفي أعدائه معاوية وثالوثِه المُخيفِ وخُططهم النَّاصبة الحَقُود الّتي لا حدَّ لفظاعتها في العداوة والحقد.

وأخيراً فقد أفاد الحسين من غَلَطَات معاوية في غاراته على بلاد الله الآمنة المطمئنَّة، وفي موقفه من شُروط صلح الحسن، وفي قتله الحسن بالسَّمِّ، وفي بيعته لابنه يزيد وفي أشياء كثيرة أخرى، بما زاد حركته في وجه الأمويَّة قُوَّة ومعنويَّةً وانطباقاً صريحاً على وجهة النَّظر الإسلامي في الرّأي العام.

وأفَاد ـ إلى ذلك ـ من مزالق الشَّاب المأخوذ بالقُرُود والخُمور «خليفة معاوية»، فكانت كُلّها عوامل تتصرَّف معه في تنفيذ أهدافه.

وكانت ظروفه من أعدائه وظروفه من أصدقائه تتفقان مَعَاً على تأييد حركته، وإنجاز مهمَّته، والأخذ به إلى النَّصر المجنح[1] الّذي فاز به في الله وفي التّاريخ.

أمّا الحسن فقد أعْيَتْهُ ـ كما بيَّنا سابقاً ـ ظروفه من أصدقائه فحالت بينه وبين الشَّهادة، وظروفه من أعدائه فحالت بينه وبين مُنَاجزتهم الحرب الّتي كان معناها الحُكْمُ على مبادئه «بالإعدام».

لذلك رأى لِزاماً أن يُطوِّر طريقة جهاده، وأن يفتتح ميدانُه من طريق الصُّلح.

وما كانت الألغام الّتي وضعها الحسن في الشُّروط الّتي أخذها على معاوية إلاَّ وسائله الدَّقيقة الّتي حكمت على معاوية وحزبه بالفشل الذَّريع في التَّاريخ.

ومن الصَّعب حَقّاً أن نميّز ـ بعد هذا ـ أيَّ الأخوين عليهما السلام كان أكبر أثَراً في جهاده، وأشدَّ نُفوذاً إلى أهدافه، وأبعدَ إمعاناً في النّكاية بأعدائه.

---

(١) «المُجَنَّحُ» هو الشّيء الّذي له جناحان. و«المُجْنَحُ»: المائل الخِلقة. ولعلَّه غلطٌ مطبعيٌ، والصَّواب: «المُنْجِحُ» من النَّجاح.

ولم يبقَ خفياً أنَّ تاريخ نكبات أميَّة بعد عمليَّة الحسن في الصُّلح كان مُتَّصلاً بالحسن، مَرهُوناً بخُطَطه، خاضعاً لتوجيهه. وأنّ حادثاً واحداً من أحداث تلك النَّكبات لم يكن ليقع كما وقع، لولا هذه العملية النَّاجحة الّتي كان من طبيعة ظروفها أن تستأثر بالنَّجاح، وكان من طبيعة خصومها أن يكونوا أعواناً على نجاحها من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

المصادر

* القرآن الكريم

[أ]

١) **الأئمة الإثناعشر سيرة وتأريخ**، للشّيخ محمّد حسن آل ياسين، طبـع ونشرـ دار الغدير، قم المقدّسة.

٢) **الإتحاف بحبِّ الأشراف**، لعبد اللهّ بن محمّد ابن عامر الشبراويّ الشافعيّ.

٣) **الإحتجاج**، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطّبرسي، تعليقات وملاحظات السيِّد محمَّد باقر الخرسان، طبع النّعمان، النَّجف الأشرف.

٤) **الأحاديث المختارة**، لمحمد بن عبد الواحد، ضياء الدِّين المقدسي الحنبليّ.

٥) **إحياء علوم الدّين**، لأبي حامد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٦) **الأخبارُ الطوال**، لأبي حنيفة أحمد بن داوود الدِّينَوَرِيّ، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة الدّكتور جمال الدّين الشيال، دار إحياء الكتب العربي ومنشورات شريف الرّضي.

٧) **الإختصاص**، لأبي عبد الله محمد بن النّعمان العكبري البغدادي، الشّيخ المفيد، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرِّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة.

٨) **إختيار معرفة الرِّجال، (رجال الكشّي)**، لأبي جعفر محمَّد بن الحسن الطُّوسي، تصحيح وتعليق ميرداماد الإستراباديّ، تحقيق السيِّد مهدي الرّجائي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

٩) **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**، لأبي عبد الله محمد بن محمّد بن النّعمان العكبري البغدادي، الشّيخ المفيد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التّراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٠) **الإستبصار فيما اختلف من الأخبار**، لشيخ الطّائفة أبي جعفر محمَّد بن الحسن الطّوسي، تحقيق وتعليق السيِّد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الاسلاميّة.

١١) **الإستذكار**، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، ابن عبد البرّ، تحقيق سالم محمَّد عطا، محمَّد علي معوض، الطَّبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢) **الإستيعاب في معرفة الأصحاب**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البرّ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت.

١٣) **الإسلام بين السُّنّة والشِّيعة**، لهاشم دفتردار ورفيقيه.

١٤) **الإصابة في تمييز الصحابة**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥) **أصول التَّاريخ والأدب**، لمصطفى جواد، مخطوط.

١٦) **الأعلام**، لخير الدِّين الزّركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

١٧) **إعلام الورى بأعلام الهدى**، لأبي عليّ الفضل بن الحسن الطَّبرسي، تحقيق مؤسَّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التُّراث.

١٨) **أعيان الشيعة**، للسيِّد محسن الأمين، تحقيق وإخراج حسن الأمين، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت.

١٩) **الغارات**، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثّقفي الكوفي، تحقيق السيِّد جلال الدّين المحدِّث، طُبع أوفست في مطابع بهمن.

٢٠) **الأغاني**، لأبي الفرج الأصفهاني، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت.

٢١) **إيضاح الإشتباه**، لأبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر الأسدي، العلامة الحلّي، تحقيق الشّيخ محمّد الحسون، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٢) **الأمالي**، لأبي عبد الله محمَّد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الشيخ المفيد، تحقيق الحسين أستاد ولي وعلي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدَّسة.

٢٣) **الأمالي**، لأبي جعفر محمَّد بن الحسن الطُّوسي، تحقيق قسم الدِّراسات الإسلاميّة، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الثّقافة.

٢٤) **الأمالي**، لأبي جعفر محمَّد بن علي بن الحسين ابن موسى بن بابويه القمي، الشَّيخ الصّدوق، تحقيق قسم الدّراسات الإسلاميّة، مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، قم.

٢٥) **الأمالي**، لأبي القاسم عليّ بن الطّاهر أبي أحمد الحسين، السيِّد المرتضى، تحقيق وتصحيح وتعليق السيِّد محمَّد بدر الدِّين النعساني الحلبي، الطبعة الأولى، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النّجفي.

٢٦) **إمتاع الأسماع بما للنّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، لأحمد بن علي بن عبد القادر بن محمَّد المقريزي، تحقيق وتعليق محمَّد عبد الحميد النّميسي، منشورات محمَّد علي بيضون، الطّبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت.

٢٧) **أنساب الأشراف**، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق الدّكتور سهيل زكّار والدّكتور رياض زركليّ، دار الفكر، بيروت.

٢٨) **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف**، لوليّ الله الدّهلويّ.

٢٩) **الأنوار البهيّة في تواريخ الحجج الإلهيّة**، للشَّيخ عبَّاس القمِّي، مؤسَّسة النشر الإسلامي، التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة.

[ب]

٣٠) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، للشَّيخ محمَّد باقر المجلسيّ، مؤسسة الوفاء، بيروت.

٣١) **البحر الرّائق**، لزين الدِّين بن إبراهيم بن محمَّد، ابن نجيم المصري، تحقيق الشيخ زكريا عميرات، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢) **البداية والنهاية**، لإسماعيل بن كثير الدّمشقي، تحقيق وتدقيق علي شيري، دار إحياء التُّراث العربيّ، بيروت.

٣٣) **بصائر الدَّرجات الكبرى**، لأبي جعفر محمّد بن الحسن بن فرّوخ الصفّار، تعليق وتصحيح ميرزا محسن كوچه باغي، مؤسسة الأعلمي، طهران، طُبِعَ في مطبعة الأحمدي، طهران.

٣٤) **بلاغات النِّساء**، لأبي الفضل بن أبي طاهر، ابن طيفور، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

[ت]

٣٥) **تاج العروس من جواهر القاموس**، لأبي فيض محمّد مرتضى الحسيني

الواسطي الزبيدي الحنفي، تحقيق علي شيري، دار الفكر للطِّباعة والنشر والتوزيع.

٣٦) **تاريخ ابن خلدون**، لعبد الرَّحمن بن محمَّد بن خلدون الحضرميّ المغربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧) **تاريخ اليعقوبي**، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح، اليعقوبي، دار صادر بيروت، نشر مؤسسة نشر فرهنگ أهل بيت عليهم السلام، قم.

٣٨) **تاريخ الطبري**، لأبى جعفر محمَّد بن جرير الطّبري، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٣٩) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، لمحمَّد بن أحمد بن عثمان، الذَّهبي، تحقيق الدّكتور عمر عبد السَّلام تدمري، دار الكتاب العربيّ.

٤٠) **تاريخ الخلفاء**، لجلال الدِّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السُّيوطيّ، تحقيق لجنة من الأدباء، دار التعاون، مكّة المكرّمة.

٤١) **تاريخ الكوفة**، للسيِّد حسين ابن السيد أحمد البراقي النجفي، استدراك السيِّد محمد صادق آل بحر العلوم، تحقيق ماجد بن أحمد العطية، انتشارات المكتبة الحيدريّة.

٤٢) **تاريخ المدينة المنوّرة (أخبار المدينة النبويّة)**، لأبي زيد عمر بن شبه النميري البصري، تحقيق فهيم محمد شلتوت، منشورات دار الفكر، بيروت.

٤٣) **تاريخ الإسلام السِّياسيّ**، للدّكتور حسن إبراهيم حسن.

٤٤) **تاريخ مدينة دمشق**، لأبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشّافعي، ابن عساكر، تحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٤٥) **التاريخ الكبير**، لأبى عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري، المكتبة الإسلامية، تركيا.

٤٦) **تاريخ بغداد**، لأبي بكر أحمد بن علي، الخطيب البغداديّ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٧) **تجارب الأمم**، لأبي عليّ مسكويه الرّازي، تحقيق أبو القاسم امامي، نشر دار سروش للطباعة والنّشر، طهران.

٤٨) **تخريج الأحاديث للزيلعي**، لجمال الدين الزيلعي، تحقيق عبد الله بن عبد الرَّحمن السَّعد، نشر دار ابن خزيمة.

٤٩) **تذكرة الحفاظ**، لمحمَّد بن أحمد بن عثمان، الذَّهبي، دار احياء التراث العربي.

٥٠) **التَّشريف بالمنن في التعريف بالفتن (المعروف بالملاحم والفتن)**، لرضيّ الدّين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس، نشر مؤسسة صاحب الأمر.

٥١) **تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة**، لأبى الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربيّ، بيروت.

٥٢) **تفسير القمي**، لأبي الحسن عليّ بن إبراهيم القمّي، تصحيح السيِّد طيّب الموسويّ الجزائريّ، نشر مؤسسة دار الكتاب للطّباعة والنّشر.

٥٣) **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)**، لعبد الرّحمن بن محمَّد إبن إدريس الرّازي، إبن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيّب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٥٤) **تفسير القران العظيم (تفسير ابن كثير)** لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

٥٥) **التفسير الكبير (تفسير الرازي)**، لمحمَّد بن عمر بن حسين الرّازي.

٥٦) **تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل)**، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزَّمخشري الخوارزمي.

٥٧) **التَّمهيد في بيان التَّوحيد**، لأبي شكور محمَّد بن عبد السيِّد بن شعيب الكشّي السّالمي الحنفيّ.

٥٨) **التَّمهيد في أُصول الدِّين**، لأبي بكر الباقلاَّني.

٥٩) **التَّنبيه والرّد على أهل الاهواء والبدع**، لمحمَّد بن أحمد الملطي، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، نشر مكتبة مدبولي القاهرة.

٦٠) **تنزيه الأنبياء** عليهم السلام، لأبي القاسم علي بن الحسين الموسوي، الشَّريف المرتضى، الطّبعة الثانية، دار الأضواء، بيروت.

٦١) **تنزيه الشَّريعة المرفوعة عن الأخبار الشَّنيعة الموضوعة**، لأبي الحسن عليّ بن محمَّد بن عراق الكناني، تحقيق عبد الوهَّاب عبد اللّطيف، نشر مكتبة القاهرة، علي يوسف سليمان.

٦٢) **تنقيح التَّحقيق في أحاديث التَّعليق**، لشمس الدِّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، تحقيق مصطفى أبي الغيط عبد الحي عجيب، نشر دار الوطن، الرياض.

٦٣) **تهذيب الأحكام**، لأبي جعفر محمَّد بن الحسن الطُّوسي، تحقبق وتعليق السيِّد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٦٤) **تهذيب التهذيب**، لشهاب الدِّين أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت

٦٥) **تهذيب الكمال في أسماء الرِّجال**، لجمال الدّين أبى الحجاج يوسف المزي، تحقيق

الدّكتور بشّار عواد معروف، الطَّبعة الرّابعة، مؤسسة الرِّسالة، بيروت.

[ث]

٦٦) **الثِّقات**، لمحمَّد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، نشر مؤسسة الكتب الثقافية.

[ج]

٦٧) **جامع بيان العلم وفضله**، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، ابن عبد البرّ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٨) **الجرح والتعديل**، لأبى محمَّد عبد الرَّحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي الرازي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[ح]

٦٩) **الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة**، للشيخ يوسف البحراني، نشر مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٧٠) **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

٧١) **حياة الإمام الحسين بن علي** عليهما السلام، لباقر شريف القرشي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

٧٢) **حياة الحيوان الكبرى**، لكمال الدين دميري، الطبعة الثانية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

[خ]

٧٣) **الخرائج والجرائح**، لقطب الدّين الراوندي، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدّسة.

٧٤) **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لأبي بكر علي، ابن حجة الحموي، نشر دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت.

٧٥) **خطط الكوفة**، للمستشرق ماسنيون.

[د]

٧٦) **دائرة المعارف الإسلامية**، لفريد وجدي.

٧٧) **الدراية في تخريج أحاديث الهداية**، لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي ابن محمد بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الله هاشم اليماني المدني، نشر دار المعرفة، بيروت.

٧٨) **الدَّرجات الرّفيعة في طبقات الشِّيعة**، للسيِّد على خان المدني الشيرازي الحسيني، تقديم السيِّد محمد صادق بحر العلوم، منشورات مكتبة بصيرتي، قم المقدّسة.

٧٩) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السّيوطي، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٨٠) **الدُّر النّظيم**، للشَّيخ جمال الدين يوسف بن حاتم بن فوز بن مهند الشامي المشغري العاملي، نشر مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة.

[ذ]

٨١) **الذريعة إلى تصانيف الشّيعة**، للشّيخ آقا بزرگ الطّهراني، الطبعة الثالثة، دار

الأضواء، بيروت.

٨٢) **الذرية الطاهرة،** لأبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري الرازي الدولابي، تحقيق السيِّد محمد جواد الحسيني الجلالي، نشر مؤسسة النّشر الإسلامي التّابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٨٣) **ذكر أخبار إصبهان،** لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني، المطبعة بريل، ليدن المحروسة.

٨٤) **ذيل تاريخ بغداد،** لأبي عبد الله محمد بن محمود ابن الحسن بن هبة الله بن محاسن، ابن النجار البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٥) **ذوب النّضار في شرح الثّار،** للشّيخ جعفر بن محمد بن جعفر بن هبة الله، ابن نما الحلّي، نشر مؤسسة النّشر الإسلامي التّابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

[ر]

٨٦) **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار،** لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٨٧) **رجال الطّوسي،** لشيخ الطائفة أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، نشر مؤسسة النّشر الإسلامي التّابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة.

٨٨) **رجال النجاشي،** للشَّيخ الجليل أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العبّاس النّجاشي الأسدي الكوفي، تحقيق السيِّد موسى الشبيري الزنجاني، نشر مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرِّسين بقم المشرفة.

٨٩) **الرِّسالة،** لمحمَّد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد محمَّد شاكر، نشر المكتبة

العلمية، بيروت.

٩٠) **روضة الشهداء**، ملا حسين بن علي الكاشفي.

[ز]

٩١) **زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني**، ضبط وشرح الدكتور زكي مبارك، تحقيق وشرح محمد محي الدين عبد الحميد، نشر مكتبة المحتسب، عمان.

[س]

٩٢) **سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد**، لمحمَّد بن يوسف الصّالحي الشّامي، تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود والشّيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

٩٣) **السّراج الوهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، الصديق القنوجي.

٩٤) **سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار**، للمحدّث الشَّيخ عبَّاس القمّي، نشر دار الأسوة للطّباعة والنَّشر.

٩٥) **السَّقيفة وفدك**، لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري البصريّ البغدادي، تحقيق الشيخ محمَّد هادي الأميني، نشر شركة الكتبي للطّباعة والنّشر، بيروت.

٩٦) **سلسلة الأحاديث الصّحيحة**، لمحمَّد ناصر الدِّين الألبانيّ، نشر مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرِّياض.

٩٧) **سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة**، لمحمَّد ناصر الدِّين الألبانيّ، نشر مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، الرِّياض.

٩٨) **السُّنن الكبرى،** لأبي بكر أحمد بن الحسين بن عليّ، البيهقيّ، نشر دار الفكر.

٩٩) **السُّنن الكبرى،** لأبي عبد الرَّحمن أحمد بن شعيب، النسائي، تحقيق الدّكتور عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، الطَّبعة الأولى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٠) **سنن ابن ماجة،** لأبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني، ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

١٠١) **سنن الترمذي،** لأبي عيسى محمَّد بن عيسى بن سورة التّرمذي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثّانية، نشر دار الفكر للطّباعة والنّشر والتوزيع، بيروت.

١٠٢) **سنن الدارمي،** لأبي محمَّد عبد الله بن الرَّحمن بن الفضل بن بهرام، الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق.

١٠٣) **سنن الدارقطني،** لعليِّ بن عمر الدّارقطني، تحقيق مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٤) **السنة،** لأبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت.

١٠٥) **سير أعلام النُّبلاء،** لشمس الدِّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، إشراف وتخريج شعيب الأرنؤوط، تحقيق حسين الأسد، نشر مؤسّسة الرِّسالة، الطّبعة التّاسعة، بيروت.

١٠٦) **السِّيرة الحلبية،** لعليِّ بن برهان الدّين الحلبي الشّافعي، نشر دار المعرفة، بيروت.

[ش]

١٠٧) **شجرة طوبى**، للشّيخ الحائري، لمحمَّد مهدي الحائري، الطبعة الخامسة، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف.

١٠٨) **شرح نهج البلاغة**، لعبد الحميد بن أبي الحديد المعتزليّ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار احياء الكتب العربية.

١٠٩) **شرح إحقاق الحق**، للسيِّد شهاب الدِّين النجفي المرعشي، من منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدّسة.

١١٠) **الشُّورى في الإمامة**، للسيِّد علي الحسيني الميلاني، منشورات مركز الأبحاث العقائديّة.شرح النووي لصحيح مسلم، ليحيى بن شرف، النووي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

١١١) **شيخ المضيرة أبو هريرة**، محمود أبو رية، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

[ص]

١١٢) **الصّحاح**، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت.

١١٣) **صحيح البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول، نشر دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

١١٤) **صحيح مسلم**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النّيسابوري، دار الفكر، بيروت.

١١٥) **صحيح ابن حبان**، لأبي حاتم محمد بن حبان التّميمي البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطّبعة الثانية، نشر مؤسسة الرّسالة.

١١٦) **صحيح ابن خزيمة**، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي.

١١٧) **صلح الإمام الحسن عليه السلام أهدافه ونتائجه**، للسيِّد محمّد جواد فضل الله، نشر دار المثقَّف المسلم، قم المقدّسة.

١١٨) **الصّواعق المحرقة، في الردّ على أهل البدع والزّندقة**، لأحمد بن حجر الهيتمي المكّي، نشر دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، لبنان.

[ط]

١١٩) **الطَّبقات الكبرى**، لمحمّد بن سعد، نشر دار صادر، بيروت.

١٢٠) **الطَّبقات الكبرى لابن سعد (ترجمة الإمام الحسن عليه السلام)**، تحقيق السيّد عبد العزيز الطباطبائي رحمه الله، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٢١) **الطَّرائف في معرفة مذاهب الطوائف**، لأبي القاسم عليّ بن موسى ابن طاووس الحلّي، مطبعة الخيام، قم.

[ع]

١٢٢) **العتب الجميل على أهل الجرح والتعديل**، لمحمَّد بن عقيل العلوي، تحقيق صالح الورداني، نشر الهدف للإعلام والنّشر.

١٢٣) **العثمانيّة**، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السَّلام محمّد هارون، نشر دار الكتاب العربي بمصر.

١٢٤) **العِقد الفريد**، لأحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأندلسي، تحقيق محمّد مفيد قميحة، نشر مكتبة المعارف، الرّياض.

١٢٥) **علِّموا أولادكم محبّة آل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم**، للدكتور محمد عبده يماني، الطّبعة

الأولى، مؤسّسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٢٦) **علل الشّرائع**، لأبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف.

١٢٧) **عمدة الطالب**، لأحمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا بن عنبة، تحقيق وتصحيح محمد حسن آل الطالقاني، الطبعة الثانية، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف.

١٢٨) **عمدة القاري**، لمحمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٢٩) **عوائد الأيّام**، لأحمد بن محمّد مهدي النراقي، تحقيق مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، نشر مركز النَّشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

١٣٠) **عون المعبود في شرح سنن أبي داود**، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

[غ]

١٣١) **الغارات**، لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي، تحقيق السيد جلال الدين الأرموي المحدث.

١٣٢) **الغدير**، لعبد الحسين احمد الأميني النجفي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

١٣٣) **الغيبة**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطّوسي، تحقيق الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي احمد ناصح، مؤسسة المعارف الاسلامية، قم المقدسة.

[ف]

١٣٤) **الفايق في غريب الحديث**، لمحمود بن عمر الزّمخشري، نشر دار الكتب

العلمية، بيروت.

١٣٥) **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، نشر عالم الكتب.

١٣٦) **فتوح البلدان**، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

١٣٧) **فتوح مصر وأخبارها**، عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري القرشي المصري، تحقيق محمد الحجيري، نشر دار الفكر، بيروت.

١٣٨) **الفتوح**، لأبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق على شيري، نشر دار الأضواء.

١٣٩) **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، منشورات الشَّريف الرّضي، قم المقدّسة.

١٤٠) **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**، لعليّ بن محمّد بن أحمد المالكي المكي، تحقيق سامي الغريري، نشر دار الحديث للطباعة والنشر، قم المقدّسة. فهرست ابن النّديم.

١٤١) **فضائل الصحابة للنسائي**، لأحمد بن شعيب النسائي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤٢) **الفهرست**، لمحمَّد بن إسحاق النديم البغدادي، تحقيق رضا تجدد.

١٤٣) **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق احمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

[ق]

١٤٤) **قرب الإسناد**، لأبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري، تحقيق ونشر

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم المقدّسة.

١٤٥) **قوت القلوب في معاملة المحبوب**، لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، تحقيق وضبط وتصحيح باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

[ك]

١٤٦) **الكافي الشّريف**، لثقة الاسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٤٧) **الكامل في التاريخ**، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

١٤٨) **كتاب الحج (مستند العروة الوثقى)**، للفقيه السيِّد أبو القاسم الموسوي الخوئي، بقلم السيِّد رضا الخلخالي، منشورات مدرسة دار العلم.

١٤٩) **كتاب سليم بن قيس الهلالي**، تحقيق محمد باقر الأنصاري الزنجاني، نشر دليل ما.

١٥٠) **كتاب الفتن**، لأبي عبد الله نعيم بن حماد المروزي، تحقيق الدكتور سهيل زكار، نشر دار الفكر.

١٥١) **الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثّعلبيّ)**، تحقيق أبي محمَّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥٢) **كشف الغُمَّة في معرفة الأئمة**، لأبى الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، نشر دار الأضواء، بيروت.

١٥٣) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، ضبط وتفسير بكري حياني، تصحيح وفهرسة صفوة السقا، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٥٤) **كمال الدين وتمام النّعمة**، للشّيخ الصّدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٥٥) **الكنى والألقاب**، للشّيخ عباس القمّي، نشر مكتبة الصدر، طهران.

[ل]

١٥٦) **لسان الميزان**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٥٧) **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، نشر نشر أدب الحوزة، قم المقدّسة.

١٥٨) **اللَّهوف عَلَى قتلى الطُّفوف**، لعليٍّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحسيني، نشر أنوار الهدى، قم المقدّسة.

[م]

١٥٩) **مثير الأحزان**، للشَّيخ نجم الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلِّي، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

١٦٠) **المحاسن**، للشَّيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني المحدث، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران.

١٦١) **المحاسن والمساوئ**، لإبراهيم بن محمّد البيهقي، منشورات الشَّريف الرَّضيّ.

١٦٢) **المحلّى**، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، نشر دار الفكر.

١٦٣) **المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)**، لإسماعيل أبي الفدا، نشر دار المعرفة للطباعة والنّشر، بيروت.

١٦٤) **مراصد الإطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، لصفيّ الدِّين البغدادي.

١٦٥) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرّسول**عليهم السلام، للعلاّمة الشّيخ محمد باقر المجلسي، نشر دار الكتب الاسلامية.

١٦٦) **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي تحقيق يوسف أسعد داغر، منشورات دار الهجرة، قم المقدَّسة.

١٦٧) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لعلي بن أبي بكر الهيثمي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٨) **المجموع**، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، نشر دار الفكر.

١٦٩) **المستدرك على الصَّحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق يوسف عبد الرَّحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.

١٧٠) **المسترشد في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**عليه السلام، لمحمّد بن جرير بن رستم الطَّبري الإمامي، تحقيق الشَّيخ أحمد المحمودي، نشر مؤسسة الثقافة الاسلامية لكوشانبور.

١٧١) **مسند أحمد بن حنبل**، نشر دار صادر، بيروت.

١٧٢) **مسند أحمد بن حنبل**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، نشر مؤسسة الرّسالة.

١٧٣) **مسند أبي يعلى الموصلي**، لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، نشر دار المأمون للتراث، دمشق.

١٧٤) **المصباح (جُنَّة الأمان الواقية وجَنَّة الإيمان الباقية)**، للشّيخ تقيّ الدِّين إبراهيم بن علي الحسن بن محمد بن صالح العاملي الكفعمي، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

١٧٥) **مصنّف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**، لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان ابن أبي بسكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي، ضبط وتعليق سعيد اللحام، نشر دار الفكر.

١٧٦) **المصنف**، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي.

١٧٧) **مطالب السؤول في مناقب آل الرّسول صلى الله عليه وآله**، للشّيخ كمال الدِّين محمد بن طلحة الشّافعي، تحقيق ماجد ابن أحمد العطية.

١٧٨) **المعارف**، لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق ثروت عكاشة، نشر دار المعارف، مصر.

١٧٩) **معاني الأخبار**، للشَّيخ الصَّدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي تحقيق علي أكبر الغفاري نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرّفة.

١٨٠) **معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرّواة**، للفقيه السيِّد أبو القاسم الموسوي الخوئي.

١٨١) **المعجم الصغير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

١٨٢) **المعجم الأوسط**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق قسم التحقيق بدار الحرمين، نشر دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.

١٨٣) **المعجم الكبير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، نشر دار إحياء التراث العربي.

١٨٤) **معجم البلدان**، لياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٥) **المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**عليه السلام **وبيان أفضليته على جميع العالمين بعد الأنبياء والمرسلين**، لأبي جعفر الإسكافي محمد بن عبد الله المعتزلي، تحقيق الشّيخ محمد باقر المحمودي.

١٨٦) **المغني**، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، نشر دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت.

١٨٧) **مقاتل الطالبيين**، لأبي الفرج الأصفهاني، نشر مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم المقدّسة، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف الأشرف.

١٨٨) **مقدمة فتح الباري**، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٩) **مناقب آل أبي طالب**، لمشير الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن شهرآشوب ابن أبي نصر بن أبي حبيشي السروي المازندراني، نشر المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف.

١٩٠) **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي**، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلميّة، بيروت.

١٩١) **منهاج السّنة**، لابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، تحقيق محمّد رشاد سالم.

١٩٢) **المواقف**، لعضد الدِّين الإيجي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، نشر دار الجيل، بيروت.

١٩٣) **موسوعة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الكتاب والسنة والتاريخ**، لمحمَّد الرّيشهري، تحقيق مركز بحوث دار الحديث، نشر دار الحديث للطباعة والنشر.

١٩٤) **ميزان الإعتدال في نقد الرِّجال**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

[ن]

١٩٥) **نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس**، لعبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصّفوري الشافعي، نشر مكتبة القاهرة.

١٩٦) **النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية**، للسيّد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي، نشر دار الثقافة للطباعة والنشر، قم المقدّسة.

١٩٧) **نصب الرّاية**، لأبي محمّد عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق أيمن صالح شعبان، نشر دار الحديث، القاهرة.

١٩٨) **نظم درر السّمطين في فضائل المصطفى والمرتضى والبتول والسِّبطين**، لمحمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي الحنفي المدني.

١٩٩) **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**، لمحمد بن علي ابن محمد الشوكاني، دار الجيل، بيروت.

٢٠٠) **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لابن الأثير المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الشافعي، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشر مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع،

قم المقدّسة.

٢٠١) **نهج البلاغة**، للشَّريف أبي الحسن محمد الرّضي بن الحسن الموسوي، شرح الشّيخ محمد عبده، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

[و]

٢٠٢) **الوافي بالوفيّات**، خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت.

٢٠٣) **وسائل الشّيعة**، للمحدّث الشّيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٢٠٤) **وضوء النبي** صلى الله عليه وآله، للسيِّد علي الشهرستاني، نشر المؤلِّف، المطبعة ستارة، قم.

٢٠٥) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، لأحمد بن محمد بن خلكان، دار الثقافة، بيروت.

٢٠٦) **وقعة صفين**، لنصر بن مزاحم المنقري، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، نشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

[هـ]

٢٠٧) **الهداية الكبرى**، لأبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، نشر مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

[ي]

٢٠٨) **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، نشر دار الكتب العلمية،

بيروت.

٢٠٩) **ينابيع المودة لذوي القربى**، لسليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق السيِّد علي جمال أشرف الحسيني، نشر دار الأسوة للطباعة والنشر.

تمّت

فهرس

القسم الأوّل

القسم الثاني (ثلاثة عشر فصلاً)

القسم الثالث (تسع فصول)

الصُّلْحُ